الله والعقل

تأليف

محمد جواد مغنية

الانسان روح لا جسد

كيف آمنت

ابواب الرحمة

السعادة

نار جهنم

النبوه والعقل

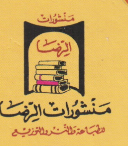
الآخرة والعقل

من خلق الله

صفات الرسول

في وجود الله
وخلود الروح

عقليات اسلامية



دار التيار الجديد

الله والعقل

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م



الله والعقل

تأليف

محمد جواد مغنية



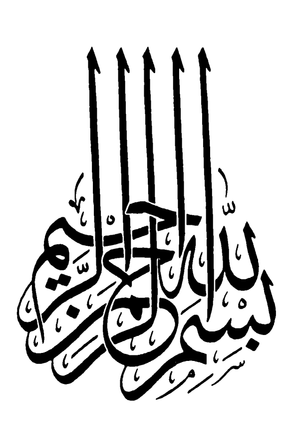


عقليات اسلامية



دار التيار الجديد




بسم الله الرحمن الرحيم

فَهْرِس المَوضُوعَات

اللهُ وَالعَقْل

شُبهَات المُلحِدِين وَالإِجَابَة عَنْهَا

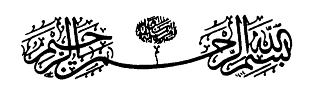
النُّبوّة وَالعَقل

الآخِرَةُ وَ ٱلعَقْل

بَيْنَ الله وَالإِنْسَان

القِسم الأَوَّل:
فِي وجُود الله، وَخُلُود الرُّوح

القِسْم الثَّاني:
مَبَادِيء عَامّة، وَمُقْتَطفَات مِن الصَّحِيفَة السَّجَّاديّة



المقدمة

أَحْمد الله سُبحَانَه ، وَأَستَعِين بهِ ، وَأُصَلّي عَلىٰ النَّبيّ المُختَار وَآله الأَطهَار .

وَبَعْد :

فَقَد جَاء فِي الحَدِيث الشَّرِيف عَن الرَّسُول الأَعْظَم ﷺ : « أَصْل دِيْني الْعَقْل » .
وَدِين مُحَمّد[1] يَقوم عَلىٰ دَعَائِم ثَلاَثَة : « الْإِيمَان بالله ، وَالنُّبَوة ، وَاليَـوم الْآخـر ،
وَتَتفَرع الْإِمَامَة عَن النُّبوَّة ، لأَنّها رِيَاسَة عَامّة فِي أُمُور الدِّين وَالدُّنيَا عَن النَّـبيّ ،
وَالمَهدي المُنْتَظر قِسم مِن الإِمَامَة ، لأَنّه الْإِمَام الَّذي يَأتي فِي آخر الزَّمَان .

وَوَضعتُ سِلسلَة أَعرض فِيهَا الدَّلِيل العَقلي عَلىٰ أُصُول الْإِسلاَم ، وَدعَـائِمه الأُولىٰ جَنْباً إِلىٰ جَنْب مَع الْإِحسَاس القَلْبي فِي عِبَارَة سَهلَة وَاضحَة مُكتَفيَاً مِن المَوضُوع بمَعَالمِهِ الرَّئِيسيَّة مُجتَنبَاً كُلّ مَا يَعُوق الفَهْم ، وَيَأبَاه العَقْل . . . وَجَـاءَت السّلسلَة فِي خَمْس حَلقَات : (الله وَالعَقْل ، النُّبوَّة وَالعَقْل ، الْآخرَة وَالعَقْل ، إِمَامَة

---

(١) أُنظر ، مُستَدرك الوَسَائِل : ١١ / ١٧٣ ح ٨ ، عوَالِـي اللآلي : ٤ / ١٢٥ ح ١ ، الشّـفا بِـتَعرِيف حـقُوق المُصْطَفىٰ : ١ / ١٤٦ .

عَليّ وَالعَقْل[1]، وَالمَهدي المُنْتَظر وَالعَقْل[2]).

وَقَد وَفقتُ، بحَمد الله، إلىٰ مَا قَصَدت إلَيه مِن تَقويَة الرُّوح الدِّينيَّة وَتَثبيتهَا بِالمَنْهَج العَقلي فِي نفُوس كَثير مِن الشَّبَاب، وَحَقَّقَت السِّلسلَة نَجَاحاً كَبيراً. فَطُبع بَعضهَا أَرْبَع مَرّات، وَبَعْضهَا الآخر ثَلاَثاً... وَبَعد أَنْ نَفدَت النُّسخ مِن جَمِيع الطَّبعَات، رَأينَا أَنْ نَجمَع الحَلقَات الخَمْس، وَنخرجهَا فِي كتَاب وَاحد بِاسم «الإِسلاَم وَالعَقْل» تَسهِيلاً عَلىٰ الرَّاغبين، وَمُسَاهمَة فِي نَشر الثَّقَافَة الدِّينيَّة، وَالفَلْسَفَة الإِسْلاَمِيَّة... وَالله وَلي التَّوفِيق.

(١) لَقَد طُبِعَ كِتَاب «إمَامَة عَليّ بَيْنَ العَقْل وَالقرْآن» بشَكلٍ مُستَقلٍ لِيَكُونَ فِي مُتنَاول كُلّ طَالب وَرَاغب فِي مُؤسّسَة دَار الكِتَاب الإِسْلاَمي.

(٢) لَقَد طُبعَ فَصْل كِتَاب «المَهدي المُنْتَظر وَالعَقْل» فِي الجُزء الأَوَّل فِي مُؤسّسَة دَار الكِتَاب الإِسْلاَمي.



اللهُ وَالعَقْل

هَذِه الصَّفحَات

بِسْم الله ، وَالحَمد الله وَالصَّلاَة عَلىٰ صَفيِّه المُرسَل وَجَمِيع الأَنبيَاء وَالصُّلحَاء .

وَبَعد ، فَقَد اتّصلتُ بكُتب الدِّين ، وَأنَا فِي سِن الخَامسَة ، وَأوّل مَا حَفَظتُ مِنْهَا سُورَة الفَاتِحَة .

أمّا صِلَتي بكُتُب التَّشرِيع وَالعَقَائِد فَقَد مَرّ عَلَيهَا أَربعُون عَامَاً أَو تَزِيد قَلِيلاً وَمَا زِلتُ أُرَاجع هَذِه المَوضُوعَات ، وَأُتَابع مَا يَقَع فِي يَدي مِن كتَابٍ أَو مَقَالٍ جَدِيد يَتّصل بِهَا مِن قَرِيبٍ أَو بَعِيدٍ ، أَبْحَث وَأُنَقّب عَن فِكرَة أَو كَلمَة تُشعر بتَعزيز الدِّين وَدَعمَه ، وَقَد ظَهَر أَثَر ذَلِكَ فِيمَا كَتَبتهُ رَداً عَلىٰ المُلحِدِين وَالطَّاعنِين فِي الإِسلاَم ، وَمَبَادئه وَتَعالِيمه ، وَجَمَعتُ الكَثِير مِن هَذهِ الرّدُود فِي كتَاب « مَع الشِّيعَة » و « أَهل البَيْت » و « الإِسلاَم مَع الحَيَاة » .

مَن تَتَبع مَا كَتَبتُ وَنَشرتُ فِي مَبَاحث الدِّين ، وَمَا يَتّصل بِهِ يَجد أَنّي أُحَارب عَلىٰ جَبْهَتَين : أُكَافح التَّعصب وَالجمُود فِي بَعْض الأَفرَاد مِن المُتدَينِين ، وَأُكَافح الإِبَاحِيِّين الذِّين يُثِيرُون الشُّبهَات وَالشّكُوك حَول عَقِيدَه الإِسلاَم وَشَرِيعَته وَتَعالِيمَه . أَقف وَسَطاً بَيْن الاِثْنَين رَاغباً إِلَيهمَا العَدْل وَالتَّوَازن ، أَدعُو المُؤمِن المُتَدَين أَنْ يُلاَئِم بَيْن إِيمَانه وَأَهدَاف الحَيَاة ، وَأَدعُو الإِبَاحي أَنْ يُؤمن وَيَدين بمَا يَفرضَه العَقْل وَالوَاقع ، وَلاَ يَسِير وَرَاء الأَهوَاء وَالأَحلاَم . لَقَد أَهمَل هَذَا الدِّين

وَتجَاهَله، فوَقَفتُ مِنهُ مَوقف المُرشد المُدَافع، وَخَاطَبْته برفق وَلين أَستَدرجَه وَأَستَميلَه. وَنَظر ذَاك إلىٰ نَاحيَة وَاحدَة مِن الدِّين، وَأَشَاح ببَصرَه عَن غَيرهَا، وَأَبىٰ إلاَّ التَّعصب لتَقَاليد سَيئَات لَيْسَت مِن الدِّين فِي شَيء، فَهَاجَمتَه وَقَسوتُ، لأَنَّ التَّعصب يَحْجب الحَقّ عَن الأَبْصَار، وَيُلقي ستَارَاً كَثِيفاً بَيْنَه وَبَيْن مَن يَنْشدَه.

وَخَلق لِي هَذَا المَوقف المُحَايد بَيْن الفَرِيقَين أَعدَاء مِن كُلٍّ مِنْهُما، وَقَالُوا مَا شَاء لهُم الهَوىٰ وَالجَهل، فَأَنْصَرَفتُ عَن لَغوهُم، وَأَقبَلتُ عَلىٰ العَمْل مُنْقَطعَاً إلَيه مُتَّعظَاً بحِكمَة الإمَام عَليّ عليه السلام: «العِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ، فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ، وَ الْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ٱرْتَحَلَ عَنْهُ»[1]. وَقَولَه عليه السلام: «لَيس بعَاقِل مَن ٱنْزَعَج بقَول الزُّور فِيهِ، وَلاَ بحَكِيم مَن رَضي بثَنَاء الجَاهل عَلَيه»[2]. وَصَدَق الرَّسُول الأَعْظَم حَيْث قَالَ: «ٱعْمَلُوا كُلّ مُيَسّر لمَا خُلقَ لَهُ»[3].

إنِّي أَتَعصب للجَوهَر، وَأَتسَامح فِي العَرض، وَأَجمَع بَيْن قَولَه سُبحَانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[4]. وَقَولَه تَعَالىٰ: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا

(١) أنظر، نَهج البَلاغَة: الحِكْمَة (٣٦٥).

(٢) أنظر، الكَافِي: ١/ ٥٨ ح ١٤، تُحَف العُقُول: ٢٠٨.

(٣) أنظر، صَحِيح البُخَاري: ٦/ ٨٦، صَحِيح مُسْلِم: ٨/ ٤٧، صَحِيح ٱبن مَاجَه: ١/ ٣٠، صَحِيح التِّرمذي: ٩/ ٢٢١٩، مُسْنَد أَحمَد: ١/ ٦ و ٨٢، سُنن أَبي دَاود: ٢/ ٤١٥.

(٤) ٱلحَجّ: ٧٨.

شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾[١]. وَقولَه تَعَالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[٢].

قَالَ لِي بَعْض الطَّيبين مِن الأَصدقَاء[٣]: مَا بَالَك تجمُد فِي مَورد وَاقفاً عِند النَّص الحَرفِي، وَتنطَلق مَع رُوح النَّص فِي مَوردٍ آخر؟ فَإمّا أَنْ تبقىٰ سَائِراً، وَإمّا أَنْ تَظل وَاقفاً.

قُلتُ: لَو تُرك لِي الخيَار لفَعَلتُ، وَلَكنّني عَبدٌ مَأمُور، أَقف حَيْث يَنهَاني الدِّين عِن المَسِير، وَيَسدّ فِي وَجْهي جَمِيع المَنَافذ، وَأَسِير حَيْث أَجد طَرِيقَة رَحباً فَسِيحاً[٤].

وَالآن، وَفِي هَذَا الكتَاب قَد أَخَذتُ علىٰ نَفْسي أَنْ أَتقيّد بحُكم العَقْل لاَ رَائِد

---

(١) ٱلأنعَام: ٧٠.

(٢) ٱلبَيِّنَة: ٥.

(٣) هُمَا الأَخ العَلاَّمَة الشَّيخ عَبدالله نِعمَة، وَالأَخ المُجَاهد صَاحب العِرفَان الشَّيخ عَارف الزَّين. (مِنهُ ﷺ).

(٤) مِثَال الجمُود علىٰ النَّص مَا جَاء فِي الحَدِيث أَنَّ المُسَافر إذَا قَطَع ثَمَانيَة فَرَاسخ يَقْصر وَيَفطر، يَعم هَذَا الحُكم كُلّ مُسَافر، سوَاء أَسَافَر طَائرَاً أَو مَشياً عَلىٰ الأَقدَام، وَسوَاء أَكَان فِي سَفرَه حَرَج أَم فَرج، لأَنَّ الشَّارع أَطلَق وَلَم يُقَيّد الحُكم، وَلَو أَرَاد القَصر وَالإفطَار فِي حَال دُون حَال لَبيَّن، وَحَيث لَمْ يُبَيّن تَحتّم الشّمُول جَمِيع الحَالاَت. أَمّا مِثَال التَّجَاوز إِلىٰ رُوح النَّص فكَالأَحَادِيث الوَاردَة فِي بَذل المَاء وَفَضلَه، وَأَنَّ مَن سَقىٰ ظَمآناً فَلَهُ مِن الأَجر مَا يَفُوق الحَصر. فَإِنَّ مَورد هَذِه الأَحَادِيث حَيْث يَعز المَاء وَيَندُر، كمَا هِي الحَال فِي عَهْد الرَّسُول الأَعْظَم، وَبنوع خَاصّ فِي الصَّحرَاء إِذْ يَكُون المَاء أَندَر مِن الكِبرِيت الأَحمَر. أَمّا فِي البِلاَد الّتِي يَكُون فِيهَا كَالتُّرَاب وَالهَوَاء فَلاَ ثَوَاب إلاّ بمقدَار مَا يَعُود النَّفع وَسَدّ الخلّة. (مِنهُ ﷺ).

لِي سِوَاه، فَأسمهُ «اللهُ وَالعَقْل» وَسَأُحَاول أَنْ لاَ أُحِيد قَيد شَعرَة عمّا يَدل عَلَيه اللّفظ، وَمَا أَحوجنَا اليَوم إِلىٰ مُعَالجَة هَذَا المَوضُوع الهَام حَيْث طَغىٰ تيّار الإِلحَاد عَلىٰ كُلّ شَيء وَتَفشىٰ رُوحه فِي كُل قُطر. فَهذَا شَاب مَصْري وَضَع كتَاباً أَسمَاه «اللهُ وَالإِنْسَان» يُنْكر فِيهِ وجُود الخَالق، وَيَقُول:

«اللهُ فِي العِلْم الحَدِيث مَعنَاه الطَّاقَة الخَام الَّتي فِي دَاخلنَا، وَالحَركَة الَّتي كَشَفهَا العِلْم فِي الذَّرَّة، وَالمَعبَد بَرلمَان حرّ وَمَدرسَة عَصريَة، وَالصَّلاَة هِي الطَّعَام الجَيد، وَالكِسَاء الجَيد، وَالمَسكَن الجَيد»[1].

وَمَصري آخر أَلّف كتَاباً دَعَاه «الدّين وَالضَّمِير»، وَهُو أَكبَر حَجماً وَأَكثر لُؤماً، رَأىٰ هَذَا المُؤلّف أَنْ لاَ سَبِيل إِلىٰ إِنْكَار الخَالق، فَاعتَرف بِهِ وَلَكن جَعلَهُ وجُودياً قَالَ:

«إِنَّ الله يُدخِل جَنّتَه الطّيب الرَّشِيد وَإِنْ لَمْ يُؤدّ صَلاَة وَاحدَة، وَلَم يَعْمَل حَسَنَة قَطّ. وَإِنْ زَنىٰ وَإِنْ سَرق. وَإِنَّ الدَّعوَة إِلىٰ الدّين تَستَطِيع أَنْ تَنْبت مِن الأَرْض، وَلَيْس لزَاماً أَنْ تَتّصل إِلىٰ السَّمَاء بوَحي وَلاَ سَبَب»[2].

وَقد رَددتُ عَلىٰ الأَوّل فِي صُحف بَيرُوت وَالقَاهِرَة، ثُمَّ أَدرَجتُ الرَّدّ فِي كتَاب «الإِسلاَم مَع الحَيَاة»، وَرَددتُ عَلىٰ الثَّاني فِي جَرِيدَة التّلغرَاف تَأرِيخ

(١) أنظر. كتَاب «اللهُ وَالإِنْسَان» لمُصطَفىٰ مَحمُود: ٢٤ و ١١١ الطَّبعَة الأُولىٰ سَنَة (١٩٥٧م). (مِنهُ ﷺ).

(٢) كتَاب «الدّين وَالضَّمِير» لمَحمُود الشّرقَاوي: ٤١ و ٨٥ و ٩٨ و ١٠٠ الطَّبعَة الأُولىٰ سَنَة (١٩٥٨م). وَنشرَت جَرِيدَة الجمهُوريّة فِي عَدَد: (٢ / كَانُون الثّاني / ١٩٥٩م) مَقَالاً للأُستَاذ عَبد المُنعم النّمر يَردّ فِيهِ عَلىٰ المُؤلّف وَقَد جَاء فِيه: «أَنّ الشّرقَاوي هَذَا عَالِم وَكَاتب مُجِيد اشتَغل بالصَّحَافَة مُدّة حَتّىٰ استقرَّ بِهِ المَطَاف بالأَزهَر». قَالَ كَاتب المقَال: «عَلمتُ أَنَّ وزَارَة الأَوقَاف قَد اشترَت مِن الكتَاب كَثِيراً، وَالمَفرُوض أَنّها لاَ تَشتَري كتَاباً وَتُشجعهُ، وَفِيهِ هَذِه المَآخذ الدّينيَّة الكَبِيرَة». (مِنهُ ﷺ).

(٦ / ٤ / ١٩٥٩ م) . وَسَأتعَرض لأَقوَاله مُفصلاً فِي كتَاب « النُّبوَّة وَالعَقْل » .

أَمّا البَاعث عَلىٰ وَضع هَذِه الصَّفحَات ، وَفِكرَة العَودَة إِلىٰ مُصْطَفىٰ مَحمُود فَحَدِيث جَرىٰ بَيْني وَبَين صَدِيق طَيّب ، قَالَ فِي مَجرىٰ الحَدِيث عَن كتَاب « الله وَالإِنْسَان » . أَمثَل هَذَا الكتَاب يَكْتَفي بـالرَّدّ عَـلَيه فِـي مَـقَال يُـقرَأ ثُـم يُـنسىٰ وَيُهمَل ؟ ! وَبَقيَت هَذِه الكَلمَة تَتردّد فِي نَفْسي ، حَتّىٰ لاَحَظتُ أَنَّ الكَثِير مِمَّن قَرَأ الرَّد لَمْ يَقرَأ الكتَا ، وَأَنَّ أَكثَر الَّذين قَرَأوا الكِـتَاب لَـمْ يَـصلهُم رَدّي عَـلَيه ، لأَنَّ مُصطَفىٰ مَحمُود نَشَر فصُول الكتَاب عَمّا وَرَاء الطَّبيعَة فِـي مَـقَالاَت مُـتَسلسلَة بمَجلّة « رَوز اليُوسف » الَّتي أَضلّت النَّاشئَة ، وَهِي ـ فِـي الغَـالب ـ لاَ تَـنْشر إِلاَّ لمُصطَفىٰ مَحمُود وَأَمثَاله مِن الَّذين يَروجُون للفَسَاد وَالإِلحَاد ، وَهَذَا القَول رَدّدَه أَمَامي أَكثَر مِن مَرّة عَدَد مِن المَصريِّين ، وَفِيهِم الأَجلاَء مِن شيُوخ الأَزهَر الَّذين أَغضبهُم سُلُوك هَذِه الصَّحِيفَة ، وَبالرَغم مِن مُصَادرَة الحكُـومَة المَـصريَّة هَـذَا الكتَاب فَقَد تَسَرّب الكَثِير مِن نُسَخهِ إِلىٰ مَصْر وَبَعْض البِلاَد العَربيَّة .

وَلمُصطَفىٰ مَحمُود مَكَانَة يُغبط عَلَيهَا بَيْن الشَّـبَاب وَالطُّـلاَب ، فَـقَد رَأَيـتهُم يُقبلُون عَلىٰ كَلمَاته فِي شَوق ، وَيَلتهمُونها فِي لهَفَة ، وَيَتحدثُون عَنْهَا بثِقَة وَإِيمَان كَأَنّها وَحي . أَمّا سرّ هَذَا الإِقبَال فَأُسلُوبه السَّاحر ، وَمَقدرَته الفَائِقَة عَلىٰ إِغـرَاء المُرَاهقِين وَالتَّلاَعب بعقُولِهم بأَلحَان لاَ شَيء وَرَاءهَا سِوىٰ أَنغَام لاَ تُعبّر عَن مَعنَىٰ سَلِيم .

لذَا رَأَيتُ مِن الأَفضَل أَنْ أَضع كتَاباً مُستَقلاً يَكُون فِي مُتنَاول الجَـمِيع ، وَقَـد تَعَرضتُ فِيهِ للقِسم الَّذي خَصّصه المُؤلّف للكَلاَم عَن الله سُبحَانه ، وَعَالَم مَا بَعد المَوت . وَهَدفِي الأَوّل أَنْ أُبيّن لمَن يَثق بِهِ وَبآرَائه أَنّه غَير جَدِير بهَذِهِ الثّقَة فِيمَا

يَخْتَص بمَا وَرَاء الطَّبيعَة ، لأنَّ فلسَفته فِي هَذَا المَوضُوع بالذَات وَهُم وَخـيَال لاَ تَقُوم عَلىٰ أَسَاس مِن الوَاقع .

وَنَحنُ رجَال الدِّين ، وَإِنْ حَزّ الأَلَم قُلُوبنَا مِن هَذَا التَّيَار الفَاسد المُـلحِد فَـإِنَّنا بحَمد الله نَملك مِن الحُجَج مَا نَذُود بِهِ عَن عَقِيدَتنا ، وَلاَ نَطلب مِمَّن يُلحد وَيُشَكك إلاَّ أَنْ يَستَمع لمَا نَقُول ، وَيَنظر فِيمَا نَستَدل بسَلاَمَة فِي العَقْل ، وَتَجرد عَن الهَوىٰ ، ثُمَّ نَدعمهُ إِلَىٰ إِحسَاسَه وَشُعورَه يَتّخذ مِنْهُ رَسُولاً أَمِيناً وَرَائِداً حَكِيماً .

أَمّا مَن يَتكلّم وَيُجَادل لاَ لشَيء إلاَّ للتَّلهي وَسدّ الفـرَاغ ، أَو إِظـهَار شَـخصَه وَفَهمَه ، كَأَكثَر الَّذين يَتَكلمُون فِي هَذَا المَوضُوع ـ أَمّا هَذَا فَـيَشق مَـعَه التَّـفَاهُم وَيَعسَر ، إِنْ لَم يَكُن مُحَالاً ، وَمِن هُنا اتّسعَت مَسَافَة الخِلاَف بَيْننَا وَبَيْن الكَثِيرِين مِن الشَّبَاب .

نَحنُ لاَ نُحرّم الكَلاَم عَلىٰ إِنْسَان ، وَلاَ نَفْرض عَلَيه أَقوَالنا فَرضَاً ، غَير أَنَّـنا لاَ نَحْتَرم مَن يَرسل نَفْسَه مَع الظّنّة وَالتُّهمَة ، وَيَجزم بـاللّمحَة وَالشُّـبهَة ، وَيـتجَاهل الحَقَائِق الَّتي آمَن بِهَا مَن خَلقُوا الحَضَارَات ، وَغَيرُوا وَجْه التَّأرِيخ ، وَأَخـرجُـوا الأُمَم مِن الظُّلمَات إِلىٰ النُّور .

نَحنُ لاَ نَفرض عَلىٰ أَحد الإِيمَان بآرَاء الأُلُوف مِن الأَنْبيَاء وَالعُلمَاء وَالفَلاَسفَة وَالمُصلحِين ، وَإِنَّما نَطلُب إِلَيه أَنْ يَقرَأ مَا قَالُوا ، وَمَا قِيل عَنْهُم قَبل أَنْ يَتهمهُم فِي عقُولِهِم وَعقَائدهِم ، وَهُم الَّذين عَلّموا الأَجيَال البَحْث وَالتَّفْكِير .

وَالله سُبحَانه المَسؤول أَنْ يَجعَل هَذِه الأَورَاق تَبصرَة للمُشَككِين ، وَقوّة فِي يَد المُؤمِنِين ، وَهُو يَعلم أَنّي تَقربتُ بهَا إِلَيه رَغبَة فِي مَرضَاته يَوْم أَلقَـاه أَنّـه غَـفُور رَحِيم .

سَبَب المَعْرِفَة

تَرتَسم فِي أَذهَاننَا صُور عَن أَشيَاء هَذِه الطَّبِيعَة مِن المَادّة الجَامدَة أَو الحَيّة، كَتَصورنَا بأَنَّ الأَرض كُرويَّة مُتَحركَة وَأَنَّ المَاء يُغَطي ثَلاَثَة أَربَاعهَا. وَتَرتَسم أَيضاً فِي أَذهَاننَا صُور عِن أَشيَاء غَير مَادّيَة، لاَ تَمت إلىٰ هَذِه الطَّبِيعَة بسَبَب، كَتَصورنَا وجُود قوّة تَكمُن وَرَاء هَذَا الكَون، وَهِي الَّتي تُدِيرَه وَتُدبرَه. وَقَد تَأتِي هَذِه الصُّور مِن الإِلهَام وَالتَّخيُل، أَو التَّقلِيد وَالمُحَاكَمَة وَالمُحَاكَاة، أَو النَّقل وَالسَّماع، أَو الإِستنتَاجَات العَقليَة، أَو التَّجربَة الشَّخصيَّة وَالمُشَاهدَة الحِسيَّة.

فَهَل هَذِه التَّصورَات بكَاملهَا عِلْم وَحقَائِق، أَو جَهْل وَأَوهَام، أَو أَنَّ بَعضهَا حَقّ، وَبَعضهَا الآخر بَاطل ؟.

الحَوَاس الخَمْس:

ذَهَب فَرِيق مِن الفَلاَسفَة إلىٰ أَنّ كُلّ صُورَة تَرتَسم فِي ذِهنَك لاَ تَكُون عِلمَاً صَحِيحاً وَمَعرفَة حَقّة إلاَّ إِذَا أَتَت عَن طَرِيق الحَوَاس الخَمْس: (البَصَر، وَالسَّمع، وَالشَّم، وَاللَّمس، وَالذَّوق)، فَمَا تَذُوقَه أَو تَلمَسه أَو تَشمهُ أَو تَسمَعه أَو تَرَاه تَحكِم بأَنّه مَوجُود وَحَقِيقَة وَاقعَة، وَمَا عَدَا ذَاك يَجب أَنْ تَقف مِنْهُ مَوقفاً سَلبيَاً.

وَلَكن الحوَاس كَثِيراً مَا تَخدعنَا، فَالنَّسِيج الَّذي تَشتَرِيه تَرَىٰ لَونَه فِي الدُّكَان

غير لونه فِي ضوء الشّمس وَالهوَاء الطّلق، وَهَذِه المنضَدَة تبدُو لَكَ مُستَديرَة، وَأَنْتَ قَرِيب مِنهَا، وَلاَ تبدُو كَذَلِكَ إِذَا ٱبْتَعدتَ عَنْهَا، وَهَذِه المَرأة جَمِيلَة فِي نَظَرك، قَبيحَة فِي نَظَر مَن تُنَافسهَا وَتُزَاحمهَا، وَهَذَا الطَّعَام تَستَطيبه، وَأَنتَ جَائع، وَلاَ تَستَطيبه وَأَنتَ شبعَان، وَكَذلك الحَال بالنِّسبَة إِلىٰ الرَّائحَة وَالسَّمع يَختَلفَان بإختلاَف الأَشخَاص، وَكَذلك بالنِّسبَة إِلىٰ الحَرَارَة وَالبُرُودَة: ضَع إحدَىٰ يَديك فِي مَاء حَار، وَالأُخرىٰ فِي مَاء بَارد، ثُمَّ ضَعهُما بَعد ذَلك، فِي مَاء فَاتر، فَيَبدُو هَذَا المَاء بَارداً بالنِّسبَة لإحدىٰ يَدَيك، وَحَارّاً بالنِّسبَة للأُخرىٰ. إِنَّ المَعَاني وَالحَقَائِق أَكثَر مِمَّا يُرىٰ وَيُسمع وَمِمَّا يُؤكَلّ وَيُشَم ويُلمس. فَكمَا نَعرف كَثِيراً مِن الأُمُور بوَاسطَة الحوَاس مَعرفَة مُبَاشرَة كَذَلك نَتوصّل إِلىٰ مَعرفَة أُمُور أُخرىٰ بصُورَة غَير مُبَاشرَة عَن طَريق الإِستنتَاج. قَالَ إِفلاَطُون: إِذَا كَانَت الحَقِيقَة لاَ تَثبت إِلاَّ بالحوَاس الظَّاهر فَيَجب أَنْ يَكُون القرد وَالفيلسُوف الحَكِيم سوَاء بسوَاء! لأَنَّهُما يَشتركَان فِي هَذِه الإِحسَاسَات.

المُلاَحظَة وَالتَّجربَة:

وَقَالَ آخرُون: أَنَّ أَسبَاب المَعرفَة وَالكَشف عَن الحَقِيقَة لاَ تَنحَصر بهَذِه الحوَاس الخَمْس، بَل تَشمل المُلاَحظَة وَالتَّجربَة، وَالمُرَاد بالمُلاَحظَة مُشَاهَدَة الأَشيَاء عَلىٰ مَا هِي عَلَيه فِي الطَّبيعَة، كمُلاَحظَة النّجُوم وَغَيرهَا مِن الأَجرَام السَّماويَّة دُون أَنْ تَمسهَا يَد التَّجربَة، أَمّا التَّجربَة فَهي مُشَاهدَة الأَشيَاء فِي ظرُوف خَاصّة يُهَيئهَا العَالِم، وَيَتصرَف بهَا حَسَب إِرَادَته، وَيُرَتبهَا بآلاَته العِلميَّة الدَّقِيقَة. وَكُلّ تَجربَة تَستَّتبع المُلاَحظَة، وَلاَ عَكس. وَعَلَيه فمَا يُمكن ٱستخدَام التَّجربَة

وَالمُلاَحظَة فِيهِ فَهُو مَوجُود ، وَمَا يَخرج عَن هَذِه الدَّائِرَة فَلاَ وجُود لهُ . وَهذَا القَول قَريب مِن سَابقهِ غَير أَنّه أَعَم وَأَوسَع ، لأَنّه يَشمل الأَشيَاء الَّتي لاَ تُرىٰ وَلاَ تُلمَس ، كَالأَلكترُون وَمكرُوب السَّرطَان وَمَا إِلَيه .

وَالنَّتِيجَة الحَتميَة لِهَذَا القَول أَنَّ الأُلوهيَة ، وَمَا يَتّصل بهَا مِن إِرسَال الرُّسل وَإِنزَال الكُتب وَالبَعث وَالنَّشر إِنْ هِي إِلاّ أَسمَاء لاَ تُعبّر عَن حَقِيقَة ، لأَن كُلّ مَا وَرَاء التَّجربَة وَالمُلاَحظَة لاَ وجُود لهُ ، وَإِنَّ الأَقيسَة المَنطقيَة وَالإِستنتَاجَات العَقليَة تَركِيب أَلفَاظ ، وصُور خَيَاليَة لاَ يَربطهَا بالوَاقع أَي رَابط .

وَيَردّ هَذَا القَول :

أَوّلاً : أَنَّ التَّجربَة تَختَص بحَادثَة جُزئيَة ، وَلاَ يُمكن أَنْ تَثبت بهَا قَاعدَة كلّيَة عَامّة ، هَذَا مُضَافاً إِلىٰ أَنَّها لَن تَكُون حَقِيقيَة مِئَة بالمِئَة ، فَقَد يَجزم العَالِم بحَقِيقَة مَا عَن طَريق التَّجربَة ، ثُمّ تَظهَر لهُ حَادثَة أُخرىٰ يُستَكشف مِنْهَا أَنَّ التَّجربَة الأُولىٰ كَانَت خَاطئَة وَغَير صَالحَة لتَفسِير مَا كَان يُفسّره بِهَا مِن الحَوَادث . فَهذَا إِينشتِين زَعَم : « أَنَّ أَقصَر الخطُوط هُو الخَطّ المُنحَني ، وَأَنَّ الضَّوء يَسِير عَلىٰ خَطّ مُستَقِيم ، ثُمّ اتّفق أَنْ رَصَد ثَانيَة بآلآت أَحدَث وَأَتقَن فَتَبيَّن لهُ أَنَّ أَقصَر الخُطُوط الخَطّ المُستَقِيم ، وَأَنَّ الضَّوء يَسِير عَلَيه لاَ عَلىٰ خَطّ مُنْحَني » .

ثَانِياً : لَيْس مِن شَكّ أَنَّ للتَّجربَة مزَايَا لاَ تُوجد فِي غَيرهَا ، وَأَنّه كَان لهَا وَمَا زَال الفَضل الأَوّل فِي تَقدّم العُلُوم ، وَلَكن لَيْس مَعْنىٰ هَذَا أَنَّ التَّجربَة هِي كُلّ المَعرفَة ، وَأَنَّ غَيرهَا لَيْس بشَيء لأَنَّ العَالِم لاَ يُمكنَه إِجرَاء تجَاربَه فِي جَمِيع المَوضُوعَات الَّتي تُعْرَض لهُ ، طَبِيعيَة كَانَت أَو غَير طَبِيعيَة ، فَقَد يُعتَمد عَلىٰ المُلاَحظَة وَحدهَا ، كمَا هِي الحَال فِي عِلم الفَلك ، وَعِلم الحَيَاة ، حَيْث لاَ يَستَطِيع الإِنسَان أَنْ يَجري

أيّة تجربة على حركات الأفلاك، كما أنّه لا يستطيع أنْ يخلق الحياة، أو يعيدها بعد الموت. لذا يُقتصر في علم الفلك وعلم الحياة على المشاهدة والملاحظة فقط، كما هي الحال في الأُمور العقليّة المجردة عن المادّة والعالم المحسوس، حيث لا مجال للتّجربة ولا للمشاهدة ولا أي شيء سوى العقل ومنطقه السّليم واستنتاجاته الصّحيحة، وإنّما تصح وتصدق هذه الإستنتاجات إذا كانت مقدّماتها صادقة لم يكذبها العيان والتّجربة ولا تستلزم شيئاً من المحالات العقليّة.

ولو أسقطنا العقل عن الإعتبار فهل يطبقى الإنسان على إنسانيته؟! وبماذا نميّزه عن الحيوانات والحشرات، ونعرف الصّحيح من الفاسد، والخير من الشّر، والجمال من القبح؟! بل وكيف نشاهد نجرّب، ثمّ ننفي أو نثبت صدق التّجربة إذا طرحنا العقل جانباً؟! وإذا تنازل غيرنا عن عقله فراراً من الإيمان بما وراء الطّبيعة فنحنُ غير مستعدين لمثل هذا التّنازل مهما كانت الحال، بل نعتمد على خبرة العقل تماماً كما نعتمد على خبرة التّجريب والمشاهدة، ولا نرى أي فرق بين الاثنين سوى أنّ خبرة التّجريب عمليّة تطبيقيّة، وخبرة الإستنتاج عمليّة عقليّة لا يمكن فيها التّطبيق الخارجي، أي أنّ كلّ واحدة منها تصدق في مجالها الخاصّ، فالتّصورات الّتي ترتسم في الذهن عن الطّبيعة تكون صادقة إذا كانت انعكاساً عن الوجود الخارجي الملموس، أمّا تصوراتنا عن ما وراء الطّبيعة فتصدق إذا أقرّها وأثبتها العقل. وإنّ موازين الحقيقة وشواهد المعرفة تختلف باختلاف أسبابها، فكما أنّنا لا نتعلم الإنجليزيّة بالعربيّة -مثلاً- كذلك لا نستدل على كذب غير المرئيات بعدم مطابقتها للمرئيات.

وَمرّة ثَانيَة نُكرّر القَول وَنُؤكدَه بأنّه لاَ مفرّ مِن تَـفسِيرَات العَـقْل وَالتـزَامَـاته بصِدق هَذِه الفِكرَة أو كذبَها . وَلاَ نَعرف قَولاً بَلَغ مِن العَبث وَاللّغو مَا بَلَغهُ القَـول بطَرح العَقْل وَعَدم الثّقة بِهِ ، وَمَا أبعَد مَا بَيْن هَذَا الرَّأي ، وَبَين رَأي مَـن قَـالَ بأَنّ المَوجُود هُو المدرَك بالعَقْل فَقَط ، وَكُلّ مَا لاَ يُدركَه العَقْل لاَ وجُودَ لَهُ .

وَبَعد أَنْ تَبيَّن مَعنَا أَنَّ مَا يَرجَع إِلىٰ مَا وَرَاء الطَّبيعَة هُو مِن شُؤون العَقْل وَحدَه يَتّجه هَذَا السُّؤال : هَل فِي أَدلّة العَقْل مَا يَلزَم بوجُوب الإِيمَان بالله ؟ وَفِي حَـالَة قيَام الدَّلِيل عَلىٰ ذَلك فَهل مُؤدّاه أَنَّ الإِيمَان بالله مَطلُوب لذَاته كغَايَة ، أو مَطلُوب كَوَسيلَة إلىٰ التَّرغِيب فِي الخَير ، وَالتَّخوِيف مِن الشَّر ، بحَيث لَو أَمكَن أَنْ يَكُون الإنسَان قَوِيم الأَخلاَق دُون هَذَا الإِيمَان لكَان فِي حِلّ مِنْهُ ؟ .

وَسَيجد القَارِيء الجوَاب مُفصّلاً عَن هَذَا التّسـاؤل فِـي الصَّـفحَات التَّـاليَة ، وَستُعطِيه صُورَة صَادقَة عَن أَنَّ رِجَال الدِّين ، وَكُلّ عَالم آمَن بالله لاَ يَعْتَمدُون فِي إِيمَانهِم عَلىٰ الورَاثَة وَالتَّلقِين ، بَل وَلاَ عَلىٰ الوَحي مُستقلاً عَن حُكم العَقْل ، إنّنا نُؤمن بالله كَعُقلاَء لاَ كَمُتَدينِين فَحَسب .

اسْأَلُوا أَهْلَ العِلْم

إِنَّ للكَون مَظَاهر شَتّىٰ لاَ يَجمَعهَا عِلْم وَاحد، لأَنَّهَا تَفُوق الحَصر عَدّاً بخَاصّة فِي هَذَا العَصر الَّذي تَشعبَت فِيهِ العُلُوم، وَمَا زَالَت تَتَّسع وَتَتنوع كُـلّمَا تَكشَـفَت حَقِيقَة مِن حَقَائِق الكَون، وَإِذَا أَحَاط أَرسطُو بعُلُوم زَمَانه كَافّة، فَيَستَحِيل عَلَيهِ لَو وَجد اليَوْم، وَعَلىٰ أَي عَبقَري سوَاه أَنْ يَجْمَع بَيْن عُلُومنَا كُلّها أَو جُلّها. لذَا ٱضْطر العُلمَاء إِلىٰ الإِقتصَار وَالإِختصَاص، وَٱنْقسم العِلم بَيْنَهُم، كمَا ٱنْقسم العَمَل بَـيْن التّاجر، وَالفَلاَّح، وَالعَامل. وَهَكذَا تَقسّم الكَون إِلىٰ منَاطق، وَٱكتَفَت كُلّ طَائِفَة مِن البَاحثِين بمَنطَقَة وَاحدَة، كالأَفلاَك، أَو الأَشكَال الهَـندسيَّة، أَو الإِنسَـان أَو الحَيوَان أَو النَّبَات، وَغير ذَلِكَ.

وَهَذِه العُلُوم، وَإِنْ كَانَت مُتبَاينَة إِلاَّ أَنَّ ٱتّصَالهَا بكَون وَاحـد، وَٱسـتخدَامـهَا جَمِيعَاً فِي حَيَاة عَمَليَّة وَاحدَة جَعَل بَيْنهَا ٱرتبَاطَاً قَوِيّاً؛ بحَيْث إِذَا كَشَـف بَـعْض العُلُوم عَن حَقِيقَة جَدِيدَة أَدّىٰ ذَلِك إِلىٰ التَّبدِيل أَو التَّعدِيل فِي وجهَات النَّظر مِن العُلُوم الأُخرىٰ، وَعَلىٰ الرَّغم مِن هَذَا الإِتّصَال الوَثِيق بَيْن العُلُوم فَإِنّك إِذَا سَأَلت أَحد العُلمَاء عَن مَسأَلَة لاَ تَدخل فِي الفَرع الَّذي تَخصّص بـهِ يُـجِيبُك بأَنَّ هَـذَا خَارج عِن دَائِرَة ٱخْتصَاصه، كمَا لَو سَأَلت عَالِم النَّبَات ـ مَثَلاً ـ عَن أَمْرٍ يَـتَعلّق بالتَّشرِيح، بَل لَو سَأَلتَه مَا هِي المَادّة المُشتَركَة بَيْن النَّبَات وَغيرَه مِن المَعَادن لقَالَ

لَكَ لاَ أَعلَم، وَهُو مُحقّ لأَنّه لاَ يُريد الكَلاَم عَن جَهْل.

إذَن مَا بَال بَعْض الشَّبَاب مِن الَّذِين دَرسُوا الحقُوق أَو الطّب أَو الآدَاب، وَلَم يَدرسُوا فَلسَفَة مَا وَرَاء الطَّبيعَة، مَا بَال هَؤُلاَء يَقفُون مَوقف المُنكِر المُعَاند. وَيُصدرُون أَحكَاماً فِي أَشيَاء لاَ يَعرفُون مِنْهَا كَثِيراً وَلاَ قَلِيلاً؟! إنَّ مُصْطَفىٰ مَحمُود تَخَرّج مِن كُلّية الطّب، وَلَم يَدرُس اللاَّهُوت وَلاَ الفَلسَفَة. وَمَع ذَلكَ أَلّف كِتَاباً مَوضُوعَه «اللهُ وَالإِنْسَان»! لاَ يَا أُستَاذ، أَنّك لاَ تُصَلّح سَاعَتك عِندَ «سَنكري» وَلاَ تُنَظّف بَدلَتك عِندَ «إسكَافِي»، وَلاَ تَتَعلّم الطّب فِي كُلّية الزِّرَاعَه، إذَن كَيف تَكَلمتَ عَمّا وَرَاء الطَّبيعَة، وَعِلم مَا كَان قَبلهَا، وَيَكُون بَعدهَا وَأَنتَ لاَ تَعْلَم عَنْهُ شَيئَاً؟! وَهَل تَرضىٰ أَنْ نَتَكلّم نَحنُ عَن الطّب الّذي دَرَستَه أَنتَ فِي كُلّية الطّب بالقَصر العَيْني؟!.

وَمَهمَا يَكُن، فَإنَّ كُلّ فِئَة مِن عُلمَاء الكَون تَقْتَصر عَلىٰ نَاحيَة خَاصّة لاَ تَتجَاوزهَا، فَالعَالِم النَّبَات لاَ يَتَعرض للمَعَادن وَالحَيوَان، وَالطَّبِيب البَيطَري لاَ يَبْحَث فِي جِسم الإِنسَان وَعِلَله وَأَمرَاضَه، وَكَذَلك عَالِم الفَلك وَعَالِم الكِيميَاء فإنّه لاَ يَرىٰ إلاَّ نَاحيَة وَاحدَة مِن الكَون عَلىٰ أَنَّ مَعرفَتَه بهَا تَبقىٰ نَاقصَة مَهمَا إجْتَهد وَتَقدّم. فَكَيف بمَعرفَة أَسرَار الوجُود وَأَسبَابه، وَطَبِيعَته وَنُظمه! وَمِن هُنَا تَخصّص لمَعرفَة الكَائِن وَرَاء الطَّبيعَة طَائفَة مِن العُلمَاء لاَ يُفكرُون بشَأن غَير شَأنَه، وَلاَ يَهتمُون بأَمر غَير أَمْره.

إنَّ عُلمَاء الطَّبيعَة يَدرسُون المَادّة، وَيَطلبُون أَسبَابهَا القَريبَة، وَيَقفُون عِندَ الظَّوَاهر، وَلاَ يَذهبُون إلىٰ الأَعمَاق، أَمّا الفَلاَسفَة. أَمّا عُلمَاء مَا وَرَاء الطَّبيعَة فَيَبحثُون عَن عِلّة العِلَل، وَالسَّبَب الغَامض البَعِيد عَن المَادّة وَالمُحرّك الأَوّل لهَا. لَقَد تَجرّد هَؤُلاَء، وَهُم عَدَد غَير قَلِيل مِن العقُول الكَبِيرَة العَظِيمَة، تَجردُوا إلىٰ

البَحث عَن خَالق الكَون وَمُدبرِه، وَوَضعُوا الأَسفَار الطّوال فِي البَرَاهِين القَاطعَة عَلىٰ وجُودَه، وَدَفعُوا عَنْهَا كُلّ شُبهَة، حَتّىٰ أَصبَحَت كَالشَّمس فِي رَابِعَة النَّهار.

فَإِلىٰ هَؤُلاَء وَحدَهُم يَجْب أَنْ نَرجَع فِي مَعرفَة الفِكرَة عَن الله، وَأَنْ نَدرُس أَقوَالهُم وَنُحَاكمهَا بتَجَرد وَإخلاَص. أَمّا أَنْ نَجحَد وَنُعَاند دُون أَنْ نَستَمع، إِلىٰ أَربَاب العقُول مِن ذَوي الْإِختصَاص فَقَد جَادَلنَا بغَير عِلْم وَلاَ هُدىٰ.

وَبالتَالي، فَإِذَا بَحثنَا عَن نوَاحي الطَّبيعَة وَحدَها وَتَركنَا البَحْث عَمَّا بَعدهَا لظَلّت فِكرَة الأُلُوهيَة دُون حَلّ، وَتَصورَاتنَا عَمَّا يَتَعلق بهَا دُون إِمْتحَان، لأَنَّها لاَ تُعَلَّل بالمَادّة وَلاَ تُطرَح عَلىٰ بسَاط البَحْث فِي المَصَانع وَالمُختبرَات، وَلاَ يُسأَل عَنْهَا رِجَال السِّيَاسَة أَو عُلمَاء الأَخلاَق وَالْإِجتمَاع. إِذَن لاَ بُدّ مِن الرّجُوع إِلىٰ عِلْم مَا بَعد الطَّبيعَة الَّذي يَبْحَث عَن وَاجب الوجُود وَٱمتنَاعَه وَإِمكَانَه، وَوَاجب الوجُود هُو مَا ٱقتضَت ذَاته وجُودَه بالضَّرُورَة، وَإِلزَام العَقْل بإفترَاض وجُودهَا عَلىٰ كُلّ حَال وَإِنْ عَجز العِلم عَن إِثبَاته بالطُّرق المَوضُوعيَّة. وَمُمتَنع الوجُود عَلىٰ العَكْس، أَي مَا ٱقتضَت ذَاتـه ٱمتنَاع وجُودَه، وَأَحَال العَقْل ٱفترَاض وجُودهَا. أَمّا المُمكن فَهو مَا خَلاَ مِن هَذَا الْإِقتضَاء، وَلَم يَحكُم العَقْل لاَ بضَرورَة الوجُود، وَلاَ بضَرُورَة العَدَم فَيُحتَمل أَنْ يَكُون مَوجُوداً، كَمَا يُحتَمل أَنْ لاَ يَكُون لهُ وجُود.

وَمِن الخَير أَنْ نُشِير إِلىٰ أَنَّ الفَلاَسفَة يَلتَقُون هُنا مَع رِجَال الدِّين، لأَنَّ كُلاً مِن الفَرِيقَين يَتَطلّع إِلىٰ مَا وَرَاء الطَّبيعَة، وَالفَرق بَيْنَهُما أَنَّ الفَلاَسفَة يَعتمدُون عَلىٰ العَقْل وَحدَه، وَرجَال الدِّين يَعْتمدُون عَلىٰ الوَحي وَالعَقل، لأَنَّهُم يَعتَقدُون أَنَّ العَقل إِذَا ٱستَقلَ فِي مَعرفَة وجُود الخَالق وَصفَاته، وَإِرسَال الرُّسل وَمَا إِلَيه فَإِنّه مُحتَاج إِلىٰ مَعُونَة خَارجيَّة لإِدرَاك كَثِير مِن المَسَائِل.

مَنْ خَلَق الله؟

إنَّ مَن يَدّعي وجُود شَيء يَقع عَلَيه عِبء الإثبَات، سواء أكَان ذَلِكَ الشَّيء حَقّاً مِن الحقُوق أم مَسألَة عِلميَّة أم فَنيَّة أم تَأريخيَّة، أم كَان شَأناً مِن شُؤون العَقيدَة وَالإيمَان. وَهَذِه القَاعدَة -البَينَة عَلىٰ مَن ادّعىٰ- لاَ يَشذّ عَنْهَا أحد مَهمَا سَمَا بعَظَمَته وَمَركَزه وَمَهمَا وُصف وَعُرف بالعَدَالَة وَالصّدق، وَالوَرَع وَالتَّدَين، وَإذَا وَجَب الأَخذ بشَهَادَته اعْتمَاداً عَلىٰ إخلاَصه وَتَجردَه فإنّه لَيس بفَوق أنْ يُنَاقش فِي ذَاكرَته وَأفكَارَه، وَلاَ بفَوق أنْ يُطَالب بالدَّليل عَلىٰ صِدق أقوَالَه، فَالله جَلّ وَعَلا قَد أقَام الآيَات، وَضَرب الأَمثَال عَلىٰ وحدَانِيتَه وَعَظمَته، وَعَلىٰ يَوْم الحسَاب وَالجزَاء، وَدَفع كُلّ شُبهَة وَتَعلّة تَحُوم حَول وَعدَه وَوَعيدَه، وَمِن هُنا أَمَدّ الله أَنبيَاءَه، بالحُجَج الدَّامغَة وَالبَرَاهِين القَاهِرَة، وَشَرح صدُورهُم لكُلّ سَائِل وَمُجَادل، فَأفسحُوا المجَال للمُحقّ وَالمُبطل، ليَقُول كُلّ مَا يَشَاء، وَيُجَادل دُون تَصنّع وَتَحفّظ.

إنَّ لَدىٰ الإنْسَان مِن أَسبَاب الجَدَل وَالنّقَاش مَا لاَ يَبْلغُه الإحصَاء: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾[1].

---

(١) ٱلكَهف: ٥٤.

إنَّ فِي الإِنْسَان مُنذ طفُولَته مَيلاً طَبِيعيّاً إِلىٰ التَّسَاؤل عَمَّا يَجري حَولَه، وَيَدُور فِي خُلدَه، وَرَغبَة مُلحَة فِي الإطلاَع عَلىٰ حقَائِق الأَشيَاء وَعِللهَا وَأَسبَابهَا، وَفِي انْتقَاد الآخرين فِي عَقَائِدهِم وَأَعمَالِهِم وَأَقوَالِهِم، وَلَكن الإِنْسَان كَثِيراً مَا يَنْخَدع بالمُشَاهدَة السَّطحيَة للوَهلَة الأُولىٰ فَيُجَادل وَيُنَاقش عَلىٰ هَذَا الأَسَاس، أَسَاس مَا سَمعَه مِن الأَقوَال، وَأَلَفهُ مِن العَادَات وَإنقَاد إِلَيه مِن النَّزعَات الشَّخصيَّة. وَإِلىٰ هَذَا أَشَارَت الآيَة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾[1].

وَقَبلَ أَنْ نَعْرض أَدلّة المُؤمِنِين باللهِ نَذْكُر طَرفاً مِن جَدَل أُولَئك المُلحدِين، وَمَا عَلق بأَذهَانِهم مِن الأَوهَام. فَمِن أَوهَامِهِم هَذَا السُّؤال الَّذي يَعْرِض للبُسطَاء السُّذّج: إِذَاكَان الله قَد خَلَق العَالَم فِمَن خَلَق الله ؟.

وَبقَلِيل مِن التَّفْكِير نُدرك أَنَّ هَذَا التَّسَاؤل مِن مُخلفَات عَهْد الطّفُولَة وَبقَلِيل مَرحلَة « السّن السَّئول ». أَمَّا الَّذين نَضَجت عقُولِهِم فَيدركُون أَنَّ كَلمَة « خَلَق الله العَالَم » تَعْني أَنّه تَعَالىٰ خَالق غَير مَخلُوق، وَأَنّ كُلّ مَا عَدَاه يَتَلقىٰ وجُودَه مِنْهُ، وَلَم يَتَلق هُو وجُودَه مِن أَحد. إِذَن يَنْبَغي أَنْ يَكُون التَّسَاؤل عَلىٰ الشَّكل التَّالي:

لمَاذَا يَجِب عَلَينَا الإِيمَان بأَنَّ الله مَوجُود مُنذ القِدَم لاَ يَفْتَقر إِلىٰ مُوجد وَأَنّه يَهب الوجُود لكُلّ كَائِن سوَاه ؟.

الجَوَاب:

لَو قُلنَا: أَنَّ كُلّ كَائِن لاَ بُدّ أَنْ يَستَمد وجُودَه مِن غَيرَه للزَم أَنْ لاَ يُوجَد شَيء أَبداً، لأَنَّ مَعْنىٰ قَولنَا لاَ يُوجَد مَن يُعطي إِلَّا بَعد أَنْ يَأخذ، مَعنَاه أَنّه لاَ أَحد يُعطي

(١) الحَجّ: ٨.

أبداً. مَثلاً، لَو ٱفْتَرضنَا أنَّ النَّقد لاَ يُمكن أنْ نَأخذَه مِن شَخصٍ إلاَّ إذَا أخَذَهُ هُو مِن شَخص آخر، بحَيث يَستَحِيل أنْ يُوجدَه فَرد أَو هَيئَة، للزَم أنْ لاَ يُوجَد شَيء يُسمّىٰ نَقداً.

وَمَثلاً آخر: تَعلمتَ نَظريَة النّسبيَّة مِن أُستَاذك، وَتَعلمهَا هُو مِن أُستَاذه، وَهكذَا إلىٰ أنْ يَصل الدَّور إلىٰ إينشتِين الَّذي ٱكتَشفهَا بنَفْسه، وَلَو ٱفْتَرضنَا أنَّ أحداً لَم يَكتَشفهَا مِن تِلقَائه لكَانَت هَذِه النَّظريَّة مَجهُولَة حَتّىٰ اليَوْم. وَهكذَا عِلْم النَّحو وَسَائر العُلُوم لاَ بُدّ أنْ تَنْتَهي إلىٰ شَخْص مُعيَّن، وَإلَّا لَمْ يَكُن لهَا عَين وَلاَ أثَر. وَبتَقريب ثَانٍ لَيْس مِن شَكٍّ أنّه قَد وَجَد شَيء كَالأرض وَالنّجُوم، وَإذَا وَجد شَيء وَجَب أنْ يَكُون قَد وَجَد شَيء مَا بالضَّرُورَة يَحْمل فِي ذَاتِه علّة كَافيَة لوجُودَه مُنذ الأزَل، لأنّ كُلّ مَا يُوجَد إمّا أنّه وَجه بذَاته دُون أنْ يَتَلقىٰ وجُودَه مِن غَيرَه، وَأمّا أنْ يَكُون قَد تَلقَاه مِن مَوجُود آخر، فإذَا كَان وجُودَه مِن ذَاته لاَ مِن غَيرِه فَهُو مَوجُود بَالضَّرُورَة، وَهُو الله، وَأمّا إذَا كَان تَلقَاه مِن غَيرَه فَلاَ بُدّ أنْ يَكُون هَذَا الغَير قَد وجدَ بالضَّرُورَة وَلَم يَستَمد وجُودَه مِن أحد.

وَبتَعبِير ثَالث أنَّ البَاحث العِلمي إذَا لَم يُدرك سَبَب الحَوَادِث مُبَاشَرَة لجَأ إلىٰ الإفترَاض فَيَفتَرض وجُود شَيء يُفسّر الحَادث عَلىٰ أسَاسَه، ثُمَّ يَختَبر هَذَا التَّفسِير. وَهُنا ٱفْترَاضَان لاَ ثَالث لهُما الأوّل: أنْ نَفتَرض أنَّ كُلّ مَوجُود يَتَلقىٰ وجُودَه مِن غَيرَه بحَيث لاَ يُوجَد شَيء بدُون سَبَب. الثَّاني: وجُود شَيء بذَاته وَلَم يَتلق وجُودَه مِن غَيرَه. وَالفَرض الأوّل بَاطل حَيْث يَلزَم مِنْهُ عَدَم وجُود شَيء، فَيَتعيَّن الثَّاني وَهُو وجُود علّة أُولَىٰ تُعطي وَلاَ تَأخذ، وَمِن هُنا قَالَ فُولتير: «أنَّ الرَّأي القَائِل بأنَّ الله غَير مَوجُود يَنطَوي عَلىٰ أمُور مُستَحِيلَة» أي يَلزَم مِنْهُ أنْ لاَ

يُوجَد شَيء أبَداً، وهُو خِلاَف المَشَاهد بالبَدِيهَة وَبالتَالي فَإنَّ الأدلّة العَقليّة تَحملنَا عَلىٰ الإعتقَاد بوجُود كَائِن بالضَّرُورَة وَهُو الله تَبَارَك وَتَعَالىٰ. وَتوهمَ المُلحدُون أنَّ الكَون لاَ يَحتَاج إلىٰ مُوجِد، لأنَّهُم لَمْ يَدركُوه بالحِسّ، وَلَم يَستَعملُوا فِي مَعْرفَته العَقْل. وَنَذكر طَرفاً مِن أقوَالِهم للتَّدلِيل عَلىٰ أنّها أوهَام وَتَضلِيل.

اللهُ وَالطَّبيعَة:

فَمِن أوهَامهِم، أنَّ الطَّبِيعَة قَد وجدَت دُون مُوجد، لأنَّها تَحمل علّة وجُودهَا بذَاتهَا، لاَ أنَّها مَخلُوقَة مِن قِبل كَائِن يَتميز عَنْهَا بالإستقلاَل وَالقِدَم وَالكمَال، أي بأنَّ الطَّبيعَة هِي الله، وَالله هُو الطَّبيعَة، وَلاَ شَيء غيرهَا وَالجَوَاب:

أوّلاً: أنَّ لاَزم هَذَا القَوْل أنَّ مَا فِي الكَون مِن نظَام وَانسجَام، وَفَن وَجمَال، وَروعَة وَجلاَل قَد صَدَر عَن قوّة عَميَاء صَمّاء لاَ عِلْم لهَا وَلاَ مَشِيئَة، تَفْعَل عَبَثاً، وَتُترَك لاَ لِسَبَب مُوجب، وَلاَ لحِكمَة وَغَايَة، وَهِي مَع ذَلكَ تَخلق إنْسَاناً مُستَوي الخِلقَة تَهبَه العَقْل، والعِلْم، وَالشّعُور، وَتَضع كُلّ شَيء فِي مَقرّه وَمكَانه لاَ تَخْطىء وَلاَ تَنْحَرف، مَهمَا طَال الزّمن! وَبَديهَة بأنَّ البُرُودَة لاَ تَلتَمس فِي اللَّهيب، وَالحَرَارَة فِي الثّلوج. وَلذَا قِيل: أنَّ فَاقد الشَّيء لاَ يُعطِيه.

ثانياً: قَالَ عُلمَاء الطَّبِيعَة: أنَّ المَادّة تَتلاَشىٰ وَتَتبَخرإلىٰ شُحنَات كَهربَائيّة، وَإنّها تَفْقد بذَلك وَزنهَا، وَطُولهَا، وَعَرضهَا، وَعُمقهَا، وَسَائِر الخَصَائِص الَّتي تَمتَاز بِها، وَلَو كَان وجُودهَا ذَاتيّاً وَضَرورياً لإستحَال أنْ تَتغَير وَتَتبَدل، لأنَّ الَّذِي يَحمل عِلتَه بنَفسَه لاَ يَزُول إلاّ بزَوَال عِلّته، وَزوَالهَا يَعْني أنَّها غَير ذَاتيَة. وَلذَا قِيل: أنَّ مَا بالذَات لاَ يَتغَيّر، ثُمّ إنّنا نَرجع بَعْض الحوَادث إلىٰ حوَادث أُخرىٰ، وَنَعتبرهَا

السَّبب الفَاعل، وأنَّ بَينهُما ٱرتبَاطاً وَثِيقاً، وَلو كَان كُلّ شَيء يَحمل علّة وجُودَه بالذَات لمَا كَان هُنَاك عِلَل وَمَعلُولاَت وَأَسبَاب وَمُسببَات.

ثَالثاً: أَنَّ الإِنْسَان قَد ٱكتَشف قِوىٰ الطَّبِيعَة، وَسَخرهَا فِي مصَالحهِ وَسَدّ حَاجَاته، وَكَادَت تَصبَح أَطوَع إِلَيهِ مِن بَنَانه. وَمحَال بأَنْ يَكُون الخَالق عَبداً مُسخرَاً لغَيرهِ.

الألوهيّة فِكرَة!:

وَمِن أَوهَامهِم أَيضَاً:

إنْ الإِلُوهيَّة فِكرَة ٱبتَدعهَا الإِنْسَان، ليُفَسّر بهَا المَجهُول، وَقَد تَطورَت مِن عِبَادَة الشَّمس وَالنَّار وَالبَقر إِلىٰ عِبَادَة الحَيَاة وَالشَّجر، إِلىٰ المَلاَئكَة وَالأَروَاح إِلىٰ إِله حَكِيم يَكمُن وَرَاء الطَّبِيعَة. وَأَخِيراً أَدرَك الإِنْسَان الحَقِيقَة، وَعِلَل الحوَادث بحوَادث طَبِيعيَّة مِثلهَا، وَهَذي هِي غَايَة العِلْم الحَدِيث الَّذِي يَهدف إِلىٰ مَعرفَة الأَشيَاء كَمَا هِي.

وَالجَوَاب: إِنَّنا نُعَلّل بَعْض الحوَادث بمَا نرَاه مِن الأَسبَاب القَريبَة، وَلَكن هُنَاك وَرَاء هَذِهِ أَسبَاب أُخرىٰ بَعِيدَة فبمَاذَا نُفسّرهَا؟ مَثَلاً، نَرجِع وجُود الشَّجرَة إِلىٰ الأَرْض، والأَرْض إِلىٰ الشَّمس، وَلَكن بمَاذَا نُفسّر وجُود الشَّمس، وإِلَىٰ أَي شَيء نَرجعهَا؟ أَنرجعهَا إِلَىٰ المَادّة الأُولىٰ، وَمَا هِي هَذِهِ المَادّة؟ هَل هِي الأَثِير -مَثَلاً- وَنَحْنُ عَلىٰ الرَّغم مِن أَنَّنا نَجْهَل مَا هُو الأَثِير. وَأَنَّه هَل هُو نَوع مِن المَادّة أَو لاَ مَادّي؟ وَهَل هُو حَقِيقَة تَحل المُشكلاَت أَو خرَافَة أُبتدعَت لإِخفَاء الجَهل نَتسَاءَل: مِن أَين جَاء هَذَا الأَثِير؟ وَكَيف وجدَ؟ وَمَن أَوجَده؟ وَهَل هُو مِن

الكَائنَات الحيَّة أَو الجوَامد ؟ وَكَيف تَجمع وَتكتّل ؟ وَهَل يَسِير إِلَىٰ هَدَف مُعيَّن أَو عَلىٰ غَير هُدىٰ ؟ .

أَمّا الجوَاب عَن هَذِهِ الأَسئلَة فَلاَ نَجدهُ فِي عِلْم الطَّبيعَة عَلىٰ الرَّغم مِن تَقدّمه يَوماً بَعْد يَوْم، لأَنّه عَاجِز عَن الوصُول إِلَىٰ مَعرفَة الحَقِيقَة المُطلَقَة. إِنّه لاَ يَعرف شَيْئاً إِلاَّ عَن طَرِيق المُشَاهدَة والتَّجربَة، وَهِي أَبعَد مَا تَكُون عَنْهُما، كَمَا أَنَّنا لاَ نَجد الجَوَاب عِند عُلمَاء النَّفس وَالإِجتمَاع، لأَنَّهُم يَرفضُون اليَوْم مَا آمنُوا بِهِ فِي الأَمس. لاَ نَجد الجَوَاب إِلاَّ عِند الفَلاَسفَة الَّذِين يَبحثُون عَن سرّ الكَون وَأَصلَه وَالسَّبب الأَوَّل لهُ وَهُو الإِله القَدِير الحَكِيم.

قَالَ فرَنسِيس بيكُون: «أَنَّ عَقل الإِنْسَان قَد يَقف عِندَمَا يُصَادفَه مِن أَسبَاب ثَانويَّة مُبَعثرَة، فَلاَ يُتَابع السَّير وَرَاءهَا، ولَكنَّه إِذَا أَمعَن النَّظر فَشَهد سِلسلَة الأَسبَاب كَيف تَتّصل حلقَاتها لاَ يَجد بُدّاً مِن التَّسلِيم بالله...».

أين يُوجَد الله:

وَمِن أَوهَامِهم أَيضاً هَذَا التَّسَاؤل: أَين يُوجَد الله ؟.

وَالسّؤال، كَمَا تَرىٰ، وَجِيه فِي ظَاهرِهِ، ولَكنَّه يَحتَوي عَلىٰ مُغَالطَة مَنطقيَّة فِي الوَاقع، لأَنَّ الَّذِي يَسأَل عَن مَكَان وجُودَه هُو الَّذِي وجدَ بَعد بأَنْ صَحّ التَّعبِير، حَيْث لاَ زَمَان وَلاَ مَكَان، أَمّا الأَوَّل بلاَ أَوَّل كَان قَبلَه، وَالآخر بلاَ آخر يَكُون بَعدَه، أَمّا الَّذِي لاَ يَحتَاج وجُودَه إِلَىٰ علّة فَلاَ يُقَال أَين كَان ؟.

وَالمَفرُوض أَنَّ علّة وجُود الخَالق ذَاتيَة لاَ تَنفك عَنْهُ بحَال، وَمَا هُو مِن لوَازم الذَّات لاَ يَسأَل عَنْهُ بزَمَان أَو مَكَان، فَلاَ يُقَال مَتىٰ كَانَت النَّار حَارّة ؟ وَأَين تُوجَد

الحَرَارَة فِيْهَا ؟ وَلاَ مَتىٰ كَان الثَّلج بَارداً ؟ وَفِي أَي مكَان تَستَقر فِيهِ البُـرُودَة ، وَلاَ يُقَال مَتىٰ كَان الجِسم قَابلاً للأَبعَاد الثَّلاَثَة : الطّول ، وَالكُتلَة ، وَالزَّمن ؟ وَأَين تُوجد هَذِهِ القَابليَّة فِي الجِسم . وَمَتىٰ لَم تُوجد فِيهِ حَتَّىٰ يُقَال مَتىٰ وجدَت ؟ ! وَأي جَانب مِن الجِسم فَلاَ مِن القَابليَّة للأَبعَاد حَتَّىٰ يُقَال فِي أَي جَانب تَكمُن ، فَكَذلكَ سُؤَال « أَينَ يُوجد الله ؟ وَمَتىٰ وجدَ الله » إِذْ مَتىٰ لَم يُوجد حَتَّىٰ يُقَال مَتىٰ وجدَ ؟ ! وَأي مكَان لاَ يُوجد فِيهِ أَثرَه حَتَّىٰ يُقَال أَين يوجَد ؟ ! أَنّـه دَائِـم لاَ بـزَمن ، وَكَـائِن لاَ بحلُول .

إِنَّ الجَاهل هُو الَّذِي يَسأَل هَذَا السّؤَال ، لأَنّه يُقِيس الخَالق بالمَخلُوق وَيُشبّه مَن لاَ يُرىٰ بمَا يُرىٰ ، إِنَّ وجُود الله سُبْحَانَه مُبَاين لوجُود الكَائنَات الَّتِي تُوجد فِي مَكَان دُون مَكَان . وَلَو شَغل مكَاناً خَاصّاً لخلَت مِنْهُ بقيَّة الأَمكنَة ، وَلكَان جِسمَاً مُفتَقِراً إِلَىٰ حَيّز مَع أَنّه غَني عَن كُلّ شَيء .

بَقي بأَنْ نَتَساءَل : مَاذَا أَرَاد المَتَأَلهُون مِن قَولهم : « أَنَّ الله لاَ مَكَـان لهُ ، وَهُـو موجُود فِي كُلّ مَكَان » أَلاَ يَدل هَذَا القَوْل عَلىٰ أَنَّ الله مَوجُود وَغَير مَـوجُود ؟ ! أَلَـيْسَ هَـذَا جَـمعَاً بَـيْن الشَّـيء وَنَـقِيضَه ، مَـع أَنَّ إِجـتمَاع النَّـقِيض مـحَال كَإِرتفَاعهُما ؟ ! .

وَمَن تَدبرَ مَا قَدّمنَاه مِن الأَدلّة عَلىٰ أَنَّ الله لاَ يُمكن بأَنْ يُوجد فِي مَكَان أَدرَك أَنَّ المُرَاد مِن وجُودَهِ فِي كُلّ مَكَان وجُود قُدرَته وَعَظَمَته ، وأَنَّ الأَشيَاء كلّها تَشهَد بوجُود خَالق الكَون وَمُدبرَه ، وعَلَيهِ يَكُون مَعنَىٰ « وجُود الله فِي كُلّ مكَان » هُو مَا عَنَاه الشَّاعر بقَولَه ، فَإِنَّ لله فِي كُلّ شَيء آيَة تَدل عَلىٰ أَنَّه وَاحد [1] .

(١) نُسبَ هَذَا البَيْت مِن الشّعر لأَبِي العَتَاهِية كمَا جَاء فِي دِيوَانه : ٦٢ طَبْعَة دَار الكُتب العِلمِية ، وَسُبل

وَفِي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَـةٌ تدلُ عَلىٰ أَنَّـه وَاحِـد

وَبالتَالي فَإِنَّ الدَّلِيل عَلىٰ عَدَم حلُول الله وَتَحَيزه فِي مكَان خَاصّ يَدل بنَفسَه أَيضاً عَلىٰ عَدَم تَحيزَه فِي كُلِّ مَكَان إِذَن، مَعنىٰ لاَ مَكَان لهُ أَنّه غَير حَالٍّ فِي مَكَان، وَمَعنىٰ وجُودَه فِي كُلِّ مَكَان أَنَّ آثَار عَظَمَته وَجلاَلَه تَملأ كُلّ مَكَان، وَمَع اختلاَف الجِهَة بالسَّلب أَو الإِيجَاب يَرتَفع التَّنَاقض، كَمَا لَو قُلت: زَيد يَكتُب بالعَرَبيَّة، وَلاَ يَكتُب باللاَّتِينيَّة.

مَنْ رَأىٰ اللّه؟:

وَممَّا قَدَّمنَا يَتبَيَّن مَعنَا أَنَّ سُؤال «مَن رَأىٰ الله» هُو تَمَاماً كَسُؤال «مَـن خَـلَق الله» أَو مَن رَأىٰ مَالاَ يَرىٰ! إِنَّ الَّذِي يَرىٰ هُو الكَائِن الطَّبيعي، بَل أَنَّ نَوعاً مِن هَذَا الكَائِن لاَ يُرىٰ بحَال حَتَّىٰ بوَاسطَة المَجهَر ـ كَالأَلكترُون وَمَا إِلَيهِ، فَكَيف بمَن هُو فَوق الكَائنَات الطَّبيعيَّة! أَنَّ الله يُرىٰ بالبَصِيرَة لاَ بالبَصر، وَمَعنىٰ هَذَا أَنَّ العَقْل يَعْلَم بوجُودَه، لِعِلمَه بأَفعَاله وَصفَاته، أَمّا مَعرفَته بالذَات فمحَال حَتَّىٰ عَـلىٰ العـقُول النَّيرَة. لذَا قَالَ الإِمَام أَبو جَعْفر الصَّادقعليه السلام: «تكلمُوا فِي خَلق الله، وَلاَ تَكـلمُوا فِي الله. أَنَّ التَّلكم فِي الله لاَ يَزِيد صَاحبَه إِلاَّ تَحيراً»[1]. لأَنّه مُحَاولَة للمحَال.

إِنَّ هَذَا السّؤال: «مَن رَأىٰ الله» يَتوجّه إِلَىٰ القَائلِين بأَنَّ الله جِسم، وَمِن هَؤُلاَء

↔ الْهُدَىٰ وَالرَّشاد: ٣/ ٢٧، البدَاية وَالنـهاية: ١٣/ ٣٧٥، تَأريـخ بَـغدَاد: ٦/ ٢٥١، تَأريـخ دِمَشـق: ١٣/ ٤٥٣، تَفْسِير القُرطُبي: ٤/ ٣١٣، تَفْسِير ابن كَثِير: ١/ ٢٦ و ٦٢ و: ٣/ ٤٥، تَفْسِير الثّعالبي: ٢/ ١٤٩، شَرح نَهج البَلاَغة لِابْن أَبي الحَدِيد: ٦/ ٤١٢، المَجَازَات النَّبوِيَّة لِلشَّرِيف الرَّضِيّ: ٢٢١، شَرح أُصُول الكَافِي: ٣/ ١٤٧.

(١) أنظر، وَسَائِل الشِّيعَة: ١٦/ ١٩٦ ح ٧، الهدَايَة للشَّيخ الصَّدوق: ١٤، رَوضَة الوَاعظِين: ٣٧.

فُرقَة تَنْتَمي إِلَىٰ الْإِسْلاَم، ٱشتَهر مِنْهَا أَبُو عَامر القَرشي، نَذكر للـقُرّاء مِـثَالاً مِـن أَقوَاله للمُتعَة وَالتّسليَة، قَالَ فِي تفسِير قَوْله سُبْحَانَه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (١). أَنَّ الله لاَ يُمكن بأَنْ يُقَاربَه أَحد فِي الْأُلوهيَّة وأَنَّ هَذِهِ الْآيَة كالآيَة: ﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ (٢).

أَي بأَنَّ ٱلنِّسَاء الْأُخريَات فِي مَكَان أَدنىٰ مِن مكَانتهُنَّ، وَلَكن يَشبَهنهُنَّ تَمَامَاً فِي الصُّورَة، كَذَلك الله هُو مِثلي وَمِثلك فِي هَيئَته وصُورَته.

وذكّرَني هَذَا القَوْل بمَا قَرأْتُه فِي بَعْض الكُتب القَدِيمَة بأَنَّ النَّملَة تَـظن أَنَّ الله شَاربَين كشَاربَيها. وبالتَالي، فإِنَّ الَّذِي حدَا بالإِنسَان إِلَىٰ مِثل هَذَا التَّفْكِير هِـي نَزعَته إِلَىٰ المَادّة وَٱرتبَاطَه بهَا فِي جَمِيع أَدوَار حيَاتَه.

وَرُبّما سَأَل سَائِل: إِنّنا نَعِيش فِي عَصر ٱنْتصَار العُلُوم، وَمَع هَذَا لَم يَكـتَشف عَالم وَاحد فِي مَعمَلَه وجُود الخَالق لاَ قَصداً وَلاَ عفواً. وَلَو كَان لبَّان.

الجوَاب:

أَنَّ للمُختبرَات وَأَدوَات المَعَامل حدّاً لاَ تَتعدَاه، وهُو أَجزَاء الطَّبِيعَة، فَـالعِلم الطَّبِيعي يَبْحَث عَن أَجزَاء الكَون، وَٱرتبَاط بَعْضَهَا ببَعْض، وَمَا تَحوِيه مِن المَوَاد، أَمّا مَا يَتعدىٰ ذَلكَ إِلَىٰ مَا وَرَاء الكَون فَبَعِيد كُلّ البُعد عَن التَّجربَة وَالْإِختبَار فِـي المَعَامل وَالمَصَانع. وَهَل وجُود العُلَمَاء فِي مُختبرَاتِهم العَقْل أَو النَّفس أَو غَريزَة مِن غرَائزهَا ؟!.

أَجل، لَقد ٱكتَشفوا فِي معَاملِهم مُعَادلاَت دَقِيقَة وَقوَانِين مُـحكمَة وَطَـاقَات

---

(١) ٱلشُّورَىٰ: ١١.

(٢) ٱلْأَحْزَاب: ٣٢.

تَفُوق الحَصر ، ونَحْنُ نَتسَاءل : مَن أوجَد هَذَا التَّدبِير وَالإنسجَام ؟ ! وَهَـل تُـفسّر نَظريَاتهِم الحَدِيثَة أسرَار الكَون ؟ ! وَمِن أين جَاءت تِـلكَ الطَّـاقَات وَالمـوَاد ؟ ! وَكَيف تَألّفت مِنْهَا المَادّة عَلىٰ مَا بَيْنهَا مِن تَفَاوت ؟ ! وَلمَاذَا اختَصّت الحَيَاة بجُزء مِن الكَون دُون جُزء ؟ ! وَمَن أعطىٰ هَذِهِ الحَيَاة للنَّبَات ، وَالإحسَاس للـحَيوَان ، وَالعَقْل للإنسَان ، مَع أنَّ العُلمَاء قد اعترفُوا : « أنَّ كُلّ شَيء فِي الطَّبِيعَة ، مُهمَا بَدَا مُختَلفاً عَن غَيْرَه مِن الأَشيَاء ، مُكوّن مِن الإلكترُونَات وَتَدخُل هَذِهِ الإلكترُونَات فِي تَكوِين المَادّة مِن أشجَار وَمنَازل وإنْسَـان ، وغَـيْرَه مِـن الكَـائِنَات ، كـالزُّجَاج وَالمَعَادن ، وَهِي بكَاملهَا مُتشَابهَة ، وَتَتحرّك حَول المَركَز بحَركَات مُـتمَاثلَة »[1] وَعَلىٰ هَذَا يَجْب أنْ تَكُون جَمِيع الموجُودَات مِن نَوع وَاحد ، أمّا جمَاداً وَأمّا نَبَاتاً وَأمّا حيَوَاناً وَأمّا إنسَاناً فقَط . وَلَكن الله سُبْحَانَه أرَاد تنُوعها ، وَلاَ رَادّ لمَشِـيئَته : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2] .

كَيفَ خَفي وجُود الله وَهُو أوضَح مِن الشّمس؟!:

رُبَّمَا يَقُول القَائِل : إذَا كَان لله تَعَالىٰ فِي كُلّ شَيء آيَة تَدلُ عَليهِ ، وكَانَت آثَارَه تَملأ الوجُود ، فكَيف جَحَدهُ الجَاحدُون ؟ ! وَهَل وجدَ أو يُوجد وَاحد يُنْكر ضَوء الشَّمس ، مَع أنَّ أدلَة وجُوده سُبْحَانَه أوفَر وَأظهَر ؟ ! .

وَأُجِيبَ : بأنَّ الإنْسَـان لاَ يَشـعر بـالأَحوَال إذَا اتّـصلَت ، فَـاللّذة تَـزُول إذَا

---

(١) كتَاب « الإلكترُون وَأثرَه فِي حَيَاتنَا » لجِين بندَك ، تَرجمَة الدّكتُور أحمَد أبُو العـبَّاس : ٩ ، وَكـتَاب « التّكامُل فِي الإسلاَم » للأُستَاذ أحمَد أمِين المُفتش بوزَارَة التَّربيَة العرَاقيَة : ٢٠١ . (مِنْهُ ﷺ) .

(٢) يسٓ : ٨٣.

ٱستمرّت، وَالألم ينقص إذا ٱتّصل، وَطقطقة السَّاعَة مَهْمَا تعلُو لاَ تَكاد تُسمع بَعد أنْ يَأنس بهَا السَّمع، وَالطّحَان لاَ يُفِيق مِن جَعجَعَة رَحَاه، بَل مِن ٱنقطَاعهَا. وقَدِيماً مَلَّ بنُو إسْرَائِيل المَنّ وَالسَّلوىٰ، وَقَالُوا: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[1]. كَمَا قِيل: أنَّ الرَّاحَة فِي التَّغيِّير مِن حَالٍ إلَىٰ حَال، وأنَّ النِّعمَة لاَ تُعرف إلاَّ بَعد فَقدهَا. وَهَكذَا عُرفَت الشَّمس بَعد غيَابهَا، وَلَو دَام شرُوقهَا لخفِيَت عَلىٰ كَثِيرين. قَالَ الإمَام الغزَّالي فِي تَفسِير آيَة: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

«إذَا رَأيت خُضرَة الرَّبيع فِي ضِيَاء النّهار، فَلاَ تَشك أنّك تَرىٰ الألوان. ورُبَّمَا ظَنّنت أنّك لاَ تَرىٰ مَع الألوَان ضِيَاء الشَّمس، وَتقُول: لَستُ أرَىٰ مَع الخُضرَة غَيرهَا، إلاَّ أنّك عِندَ غرُوب الشَّمس تُدرك تَفرقَة ضَرُوريَّة بَيْنَ اللَّون حَال وقُوع الضَّوء عَلَيهِ، وَحَال عَدَم وقُوعَه، فَلاَ جَرم تَعْرف أنَّ النُّور مَعنىٰ يُخَالِف اللَّون،

(١) ٱلبَقَرَة: ٦١.

(٢) ٱلنُّور: ٣٥.

وَأنّه يُدرك مَع الألوَان، إلاّ أنّه لشدّة ظهُورَه وَاتّحَادَه باللّون يَخْتَفي، وَقَد يَكُون الظّهُور سَبَباً للخفَاء.

وَهكذَا لمَّا تَسَاوت الأشيَاء كلّها عَلىٰ نَمَط وَاحد فِي الشّهَادَة عَلىٰ وجُود خَالقهَا، وأَنَّ كُلّ شَيء يُسَبّح بحَمدِه لاَ بَعْض الأشيَّاء، وفِي جَمِيع الأوقَات لاَ فِي بَعْضَهَا، لمَا تَساوَت الأشيَاء ـ ارتَفعَت التَّفرقَة، وَخَفي الطَّرِيق، لأَنَّ الأشيَاء كَثِيراً مَا تُعرَف بالأَضدَاد، فَمَا لاَ ضِدّ لُه تَتشَابه أَحوَاله، وَلاَ يَبعد بأَنْ يَختَفي، ويَكُون خَفَاؤه لشدّة ظهُورَه وَجَلاَئه. فَسبُحَان الّذِي دَلّ عَلىٰ ذَاته بذَاته، وَتَنزّه عَن مُجَانسَة مَخلُوقَاته، وَاخْتَفىٰ عَن الخَلق لشدّة ظهُورَه، وَاحتَجب عَنْهُم بإشرَاق نُورَه.

الإله الَّذِي نَعْبُد

رَأيتُ عَدَداً غير قَلِيل مِن الشَّبَاب يُنكرُون الخَالِق ، لإعتقَادهم بأنَّه وَهمٌ مِـن الأَوْهَام ، وَأُسطُورَة مِن الأَسَاطِير ، فهُو فِي أَذهَانِهم كَمَا هُو فِي خَـيَال الإِنْسَـان البدَائي قوّة سحريَّة تُفسّر بهَا مُقتضيَات الطَّبِيعَة ، وكَمَا هُو فِي أَذهَـان المُـنتَفِعِين يَخدم الإِسْتعمَار وَالإِقطَاع ، وَأَربَاب الجَاه وَالمَال أَو فِي أَذهَان العَجَائِز يَجْمَع بَيْنَ العشّاق وَالأَحبَاب ، أَو كَمَا هُو فِي الإِصحَاح الأَوَّل مِن سِفر يُـوحنّا اللّاهُـوتي ، يَحمل فِي فَمه سَيفاً ذَا حَدّين ، وفِي يَمِينه سَبعَة كوَاكب[1] ، وَمَـا إِلَـىٰ ذَلكَ مِـمّا أبتَدعَه خَيَال الإِنْسَان القَدِيم وَالحَدِيث . قَالَ صَاحب كتَاب « الله والإِنْسَان » :

« أَنَّ الله عِند جدّي يُدَاوي مِن الرّومَاتِيزم ، وَيُقوي المَفَاصل ، وَهُو عِند أُمّـي مَأذُون يَجْمع رُؤوس بنَاتها عَلىٰ رُؤوس عرسَان أَغنيَاء فِي الحَلال ، وَهُـو عِـند الأَطفَال يَشبَه عَروسَة المَولد ، وَعِند إينشتِين مُعَادلَة ريَاضيَّة ، وَهُو عِند عَـاشق مِـثلي حُبّ ، وَهُــو عِـــند مَشَـــايخ الصُّـوفيَة يُـوزّع الكَسَـاوي وَالإِعَـانَات وَالمَعَاشَات »[2] .

---

(١) كتَاب « بَيْنَ الدِّين والعِلْم » لأندر وَديكسون وَايت ، تَرجمَة إِسْمَاعِيل مُظهر : ٦٠ طَـبْعَة (١٩٣٠م) . (مِنْهُ ﷺ) .

(٢) أنظر ، كتَاب « اللهُ وَالإِنْسَان » لمُصطَفىٰ مَحمُود : ١٠٠ الطَّبعَة الأُولىٰ سَنَة (١٩٥٧م) . (مِنْهُ ﷺ) .

ونَحنُ رِجَال الدِّين نَلتَقي مَع الكَاتب فِي أَنَّ هَذَا الرَّب الَّذِي تُصورَه الأَطفَال وهَؤُلآء المُتصوفُون لاَ وجُود لهُ . وَأَظنّ أَنْ الكَاتب أَيضاً يَلتَقي مَع الرَّاشدِين مِن أَهْل الإِيمَان لَو عَرف الله كَمَا عَرفُوه بأَوصَافه وَأَفعَاله عَلىٰ حَقِيقَتها ، وعَلَيهِ تَكُون المَسأَلة بَيْنَه وَبَيْنهُم مَسأَلة إِلتبَاس وسُوء تَفَاهُم : ظَنَّ الكَاتِب أَنَّ الدِّين مِن صُنع الإِنْسَان ، وأَنَّ الإِله مِن وَهُم الخَيَال فَجَحد وَفَنّد ، وَهُو عَلىٰ حَقّ لَو كَان الأَمـر كَذَلكَ ، وَلَكن أَنّىٰ يَكُون ؟ ! وَهَل يَستَطِيع الإِنْسَان أَنْ يَـفرض تَـصَورَاتَـه عَـلىٰ الكَائنَات المَوجُودَة ، بَل العَكس لَو هُو الصَّحِيح ، لأَنَّ الكَائِن يُوجَد مُستقلاً عَن كُلّ إِحسَاس وَتَفكِير . وَقَد تَصور كَثِير مِن النَّاس وَاْعتَقدُوا أَنَّ الأَرْض مُسَطحَة تَقُوم عَلىٰ قَرن الثَّور ، وَأَنَّ الشَّمس تَدُور حَـول الأَرْض وَمَـا زَالوا حَـتَّىٰ اليَـوْم يَقُولُون طَلَعَت الشَّمس ، وَغَرُبَت الشَّمس ، فَهل لعَاقل أَنْ يَتّخذ مِن هَذِهِ الأَوْهَام والأَخطَاء دَلِيلاً عَلىٰ عَدَم وجُود الأَرْض وَالشَّمس ، لأَنَّ النَّاس رَسمُوا لهَـا فِـي أَذهَانِهم أَشكَالاً كَاذبَة ؟ ! . . .

وَلاَ أَدري كَيف اْعتَمد مُصطَفىٰ مَحمُود وَأَمثَاله لنَفي الخَالِق عَـلىٰ تَـخيلاَت العَجَائِز وَالأَطفَال ، وَتَجَاهلُوا أَفكَار الأَقطَاب الكِبَار الَّذِين يَعبدُون إِلهاً لَم تَبتَدعَه الخوَاطر وَالظّنُون ، بَل تَجلىٰ للعقُول النَّيرَة ، والقُلُوب الصَّافيَة بقُدرَته ، وَأَنّه خَلَق كُلّ شَيء ، وَهُو لاَ يَفْتَقر إِلَىٰ شَيء ، وَلاَ يَظلم أَحداً ، وَيَنهىٰ عَن الظُّـلم وَيُـعَاقب عَلَيهِ . يَحكُم بالقِسط وَيَأمر بهِ ، وَيُكافِيء أَهلَه بأَضعَاف مَا يَستحقُون ، يُسَـاوي بَيْنَ الجَمِيع دُون تَفَاضُل إِلّا بِالتَّقوىٰ وَصَالح العَمَل ، لاَ يَعزب عَنْهُ مِثقَال ذَرّة فِي الأَرْض وَلاَ فِي السَّماء ، كَرِيم رَحِيم لاَ يَيأَس أَحد مِن رَحمَته ، لأَنَّها أَوسَع مِـن غَضَبه وَنقمَته . هَذَا جُزء مِن صفَاته القُدّسيَة الَّتي لاَ تُحِيط بهَا الأَفهَام ، وَتَـجمعهَا

كَلمَة وَاحدَة، وَهِي أَنَّ كُلّ مَا يُمكن نِسبَته إِلَيهِ تَعَالىٰ مِن الحَقّ والخَيْر وَالجَـمَال فهُو ثَابت لهُ بِالضَّرُورَة، إِذْ لاَ فَرق بالقِيَاس إِلَىٰ وَاجب الوجُود بَيْنَ القوّة وَالفِعل.

هَذَا هُو الإِله الَّذِي نَعبُده وَنَدعُو إِلَىٰ عبَادَته، وَهُو يُـغَاير الإِلٰـه الَّـذِي يَـعبُده الإِنْتهَازي وَيَدعُونا إِلَىٰ عبَادَته. أَنَّ إِلهنا الفَـضِيلَة وَالخَـيْرات، لاَ إِلٰـه الأَسَـاطِير وَالخرَافَات، وَلاَ حَامي الأُسطُول السَّادس وَالشَّركَات وَمَن كَفَر بمَا نُدِين وَنَعبُد فَقَد كَفَر بِالحَقّ وَالخَيْر وَالجَمَال.

العَقْل... وَعَالَم مَا بَعْدَ المَوْت

حرّيّة الفِكر:

كُلّ شَيء يَقبَل التّسَاؤل وَالنّقَاش حَتّىٰ الأَديَان. هَذَا حَقّ لاَ رَيب فِيه، وَلَكن لمَن يُعطىٰ هَذَا الحَقّ، ؟ يَسأَل الطّفل عَن كُلّ مَا يَرَاه: مَا هَذَا؟ مَن أَوجَدَه. ولمَاذَا وجدَ... وَيَفرض الأَب السّكُوت عَلىٰ طِفلَه لاَ لعَجزه عَن الجَوَاب، بَل لأَنّ عَقل السَّائِل لاَ يَتّسع لشَيء. ومَهْمَا عَظُمت مَقدرَة الأَب فَإِنّه لاَ يَستَطِيع أَنْ يَدخُل الأَرْض فِي البَيضَة، وَمُهَندس العِمَار لاَ يُمكنَه أَنْ يَبني قَصراً مِن حَبّة الرَّمل. وَأَجمَل مَا قِيل فِي ذَلكَ: «أَنّه عَجز فِي المَقدُور لاَ فِي القَادر، وفِي الفِعل لاَ فِي الفَاعل». كَذَلكَ نَحنُ الرّجَال كَالأَطفَال فِي عقُولنَا لاَ نُدرك النّظريّات وَالحقَائِق العِلميّة. وأَنّ تَقدمنَا فِي السّن مَا لَم نُوهل أَنفسنَا بالدّارسَة للتّفكِير العِلمي، فَإِذَا دَرَس الإِنسَان وَتعلّم أَصبَح عَالمَاً فِي مِهنَته فَقَط، أَمَّا فِي غَيرهَا فَيَبقىٰ عَلىٰ جَهلَهِ كَالطّفل لاَ فَرق بَيْنَه وَبَيْنه إلاّ بأَنّ الكَبِير يَشْعر بقصُورَه عَن التّفهُم دُون الصّغِير. إِذْ لاَ يَحق للفَيلسُوف أَنْ يُنكر عَلىٰ الفَلاّح مَعرفَته بالزّرَاعَة تَمَامَاً كَمَا لاَ يُسَوّغ للفَلاّح أَنْ يُنَاقش الفَيلسُوف فِي مَنطقهِ وَاستنتَاجَه. فكُلّ مِنْهُمَا عَالِم بمَا يَجْهله الآخر، هَذَا، مَع العِلْم أَنَّ مَا تَوصَل إِلَيهِ العَالِم المُتَخصص فِي مَوضُوع دِرَاسَته لَيْسَ إِلاّ قَطرَة مِن بَحْر: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم

مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾[(١)].

إِذَن حُرِّيَة الفِكْر تُعطي لأَصحَاب الفِكْر الَّذِين يَمتَازُون بالقُدرَة عَلىٰ المُلاَحظَة وَمَعرفَة المَقَايِيس، أَمَّا الجَاهل فهُو كَالطِّفل لاَ يَتّسع فِكرَه لإِدرَاك الحَقِيقَة، فَكَيف يُسمَح لهُ بأَنْ يَكُون صَاحب الرَّأي فِي مَجَال العِلْم وَالتَّحقِيق؟! أَنَّ إِطلاَق العنَان للجُهّال وَالأَطفَال مَعنَاه الفُوضىٰ وَالإِنهيَار. أَنَّ القوّة شَرط أَسَاسي فِي الحُرِّيَة بشَتّىٰ أَنوَاعهَا، فقوّة الوَعي وَالنّضُوج شَرط لحُرِّيَة التَّفْكِير؛ وَقوّة المَال شَرط لحُرِّيَة الشِّرَاء؛ وَقوّة الصّحَة شَرط لحُرِّيَة العَمَل وَالسَّفر.

وَمُصطَفىٰ مَحمُود يَعترف بِهَذِه الحَقِيقَة، حَيْث قَالَ فِي كتَابه: «الله والإِنْسَان» لاَ تَستَطِيع أَنْ تَختَار شَيْئاً إِلاَّ إِذَا كُنتَ تَملك ثَمَنهُ، وإِذَا كُنتَ لاَ تَملك شَيْئاً تَستَطِيع أَنْ تَنْتَحر»[(٢)]. وقَالَ فِي مكَان آخر: «أَستَطِيع أَنْ أَمتَنع عَن الأَكُلّ، وَلَكنّي لَو ٱمْتَنعتُ عَن الأَكُلّ فَإِنّي أَمُوت، وَبالتَالي تَمُوت حُرِّيَتي مَعي»[(٣)] وَعَلىٰ هَذَا الأَسَاس يَصح القَوْل: لَيْسَ لإِنسَان أَنْ يُنَاقش وَيَرفض إِلاَّ إِذَا تَوفرَت لهُ قوّة التَّمييز وَالمَعرفَة.

وَقَد تَكَلّم المُؤلّف عَن «الله والإِنْسَان» وَحَق عَليّ وَعَلىٰ كُلّ مُنصف أَنْ يَعْتَرف بأَنّه يَملك الخُبرَة الكَافيَة فِي كَثِير مِن أَمرَاض المُجْتَمع وَعلاَجهَا، وَقَد ظَهرَت هَذِهِ الخُبرَة فِي كَلاَمه عَن الحُرِّيَّة، وَمَنطق اللُّص، وَمَعَنىٰ التَّقدّم، وَأَبدَىٰ مُلاَحظَات دَقِيقَة وَنَافعَة. أَمَّا أُسلُوبه فَعُطر وَزهُر، وَلَيته أَطَال الكَلاَم عَن الإِنْسَان

---

(١) ٱلْإِسْرَاء: ٨٥.

(٢) أُنظر. كتَاب «اللهَ وَالإِنْسَان» لمُصطَفىٰ مَحمُود: ١٠٢ الطَّبعَة الأُولىٰ سَنَة (١٩٥٧م). (مِنْهُ ﷺ).

(٣) أُنظر. كتَاب «اللهَ وَالإِنْسَان» لمُصطَفىٰ مَحمُود: ١١١ الطَّبعَة الأُولىٰ سَنَة (١٩٥٧م). (مِنْهُ ﷺ).

وَحَصر مَوضُوعَه فِيهِ وَحدَه، وَتَرك الحَدِيث عَن «الله» لذَوي الإختصَاص، وَلَو فَعَل لسَلِمَ مِن تُهمَة القَوْل بلاَ دَلِيل، وَمِن الجَزْم فِي مَقَام الشَّك.

الكَلب المُتَدَيِّن:

قَالَ المُؤلّف (مُصْطَفىٰ مَحمُود):

«هَل رَأَيت الخَوْف والذهُول فِي عَين الكَلب، وَهُو يَتَأمل وَرقَة طَائرَة فِي الهوَاء. أَنّه لاَ يَرىٰ الهَوَاء... وَأرَاهن أَنّه يَنْظر إِلَىٰ الوَرقَة كَمَا يَنْظر إِلَىٰ مَخلُوق حَيّ... وَيَظنّ أَنَّ بِهَا رُوحاً تُحركهَا، أَنّه كَلْب مُتَدَين»[1].

وَنَحنُ نَفتَرض الصِّدق ـ جَدَلاً ـ فِي هَذَا القَوْل، وَلاَ نُنَاقش مُدَّعِيه، لأَنّنا نَجهَل لُغَة الكلاَب، وَقرَاءَة أَفكَارهَا وَلَكنَّنا نَسأَل الكَاتب: إِذَا كَان الأَمر كَذلك فَمَاذَا يَكُون؟ وَمَا هِي النَّتجيَة اليَقِينيّة لخَوف الكَلب مِن الوَرقَة؟! لنَفترض أَنَّ النَّتِيجَة هِي تَديُّن الكَلب، وأَنَّ هَذَا التَّديُن كَان بدَافع الخَوْف مِن الوَرقَة فَهل لاَزم ذَلك أَنَّ تَديُّن الفَيلسُوف الحَكِيم الَّذِي يُؤمن بالله تَمَاماً كتَديُّن الكَلب؟! وإِذَا كَانَت عقُول الفَلاَسفَة وكُلّ مَن آمَن بمَا وَرَاء الطَّبيعَة «كعقُول» الكلاَب، فَمِن أَي نَوع هُو عَقل الكَاتب؟! وَبمَاذَا نُسمي هَذَا الإستدلاَل؟! هَل نُسمّيه دَلِيل الإستقرَاء، أَي أَنَّ الكَاتب تَتَبع عقُول المُؤمِنين بالله مِن النَّاس وَاحداً وَاحداً، ثُمَّ تَتَبع عقُول الكِلاَب

---

(١) أَنظر. كتَاب «اللهُ وَالإِنسَان» لمُصطَفىٰ مَحمُود: ١٠٣ الطَّبعَة الأُولىٰ سَنَة (١٩٥٧م).

أَخَذ مُصطَفىٰ مَحمُود هَذَا القَول بحَرفهِ مِن كتَاب مَباهج الفَلسفَة: ٢ / ١٩٩، تَرجَمَة أَحمَد الأَهواني. وَنَنقُل عبَارَة هَذَا الكتَاب للمُقَارنَة بَينهَا وَبَين عبَارَة مُصْطَفىٰ مَحمُود. قَالَ صَاحب مبَاهج الفَلسفَة: «أَلم تَر الدَّهش الخَوف فِي عَينَي كَلب، وَهُو يَرىٰ وَرقَة يَدفعهَا الرِّيح. وَأَنّي لأُرَاهن أَنّه تَخَيَّل وجُود رُوحَ فِي الوَرقَة تَجعَلهَا تَتحرك. أَنّه كَلب مُتَدَين». (مِنهُ ﷺ).

« المُتَدَيِنين » الوَاحد بَعد الآخر ، وَلمَّا رَآها مُتشَابهَة مِن جَمِيع النَّـوَاحـي بـهَذِه النَّتِيجَة الحَتميَة ؟ !.

وَأُقسِم قَسَم حَقّ وَصِدق أنَّ أَدلّة المُلحدِين كُلّها مِن هَذَا النَّوع تَغرق فِي بَحْر مِن المُتنَاقضَات ، وَتَتبَخر مَع الهَوَاء بلاَ مَدلُول مَعقُول.

الموت:

قَالَ مُصْطَفىٰ مَحمُود :

النَّفس ظَاهرَة مِن ظوَاهر الجِسم ، أَنَّهَا الحَرَارَة المُنبَعثَة مِن الفِرن . وإذَا إنْـطفَأَ الفِرن ، وَتَحول إِلَىٰ رَمَاد ٱنطفَأَت وَضَاعَت... أنَّ دَعـوىٰ الخـلُود الشَّـخصي لاَ يَسندهَا العِلْم كَمَا أَنَّ الدَّواعي الإِجْتمَاعيَّة الَّتي ٱستَلزَمت ٱفـترَاض بـقَائنَا بَـعد المَوْت قَد ٱنْتَهَت... أنَّ دَورَان العَجلَة فِـي المَـعمَل يَسـتَطِيع بأَنْ يُـولّد حَـرَارَة وَكَهربَاء وَضَوء وَمُغنَاطِيسيَّة... والإِنْسَان أَيضاً ظَاهِرَة مُـؤقتَة... وَهُـو يَـمُوت كَغَيرِه مِن الظَّوَاهر[1].

يَدّعِي الكَاتب أنَّه لاَ حَشر ، وَلاَ نَشر ، وَلاَ عَالَم آخر غَير عَالمنَا هَذَا ، وَدَلِيلَه أَنَّ النَّار إذَا إنطفَأت تَحول الحَطَب إِلَىٰ رَمَاد ، وأَنَّ العَجلَة فِي مَولّد الكَهربَاء إِذَا تَوقَفَت إنْقَطع التَّيار الكَهربَائي ، فَكَذلكَ الإِنْسَان إذَا مَات ! وَهَذَا الدَّلِـيل تَـمَاماً كَـالدَّلِيل السَّابق عَلىٰ أَنَّ الإِنْسَان المُؤمِن كَالكلَب المُتَدَين الَّذِي خَاف مِـن الوَرقَـة ! وَلاَ أَدري مَا هِي العلاَقَة بَيْنَ إِنْسَان مُثَقف كَمُصطَفىٰ مَحمُود ، وبَـيْنَ الحَـطَب الَّـذِي يَستَعملَه للطَّبخ وَالتَّدفئَة ، كَمَا خَفي عَليَّ وَجْه الشَّبه بَيْنَه وبَيْنَ العَجلَة فِي المَعمَل

(١) أنظر ، كتَاب « اللهُ وَالإِنْسَان » لمُصطَفىٰ مَحمُود : ١١٨ الطَّبعَة الأُولىٰ سَنَة (١٩٥٧ م) . (مِنْهُ).

الَّذي يُولِّد الكَهرِبَاء ؟! وَهَل تَستَطِيع الأَشجَار، وَالحَيوَانَات، وَالمَصَانع وكُلّ مَا فِي السَّمَاء والأَرْض مَا عَدَا الإِنْسَان أَنْ تُكتَب مقَالاً وَاحداً يَشبَه مقَالاً مِن كَلمَات المُؤلّف فِي مَجلّة «رَوز اليُوسف» ؟! وَهَل لهَا نثر كَنَثرة السَّاحر المُمّتع ؟! لاَ يَا أُستَاذ... أَنَّ الفَرق كَبِير بَيْنَك وبَيْنَ اَلقَلَم الَّذِي تَكتَب بِهِ.

ومَهْمَا يَكُن، فَإِنَّ فَرِيقاً مِن الَّذِين أَنكرُوا اليَوْم الآخر قَد اَعتَمدُوا لإِنْكَارهم عَلىٰ أَنَّ العَقْل نَوع مِن المَادّة، وَأَنّه فِي جَمِيع وَظَائِفه جُزء مِن الجِسم يَنمُو بنمُوه، وَيُفنيٰ بفنَائه، فهُو أَشبَه شَيء بالتَّنفس وَالإِفرَاز، فَكمَا أَنّه لاَ تَنفس وَلاَ إِفرَاز بلاَ جِسم كَذَلكَ لاَ عَقل بدُونَه[١].

الجَوَاب:

أَوّلاً: إِذَا نظرنَا إِلَىٰ أَدلّة القَائِلِين بأَنَّ العَقل نَوع مِن المَادّة نَجدهَا مَصَادرَة عَلىٰ المَطلُوب، حَيْث يَتخذُون أَدلّتهم مِن الدَّعوىٰ نَفسَها. كقَولَك: «زَيد هُو اَبْن نَزَار بدَلِيل أَنَّ نَزَاراً أَب لزَيد» هَذَا، وَمَع المُوافقَة وَالتَّسلِيم بأَنَّ العَقْل جِسم فَإِنَّ كَثِيراً مِن العُلمَاء ذَهبُوا إِلَىٰ أَنَّ الجِسم لاَ يُفنىٰ، وأَنَّ التَّغيرَات الَّتِي تَحدَث فِيهِ إِنْ هِي إِلاَّ إِنتقَال وَتُحول مِن صُورَة إِلَىٰ أُخرىٰ بطَرِيقَة مُطّردَة.

ثَانياً: مِن المَعلُوم لَدىٰ الجَمِيع أَنَّ عَمل العَقْل هُو مُلاَحظَة الحوَادث، وَتمييّز بَعْضَهَا عَن بَعْض، وَالبَحث عَن عِلَلها وَأَسبَابهَا، ثُمّ اَسْتنتَاج الحقَائِق، وَكَثِيراً مَا تَنْتَقل مِن حَقِيقَة عَقلَيّة إِلَىٰ أُخرىٰ مِثلهَا، فَتَكُون العَملِيّة ذِهـنيَّة تَأمـليَّة صِرف بحَيث لاَ يُمكن بحَال بأَنْ تَرجعهَا ـ مِن غَير جَدَل وَنقَاش ـ إِلَىٰ المَادّة، لأَنَّ المَادّة لاَ تُدرَك نَفْسهَا بنَفسهَا، وَلاَ يُكذّب مَا شَهدَت بِهِ. أَنَّ العَين تَرىٰ الشَّمْس جُـرمَاً

(١) أُنظر، كتَاب «اللهُ وَالإِنسَان» لمُصطَفىٰ مَحمُود: ١١٩ الطَّبعَة الأُولىٰ سَنَة (١٩٥٧م). (مِنهُ).

صَغيراً، والعَقْل تُكذبهَا، فَلَو كَان مَادّة كَالعَين لكَذبَت المَادّة نَفْسهَا وَحكَمَت عَلىٰ الشَّيء الوَاحد بأَنَّه كَبِير وَصَغِير.

ثَالثاً: أَنَّ العُلمَاء قَارنُوا مُقَارنَة دَقِيقَة بَيْنَ قِوىٰ الإِدْرَاك وَوَزن المُخ، وَمُقدَار سَطحَه، وَعَدد تَلاَفِيفَه فَلَم يَجدُوا فَرقاً بَيْنَ رَأس إينشتِين وَرَأس أَي هَمَجي. وَلَو كَان العَقْل هُو المُخ لتَنوعَت الرُّؤوس بتَنوع العقُول، وَلَوجَب بأَنْ نَجد فَجوَات وَآفَات فِي المُخ إِذَا نُسي بَعد الحِفظ، وأَنْ يَحصَل الإِلتِئَام إِذَا تَذكّر بَعد النِّسيَان. أَنَّ الآلَة الَّتي تُعطِيكَ صَوتاً خَاصّاً أَو حَركَة مُعَينَة لاَ تُعطِيك غَيرهَا إِلاَّ إِذَا غَيرتَ فِيْهَا وَبَدلتَ. وَالظَّوَاهر المُختَلفَة المُتبَاينَة لاَ تَصْدر عَن مَادّة وَاحدَة بشَكلهَا وَمُوضُوعهَا وَحَقِيقتهَا.

وَبتَقرِيبٍ ثَانٍ أَنَّ للجِسم خَصَائِص، أَظهَرهَا إِذَا قِيل شَكلاً مِن الأَشكَال، كَالتَّثلِيث فَلاَ يَقبَل غَيْرَه مِن التَّربِيع وَالتَّدوِير إِلاّ بَعد زَوَال الشّكل الأَوّل، وإِذَا قِبل صُورَة مِن نَقْش أَو رَسم فَلاَ يَقبل أُخرىٰ. فَإِذَا رُسمَت صُورَة عَلىٰ لَوحَة أَو وَرقَة فَلاَ يُمكنكَ بأَنْ تَرسم عَلَيهَا شَيْئاً غَيرهَا حَتّىٰ تُمحىٰ الأُولىٰ، أَمَّا العَقْل فتَترَاكَم فِيهِ الإِنطبَاعَات المُختَلفَة وَالصُّور المُتنوعَة مِن المَحسُوسَات وَالمَعقُولاَت دُون أَنْ تُمحىٰ الأُولىٰ، بَل تَبقىٰ كَاملَة، وَتَزدَاد قوّة بالثَانيَة، لأَنَّ الإِنْسَان يَزدَاد فَهمَاً كُلّمَا ٱزْدَاد عِلمَاً. وهَذِهِ صفَة مُضَادَة لصِفَات الأَجسَام الَّتي يَلحقهَا الفتُور وَالكَلَل كُلّمَا تَكَدسَت عَلَيهَا الأَثقَال.

أَمَّا القَوْل بأَنَّ العَقْل لاَ يُوجَد مِن غَير مُخّ فَأَمر لاَ أَستَطِيع الجَزم بِهِ وكُلّ مَا أَعلَمه بأَنَّ الجِسم لاَ يُدرك مِن غَير عَقل، وأَنَّ العَقْل ٱسم مُجَرد نَطلقَه عَلىٰ عَمليّة التَّفْكِير وَالنَّظر، وَأَنّه يُغَاير المَادّة، وَالمَادّة تُغَايرَه. أَمَّا ٱفتقَار العَقْل إِلَىٰ الجِسم

فَعِلمَه عِند رَبّي ، كَمَا أَنّي مَا زِلت أَجهَل نَوع العلاَقَة بَيْنَ العَقْل وَالمُخّ ، وَهَل هِي علاَقَة حَالّ وَمَحل ، أَو كعلاَقَة الحَيَاة بالجِسم ، أَو كعلاَقَة الآلَة بمُدِيرهَا . الله أَعْلَم . وإذَا عَجَزنا عَن تَصور وجُود العَقْل بلاَ مُخّ ، وَعَن نَوع العلاَقَة بَيْنَهُما فَذَلكَ لنَقص فِينَا نَحْنُ لاَ لعَدَم إمكَانه فِي ذَاته .

وَبالتَالي ، فَإِنَّ مُصْطَفىٰ مَحمُود أَنْكَر العَالَم الآخر ، لأَنّه عَجز عَن رَسم خَريطَة أَو صُورَة هَندسيَّة لهُ . أَمَّا سقرَاط وَأَمثَاله مِن أَربَاب الذّكَاء والفِكْر فَقَد حَكَمُوا عَلىٰ الّذِين جَحدُوا يَوْم الحسَاب وَالجَزَاء بمَا يَعملُون مِن خَيرٍ أَو شَرٍّ ، حَكَمُوا عَلَيهِم بأَنَّهم أَموَات فِي صُور مُتحركَة كصُور الأَفلاَم .

وَأَكتَفي الآنْ بهَذه الإِشَارَة تَاركاً التَّفصِيل إِلَىٰ كِتَاب مُستَقل يَجمع أَقوَال المُؤمِنين وَالمُلحدِين وكُلّ مَا يَتّصل بهَذَا المَوضُوع الخَطِير ، وَاسم الكِتَاب « الآخرَة والعَقْل » . وَغرَضي مِن هَذِهِ الكَلمَة أَنْ أَستَدرك بهَا مَا لَم أَتعرض لهُ فِي رَدّي عَلىٰ الكَاتب الَّذِي نَشرتَهُ فِي صُحف القَاهرَة وَبيرُوت ، ثُمَّ أَدرَجتَه فِي كتَابي « الإِسْلاَم مَع الحَيَاة » .

وَختَاماً أَودّ التَّنبيه إِلَىٰ أَنَّ كَلاَم مُصْطَفىٰ مَحمُود عَن : « لُغز مَا بَعد المَوْت كَلاَم نَاقل لاَ مُؤلّف ، وَمُتَرجم لاَ وَاضع . أَنّه لاَ يَملك مِمَّا يَذكرَه فِي كتَابهِ إِلاَّ التَّبسِيط وَالتَّوضِيح ، وَتَحوِيل الغَامض إِلَىٰ مَفهُوم . فَلَقَد سَلَخ جَمِيع المُلاَحظَات الَّتي دَوّنها « ول ديورانت » تَحتَ عُنوَان المَوْت فِي كتَابهِ « مَباهج الفَلْسَفَة »[1] . أَمَّا الأَفكَار الَّتي ذَكرهَا مُصْطَفىٰ مَحمُود فِي المَوضُوعَات الأُخَر فَقد اسَتوحىٰ الكَثِير مِنْهَا مِن كتَاب « فَلسَفَة مِن الصِّين » للفَيلسُوف الصِّيني الشَّهير « لين

---

(١) أَنظر ، مَبَاهج الفَلسفَة : ٢ / ٣٠٣ ، تَرجَمَة أَحمَد الأَهوَاني ، طَبْعَة ١٩٥٦ م . (مِنْهُ ﷺ) .

يو تانغ » وَبخَاصّة مَا ذكَره بعُنوَان: « فِي كَونِنَا ذَوي مِعدَة »[1]. ولَيْسَ فِي كتَاب « الله وَالإِنسَان » أيّة إِشَارَة إِلَىٰ أحد الكتَابَين.

وَالحَقّ يُقَال: أَنَّ مُصطَفَىٰ مَحمُود أُوتي أَلمعيَّة فَائِقَة فِي تَفْسِير الأَلغَاز وَحَل الطَّلاَسم، كَمَا أُوتي مَقدرَة بَالغَة عَلىٰ الإِستفَادَة مِن كُتب الآخرِين.

وَالخُلاَصَة: أَنَّ العَقْل لاَ يَحكُم ببُطلاَن فِكرَة، أَو آستحَالَة شَيء إِلاَّ إِذَا آستَلزَم القَوْل بِهِ إِجْتمَاع النَّقِيضَين أَو إِجْتمَاع الضّدَين كوجُود الظُّلمَة وَالنُّور مَعاً، والقَوْل بوجُود الحَيَاة بَعد المَوْت لاَ يَستَلزم شَيْئاً مِن ذَلكَ.

---

(١) أنظر، « فَلسَفَة مِن الصّين » للفَيلَسُوف الصّيني الشَّهير « لين يوتانغ » وَبخَاصّة مَا ذكَره بعُنوَان: « فِي كَونِنَا ذَوي مِعدَة »: ٥٦ التَّرجَمَة العَربيّة طَبْعَة (١٩٥٣م). (مِنهُ ﷺ).

السَّبَب

قَالَ صَاحب كتَاب « الله والإِنْسَان » مُصْطَفىٰ مَحمُود :

« البَاب يَصفق لأَنَّ الرِّيَاح تهب . وَالرِّيَاح تَهب لأَنَّ هُنَاك تَخلخلاً فِي طَبقَات الجَو . وَهُنَاك تَخلخل فِي طَبقَات الجَو . لإِختلاَف دَرجَات الحَرارَة . وَقَانُون السَّببيَّة الَّذِي يَقُول بتَرَابط الحَوَادث فِي سِلسلَة مِن الأَسبَاب هُو مُجَرَّد مُلاَحظَة عِلميَّة مَأخُوذَة مِن وَقَائِع جُزئيَّة ... ولَكنَّه لاَ يَنطَبق عَلىٰ حَدَث كُلِّي . لأَنَّ الكُلّ غَايَة وَسَبَب فِي ذَاته ، وَلاَ يَحتَاج إِلَىٰ سَبَب مِن الخَارج »[1] .

أَنَّ هَذِهِ الكَلِمَات إِنْ عَبرّت عَن شَيء فَإِنَّها تُعَبّر عَن مزَاج كَاتبهَا وَتَفكِيره ، لاَ عَن الكَون وَأَسبَابه . رَأىٰ قَلمَه يَتحرك ، لأَنَّ يَدَه هِي المُحرِّك لهُ ، يَدَه تَكتُب بالْقَلَم ، لأَنَّه أَرَاد الكتَابَة ، وَأَرَاد الكتَابَة ، ليَقبَض رَاتبه كَاملاً مِن صَاحب مَجلّة « رَوز اليُوسف » ؛ وَأَرَاد الرَّاتب لأَنَّه يَرد الحَيَاة وَإِرَادَة الحَيَاة لاَ تُعَلل وَلاَ تَحتَاج إِلَىٰ سَبَب .. كَذَلكَ الوجُود فِي مَجمُوعَة لاَ يُعَلل وَلاَ يَحتَاج إِلَىٰ سَبَب !... وَهَذَا الإِستدلاَل تَمَاماً كالإِستدلاَل بتَدَيُن الكَلب عَلىٰ تَدَيُن الفَلاَسفَة ! .

أَجل ، أَنَّ الشَّجرَة تَحيَا وَتَنمُو وَتُثمر إِذَا تَوفرَ لهَا التُّرَاب وَالمَاء وَالضَّوء

---

(١) أُنظر ، كتَاب « اللهُ وَالإِنْسَان » لمُصطَفىٰ مَحمُود : ١٢٤ الطَّبعَة الأُولىٰ سَنَة (١٩٥٧ م) . (مِنهُ ﷺ) .

وَالهوَاء، وَلَكن مِن أَين جَاءَت هَذِهِ العَنَاصر ؟ وَكَيف تَكوّنَت ؟ وإذاكَانَت الأَرْض قِطعَة مِن الشَّمْس، وَالمَاء مِن البُخار الَّذِي تَصَاعد مِن الأَرْض بَعد أَنْ أَخذَت تبر د تَدريجيّاً؛ فَمِن أَين جَاءَت هَذِهِ الغَازَات ؟ ! وَمَن أَوجَد هَذِهِ المَلاَيين مِن الكوَاكب وَالنّجُوم الَّتي تَزخَر بهَا السَّمَاء، والَّتي قَالَ العُلمَاء أَنَّ بَعضَهَا يَبعُد عَن الأَرْض مَسَافَة يقطعهَا الضَّوء فِي أَلف مليُون سَنَة. وَمَعلُوم أَنَّ سُرعَة الضَّوء تَبلُغ (١٨٦) أَلف مِيل فِي الثَّانيَة.

ومَهْمَا اختَلَف أَسَاتذَة العِلْم الحَدِيث فَإِنَّهُم يَتفقُون جَميعاً عَلىٰ أَنَّ الكَون أَرحَب وَأَعظَم مِن أَنْ تَتصورَه العقُول[١] وَأَنّه لاَ حَقَائق مُطلقَة، بَل نسبيَة، وَأَنّه لاَ يَقن أَبداً فِي الطَّبِيعَة، أَي أَنَّ مُلاَحظَة العُلمَاء لظَاهرَة مَا لاَ تَصل إِلَىٰ مَرتبَة عِلْم اليَقِين، وإِنَّمَا هِي نَظريَّات وَانْعكَاسَات خَاصّة تَتبَدل مِن حِينَ إِلَىٰ حِينَ وَلاَ يَعتَمد عَلَيهَا كحَقِيقَة ثَابتَة «فَقَد اتَّضح فِي هَذَا القَرن أَنَّ كُلّ المَعَارف الطَّبيعيَة الَّتي حَصَل عَلَيهَا العِلْم لَيسَت إِلَّا مَعرفَة إِحصَائيَة تَختَفي وَرَاءهَا حَقِيقَة الأَشيَاء وَحَقِيقَة الدُّنيَا بالَّذي فِيهَا مِن عِلَل وَمَعلُولاَت. وأَنَّ هَذِهِ الدُّنيَا المُختَفيَة ورَاء مَا نَعلَم مِن ظوَاهر لَيسَت مَعرُوفَة، وَبنَاء عَلىٰ نَظريَة إِينشتِين غَير قَابلَة لأَنْ تَعرف، بَل غَير قَابلَة للتَّصور. وأَنَّ عِلْم الطَّبِيعَة فِي حَالَة مِن الفُوضىٰ لاَ يَكَاد يَعرف أَين يَقف. وَالبَحث العِلمي لاَ يُفضي إِلَىٰ مَعْرفَة طَبيعَة الأَشيَاء البَاطنيَة»[٢].

---

(١) اقرأ كتَاب «الله والعِلْم الحَدِيث» للأُستَاذ عَبدالرّزاق نُوفل وكتَاب «العِلْم يَدعُو إِلَىٰ الإِيمَان» لكُرسي موريسون تَرجمَة الأُستَاذ مَحمُود صَالح الفَلكي، وكتَاب «مَع الله فِي السَّمَاء» للدّكتُور أَحمَد زَكي، وَكتَاب «التَّكامل فِي الإِسْلاَم» للأُستَاذ أَحمَد أَمِين المُفتش بوزَارَة التَّربيَة العرَاقيَة. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، «موَاقف حَاسمَة فِي تَأرِيخ العِلْم» لجيمس، تَرجمَة الدّكتُور أَحمَد زَكي: ٣٤٢، وكتَاب

وإذَا قَضىٰ العُلمَاء فِي مُختبرَاتهم وَمُعدَاتِهم أَمداً طَويلاً يُـلاَحظُون وَيُـدققُون وَمَع ذَلكَ لَم يَصلُوا إِلَىٰ حَقِيقَة مُطلقَة يَقينيَّة لظَاهرَة وَاحدَة مِن ظوَاهر هَذَا الكَون العَجِيب، فَكَيف عَرف مُصْطَفَىٰ مَحمُود هَذَا الكَون بكَامله ؟ والَّذِي يَـحوي مِـن نَوع النّجوم فَقَط مَا يَعد بـالبَلاَيِّين لاَ بـالمَلاَيِّين ؟ وَكَـيف عَـرف، وَهُـو يُـحرر مجلّة « رَوز اليُوسف » أَنَّ هَذَا الكَون العَظِيم بأَسرَاره، وَعَجَائبَه، وَدقَّته، وَجمَاله لاَ يَحتَاج إِلَىٰ سَبَب ؟ ! قَالَ أَفلاَطُون: عَلَمتُ أَنّي لاَ أعِلَم شَيْئاً. وقَالَ نيُوتن: أَنَّ عِلمي بحقَائِق الأَشْيَاء أَقل مِن عِلم الأَطفَال بمَا فِي أَعمَاق البَحر. وقَالَ صَاحب كتَاب « الله والإِنْسَان »: لاَ شَيء وَرَاء الطَّبيعَة !. أبهَذه السُّرعَة يَا أُسـتَاذ تُـعطي أَحكَاماً عَلىٰ الله ؟ ! وَبهَذه السّهُولَة تُطرَح أَقوَال الأُلُوف مِن الأَنْـبيَاء وَالفَـلاَسفَة وَالعُلمَاء وَالفُقهَاء ؟ !.. إِذَن لاَ شَيء أَسهَل وَأَهـون مِـن طَـرح أَقـوَالك وَآرَائك. وعَلىٰ الرَّغم مِن أَنَّهَا لاَ تَحتَاج إِلَىٰ رَدّ فَإِنّنَا نَذكُر المُلاَحظَات التَّاليَة:

أَوّلاً: قَالَ: أَنَّ الجزء يَحتَاج إِلَىٰ سَبَب دُون الكُلّ، مَع أَنَّ الكُلّ هُنا عبَارَة عَن المَجمُوعَة الوَاسِعَة مِن الكَائنَات وَالحوَادث، وَلاَ يُمكن بأَنْ يُـوجد هَـذَا الكُـلّ بدُونهَا، وإِذَا ٱحتَاج كُلّ شَيء مِنْهَا إِلَىٰ سَبَب يَنْتج أَنَّ الكُـلّ الَّـذِي يَـضم جَـمِيع الأَشْيَاء مُفتَقر إِلَىٰ سَبَب، أَنَّ البَيْت يَتَأَلّف مِن الحِيطَان وَالسَّقف، وَمَعنىٰ ٱفـتقَار الحِيطَان وَالسَّقف إِلَىٰ البَاني أَنَّ البَيْت يَحتَاج إِلَيهِ ـ مَثلاً ـ إِذَا وجدَ جَـمَاعَة كُـلّ وَاحد مِنْهُم أَسوَد فَلاَ يَصح أَنْ نَقُول هَؤُلاَء مِن البِيض. وَهكَذَا نَجد دَائماً فِي مَنطق هَذَا الكَاتب مَا يَكفي للرَّد عَلَيهِ.

ثَانياً: أَنَّ التَّفصِيل بَيْنَ الكُلّ المَوجُود فِعلاً وَأَجزَائه خَطَأ ظَـاهر، لأَنَّ قَـانُون

↔ مَنَاهج الفَلْسَفَة لديورَانت: ١ / ٧٢. (مِنْهُ ﷺ).

السَّببيَّة عَقلي، وَالقوَانِين العَقليَّة لاَ تَقبَل التَّخصِيص وَالْإِستثنَاء، وإِنَّمَا تَقبلَه القوَانِين الوَضعيَّة وَالتَّشريعيَّة ـ مَثلاً ـ لنَا أَنْ نَضع قَانُوناً يَنصّ عَلىٰ أَنَّ كُلّ مَن يُخَالِف السَّير يُعَاقب بكَذَا إِلَّا إِذَا كَان غَريباً عَن الوَطن، ولَيْسَ لنَا أَنْ نَقُول بأَنَّ المُسَاويَّين لثَالث مُتساويَان إِلَّا إِذَا كَانَا مِن خَشَب[1].

ثَالثاً: لَو كَان الكُلّ هُو سَبَب الأَسبَاب للَزم أَنْ لاَ يَكُون هُنَاكَ قوّة وَاعيَة تُنشيء وَتُنَظم، إِذْ لاَ شَيء فِي الوجُود إِلَّا كُتَل مِن المَادّة لاَ حَول لَهَا وَلاَ قوّة، مَع أَنَّ الكَاتب قَالَ مَا نَصّه بالحَرف الوَاحد:

« أَنَّ حَقِيقَة الحَيَاة غَير مَعرُوفَة. أَنَّهَا حَركَة دبَّت فِي المَادّة. حَركَة وَاعيَة هَادفَة حرّة، وَلعَلهَا مَادّة. وَلعَلها أَي شَيء. وَلكنّها لَيْسَت الجُثّة عَلىٰ كُلّ حَال »[2].

أَلَيْسَ هَذَا اعترَافاً صَريحاً بأَنَّ وَرَاء المَادّة « الجُثّة » قوّة مُدركَة « وَاعيَة » و « هَادفَة » تَعمَل لغَايَة حَكِيمَة و « حرّة » مُختَارَة؟! ثُمّ أَلاَ يَتنَافىٰ هَذَا مَع قَوْله فِي صَفحَة أُخرىٰ: « الله فِي العَقْل الحَدِيث مَعنَاه الطَّاقَة الخَام الَّتي فِي دَاخلنَا »[3]؟! وَهكَذَا نَاقض الكَاتب نَفْسَه بنَفسَه.

وقَالَ فِي صَحفَة أُخرىٰ: كَان اسمَه فِي فَلسَفة شوبنهور الْإِرَادَة، وفِي فَلسَفَة نِيتشَه كَان اسمَه المُطلق، وفِي فَلسَفة مَاركس كَان اسمَه المَادّة، وفِي فَلسفَة بارجسون كَان اسمَه الطَّاقة الحَيّة، وفِي الأَديَان كَان اسمَه الله، وَكثُرَت أَمَامي الأَسمَاء، وَكثُرَت الأَصَابع الَّتي تُشِير، وَاتّفقَت كُلّهَا عَلىٰ رَغم اختلاَف أَلوانهَا

---

(١) ذَكَرتُ هَذَا النَّقض فِي كتَاب « الْإِسْلاَم مَع الحَيَاة » وَهُو مِن جُملَة النّقُوض الَّتي أَورَدتها عَلىٰ الكَاتب؛ (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، كتَاب « اللهُ وَالْإِنْسَان » لمُصطَفىٰ مَحمُود: ٩٦ الطَّبعَة الأُولىٰ سَنَة (١٩٥٧م). (مِنْهُ ﷺ).

(٣) أُنظر، كتَاب « اللهُ وَالْإِنْسَان » لمُصطَفىٰ مَحمُود: ١١١ الطَّبعَة الأُولىٰ سَنَة (١٩٥٧م). (مِنْهُ ﷺ).

عَلَىٰ أَنَّ هُنَاك شَيْئاً دَاخل الخبَاء يُحرك الخيُوط .

أَجل يَا أُستَاذ ، إِنَّ فِي الخَفَاء حَقِيقَة مُحركَة لاَ يُنكرهَا حَتَّىٰ شوبنهور ، وَماركس ، وَنيتشَه الَّذِي قَالَ عَلَىٰ لسَان زرَادَشت : « إِنَّ الله قَد مَات » . أعْتَرف هَؤُلاَء وَغيرهم بأَنَّ فِي الخفَاء قوّة فَاعلَة ، حَيْث لَم يَجدُوا وَسيلَة إِلَىٰ الإِنكَار ، وَأَشَاروا إِلَيهَا بعبَارَات شَتّىٰ ، وإِنْ دَلّ هَذَا عَلىٰ شَيء فَإِنَّمَا يَدل عَلىٰ أَنَّ تِلكَ القوّة لاَ يُمكن مَعرفتهَا بالكُنْه وَالحقِيقَة ، بَل بآثَارهَا وَأَفعَالهَا .

بَقِيَت حَقِيقَة المَاء مَجهُولَة مِئَات السّنِين ، وكَان فَلاَسفَة الإِغرِيق كسُقرَاط ، وَأفلاَطون ، وَأرسطُو يُعبرُون عَنْهُ بالجَسم البَسِيط السَّائل بطَبعهِ ، ثُمّ اكتَشف العِلْم أَنَّه مَركب مِن الأُوكسيجِين وَالهَيدروجِين . وحَدِيثاً تَبيَّن للعُلمَاء بأَنَّ فِيهِ موَاداً أُخرىٰ لاَ تَدخل تَحت المَجهَر ، وإِذَا كَانَت حَقِيقَة المَاء الَّذِي نَستَعمله فِي كُلّ شَيء وَفِي كُلّ آنٍ غَير مَعلُومَة بجَمِيع نوَاحيهَا عِندَ العُلمَاء ، فَكَيف يَستَطيعُون مَعْرفَة خَالق الكَون وَحَقِيقَته ؟ ! قَالَ أَحد العَارفِين : أَنّىٰ لهَذَا الإِنْسَان بأَنْ يُحِيط بعَظمَة الكَون وَخَالقهِ ، وَقَد كَان نُطفَة ، وَلاَ يَزَال جَاهلاً مُسيّراً إِلَّا مَا كَان مِن إِرَادَته فِي اتّبَاع طَرِيق الخيْر وَطَرِيق الشّر ؟ ! .

لقَد حَار العُلمَاء فِي سرّ الكَون بَعد أَنْ أَدركُوا وَتَحققُوا أَنّه لاَ يَكتَشف فِي المَعمَل ، وَلاَ فِي جُزء مِن أَجزَاء الطَّبِيعَة ، وَبَعد أَنْ أَخطَأت جَمِيع الفرُوض وَالحلُول المَاديّة التجأوا إِلَىٰ القَوْل بأَنَّ وراء الطَّبِيعَة قوّة مُدركَة تَخلق وَتُبدع .

وَقَد يُقَال : أَنَّ فِكرَة قَانُون السَّببيَّة تَعْتَمد عَلىٰ أَنَّ قَائلِهَا لَم يَرَ مَوجُوداً بلاَ مُوجد وَهَذَا لاَ يَدل عَلىٰ أَنّه لَم يُوجد وَلَن يُوجد شَيء مِن غَير سَبَب ، إِذْ مِن الجَائز أَنْ يَتَحقّق شَيء كَذَلكَ ، ونَحْنُ لاَ نَعلَم بهِ . وقَدِيماً وَقبل اكتشَاف الكَهربَاء

قِيل: لاَ تُوجَد نَار بلاَ دُخَان، ثُمَّ وجدَت هَذِهِ النَّار.

وَالجَوَاب: أَنَّ العَقْل هُو الَّذِي يَحكُم بأَنَّ الوجُـود يَـحتَاج إِلَـىٰ مُـوجد، وَلاَ للرُّؤيَة وَالإستقرَاء، فهُو يَرفض رَفضاً بَاتّاً بأَنْ يَكُون العَالَم فِي جُملَته قَد وجـدَ بطَرِيق الصّدفَة وَالإتّفاق، لأَنَّ الصّدفَة هِي الفُوضىٰ بِعَينهَا، وَالعَالم يَسُودَه النّظَام وَالإتّسَاق. وَإجتمَاع النّظَام وَالفُوضىٰ محَال، وَمَا أَدّىٰ إِلَىٰ المُحَال فهُو مُـحَال، يَكُون حُكم العَقْل بوجُود الخَالِق بَديهيّاً كحُكمه بأَنَّ الكُلّ أَكبَر مِن الجُزء.

ثُمَّ مَن الَّذِي خَلَق فِي كُلّ صِنف زَوّجَين الذّكر وَالأُنثَىٰ؟ ولمَاذَا لَم تَكُن جَمِيع الأَصنَاف ذُكُوراً فقَط أَو أُنَاثاً فقَط؟ وإِذَا أَجَاب مُجِيب بأَنَّ الغَايَة هِي حِفظ النَّوع قُلنَا لهُ: أَحسَنت، كَذَا نَقُول نَحنُ، وعَلَيهِ فَلاَ يَبقىٰ مَكَان للصّدفَة.

وَإِذَا أَردَت بأَنْ أَذكُر أَمثلَة مِن نظَام الكَون وَأَسرَارَه مَلأَتُ مُجلّدَات، ثُمَّ لَـم أَفعَل شَيْئَاً. لذَا أَكتَفي هُنَا بمثَال قَرَأتهُ قَرِيبَاً فِي كـتَاب «أَضـوَاء عَـلىٰ الأَرْض وَالفضَاء» لـ«مَارغبت أ. هَايد»، تَرجمَة الأُستَاذ أَسعَد نَجّار. قَالَ: يُـوجَد فِـي القَارّة الجنُوبيَة المُتجَمدَة نَوع مِن الطّيُور يُسمّىٰ «البَانجوين» تَضع الأُنثَىٰ بَيضهَا فِي أَشهَر الشّتَاء المُظلمَة، حَيْث تَتَلبَد الثّلُوج فِي الأَرْض والسَّمَاء، تَـضعَه فِـي جَيب جِلدي فِي الطَّرف الأَعْلَىٰ مِن رجلهَا، وَتَبقىٰ الصّغَار، فِي ذَلكَ الجَيب إِلَىٰ أَنَّ تَقوىٰ وَيَشتَد مرَاسهَا. فَهل وَجـد هَـذَا الجَـيب صـدفَة وَجُـزَافـاً دُون إِرَادَة وَحِكمَة؟! وإِذَا كَان الأَمر كَذَلكَ فَلمَاذَا وجدَ الجَيب فِي رَجل الأُنثَىٰ، وَلَم يُوجد فِي ظَهرهَا؟!.

وَقَد يَقُول القَائِل: إِذَا حَلّت الحَيَاة فِي جِسم أَخَذت مَجرَاها الطَّبِيعي وَكَيْفِيّته حَسَب حَاجَاته وَمُحِيطَه دَافعَة بِهِ إِلَىٰ الأَمَام، سَالكَة طَرِيق التَّرتِيب وَالتَّنظِيم، أَي

أَنَّ الحَيَاة هِي القوّة الخَالقَة وَالمُبدعَة فِي الكَائِن الحَيّ.

الجَوَاب:

أَنَّ الحَيَاة عَامل طَبِيعي مَا فِي ذَلكَ رَيب، وَلكنَّها لاَ تَسِير عَلىٰ نظَام وَتَرتِيب وَاع بحَيث لاَ تُحِيد عَنْهُ بحَال، وَلَو كَانَت كَـذَلكَ لأُمكَـن التَّـنبؤ عَـن مَـجرَاهَـا وَسلُوكهَا فِي كُلّ شَيء، وَٱستطَاع المَرء بأَنْ يَتنبأ بمقدَار مَا سَـتَحمله غَـداً هَـذِهِ النَّبتَة الصَّغِيرَة مِن الثَّمر وَالوَرق وَالزّهر، وَكَم تَزن مِن الخَشَب، وإلَـىٰ أي جـهَة تُتجَه فُروعهَا، وَلَكن لَم يدّع أَحد مِثل هَذِهِ الدّعوىٰ[1].

قَالَ «ول ديورانت» فِي كتَاب «مَبَاهج الفَلْسفَة»: «أَنَّ التَّفسِير المِـيكَانِيكي أَخَذ يَختَفي مِن الفَلْسفَة، وعِلْم الحَـيَاة، وعِـلْم وَظَـائِف الأَعـضَاء، بَـل وعِـلْم الطَّبِيعَة»[2]. ثُمَّ نَقل أَقوَالاً لعُلمَاء العَصر الحَدِيث تَدل بصرَاحَـة عَـلىٰ أَنَّ هَـذِهِ النَّظريَة أَصبَحت فِي خَبر كَان. هَذَا إلَىٰ أَنَّ التَّرتِيب مـوجُود أَيـضَاً فِـي جَـمِيع العنَاصر غَير الحيَّة، حَتَّىٰ كُتلَة الحَـدِيد تُـمثّل التَّـوازن بَـيْنَ طَـاقَتهَا الدَّاخـليَة وَالطَّاقَات الخَارجيَّة. وعَلَيهِ فَالذي أَوجَد التَّرتِيب وَالتَّوَازن فِي الجوَامد أَوجدهَا يّة، وهِي القوّة المُدركَة الَّتي تَكمُن وَرَاء هَذِهِ الحَيَاة.

(١) أنظر، «أَضوَاء عَلىٰ الأَرْض وَالفَضَاء» لـ« مَارغبت أ. هَايد»، تَرجمَة الأُستَاذ أَسعَد نَجّار: ٣٤.

(٢) أنظر. مَبَاهج الفَلسفَة: ١ / ١١. تَرجَمَة أَحمَد الأَهوَاني، طَبْعَة ١٩٥٦م. (مِنْهُ).

دَام وجُود الخَالِق لَمْ يَثبُت بالعِلم.

وَنُجيب بأَنَّ الطَّرِيق الطَّبيعي إِلَىٰ مَعْرِفَة الله سُبْحَانَه وَالْإِيمَان بـهِ هُـو العَـقْل، والنَّظر إِلَىٰ مَلكُوت السَّموَات والْأَرْض، لمَا قَدّمنَا، وَقَد رَجعنَا إِلَيهِ فَـوجدنَاه لاَ يَتقبل وجُود الكَون بلاَ مُوجد، وَأَنَّ مَا فِيهِ مِن تَنظِيم وَاتّسَاق قَد وجدَ بـالصّدفَة وَالْإتفَاق، وَلَو وَجهنَا هَذَا السّؤال إِلَىٰ المُشككِين: كَـيف وجـدَ الكَـون؟ وَمَـن أَوجدَه؟ ولمَاذَا وَجدّد؟ لإِرتبكُوا، وَلَم يَهتدُوا إِلَىٰ جوَاب، وَلَو كَان لهُم شَيء مِن العِلْم والمَنطق لأَجَابوا بثقَة وَاطمئنَان. لَو أَنَّ قَانُون الجَـاذبيَّة وَنَـظرِيَة النِّـسبيَّة وَسُنن القوّة وَالطَّاقة وَمَا إِلَىٰ ذَلكَ يَكفي فِي تَفسِير النّظَام وَتَعلِيل الكَون لإِحتجُوا بِهِ وَاعتَمدُوا عَلَيهِ.

وَإِنْ قَالُوا وجدَ الكَون مِن غَير مُوجد، قُلنَا: بَل أَوجَـدته العـلّة الأُولىٰ. وَإِنْ طَالبُونا بالدَّلِيل سَأَلنَاهُم بدَورنَا عَن دَلِيلِهم، وإِنْ قَالوا: أَنَّ كُلاًّ منَّا لاَ يَـملك أَيَّـة حَقِيقَة يَعتَمد عَلَيهَا. فَعَلينَا جَميعَاً أَنْ لاَ نَنفي وَلاَ نُثبت، أَجبنَاهُم.

أوّلاً: أَنَّ تَفسِير الكَون بالإِرَادة الإِلهيَّة أَقرَب إِلَىٰ العَقْل وَالضَّـمِير مِـن فِكـرَة وَجُودَة لاَ سَبب، أَي أَنَّ أَلفَة العَقْل تَتطلب سَبَباً لهَذَا العَالَم، وَأَقرَب الأَسبَاب أَنْ يَكُون مِن صُنع خَالق مُبدع يُوجّه كُلّ شَيء نَحو غَايتَه الحَكِيمَة، وَثَمرَته المُفِيدَة، أَمَّا وجُوده صدفَة مِن غَير عَقل وَلاَ أَخلاَق وَلاَ حقُوق وَلاَ وَاجبَات فَـبَعِيد عَـن العَقْل كُلّ البُعد. وَمِن هُنا نَجد الَّذِين أَنكرُوا عَلىٰ الأَنبيَاء رسَالاَتهم لَم يَـجحدُوا لفِكرَه الإِلُوهيَّة، بَل رَأينَاهُم يَعترفُون بوجُود خَالق الكَون، وَلكنَّهُم يُـنكرُون أَنْ يَكُون هَؤُلاَء رُسلاً مَبعُوثِين مِن الله إِلَىٰ عِبَادِهِ.

ثَانياً: لَقَد تَقدّم مَعنَا أَنَّ التَّجربَة لَيسَت كُلّ المَعرفَة، وَقَد اعتَقد العُلمَاء بحَقَائِق

كَثيرَة، مَع أَنَّ العِلْم يَعْجَز عَن إثبَاتهَا بالتَّجربَة، نَذكر مِنْهَا المِثَال التَّالي:

قَالَ العُلمَاء: أَنَّ كَمية القوّة المَوجُودَة فِي الكَون ثَابتَة لاَ تَزِيد وَلاَ تَنْقُص، لأَنَّها إذَا لَم تَكُن كَذَلكَ أَصبَحت جَمِيع المَقَايِّيس والنَّظريَّات بَاطلَة، حَيث لاَ يُمكن ضَبطهَا وَاستمرَارهَا عَلىٰ نَهْج وَاحد، بَل تَتَغيَّر بَيْنَ حِينَ وحِينَ تَبعَاً لزِيَادَة القوّة وَنقصَانها، مَع أَنَّ لَدينَا مَقَايِّيس عِلميَّة تَضبط الحَقَائِق بكُلّ دقّة. هَذَا مَع العِلْم بأَنَّ مَبدَأ بقَاء القوّة كَمَا هِي لاَ يُمكن إثبَاته بطَرِيق التَّجربَة. لأَنَّ العُلمَاء مُجتَمعِين لاَ يَستَطيعُون أَنْ يَطَّلعُوا عَلىٰ جَمِيع مَا فِي الكَون مِن قِوىٰ، ثُمّ يَتَأكدُوا بأَنّها ثَابتَة رَاسخَة مَدىٰ الدّهور وَالعُصُور.

إذَن لَيْسَ مِن الضَّروري لنُؤمن بشَيء أَنْ نَرَاه رَأي العَين، فَقَد نُؤمن بمَا نرَاه اَستنتَاجاً وَاَستنبَاطاً مِن المَعقُولاَت إيمَاننَا بأَنْفسنَا، كَالمثَال المَذكُور، وَقَد لاَ نُؤمن بمَا نَرَاه رَأي العَين اَحترَاساً مِن خدَاع العُيُون. وَلَو حَصرنَا أَسبَاب المَعرفَة بالتَّجربَة فَقَط لتَهدَمت مَعَارفنَا أَو أَكْثرهَا مِن الأَسَاس.

ثالثاً: نَعِيد هُنا هَذَا التَّساؤل الَّذِي ذَكرنَاه فِي كتَاب «الإِسْلاَم مَع الحَيَاة»: هَل هُنَاك مُختَرع وَاحد وَضع تَصمِيمَه عَلىٰ أَسَاس نَظريَة الإِلحَاد بحَيث لَو وَضعَه عَلىٰ أَسَاس الإِيمَان بالله لفَشل التَّصمِيم، وَاَستحَال أَنْ يَتوصَل إِلَىٰ شَيء؟.

الأَدْيَان وَتَطَور الوَعي

قَالَ صَاحب كتَاب «الله والإنْسَان»، مُصْطَفىٰ مَحمُود:

«أَنَّ الأَديَان تَمر بمَرحلَة إنهيَار تَشبه المَرحلَة الَّتي مَرّت بهَا دِيَانَة الإغـرِيق، وَهُنَالك صَحفَة ثَانيَة فِي طَريقهَا لأَنْ تُطوىٰ وَالسَّبب هُو نَفس السَّبب فِي الحَالَين. هُو العِلْم وَتَطور الوَعي وَظهُور المَعَارف الجَدِيدَة»[1].

يَفتَرض هَذَا القَائِل أَنَّ جَمِيع الدّيَانَات حَتّىٰ الإسْلاَم جَـهلٌ وَخـرَافَـة تَـمَاماً كديَانَة الإغرِيق، والنَّتِيجَة الحَتميَة لهَذَا الإفترَاض أَنّه كُلّمَا تَقَدّمت العُلُوم تَأَخّرَت الأَديَان. فَالمُقدّمَة بَديهيَة، والنَّتِيجَة طَبِيعيَّة!.

ذَكّرني هَذَا القَوْل بمَنطق السّفسطَائيّين وَأَقيسَتهم المَاجنَة... رَأىٰ سُفسطَائي شَابّاً، فَقَال لهُ: هَل تُحبّ أَنْ أُبَرهن لَكَ بالعَقل عَلىٰ أَنّك حِمَار؟.

قَالَ الشَّاب: تَفَضّل وَأتحف السَّمع.

قَالَ السُفسطَائي للشَّاب: أَنَا لَست أَنْتَ، أَلَيْسَ كَذَلكَ؟.

الشَّاب: أَجل، أَنْتَ غَيري؛ وَأَنَا غَيرُك.

السَّفسطَائي: وَأَنَا لَستُ حمَاراً.

الشَّاب: بكُلّ تَأكِيد أَنَّ الحمَار يَمشي عَلىٰ أَرْبَع، وَأَنْتَ تَمشي عَلىٰ رِجلَين.

---

(١) أُنظر، كتَاب «اللهُ وَالإِنْسَان» لمُصطَفىٰ مَحمُود: ١٠٨ الطَّبعَة الأُولىٰ سَنَة (١٩٥٧م). (مِنْهُ ﷺ).

السّفسطَائي ، وَقَد ٱمتَلأ سرُوراً بهَذَا الإِنْتصَار : إِذَن أَنْتَ حمَار .

وَلاَ فَرق بَيْنَ هَذَا القِيَاس ، وبَيْنَ تَشبِيه الإِسْلاَم ـ مَثلاً ـ بدِيَانَة الإِغرِيق . لَقَد قَضىٰ العِلْم عَلىٰ عَقِيدَة الإِغريقيِّين ، لأَنَّهُم عَبدُوا أَعضَاء التَّنَاسُل ، وَالنَّبَات ، وَالحَيَوَان ، والإِنْسَان ، وَٱرتَكب بَعْض آلهَتهم ، وَهُو زيُوس ، أَسوَأ العُيُوب وَأَقبَح الجَرَائِم ، فَقَتل أَبَاه وَضَاجع بنْتَه ، وَطَارَد العَرَائِس وَغَازل البَنَات .

أَمَّا الإِسْلاَم فَقَد حَارَب الوَثنيَّة بشَتّىٰ أَلوَانهَا ، وَبكُلّ وَسِيلَة ، وَدعَا إِلَىٰ الفَضِيلَة وَمكَارم الأَخلاَق ، وَحَثّ عَلىٰ العِلْم ، وَأَثنَىٰ عَلىٰ الرَّاسخِين بِهِ ، وَذَم التَّقلِيد وَشَبّه الجَهل بظُلمَات ، بَعْضهَا فَوق بَعْض ، وَالجَاهل بالمَيْت ، وَبالأَعمىٰ الأَصم الأَبكَم : وَهل يَرفع العَدوّ مِن شَأن عَدوّه ؟ ! وَهَل يَقضي العِلْم عَلىٰ دِين يَقُوم عَلىٰ أَسَاس الحَقّ ، وَالعَدل ، ويَقُول : ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1] ؟ ! وَهَل يُنكر العِلْم نُبوّة مَن قَالَ : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتمم مَكَارِم الأَخْلاَق »[2] . وَقَالَ ﷺ : « بُعِثْتُ بِالْحَنَفِيَّة السَّهلة السَّمحَة »[3] ! وَهَل يُحَارب العِلْم دِيناً يَخرج النَّاس مِن العبُودِيَة إِلَىٰ الحرّيَّة ، وَمِن الجَهل إِلَىٰ العِلْم ، وَمِن الفقر إِلَىٰ الغِنىٰ ؟ ! وَلَو صَحّ قَوْل هَذَا الكَاتب بأَنَّ العِلْم إِذَا تَقدّم تَأَخر

(١) ٱلْمُجَادِلَةِ : ١١ .

(٢) أُنظر ، بدَايَة المجْتَهد : ٢ / ٣٢١ ، السُّنن الْكُبْرَىٰ : ١٠ / ١٩٢ ، تُحفَة الأَحْوَذي : ٥ / ٤٧٠ ، نُظم دُرَر السّمطَين : ٤٢ ، كَنْز العُمَّال : ١١ / ٤٢٠ ح ٣١٩٦٩ ، فَيض القَدِير شَرْح الجَامِع الصَّغِير : ٥ / ٢٠٩ ، كَشف الْخَفَاء : ١ / ٢١١ ح ٦٣٨ ، مَكَارِم الأَخْلاَق للطَّبرسي : ٨ ، مَكَارِم الأَخْلاَق لابْن أَبي الدُّنْيَا : ٦ ، مُسْنَد الشّهاب : ٢ / ١٩٢ ح ١١٦٤ ، تكملَة حَاشيَة ردّ المحتَار : ١ / ٢٣٤ .

(٣) أُنظر ، تَفْسِير القُرطُبي : ٢٠ / ١٩ ، تَأْويل مُختلف الحَدِيث : ١ / ١١٧ ، نَيل الأَوطَار : ١ / ٣١ ، صَحِيح البُخَاريّ : ١ / ١٦ ، الأَدَب المُفرد : ١٠٩ ، ح ٢٨٨ ، عَون المَعبُود : ١٠ / ١٨٤ ، تُحفَة الأَحْوَذي : ٥ / ١٥٣ ، مُقدّمَة فَتح البَاري : ١ / ١٣٤ ، سُبل السّلام : ٣ / ١١١ .

الدِّين لكَان العِلْم عَدوّ نَفْسه . وَالحَقِيقَة أَنَّ العَدوّ الأَوَّل للعِلم هُو الَّذِي يَتكلّم عَن الدِّين وَالعِلْم بلاَ دِين وَلاَ عِلْم . فَلَقَد تَحدّث الكَاتب عَن الأَديَان ، وَهُـو لاَ يَـعْلَم عَنْهَا إِلَّا أَنَّ ديَانَة الإِغرِيق قَد زَالَت مِن الوجُود ، وإِذَا زَالَت هَذِهِ مِن الوجُود فَلاَ بُدّ أَنْ تَزُول جَمِيع الأَديَان ، ومِنْهَا الإِسْلاَم ! أَلاَ يَشبه قَوْله هَذَا قَـوْل السّـفسطَائيِّين الَّذِين يَلغُون بالتَّهرِيج وَالتَّضلِيل ، وَيَتلهُون بالمُغَالطَات وَالسَّخَافَات ! .

وَرُبَّمَا اعتَذر مُعتَذر عَن الكَاتب بأَنّه لَمْ يَتَعرض للسَّلام ، وَإِنَّمَا قَالَ أَنَّ الأَديَان تَمر بمَرحلَة إِنهيَار .

قُلتُ : أَنَّ تَركَه لذِكر الإِسْلاَم ، وَعَدَم اَستثنَائه مِن الأَديَان دَلِيل وَاضح عَلىٰ أَنّه لاَ يُفَرق بَيْنَ الإِسْلاَم وَسَائِر الأَديَان الَّتي تَسِير فِي طَرِيق الزّوَال وَالإِنهيَار .

لَقد أَكْثَر اَلْقُرْءَان مِن الحَثّ عَلىٰ طَلَب العِلْم : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[1] .

وَقَد أَوجَب الرَّسُول الأَعظَم عَلىٰ الذّكُور وَالإِنَاث : « العِلْم فَرِيضَة عَلىٰ كُـلّ مُسلِم وَمُسلمَة »[2] ، وَأَمر بإِرسَال البِعثَات العِلميَّة ، وَقَال ﷺ : « اَطلبُوا العِلْم وَلَو بالصِّين »[3] .

وَقَالَ الإِمَام عَليّ بن أَبي طَالب ؛ : (مَعْرِفَة الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِـهِ ، بِـهِ يَكْسِبُ الإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ ، وَجَمِيلَ الأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ ، وَالْمَالُ

(١) طه : ١١٤ .

(٢) أُنظر ، سُنن اَبن مَاجَه : ١ / ٨١ ح ٢٢٤ ، المُعْجَم الأَوسَـط : ٤ / ٢٤٥ ح ٤٠٩٦ ، المُـعْجَم الصَّـغِير : ١ / ٣٦ ح ٢٢ ، مُسنَد أَبي يَعلىٰ : ٥ / ٢٢٣ ح ٢٨٣٧ ، المُعجَم الكَبِير : ١٠ / ١٩٥ ح ١٠٤٣٩ ، الفِرْدَوْس بمَأثور الخِطَاب : ١ / ٧٨ ح ٢٣٤ .

(٣) أُنظر ، كَنز العُمَّال : ١٠ / ١٣٨ ح ٢٨٦٩٧ ، شَرح أُصول الكَافِي : ١ / ١٥٧ ، فَيض القَدِير : ١ / ١٦٨ ح ١١١٠ و ١١١١ ، وَسَائِل الشِّيعَة : ٢٧ / ٢٧ ، الجَامِع الصَّغِير للسُّيوطي : ١ / ٤٤ ، البَحر الرَّائق : ٤ / ٢١ .

مَحْكُومٌ عَلَيْهِ)[١] وَقَالَ الإِمَامُ عليه السلام : « أَعْلَمُ النَّاسِ مَنْ جَمَعَ عِلْمَ النَّاسِ إِلَىٰ عِلْمِهِ »[٢].

وهَذِهِ دَعوَة صَرِيحَة إِلَىٰ التَّعَاون الثَّقَافِي بَيْنَ الأُمَم وَالشّعُوب ، بَل إِلَىٰ تَوحِيد التَّربِيَّة وَالتَّعلِيم الَّذِي هُو أَسَاس التَّآلف وَالتَّكَاتف . قُرب شَعبَين أَو أَخوَين تبَاعُداً . لأَنَّ أَحدهُما يَتخبَط فِي ظُلمَات الجَهل ، وَالآخر يَهتَدي بنُور العِلْم ، أَو لأَنَّ كُلاًّ مِنْهُمَا جَاهل بمَا عِند الآخر ، أَو يَتّجه بمَعَارفه وَجهَة مُعَاكسَة ، فَإِذَا تَعَاهدَا عَلَىٰ التَّعاون الثَّقافِي تَم بَيْنَهُما التَّقارب ، وَأَصبَح كُلّ مِنْهُمَا قوّة لأَخِية .

أَمَر الإِسْلاَم أَتبَاعَه أَنْ يَجمعُوا عُلُوم النَّاس إِلَىٰ عُلومهِم ليَسيرُوا فِي طَلِيعَة الأُمَم ، وَليَزدادُوا يَقيناً بعَقِيدَتهم ، وَدَعا أَهْل الأَديَان الأُخرىٰ أَنْ يَتدبرُوا كُلّ حُكم مِن أَحكَامه ، وكُلّ آيَة مِن آيَاته : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[٣].

ليتَأكدُوا أَنَّه دِين العَقْل وَالعَدل : ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[٤].

أَجل ، لَقَد رَأىٰ العُلمَاء بَعد أَنْ تَقَدّمت مَعَارفهم أَنَّ فِي ٱلْقُرْءَان أَسرَاراً لاَ تُفسّر

(١) أنظر ، نَهج ٱلبَلاَغَة : ٱلحِكْمَة (١٤٦).

(٢) لَمْ أَقف عَلَىٰ هَذَا الحَدِيث فِي نَهج ٱلبَلاَغَة ، وَلاَ فِي الكُتب المُتوفرَة لَديَّ ، لَكن رَوىٰ ذَلِكَ البَرقي فِي المَحَاسِن : ١ / ٢٣٠ ح ١٧٣ ، مَن لاَ يَحضرَه الفَقِيه : ٤ / ٣٩٥ ، الخِصَال : ٥ / ح ١٣ ، أَمَالي الصَّدوق : ٧٣ ح ٤ ، مَعَانِي الأَخبَار : ١٩٥ ح ١ ، رَوضَة الوَاعظِين : ٦ ، الأَربعُون حَدِيثاً للشَّهيد الأَوَّل : ٥٥ ح ٢٤ ، سُنن الدَّارمِي : ١ / ٨٧ ، وَلَكن نَسَبه إِلَىٰ الرَّسُول صلى الله عليه وآله.

(٣) مُحَمَّد : ٢٤.

(٤) سَبأ : ٦.

إلَّا بصِدق الْإِسْلَام وَعَظمَة المُبدع وَقَد تَجَاوزت الآيَات الوَاردَة فِي وَصف الكَون حدّ الْإِحصَاء[١] نَذكر بَعْضَهَا عَلىٰ سَبِيل المِثَال. فَقَد جَاء فِي الْآيَة: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[٢].

وَكَان العِلْم إِلَىٰ عَهْد قَرِيب يَرىٰ أَنَّ الشَّمْس ثَابتَة، وَلمَّا تَقَدّمَت العُلُوم الرِّيَاضيَّة وَآلاَت الرَّصد اكتَشف مَا نَطَق بِهِ ٱلْقُرْءَان الكَرِيم مُنذ أَكْثَر مِن (١٣) قَرناً مِن أَنَّهَا تَجري لمُستقرٍ، وَهَذَا المُستَقر نَجمَة تُدعىٰ بالنِّسر الوَاقع عَلىٰ شَكلٍ لوَلَبي.

وَجَاء فِي الْآيَة: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٣].

اكتَشف العِلْم الحَدِيث أَنَّ الزَّوجيَة مُتَأصلَة فِي كُلّ شَيء حَتَّىٰ أَنَّ الذَّرّة مُركبَة مِن الْإِلكترُون وَالبرُوتُون كَهربَائيَّة سَالبيَّة، وَأُخرىٰ مُوجبَة، وأَنَّ جَمِيع مَا فِي الكَون مِن حَيوَان وَنبَات وإِنْسَان وجدَ بصُورَة زَوْجيَة، فَمَن أَوجد هَذَا الْإِزدوَاج، هَل الصّدفَة أَو قوّة عَظِيمَة حَكِيمَة تُسيطر عَلىٰ الكَون بمَن فِيهِ وَمَا فِيهِ؟.

وَجَاء فِي الْآيَة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[٤].

تُشِير الْآيَة الكَرِيمَة إِلَىٰ أَنَّ الجَاذبيَّة لَيْسَت بَيْنَ الْأَرْض وَمَا عَلَيهَا فَقَط، بَل بَيْنهَا وبَيْنَ مَا عَدَاهَا مِن الكَوَاكب أَيضاً، وأَنَّ كُلّ كَوكَب يَجْذب كُلّ كَوكَب بقوّة

---

(١) أُنظر كتَاب «التّكامُل فِي الإِسْلاَم» للأُستاذ أَحمَد أَمِين الطَّبعَة الأُولى سَنَة (١٣٧٧ هـ). وَكتَاب «نظرَات فِي ٱلْقُرْءَان» للشَّيخ مُحمَّد الغزّالي. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) يسٓ: ٣٨.

(٣) ٱلذَّاريَات: ٤٩.

(٤) فَاطِر: ٤١.

مُتنَاسبَة . وَلَو أَنَّ العُلمَاء دَرسُوا ٱلْقُرْءَان بإمعَان ، وَتَدبرُوا مَا أَشَار إِلَيهِ مِن حقَائِق ، وَوَضعُوا تَصَامِيمهُم عَلىٰ أَسَاسهَا لتَكشَفت لهُم هَذِهِ الحقَائِق بوضُوح مِن خـلاَل دراَستهُم وَمُختبرَاتهُم ، وَلتوفر عَلَيهِم الكثِير مِن الوَقت وَالجُهد ، ولله دَرّ ٱبْن عبَّاس حَيْث قَالَ : « فِي ٱلْقُرْءَان مَعَان سَوف يُفسرها الزَّمن » وهَذِهِ المَعَاني هِي أَسـرَار الكَون الَّتي تَكشَّفَت للعُلمَاء يَوماً بَعْد يَوْم .

أَين تَلقَّىٰ مُحَمَّدﷺ هَذِهِ الدّرُوس ! وَعمّن أَخَذ نَظرِيَة الجَاذبِيَّة ، وَالتَّـزَاوج ، وَعِلْم الفَلك ، وَغَير ذَلكَ مِـمَّا عَـجز عَـن إِدراكـه كـبَار المُـختَرعِين ، وَعُـظمَاء المُكتَشفِين ! وَهَل كَان لَدَيه آلآت وَمُختبرَات ، أَو أَنَّ كُلّ ذَلكَ وجدَ صدفَة ، وَنَزل الوَحي بِهِ عَلىٰ قَلْب العَربي الأُمِّي صدفَة ! .

ثُمَّ نَود بأَنْ نُوجّه إِلَىٰ مُصْطَفىٰ مَحمُود هَذَا التّسَاؤل :

لَقَد حَكَمت دُون تَردد بأَنَّ الأَديَان تَمر بمَرحلَة إِنهِيَار . وَبَديهَة أَنَّ الحُكم فِي قَضيَة مَا يَستَدعي العِلْم بطرَفيهَا ، فَهل أَحطتَ بجَمِيع أَسرَار الكَون وَتَتبَعتهَا وَاحداً وَاحداً ، ثُمّ ٱستَقرَأت الأَديَان والآيَات ٱلْقُرْءَانِيَّة والأَحَـادِيث النَّـبويَّة بكَـاملهَا ، وَبَعد أَنْ شَاهدَت وَجَربتَ رَأيتَ أَنَّ الدِّين والعِلْم ضِدّان لاَ يَجْتمعَان وَعدوّان لاَ يَتفقَان ! ثُمّ أَنّك أَشَدتَ بفَضل العِلْم وَعَظَمته ، لكـنّك فِـي نَـفْس الوَقت شَـنَنتَ الحَملاَت عَلىٰ دِين يَدعَم العِلْم ، ويُؤآزرَه العَقْل ، وَيَحث أَتبَاعه والنَّاس أَجمَعِين عَلىٰ البَحث وَالنَّظر وَالتَّأمل وَالتَّفْكِير ، فَكَيف جَمَعت بَيْنَ الضّـدَين ! وعَـلىٰ أَي شَيء يَدل هَذَا التَّضَارب وَالتَّنَاقض ! هَل يَدل عَلىٰ « العِلْم وَتَطور الوَعي » . وإِذَا كَان الدِّين جَهلاً وَخرَافَة يَتَأخر كُلّما تَقدَّم العِلْم ، فبمَاذَا تُفسّر ـ يَا أُستَاذ ـ تَـقدّم العَرب بَعد الإِسْلاَم وَتحولهُم مِن جَاهليَة جَهلاَء إِلَـىٰ حَـضَارَة أَدهَشت العَـالَم ،

وَقَلبَته رَأساً عَلىٰ عَقب، مِمَّا جَعَلتهُم يَدّعُون بجدَارَة آبَاء العِلْم الحَدِيث، كَمَا قَالَ نَهرو رَئِيس وَزرَاء الهِند!.

أَنَّ الإِسْلاَم لَن يَزُول وَلَن يَنهَار، لأَنّه حَقّ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1].

ولأَنّه وَاقع: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[2].

أَمَّا الَّذي يَنهَار إِلَىٰ غَير رَجعَة فَهو الَّذي يَقُول بغَير عِلْم. وَيَعتَقد قَبل أَنْ يَتَصور... إِنْ صَحّ التَّعبير.

وَبالتَالي، فَمَهمَا تَقدّم العِلْم وَتَطور الوَعي فَإِنّ الإِسْلاَم أَرحَب وَأَوسَع مِن أَنْ يَضِيق بِهِ. أَنَّ عَظمَة الإِسْلاَم لاَ تَظهَر إِلَّا بالعِلْم. وَمِن هُنا لَمْ يُنكر هَذِهِ العَظمَة إِلَّا جَاهل أَو مُكَابر.

---

(١) فُصِّلَتْ: ٤٢.

(٢) آلِ عِمْرَانَ: ٧.

إلٰه آيزنهاور

بَعد أَنْ تَكلّم صَاحب كتَاب «الله والإِنْسَان» عَن الإِلٰه بوَجه عَام عَقَد فَصلاً خَاصّاً فِي آخر كتَابَه للكَلاَم عَن إِلٰه آيزنهاور، وإِذَا أَخفَق فِي آرَائـه هُـنَاك فَقَد أَصَاب كَبَد الحَقِيقَة هُنَا... وَلَو تَحدّث مُصْطَفىٰ مَحمُود فِي كتَابِهِ عَن الإِنْسَان وَإِلٰه آيزنهَاور فَقَط لأَحرَز الثِّقَة وَالإِعجَاب مِن جَمِيع الفِئَات، وَلرَأَيت فِـيهِ المَـنطق وَالذَّكَاء، وَالتَّفْكِير الصَّحِيح، وَالصِّدق الَّذِي يَنبَع مِن مَعِين القَلب، وَالإِبدَاع وَالفَن فِي إِبرَاز الحَقَائِق.

وَهل تَستَطِيع بأَنْ تَملك نَفْسَك، وَتَمنَعهَا عَن الضّحك وَالبُكَاء فِي آنٍ وَاحد إِذَا قَرَأت كَلمَاته التَالِيَة:

«لَمْ يَنزل ٱلْقُرْءَان فِي نيُويُورك، وَلاَ الإِنْجِيل فِي هُوليُوود. وَلاَ التَّـورَاة فِـي كَابري. وَإِنَّما نَزَلت كلّها فِي بلاَدنَا، فَلِمَ هَذَا القَوْل مِن جُون بُول وَالعَمّ سَام عَلىٰ تُرَاثنَا الدِّيني؟! أَنَّ فِي الأَمر سرّاً»[1].

أَجل يَا أُستَاذ. وَأي سرّ. إِنّه عَمِيق جدّاً عُمق يَنَابِيع البترُول، وَخَطِير كَشركَات شلّ وَفَاكُوم. ونَحنُ نَعْلَم جَيدَاً أَنَّ المُستَعمرِين وَأَعوَانَّهُم لاَيَهتمُون بـالدِّين وَلاَ

(١) أنظر. كتَاب «اللهُ وَالإِنْسَان» لمُصطَفىٰ مَحمُود: ١٢٩ الطَّبعَة الأُولىٰ سَنَة (١٩٥٧م). (مِنهُ ﷺ).

بالثّقافَة وَلاَ بالقَوميّة العَربيّة وَلاَ بالقِيَم الأَخلاَقيّة إلّا إذَا خَافوا عَلىٰ مَصَالحِهِم، فَعندَهَا يَصرخُون بحَرَارَة « الدّين فِي خَطَر »[١].

وقَالَ:

« وَلنَفس السّبب تَطبَع السّفارَات أُلُوف المَنشُورَات تَمزج فِيهَا إرَادَة الله بإرَادَة أَيدن، وَمُوليه، وَآيزنهَاور، وَتَجعَل مِن الإِسْتعمَار وَصيّاً وَقيّماً عَلىٰ شُؤون المَسَاجد، وَالكَنَائِس، وَالبَطرخَانَات. أنّهَا تَدخُل عَلَينَا مِن البَاب الوَحِيد الّذِي لاَ يَقف عَلَيه حرّاس... بَاب الله ».

كَلاَّ، يَا أُستَاذ، أنّ عَلىٰ بَاب الله صَفوَة مِن الحرّاس الهُدَاة الّذِين نَصحُوا لله وَرُسله وَكُتبَه وَهُم لاَ يَستَقبلُون إلّا المُطهرِين مِن الدّنس. أنّ الإِسْتعمَار يَدخُل مِن بَاب المُزَيفِين الّذِين يَنْتَظرُون أَوَامر العُملاَء للكَلاَم بِاسم الدّين، وَهُم أَعدَىٰ أَعدَائه. أنّه يَدخُل مِن بَاب الّذِين لاَ يَحرصُون وَلاَ يُغَارُون عَلىٰ الدّين إلّا حِينَ يَقُول آيزنهَاور: « أنّ الكُونغرس مُجتَمع لحمَايَة الشّرق مِن الإِلحَاد ».

فِي هَذَا الوَقت بالذَات يُنَادُون: « وَادينَاه! أَصبَح الدّين فِي خَطَر ».

كَلاَّ، أنّ الدّين فِي حِصنٍ حَصِين: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٢].

أنّ الخطَر يُحِيط بالمُرتَزقَة مِن أَتبَاع آيزنهَاور الّذِين يُحَاربُون الإِلحَاد

---

(١) أَوضَح هَذِهِ الفِكْرة مُفصّلاً فِي كتَاب مُستقل الإِمَام المَرحُوم الشّيخ مُحَمّد الحُسَين كَاشف الغطَاء، أَسمَاه « المُثل العُليا فِي الإِسْلاَم لاَ فِي بحَمدُون ». طُبع مَرّات عِدّة فِي سَنَة وَاحدَة. وَأَوَد لَو يَقرَأه كُلّ شَرقي بخَاصّة الشّباب، ليَعلمُوا أنّ فِي المُسْلِمِين عُلمَاء حَقِيقيِّين يَجهَرُون بالحَقّ وَبِهِ يَعملُون، وَلاَ يَخدمُون الإِسْتعمَار وَالإِقطَاع وَأَصْحَاب الجَاه وَالمَال وَإنْ بُذلَت لهُم المَلاَيِّين. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) فُصِّلَتْ: ٤٢.

السِّيَاسي، أَمَّا الإلحَاد الَّذِي جَاءنَا مِن الأَجَانب، وَطَغَىٰ طُوفَانه فِـي المَـدَارس والمَسَارح وفِي كُلّ مَكَان فهُو عِـندَهُم إيـمَان وَرَوح وَرَيـحَان. قَـالَ مُـصْطَفَىٰ مَحمُود:

« أَنَّهُم يَستَعملُون كَلمَة « الله » فِي السِّيَاسَة الدُّوليَة كَمَا يَسـتَعملُون الجُـوكر ـ البُعبع ـ أَنَّ الدِّين عَلاَقة بَيْنَ المُواطن وَرَبّه، وكُلّ مُتَدَين حرّ فِي تَصَور هَٰذِهِ العلاَقَة وَفَهمهَا كَمَا يَجب. أَنَّهَا مَسألَة مِـن صَـمِيم مَسَـائِله الشَّـخصيَّة وَلاَ عـلاَقَة لَـهَا بالسِّيَاسَة، وَلاَ بالقَومِيَّة العَربيَّة، وَلاَ بالوحدَة العَربيَّة، وكُلّ مَن يَخرج بهَٰذِه العلاَقَة عَن بسَاطتهَا الشَّخصيَّة إلَىٰ خِضَم الأَحدَاث العَالميَّة، وَيَسـتَخدمهَا ليَـخدَع بـهَا الجَمَاهِير وَيُمزجهَا بالسّم وَالدِّينَامِيت وَيُبَرّر بهَا مشَارِيعَه مُشَعوذ وَنَصّاب». أَي وَالله، أَنّه مُشَعوذ وَنصّاب وَكذّاب كُلّ مَن يَتَكلّم بٱسـم الدِّيـن لمَآرب شَـخصيَّة وَيَبيعَه سلاَحاً للمُستَغلِين وَالسّفّاحِين.

ثُمَّ قَالَ:

« أَنَّ الَّذِي يُدَافع عَنهُ آيزنهَاور لَيْسَ هُو إِله الإسْلاَم، وَلاَ إِله المَسيحيَّة وَإِنَّما هُو عُضو فِي مَجلس إدَارَة شِركَة الزَّيت العرَاقيَّة. إِنَّنا نُعلِن سقُوط الرَّب الوَثني الَّذِي يَدعُو لهُ آيزنهَاور».

سَيَسقط لاَ محَالَة، هَٰذَا الرَّب الَّذِي يَعبدَه آيزنهَاور وَأَعوَانه الَّذِين ٱستعَان بِهم عَلَىٰ ظُلمَه وَطُغيَانه، وَٱتّخذ مِنهُم دُعَاة ضِدّ الشّعُوب يَـحمُون لهُ البـترُول بٱسـم التَّورَاة، وٱلْقُرْءَان، وَالإنْجِيل، وَيَبقَىٰ وَيَدُوم إِله الجَمِيع الَّذِي « يُؤمّن الخَـائفِين. وَيُنجي الصَّالحِين. وَيَرفع المُستَضعفِين. وَيَضع المُستَكبرِين. وَيَقصم الجَبّارِين

وَيُبيد الظَّالمِين ، وَيَهلك مُلوكاً وَيَستَخلف آخَرِين »[١] .

* * *

وَبالتَالي . فَإِنَّ مَن يَرمي خصُومَه السِّيَاسيِّين بالْإِلحَاد وَيَتهمهُم بالمُرُوق مِن الدِّين بدَافع السِّيَاسَة وَالتِّجَارة . ثُمَّ يَسكُت وَيَرضىٰ عَن المُلحدِين إِذَا كَانُوا حُلفَاءه عَلىٰ البَاطِل . وَأَنصَاره عَلىٰ العُدوَان . أَنَّ هَذَا أَسوَأ حَالاً مِن المُلحِد . لأَنَّه مُرَاء يُتَاجر بقَدَاسَة الدِّين وَيَتستَر بِٱسمِهِ كَذِباً وَنفَاقاً . أَنَّ المُؤمن حَقّاً يُحَارب مِن لاَ يُؤمن بالله وَاليَوْم الآخر ، وَلَو كَان مُقِيماً فِي مَكَّة المُكرمَة ، والمَدِينَة المُنَورَة ، لأَنَّه يَكرَه الْإِلحَاد مِن حَيْث هُو إِلحَاد بِقَطع النَّظر عَن الأَشخَاص وَالأَفرَاد ، وَيُسَالم مَن يُؤمن بالله واليَوْم الآخر ، وَلَو سَكَن فِي الحَي اللاَّتِيني ببَارِيس ، أَمَّا الَّذِين يُحَاربُون إِلحَاد الشَّرق ، وَيَركعُون لكُفر وَاشنطن وَلَندن فأُولَئك عَلَيهِم مَا يَستَحقُون .

لَقَد دَلتنَا التَّجَارب أَنَّ أَدعيَاء القَوميَّة ، والوَطنيَّة ، والإِشترَاكيَّة ، والدِّيمُقرَاطيَّة وَمَا إِليهَا إِنْ هِي إِلَّا تَضلِيل وَتَموِيه يَختَفِي وَرَاءهَا الحُكَّام وَالزُّعمَاء لغَايَات شَخصيَّة ، وَأَغرَاض دُنيويَّة ، ولِذَا لَم نَعد نَثق بأَحد مَا لَم نَكُن عَلىٰ يَقِين مِن دِينَه وَإِيمَانه بالله وَالسَّير عَلىٰ نَهجَه القَوِيم . وَبقَدر مَا فِي نَفسَه مِن التَّقوىٰ والخَوْف مِن الله بخدمَة عَبِيدَه وَمَا فِي أَعمَاله مِن الخَيْر وَالْإِحسَان لوَجه الله يَكُون حَظّه عِندَنَا مِن الْإِحترَام وَالتَّقدِير .

---

(١) مِن دُعَاء يقرَأه الشِّيعَة فِي كُلّ لَيلَة مِن أَيَّام شَهر رَمضَان المُبَارك وَيُسمونَه دُعَاء الإِفتتَاح وَلعَلّه إِشَارَة إِلَى مَا يَعتقدُونَه مِن أَنَّ الأَرض سَتمتَليء قِسطاً وَعَدلاً بعدمَا مُلئت ظُلماً وَجَوراً ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ٱلرُّوم : ٤ ـ ٥ . (مِنْهُ ﷺ) .

وَلَيت شِعْرِي مَاذَا يَبتَغي هَؤُلآء النَّاس الَّذِين يُنَادُون بالقَوميَّة والإِشْتِرَاكِـيَّة ؟ هَل يُرِيدُون مُحَارَبَة الإِسْتعمَار ، وَالفَوضَى ، وَالفَسَاد ، وَالإِقطَاع ، والإِسْـتعبَاد أَو يُرِيدُون أَنْ يَنهجُوا بالعَرب ثقَافيّاً وَإِقتصَاديّاً .

فَإِذَا أَرَادُوا شَيْئاً مِن هَذَا قُلنَا لهُم : أَنَّ العَرب كَانُوا أَذلاَء مُستَعبدِين فَأَصبحُوا سَادَة أَعزّاء بمُحَمّد والإِسْلاَم وَبالعرُوبَة . وَالأَعرَاب كَانُوا أُمّـة أُمـيَّة فَأَصـبحُوا أَسَاتذَة العُلُوم بفَضل ٱلقُرْءَان الكَرِيم وَسُنّة الرَّسُول العَظِيم . وكَانُوا فُقرَاء بَائِسِين فَصَاروا بَيْنَ عَشيَة وَضُحَاها وفِي أَيديهِم مَصَادر بالله وَأَتبَاعهم رَسُول الله الَّـذِي هَدَاهُم إِلَىٰ الجدّ والعَمَل .

لَقَد كَان العَرب فِي جَاهليَّة جهلاَء ، فَٱرتَفعُوا إِلَىٰ أَسمىٰ مكَان بٱسم الله وَٱسم مُحَمَّد بن عَبدالله . وَصَدَق الله العَظِيم : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1] .

قَالَ الشَّيخ أَحمَد حَسَن البَاقُوري وَزِير الأَوقَاف السَّابق بـمَصْر فِـي كـتَاب « عُرُوبَة وَدِين » .

« أَنَّ أُمّة العَرب قَد عَزّت وَمُجّدت بالدِّين ، فَلاَ سَبِيل إِلَىٰ غَير الدِّين أَنْ أَرَادَت البَعث وَالحيَاة . . . أَنَّ الأُمّة العَربيَّة لاَ تُقدم إِلَّا بمَا قَام بِهِ أَوّلهَا ، وَهُو الإِيمَان بالحَق وَبالحُرّيّة وَالعِزّة وَالكَرَامَة . والحَقّ أَنْ يَستَقِيم النَّاس عَلَىٰ طَرِيق الدِّين ، وَيَلتَزمُوا حدُودَه . . . والحُرّيَّة أَنْ تَتحَرّر العُقُول مِن الأَوْهَام وَالخرَافَات وأَنْ تَتَّصل ٱتّصَالاً مُبَاشرَاً بالمَعرفَة . . . ذَلكَ هُو الدِّين الحَقّ ، وتِلكَ المَعَاني الّتي تَلقّاهَا العَرب أَوَّل مَا

---

(١) ٱلجُمُعَة : ٢.

تلقوا مِن هَدي السَّمَاء: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ﴾[1].

لذَلكَ نَحْنُ لاَ نَثق بزَعِيم أَو حَاكم أَو عَالم إِلَّا عَلىٰ أَسَاس الدِّين وَالتَّقوىٰ. وَنَعني بالدِّين الْإِيمَان بالله مَع البَسَالَة وَالجرأة وَالتَّضحيَّة وَالْإِستهَانة بالمَوت فِي سَبِيل الحَقّ وَمَن سَكَت عَن الحَقّ خَوفاً مِن النَّاس لاَ مِن الله فَقَد دَعَانَا إِلَىٰ الشَّك فِي دِينه وَعَدم اْحترَامه.

(١) آلِ عِمْرَانَ: ١١٠.

عقَائِد المُفَكرِين

أَنَّ فِكرَة خَالق الكَون يَقْتَرن تَارِيخهَا بتَأرِيخ الإِنْسَان، فَمُنذ وجُود الإِنْسَـان البدَائي حَتَّىٰ هَذَا اليَوْم وَفِكرَة مُدَبر الكَون حَسَب مَشِيئَته وَإرَادَته تُسَيطر عَـلىٰ العقُول والقُلُوب بسُلطَان لاَ يُقهَر وَلاَ يُغلب حَتَّىٰ ظَنّ كَثِير مِن الفَلاَسفَة وعُـلمَاء النَّفس أَنَّ هَذِهِ الفِكْرة جِبلّة مُتَأصلَة فِي الإِنْسَان، وَقَد ظَهر سُلطَانهَا فِي كُلّ عَصْر بمَظَاهر شَتّىٰ مِن الطّقُوس وَالضَّحَايا وَالقَرابِين، وَمِن بنَاء المَعَابد وَالهَياكل، وَمَا إِلىٰ ذَلكَ مِن دَلاَئِل الإِحترَام وَالإِجلاَل.

وَلَو أَرَاد الإِنْسَان أَنْ يَدرس تَأرِيخ الأَديَان وَالأَدوَار الَّتي مَرّت بِـهَا لظَـهرَت أَمَامه صُور شَتّىٰ تَخْتَلف فِي المَظهَر، وَتَتَّفق عَلىٰ وجُود خَالق قَدِير. وفِي نَفْس الوَقت يَجد الأَدلّة عَلىٰ وجُود الخَالِق مُختَلفَة فِي الشَّكل وَالأُسلُوب، وَمُتّفقَة فِي الهَدَف وَالقَصد؛ فَلعُلمَاء الطَّبِيعَة أَدلَة غَير أَدلَـة الأُدبَـاء، وَأَدلَـة عُـلمَاء النَّـفس وَالإِجتمَاع غَير أَدلَة الإِطرَاء، بَل أَدلَة الفَلاَسفَة تَـخْتَلف عَـن أَدلَـة المُـتَكلمِين وَلكنَّها تَتوَافق إِلىٰ نَتِيجَة يُجْمع عَلَيهَا الكُلّ وإِنْ دَلّ هَذَا عَلىٰ شَيء فَإِنّما يَدل عَلىٰ صِدق مَا قَالَه الشَّاعر[1]:

---

(١) تَقدَّمَت تَخرِيجَاته.

عَجِبتُ للعَبْد كَيف يُعصي الإِ | لَـه وَيَـجحَد آلآءَهُ الجَـاحد
وَفِـي كُـلّ شَـيء لَـهُ آيَـةٌ | تَـدلُ عَـلىٰ أَنَّـه وَاحِـد

وَقَد أَخذ الشَّاعر هَذَا المَعنَىٰ مِن قَوْل الإِمَام عَـليّ ﷺ: «مَـا رَأيتُ شَـيْئاً إِلاَّ رَأيتُ الله قَبْلَه ثُمَّ مِنْهُ»[١]، وَتَرجع هَذِهِ الحَقِيقَة فِي أَصلهَا إِلَىٰ ٱلْقُرْءَان الكَـرِيم: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّاتَـفْقَهُونَ تَسْـبِيحَهُمْ إِنَّـهُۥ كَـانَ حَـلِيمًا غَفُورًا﴾[٢].

وَمِن الخَيْر وَالفَائِدَة أَنْ نُشِير إِلَىٰ كتَاب للأُستَاذ العقّاد ٱسمَه «عَقَائِد المُفَكرِين فِي القَرن العِشرِين» جَمَع فِيهِ عَدَداً غَير قَلِيل مِـن مُـفكرِي هَـذَا العَـصْر الَّـذِين يَعتَقدُون بدَافع مِن تَفْكِيرهم وَتجَاربهم الخَاصّة بوجُود قوّة وَرَاء الكَـون تُـدَيرَه بحِكمَة وَنظَام. وَلَم يَتَأثر هَؤُلآء المُفكرُون ببِيئَة أَو مَدرَسَة أَو كتَاب يُـمتُ إِلَـىٰ الدِّين بَسَبب، وَفِيهِم العُلمَاء والأُدبَاء وَالفَلاَسفَة وَالأَخلاَقيُون.

الدّكتُور الكسس كاريل:

فَمِن العُلمَاء الدّكتُور الكسس كَاريل، وُلد بفَرنسَا سَنَة (١٨٧٣ هـ) وَمَات فِيهَا سَنَة (١٩٤٤ م)، وَهُو طَبِيب مُتخَصّص فِي بحُوث الخَليّة وَنَقل الدَّم وَالأَعضَاء.

---

(١) أُنظر، شَرْح أُصُول الكَافِي: ٣ / ٨٣.

(٢) ٱلإِسْرَاء: ٤٤.

تَـسبِيح كُلّ شَيء بحَسَبه فالعَاقل يُسَبّح الله بقَلبِهِ وَلسَانَه، وَغَير العَاقِل يُسَبّح بدَلاَلَة الحَال عَـلىٰ وجُود الله وَتوحِيدَه، إِذ كُلّ مَوجُود سِوىٰ الله مُفْتَقر إِلَيهِ تَعَالىٰ، وَالإِفتقَار إِلَيهِ دَلِيل قَاطع عَلىٰ تَعظِيمَه وَتَقدِيسَه. قَالَ الرَّازي فِي تَفْسِيرَه: «إِنَّ التَّسبِيح باللِّسَان لاَ يَكُون إِلَّا مَع العِلْم وَالفَهم وَالنُّطق، وكُلّ ذَلكَ محَال فِي الجمَاد، فَلَم يَبق إِلَّا التَّسبِيح بلسَان الحَال». (مِنْهُ ﷺ).

أشتغل بالطِّب عِلماً وَجراحَة وَإشرَافاً عَلىٰ مَعَاهد العِلاَج ، وَصَاحب جَائزَة نُوبل (١٩١٢ هـ) ، وَمُدِير مَعْهَد الدّرَاسَات الإِنْسَانيَة بفرنسا .

يُؤمن بأَنَّ الله لاَزم للإنسَان لزُوم المَاء وَالأوكسيجين ، لأَنّه لاَحَظ مِن تجَاربهِ بَأَنَّ كُلّ خليَّة فِي الجِسم تهتَدي بالعَقل الأَبدي إِلَىٰ مَوضعهَا مِن البُنيَة المَرسُومَة ، وَتَعمَل فِي كُلّ مِن خُطوَاتهَا كَأَنَّهَا تَرىٰ تكوين الجِسم كلّه مَاثلاً أَمَامهَا .

الصّلاَة :

وَوَضع هَذَا العَالَم رسَالَة فِي الصَّلاَة قَالَ فِيْهَا :

« إنَّ الصَّلاَة تسَام إِلَىٰ أَوج اللاّمَاديّة مِن الدُّنيَا ، وهِي عَلىٰ أَكْثَر مَا تَكُون شكَايَة أَو إبتهَال أَو صَرخَة أَو أستغَاثَة ، وهِي فِي بَعْض الأَحَايِّين تَأمُل خَالص فِي أُصُول الوجُود وَمَصَادره ، وَيَصلح أَنْ يُقَال : أَنَّهَا إرتفَاع إِلَىٰ المقَام الإلٰهي وَعُنوَان للتَّوجه بالحُبّ وَالعِبَادَة إِلَىٰ الَّذِي مِنْهُ صَدرت الأُعجُوبَة الَّتي هِي الحَيَاة . وَبالصَّلاَة يَسمُو الإِنْسَان إِلَىٰ الله وَيَدخُل الله سَرِيرَته وهِي ضَرُورَة لاَ غِنىٰ عَنْهَا لنمُو الإِنْسَان فِي أَرفَع حَالاَته » .

فرانز ويرفل :

مِن الأُدبَاء وَكَاتب القصّة العَالميِّين الأَدِيب النَّمساوي فرانز ويرفل تُوفّي سَنَة (١٩٤٥ م) ، قَالَ فِي كتَاب « بَيْنَ السَّمَاء والأَرْض » .

« أَنَّ تَفسِير الكَون بالقِيَاس وَالتَّعقِيب هُو أَنجَح أَحَابِيل الشَّيطَان ، لأَنَّ حُجّته الَّتي تَقُوم عَلَيهَا جَمِيع المَذَاهب الوَضعيَة المَاديّة هِي أَنَّ الشَّيء يُسَاوي نَفسَه ،

وَالأُمّة وَلِيدَه الإقلِيم الجُغرَافِي وَالفَرد مَحكُوم بظرُوفه، وَمطَالب الشَّعب تَتوَقّف عَلىٰ حَاجَاته الإِقتصَاديَة، وَالفِيل لهُ جِلد فِيل «لأنّه ضَرُوري لهُ... وَقَد نَجَح الشَّيطَان فِي تَرَوِّيغ الأُصُول الأُولىٰ مِن المَسألة كلّها، وهِي أُصُول الخَلق وَالكَينُونَة وَوجُود الله... أنَّ الله أَعظَم جداً مِن أنْ يَحتَوي كَلاَم الإِنْسَان بُرهَاناً عَلىٰ وجُودَه».

الدِّين بَعد مليُون سَنَة:

مَا زِلنَا نَسمَع وَنَقرأ أنَّ مُستَقبَل الدِّين فِي خَطَر، والَّذِين يَقُولُون هَذَا القَوْل مِنْهُم اَلْمُؤْمِنُون الَّذِين يُغَارُون عَلىٰ الدِّين حَقّاً، ومِنْهُم الَّذِين يُعَبّرُون عَن أُمنِيَتهم وَعدَائهم للدِّين، وَتَأتي كَلمَة العِلْم لتَرد عَلىٰ هَؤُلاَء، وَتُبَشر أُولئك.

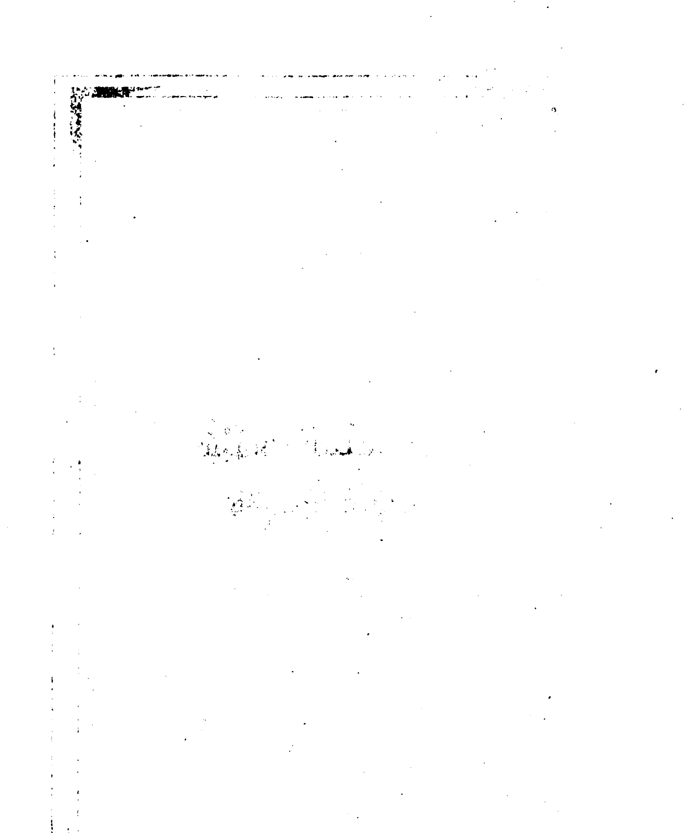
نَقَل الأُستَاذ العقّاد أنَّ لدَارون الشَّهِير حَفِيداً، اَسمه السّير شاول دَارون، قَد بَلَغ مِن العِلْمِ مَبلغ الرِّيَاسَة وَالأُستَاذيَة أَلّف كتَاباً اَسمه «بَعد مليُون سَنَة» قَالَ فِيهِ:

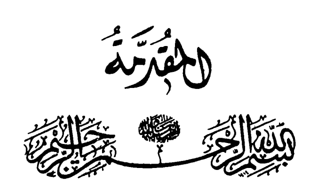
«أنَّ الإِنْسَان سَيَحتَفظ بالعَقِيدَة الدِّينيَّة فِي المليُون السَّنَة المُقبلَة قِيَاساً عَلىٰ المَعهُود مِن تَأرِيخَه القَدِيم وَالحَدِيث، ولهَذَا كَانَت العَقَائِد عَلىٰ جَانب عَظِيم مِن الأَهميَة بالنَّظر إِلَىٰ المُستَقبل لأَنَّ العَقِيدَة تَبعَث الأَمل فِعلاً فِي دوَامهَا بَعد صَاحبهَا، وفِي سَيطرَة الإِنْسَان عَلىٰ مَصِيرَه بفَضلهَا».

وَبالتَّالي، فَإِلىٰ كتَاب «عَقَائِد المُفكرِين فِي القَرن العِشرِين» يَا شبَاب هَذَا العَصر، لتَتبينُوا أَنَّ مَوقف العُلمَاء وَالأُدبَاء وَالفَلاَسفَة فِي عَصر الذَّرّة مِن الدِّين، مَوقف التَّسلِيم وَالإِذعَان.



شُبْهَات المُلْحِدِين وَالْإِجَابَة عَنْهَا





وَالحَمْد لله رَبّ العَالَمِين، وَالصَّلاَة عَلىٰ مُحَمَّد وَآله الأكرَمِين

مَع أخ كَرِيم:

قَالَ لِي أَخ فَاضِل وَكَرِيم مِن السَّادَة الأَشرَاف آل بَحْر العُلُوم: نَحْنُ وَأَنتَ فِي سِبَاق مَع الفَارق فِي المَيدَان... أَنتَ تَكتُب ونَحْنُ نَقرَأ... وكَان فَرَحي بقرَاءَتـه أَشدّ مِن غِبْطَتي بمَا يَدّره عَليّ حَقّ التَّألِيف، لأَنّه إِلىٰ زَوَال قَلّ أَو كثُر، ولَكن هَاج بِي الطَّمع فِي العُقبىٰ.

وَأَنَا بدَوري سَلَخت أَعوَامَاً مَدِيدَة فِي القِرَاءَة... أُنَقّب عَن شـوَارد الأَفكَـار وَنوَادرهَا، أُدَرّب بهَا ذِهني عَلىٰ النّمو وَالتّـفكِير، وَأُرَمّـم مَـا فِـيهِ مِـن ثـغرَات وَفجوَات قَـبل أَنْ أمسك بٱلْـقَلَم... وحَـتَّىٰ الآنْ، لأَنَّ تَـرمِيم الْـبَيْت أَوّلاً، ثُـمّ السّكنىٰ... وإِذَا ٱهتَدَيتُ إِلىٰ حِكمَة ٱستَضيء بـنُورهَا أَصَـابَني مَـا يَشـبه مَسّ الكَهربَاء، وَأَتذكّر قَوْل مَن قَالَ حِينَ يُطَالع وَيُذَاكر: «أَينَ السَّلاطِين مِـمَّا نَـحْنُ

فِيهِ !... أَمَا لَو فطنُوا لَنَا لقَاتلُونا عَلَيهِ بالسّيُوف »[١]. وقَالَ غَيْرَه : « هَذي هِي اللَّذَة مِن غَيرِ إثم ».

يَقرأ وَيُصَفِّق:

وَمِن جُملَة مَا قَرَأتُ فِي هَذَا البَاب : أَنَّ رَجُلاً كَان يَقْرَأ ، وَهُو مُستَلق فِي فرَاشهِ ، وَفُجَاءة وَبلاَ شعُور قَفز وَأَخذ يَهتف وَيُصفِّق طَرَباً !... وَهَكذَا تَفعَل البَذرَة الصَّالحَة فِي الأَرْض الطَّيبَة ، أَو كَمَا قَالَ الإِمَام أَمِير المُؤْمِنِينعليه السلام حِينَ صُعق هُمَّام[٢] عِندَ سَمَاعه الخُطبَة الشَّهِيرَة الخَطِيرَة : « أَهَكَذَا تَصْنَعُ المَوَاعِظُ البَالِغَةُ بِأَهْلِهَا ؟.

فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ : فَمَا بَالُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟.

فَقَالَعليه السلام : وَيْحَكَ ، إِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ وَقْتاً لَا يَعْدُوهُ ، وَسَبَباً لَا يَتَجَاوَزُهُ . فَمَهْلاً ، لَا تَعُدْ لِمِثْلِهَا ، فَإِنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَىٰ لِسَانِكَ ! »[٣]. وَإِذَن الفِكْرة الإِنسَانيَّة لَيْسَت بشَيء إذَا لَم تُصَادف قَلباً رَاغباً وَمَزَاجاً قَارئاً... وَقَالَ شَاعر مِن الصِّين : « يَحس المُفكِّر الَّذِي تَمضي عَلَيهِ ثَلاَثَة أَيَّام دُون أَنْ يَقرَأ شَيْئاً أَنَّ حَدِيثَه قَد فَقَد نَكْهَته ، كَمَا يَرىٰ بأَنَّ وَجهَه أَصبَح كَريهاً إذَا نَظَر إِلَيهِ فِي المِرآة »... ولَيْسَ مِن شِكٍّ بأَنَّ

---

(١) قَرَأتُ هَذَا القَوْل مَنسُوباً إِلَىٰ أَبي حَنِيفَة فِي الحِكمَة الخَالدَة لِابْن مَسكوَيه . (مِنْهُ رحمه الله).

(٢) هُو هَمّام بن شُرَيْح بن زَيد بن مُرّة بن عَمْرُو بن جَابر بن يَحيىٰ بن الأَصهَب بن كَعب بن الحَارث أبن سَعد بن عَمْرُو بن ذَهل بن مُران بن صِيفي بن سَعد العَشِيرة . أُنظر ، البحَار : ٦٧/ ٣١٧ و : ٦٨/ ١٩٢ و ١٩٦ . شَرح نَهج البَلاَغة لِابْن أَبِي الحَدِيد : ٢/ ٥٤٧ طَبعة مَصْر ، و : ١٠/ ١٣٣ طَبعة أُخرىٰ ، وقِيل : هُو هَمّام بن عَبادة ، وكَان من شِيعَة أَمِير المُؤمِنِينَ وَأَولِيَائه ، وكَان عَابداً...إلخ .

(٣) أنظر ، نَهج البَلاَغَة : الخُطبَة (١٩٣).

الوَجه القَبيح يَستِرَه العِلْم وَسِحر الحَـدِيث، وَالوَجـه الجَـمِيل تَشَـوهَه الجـهَالَة وَالحمَاقة.. وَشَاع فِي أوسَاط النَّجف عَن عَالِم ذِي شَأن أَنَّـه قَـالَ: «إذَا تَـركتَ المُطَالعَة وَالمُذَاكرَة بضعَة أيَّام شَعَرتُ بأنّي عُدّت إِلَىٰ حَيْث ٱبتدَأتُ».

الأخطَاء المَطبَعيَّة:

لاَحظ أَكْثَر مِن مَرّة بأَنَّ صَاحب المَزَاج القَارِيء يَتَجاهَل الأَخطَاء المَـطبَعيَّة وَيتغَافل عَن رَدَاءَة الطَّبع وَالإخرَاج، لأنّـه مُـنصَرف بكـلّه وَمِـن أَعـمَاقه إِلَـىٰ المَضمُون وَالمُحتَوىٰ لاَ إِلَىٰ الشَّكل وَالصُّورَة، كَمَا هُو الشَّأن فِيمَن يَـبْحَث عَـن العَبقَات لاَ عَن اللَّعنَات... وَصَدق الله العَليّ العَظِيم: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾[1].

وقَالَ حَكِيم خَبِير: «مَن ٱشْتَغَل بتَفَقد اللَّحن نَسي الحُجّة».

أعلاَم وَعَمَائم:

وَرَحم الله عُلمَاءنَا القُدَامىٰ، عَاشُوا ـ عَلىٰ فَقرهِم وَحَاجَتهِم ـ مَع كُتب الوَرَق الأَصفَر المَطبُوع بالحَجَر بلاَ فوَاصل وَدَلاَئل وَرُؤوس أَسطُر وَمَا شَـبه، وَأَقـبلُوا عَلَيهَا بحُبّ وَتَقدِير، وَدَرسُوهَا بفَهمٍ وَعُمق، وَنَاقشُوها بوَعي وَرويَّة... يسهرون مَعَهَا حَتَّىٰ الصَّبَاح عَلىٰ مِصبَاح شَاحب تَحُوم عَلَيهِ وعَلَيهِم البَعُوض اللاَّسـعَة، وَتَدب مِن حَولِهم العَقَارب اللاَّدغَة، وَمَا زَادهُم ذَلكَ إِلَّا ظَمَأً للعِلم، وَنشَاطَاً فِي طَلَبه حَتَّىٰ بَلغُوا مِنْهُ قـمّة القِـمَم، وكَـان مِـنْهُم صَـاحب الكـفَايَة، وَالرَّسَـائِل،

(١) ٱلإِسْرَاء: ٨٤.

وَالمُستَمسَك وَالجوَاهر ، وَمَن قَبلهم الشَّيخَان : المُفِيد ، وَالطُّوسي ، وَالشَّـهِيدَان : الجُـزَيني ، وَالجَـبعي ، وَالمُـحَقّقَان : الحِـلّي ، وَالعَـاملي ، وَالعَـلاَّمتَان : الحِـلّي وَالمَجلسي . . . إلَىٰ مَا لاَ يَبلغُه عَدّ وَحَصر .

وَلاَ أَدري : هَل البُؤس يَحث عَلَىٰ الحَركَة ، وَالحَاجَة عَلَىٰ البَحْث وَالتَّفْكِير ؟ وَأَيّاً كَان السَّبب فَإنَّ العَدِيد مِـن العُـلمَاء ، وَالفَـلاَسفَة ، وَالأُدبَـاء ـ قَـد حَـطّمُوا الحوَاجر عَلَىٰ صَخرَة الصَّبر ، وَٱنْتَصرُوا عَلَىٰ الآلاَم ، وَأَبدعُوا فِي كُلّ مَـيدَان . . . وَرَأيتُ ، وَأَنَا طَالب فِي النَّجف ، أَسَاتذَة وَتَلاَمذَة قَد عَضّهُم الجُـوع ، وَأَنْـهَكَتهُم الشّدّة ، وَبالرَّغم مِن هَذَا كَانُوا عِندَ النّقاش كَالسَّيل الدَّافق . . . ثُـمّ عُشتُ وَرَأيتُ نَوعَاً مِن الطُّلاَب لاَ يَهتَم وَاحدهُم بدَرس وَتَحصِيل ، وَشُغلَه الشَّاغل ـ وَهُو طَالب ـ بأَنَّ يَبني دَارَاً فَارهَة بالأَدوَات وَالمُكيفَات . . . وَالسّجَاد ، وَالحُجْرَات ، وإذَا فَتَح كتَاباً شَعَر بالإختنَاق ! . . . لاَ يَا شَيخ . . . أَمّا العِلْم وَحدَه لاَ شَرِيك لهُ ، وَأَنتَ حَبِيس فِي طَلَبه ، وَأَمّا الدُّنيَا وَكَفَىٰ .

شطحات فقهيّة :

حَيْت ٱنْتَهَيتُ مِن تَأليف الإسْلاَم بنَظرَة عَصريَة ـ شَرعتُ بكـتَاب شَـطحَات فِقْهِيّة ، وَسَوَدت مِنْهُ صَفحَات ، وَعَزمتُ عَلَىٰ المُضي فِيهِ حَتَّىٰ النّهَايَة ، كَـمَا هُـو شَأني فِي سَائِر مَا كَتَبتُ وَنَشرتُ . . . وَدُون أَيّة سَابقَة أَصْبَحت ذَات يَـوْم ، وَقَـد تَملَكني الخَوْف وَالهَلع مِن هَذِهِ الفَلتَات الَّتي تُبرز المَسَاويء ، وَتُخفي المَحَاسن ، وَقُلتُ فِي نَفْسي : يَا سُبحَان الله ! . . . وَأَينُا المَعْصُوم ؟ وَكَيف أَجمَع بَيْنَ هَذَا وكتَاب « مَع عُلمَاء النَّجف » ؟ . . . وَهَل أَنَا مُبرّأ مِمَّا أَرىٰ بِهِ سوَاي ؟ . . . وَإذَن فَأنَا مَغرُور ،

أَو مَخدُوع مِن نَفْسي حِينَ أَثَرتُ هَذِهِ الكَبوَات، وَإِنْ كُنت فِيْهَا مِن الصَّادقِين.

وَرَغم ذَلكَ اَستَخرتُ الله بكتَابَه وإذَا بآيَة غَاضبَة لاَهبَة تُهَددني بالإحبَاط وَالإنحطَاط... يَا سَاتِر يَا عَظِيم... مَا هَذَا الصَّارُوخ الجَهنّمي بَعد العَمَل الطَّويل، وَالجُهد الجَهيد؟. فَعَدلتُ عَن القَصد، وَشَكرتُ الله عَلىٰ لُطفهِ وَهدَايَته، وَسَألتهُ خَير القَضَاء فِي العَاجلَة وَالآجلَة: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[1].

وَغَريبَة الغَرَائِب أَنَّ كَبيراً مِن عُلمَاء النَّجف كَان قَد اَطّلع عَلىٰ بَعْض مَسَائِل مِن الشَّطحَات، فَقَال لِي بهدُوء الوَاثق، وَهُو يَقرَأهَا: «سَتَعْدل عَنْهَا لاَ محَالَة»[2] فَتعجَبتُ وَقُلتُ فِي نَفْسي: مَاذَا أَرَاد بهَذَا؟ وَمِن أَين جَاءَهُ العِلْم؟ وَأَنَا مُحبٌ لعِلْمِي، وَأَعتَزم الجدّ فِيهِ حَتّىٰ الحَرف الأَخِير، كَمَا سَبقَت الإِشَارَة.

هَذا الكِتَاب:

تَرَكتُ الشَّطحَات إلَىٰ هَذَا الكِتَاب، وكَان اَسمَه فِي بَاديء الأَمر «الدِّين وَالفِطرَة» ثُمَّ تَبيَّن لِي بأَنَّ أَكثَر فصُولَه أَو الكَثِير مِنْهَا تَلتَقي عِندَ الرَّد عَلىٰ

---

(١) يُونُس: ١٠٧ ـ ١٠٩.

(٢) يقَال وَالعُهدَة عَلىٰ القَائِل الَّذي قَالَ لِي، بأَنَّ صَاحب الحِكمَة: «سَتَعْدل عَنْهَا لاَ محَالَة»، هُو المَرجع الدِّيني الكَبِير الشَّهِيد، مُحمَّد بَاقر الصَّدر (ﷺ).

المُلحِدين، وَالتَّصدي لأقوَالِهم وَنقَاشهَا بمَنطق هَاديء وَصَارم، فَتَركتُ الإسم الأوّل إلىٰ آسم « شُبهَات المُلحِدين وَالإجَابة عَنهَا » ومَهمَا يَكُن فَلَيسَت العِبرَة بالإسم، بَل بمَا يَقع عَلَيهِ،... وَلاَ بالحَجم وكَثرَة الأوراق، بَل بالعِلم وَعَدد القُرّاء.

وتَسْأَل: لَقَد كَتَبت كَثِيراً فِي هَذَا المَوضُوع، وَأَفرَدت لكُلّ أَصل مِن أُصُول العَقِيدَة كتَاباً خَاصّاً بهِ، فَهل فِي كتَابك هَذَا مِن جَدِيد؟.

الجَوَاب:

١ ـ أَنَّ شُبهَة الإلحَاد تَقُوم عِندَ أَصحَابهَا عَلىٰ العَدِيد مِن الأَدلّة، نَاقَشتُ بَعضَهَا مِن قَبل، ثُمَّ لاَحَظتُ أَنَّهُم يُركزُون، كَثِيراً مِنْ عَلىٰ أَنَّ العِلْم الحَدِيث يُنَافر الإيمَان بالله وَيُنَاقضه مُتَشَبثِين بنَتَائج أَثبَتها عِلم الطَّبِيعَة، وعِلم الأَحيَاء وعِلم النَّفس، كَمَا يَزعمُون، وَهَذَا الكِتَاب يُفنّد هَذَا الزّعم وَالوَهم بَعد أَنْ يَعرض أَقوَال الزَّاعِمِين بأَوضَح بَيَان.

٢ ـ أَنَّ المُلحِدين لاَ يَكفُون عَن التّكرَار، وَالمُعَاودَة: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾[1].

٣ ـ لاَ بُدّ لكُلّ آمر بمَعرُوف، وَدَاع لأَيّة فِكرَة ـ مِن التَّوكِيد وَالتّكرَار، لأَنَّهُمَا مِن أَقوىٰ العَوَامل وَأَجدَاها لتَكوِين الآرَاء وَآنتِشَارهَا... وَمِن هُنا كَرّر ٱلقُرْءَان الكَرِيم آيَات التَّدلِيل، وَالتَّرغِيب، وَالتَّحذِير بشَتّىٰ الأَسَالِيب، وَمِن قَبل قَالَ المُشركُون لنَبيّهم: ﴿قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[2].

---

(١) ٱلإسْرَاء: ٨.

(٢) هُود: ٣٢.

وَلاَ أَعرف عَصراً اَنْتَشر فِيهِ الإِلحَاد ، وَكثُرَت وَسَائِله وَتنوعَت كهَذَا العَصْر ... وعَلَينَا أَنْ نبذُل كُلّ جُهدٍ مُخلص ، وَنَسلك كُلّ طَرِيق مِن شَأنه أَنْ يُقنع أَو يُفحِم ... هَذَا هُو الأَهم وَالأَسَاس فِي هَذَا الزّمن العَصِيب الغَرِيب ... أَمّا الإِحتفَال بـمَولد النَّبيّ ﷺ وَأَهل بَيْته ، وَإِحيَاء ذِكرىٰ مَا كَان وَجَرىٰ فهُو فَرع عَـن الإِيـمَان بـالله وَالتَّصدِيق بوجُوده حَيْث لاَ نَقْش بلاَ عَرش ، وَلاَ عِبَادَة بلاَ مَعبُود .

وَلَكن الَّذِين يَمكرُون فِي الخفَاء يَتجَاهلُون هَذِهِ الحَقِيقَة ، وَيُحيدُون عَنْهَا إِلىٰ مُجَرد المَظَاهر وَالشّعَائر ، وَأَلف مُلحِد وَمُلحِد يَسخَر مِنْهُم ومِنْهَا ... وَلَو كَان الدِّين مِن هَمّهم وَاَهتمَامهم لجَاهدُوا فِي هَذَا المَيدَان أَوّلاً وَقَبل كُلّ شَيء ، لأَنّه أَصـل الأُصُول .

وَهُو سُبْحَانَه مِن وَرَاء القَصد ، وَالمَسئُول بأَنْ يُوفقنَا جَمِيعاً لمَا هُو خَير وَأَبقَىٰ ، وَيَستَعملنَا بمَا هُو أَزكىٰ وَأَرضىٰ . والصَّلاَة عَلىٰ مُحَمَّد وَآله الأَبرَار .

سَارتَر وَفِكرَة الإلحَاد

وَجّه بَعْض المُؤْمِنِين سُؤالاً لعَالِم مِن أسَاتذَة الحَوزَة العِلميَّة وَكبّارهَا فِي النَّجف الأَشرَف، يَقُول: مَا رَأيكُم فِي دَعوَة الفَيلسُوف الفَرنسي وَالأَدِيب الشَّهير «سَارتَر» الَّتي تَحدىٰ بهَا المُؤْمِنِين فِي شَرق الأَرْض وَغَربهَا بأَنْ يَختَارُوا مِنْهُم قَدِيراً يَرسلُونه إلَيهِ للجدَال فِي الله، وعَلَيهِ نَفقَاته فِي ذهَابه وَإيَابَه... مَع العِلْم بأَنَّ المُؤْمِنِين قَد تَجَاهلُوا هَذَا التَّحدي الصَّارخ وَسَكتُوا عَنْهُ!... فَهَل يَجُوز السّكُوت فِي مِثل هَذِهِ الحَال؟.

وَأجَاب المَسئُول الكَبِير: لَو أَنَّ المُؤْمِنِين دَعوا «سَارتَر» إلَىٰ نقَاش الحسَاب عَن كُفرَة وَإلحَادَه، وَتعهدُوا بنَفقَانه ذهَاباً وَإيَّاباً، وَتجَاهل هُو بدَورَه وَأحجَم ـ فَهَل يَعني هَذَا أنّه أُفحِمَ وَاَستَسلم، وَبأَنَّ الجَاحِدِين مِن أمثَاله يَتُوبُون، عَلَىٰ فَرض إحجَامه، وَيَئوبُون إلَىٰ الرُّشد لاَ محَالة؟. (إنْتَهىٰ السُّؤال والجَوَاب).

وَغَير بَعِيد أَنْ يَكُون هَذَا التَّحدي مُفتَعلاً عَلَىٰ لسَان سَارتَر... لمُجَرد الإعلاَم وَالدّعَايَة إلَىٰ الإلحَاد، عَسَىٰ أَنْ يُخدَع بِهِ سَاذج أَبلَه.. وَلاَ أُنزّه «سَارتَر» عَن الكُفْر والإلحَاد، كَيف؟ وَهُو الرَّائد الأَوَّل فِي هَذَا العَصر للوجُوديَة الَّتي لاَ تَتجَاوب مَع دِين مِن الأَديَان السّماويَة، وَلاَ تَلتَمس عُذرَاً عِلمياً لمُؤمِن فِي إيمَانه بالله... وَلكنّي اَستَبعد عَنْهُ هَذَا الغُرُور وَالحُمق الَّذِي يُسيء إلَىٰ سُمعَته

وَمكَانَته !... وَأَيَة مَصْلَحَة لسَارتَر فِي تَـحدّيه شعُور أَهْـل الأَرْض أَو جُـلّهُم، فَيَصرخ فِي وجُوههِم بوقَاحَة وَصَلاَفة: كُلّكُم عَلىٰ خَطأ وَضلاَل، وَأَنَـا وَحـدي عَلىٰ الحَقّ المُبين، وفِيهِم الأَدمغَة الّتي تَزخَـر بـالعِلم وَالعُـمق وَتَـرد لهُ الصَّـاع صَاعَين ؟.

هَذَا، إِلَىٰ أَنَّ فِكرَة الإلحَاد كَانَت مُنذ القَدِيم وَلَم يَبتَدعهَا سَارتَر مِـن مَـوهبَته وَعَبقرِيَته... فَمِن قَبل وَمِن بَعد أَيضاً لاَكهَا الجَاهل وَالأَحمَق، وَلاَ فَضل لسَارتَر فِي طَرحهَا الآنْ وَالدّفَاع عَنْهَا.. وإِذَا كَان لَدَيه شَيء جَدِيد حَول الإلحَاد لاَ يَعرفهُ أَحد سوَاه، وَيُريد أَنْ يُعلنَه عَلىٰ النَّاس ـ فَلمَاذَا يَتحمل النَّفقَات وَيَبذل الأَموَال مَا دَام قَادراً فِي كُلّ حِينَ أَنْ يُعبّر عَن رَأيه فِي كُتبهِ أَو مَجلّته أَو فِـي أَيّـة صَـحِيفَة يَختَار، كَمَا هُو شَأنَه وَدَيدَنه فِي سَائر المَوضُوعَات ؟.

وَإِنْ أَرَاد سَارتَر مِن دَعوَته وَتَضحِيَته بالمَال أَنْ يَـطّلع عَـلىٰ أَدلَـة المُـؤْمِنِين وَيُحِيط بهَا عِلماً ـ فَتلكَ حُجّتهم بَيْنَ يَدَيه وَيَدي كُلّ طَالب وَرَاغب، يَجدهَا فِـي كتَاب الله، وَأَحَادِيث النَّبيّ وَأَهل بَيْتَه وَكلاَم الصَّحَابَة وَالتَّابعِين، وَأَقوَال الفَلاَسفَة وَالعُلمَاء، وآثَار أَهْل الفَن وَالأَدَب مِن أَبنَاء هَذَا العَصر وكُلّ عَصر وفِيهِم مَن يَملك أَرقىٰ مَا بَلَغَته الإِنسَانيَة مِن مَعَارف فِي كُلّ مَيدَان حَـتَّىٰ فِـي العُـلُوم الطّـبيعيَّة، وَأَدلتهِم فِي غَايَة البَسَاطَة وَالوضُوح... فَليُنَاقشهَا سَارتَر بمَا حَبّ... وَمرّة ثَانيَة لمَاذَا تَحمُل النَّفقَات وَبَذل الأَموَال ؟.

وَكَفىٰ بالله هَادياً وَنَصِيراً لبعَادِهِ المُؤْمِنِين، وَحَكَماً بَيْنَهُم وبَيْنَ الجَاحد الَّـذِين تَحدّاهُم سُبْحَانَه بقَولَه: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[1].

(١) ٱلبَقَرة: ١١١.

تحدّاهم جلّ وعلا بعد أنْ دعاهم إلىٰ الإيمان، وأرشدهم إلىٰ البُرهان وقال لهم فيما قال، علت كلمتهُ: هٰذا كتاب الوجود فتعقلوه، وذا قُرآني فتدبرُوه، وذاك رسُولي إليكم فانظرُوا في سيرته ورسالته بإمعان لعلّكم تهتدُون.

وبعد، فإنّ فكرة الإلحاد ليست بالمُشكلة الّتي ترتفع إلىٰ مُستوىٰ النّقاش الحاد والإسهاب في الجدال بيْنَ العارفين المُنصفين، لأنّها لا تقُوم علىٰ أساس من الواقع، ولا الشّواهد علىٰ وجُود الله عزيزة المنال وفوق العقول والأفهام كيف وفي كُلّ شيء لهُ آية؟ كما قال الشّاعر المُلهم.. وإنّما الإلحاد عُقدة نفسيّة لدىٰ بعض المُتفلسفين والمُتحذلقين، نشأت من كلمة الدّين بالذّات الّتي تُوحي بنوع من الفرضيّة القبليّة، كما يتوهمُون، ففروا منها إلىٰ «مُوديل» الإنكار والتّحرر من كُلّ قيد وقيمة!... ويُمثّلهم جميعاً ما قالهُ واحد منهُم «من المُستحيل أنْ يُوجد نظام بمحض الإتّفاق والصّدفة، بل لا بُدّ أنّه وجد نتيجة لإرادة مُدبّرة، ولكن ذهني لمْ يكُن علىٰ استعداد لتقبُل هٰذه الفكْرة»[1].

وعلىٰ أيّة حال، فإنّ وجُوديّة سارتر تعتبر كُلّ فرد من الإنْسان قلعة في نفسها، وتضع حرّيّته فوق أي اعتبار آخر، ويمتاز عن غيْره من الكائنات بالإختيار، وهُو يُؤكّد ذاته ووجُوده من خلال المواقف الّتي يختارها وينخرط فيها... ولا وجُود إطلاقاً قبل الإنْسان أو بعده لأيّة قوّة أو مبدأ أو شريعة خارجة عنهُ يُسوّغ لها أنْ تفرض نفسها عليه.

هٰذا تلخيص سريع لفلسفة سارتر أو وجُوديته... وأيّة كانت أو تكون فلستُ الآن بصدد شرحها والرّد عليها. وغرضي الأوّل هُو التّصدي لتحدّيه في دعوته

---

(١) أنظر، كتاب الإسْلام يتحدىٰ لوحيد الدّين خان. (منهُ ﷺ).

إلىٰ الجدال في الله سُبحَانه، إنْ صَحّ أنّه دعَا وتَحدّىٰ... وَقبل كُلّ شَيء أُشِير إلىٰ أنّ المُؤمِنِين بالله يَعتمدُون فِي إيمَانهم عَلىٰ مَنطق العَقْل الذّكي وَالحِس السَّلِيم، وَيُخاطبُون الجَاحدِين عِندَ الجدَال وَالنّقاش بالضّمِير الحَي وَالفِطرَة الصَّافيَة. وعَلىٰ هَذَا الأَسَاس أُوجّه الأَسئلَة لسَارتَر وغَيْره مِن المُشككِين:

١ ـ لنفْترض أنّ الإنْسَان هُو ذَاك الكَائِن الحَي الَّذِي حَدّدَه سَارتَر، فَهَل اكتَشف هُو أو أي عَالِم آخر دَلِيلاً قَاطعاً عَلىٰ أنّ الإنْسَان بَعد وجُوده فِي هَذِهِ الحَيَاة يَستَحِيل أنْ يَملك عَقلاً نَيّراً يَهدِيه وَيرشدَه، بمعُونَة الحِس إلَىٰ خَالقهِ وَخَالق الكَون، أو اكتَشف أنّ إرشَاد هَذَا العَقْل وَهدَايَته سرَاب وَتَضلِيل؟ فَإنْ كَان شَيء مِن ذَلكَ فَليَدلنَا عَلَيهِ سَارتَر وَغَير سَارتَر ونَحْنُ لهُ مِن الشَّاكرِين.

٢ ـ أنّ سَارتَر ألّف كتَاب المَذْهَب المَادّي والثّورَة: «مَا يَتَلخص بأَنّ المَاديّين يَنفُون وجُود أَي شَيء ورَاء المَادّة والطّبِيعَة، وَيَزعمُون أنّ الإيمَان بِهِ إيمَان بالغَيب لاَ يَعتَمد عَلىٰ الحِس التّجربَة... ثُمّ رَدّ سَارتَر قَولهُم هَذَا بأَنّ النّفي المُطلق لمَا وَرَاء المَادّة وَالطّبِيعَة هُو أيضاً فِي حَقِيقَتة إيمَان بالغَيب لاَ يَعتَمد عَلىٰ الحِس والتّجربَة. فَكَيف أبرَموا هُنا مَا نَقضُوه هُنَاك»[1]؟.

وإذَا صَحّ أنّ سَارتَر قَد دعَا وَتَحدّىٰ بَعد هَذَا الرّد يَكُون تمَاماً كالمَاديّين يَنْقض مَا أَبرَم، وَيُبرم مَا نَقَض.

٣ ـ لَيْسَ مُن شَكّ أنّ القَضَايَا الإنْسَانيّة، والإجْتمَاعيّة لاَ وجُود لَهَا قَبل الإنْسَان لأنّه هُو موضُوعهَا وَمُحورهَا، فَالحقُوق وَالوَاجبَات المُتبَادلَة بَيْنَ الزّوجَين وَالجَارَين وبَيْنَ الوَلد ووَالدَيه، كُلّ ذَلكَ وَمَا إلَيهِ إنّمَا يُوجَد بوجُود

(١) أنظر، المَذهَب المَادّي والثّورَة، تَرجمَته العَربيّة بقَلم سَامي الدّرُوبي: ٤٢ وَمَا بَعدهَا. (مِنْهُ ﷺ).

الإنْسَان، وَيَنتَفي بإنتفائه، لأنّه الشَّجرَة، وَقضَايَاه الثَّمرَة. أمَّا الكَون وَمَا فِيهِ مِن نِظَام وَشوَاهد عَلىٰ وجُود الخَالِق ووحدَانيّته فهُو موجُود قَبل أَنْ يُوجَد الإنْسَان، وَمن الشَّواهد الكَونيَّة ينطَلق عَقل الإنْسَان بَعد وجُودَه إلَىٰ الإيمَان بالله.

وَقَد أَبَاح سَارتر للعُقُول وَالأَفهَام أَنْ تُكتَشف قِوىٰ الكَون وَعنَاصره وَأسرَاره الكَامنَة فِيهِ مُنذ البدَايَة، وأَنْ تَستَغلهَا لخِدمَة الإنْسَان وَمنَافعه، مَا يَرىٰ مِنْهَا كَالمَعَادن، وَمَا لاَ يُرىٰ كالجَاذبيَّة وَالإلكترُون ـ فَعَليه أَيضاً أَنْ يُبيح للعُقُول الإستدلاَل بالشَّوَاهد الكَونيَّة عَلىٰ وجُود المُبدع وَالمُدبر... أمّا أَنْ يَحجَر عَلَيهَا هُنا، وَيُطلقهَا هُنَاك فَتَفريق بلاَ مُبرّر، وَتَقسِيم للشَّيء الوَاحد إلَىٰ نَفْسَه وَنَقِيضَه فِي آنٍ وَاحد، وَمِن جِهَة وَاحدَة.

وَبَعد، فَإنَّ أَشيَاء الكَون وَأنوَاعه لاَ يَبلغهَا الإحصَاء... وَمِن أَجل هَذَا تَقَاسم العُلمَاء فِيمَا بَيْنَهُم درَاسَة الكَثِير مِنْهَا، وَتَخصّص لكُلّ نَوع فِئَة مِنْهُم، فَللفَلك ـ مَثَلاً ـ عُلمَاؤه، وَللنَّبَات خُبرَاؤه، وَللحَيوَان أَخصّاؤه... إلَىٰ مَا هُو وَاضح وَمَعرُوف، وَيَستَحِيل عَلىٰ الفَرد أو الجَمَاعَة أَنْ يُحِيط وَيُحِيطوا عِلماً بجَمِيع أَشيَاء الكَون وَأنوَاعه. أَمّا الفَلاَسفَة فَقَد اَتّجهُوا إلَىٰ البَحْث عَن الوجُود مُطلقاً فِي كُلّيَاته وجُزئيَاته وَقِدَمه وَحدُوثه، وَمَصدَره وَمَاله، وَاَستَنطقُوا مَا فِيهِ مِن بَينَات وَشوَاهد عَلىٰ ذَلكَ، وَبالخصُوص عَلىٰ علّته الأُولىٰ الَّتي تُحَدّد اَتّجَاهه وَحرَكَاته، وَتُنَظم سُنَنه وَقوَانِينه، وَاَنْتَهىٰ الأَقطَاب مِنْهُم إلَىٰ الإيمَان بوجُودهَا وَصفَاتها تَمَاماً كَمَن سَمع وَرَأىٰ.

٤ ـ لنَفْتَرض أَنَّ وجُود الله مِن المَسَائِل النَّظريَّة تَقبَل الجدَال وَالنّقَاش عَلىٰ الرَّغم مِن وضُوح الدَّلاَئل وكَثْرَة الشَّوَاهد، ولَكن مِن المَعرُوف وَالمُؤكّد بَيْنَ

العُلمَاء مُنذ القَدِيم أَنَّ لكُلّ مُجْتَهد رَأيَه وَقنَاعَته فِي كُلّ مَسأَلَة نَظريَّة، وَلاَ يَجُوز بحَال أَنْ يَتنَازل عَن رَأيَه لمُجْتَهدٍ آخر يُخَالفه فِي النَّظر مَا دَام كُلّ مِنْهُمَا يَعتَمد عَلىٰ حجّة وَدَلِيل عِندَه، وَلاَ بُرهَان وَاضح وَمُسَلّم بهِ عِندَ الطَّرفَين عَلىٰ أَنَّ هَذَا مُصِيب قَطعَاً، وَذَاك مُخطيء يَقِيناً.

ونَحْنُ نُؤمن بالله لدَلِيل عِندَنا ولَيْسَ عِند سَارتَر، وَهُو يَكْفر لشُبهَة عِندَه ولَيْسَت عِندَنا، فَهل يُسَوّغ لهُ، وَهُو لاَ يَملك الدَّلِيل المُسَلّم بِهِ عِندَنا أَنْ يُنكِر عَلَينَا الْإِيمَان لشُبهَته، وَلاَ يُسَوّغ لنَا أَنْ نُنكِر عَلَيهِ الْإِلحَاد لدَلِيلنَا؟.

ومَهْمَا يَكُن فَإِنَّ صَخَب المُلْحدِين وَهتَافهُم لأَئمّة الكُفْر والْإِلحَاد لاَ يُثني المُؤمِن عَن إِيمَانه، وَلاَ يُشكك العَالِم بالله فِي عِلْمِهِ وَيَقِينَه.

٥ ـ أَنَّ أَدلَة المُؤْمِنِين بالله لَيْسَت إِرتجَاليَة، وَلاَ هِي جُزئيَات وَكَلمَات مُتنَاثرَة هُنا وَهُنَاك لاَ يَجمَعها ضَابط، وَلاَ تَرجع إِلَىٰ أَصل وَأَسَاس... كَلّا، فَإِنَّ العُلمَاء وَالفَلاَسفَة حددُوهَا عَلىٰ أُسّس مَنهجيَّة وَاضحَة تَعتَمد مُبَاشرَة أَو بالوَاسطَة عَلىٰ حَقَائِق بَدِيهيَّة وَمُسلمَات أَوَّليَة، وَخَصّصُوا لَهَا المَعَاهد، وَأَلفُوا فِيهَا الأَسفَار، وَدَعوا المُؤمِن وَالجَاحد إِلَىٰ تَمحِيصهَا وَدرَاستهَا، وَأَوجَبت الْأَكثَريّة الكَاثرَة مِن عُلمَاء الدِّين عَلىٰ كُلّ عَاقل النَّظر فِيْهَا، وَحَرّمُوا عَلَيهِ التَّقلِيد وَالمُتَابعَة العَميَاء، فِي أَي أَصل مِن أُصُول الدِّين... وَأَمر ٱلقُرْءَان الكَرِيم فِي العَدِيد مِن آيَاته بالْإِحتكَام إِلَىٰ مَنْطق الحِس، والعَقْل، وَالقَلب فِي كُلّ مَا يُمت إِلَىٰ العَقِيدَة بسَبَب، وفِي التَّشرِيع وَشئُون الْإِجتمَاع وآدَاب السّلوك، كَمَا حَثّ عَلىٰ النَّظر فِي مَلكُوت السَّموَات والْأَرْض.

وَلاَ أُرِيد هُنا أَنْ أُغرق القَارِيء فِي زُحَام المُقدّمَات، وَالنَّتَائج، وَالتَّفاصِيل،

وَالْأَرقَام، وَأَكتَفي بهَذَا التَّساؤل عَلىٰ لسَان مَن أَيقَن بالله وَآمَن:

أَنَّ كُلّ شَيء فِي الوجُود مِن الذَّرّة الصَّغِيرَة إِلَىٰ أَعظَم المَجرَات يَسِير عَلىٰ سُنّة مُحكمَة، وَيَنسَجم مَع غَيْرِه مِن أَشيَاء الكَون عَلىٰ مَا بَينَه وَبَينهَا مِن تَضَاد كَالحَرَارَة وَالبُرُودَة، وَالحَركَة وَالسّكُون، وَاللَّيل وَالنّهار، والكُلّ يَعْمَل فِي تَعَاون وَاتّحَاد كَامل، وَيَتّجه إِلَىٰ غَايَة وَاحدَة تَمَامًا كعَمَل الجِسم المُؤلّف مِن أَعضَاء مُتبَاينَة، وَقِوىٰ مُتضَادّة يُدبرهَا جَمِيعًا عَقل وَاع وَإِرَادَة حَكِيمَة.

فَمَن الّذِي أَحكَم وَنظّم هَذَا الكَون بمَا فِيهِ، وَدبرَه وَهيمَن عَلَيهِ؟ وَوَضع كُلّ شَيء فِي المَكَان المُلائِم لهُ حَتّىٰ أَدّىٰ الغَايَة مِن وجُوده عَلىٰ أَكمَل وَجه؟ وَمِن أَينَ جَاءَته الحَيَاة وَالْإِدْرَاك وغَيْرَه مِن الْإِنفعَالاَت البَشريَّة وَغَير البَشريَّة؟ وَهَل ذَلكَ كلّه مِن صُنع الطَّبيعَة العَميَاء الصَّماء؟ وَهَل الطَّبيعَة عِلّة لنَفسهَا وَلمَا فِيْهَا مِن إِرَادَة وَعَقل وَنظَام؟ كَيف وهِي تَفْتَقر فِي أَصل وجُودهَا إِلَىٰ مُقوّم وَمُدبر؟. أَمَّا الصّدفَة فَلاَ تَدخُل فِي عِلْم وَقَانُون، وَلاَ يَلجَأ إِلَيهَا إِلّاَ مِن شَهد عَلىٰ نَفْسَه بالجَهل وَالقصُور عَن مَعْرفَة السَّبب المُوجب. وبالتَالي كَيف يُسَوّغ لنَا أَنْ نَحتَمل الصّدفَة فِي وجُود الكَون وَعجَائبه، وَلا يُسوّغ ذَلكَ فِي وجُود عُود ثُقَاب وَاحد؟.

إِلَىٰ كَثِير مِن الأَسئلَة الّتي مَا وجدَت حَتَّىٰ الآنْ وَلَن نَجد أَجوبَة حَاسمَة فِي نَظر العَاقِل المُحَايد، بَل العَكس هُو الصَّحِيح فَإِنَّ أَقوَال المُلحدِين زَادَت المُؤْمِنين بَصِيرَة وَيَقِينًا حَيْث تَجَاوزَت مَنْطق العَقْل والعِلْم إِلَىٰ الخرَافَات وَالحمَاقَات الّتي أَكدهَا فُولتِير وَنَعت بهَا المُلْحدِين فِي قَوْلَه: «أَنَّ فِكرَة وجُود الله فَرض ضَرُوري لأَنَّ الفِكْرة المُضَادّة حمَاقَات»[1]. وَأَطرَف هَذِهِ الحمَاقَات قَوْل

---

(١) أنظر. (فُولتِير تَأْلِيف جُوستان لانسُون تَرجمَة مُحمّد غنِيمي هلاَل: ٧٣ طَبْعَة سَنَة (١٩٦٢م). (مِنهُ ﷺ).

نيتشه : «لو كَان الله مَوجُوداً لكُنتُ أَنَا هُو . وَكَيف أَستَطِيع أَنْ لأَكُون إله ؟ . . . وَإِذَن فَلَيس ثمّة إله »[1] .

وَلَيْسَ مِن شَكّ أَنَّ نِيتشَه لَو كَان يَملك وَسِيلَة وَاحدَة مِن وَسَائِل الإِقنَاع ـ مَا لجَأ إِلَىٰ هَذِهِ الخرَافَة وَالحمَاقَة . . . أَمَّا ٱلمُؤْمِنُون بالله فَإِنَّ رَائدهُم العَقْل ، وَحَلِيفهُم العِلْم ، وَمَا تَقَدّم خُطوَة فِي أَي مجَال مِن مَجَالاته ، وَبخَاصّة فِي عَالَم الأَحـيَاء ، وَبصُورة أَخصّ فِي التَّشرِيع وَالفَلك ـ إِلَّا وزَاد الأَدْلَّة عَـلىٰ وجُـود الله وضُـوحاً وَقوّة ، وَأدلىٰ ببرَاهِين جَدِيدَة ، وَكَشف عَن نَتَائج عِلميَّة لاَ تَفسِير لَهَا إِلَّا بـقوّة لاَ تَشبَه شَيْئَاً مِن أَشيَاء الطَّبِيعَة ، وَلاَ يَشبَههَا شَيء . . . وَمِن هُنَا أَيقَن بالله وَآمَـن بـهِ العَدِيد مِن رِجَال العِلْم وَأَقطَابه فِي هَذَا العَصر[2] .

وَمِن قَبل كَان هَؤُلَآء العُـلمَاء لاَ يَـهتمُون بكُـفر وَإِيـمَان ، وَلاَ يَـرون أَي دَاع وَمُوجب للبَحث عَن أَدلّة الإِثـبَات أَو شُـبهَة النَّـفي . . . وَإِنَّـمَا شُـغلهُم الشَّـاغل وَظِيفَتهُم وَمَا يَدخُل فِي ٱختصَاصِهم وَكَفىٰ ، ولَكن الوَاقع الَّذِي عَاشُوه مُبَاشرَة ، وَمَارسُوه فِعلاً هُو الَّذِي فَرَض نَفْسَه عَلَيهِم ، وَخَلق الإِيمَان بالله فِي قُلوبِهم مِـن حَيث لاَ يَشعرُون وَيَقصدُون .

ورُبَّمَا قَالَ قَائِل : ولمَاذَا البَحْث فِيمَا وَرَاء الطَّبِيعَة مَا دُمنَا نَعِيش فِيْهَا لاَ وَرَاءهَا وفِي خَارجهَا ، وَقَد ٱكتَشفنَا مِن أَسرَارهَا مَا نَنتفع بِهِ ، وَمَا زلنَا عَلىٰ هَذِهِ الطَّرِيق نَجدّ السَّير للغَايَة نَفسهَا ؟ . أَلَيْسَ الأَجدَر وَالأَنفَع أَنْ نَسكُت عَـمّا لاَ يَـعنِينَا مِـن قَرِيب أَو بَعِيد ؟ .

---

(١) نَقَل هَذَا عَن نِيتشَه الفَيلسُوف الإِنجليزي الشَّهير رَاسل فِي كتَاب السُّلطَان : ٢٩٠ تَـرجـمَة خَـيري حمَّاد طَبْعَة سَنَة (١٩٦٢م) . (مِنْهُ ﵀) .

(٢) أنظر . كتَاب الله يَتَجلي فِي عَصْر العِلْم الَّذِي تُرجِمَ إِلَى كُلّ اللُّغَات وَطُبع العَدِيد مِن المَرّات . (مِنْهُ ﵀) .

الجوَاب :

أنَّ الإيمَان بالله وَقُدرَته وَعَدله يَعْني أَنَّ الإنْسَان لاَ يُترك سُدىً، وَأنّه مَسئُول عَمّا يفْعَل وَيَترك، وأَنَّ المُسيء لاَ يَفلت مِن العقَاب، وأَنَّ المُحسن يُكَرّم وَيُثَاب ... هَذَا، إِلَىٰ أَنَّ آثَار الدِّين وَمُعطيَاته لاَ تَقف عَلىٰ العِبَادَة فِي المَسَاجد وَالكنَائِس، بَل تَتجَاوزهَا إِلَىٰ السِّيَاسَة وَالإِقتصَاد وَنظَام الأُسرَة وَالكُتب السَّماويَة، وَالأَمَاكن المُقدَّسَة، وَكَثِير مِن التَّقَاليد وَالعَادَات ... وَمن أَجل الدِّين قَامَت حرُوب أَجرَت الدّمَاء أَنهُراً، وَثَارَت خلاَفَات قَسّمَت البَلد بَل البَيْت الوَاحد إِلَىٰ أَجزَاء، وَشيّدت صرُوح وَمعَاهد، اُستَهلَكت الكَثِير مِن الأَرزَاق وَالأَقوَات، وَتَكوّنَت هَيئَات وَدُول وَأَحزَاب، ووَضَعت مُؤلّفَات بِمُختَلف اللُّغَات ... حَتّىٰ الدُّول المُلحدَة فِيهَا دَوَائِر خَاصّة للشّئُون الدِّينيَّة.

وقَالَ كَثِير مِن أَهْل الإختصَاص: « ثَقَافَة كُلّ أُمّة تَنطَلق مِن دِينهَا وَإيمَانهَا » وَترفض الكَثِير مِن الفَلْسفَات وَالأَنظمَة، لأَنَّها لاَ تَتجَاوب مَع مِمَّا تُدِين وَتعتَقد ... أَبعَد هَذَا وغَيْره كَثِير وَخَطِير يُقَال: لمَاذَا البَحْث فِي الدِّين وَأَيهُما أَبعَد أَثراً فِي الحَيَاة الدِّين: أَو الوجُوديَة، وَالبرجمَاتِيَة، وَالمَاركسيَة ؟ وَكَيف حُسن البَحث فِي هَذَا دُون ذَاك ؟.

وَبَعد، فَإِنَّ الدِّين هُو السِّمة العَامّة الّتي تُحَدّده حَيَاة البَشريَة كُلّها أَو جُلّها فِي كُلّ مَرحلَة مِن مرَاحل التَّأرِيخ .. والإيمَان بالله قَدِيم وَأَصِيل، يَقُوم بُنيَانه عَلىٰ أَسَاس العِلْم والعَقْل وَالحُجّة وَالقَنَاعَة، وَقَد وَاجه الكَثِير مِن التّحديَات وَالمُؤامرَات، وَكلّها تَبَخرت مَع الرِّيح ... وَبَقي الدِّين مُتوّجاً عَلىٰ عَرشَه تركَع لَهُ جبَاه المُلوك وَالجَبَابرَة: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾[1].

---

(١) ٱلبَقَرَة: ١١٦.

بَيْنَ المُؤْمِنِين وَالمُلْحدِين

هَذَا الفَصل تَابع للفَصل السَّابق، أو كُلّ مِنْهُمَا فَرد مُستَقل مِـن مَـوضُوع عَـام يَنطَبق عَلىٰ العَدِيد مِن الفُصُول.

كَيف يُؤمِن بمَا لاَ يُرىٰ؟:

قَالَ المُلْحدُون: لَقَد آمَن بالله مَن آمَن دُون أَنْ يَرَاه بحِسّ، وَيتنَاولَه بـتَجربَة، وإِنَّمَا فُرض وجُودَه ليُفَسّر بِهِ الكَون ونَظَامَه الحَكِيم الدَّقِيق بَعد العَجز عَن تَفْسِيرَه بالعِلم وَمَنطق الحِسّ، زَاعمَاً بأَنَّ مِثل هَذَا النّظَام الكَوني لاَ يُمكن أَنْ يَصنَعه شَيء إِلّا قوّة خَارقَة فَوق المَادّة والطَّبيعَة... ثُمّ قَالَ الجَاحدُون وَهَذَا مَردُود أَوّلاً لأَنّه إِيمَان الغَيب. ثَانيَاً أَنَّ النّظَام الكَوني تَوَلّد مِن نَفْس الكَون لاَ مِن قوّة خَـارجـيَّة عَنْهُ، وَقَد أُودعَت فِيهِ النّظَام وَالْإِنسجَام ـ كَمَا يَدّعي ٱلـمُؤْمِنُون ـ وَيَـعرف هَـذَا التّعلِيل بالتَّولد الذَّاتي وَالتّفسِير المِيكَانِيكي.

حَتمِيّة الإِيمَان بالغَيب:

وَأَجَاب ٱلْمُؤْمِنُون عَن الْإِعترَاض الْأَوّل بأَنّ كُلّ مَن آمَن بشَيء لَمْ يَـرَه فَـقَد آمَن بالغَيب، وَالمُنكرُون للقوّة الخَارقَة المُدبرَة يَعتقدُون بوجُود أَشيَاء لاَ يُمكن

أَنْ تَنَالَهَا يَد التَّجربَة ، وَيَستَحِيل عَلىٰ الحِسّ أَنْ يَصل إِلَيهَا بأيّة وَسيلَة مِن الوَسَائِل ، وَمِن ذَلكَ ـ عَلىٰ سَبِيل التَّمثِيل ـ الجَاذبيَّة فِي المَادّة ، وَالمُغنَاطِيس فِي الحَدِيد ، وَوجُود ألكترُون ، وَمَا يَجري فِي العَقْل مِن تَفكِير وَاَسْتنتَاج ، وَيَرتَسم فِي الذّهن مِن صُور ، وَيَختَلج فِي القَلب مِن ميُول ، وَيَرسَخ فِيهِ مِن إِيمَان... وَكَيف تَخْتَزن الذَّاكرَة المَعلُومَات ، وَتَحتَفظ بهَا لوَقت الحَاجَة... وَقَد حَيَّر لُغز الذَّاكرَة العُلمَاء بَعد أَنْ اَكتَشفُوا بأَنَّ فِي طَاقتهَا أَنْ تَستَوعب بلاَيِّين المَعلُومَات ، وأَيضاً يَعتَقد المَاديُّون بوجُود الأَثِير الَّذِي تَألّف مِنهُ الكَون دُون أَنْ يَقع تَحت إختبَارهم ، وَتَأتي الإِشَارَة... وَمِثلَه الزَّعم بأَنَّ أَصل الإِنْسَان قِرْد .

هَذَا ، إِلَىٰ أَنَّ عَالِم الفَلَك يُؤمن بوجُود كَوكَب غَائِب عَنْهُ وَيُحَدّد مكَانَه مِن حَركَة كَوكَب آخر شَاهَده وَرَاءَه ، وَالطَّبِيب يَكتَشف نَوع المَرَض مِن ظهُور آثَارَه ، وَالقَاضي يَحكُم بالدّمَاء وَالأَموَال مِن القَرَائِن القَضَائيَّة وَغَيرهَا دُون أَنْ يَرىٰ الجَرِيمَة وَيُشَاهدهَا ، وَصَاحب الحَفريَات يَتَحدّث عَن الأُمَم المَاضيَة ، وَالقُرون الخَاليَة مِن مُشَاهدَة البَقَايا وَالحُطَام ، وكُلّ النَّاس يَحكمُون عَلىٰ الإِنْسَان مِن خلاَل سلُوكه دُون أَنْ يَطّلعُوا عَلىٰ سِيرَته ، بَل وَمِن صَفحَات وَجهَه وَفَلتَات لسَانَه ، وأَيضاً يُؤمنُون بصِدق المُحدث أو كَذبه مِن طَبِيعَة كَلاَمَه وَسيَاق حَدِيثَه ، بَل اَتّفق العُلمَاء وَالفَلاَسفَة قَولاً وَاحداً عَلىٰ أَنَّ الإِنْسَان يَستَحِيل عَلَيهِ أَنْ يُدرك ذَات الأَشيَاء المَوجُودَة فِي الكَون وَحَقِيقَتها ، وأَنَّ كُلّ مَا يَعرفهُ عَن أَي شَيء صَغِير وَحَقِير هُو صفَاتَه وَظوَاهرَه كُلّ ذَلكَ وغَيْرَه كَثِير ـ إِيمَان بمَا لَمْ تَنَلْهُ يَد التَّجربَة وَلاَ يَصل إِلَيهِ الحِسّ .

وَبَعد ، فَإِنَّ الكَون يَزخَر بالحَقَائِق الخَفيَّة الَّتي لاَ تُرىٰ بالعَين ذَات الطَّاقَة

المَحدُودَة، وَمَا مِن عَاقل عَلىٰ وَجْه الأَرْض إلَّا يُؤمن بالعَدِيد مِن هَذِهِ الحَقَائِق وَيرىٰ الإِيمَان بهَا مِن الضَّرورَات الأَوّليَة الَّتي لاَ مَفرّ مِنْهَا لأَحد عَلىٰ الإِطلاَق وَإذَن فبالأَوّلىٰ أَنْ يَكُون الإِيمَان بالله ضَروريّاً بَعد ظهُور آثارَه فِي خَلقهِ الَّذي تَعْجز الأَوْهَام وَالأَلسُن عَن وَصفه. وقَالَ بَعْض الفَلاَسفَة: «حَدّ العَقْل بأَنْ يَنْتَقل الإِنْسَان مِن مَعلُوم إِلَىٰ مَجهُول، مِن شَاهد إِلَىٰ غَائِب، مِن حَاضر إِلَىٰ مُستَقبَل لَمْ يَحضَر بَعد أَمَام البَصَر، أو إِلَىٰ مَاضٍ ذَهَب وَٱنْقَضىٰ وَلَم يَعد مَرئيّاً مَشهُوداً... فَإِذَا لَم يَكُن ذَلكَ فَلاَ عَقل»[1].

وَمَعنىٰ هَذَا بأَنَّ مَن لاَ يُؤمن بالله لاَ لشَيء إلَّا لأَنّه لَم يَره بالذَات ـ فَلاَ عَقل لَهُ، لأَنَّ مُهمَّة العَقْل أَنْ يَرشدنَا إِلَىٰ مَا لاَ يُمكن إدرَاكَه بالحِسّ وَالتَّجربَة وأَنْ يُحَذرنَا مِمَّا تُخَبئهُ الأَيَّام، وَيَنفعنَا برُؤيَته وَمَوعظَته... وَالذَّكي الأَلمَعي هُو الَّذِي يَفْهم مِن الإِشَارَة، وَيُدرك المُغيبَات مِن القَرَائِن، وَيُؤمن بهَا حَتَّىٰ كَأَنَّهَا مُجسَّدَة أَمَام عَينَيه. وقَدِيماً قَالَ الشَّاعر العَربي[2]:

الأَلمَعيُّ الَّذي يَظُنّ بِكَ الظَّنَّ ... كَأَنْ قَد رَأىٰ وَقَد سَمِعا

خطأ التفسير الميكانيكي للكون:

وَأَجَاب ٱلْمُؤْمِنُون عَن الإِعتِرَاض الثَّانِي، وَهُو التَّفسِير المِيكَانِيكي وَالتَّولد الذَّاتي، أَجَابُوا بأَنَّ المَادّة جَامدَة عَميَاء لاَ رُوح فِيهَا وَشعُور، وَلاَ وَعي وَإدرَاك

(١) أُنظر، كتَاب تَجدِيد الفِكْر العَربي للدّكتُور زَكي نَجِيب مَحمُود، الفَصْل السَّابع: (قِيَم بَاقيَة مِن ترَاثنَا). (مِنْهُ رحمه الله).

(٢) يُنسب هَذَا البَيْت إِلىٰ الشَّاعر أَوْس بن حِجر، شَاعر جَاهلي تَمِيمي (ت ٦٢٠)، زَوّج أُمّ زُهير ٱبن أَبي سُلمىٰ، وَفِي شِعرهِ حِكْمَة وَرقّة. أُنظر، دِيوَانَه: ٥٣.

فكيف نظّمت نفسها بنفسها، وقدّرت كلّ شيء في الكون تقديراً على سنن ثابتة ونواميس محكمة؟...

وحاول الماديّون أو الكثير منهم حلّ هذه المشكلة بفرض ضروري عندهم حدساً وتخرصاً، وهو أنّه ـ في بداية ذي بدء وقبل أنْ يوجد الكون على وضعه الحالي ـ كان هناك أثير ساكن راكد يملأ أطراف الفضاء... ثمّ حدثت حركة قويّة فجأة ومن باب الصّدفة، واستمرت ملايين السّنين، ومن هذه الحركة الدائبة وحتميّة تطور المادّة تألّف هذا الكون الموجود الآنْ بأرضه وسمائه، وجماله وبهائه، وتخطيطه ونظامه وترتيبه وانسجامه.

وتساءل المؤمنون بالله: من أين جاء العلم بوجود هذا الأثير الّذي سبق وجود الكون من القطع واليقين بأنّه لم يكن تحت الحسّ ولا دلّت عليه الآثار والقرائن؟ ولو سلّمنا جدلاً بوجوده فمن الّذي أوجده؟ ثمّ من الّذي حرّكهُ؟ وهل الصّدفة والحركة العشوائيّة الهوجاء تنتج هذا النّظام البديع الشّامل لأفلاكه وكواكبه وذرّاته ومجراته؟...

وإذا وجدَ الكون بما فيه ومن فيه من باب الصّدفة فلماذا لا يكون هذا الزّعم صادراً عن زاعمه صدفة وعن غير قصد... وكذلك قفز الإنسان إلى القمر، ووجود القرى والمدن، والمصانع والمعاهد، وجميع المخترعات، والأسفار والأشعار، كلّ ذلك وما إليه ما كان ويكون من باب الإتّفاق والصّدفة!... وكيف ننسب الكون ونظامه العجيب إلى الصّدفة، ولا نترك لها نحنُ أتفه الأمور؟ ثمّ هل يسوّغ لنا بأنْ نذم ونعاقب من أساء وأجرم، ونمدح ونثيب من أحسن وأنعم، ونحنُ نؤمن بنظريّة الإحتمال وقانون الصّدفة؟.

وَهَل يَقبَل العَاقِل الخَبير العَلِيم بأَنَّ عَقْلَه وَشعُورَه تَولدَا مِن مَادّة لاَ عَقل لَهَا وَلاَ شعُور، وَأَنَّ سَمعَه وَبَصرَه أَوجَدهُما مَا لاَ يَسمَع وَلاَ يُبصر ؟ وأَيضاً هَل يَقبَل عَقل عَاقل بأَنَّ بصَمَات الأَصَابع وَمَلاَمح الوجُوه ورَوَائح الأَجسَام قَد اَختَلفَت بَيْنَ المَلاَيِيّن مِن أَبنَاء البَشَر، هَل يَقبَل العَقْل أَنَّ كُلّ ذَلكَ حَدَث لمُجَرد الصّدفَة ؟.

القُرُود وَأشعَار شكسبِير:

وَاَستَدل مُتَفلسِف فِي القَرن العشرِين عَلىٰ صحَة قَانُون الصّدفَة ـ بأَنّه لَو فَرضنَا أَنَّ عَدَداً مِن القُرُود ضَربُوا أَجيَالاً طَويلَة عَلىٰ آلاَت كَاتبَة، لوَجَدنَا بَيْنَ مَا خَطّته كُلَّ أَشعَار شَكسبير، وهَكَذَا حَدَث نظَام الكَون بَعد الحَركَة العَشوَائيَة الَّتي طَرَأت عَلىٰ الأَثِير.

وَنَقُول فِي رَدّه: أَنَّ هَذَا الفَرض لَيْسَ ضَرُوريَّاً، بَل الأَقرَب إِلَىٰ إِلفَة العَقْل بأَنْ لاَ نَجد فِي خطُوط القُرُود عَيناً وَلاَ أَثَراً لأَشعَار شَكسبير... وَلَو سَلّمنَا جَدلاً بهذَا الفَرض لوَجدنَا إِلَىٰ جَانب أَشعَار شَكسبير مَلاَيِّين الخطُوط بلاَ هُدىٰ وَمَعنىٰ مَع العِلْم بأَنَّ مَا مِن شَيء فِي هَذَا الكَون الكَبِير العَظِيم إِلاَّ بتَقدِير مُحكَم، وَنظَام مُستَمر بحَيث لَو زُحزحَ عَنْهُ لاَنفَرَط عِقد الكَون وَتنَاثَر.

وَتَسْأَل: إِذَا كَان الله أَوجَد الكَون مِمَّن الَّذِي أَوجَد الله سُبْحَانَه ؟.

الجَوَاب:

أَنَّ الكَون المُستَمر التَّغيِّير وَالتَّطور لاَ بُدّ أَنْ يَنْتَهي إِلَىٰ علّة أَولَيَّة قَائِمَة بذَاتهَا، لأَنَّ تَسلسُل العِلَل إِلَىٰ غَير نهَايَة يَرفضَه العَقْل وَلاَ يَألفَه، وَلَو اَحتَاج كُلّ شَيء فِي وجُودَه إِلَىٰ علّة لاَستحَال أَنْ يُوجد شَيء عَلىٰ الإِطلاَق. وَبَقي العَالَم طَي العَدَم

وَالكتمَان... وَبكلاَم آخر كُلّ مَالاَ يَحمل فِي طَبِيعَته السَّبب الكَافِي لوجُودهِ لاَ بُدّ أَنْ يَنْتَهي إِلَىٰ مَوجُود يَحمل فِي طَبِيعَته سَبباً كَافياً وَافياً لوجُودَه.

وَبهذَا يَتبيَّن مَعنَا مَكَان الخَطأ فِي قَوْل مَن قَالَ: يَستَحِيل أَنْ يُوجد شَيء مِن لاَ شَيء... إِذَا ٱعْتَبرنَا هَذَا القَوْل أَصلاً طَبِيعيّاً وَقَانُوناً حَتميَّاً يَطّرد فِي كُلّ شَيء، بلاَ ٱستثنَاء، إِذْ يَلزَم، وَالحَال هَذِهِ، أَنْ لاَ يُوجد شَيء مِن الأَسَاس مَهْمَا كَان ويَكُون حَتَّىٰ هَذَا القَوْل وَقَائِله.

وَبقَصد التَّوضِيح نَضرب مَثلاً بالمُخترعَات: فَكُلّ ٱختِرَاع مِن أَي نَوع كَان لاَ بُدّ أَنْ يَنْتَهي إِلَىٰ مُختَرع أَوَّل ٱبْتَدعَه مِن أَفكَاره وبالذَات، وَلَم يَأخذَه مِن غَيْرَه، وَلَو ٱفتَرض أَنّه لاَ مُختَرع أَوَّل وَجَب أَنْ لاَ يُوجد ٱختِرَاع عَلىٰ الإِطلاَق... مِثَال ثَانٍ: كُلّ مَا كَان دَلِيلاً عَلىٰ غَيْرَه لاَ بُدّ أَنْ يَكُون مِن الأَوليَّات الضَّروريَّة وَالمُسلمَات البَديهيَّة، يُستَدل بِهِ وَلاَ يُستَدل عَلَيهِ، أَو يَنْتَهي إِلَىٰ دَلِيل كَذَلكَ، وَلَو ٱحتَاج كُلّ دَلِيل إِلَىٰ دَلِيل مَا كَان لِفكرَة الإِستدلاَل عَين وَلاَ أَثَر.

سُؤال ثَانٍ: أَجل، لاَ بُد أَنْ نَفْترض وجُود علّة قَائِمَة بذَاتهَا مَعلُولَة لغَيرهَا، وَلَكن لمَاذَا لاَ نَفترَض بأَنَّ المَادّة هِي وَاجبَة الوجُود، وأَنَّهَا تَحمل فِي طَبِيعتهَا السَّبب الكَافِي لوجُودهَا؟ وَسَبق الجَوَاب عَن ذَلكَ فِي فقرَة «خَطَأ التَّفسِير المِيكَانيكي للكَون» وأَنَّ المَادّة الجَامدَة العَميَاء يَستَحِيل أَنْ تُنَظّم نَفْسهَا بنَفْسهَا، وَأَنَّ القوَانِين وَالمَقَادِير لاَ تُوجد بلاَ خَالق قَادر وَعَالِم وَحَكِيم. وأَيضاً تَقدَّم قَوْل فُولتِير: «أَنَّ فِكرَة وجُود الله فَرض ضَرُوري لأَنَّ الفِكْرة المُضَادّة حمَاقَات»[1].

(١) أنظر. (فُولتِير تَأليف جُوستان لاَنسُون تَرجمَة مُحمَّد غنِيمي هلاَل: ٧٣ طَبعَة سَنَة (١٩٦٢م). (مِنْهُ ﷺ).

وَتجدُر الإِشَارَة إِلَىٰ أَنَّ بَعْض المُؤْمِنِين قَالُوا: لاَ فَرق بَينَنا وبَيْنَ المَاديِّين لأَنَّ كُلًّا منَّا يُؤمن بفِكرَة وَاجب الوجُود سِوىٰ أَنَّنَا نُسَمِيه نَحْنُ الله، وَهُم يُسمّونَه الطَّبيعَة!... وَذهلُوا عَن أَنَّ التَّفسِير المِيكَانِيكي للكَون مَعنَاه أَنَّ المَادَّة هِي المَوجُود الوَحِيد، وَأَنَّه لاَ شَيء وَرَاءهَا اطلاَقاً. وَهَذَا إِنكَار لله الَّذِي لَيْسَ كَمِثلِهِ شَيء فِي ذَاته وَصفَاته.

فلسفات متهافتات:

وَبَعد، فَلاَ بِدْع إِذَا ارتَابَت فِئَة قَلِيلَة أَو كَثِيرَة فِي وجُود الله، لأَنَّها مَا رَأَتهُ وَلاَ يُمكن أَنْ تَرَاه، فَإِنَّ السّفسطَائِيِّين شَكّوا فِي وجُود الكَون وفِي أَنفسِهِم وفِي شَكّهم أَنَّهُم يَشكُون، وَنَظرُوا إِلَىٰ الكَون نَظرَتهم إِلَىٰ العَدَم المَحض، لأَنَّ العَقْل بزَعمهِم يَعجَز عَن مَعْرفَة أَي شَيء حَتَّىٰ عَن مَعْرفَة نَفْسَه!.

وقَالَ أَنْصَار المَذْهَب السّلُوكي، كَمَا فِي كتَاب «الفَلْسَفَة بنَظرَة عِلميَّة لرَاسل» قَالُوا: لاَ وجُود للصُّور الذّهنيَة، لأَنَّها لاَ تَرىٰ وَتحُس، فَإِذَا شَعر الإِنْسَان بأَنَّه يُفكّر وَيَتصَور فشعُورَه هَذَا وَهمٌ وَخرَافَة.

وقَالَ المثَاليُون، وفِيهِم أَسَاتذَة وَأَقطَاب: لاَ وجُود لعَالَم قَائِم بذَاته، وَلاَ شَيء فِي الوجُود عَلىٰ الإِطلاَق إِلَّا إِذَا أَدرَكه عَقل مِن العقُول، وَمَا لاَ يُدركَه عَقل فَلاَ وجُود لَهُ.

فكُلّ وَاحدَة مِن هَذَا الفِئَات أَنكرَت وجُود المَحسُوس لفَلسَفَة تُؤمن بهَا، وَتَرىٰ غَيرهَا خَطَأً وَضَلاَلاً... وَإِذَن فَلاَ غَرَابَة أَنْ يُجَادل فِي الله لسَبب أَو لآخر مَن رَأىٰ أَثَرَه فِي خَلقهِ دُون أَنْ يَرَاه!. هَذَا اعتَرف بالخَلق وَأَنْكَر الخَالِق، وَأُولَئك

المُتفلسفُون أَنْكَرُوا الخَالِق وَالخَلق الَّذِي رَأوه بالعَين وَلمَسُوه بـاليَد.. فكَـيف نَتوَقع اعترَاف الجَمِيع بالله سُبْحَانَه وَبالحَقّ وَالوَاقع مَع هَذِهِ الفَلْسفَات المُتنَاقضَة المُتضَاربَة ؟. هَذَا بالإِضَافَة إِلىٰ التَّعصب الأَعمىٰ الَّذِي نُشر إِليهِ فِي الفقرَة التَاليَة.

لا إِنسَانيَّة بِلاَ حُرِّيَة:

وَنَعْطف عَلىٰ الفَلْسفَات المُتهَافتَة مَن أَعمَاهُم التَّعصب، شِعر هَؤُلآء بقصُورهِم وَعَجزهِم عَن موَاجهَة الأَدْلّة الكَـونيّة وَالعَـقليَّة عَـلىٰ وجُـود الله فَـلفَّوا وَدَارُوا وَحَاكوا بَعْض الشُّبهَات والأَوْهَام، يَلقُونهَا فِي عقُول البُسطَاء السُّذج، وَمِنْهَا: لَو كَان الله مَوجُوداً لإِنْتَصر لمَن آمَن مِن المُستَضعَفِين، وَأَهلَك الجبَابرَة وَالجَاحِدِين وَزَلزَل الأَرْض بالإِستعمَار وَالصّهيُونيَّة وَإِسرَائِيل... وَأَسخَف مِن هَذَا مَا حَدّثني بِهِ أَحد الشَّباب: أَنَّ زَمِيلاً لهُ فِي الدّرَاسَة قَالَ لرفَاقه: إِنْ كَان الله مَوجُوداً فَليَقطع يَدَه أَو يَردّها إِلىٰ الوَرَاء!.

الجوَاب:

أَنَّ الله سُبْحَانَه كَرّم الإِنْسَان بنِعمَة العَقْل وَالإِرَادَة وَالقُـدرَة، وبَـيَّن لَـهُ الخَـير وَالشَّر، وَنهَاه عَن هَذَا، وَأَمرَه بذَاك، وفِي الوَقت نَفْسَه حَثّه عَلىٰ التَّفْكِير وَإِعمَال العَقْل، وَاعْتَبر إِهمَاله جَرِيمَة تَستَحق العقَاب. وَبالعَقل يُمَيّز الإِنْسَان بَيْنَ الهُدَىٰ وَالضّلال وبالإِرَادَة يَختَار لنَفسَه مَا يُحبّ.. وَبالقُدرَة يَفعَل وَيُنفذ.

وَبهَذِه العنَاصر الثّلاثَة قوَام الإِنسَان وَمَاهِيته، إِذْ لاَ إِنسَانيَة بَلاَ عَـقل وَقُـدرَة وَحُرّيَة... وَلَو أَنَّ الله سُبْحَانَه تَدخل بـالقَهر وَالغَـلبَة فِـي أَي شَأن مِـن شُـؤون الإِنسَان، أَو أَلجأه إِلىٰ الإِيمَان إِلجَاء، أَو أَهلَك أَعدَاءه بـالخوَارق وَالمُـعجزَات

كَقَطع يَد التّلميذ الأَرعَن أَو رَدّها إِلَى الخلف، لَو فَعَل الله شَيْئاً مِـن ذَلكَ لسَـلَب الإِنْسَان حقّه فِي أَنْ يوَافق أَو يَرفض، وأَنْ يُؤمن أَو يَكفُر، وَأَنْ يَفعَل أَو يَـترُك، وَمَعنىٰ هَذَا أَنَّه لاَ وَزن لعَقل الإِنْسَان، وَلاَ لإِرَادَته مِن مَوضُوع، وَلاَ لقُدرَته مِـن أَثَر.. وَمِن أَجل هَذَا تَرَك سُبْحَانَه النَّوامِيس الكَونيَّة والاِجْتمَاعيَّة تعمَل عَمَلهَا فِي المُؤمِن وَالكَافر: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾[1].

وَمِن طَرِيف مَا قَرَأتُ فِي هَذَا البَاب: أَنَّ الرِّيح إِذَا كَانَت تَهب جنُوبَاً، وَأَبحَر المُؤمن بالله بإِتّجَاه الشّمال فَإِنَّ الله سُبْحَانَه لاَ يَأمر الرِّيح بالهبُوب شَمَالاً إِكرَامَاً لمَن آمَن بِهِ وَأَخلَص لهُ.. وإِذَا أَبحَر المُؤمن بإِتّجَاه الرِّيح المُوَاتيَة لقَصدَه، وَشَكر الله عَلىٰ ذَلكَ فَإِنَّ شُكرَه هَذَا وقَاحَة وَأَنَانيَة، لأَنَّه يَـعْني أَنَّ الله لاَ يُـحبّ الَّـذِين أَبحرُوا بالإِتّجَاه المُعَاكس لإِتّجَاهه.

وَأَوقَح مِن هَذَا وَأَقبَح أَنَّ اليَهُود مَا آمنُوا بالله قَدِيمَاً وحَدِيثَاً إِلاَّ بزَعم أَنَّه لهُم وَحدَهُم، وَمَع مَصَالحهم الشَّخصيَّة يَدُور مَعَهَا حَيثَمَا تَدُور، فَإِذَا تَـركهَا غَـضبُوا عَلَيهِ، وَمَا آمنُوا بمُوسىٰ ﷺ إِلَّا بَعد أَنْ آشترَطُوا أَنْ يَكُون إِلـه قـوّة عَـاملَة فِـي حَيَاتهم اليَوميَّة. وَفِي التَّورَاة سِفر التَّثنيَة: «أَنَّ اليَهُود هُم شَعب الله المُختَار وَأَنَّهم فَوق الشّعُوب»[2]... وَفِي سِفر العَدَد، والإِصْحَاح مِن سِفر التَّثنيَة: «أَنَّ الله أَبَـاح لليَهُود دمَاء سَائِر الشّعُوب وَأَموَالهم»[3].

---

(١) مُحَمَّد: ٤.

(٢) أنظر. التَّورَاة سِفر التَّثنيَة الفِقرَة (٧) مِن الإِصْحَاح (٧) وَالفِقرَة (٢) مِن الإِصْحَاح (١٤). (مِنْهُ ﷺ).

(٣) أُنظر. التَّورَاة سِفر التَّثنيَة الإِصْحَاح (٣١) مِن سِفر العَدَد وَالإِصحَاح (١٣). (مِنْهُ ﷺ).

وَبعد نَكسَة حُزيرَان سَنَة (١٩٦٧ م) جَاءَني بَعْض الشَّباب يَسألُون : كَيْف يُسَلط الله الصَّهيونيَّة عَلىٰ العَرب والمُسْلِمِين ؟ .

فَضَربتُ لهُم مَثلاً برَجُلَين : أَحدهُما يَكفُر بالله وَلاَ يُطِيعَه فِي شَيء ، ولَكنَّه يُحسن فَنّ السّبَاحة ، وَآخر يُؤمن بالله ، وَيَعبدَه بِإخلاَص ، ولَكنَّه يَجهَل طَريق العَوم وَالسّبَاحَة ... فَاقْتَحما البَحر مَعاً بقَصد المُبارَاة ، فَرَسب المُؤمِن وَهَلَك لأَنّه أَطَاع الله فِي كُلّ شَيء ، وَعصَاه فِي النّزُول إِلَىٰ البَحر قَبل أَنْ يُعَد لهُ العِدّة ، وَعَام الكَافر وَنَجا لأَنّه عَصىٰ الله فِي كُلّ شَيء وَأَطَاعه فِي النّزُول إِلَىٰ البَحر ، بَعد أَنْ أَعدّ لهُ عِدّته ... وهَكَذَا رَبحت إِسرَائيل ، وَخَسرنَا نَحْنُ (١٩٤٨ م ، وَ١٩٦٧ م) .

وَالخُلاَصَة : أَنَّ الله سُبْحَانَه أَبىٰ أَنْ يَقبَل الإِيمَان بهِ إِلَّا إِذَا تَجَسّد فِي العَمَل الحَي المُثمِر ... وأَيضاً أَبىٰ ، عَظُمَت حِكمَته ، أَنْ يَجري الأُمُور إِلاّ تَبعَاً للسُّنن وَالنّوامِيس الَّتي لاَ تُبَالي بمَصِير كَبِير أَو حَقِير ، وَلاَ تَدخُل فِي حسَابهَا مُؤمن أَو كَافراً .

حَوْل الدِّين وَالعِلْم

الأُستاذان: صَعْب وَالتُّرك:

قَرَأتُ فِي مُلحَق جَرِيدَة النَّهَار: (٣/٣/١٩٧٤م) مَقَالاً بعُنْوَان «المُلحُدُون عَن طَرِيق العِلْم لَم يَفهمُوا العِلْم» للأُستَاذ أَدِيب صَعْب، ثُمَّ قَرَأتُ الرَّد عَلَيهِ بعُنْوَان «حَرْب المَوَاقع بَيْنَ العِلْم والإِيمَان» للأُستَاذ زيَاد التُّرك فِي المُلحَق: (٢٤/٤/١٩٧٤م)... وَلِهَذَا البَحْث أَهمّيّته الكُبرىٰ مِن حَيث الفِكْر والعَمَل، وَأَتمَنىٰ لَو يَكُون مقَال صَعْب وَكَلمَة التُّرك بدَايَة حَسنَة لحوَار طَوِيل وَمُفِيد بأَقلاَم أَخصَائيِّين يَتَمتعُون برُؤيَة مُجَردَة إلاّ مِن وَسَائِل العِلْم وَمَنَاهجَه... وَعَسىٰ أَنْ تَكُون أُمنيَتي هَذِهِ حَافزاً للأَقلاَم الرَّاشدَة النَّاقدَة.

تَحدِيد المَعنىٰ وَالخطأ المُحتَمل:

وَقَبل كُلّ شَي أُمَهد بمَا يَلي:

أَوَّلاً: تَحدِيد المُرَاد بكَلمَة العِلْم والدِّين كَيلاَ نَقع فِي سُوء الفَهم الَّذِي يَجرنَا إِلَىٰ خلاَفَات جَانبيَة، وَيَقف حَائِلاً دُون الإِتّفَاق عَلىٰ رَأي. وَالعِلْم بمَعنَاه العَام مَعْرفَة الشَّيء بمَا هُو عَلَيهِ عَن أَي طَرِيق كَان، وَنُرِيد بِهِ هُنا مَعنَاه الشَّائِع النَّابع مِن الحِسّ والتَّجربَة. وَللدِّين مَعَان شَتّىٰ، وَنُرِيد بِهِ الإِيمَان بالله: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى

هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[١]، وَلاَ يُريد بعبَادهِ إلَّا الخَيْر وَاليُسر، وَهَذَا الإِيمَان هُو أَصل الأُصُول، وَلاَ يُمكن الحَدِيث عَن النُّبوَّة وَالوَحي، وَحلاَل الله وَحرَامه إلاَّ بَعد الدَّلِيل القَاطع عَلىٰ وجُود الله وَصِدق الإِيمَان بهِ.

ثَانياً: يَنْبَغي للعَالِم أَنْ يَتَذكر عَلىٰ الدَّوَام أَنَّ مَا غَاب عَن عِلمَه أَكثَر بكَثِير مِمَّا أَحَاط بِهِ عِلمَاً... حَتَّىٰ هَذَا قَد يَكُون خَطَأً وَجَهلاً مُركّباً، وأَنْ يَتَقبّل النَّقْد الوَاعي بفَهم وتوَاضع... وَفِي نَهْج البَلاَغَة أَنَّ مُنَافقاً أَثنَىٰ عَلىٰ الإِمَام عَليّ عليه السلام فَقَالَ لَهُ: «أَنَا دُونَ مَا تَقُولُ، وَفَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ»[٢]. وَأَثنَىٰ عَلَيهِ مُؤمِن فَقَال لهُ: «فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِىءَ، وَلاَ آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي، إِلَّا أَنْ يَكْفِيَ اللهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي، فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لَا رَبَّ غَيْرُهُ»[٣]. أَبداً لاَ تَرىٰ عَالمَاً بحَقّ، وَلَن تَرَاه إِلَّا مُتّهِماً لنَفْسه خَائفاً مِن الوقُوع فِي الخَطَأ.

إِحدَىٰ الدَّعوَتين ضَلاَلَة:

رَكّز الأُستَاذ صَعْب مقَالَه عَلىٰ أَنَّ مُعطيَات العِلْم الحَدِيث بشَتّىٰ أَنـوَاعـهَا لاَ تَتنَافىٰ مَع الإِيمَان، لاَ مِن حَيْث هِي وَلاَ مِن حَيْث مَـصدَرهَا... وَإبـتَدأ كَـلاَمَه بتَقسِيم هَذِهِ المُعطيَات إِلَىٰ أَقسَام ثَلاَثَة، وَقَارن بَيْنَ كُلّ قِسم مِنْهَا وبَـيْنَ الدِّيـن وَانْتَهىٰ إِلَىٰ أَنّه لاَ تَنَاقض بَيْنَهُما، وأَنَّ مَن قَالَ بوجُود التَّناقض بَيْنَ العِلْم والإِيمَان

---

(١) ٱلإِسْرَاء: ٩.

(٢) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٨١).

(٣) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغة: ٱلْخُطْبَة (٢١٦).

بالله فهُو جَاهل أو شِرّير.

وَقَالَ الأُستَاذ التُّرك : أَنَّ الصّرَاع بَيْنَ العِلْم والدِّين قَائِم وَدائِم وَلاَ يَتّفق الدِّين وَيتعَايش إلَّا مَع الفَلْسَفَة المثَاليّة القَائِلَة بأَنَّ الفِكْرة لاَ تَسبق الوَاقع ، وَهُو انعكَاس عَنْهَا عَلىٰ الضِّد مِن الفَلْسَفَة المَادّية القَائِلَة أَنَّ الوَاقع يَسبق الفِكْرَة ، وهِي انعكَاس عَنْهُ.

وَبَعد هَذِهِ الإِشَارَة الخَاطفَة إِلَىٰ قَوْل صَعْب وَالتُّرك ـ أَعرض الحَقِيقَة كَمَا هِي فِي فَهمي وَمَعرفَتي ... ولَيْسَ مِن غَرضي أَنْ أُؤيّد أَو أُفَنّدْ هَـذَا أَو ذَاك ، وَلَكـن الحَقِيقَة تُعَرّف وَجْه صَاحبهَا ، وَتَشهَد لهُ.

الحَقَائِق أخوات:

يَصْعَب عَلىٰ الفَهم أَنْ يُحَدّد المَعنىٰ لكَلمَة الحَقِيقَة مُطلَقة مِن غَير قَيد ـ تَحدِيداً جَامعاً مَانعاً ، لأَنَّها تَعم وَتَشمل حقَائِق عَدِيدَة وَمُتَنوعَة فِي كَـونهَا وَمَـاهِيتهَا ... وَيُهوّن ذَلكَ إذَا أَردنَا تَحدِيد أَيّة حَقِيقَة بطَابعهَا وَنَوعهَا الخَاصّ مُستَقلَة عَن غَيرهَا مِن الحَقَائِق كالحَقِيقَة اللُّغويّة أو الإِقتصَاديّة وَمَا إِلَيهَا . والَّذِي يَهمنَا فِي هَذَا البَحْث هُو تَحدِيد الحَقِيقَة الدِّينيَّة وَالعِلميَّة : هَل بَيْنَهُما صرَاع وَاصطدَام تَمَاماً كَالإِيمَان والإِلحَاد ؟.

وفِي رَأينَا أَنَّ الإِصطدَام لاَ يَحْدَث ، وَلاَ يُمكن أَنْ يَـحدَث بَـيْنَ أَيّـة حَـقِيقَة وَأُخرىٰ مِن أَي نَوع تَكُون مَا دَامَت كُلّ وَاحدَة مِنْهُمَا تَدُور فِي فَلكهَا المُحَدّد وَلاَ تَتعدَاه وَتُقَاس بمقيَاسهَا وَلاَ تَتجَاوزه ، وَكَيف يَحْدث الإِصطدَام بَـيْنَ الحَـقَائِق ، والإِنْسَان بحَاجَة إِلَيهَا جَمِيعاً ؟ ... أَجل إذَا حُرّفت الحَقِيقَة عَن موَاضعهَا ، وَتَكَلَّم

بأسمها جَاهل مُتطفل، أو خَائِن مُنافق ـ يحدث عِندئذ الصّرَاع وَالنّزَاع، ولَكن بَيْنَ هَذَا الدَّخِيل وَالطَّرف الأَصِيل.

وَيَجدر التَّوكِيد عَلىٰ أَنَّ عَدَم الصّرَاع بَيْنَ الحَقَائق، لاَ يَعني أَنَّ بَعْضَهَا يَدل عَلىٰ صحَة بَعْض... كَلَّا، فَأيَّة علاَقَة بَيْنَ تَفتِيت الذَّرّة ـ مَثلاً ـ وبَيْنَ الحَقِيقَة السِّيَاسيَّة، أَو بَيْنَ زيَادَة الإِنتَاج والإِلحَاد؟. وإنَّمَا يَعْني أَنَّ طَبيعَة أَيّة حَقِيقَة لاَ تُعَاند طَبيعَة غَيرهَا مِن الحَقَائِق، سوَاء التَقَت الحَقِيقتَان فِي النّهايَة عَلىٰ صَعِيد وَاحد كَالعِلم وَالدِّين يَلتَقيَان فِي خِدمَة الإِنْسَان وَتَحقِّيق رَغبَاته وَأَمَانِيه، أَم لَم يَلتَقيَا أَصلاً.

الفَرق بَيْنَ الحَقِيقتَين:

تَفْترق الحَقِيقة الدِّينيَّة ـ أي الإِيمَان بالله ـ عَن الحَقِيقَة العِلميَّة بأَنَّ مَوضُوع الأُولىٰ ورَاء الطَّبِيعَة، ومَوضُوع الثَّانيَة الطَّبِيعَة... أَجل، الأَحكَام الإِلهيَّة مَوضُوعهَا عَقِيدَة الإِنْسَان وَأَقوَاله وَأَفعَاله، ولَكن مَوضُوع أَحكَامه تَعَالىٰ شَيء، والإِيمَان بهِ شَيء آخر.

هَذَا مِن نَاحيَة المَوضُوع، أَمَّا مِن نَاحيَة الطَّرِيق وَالمَنهَج فَالحِسّ للحَقِيقَة الرِّيَاضيَّة، وَهُما مَعاً للإِيمَان بالله... تَنْظُر العَين إِلَىٰ الكَون وَنظَامه العَجِيب فَيَحكُم العَقْل ـ مُستَنداً إِلَىٰ مَبدأ العلّيَة ـ بوجُود المُكوّن العَظِيم، وَالمُنظّم الحَكِيم.

تَعَاون العِلم وَالدِّين:

وَإِذَا اختَلف الدِّين وَالعِلْم مَوضُوعَاً ومِنْهَاجاً فَإِنّهُما يَلتَقيَان عَلىٰ صَعِيد وَاحد، وَهُو خِدمَة الإِنْسَان وَمَصلَحته ـ كَمَا سَبقت الإِشَارَة ـ وَمِن هُنا حَثّ الأَنبيَاء

والكُتب السَّماويَة عَلىٰ طَلَب العِلْم، وَجَعلَه الإِسْلاَم فَريضَة، وَرَفع أَهلَه دَرجَات، وَأَثنَىٰ عَلىٰ الرَّاسخِين فِيهِ... وَالعَدوّ لاَ يَرفع مِن شَأن عَدوّه... أَمّا المُصَادمَات الّتي ظَهَرت فِي التَّأريخ بَيْنَ المُنتسبِين إِلَىٰ أَهل الدِّين والعِلْم فهُو مِن الدُّخلاَء وَاللُّصقَاء.

وَبَعد، فَإِنَّ الدِّين يَهدي لحيَاة أَفْضَل، وَيُبَارك كُلّ مَا يَعُود بالنَّفع عَلىٰ الفَرد وَالمُجْتَمع، والعِلْم يُسهم عِمليّاً فِي هَذَا المَيدَان إِلَىٰ أَبعَد الحُدُود، وَإِذَن مِن أَينَ يَأتي الصّرَاع وَالنّزَاع!. وعَلىٰ الأَقل يَقف كُلّ مِنْهُمَا مِن الآخر مَوقف الحيَاد، لاَ صِرَاع وَلاَ اصْطدَام.

اتّخذ إِلَـهَهُ هَوَاهُ:

جَاءَ فِي آخر مَقَال الأُستَاذ صَعْب: «الشّرّير هُو مَن قَالَ فِي ذَاته: أَنَا هُو الإِله». وَخَتَم الأُستَاذ التُّرك كَلمَته بقَولَه: الفَلْسفَة المثَاليَة تَجعَل الإِنْسَان يَقُول: أَنَا هُو الله.

وفِي ظَنّي أَنَّ هَذِهِ الكَلمَة أَليَق بالفَلسَفَة المَادّية وَأَلصَق، لأَنَّها تُعْتَبر المَادّة هِي المَوجُود الوَحِيد، وَلاَ شَيء قَبلهَا وَلاَ بَعدهَا وَهَذَا الوَصف مِن أَخصّ خَصَائِص الإِله... وفِي كتَاب تَفكِير كَارل مَاركس نَقد الدِّين والفَلْسَفَة، تَرجمَة سَامي الدّرُوبي وَجمَال الأَتَاسي: أَنَّ فوربَاخ قَالَ: الإِنْسَان هُو إِله الإِنْسَان... وَكَان فوربَاخ مِن أَقطَاب المَادّيين، كَمَا فِي كتَاب تَفسِير الإِشْترَاكيَّة للتَّأرِيخ تَأليف إِنْجلز، تَرجمَة الدّكتُور رَاشد برَاوي.

وقَالَ سُبْحَانَه فِي قُرآنَه الكَرِيم: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ

عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾[١].

وَتُوميء هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة إِلَىٰ أَنْ نَزعَة الإِيمَان الَّذِي يَدفَع عَلىٰ العَمَل والثَّبَات وَالإِصرَار هِي أَصيلَة فِي فِطرَة الإِنْسَان[٢]، وَأَنَّه إِذَا تَخلّىٰ عَن الإِيمَان بِالحَقّ آمَن وَتَعبّد بهوَاه... وَقَد يَتَمثّل هَذَا الهَوىٰ بالجَاه وَالمَال، أَو بِالتّعصب للأَهل وَالعَشِيرَة، أَو لأَي صَنَم مِن الأَصنَام.

وَبالتَالي فَنَحنُ نُؤمن بالله عَن طَرِيق الحِسّ والعَقْل، وأَيضاً بأَنّه تَعَالىٰ مَا شَرّع حُكماً مُنَافياً للعِلم، وَلاَ للطَّبيعَة وَنوَامِيسهَا، وَلاَ لمَصلَحَة أَي إِنْسَان، وَإِنْ نُسبَ شَيء إِلَىٰ دِين الله يَتَنَافىٰ مَع هَذِهِ الحَقِيقَة فهُو مِن جَهل الجَاهِلِين، أَو دَسَائِس المُفتَرِين.

---

(١) اَلْفُرْقَان: ٤٣.

(٢) إقتبَاس مِن الحَدِيث المَروي: (كلّ مَوْلُود يُوْلَد عَلَىٰ الفِطْرَة...). أُنظر، صَحِيح مُسْلِم: ٤/ ٢٠٤٧ ح ٢٦٥٧، صَحِيح اَبن حبّان: ٧/ ٣٣٦ ح ١٢٨، سُنن التِّرمِذي: ٤/ ٤٤٧ ح ٢١٣٨، سُنن أَبي دَاود: ٤/ ٢٣٠ ح ٤٧١٦، المُصَنَّف لعَبدالرّزاق: ٣/ ٥٣٣ ح ٦٦١١، المُعْجَم الأَوسَط: ٤/ ٢٢٧ ح ٤٠٥٠.

اللَّادِينيَّة وَالعِلمَانِيَّة

هَذَا الفَصْل مِن توَابع الفَصل السَّابق وَذيُولَه، أَو جُزء مِنْهُ وَمُكَمّل لَهُ، وَأَفرَدتَه بِالبَحث لأَهمِيَته، وَلأَنَّ الفَصل السَّابق كَان مِن وَحي مقَال صَعْب وَرَد التَّرك عَلَيه.

تَشكِيل العُقُول:

للإعلاَم فِي العَصْر الحَاضر عِلْم مُستَقل، لهُ أُصُولَه وَقوَاعدَه وَعُلمَاء بَارزُون وَأَساتذَة فِي عِلْم النَّفس وَالإجتمَاع، أَمّا أَجهزَته وَوسَائِله فَقَد بَلغت الغَايَة وَالنّهايَة مِن الدّقَة وَالتَّطور حَتّىٰ أَصبَح القَائِمُون عَلَيهَا يُشكلُون عقُول السُّذَّج، وَيَتَّجهُون بهَا عَن طَرِيق التَّضلِيل وَالتَّموِية إِلىٰ حَيْث يَشَاؤُون.

فَبِٱسم السِّلم يَسيرُون بالعَالَم إِلىٰ حَافَة الهَاوِيَة، وَبِٱسم الدّفَاع عَن الحُرّيّة يَقتلُون الأَحرَار، وَيَنعتُون قِوىٰ الشَّر وَالبَغي «بالعِلم الحُرّ» وَبِٱسم التَّجَدد وَالتَّطور يُحَاربُون الدِّين وَالقِيم الإِنسَانِيَّة، وَمِن ذَلِك ـ عَلىٰ سَبِيل المِثَال ـ تَسميَة اللَّادِينيَّة بالعِلمَانيَّة، وَيَعنُون بهَا أَنَّ الدِّين وَالعِلم ضدّأَنْ لاَ يَجْتمعَان، لأَنَّ الدِّين غَيْبٌ كُلّه[1] وَفَوق الحِسّ وَالعَقل، كَمَا يَزعمُون، وَالعِلم يَدْرُس الشَّيء

---

(١) يَنْطَبق هَذَا عَلىٰ المَسِيحيَّة دُون الإِسلاَم... وَلَكن بَعْض المُعَمِمين يَصر فِيمَا يَخطب وَيَكتُب بأَنَّ

المَحسُوس الَّذي يَخضَع للمُلاَحظَة وَالتَّجربَة .

وَحزدّد المُلحدُون أَهَم القَضَايَا العِلميَّة الَّتي تُنَافر الدِّين وَتُعَانده ، وَهِي بزَعمهِم ثَلاَث :

الأُولىٰ : اكتَشفهَا عِلْم الطَّبِيعَة .

وَالثَّانيَة : عِلْم الأَحيَاء .

وَالثَّالثَة : عِلْم النَّفس ، وَالتَّفصِيل فِيمَا يَلي :

مِنْ عِلم الطَّبيعَة :

قَالُوا : كَان البدَائيُون يُعلّلُون مَا يَحْدَث بالكَون بقوّة تَكمُن وَرَاءَه وَخَارجَة عَنْهُ ، وَمَع الأَيَّام اكتَشَف عُلمَاء الطَّبِيعَة أَنَّ فِي الكَون نَفْسه قَوَانِين ثَابتَة وَصَارمَة لاَ تَتغيّر وَلاَ تتبَدّل ، وَبهَا وَحدهَا تَرتَبط حَركَات الأَفلاَك وَكُلّ ظَاهرَة طَبيعيَّة مِن أَكبَر كَبِيرَة إِلىٰ أَصغَر صَغِيرَة ، وَمِن هَذِه القَوَانِين الجَاذبيَّة ، وَحَركَة الذَّرّة وَأَغلفَتهَا الأَلكترُونيَّة وَغَير ذَلكَ ... وَإِذَن فَلاَ شَيء وَرَاء الطَّبيعَة يَدعُو إِلىٰ الإِيمَان بهِ .

الجَوَاب :

أَبداً لاَ عِلْم وَلاَ فَلسَفَة بلاَ عَقْل مَادّيَة كَانَت أَو مثَاليَة ، وَالفَرق أَنَّ وجُود الحَقَائِق سَابق عَلىٰ وجُود العَقْل فِي الفَلسَفَة المَادّيَة عَلىٰ العَكْس مِن الفَلسَفَة المثَاليَة الَّتي تَعتَبر وجُود العَقْل هُو السَّابق . وَأَيضاً تَعْتَمد المثَاليَة عَلىٰ التَّأمل

⇔ الإِسلاَم كُلّه غَيب فِي غَيب حَتّىٰ الاِجْتهَاد، وَهُو فِي ذَلِكَ مَع أَعدَاء الدِّين مِن حَيْث يُرِيد أَو لاَ يُرِيد، وَفي كتَابي الإِسلاَم بنَظرَة عَصريَّة فَصْل الدّفَاع عَن الدِّين أَثبَتُ أَنَّ قَضَايَا الإِسلاَم عَلىٰ أَنوَاع، وَلَيْست بكَاملهَا غَيباً. (مِنْهُ ﷺ).

التَّجرِيدي، وَالمَادّيّة عَلىٰ التَّأمل النَّاشيء مِن المُمَارسَة وَالتَّجربَة الحَيّة... وَالمُهم أَنّه لاَ غِنىٰ عَن العَقْل إطلاَقاً لأَيّة فَلسَفَة كَانَت وَتَكُون.

وَإعتمَاداً عَلىٰ العَقْل وَمَنْطقه نَسأَل: إذَا فَسّرنَا حَركَات الكَون وَحوَادثه وَضُرُوب نَشَاطَاته، إذَا فَسّرنَا كُلّ ذَلِك بالقوَانِين المَوجُودَة فِي الكَون نَفْسَه ـ فَبأَي شَيء نُفسّر هَذِه القوَانِين المَوجُودَة فِي نَفْس الكَون؟ وَمَن الَّذي أَودَعهَا فِيهِ لتَحفظ عَلَيه نظَامه وَوحدَته، وَتَكُون سَبباً مُبَاشراً لأَشيَائه وَاحدَاثه؟.

وَهَل يَسوغ فِي مَنْطق العَقْل أَنْ نَترك كُلّ ذَلِك للفُوضىٰ وَالصّدفَة؟ وَعَلىٰ حَدّ مَا قَال شَوقي أَمِير الشُّعَرَاء: «الطَّبيعَة مِن طَبعهَا؟». وَهَل مِن جوَاب عِندَ العَقْل السَّلِيم إلَّا القَول: أَنَّ وَرَاء هَذِه القوَانِين الدَّقِيقَة الصَّارمَة علّة أَوَّليَّة ذَات قَصد، وَغَايَة، وَعِلم، وَقُدرَة يَنْتَهي إلَيها كُل شَيء، وَلاَ تَنْتَهي هِي إلىٰ شَيء. بَل لاَ يُعْقل بحَال أَنْ يَكُون غَيرهَا علّة لهَا وَإلَّا لمَا وجدَ شَيء عَلىٰ الإطلاَق.

وَلمُجَرّد التَّوضِيح نَضْرب مَثلاً بالسَّاعَة وَصَانعهَا... أَنَّ نَظْم آلاَتهَا وَرَبط بَعْضهَا ببَعْض عَلىٰ شَكل هَنْدَسي مُعيَّن بحَيث تَعْمَل بمَجمُوعهَا تِلقَائيّاً لتَدل عَلىٰ الدَّقِيقَة وَالسَّاعَة، بَل وَاليَوم وَالشَّهر تَمَاماً كمَا أَرَاد الصَّانع المُنظّم... وَهكَذَا الكَون: كوَاكبَه وَأَشيَاؤه كآلاَت السَّاعة، وَتَرتِيب كُلّ شَيء وَكَوكَب فِي فَلَكه وَمَكَانه كتَنظِيم آلاَت السَّاعَة، وَكُلّ مِن ظوَاهر الكَون وَحَرَكَة السَّاعَة تَستَند إلىٰ السَّبَب المُبَاشر المُلاَصق، وَيَنْتَهي هَذَا السَّبَب إلىٰ الصَّانع وَالمُنظّم.

مِن عِلم الأَحيَاء:

وَأَيضَاً قَالُوا: ثَبَت فِي عِلْم الأَحيَاء أَنَّ أَصل الإنْسَان قِرد، وَالدِّين يُنكر هَذَا

وَيَقُول: وجدَ الإِنْسَان أَوّل مَا وجدَ عَلىٰ مَا هُو عَلَيه الآن.

وَنُجيب بإِيجَاز شَدِيد: مَا مِن أَحدْ شَهد خَلْق الإِنْسَان الأَوّل، وَرَآه كَيف وُلد وَتَكوّن... وَهَل مِن المُستطَاع أَن يَثْبت ذَلِكَ بالمُمَارسَة الحِسّيَّة، أَو البَرَاهِين الرِّيَاضيَّة؟ أَمّا مُجَرد التَّشَابه بَيْن كَائنَين فِي شَيء أَو أَشيَاء ـ فَلاَ يَستَدعي أَنْ يَكُون أَحدهُما أَصلاً للآخر... وَقَال كَثِير مِن العُلمَاء الجُدَد: أَنَّ أَصل الإِنْسَان غَامض وَمَجهُول، وَأَنَّ القَول بتَطوره مِن الأَحيَاء السُّفلىٰ مُجَرد حَدَس وَتَخمِين».

وَآخر مَا قَرَأت حَول هَذِه النَّظريَّة مَا نَشَرتهُ مَجلّة «الإِيكونوميست» البريطَانيَة: «أَنَّ المَجْلس التَّعلِيمي الحكُومي بولاَيَة كَاليفُورنيا الأَمريكيَّة قَرّر أَنْ تَشِير جَمِيع الكُتب المَدرسيّة للعُلُوم إِلىٰ أَنَّ نَظريَة دَارون هِي افترَاضيَة، وَلَيْسَت حَقِيقيَّة»[1]. وَتَكلمتُ عَن هَذَا المَوضُوع مُفصّلاً فِي كتَاب الإِسلاَم بنَظرَة عَصريَة فَصْل الإِنْسَان وَالقِرد.

مِنْ عِلْم النَّفس:

وَقَالُوا الَّذِين لاَ يَتّفق مَع التَّحلِيل النَّفسي فِي نَظريَة فرُويد الَّذي أَدّىٰ دَورَاً إِيجَابيَاً فِي تَطور عِلْم النَّفس... وَتَتلخَص هَذِه النَّظريَة بأَنَّ نَفْس الإِنْسَان فِي طَبِيعتهَا وَمَلاَمحهَا ـ لاَ تُحَدّد بعَقْل أَو دِين، وَإِنَّما تُحَدّد بغَرَائِزه وَمِيُولَه اللَّاشعُوريَّة، وَبخَاصّة الجِنْس الَّذي يَكَاد يَبْتَلع كُل شَيء، وَلاَ سَبِيل عَلىٰ

---

(١) أُنظر. مَجلّة «الإِيكونوميست» البريطَانيَة فِي عَدَد (١٠ / آذَار / سَنَة ١٩٧٣م) وَنَقلَته عَنْهَا جَرِيدَة الأَخبَار المَصْريَة تَأرِيخ (٢٣ آذار) مِن السَّنَة نَفْسهَا. (مِنْهُ ﷺ).

الْإِطلاَق لْإِصلاَح وَتَغيِّير هَذِه النَّفسيَّة أَو الشَّخصيَّة، لأَنّ اللَّاوَعي وَاللَّاشعُور طَبيعَة ثَابتَة لهَا، وَلَيْس وَصفاً عَارضاً عَلَيهَا... وَمِن هُنا لَمْ يُفَرِّق فرُويد بَيْن مَا يَفعَله الْإِنْسَان فِي نَومَه وَيَقظَته... أَبداً كلاَهُما بمَنزلَة سوَاء.

أَجل مَا زَال الحَدِيث عَن نَظريَة فرُويد - قَد تَصْطَدم رَغبَات الفَرد وَغرَائِزَه اللَّاوَاعيَة، وَبالأَخصّ الجِنْس، بَل كَثِيراً مَا تَصْطَدم مَع البِيئَة وَإِلزَامَاتها، فَيَضْطَر الْإِنْسَان مُرغماً - فِي مِثْل هَذِه الحَال - إِلىٰ كَبْت غَرَائِزه، وَتَصلح نَفْسَه مُستَودعاً للمَكبُوتَات وَالمَحرُومَات إِلىٰ أَنْ تَجد مَخرجاً وَمُنطَلَقاً... وَبكلمَة إِنَّ أَفعَال الْإِنْسَان عِند فرُويد تَخْضَع لمَبدَأ الضَّرورَة وَالحَتميَّة وَلاَ أَثَر فِيهَا للعَقْل وَالحرِّيَّة تَمَاماً كظوَاهر الطَّبيعَة الخَاضعَة لقوَانِين الكَون الثَّابتَة الصَّارمَة، وَإِذَن لاَ مَكَان إِطلاَقاً للدِّين وَالقِيم فِي السّلُوك البَشري. هَذَا تَلخِيص شَدِيد لنَظريَة فرُويد.

الجَوَاب:

١ - أَنَّ غَرَائِز الْإِنْسَان وَمَلكتَه لاَ تَنْحَصر باللَّاشعُور، بَل فِيهِ قِوىٰ أُخرىٰ تَرَىٰ وَتُميّز، وَتَختَار وَتُدَبر وَإِلاَّ كَان الْإِنْسَان كَريشَة فِي مَهب الرِّيح غَير مَسؤول عَن شَيء، وَلاَ يَستَقِيم حسَابَه عَن فِعْل أَو تَرك.

٢ - أَنَّ فرُويد يَتجَاهل أَبسَط الحَقَائِق وَأَوضحهَا حِين يقُول: «لاَ سَبِيل إِلىٰ تَغيِّير البُنيَة النَّفسيَة، لأَنّها ذَات طَبيعَة ثَابتَة»! وَإِذَن لمَاذَا المُربي وَالتَّربيَة؟... أَنَّ كُلّ شَيء فِينَا وَحولنَا يَتغيَّر، وَالجمُود وَالثَّبَات مِن طَبيعَة الأَموَات... وَهُنَا نَحنُ بَني آدَم نُرمم أَنْفسنَا وَحيَاتنَا وَنَتحكَم فِيهَا وَفِي الطَّبيعَة، وَنَعمَل جَاهدِين لنَصل إِلىٰ أَبعَد مَدىٰ مِن الرُّقي وَالتَّقدم فِي كُلّ مَيدَان.

تَغيِّير البُنيَة النَّفسيَّة، لأَنّهَا ذَات طَبيعَة ثَابتَة»! وَإِذَن لمَاذَا المُربي وَالتَّربيَة؟...

أَنَّ كُلّ شَيء فِينَا وَحولنَا يَتغَيّر، وَالجمُود وَالثّبَات مِن طَبيعَة الأَموَات... وَهنا نَحْنُ بَني آدَم نُرَمّم أَنْفسنَا وَحيَاتنَا وَنتحكَم فِيهَا وفِي الطّبِيعَة، وَنعمَل جَاهدِين لنَصل إِلَىٰ أَبعَد مَدىٰ مِن الرُّقي وَالتَّقَدُم فِي كُلّ مَيدَان.

٣ ـ قَرَأتُ مَقَالاً مُطولاً وَمُتخماً بالعِلم للدُّكتُور فُؤاد زَكريّا، جَاء فِيهِ: «أوجَد العِلْم الحَدِيث اْنفصَالاً قَاطعاً بَيْنَ عَالَم الطّبِيعَة وَعَالم الإِنْسَان، وَقَضىٰ عَلَىٰ التّدَاخل بَيْنَ المَجَالَين..؛ لأَنَّ التّعَارض أَصْبَحَ وَاضحاً وَقَاطعاً بَيْنَ الشُّعُور الإِنْسَاني بالحُرّيّة، وبَيْنَ الضَّرُورَة الكَونيَّة»[1].

٤ ـ أَلّف «جَاسترُو» البُولندي كتَاباً فِي جُزأَين رَدّ فِيهِ عَلَىٰ فرُويد، وَأسمىٰ الكِتَاب الأَحْلاَم وَالجنْس، وَتَرجمَه فَوزي الشّتوي، ومِمَّا جَاء فِيهِ: «أَنَّ العُلمَاء دَرسُوا بضعَة آلآف مِن الأَحْلاَم لبِضع مِئَات مِن النّاس، فَوجدُوا لاَ أَقل مِن (٥٠) بالمِئَة مِنْهَا لاَ يُمْكن تَفْسِيرهَا بنَظريّة فرُويد، وأَنَّ هَذِهِ النَّظريّة تَترك كَثِيراً مِن الأَسئلَة بلاَ أَجوبَة.

وَبَعد فَإِنَّ الدَّعوَة إِلَىٰ الله سُبْحَانَه والإِيمَان بِهِ يَعْتَمد عَلَىٰ الحُجّة القَاطعَة المَائلَة فِي الكَون وَعجَائِبَه، وَلاَ شَيء فِي حقَائِق العِلْم، أَي عِلم، يُنَافر هَذِهِ الحُجّة الإلٰهيّة وَيُعَاندهَا، بَل قَالَ كَثِير مِن أَهْل الإِخْتِصَاص: كُلّمَا تَقدّم العِلْم تَزدَاد الدَّعوَة إِلَىٰ الله قوّة وَوضُوحاً حَتّىٰ أَصْبَحَ العِلْم الحَدِيث مَصدَراً جَدِيداً مِن مَصَادر الإِيمَان بِهِ وَوجُوبَه... وَمَن زَعَم أَنَّ العِلْم يُنَاقض الدِّين وَيُنَابذَه فَهُو غَافل أَو مُضَلّل يُلبِس الحَقّ بالبَاطل عَن عِلْم وَقَصد.

---

(١) أُنظر، مَجلّة عَالَم الفِكر الكُويتِيّة، الدُّكتُور فُؤاد زَكريّا: م ١ / العَدَد ٤. (مِنْهُ ﷺ).

الشَّبَاب وَالدُّعَاة إِلَىٰ دِين الله:

للشَّبَاب ثورَات وَٱنتفاضَات مُبَاركَة تَنبَع مِن ضَمِير حَيّ لاَ مِن إِنْفعَال عَـابر، ومِن الشُّعُور بالحَقّ والعَدْل لاَ مِن مَصَالح ضَيّقَة... وَمَا أَكثَر الشَّوَاهد عَلَىٰ هَذِهِ الحَقِيقَة، فمُنذ أَمَد قَرِيب إِنْفجَرت ثَوْرَة الشَّبَاب فِي أَمريكَا، وَٱرتَفعَت مُـوجتهَا إِلَىٰ أُوروبَا، وَهَدفها الأَوّل النّظَام القَـائِم عَـلَىٰ حُكـم المُـؤسّسَات العَسكـريَّة، وَأَربَاح الشَّركَات الإِحْتكَاريَّة... وَحَاوَلت أَجهزَة التَّضلِيل وَالدّعَايَة الزَّائـفَه أَنْ تُفسّر هَذِهِ النِّقمَة والثَّوْرَة بأَنَّها ضِدّ الأَشخَاص القَائِمين عَلَىٰ النّظَام، وَلَيْسَت ضِدّ النّظَام، كَيف وهُو يُوفّر للشَّبَاب المَطَالب المَاديَّة الَّتي تَحسدهُم عَلَيهَا الشُّـعُوب النَّامِيَة وَالإِشْترَاكيَة؟.

وَلَكن الثَّائِرين فَنّدُوا هَذَا الزَّعم، وَأَعـلنُوا عَـلَىٰ المَـلأ أَنَّـهُم لاَ يَسـتَهدفُون الأَشْخَاص، بل أُسلُوب ٱلْحَيَاة، وَتَحطِيم النّظَام الرَّاهن، وَالتَّحَالف الشّرير بَـيْنَ الدَّولَة وَالصّـناعَة العَسكـريَّة ليَـحل مكَـانَه العَـدْل والأَمـن لجَـمِيع الشُّـعُوب المُسَالمَة... وَكَتَب الدُّكتُور فُؤاد زَكريَّا كَلمَة حَول ثَوْرَة الشَّبَاب، جَاءَ فِيهَا:

«أَنَّ الشَّبَاب الأَمريكي فِي أَيَّامنَا هَذِهِ لاَ يَهْدف إِلَـىٰ أَقَـل مِـن إِنـقَاذ العَـالَم بأَكمَلِه»[١].

وَمَا مِن أَحد يَعْمَل لتَحقِّيق هَذَا الهَدَف إِلاَّ وَيَلتَقي مَع رِسَالَة مُحمَّد ﷺ كَائناً مَن كَان، قَالَ سُبْحَانَه مُـحدّداً هَـذِهِ الرّسَـالَة الكَـرِيمَة: ﴿وَمَآ أَرْسَـلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْـمَةً

(١) أُنظر، كَلمَة حَول ثَوْرَة الشَّبَاب. الدُّكتُور فُؤاد زَكريَّا، نَشَرتهَا مَجلّة الفِكْر المُعَاصر فِي عَدَد كَـانُون الأَوّل سَنَة (١٩٦٩م). (مِنهُ ﷺ).

لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[1].

وأيضاً يلتقي مع رسالة السَّيِّد المَسيح ﷺ الَّذي قَالَ: «لَم آت لأُدِين العَالَم بَل لأُخلّص العَالَم»[2]. وَحُمَاة الدِّين مِن مُسلمين وَمَسيحيِّين أَعلَم النَّاس بهَذِهِ الحَقِيقَة وَمَع هَذَا يَتجَاهلُون ثَوْرَة الشَّبَاب عَلَىٰ قِوىٰ البَغي وَالشَّر، ومِنْهُم مَن يُؤازر هَذِهِ القِوىٰ الطَّاغيَة البَاغيَة، وَيُدَافع عَن مفاهِيمهَا وَأَهدَافها، وَيَغدق عَلَىٰ الشَّبَاب الثَّائِر ضدّهَا أَقذَر الأَوصَاف وَأَقبحهَا... وَمِن هُنا اتّسعَت الهُوّة بَيْنَ الشَّبَاب وَشيُوخ الدِّين، وَرَجم كُلّ فَرِيق صَاحبهُ بالتُّهم وَالظّنُون.

وَلَو وَقفنَا نَحْنُ أَهْل الدِّين مَع الشَّبَاب فِي كُلّ عَمَل وَنضَال يَهْدف إِلَىٰ الخَير، وَبَاركنَاه بِاسم الدِّين وَشَرِيعَته، لَو فَعَلنَا ذَلِكَ لوثقُوا بِنَا وَاستجَابُوا لطَاعَة الله، وَأَقبلُوا عَلَيهَا مُهتَدِين... هَذِي هِي الوَسيلَة، أَو خَير الوَسَائِل فِي الوَقت الحَاضر لجَذْب الشَّبَاب إِلَىٰ الدِّين، وَأَكْثَر نَفعاً مِن أَلف كِتَاب وَخطَاب فِي الوَعظ والإِعلاَن عَن عَظمَة الدِّين وَمنَافعه، والتَّصَدي لأَعدَائه بشَرح البَيّنَات، وَدَفع الشُّبهَات.. وَلَكن ـ يَا لله وَلدِين الله ـ مِن فِئَة تَقف مِن الشَّبَاب مَوقِفاً يُنفّر وَلاَ يُبشّر، ويُبعّد وَلاَ يُقرّب... ثُمَّ تَدعُو بالوَيل والثّبُور، وَتُنَادي وَادِينَاه... كَفَر الجِيل الجَدِيد، وَتَحول إِلَىٰ الزَّندقَة وَالهَرتقَة، وهِي أَوَّل المَسؤولِين عَن هَذَا الخَطَر وَالخَطل.

وَرُبّما قَالَ قَائِل: كَيف يُسَاند حُمَاة الدِّين مَن لاَ يُؤمِن بالله واليَوْم الآخر ؟.

وَنُجيب:

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

(٢) أنظر، إنجيل يُوحنّا الإصحَاح ١٢ فقرَة ٤٨. (مِنْهُ ﷺ).

أَوَّلاً : أَنَّ الغَرض مِن هَذِهِ المُؤازرَة وَالمُسَاندَة أَنْ نَحتَوي الشَّبَاب ، وَنَـضمهُم إِلَىٰ رحَاب الدِّين قَبل أَنْ تتجَاذبهُم تيَّارَات الكُفر وَالْإِلحَاد .

ثَانِيَاً : أَنَّ مَفْهُوم الشَّر وَالرَّذيلَة لاَ يُنَاط الْإِلحَاد وَحدَه وَإِلاَّ كَان الكَذِب مِـمَّن آمَن بالله خَيراً وَفَضيلَة ، والصِّدق مِمَّن كفَر بِهِ شَراً وَرَذيلَة !... أَنَّ الأَعْمَال تُقَاس بمَا فِي طَبِيعتهَا مِن خَيرٍ أَو شرٍّ وَرَذيلَة . أَنَّ الأَعْمَال تُقَاس بمَا فِي طَبِيعَتها مِن خَيرٍ أَو شرٍّ وَمَا يَترتَب عَلَيهَا مِن فَسَاد أَو صَلاَح ، وعَلَينَا أَنْ نَعْتَرف بالخَير وَالصَّـلاَح وَنُبَاركَه ، وَنَشجب الشَّر والفَسَاد وَنُنكرَه أَيّاً كَـان فَـاعلَه ... وَلَـيس مِـن العَـدْل والإِنْصَاف أَنْ نُدِين الشَّبَاب وَغير الشَّبَاب إِذَا أَسَاؤا وَنَتجَاهلهُم إِذَا أَحسنُوا .

المَادّة وَالْحَيَاة

بَيْنَ الحَيّ وَالجَامِد:

فِي الطَّبِيعَة أَجْسَام مَاديّة بَحْت، أَي جَامدَة لاَ حَيَاة فِيْهَا، وهِي عَلَىٰ أَنوَاع كالصَّخر، وَالتُّرَاب، وَالمَعَادن... وأَيْضاً فِي الطَّبِيعَة أَجسَام حيَّة وَمتنُوعَة كَالنَّبَات وَالحَيوَان، والإِنْسَان، وَيَفْتَرق الجِسم الحَيّ عَن الجَامد مِن وجُوه عَدِيدَة نُشير إِلَىٰ طَرَف مِنْهَا فِيمَا يَلي:

١ ـ أَنَّ الجَامد لاَ يَتحرّك ـ كمَا يَبدُو للعَيَان ـ إِلّاَ بدَافع مِن الخَارِج حَتَّىٰ الطَّائِرَة بلاَ طيَّار تَسِير بمَوجّه مِن الأَرْض، أَمّا الجِسم الحَيّ نبَاتاً كَان أَم إِنْسَاناً فَإِنّه يَتحرّك بدَافع مِن دَاخلِه وَمُؤهلاَته، وَيَتّجه تلقَائِيّاً إِلَىٰ هَدَف مَفرُوض عَلَيهِ، وهُو القِيَام بوَظِيفَته، وَإِتمَام طَبِيعَته.

٢ ـ أَنَّ جِسم الحَيّ يَفْتَقر إِلَىٰ التَّغذيَة وَإِلاَّ فَارقَتهُ الحَيَاة.

٣ ـ أَنَّ الحَيّ يَنمُو وَيَفُوز وَيمُوت، وإِذَا اشْتَرك النَّبَات مَع الحَيوَان بالتَّغذيَة وَالنَّمو فَإِنَّ الحَيوَان يَفْتَرق عَن النَّبَات بالسَّمع، وَالبَصَر، وَالذَّوق، وَالشَّم وَالأَلَم، وَفَوق ذَلِكَ يَمك الحَيوَان غَرِيزَة الجِنس، وَيَتّقي الأَخْطَار، وكُلّ هَذِهِ الصِّفحَات مَوجُودَة فِي الإِنْسَان، وَيَزِيد عَلَيهِ بحُبّ الإِطْلاَع، وَالسَّعي إِلَىٰ حَيَاة أَفضَل عَن طَرِيق العَقْل الَّذي يَستَدل وَيَستَنبط، وَيَحفظ وَيُدَبر، وَيُعَلل وَيُبَرّر.

مراحل الإنسان :

مَرّ الإنْسَان بالعَدِيد مِن المَرَاحل ، وَتَدرج مِن الأَدْنَىٰ إلَىٰ الأَعْلَىٰ ، مِن شَرِيف إلَىٰ أَشرَف فَأَشرَف حَتَّىٰ بَلَغ القمّة الّتي عبّر عَنْهَا سُبْحَانَه بالأَشدّ ، تَدَرج الإنْسَان مِن لاَ شَيء إلَىٰ الوجُود التُرَابي أي الجَمَاد ، ومِنْهُ إلَىٰ الوجُود المَائي أي النُّطفَة ، ثُمَّ إلَىٰ أوّل مرَاتب اَلحَيَاة أي النّمو بلاَ سَمع وَبَصر ، ثُمَّ إلَىٰ الوجُود الحَيوَاني ، ثُمَّ الوجُود الإنْسَاني . . وتُومي ء هَذِهِ المَرَاحل إلَىٰ أَنَّ الإنْسَان يَسِير ببط ء وهُوَادَة فِي تَكوِينَه وَقُوتَه وَصِحَتَه وَعِلمَه وَإدرَاكَه ، بَل وفِي رَصِيدَه وَشُهرَته تَمَامَاً كَالصَّرح يَقُوم عَلَىٰ أَسَاس ، وَيَبني لبُنَة فَلُبنَة حَتَّىٰ إذَا إرتَفع وَكَمُل تَعذّر هَدمَه وَالنَّيل مِنْهُ ، وأَنَّ أي شَيء يَأتي دُفعَة وَفُجَأة فَهُو عَلَىٰ غَير الأُصُول وَالقَوَاعد لاَ يَلْبَث حَتَّىٰ يَزُول كَالتَّهرِيج وَالإعلاَن الكَاذب .

وَقَد جَمَع سُبْحَانَه كُلّ المَرَاحل الّتي مَرّ بِهَا الإنْسَان فِي الآيَة (٦٧) مِن غَافِر قَالَ ، عَظُمَت كَلِمَته :

١ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ مِن عَالَم الجَمَاد .

٢ ـ ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ عَالَم المَاء .

٣ ـ ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ تَحَولَت إلَىٰ مُضغَة ، ومِنْهَا إلَىٰ اللّحم وَالعَظم ، وفِي هَذَا التّحول نَوع مِن النُّمو يَشْبَه نمُو النّبَات .

٤ ـ ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ يَسْمَع ، وَيُبصر ، وَيَشم ، وَيَتذَوق ، وَيَتأَلّم ، وَلكنّه لاَ يَعْقل تَمَامَاً كَالحَيوَان .

٥ ـ ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ فَتعقّلُوا وَتَدبرُوا ، وَكُلّ مَرحلَة لاَحقَة مِن هَذِهِ المَرَاحل هِي أَعلَىٰ وَأَشرَف مِن السَّابقَة ، فَالنّبَات يَمتَاز عَن التُّرَاب بالنّمو

وَالحَركَة، وَيمتَاز الحَيوَان عَن النَّبَات بِالسَّمع والبَصَر، والإِنْسَان عَـن الحَـيوَان بالعَقل وَالإِدْرَاك المُشَار إِلَيهِ فِي الآيَة بالأَشَدّ، وهُو قمّة القِمَّم.

وَاهِب ٱلحَيَاة:

دَعَا سُبْحَانه إِلَىٰ الإِيمَان بِهِ، وَدلّ عَلَىٰ طُرق الهُدىٰ إِلَىٰ هَذَا الإِيمَان، ومِنْهَا أَنَّه تبَارَك وتَعَالَىٰ هُو الَّذي وَهَب ٱلحَيَاة، قَالَ جَلّ وَعزّ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾[1] وَقَـالَ: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[2].

وَوَجْه الإِستدلاَل بِإِخْتِصَار وَإِيْجَاز ـ أَنَّ الأَمْر هُنا لاَ يَخلُو مِن أَحد فَرضَين: إِمَّا أَنْ تَكُون ٱلحَيَاة مِن خوَاص المَادّة، وَمَظهرَاً مِن مظَاهرهَا الذَّاتـيَّة، وَإِمَّـا أَنْ تَكُون مِن صُنع قَادر مُرِيد أَودَعهَا فِي المَادّة... وعَـلَىٰ الأَوّل يَـجْب أَنْ تَكُـون المَادّة حَيَّة بشَتّىٰ أَنوَاعهَا مِن غير تَفرقَة بَيْنَ مَادّة وَمَادّة أَيْنَما كَانَت وَتَكُون، وَهَذَا خِلاَف الوَاقِع المَلمُوس، وَإِذَن يَتعيَّن الفَرض الثَّاني، وهُـو أَنَّ الله سُـبْحَانه هُـو خالق ٱلحَيَاة ومالكها.

المَادّيُون وَٱلحَيَاة:

مُنذُ القَدِيم وَالعُلمَاء يَدرسُون، وَمَا زَالُوا يَبحثُون عَن سرّ ٱلـحَيَاة وَمَـصدرهَا

---

(١) يٰس: ٣٣.

(٢) يُونُس: ٣١.

« وَلَكنّهُم لَمْ يَصلُوا بَعْد إِلَىٰ حَلّ لهَذَا السّر ، وَرُبّما لَم يَصلُوا إِلَيهِ إِلَىٰ الأَبَد » عَلَىٰ حَدّ مَا قَالَ الدُّكتُور عَلَم الدِّين كمَال الأُستَاذ بكُليّة العُلُوم جَامعَة القَاهرَة ـ فِي مَقَال بعُنْوَان تَطَوّر الكَائنَات الحَيّة ، وَفِي كِتَاب فَجر ٱلْحَيَاة : « مِن المُؤكّد أَنَّ الكَائِنَات الحَيّة تُبدي مِن الظَّوَاهر مَا لاَ يُمْكن تَفْسِيره طِبقاً لخَواصّ المَوَاد الطَّبِيعيّة »[١].

وفِي كِتَاب موَاقف حَاسمَة فِي تَأرِيخ العِلْم ، قَالَ المُؤلّف بعُنْوَان أَصْل الأَحيَاء وَنَشأتها : « أَنَّ الآرَاء الَّتي تحَاوَل تَفْسِير أَصل ٱلْحَيَاة كَثِيرَة ، وَلَكن كُلّ عَشرَة مِنْهَا بقِرش » أَي لاَ تُسَاوي شَيئَاً . . . وأَيضاً قَالَ عَن هَذِهِ الآرَاء : « لاَ أَستَطِيع أَنَّ أُسَمّيهَا بأَكثَر مِن خوَاطر وعَلَينَا أَنْ نَتْرُك الحَدِيث عَن أَصل ٱلْحَيَاة »[٢].

وَهَذَا العَجز عَن إدرَاك أَصل ٱلْحَيَاة هُو الَّذي يُؤكّد إِيمَاننَا بأَنّها مِن أَمْر الله الَّذي قَالَ : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾[٣].

وَعَلَىٰ الرَّغم مِن ذَلِكَ قَالَ المَادّيُون أَو بَعْضهُم : أَنَّ ٱلْحَيَاة تَنشَأ وَتَتولّد تِلقَائيّاً مِن المَوَاد الجَامدَة ، إِمَا لعَفونَتهَا كتَولّد الحَشرَات مِن القَذَارَة ، وَإِمّا لتَركِيب أَجزَاء الجِسم الحَيّ عَلَىٰ شَكل خَاصّ كَالأَجهزَة العِلميَّة ، وَبخَاصّة الآلَة الحَاسبَة .

الجَوَاب :

---

(١) أُنظر . عَلَم الدِّين كمَال الأُستَاذ بكُليّة العُلُوم جَامعَة القَاهرَة ـ فِي مَقَال بعُنْوَان تَطَوّر الكَائنَات الحَيّة المَنشُور فِي مَجلّة عَالَم الغَد الكُويتيّة ج ٣ ع ٤ وفِي كِتَاب فَجْر ٱلْحَيَاة لجُوزيف هَارُولد ، تَرجَمَة الدُّكتُور عَبدالحَلِيم مُنْتَصر وَرَفِيقَيه . (مِنْهُ ﷺ) .

(٢) أُنظر . موَاقف حَاسمَة فِي تَأرِيخ العِلْم للعَالِم الأَمْركي المُعَاصر رَئِيس جَامعَة هَارفَارد الدُّكتُور « جميس . كونَانت » تَرجَمَة الدُّكتُور أَحمَد زَكي . (مِنْهُ ﷺ) .

(٣) ٱلإِسْرَاء : ٨٥.

١ ـ أَنَّ هَذَا القَوْل مُجرّد إحتمَال وَخوَاطِير بلاَ دَلِيل، كمَا سَبقَت الإِشَارَة وفِي كِتَاب الطَّبِيعَة وَمَا بَعْد الطَّبِيعَة ليُوسُف كَرَم: (أثبَت «باستور» بالتَّجربَة القَاطعَة أَنَّ دُودَة العفُونَة، وَحَشرَة القَذَارَة تَتولّد مِن جرَاثِيم حيّة لاَ يَنالهَا البَصر المُجرّد، وَأَنَّ كُلّ حَي فهُو مِن حَيّ»)... وفِي كِتَاب الله يَتجلىٰ فِي عَصْر العِلْم... أَنَّ («رُسل تشارلز» قَالَ: «جَمِيع الجهُود الَّتي بُذلَت للحصُول عَلَىٰ المَادّة الحَيّة مِن غَير الحَيّ قَد بَاءَت بخُذلاَن، وَفَشَل ذَرِيعَين»). وَهَذَا يُؤكّد القَوْل: أَنَّ المَادّة لاَ طَاقَة لهَا بتَولِيد القوّة الحَيويّة، وَلكنّها إِذَا بَلغَت مَبلغَاً مَعلُومَاً مِن الإِستعدَاد صَلُحَت لحلُول ٱلْحَيَاة فِيهَا، وَتَهيّأت لخدمَتهَا مِثْل الجهَاز الَّذي يَصْلح بالتَّركِيب لقبُول الكَهربَاء، أَو لتَلقي الصَّوت وَالصُّورَة.

٢ ـ لَيْسَت ٱلْحَيَاة مَظهَراً لاَزمَاً لطَبيعَة المَادّة، وَلاَ هِي نَتيجَة حَتمِيّة لتَركِيب الأَجزَاء عَلَىٰ شَكلٍ خَاصّ... وإِلَّا وَجَب أَنْ لاَ يَمُوت الحَيّ نَبَاتَاً كَان أَم حَيوَانَاً مَا دَام هَذَا التَّركِيب قَائِمَاً، لأَنَّ علّة الحدُوث هِي بالذَات علّة البقَاء وَالإِستمرَار مَع العِلْم بأَنَّ ٱلْحَيَاة تُفَارق جِسم الحَيّ دُون أَي نَقْص أَو خَلَل فِي شَيء مِن أَعضَائه وَتَركيبهَا... وَقَد يَحْدث الخَلل فِي التَّركِيب وَالتَّرتِيب، أَو النَّقص وَالشَّلل فِي الأَعضَاء وَلاَ تَزول ٱلْحَيَاة عَلَىٰ العَكس تَمَامَاً مِن الجِهَاز العِلمي الَّذي يَتأَثّر وَيَحدث فِيهِ التَّخرِيب لأَدنىٰ عَارض يَطرَأ عَلَيهِ.

بَل شَاهدنَا وَشَاهد كَثِيرُون كَيف يَنْبض بَعْض الأَعضَاء بَعد فَصله وَٱنْتزَاعه مِن الجِسم الحَيّ... وَفَوق ذَلِكَ لاَ نَعْرف جِهَازاً عِلميَّاً وَاحِداً كَالإِنْسَان يَحس المَسمُوعَات، وَالمَرئيَات، وَالمَلمُوسَات، وَالرَّوَائح، وَالمَذَاقَات، وَيُميّز بَيْنهَا فِي آنٍ وَاحد... وَالإِذن فَقيَاس الإِنْسَان عَلَىٰ الجِهَاز الآلي قيَاس مَع الفَارق،

وَللتَّوضِيح نُشِير إلَىٰ مَا قَالَه الفيلسُوف الشَّهِير «رَاسـل» حَـول هَـذَا المَـوضُوع وَيَتلخصّ بأَنَّ الفَارق الجوهَري بَيْنَ الأَجسَام الحيَّة وَغيرهَا مِن الأَجْهزَة العِلميَّة هُو أَنَّ الأَجسَام الحيَّة تُقلد الغير، وَتَفهَم بالإِشَارَة تِلقَائيّاً دُون الآلَة الصّناعيَّة... وَضَرب مَثلاً عَلَىٰ ذَلِكَ بقَولهِ: نَضع القُرش فِي الجهَاز الآلي فَـيَخرج لنَـا قـطعَة حَلوىٰ، وَلكنّه لاَ يَفعَل شَيئاً برُؤيَة القُرش، أَو بسمَاع كَلمَة قُرش[1].

٣ ـ إذَا سَلّمنَا ـ جَدَلاً ـ أَنَّ التَّركِيب أَو العَفويّة علّة ٱلْحَيَاة فَـمَن الَّـذي رَكّب وَهَندَس؟ وهَل العُفُونَة وَحـدَها سَـبَب لتَـولد الحَـيَاة، أَو حَـدَث ذَلِكَ لمُـجَرّد الصّدفَة؟.

٤ ـ أَنَّ القَوْل بآليَة ٱلْحَيَاة وأَنَّها مِن ثَمرَات الطَّبيعَة ـ يَسْتَلزم القَوْل بأَنَّ العَقْل أَيضاً مِن ثَمرَات الطَّبِيعَة، وأَنَّه آلي لاَ شعُوري: يَختَرع، وَيَكتُب، وَيُؤلّف وَيَستَدل وَيَستَنبط وَيَتنبأ بالمُستَقبَل، كُلّ ذَلِكَ وَمَا إِلَيهِ يَصْدر عَن العَقْل قَهرَاً وَتـلقَائيّاً... حَتَّىٰ هَذَا القَوْل يَجْب أَنَّ يَكُون صَادرَاً عَن قَائلهِ بغَير وَعي وَشعُور!... وهَل مِن شَيء أَتفه مِن هَذَا وَأَسخَف؟.

وَالخُلاَصَة:

وَبَعد، فَإِنَّ مَملكَة ٱلْحَيَاة وَاسعَة وَمتنُوعَة... ومِنْهَا الأَعشَـاب، وَالأَشـجَار، وَالطُّيُور، وَالأَسمَاك، وَالحَشرَات، وَالجرَاثِيم، والحَيوَان، والإِنْسَان، ومِنْهَا مَا لاَ نَعْرف كُنهَه وَاسمَه، وَلكُل نَوع مِن هَذِهِ العَوَالم أَصنَاف[2] وَلكُلّ صِـنف أَفـرَادَه،

(١) أُنظر، الفلسَفَة بنَظرَة عِلميّة تَرجمَة زَكي نَجِيب مَحمُود.

(٢) أُنظر، مَجلّة عَالَم الفِكر الكُويتيَة: ١٦/٣ العَدَد ٤: أُحصي مَا يُقَارب مِن مليُون نَوع مِن الحَيوَانَات، وَحوَالي رُبع مليُون نَوع مِن النَّبَاتَات... وفِي كِتَاب الطُّيور لـ«روبَرت لمَن» تَرجمَة مُصطَفىٰ بَدرَان:

وَلُكلّ فَرد مَلاَمحهَ وَبَصمَاتَه، وَخصَائِصه، وَسمَاته الّتي لاَ يُشَابه بِهَا أَحداً سوَاه
فَهل السَّبَب الأَوّل وَالأَخِير لهَذَا التّنوع هُو المَادّة الجَـامدَة، أَو الصّـدفة ؟ وَهَـل
مَاهيَة مِن حَطّم الذَّرّة، وَقفز مِن الأَرْض إِلىٰ ٱلْقَمَر عَين مَاهيَة الصَّخر وَالحَجر ؟
وَإِذَن لاَ فَرق ـ عَلَىٰ هَذَا ـ بَيْنَ الأَسد وَالنَّملَة إِلاَّ فِي الحَجم وَالشّكل !.

أَنَّ ٱلْحَيَاة لَيْسَت بجِسم وَلاَ مِن جِسم، وإِنَّمَا هِي رُوح يَسكبهَا الخَالق المُبدع فِي الجِسم الجَامد المَيّت فَيَنقلب خَلقاً جَدِيداً يُبهر العيُون، وَيُذهل العُقُول تمَامَاً كمَا بَدَأ سُبْحَانَه خَلق الإِنْسَان مِن طِين، وَلمّا نَفخ فِيهِ مِن رُوحه أَصبَح الطّـين إِنْسَاناً سَوِيّاً... وَكَذَلك يَسْكب العَبقَري عَلَىٰ اللّفظ الجَامد مِن أَدبهِ، وَفنّه فَيَنقلب حَيّاً يَسحَر وَيَبهَر.. وَالخُلاَصة أَنَّ جَوهر ٱلْحَيَاة شَيء، وَجَوهر المَادّة شَيء آخر، وَلكنّهما يَتفَاعلاَن، ويُؤثّر كُلّ بصَاحِبهِ.

أينَ الّذي يَخلق مِن لا شَيء:

فِي وَقتٍ مِن الأَوقَات أَرَادَت جَرِيدَة «النَّهَار» البَيرُوتيَة أَنْ تَـملأ صَـفحَات المُلحَق الّذي تَصْدرَه فِي كُلّ يَوْم مِن أَيَّام الآحَاد فَرَغبت إِلىٰ جَمَاعَة ـ وَأنَا مِنْهُم ـ أَنْ يُجيبُوا عَن هَذَا السُّؤال: «إِذَا تَوصل العِلْم يَوْمَاً إِلىٰ خَلق خَليَّة فَـمَاذَا يَكُـون مَصِير الله ؟».

وَلعَلّ وَاضع السُّؤال أَرَاد مَصِير الإِيمَان بالله، وَمَهمَا يَكُن فَقَد تَطَوع للإِجَـابَة كَثِيرُون: مِنهُم المُتعَلّم الأَصِيل، ومِنْهُم المُتَطفل الدَّخِيل... وَمَا وَجَدت مِن نَفْسي

* فِي الطّيُور ثَمَانيَة آلاَف أَو تِسعَة آلاَف صِنف مُتمَايز عَلاَوَة عَلَى عَدَد كَبِير مِن أَنوَاع قَريبَة الشّبه بِهَا. (مِنْهُ ﵀).

آنذاك أيّة رَغبَة فِي المُشَارِكَة، وَالآن، وَأنَا أشرَح نَهج البَلاَغَة، مَرَرْت بالإشَارَة إلَىٰ هَذَا المَوضُوع، فَكَتبتُ حَولَه مَا يَلي:

تَقَدَّم العِلْم خُطوَات تَدعُونَا إلَىٰ الإيمَان بِهِ، إيمَاناً نَعجَز عَن وَصفِهِ وَتَحدِيدِه؟ لأنَّ مَا مِن أحدٍ فِي وسعَه ـ بَالغاً مَا بَلَغ مِن العِلْم ـ أنْ يَضَع مُعَادلاَت يَتنَبأ بِسَبَبِهَا عَن كُلِّ مَا يَتوَصل إليهِ العِلْم مِن مُكْتشفَات وَمُخترعَات، كَيف؟ وكُلَّمَا بَلَغ العِلْم أفْقاً بَدَت لهُ آفَاق لاَ حَدّ لهَا وَلاَ نهَايَة... أنَّه يَرىٰ المَجهُول مَا فِي ذَلِكَ رَيب، وَلكنَّه عَلَىٰ الدَّوَام يَرىٰ أيْضاً مِن خِلاَل اكْتشَافَاته أنَّ مَا غَاب عَنْهُ أكثَر بكَثِير مِمَّا ظَهَر لهُ... وَإذَن فَمِن الجَائِز أنْ يَكْتَشف العُلمَاء سرّ الْحَيَاة، بَل مِن الجَائِز أنْ يَختَرعُوا فِي يَوْم مِن الأيَّام إنْسَاناً فِي أحسَن تَقوِيم، وَلَكن هَذَا لاَ يُؤثّر إطلاَقاً فِي إيمَاننَا بالله حَتَّىٰ وَلَو كَان الإنْسَان المُخْتَرَع ـ بفَتح الرَّاء كَأرسطُو فِي فَلسَفَاته، وَإينشتِين فِي نَظرِيّاته، وَشَكسبِير فِي شِعرِهِ وَمَسرحيَاته...؛ ذَلِكَ لأنَّ العُلمَاء لاَ يَخْتَرعُون شَيئاً ـ وَلَو كَان تَافهاً ـ إلَّا بمعُونَة الأسبَاب التَّاليَة:

١ ـ أنْ يَكُون لهُم عُقُول يُخَططُون بِهَا، وَيُجهدُونهَا فِي الرُّؤيَة وَالتَّفكِير، لأنَّ العَقْل أصل، وَالعِلْم فَرع وَثَمرَة مِن ثَمرَاته.

٢ ـ أنْ تَتهيَّأ للعُلمَاء المَادّة الَّتي يُحوّلُونهَا إلَىٰ الإنْسَان، سوَاء أكَانَت جَمَاداً أم نَبَاتاً أم نُطفَة حيَوَان، إذْ يَستَحِيل عَلَىٰ العِلْم والعُلمَاء إيجَاد شَيء مِن لاَ شَيء وَلَيس مِن شَكّ أنَّ المَادّة الَّتي يُكيفونهَا وَيُحوّلُونهَا إلَىٰ آخر لَيْس مِن صنْعِهِم.

٣ ـ أنْ تَتوَافر لَدَيهم المُختَبرَات وَالأدوَات الفَنيّة، لأنَّهَا الوَسيلَة لإيجَاد أي شَيء فَضلاً عَن إيجَاد إنْسَان بعَقلهِ وَطَاقَاته.

هَذِهِ الأسبَاب أو الشُّروط الثَّلاَثَة لاَ بُدّ مِنْهَا، وَلاَ غنَىٰ عَنْهَا لكُلّ مَن حَاوَل

وَيُحَاول غَزو الطَّبِيعَة وَتَسخِيرهَا لحَاجَه مِن حَاجَاته وَغَايَة مِن غَايَاتهِ .

وَالله الَّذي نُؤمِن بهِ ، وَنَعبدهُ غَني عَن كُلّ شَيء ، وَكَامِل مِن كُلّ وَجْه وَلَو إحتَاج إِلَىٰ شَيء لإستحَال أَنْ يَستَقل بإحدَات شَيء ، بَل لاَ بُدّ أَنْ يَستَعِين بغَيرِهِ ، وَمَعنىٰ هَذَا أَنَّه نَاقص وَمَحدُود ، وَمُفتقر إِلَىٰ شَيء خَارج عَن ذَاته يَتم بِهِ وَيَكمل ، ومِـن البَدَاهَة أَنَّ الفَقِير النَّاقص وَالمَحدُود يَستَحِيل أَنْ يَكُون إلهاً . . . أَنَّ ذَات الإِله الحَقّ الَّذي نؤمِن بهِ ـ تَمنَح الوجُود لغَيرهَا بطَبِيعتهَا ، وَبمَا هِي بلاَ وَاسطَة شَـيء عَـلَىٰ الإِطلاَق . . . أَنَّها تُريد فَيوجَد المُرَاد بالفِعل ، كمَا شَاءَت وَأَرَادت .

أَنَّ الإِله الَّذي نُؤمِن بِهِ يَقول للشَّيء : ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[1] . بـلاَ جَـولَة فِكـر ، وَلاَ هندَسَة وَتَخطِيط ، وَعلاَج آلآت ، وَأَذرُع وَحَركَات ، وَإِذَن فَإيمَان العَارفِين بالله لاَ يُزَعزعَه شَيء ، إِلاَّ إِذَا اَستطَاع العُلمَاء أَنْ يوجدُوا شَيئَاً أَي شَيء مِـن لاَ شَـيء ، وَبمُجَرّد أَنْ يُرِيدُوا إِيجَاده بلاَ رُويَة وَتَـفكِير ، وَآلاَت وَمُـختبراً ، وَأَعـيُن وَأَذرُع وَمَتى تَمَّ لهُم ذَلِكَ ﴿فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾[2] .

وَبكلاَم آخر يَجب قَبل كُلّ شَيء أَنْ نَنظر إِلَىٰ نَفْس الإِله الَّذي آمَن بِهِ مَن آمَن نَنظر إِلَىٰ حَقِيقَته وَهَويَته : فَإِنْ كَان مِن جِنس طَبِيعَة المَادّة المُنفَعلَة الَّتي لاَ تَستَقل بإِيجَاد شَيء ، أَو كَان عبَارَة عَن فِكرَة مُجَردَة ، وَنَظريَة ذِهنيَة كَالشَّرف وَالكَرَامَة ـ مَثلاً ـ إِنْ كَان مِن هَذَا النَّوع ، أَو ذَاك يَكُون مَصِير الإِيمَان بهِ إِلَـىٰ فَـنَاء وَزوَال لاَ مُحَالَة سوَاء اَكتَشَف العُلمَاء سرّ اَلحَيَاة ، أَم عَجزُوا عَن اَكتشَافه ، أَمَا إِذَا كَان الإِله المَعبُود هُو قوّة فعَّالَة لهَا جَمِيع صفَات الكَمَال مِن كُلّ جِهَة وَتؤثّر وَلاَ تَتأثّر ، وَإِلَيهَا

---

(١) يس : ٨٣.

(٢) اَلزُّخرُف : ٨١.

يفْتَقر كُلّ شَيء وَلاَ تَفْتَقر هِي إلَىٰ شَيء وَلَيْس كَمِثلهَا شَيء، وهِـي المَـبدَأ الأَوّل للخَلق وَالتَّدبِير، أَمَّا الإيمَان بهَذَا الإلٰه فَهُو أرسَخ مِن الرَّاسيَات حَتَّىٰ وَلَو اكتَشَف العِلْم سرّ الحَيَاة، وَاخْتَرع ألف إنْسَان وإنْسَان: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[1].

(١) ٱلحَجّ: ٧٣.

حَوْلَ الإِسْلاَم

طَرِيق المَعْرِفَة إِلَىٰ الإِسْلاَم:

قَالَ لِي شَاب مُتَعلّم وَمُسلِم بالأَبَوَين: أَحْس مِن نَفْسِي أَنَّهَا تَمُوج فِـي الشَّك وَالحَيرَة مِن كُلّ الأَديَان، وَأَود لَو أَقْتَنع بالإِسلاَم لأَنّه دِين آبَـائي وَأَجـدَادي... فَهلّ لَكَ أَنْ تَرشدني إِلَىٰ مَا يَطمَئن إِلَيهِ القَلْب، وَيَرضىٰ بِهِ العَقْل الّذي يَشهَد شَهَادَة عِلْم وَإِيقَان بقَولَه تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[1].

قُلْتُ لَهُ: الأَمْر سَهل يَسِير إِذَا كُنتَ جَاداً فِي قَصدَك وَعَزمَك، وَلَم تَكُن أُمنِيَتك هَذِهِ مُجَرّد بَارقَة مرّت بخَاطِرَك وَخيَالَك... أَنَّ الإِسْلاَم لاَ يُريد مِن أَحدٍ أَنْ يُؤمِن بِهِ عَن جَبرٍ وَإِكرَاه، وَلاَ عَن جَهلٍ وَتَقلِيد، بَل عَن مَعْرفَة وَقنَاعَة، وَتَعقّل وَرَوِيّة، وَحَذّر مِن الإِنسِيَاق وَرَاء الظَّن، وَأَنكَر أَشدّ الإِنكَار عَلَىٰ مَن يُؤمِن أَو يَـقُول أَو يَفْعَل بغَير عِلْم وَلاَ هُدَىٰ وَلاَكِتَاب مُنِير، كمَا فِي الآيَة ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ﴾[2]. وَالمُرَاد بالعِلم هُـنا الحِس وَالعَـيَان، وَبالهُدىٰ العَقْل وَالبُرهَان، وَبالكتَاب المُنِير الوَحي الثَّابت نَقلاً وَعَقلاً... والعَـقْل

---

(١) آلِ عِمْرَانَ: ٨٥.

(٢) ٱلحَجّ: ٨.

هِبَة الله لعبَادة ليَنتَفعُوا بهِ فِي كُلّ شَأن مِن شئُونهم، وَحُجّته عَلَىٰ مَن تَصَرف بالهَوىٰ وَٱنْحَراف عَن الهُدىٰ. والعِلْم ثَمرَة العَقْل، وَإِدرَاك الحَقّ وَالخَير عَمله وَمهنَته.

وإذَا قَالَ قَائِل: «رُبّ حَسَن عِندَ زَيد هُو قُبح عِندَ بَكْر»؟.

قُلنَا فِي جوَابِهِ: أَنَّ جَوهر العَقْل وَاحد فِي كُلّ إِنْسَان شَرقيّاً كَان أَم غَربيّاً، وَمَدلُوه وَاحد حَسَناً كَان أَم قَبيحاً، وَالفَرق إِنَّمَا هُو فِي أُسلُوب التَّفْكِير تبعَاً للبِيئَة وَالتَّربيَة وَأيّاً كَان نَوع الإِختلاَف فَإِنَّ العُقلاَء بكَاملِهم مُتّفقُون قَولاً وَاحداً عَلَىٰ كَثِير مِن الحقَائِق، وَيَطلقُون عَلَيهَا ٱسم الأَوليّات المُسَلّمَات البَدِيهيّات كَالبَرَاهِين الرّيَاضيّة، وَمَا هُو بمَنزلتهَا فِي الوضُوح وَالبَدِيهَة، وَمِنْهَا هَذِهِ الحَقِيقَة: كُلّ مَن شَكّ فِي شَيء فَلاَ يَسوغ لهُ الحُكم عَلَيهِ بسَلبٍ أَو إِيجَابٍ إلاّ بَعد البَحث المُؤدّي إِلَىٰ مَعرفَته حقّاً وَيَقيناً.

عَقِيدَة الإِسْلاَم وَاضحَة:

وعَقِيدَة الإِسْلاَم وَاضحَة بأُصُولهَا وَأَهدَافهَا[1]، وَشَريعَته بَيّنَة بفَرَائِضهَا وَسُنَنها، أَبَداً لاَ أَلغَاز وَتَعمِيمَات غَامضَة فِي شَيء مِن تَعَاليمه وَمَبَانه.. أَمّا الَّذي جَاء بِهِ فَهو بَشَر مِثلنَا: ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[2]، وتَأريخ حَيَاته مَعرُوف لكُلّ جِيل، وَسِيرَته مِن جَمِيع جوَانبهَا مُنْتَشرَة فِي شَرق الأَرْض وَغَربهَا، وبَيْنَ يَدي كُلّ طَالب وَرَاغب.

(١) أَشرتُ إِلىٰ هَذِهِ الأَهدَاف فِي كِتَاب «الإِسْلاَم بنَظرَة عَصريّة». (مِنهُ ﷺ).

(٢) ٱلفُرْقَان: ٧.

وَمَن أَحبّ وَأَرَاد أَنْ يَعرف: هَل الإِسْلاَم دِين الحَقّ؟ وَهَل مُحمَّد جَاء بِهِ مِن عِندَ الله؟ ـ فَعَلَيهِ قَبل كُلّ شَيء أَنْ يَتجرّد عَن أَيّة فِكرَة سَابقَة، ثُمَّ يَدْرُس دِرَاسَة مَوضُوعيّة حَيَاة مُحمَّد ﷺ مُنذ نَشأَته إِلَىٰ أَنْ أَلحق بالرَّفِيق الأَعْلَىٰ، أَنْ يَدْرس أُسلُوبه فِي ٱلحَيَاة، وَمَنهجه فِي التَّفكِير، وَتصرفَاته قَبل البِعْثَة كَإِنْسَان أُمّي عَاش فِي بِيئَة الشِّرك وَالجَاهليَة، وَيَدرس تَصرفَاته بَعد البِعْثَة كمُنقذ للبَشريّة جَمعَاء مِن العمَايَة وَالضَّلاَلَة، وَالجمُود وَالتَّخلف وأَيْضاً يَدْرُس رِسَالَة مُحمَّد ﷺ كَكُل أُصُولاً وَفرُوعاً، وَمَدىٰ تَأثِيرهَا فِي حَيَاة الأَفرَاد وَالجمَاعَات... وَلَيس مِن شَكّ أَنَّه سَيَنتهي ـ بوَحي مِن دِرَاسَة هَذِهِ ـ إِلَىٰ الإِيمَان بالإِسلاَم وَنَبي الإِسْلاَم.

ومِن البُرهَان عَلَىٰ ذَلِكَ الَّذِين أَسلمُوا وَآمنُوا برِسَالَة مُحمَّد قَدِيماً وَحَدِيثاً عَن هَذِهِ السَّبِيل بالذَات، وَفِيهِم مَشَاهِير العُلمَاء وَكبَار الفَلاَسفَة وَالأُدبَاء، وَكَتبُوا وَنَشرُوا عَلَىٰ المَلأ: كَيف آمنُوا بمُحمّد، وَٱقْتَنعُوا بأَنَّ رِسَالَته مِن وَحي السَّمَاء، وَتُرجمَت أَقوَالهم إِلَىٰ العَدِيد مِن اللُّغَات، مِنْهَا اللُّغَة العَربيّة، وَوضَع بَعْض البَاحثِين العَرب كُتباً خَاصّة فِي إِسلاَم العَدِيد مِنْهُم مَع أَقوَالهم فِي النَّبيّ وَٱلقُرْءَان. ومِن تِلكَ الكُتُب كِتَاب لمَاذَا ٱختَرنا الدِّين الإِسْلاَمي للرَّضَوي، وكِتَاب مُحمَّد وَٱلقُرْءَان لكَاظم آل نُوح... وفِي كِتَاب التَّكامُل لأَحمَد أَمِين العرَاقي، وكِتَاب مَا يُقَال عَن الإِسْلاَم للعَقّاد ـ عَدَد لاَ يُستهَان مِن هَؤُلاَء العُلمَاء والفَلاَسفَة.

وإِذَا كَان المَجَال هُنا لاَ يَتّسع للحَدِيث الوَافِي برِسَالَة الرَّسُول وَسِيرَته العِطرَة ـ فَلا أَقل مِن إِشَارة خَاطفَة إِلَىٰ شَخصِيته، وَمرَاحل دَعوَته، وَعمُومهَا للنَّاس أَجمَعِين... عَسىٰ أَنْ تَضيء هَذِهِ الإِشَارَة إِلَىٰ بدَايَة الطَّرِيق أَمَام مَن أَحبّ سلُوكه.

شخصيته:

أنَّ شَخصيَّة الفَرد لاَ تُفرَض عَلَيهِ مِن الخَارِج . . . أنَّها نَفْسَه وَحَقِيقَته ، فَإِذَا قِيل : لاَ شَخصيَّة لفُلاَن فَهِمنَا مِن هَذَا القَوْل أنّه لَيس بشَيء يُذْكَر ، وَالعَكس بالعَكْس أي إِذَا قِيل : لهُ شَخصيَة كَان المَعنىٰ أنَّ لهُ ضَرباً مِن الوجُود ، وأنَّه أَخَذ مِـن الطَّـبِيعَة البَشريَة شَيئاً مِن صفَاتهَا وَخصَائصهَا .

وَقَد أَخذ مُحَمَّدﷺ مِن الإِنْسَانيَّة أَنبَل مَا فِيهَا ، وَأَقصىٰ مَا يُمْكن أَنْ يَتصوَرَه العَقْل مِن عَظمَة الإِنْسَان وَكمَاله ، وَقَد أَوجَز سُبحَانَه صفَات نَجيّه بهَذِهِ الكَـلمَة الجَامعَة الرَّائعَة : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] .

ومِن هَذَا الخُلق النَّـبِيل العَـظِيم الصِّـدق وَالأَمَـانَة ، وَالشَّـجَاعَة ، وَالإِيـثَار ، وَالإِعتدَال فِي كُلّ الأُمُور ، فالصَّادق الأَمِين لَقبَه بَيْنَ قَومَه وَعَارفيهِ[2] .

أَمَّا إِيثَارَه فَكَان يُنفق عَلَىٰ المَحَاويج كُلّ مَا يَملك ، وَلاَ يُبقي مِنْهُ لنَفسهِ وَأَهلَه إلاَّ دُون الكَفَاف مِن قُوت مَن لاَ يَمُوت ، قَالَ أَبُو ذَرّ :

« خَرَجتُ مَرّة مَع رَسُول الله ﷺ ، نَحو جَبل أُحد ، فَقَالَ لِي : أَتـبصر أَحـداً ؟ قُلتُ : نَعَم ، يَا رَسُول الله .

قَالَ : « مَا أُحب أَنْ يَكُون لِي مِثْل أُحُد ذَهَباً أُنْفقهُ فِي سَبِيل الله ، أَمُوت وأَتْرُك مِنْهُ قِيرَاطَين »[3] .

---

(١) اَلْقَلَم : ٤ .

(٢) أُنظر ، مُسْند الشّهاب : ١ / ٧٥ ح ٦٨ . أَمثَال الحَدِيث : ١ / ١٥٣ ح ١١٧ . شُعب الإِيمَان : ٥ / ١٧٥ ح ٦٢٦٠ . الفِرْدَوْس بمَأثُور الخِطَاب : ٢ / ٥٥ ح ٢٣١٣ . السِّيرَة النَّبوّية لِابْن هِشَام : ٣ / ١٨٢ . كـتَاب سُبل الهُدىٰ وَالرَّشَاد : ١ / ٤٧٨ . تَأرِيخ اليَعقُوبي : ٢ / ٨ . تَأرِيخ الطَّبري : ١ / ٥٨١ .

(٣) حَقّاً مَا تَرك دِينَاراً ، ولاَ دِرهمَاً ، وَلاَ عَبداً ، ولاَ وَلِيدةً ، بل تَرَك دِرعَه مَرهُونةً عِندَ يَهودِي عَلَىٰ ثَلاثِين

وَمِن البُرهَان عَلَىٰ شَجَاعَة الرَّسُول الأَعْظَمﷺ قَول الإِمَـام عَـليّ؈ : « لَـقَد رَأَينَا يَوْم بَدر وَنَحنُ نَلوذ بِرَسُول اللهﷺ ، وَهُو أَقْرَبنا إِلىٰ العَدوّ ، وَكَان مِن أَشَـد النَّاس يَوْمَئِذٍ بَأساً »[١].

وَقَالَ؈ : « كُنَّا إِذَا ٱحْمَرَّ الْبَأْسُ ٱتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِﷺ فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَىٰ الْعَدُوِّ مِنْهُ »[٢]، وكَان فَحل مِن الإِبل قَد جَمَح وَتَوحش وَأَصبَح مِن الكَوَاسر الضَّاريَة حَتَّىٰ فَرّ الشّجعَان مِن أَمَامَه ، فَأَقتَحم عَلَيهِ النَّبيّ وَجَذبَه بقُوّة فَأَخـضَعهُ وَكَبح جمَاحه ، وَلَم تَكُن قُرَيْش قَد تَعودَت الإِقدَام عَلَىٰ مِثل هَذَا الخَطَر مِن أَجل الآخرِين ، وَلاَ عَرفَت أَحداً بِمِثل هَذَا الإِستبسَال[٣].

أَمّا القَصد وَالإِعتدَال فَيَومي‌ء إِلَيهِ قَوْلَه : « خَيْر الأُمُور أَوْسَطها ـ أَوْسَاطهَا »[٤] وَقَالَ الرَّسُول الأَعْظَمﷺ : « لَيْسَ خَيركُم مَن تَرَك ٱلْحَيَاة ، وطَبيعتهَا لِـغيره »[٥].

↔ صَاعاً مِن شَعِير . أُنظر ، مَجمَع الزَّوائـد : ٣ / ١٢٠ ، كَـنز الـعُمَّال : ٦ / ٣٥٦ ح ١٦٠٣٨ ، مُسْنَد أَحـمَد : ١ / ٣٠٠ ، السُّنن الْكُبْرىٰ : ٤ / ٧ ، تَركَة النَّبيّﷺ لحمَاد بن زِيد البَغدَادي : ٧٦ ، البِدايَة والنِّهَايَة : ٥ / ٣٠٥ .

(١) أُنظر ، مُسْـنَد أَحـمَد : ١ / ٨٦ ، مَـجْمَع الزَّوائِـد : ٩ / ١٢ ، المُـصَنَّف لِـلكُوفِي : ٧ / ٥٧٨ ، نُـظم دُرر السِّمطَين : ٦٢ ، كَنز العُـمَّال : ١٠ / ٣٩٧ ح ٢٩٩٤٣ ، تَأريـخ دِمشـق : ٤ / ١٤ ، البِـدَايـة وَالنِّـهاية : ٣ / ٣٤٠ ، الشّفا بِتَعرِيف حقُوق المُصْطَفىٰ : ١ / ١١٦ ، السِّيرَة النَّبَوِيَّة لِابْن كَثِير : ٢ / ٤٢٥ ، سُبل الْهُدَىٰ وَالرَّشاد : ٤ / ٤٦ .

(٢) أُنظر ، نَهج البَلاَغَة الحِكْمَة « ٢٦٠ » .

(٣) أُنظر ، سُبل الهُدىٰ وَالرَّشَاد : ٢ / ١٣٩ .

(٤) أُنظر كَنْز المَنَاوي فِي هَامش جَامع الصَّغِير : ١ / ١٢٤ حَرف الخَاء ، بحَار الأَنْـوَار : ٧٥ / ١١ ح ٧٠ ، فَتح البَاري : ١١ / ٢٣٤ ، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة مُحَمَّد عَبْدَه : ٢ / ١٠٠ ، شَرح نَـهْج ٱلْـبَلاَغَة لِابْـن أَبـي ٱلْحَدِيد : ١٦ / ١١٧ ، تَفْسِير القُرطُبي : ٢ / ١٥٤ ، الدُّر المَنثُور : ٤ / ١٧٩ ، الأَحْكَام لِلأَمْدي : ١ / ٢١١ ، المَبسُوط للسَّرخي : ٣ / ١٦٥ ، بَدائع الصَّنائع : ١ / ٢٣ ، حَاشِية رَدّ المحتَار : ٦ / ٦٦٦ .

(٥) أُنظر ، كَشف الْخَفَاء للعَجلوني : ٢ / ٢٢٠ ح ٢١٣٩ ، ذكر أَخبَار إِصبهَان : ٢ / ١٩٧ ، الفِرْدَوْس بمَأْثُور

قَالَ رَسُول اللهﷺ : « لَيسَ خَيْركم مَن تَرَك الدُّنْيَا لِلآخِرَة ، لِلدُّنيَا ، وَلَكنْ خَـيْركُم مَن أَخَذَ مِن هَذِه لِهَذِه »[١] . وَقَالَ رَسُول اللهﷺ : « المُؤمِن القَوي خَير وَأَحبّ إِلَىٰ الله مِنْ المُؤْمِن الضَّعِيف »[٢] .

« مَا بَال أَقوَام قَالُوا كَذَا وَكَذَا ، لكنّي أُصلّي ، وَأَنَام ، وَأَصُوم ، وَأَفطر ، وَأَتزوّج ٱلنِّسَاء ، فَمَن رَغب عَن سُنّتي فَلَيس مِنّي »[٣] .

وَأَشدّ مَا تَمتَاز بِهِ شَخصيّة مُـحَمَّدﷺ الوضُـوح وَالبَسَـاطَة وَالإِنْسجَام ... وَأَعلَن أَكثَر مِن مرّة أَنّه لاَ سُلطَان لهُ عَلَىٰ أَحد ، وأَنَّ حسَابه وَحسَاب الخَـلاَئِق عَلَىٰ الله ، وأَنَّه والنَّاس سوَاء أَمَامه تَعَالَىٰ ، وأَنَّه لاَ يَملك لنَفسَه نَفعاً وَلاَ ضرّاً ، وَلاَ يَدري مَا يفْعَل بِهِ ، وأَنَّه ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٤] ، وَحِين قَالَ المُسْلمُون : كُسـفَت

الخِطَاب : ٣ / ٤٠٩ ح ٥٢٤٩ ، عِلل أبن أَبي حَاتم : ٢ / ١٢٤ ح ١٨٦٧ ، حليَة الأَوْلِيَاء : ١ / ٢٧٨ .

(١) أنظر ، الفِرْدَوْس بمَأثُور الخِطَاب : ٣ / ٤٠٩ ح ٥٢٤٩ ، كَشف الخَفَاء : ٢ / ٢٢٠ ح ٢١٣٩ ، ذِكر أَخْبَار إصبهَان : ٢ / ١٩٧ .

(٢) أَنظر ، صَحِيح مُسْلِم : ٤ / ٢٠٥٢ ح ٢٦٦٤ ، مُسْنَد الحَمِيدي : ٢ / ٤٧٤ ح ١١١٤ ، نوَادر الأُصُول فِي أَحَادِيث الرَّسُول : ١ / ٤٠٤ ، فَتح البَـاري : ١٣ / ٢٢٧ ، التَّـمهِيد لِإبـن عَـبدالبِـر : ٩ / ٢٨٧ ، تُـحفَة الأَحوَذي : ٥ / ٢٢٦ ، شَرْح النَّووي عَلىٰ صَحِيح مُسلِم : ٦ / ٢٢ ، فَـيض القَـدِير : ١ / ٨٣ ، تَـهذِيب الكَمَال : ٩ / ١٣٥ .

(٣) أنظر ، صَحِيح مُسْلِم : ٢ / ١٠٢٠ ح ١٤٠١ ، شَرَائع الإِسلاَم : ٢ / ٤٩٢ ، المُهذّب البَـارع : ٣ / ١٥٣ ، صَحِيح البُخَاري : ٥ / ١٩٤٩ ح ٤٧٧٦ ، جَامع المَقَاصد : ١٢ / ٩ ، صَحِيح أبن حِبّان : ١ / ١٩٠ ح ١٤ ، المُسنَد المُستَخرَج عَلىٰ صَحِيح الإِمَام مُسلِم : ٤ / ٦٤ ح ٣٢٣٨ ، سُنن الدَّارمي : ٢ / ١٧٩ ح ٢١٦٩ ، سُـنن النَّسَـائي : ٦ / ٦٠ ح ٣٢١٧ ، وَسَائِل الشّيعَة : ٢٠ / ١٠٧ ، المصنّف لعَبدالرّزاق : ٦ / ١٦٧ ح ١٠٣٧٤ ، مُسنَد أَحمَد : ٢ / ١٥٨ .

(٤) ٱلأَعْرَاف : ١٨٨ .

الشَّمس لوفَاة وَلده إِبْرَاهِيم، رَدّ عَلَيهِم بقَولٍ حَاسم: «أَنَّ الشَّمس وَٱلْقَمَر آيـتَان مِن آيَات الله لاَ تَكسفَان لمَوت أَحد مِن البَشَر»[(١)].

وَنُقل عَن الجُلَندي مَلك عُمان أَنّه قَالَ: «وَالله لقَد دَلّني عَلَىٰ هَذَا النَّبيّ الأُمّي إِنّه لاَ يَأمر بخَير إِلاّكَان أَوَّل آخذ بِهِ، وَلاَ يَنْهَىٰ عَن شَيء إِلاّكَان أَوَّل تَارك لهُ، وَأَنّه يَغلب فَلاَ يَبْطر، ويُغلَب فَلاَ يَضْجر، وَيَفي بالعَهد، وَيَـنجز الوَعـد، وَأَشـهَد أَنّـه نَبيّ»[(٢)].

وَقَالَ ﷺ: «تدمعُ الْعَيْن، وَيَحزنُ ٱلْقَلْب فَلا نَقول مَا يُسخِط الرّب؛ ولَوْلاَ أَنّهُ قولٌ صَادق، وَوَعدٌ جَامع، وسَبِيل نَأتِيه، وأنّ آخرنَا سيَتبعُ أوّلنَا؛ لوَجدّنا عَلَيْكَ أَشدّ مَن وجدّنا بِك، وإِنّا عَلَيْكَ يَا إِبْرَاهِيم لَمحزُونُون»[(٣)].

وَبَعد فَإِنَّ خَير مَا يُحَدّد شَخصيّة رَسُول الله ﷺ هَذَا الأَثَر الكَبير الضَّخم الّذي تَركه، وَالتَّحول الخَطِير فِي حَيَاة العَالَم كلّه... قَالَ «د. ل ديورَانت» فِـي قـصّة الحَضَارَة: «أَخَذ مُحَمَّد عَلَىٰ نَفْسه أَنْ يَرفَع المُستوىٰ الرُّوحي والأَخلاَقي لشَعبٍ

---

(١) أُنظر، صَحِيح البُخَاري: ١/٣٥٣ ح ٩٩٣، صَحِيح مُسْلِم: ٢/٦٢٣ ح ٩٠٤، صَحِيح ابن خُزَيمَة: ٢/٣٠٨ ح ١٣٧٠، صَحِيح ابن حِبّان: ٧/٦٧ ح ٢٨٢٧، المُسْتَدرَك عَلَىٰ الصَّحِيحَين: ١/٤٨٠ ح ١٢٣١، مَجْمَع الزَّوَائد: ٢/٢٠٨، تَأرِيخ بَغدَاد: ٣/٤٢٨.

(٢) أُنظر، الرَّوض الأُنف: ٤/٢٥٠، الشّفا بتَعرِيف حقُوق المُصطَفَىٰ: ١/٢٤٩ و ٤٨٤، نَسِيم الرِّيَاض: ٢/٤٤٧، شَرح القَاريء بهَامشه: ٤٤٧.

(٣) أُنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٢/ ٨٤ و ٨٥، كَنز الْعُمّال: ح ٤٠٤٧٩، السّنن الْكُبْرَىٰ للبَيهقي: ٤/ ٦٩، الذّكرى: ٧٠، دَعَائِم الإِسْلاَم: ١/ ٢٢٤، بدَائع الصّنائع: ١/ ٣١٠، الْمُغْنِي: ٢/ ٤١١، المُحلىٰ: ٥/ ١٤٦، مُسْنَد أَحمَد: ٣/ ١٩٤، صَحِيح مُسْلِم: ٧/ ٧٦، سُنن ابْن مَاجه: ١/ ٥٠٧، سُنن أَبي دَاود: ٢/ ٦٤، مُسْنَد أَبي يَعلىٰ: ٦/ ٤٣، المُصَنّف: ٣/ ٢٦٧، الأَحكَام لإِمَام يَحيىٰ الهَادي: ١٥٠، الكَافِي: ٣/ ٢٦٢، ذَخَائر الْعُقبَىٰ: ١/ ٢٢٤.

عَاش فِي دِيَاجِير الهَمجيَة... وَقَد نَجَح فِي هَذَا العَرض نجَاحَاً لَم يُدانه فِيهِ أي مُصلح آخر فِي التَّأريخ كلّه، وَقَد وَصَل إِلَىٰ مَا يَبْتَغِيه... وَأَقَام فَوق اليَهودِيَة وَالمَسيحيَة وَدِين بلاَدَه القَدِيم ـ دِينَاً سَهلاً وَاضحَاً، وَصَرِيحَاً قوَامه البَسَالَة وَالعِزَّة، وَٱستطَاع فِي جِيلٍ وَاحد أَنْ يَنْتَصر فِي مِئَة مَعركَة، وفِي قَرن وَاحد أَنْ يُنشيء دَولَة عَظِيمَة، وأَنْ يَبقىٰ إِلَىٰ يَومنَا هَذَا قوّة ذَات خَطر عَظِيم فِي العَالَم».

وقَالَ «مُونتجمري وَات» فِي كِتَاب مُحَمَّد فِي المَدِينَة: «كُلَّمَا فَكّرنَا فِي تَأرِيخ مُحَمَّد تَمَلكنَا الذّهُول أَمَام عَظمَة مِثل هَذَا العَالَم»... وَلاَ بِدْع أَنْ لاَ يوَازي مُحَمَّداً فِي عَظَمَته ـ أَحد مِن العَالِمين... فَإِنّه سَيّد المُرسَلِين وَخَاتم النَّبِيِّين.

مَرَاحل الدَّعوَة:

لاَقَت دَعوَة مُحَمَّد ﷺ مِن قِوىٰ الشَّر وَالبَغي ـ مَا تُلاَقِيه كُلّ دَعوَة إِصلاَحِيَة، وَمَرّت مَع أَعدَائهَا بالعَدِيد مِن المَرَاحل، وَلَكن مُحَمَّداً تَخطّاهَا جَمِيعَاً بِحِكمَته وَتَدبيره، وَصَبره وَتَخطِيطه، وَهَذَا مِن أَوضَح الدَّلاَئِل عَلَىٰ عَظمَة شَخصيتَه.

جهَر بدَعوَة الإِسْلاَم، فقُوبل أَوّل الأَمْر بالسُّخريَة وَالإِستهزَاء، فَصَبر وَمَضىٰ فِي دَعوَته، وَٱنْتَشر الإِسْلاَم فِي مَكّة بَيْنَ جَمَاعَة مِن الرِّجَال وَٱلنِّسَاء، فَاشتَدّ غَضَب الأَشرَار، وَٱجْتَمعَت كَلمتهُم عَلَىٰ إِيذَاء مَن أَسلَم بكُلّ أَلوَان التَّعذِيب وَالتّنكِيل. وَحَاولُوا إِغرَاء النَّبيّ بالمُلك وَالمَال، وَلكنّه رَفَض بحَزم وَصَلاَبَة، فَلَجأوا إِلَىٰ الحصَار وَالمُضَايقَة، وَتَعاقدُوا فِيمَا بَيْنَهُم أَنْ يُقَاطعُوا النَّبيّ وَأَهلَه والَّذِين مَعَهُ إِقْتصَاديَّاً وَإِجْتمَاعيَّاً... وَٱستَمر الحصَار فِي الشِّعب ثَلاَثَة أَعوَام حَتّىٰ ٱشتَدّ البَلاَء وَالجُهد بالمَحصُورِين، وَتَعَالَت أَصوَات الصِّبيَان بالبُكَاء، وكَانُوا

يأكلُون وَرَق الشَّجر المُرّ... وَرَوىٰ بَعْض مَن كَان مَع النَّبيّ فِي الحصَار: أنّه وَجَد قِطعَة جِلد جَافّة فَبَللهَا بالمَاء، وَوَضعهَا عَلَىٰ النَّار وَأكَلهَا[١].

وَرَغم ذَلِكَ ٱزدَاد ٱلْمُؤمِنُون إِيمَاناً بالله وَرَسُوله، وَبَان الحَق لاَ بُدّ أَنْ يَنْتَصر، فَعَزم الطُغَاة عَلَىٰ إغتيَال مُحَمَّد مُجْتَمِعين بضَربَة رَجُل وَاحد كَي يَتفرق دَمَه فِي القَبَائِل... وَلَكن الله سُبْحَانَه هَدَم بنيَانهُم مِن القَوَاعد... وَهَاجر النَّبيّ ﷺ إِلَىٰ المَدِينَة[٢]، فَجَمعُوا الجيُوش لهُ، وَأَعلنُوا عَلَيهِ حَرباً مُنظمَة، وَظَلُوا يُقَاتلُونَه زهَاء عَشر سنِين... وَرَد الله الَّذِين كَفرُوا بغَيظِهِم[٣]... وَبَعد العَجز وَاليَأس ٱستَسلمُوا صَاغرِين... هَكَذَا أَرَاد الله، وكَان لهُ مَا أَرَاد... وَهَكذَا سَارَت دَعوَة الإِسْلاَم وَحيَاة الدَّاعي وَصحَابَته: يَنْصرُون الله، وَالله يَنْصرهُم وَفَاء بوَعدِه، وَعمَلاً بقَولَه: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾[٤].

---

(١) أنظر، تَأريخ اليَعقُوبي: ٢ / ٣١، تَأريخ الطَّبري: ٢ / ٧١، البِدَاية وَالنّهَاية: ٣ / ١٢٠، السِّيرَة النَّبوِّية لِابْن هِشَام: ١ / ٢٥٣، السِّيرَة النَّبوِّية لِابْن كَثِير: ٢ / ٦٨، سُبل الهُدىٰ وَالرَّشَاد: ٢ / ٤١٤.

(٢) أنظر، شوَاهد التّنزيل لِلْحَاكِم الحَسكَاني: ١ / ١٢٣ ح ١٣٣، والثّعلبي فِي الكَشف والْبَيَان: ١ / ١١٧، وَالرّازي فِي تَفْسِيره: ٢ / ١٥٢، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ١ / ٧٨٩، المُستَرشد فِي إِمَامَة أَمِير الْمُؤْمِنِينَ: ٤٣٣، الخَصَائِص لِابْن البطرِيق: ٩٨، كَشف اليَقِين: ٩٠، تَذكرَة الخواصّ لِسِبط أبن الجَوري: ٤٠، تَأرِيخ اليَعقُوبي: ٢ / ٣٣، الطَّرائف لِابْن طَاوس: ٤٠٧، كفَاية الطَّالب: ١١٥، يَنَابِيع المَوَدَّة: ١٠٥.

(٣) أنظر، السِّيرَة النَّبوِّية لِابْن هِشَام: ٥ / ٧٨، فَتح البَاري: ٧ / ٢٨٠، تُحفَة الأَحوَذي: ٥ / ٢٦٣، شَرح الزَّرقَاني: ٢ / ٥٣٢، تَفْسِير القُرطُبي: ٤ / ١٩١ و ٢١٤، مُسْنَد أَبي عوَانة: ٤ / ٣٦٥، الكَامِل لِابْن الأَثِير: ٢ / ١١٦، السِّيرة الحَلبية بِهَامش السِّيرة النَّبَويَّة: ٢ / ١٤٣، تَأرِيخ دِمشق: ١ / ١٤٣ / ٣٠٢، تَفْسِير أَبن كَثِير: ٤ / ٣٧٠، صَحِيح البُخَاري: ٤ / ١٥١٦ ح ٣٩٠٦، المُستَدرك عَلىٰ الصَّحِيحَين: ٣ / ٥٩٤ ح ٦٢٠٣، مَجمع الزَّوائد: ٦ / ١٤٢.

(٤). مُحَمَّد: ٧ ـ ٨.

لماذا عفا محمّد ﷺ عن ألدّ أعدائه:

يبقى هَذَا السُّؤال: وَمَاذَا فَعَل النَّبيّ ﷺ بأعدائه حِينَ تَمَكن مِن رقَـابِهِم ؟ . . . وَقَد وَجّه النَّبيّ نَفْسَه هَذَا السُّؤال إِلَىٰ الَّذِين ٱستَسلمُوا بَعد أَنْ قَاومُوا وقَالَ لَهُم: يَا مَعْشَر قُرَيْش مَا تَظنُون أَنّي فَاعِلٌ بِكُم ؟ .

قَالُوا: خَيراً، أَخ كَرِيم، وَٱبن أَخ كَرِيم.

قَالَ: إِذْهَبُوا فَأَنْتُم الطُّلقَاء[1].

مَا هَذَا ؟ هَل هُو رَحمَة، أَم أَريَحيَة ؟ .

كَلّا، أَنَّه سمُو المَبدَأ، وَشَرف المَقصَد، وَخُلق المُصلح الَّذي لاَ يَـفْعَل الفِـعل بوَحي مِن منَافعِهِ، أَو دَافع مِن أَغرَاضَه . . . لَقَد أَرَاد النَّبيّ ﷺ بهذَا العَفو أَنْ يُـفهِم الأَعدَاء وَالعَالَم كلّه أَنّه لاَ يَبتَغي مِن وَرَاء النَّصر عَلَىٰ مَن يَرُوم قَتْله وَتَـدمِيرَه إِلاَّ إِحقَاق الحَقّ وَإِزهَاق البَاطل، فَإِذَا تَمَّ ذَلِكَ وَتَحقَّق فَلاَ تَشفي وَشمَاتة، وَلاَ تَقتِيل وَتَنكِيل . . وَلَيْس مِن شَأنَه وَشِيمَته أَنْ يَستَذل أَحداً حَتَّىٰ وَلَو كَان أَلَدّ أَعدَائه، لأَنَّ هَذَا الخُلق لاَ يَجتَمع بحَال مَع نَزَاهَة الهَدف، وَالإِخلاَص للمَبدَأ ومِن هُنَا تَجَاوب مَع الدَّعوَة وَالدَّاعي كُلّ مَن عَرَف مُحَمَّداً عَلَىٰ حَقِيقَته، وَدَرَس سِيرَته بحثاً عَـن الحَقّ لوَجه الحَقّ.

---

(١) أنظر، تفسير القرطبي: ٩ / ٢٥٨، سُنن البيهقي الكُبرىٰ: ٩ / ١١٨، مُسند الرَّبيع: ١ / ١٧٠ ح ٤١٩، الجَامع الصَّغير: ١ / ٢٢٠ ح ٣٦٨، نوَادِر الأُصُول فِي أَحَادِيث الرَّسُول: ١ / ٣٢٥، فَتح البَاري: ٨ / ١٨ ح ٤٣٨، فَـيض القَـدِير: ٥ / ١٧٥، الثِّـقَات: ٢ / ٥٦، الإِصَـابَة: ٣ / ٢١٣، الأُمّ: ٧ / ٣٦١، تَأرِيـخ الطَّبري: ٢ / ١٦١، السِّيرَة النَّبويَّة: ٥ / ٧٤.

الرّسَالَة وَالرّسُول قَبل الإِسْلَام:

آخْتَلف القَصَّاصُون القُدامىٰ فِي عَدَد الأَنْبِيَاء، فَمن قَائِل: ثَلاَثمئَة وَثَلاَثَة عَشَر نَبيَّاً، وقَائِل: مِئَة وَأَرْبَعَة وَعشرُون أَلفاً[1]، وقَالَ آخر: مليُون وَأَرْبعمِئَة وَأَربَعَة وَعشرُون أَلفاً. وَلاَ أَدري: كَيف تَمَّ هَذَا الإِحْصَاء، وَالله سُبْحَانَه يَقُول لنَجيّه: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[2].

وَمَهمَا يَكُن فَنَحنُ غَير مُكلفِين بالبَحَث عَن عَدَد الأَنْبِيَاء وَعِدّتهم، وَيَكفِينَا الإِيمَان عَلَىٰ سَبِيل الإِجمَال بمَا جَاء فِيهم مِن آيَة قُرآنيَة أَو سُنَّة نَبويَّة.

وَمَن تَتَبع آي الذِّكر الحَكِيم يَجد أَنَّ رِسَالَة كُلّ نَبيّ - غَير مُحَمَّد - تقف عَلَىٰ قَومَه فَحسب، أَو عَلَىٰ أَهْل زَمَانه، وَلاَ تَتجَاوزهَا إِلَىٰ جَمِيع العَالمِين مِن بَعدَه، بَل أَنَّ رسَالَة بَعْض الأَنْبِيَاء كَانَت مَقصُورَة فِي مَضمُونها عَلَىٰ مُحَاربَة الأَصنَام، وَعِبَادَة الله وَحدَه لاَ شَرِيك لَهُ، كَمَا تُومِيء الآيَة: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ﴾[3].

وَمِثلهَا رسَالَة هُود، وَصَالح كمَا فِي الآيَة: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[4]. و: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ

---

(١) أنظر، مَجْمَع الزَّوَائِد: ١ / ١٥٩، فَتْح البَاري: ٦ / ٢٥٦، البَحر الرَّائِق: ١ / ٢٨٣، الخِصَال: ٢ / ٦٤١ بَاب مَا بَعْد الأَلف، الأَمَالي: ٣٠٧ المَجلس ٤١ ح ١١، الكُلَيْنِيّ فِي الكَافِي: ١ / ٢٢٤ بَاب أَنّ الأَئِمَة ورَثوا عِلم النَّبيّ ﷺ ح ٢. عَنهُ البُرهَان: ٧ / ٢٠٠ ح ٢.

(٢) غَافِر: ٧٨.

(٣) الأَعرَاف: ٨٥.

(٤) الأَعْرَاف: ٦٥.

ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١].

عُمُوم الرّسَالَة المُحَمّدِيَّة:

أَمَّا رسَالَة مُحَمَّدﷺ فقَد خَاطَبَت كُلّ إِنْسَان أَينما كَان، وَمَتىٰ يَكُون، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[٢]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[٣].

أَمَّا مَبَادِيء رسَالَة مُحَمَّدﷺ فَإنّهَا تَتّسع للْحَيَاة الإِنْسَانيَّة مِن شَتّىٰ جوَانبهَا، وَفِي جَمِيع مَرَاحلهَا؛ لأَنَّهَا تُلغي كُلّ مَا هُو خَاصّ بزَمَان أَو مَكَان، وَعُنصريّة، أَو طَبقيَّة، وَلاَ تُبقي إِلاَّ النَّافع الصَّالح فِي كُلّ عَصْر وَمَصْر: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٤].

أَيّة أَرْض فِي الشّرق أَم فِي الغَرب، فِي القَدِيم أَم الحَدِيث.

وَمِن البُرهَان عَلَىٰ ذَلِكَ أَوّلاً: إِيمَان الإِسْلاَم بالعَقْل، وَثِقَته بقُدرَته عَلَىٰ مَعْرفَة الحَقِيقَة.

ثَانِيَاً: إِيمَانه بالعِلْم وَالحَثّ عَلَىٰ طَلَبه، وَالتّنديد بالتّقلِيد وَالمُتَابعَة العَميَاء.

ثَالثَاً: إِيمَانه بالجُهد وَالعَمل لحَيَاة أَرقىٰ وَأَقوَم.

رَابعَاً: إِيمَانه بالعَدل، وَالحُرّيّة، وَالمُسَاوَاة، وَبالثّورَة ضِدّ الجَهل، والظُّلم

---

(١) ٱلْأَعْرَاف: ٧٣.

(٢) ٱلْأَعْرَاف: ١٥٨.

(٣) ٱلْأَنبيَاء: ١٠٧.

(٤) ٱلرَّعد: ١٧.

والاِسْتغلال، وَكُلّ مَبدأ مِن هَذِهِ المَبَادِيء يُسقط مَا هُو خَاصّ، وَيَستَبقي مَا هُو عَام، وَمُشَاع بَيْنَ كُلّ النَّاس.

وَأَيضاً مِن مَظَاهر الإِنْسَانيَّة الشَّامِلَة فِي رسَالَة الإِسْلاَم، الجَمْع بَيْنَ الدُّنْيَا وَالدِّين، وَجَعل الدُّنْيَا مَطيَّة للآخرَة، وَوجُوب الإِيمَان بكُلّ نَبيّ وَرَسُول دُون فَرق فِي ذَلِك بَيْنَ أَحد مِنْهُم... وَيَحمل هَذَا الإِيمَان مَعنىٰ عرفَانْ الجَمِيل لجُهد كُلّ كَرِيم، وأَيضاً مِن مَظَاهر شمُول الرّسَالَة وجُوب التَّعاون مَع كُلّ فِئَة وَجهَة عَلَىٰ خِدمَة الإِنْسَان وَمَصلَحته، وَقَد حَدّد مُحَمَّد ﷺ رسَالَته وَتَكَاملهَا دُون سَائِر الرّسَالاَت، وَصَوّرهَا بأَبلَغ صُورَة وَأَكملها حَيثُ قَالَ: «إِنّمَا مثْلي وَمَثل الأَنْبِيَاء قَبْلي كمَثَل رَجل ٱبْتَنىٰ بُنيَاناً فَأَحسنَه، وَأَكمَله إلاّ مَوضع لَبنَة مِن زَاوِيَة مِن زَوَايَاه، فَجَعل النَّاس يَطيفُون بِهِ، وَيَعجبُون مِنْهُ، ويَقُولُون: هَلَّا وَضَعتَ هَذِه اللّبنَة. فَأَنَا اللّبنَة، وَأَنَا خَاتم النَّبِيِّين»[1].

هَذِهِ اللّبنَة المُكَمِّلَة:

وَهَذِهِ اللّبنَة المُكَملَة لصَرح التَّعَاليم الإِنْسَانيَّة، إِنْ هِي إلاّ كنَايَة عَن شمُول الرّسَالَة المُحَمّديّة، وأَنَّها تتجَاوب بمَبَادئها مَع مَطَالب ٱلْحَيَاة فِي كُلّ العصُور وَالأَمْكنَة، وفِي جَمِيع الحَالاَت تَمَامَاً كَالذي يَبْني دَارَاً تَصلح للسَكَن فِي كُلّ الفُصُول وَالعُصُور.

(١) أُنظر، صَحِيح البُخَارِيّ: ٤/ ١٦٣، مُسْنَد أَحمَد: ٢/ ٢٥٦ و ٣١٢، صَحِيح مُسْلِم: ٧/ ٦٤، فَتح البَاري: ٦/ ٤٠٧، السّنن الكُبْرىٰ: ٦/ ٣٤٦، نُظم دُرَر السّمطَين: ٥٣، مُسْنَد الشَامِيِّين: ٤/ ٢٦٦، سُبل الهُدَىٰ والرّشَاد: ١٠/ ٣٠٢، مَع إختلاَف يَسِير فِي مُسْنَد أَحمَد.

وإذَا قَالَ قَائِل: أنَّ مَا يَصْلَح لعَصر مَضىٰ لاَ يُمْكن تَطبِيقه عَلَىٰ عَصْر أتىٰ وَيَأتي، لأنَّ كُلّ شَيء فِينَا وَحَولنَا يَتغيّر وَيَتحرّك، شِئنَا ذَلِكَ أم أبَينَا، وعَلَيهِ فَلاَ يُمْكن بحَال أنْ تَصلح شَريعَة وَاحدَة لكُلّ النَّاس فِي كُلّ الأَزمنَة وَالأَمكنَة، إذَا قَالَ هَذَا قَائِل قُلنَا فِي جوَابه:

أوّلاً: أنَّ التَّغيِّير وَالتَّبدِيل إنَّمَا هُو فِي الأفرَاد لا فِي المفَاهِيم.

ثَانِياً: أنَّ الإِسْلاَم قَد حَثّ عَلَىٰ العَمَل مِن أجل التَّطور وَالتَّحول، وَلَكن إلَىٰ الأَحسَن وَالأَقوَم، كمَا نَصّت الآيَة: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[1].

وَمَعنىٰ هَذَا أنَّ الإِسْلاَم مَع مَا يَنْفَع النَّاس فِي جَمِيع الحَالاَت، وَمَهمَا تَغيّرت الظُّرُوف وَالبيئَات.

وَلَيْس مِن شَكّ أنَّ الأَنْفَع وَالأَصلَح لجَمِيع النَّاس لاَ يَتحقّق وَلَن يَتحقّق إلاَّ مَع التَّعاون الشَّامِل الكَامِل، وَهَذَا النَّوع مِن التَّعاون لاَ يَتحقّق إلاَّ إذَا أُلغِيَت جَمِيع الحوَاجز وَالفَوَارق، وَامْتزَاج المَاضي بالحَاضر، وَالحَاضر بالمُستَقبل، وَالشَّرق بالغَرب، وَالأَسوَد بالأَبْيَض، وَعَاش الكِل تَحتَ رَايَة الوَاحد الأَحد بلاَ شيُوعيَّة... وَلاَ رَأسمَاليَة... وَلاَ وجُوديَة... وَلاَ برجمَاتيَة... وَلاَ صرَاع وَمُنَافَسَة... أبَداً لاَ شَيء إلاَ تَعَاون الكُلّ بإخلاَص لمَصلحَة الكُلّ... وَهَذَا هُو الأَسَاس الَّذي بَنىٰ عَلَيهِ الإِسْلاَم جَمِيع أحْكَامه وَتَعاليمه: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[2]، وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا

(١) ٱلإِسْرَاء: ٩.
(٢) ٱلْمَائِدَة: ٢.

ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1].

دعوة مُحمَّد بنفسها دَليل:

وَبَعد، فَإِنَّ خَير حُجَّة وَرَكِيزَة للإِيْمَان بنُبوّة مُحَمَّدٍ ﷺ هِي دَعوَاه بالذَات، وَمُجَرد قَوْله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[2]... أَلَم تَشْهَد الوَثَائق التَّارِيخيَّة القَاطعَة بأَنَّ مُحَمَّداً كَان كَاملاً فِي عَقْلِهِ، وَصَادقاً فِي قَوْله، وَأَمِيناً عَلَىٰ عَهْدَه وَنَزيهاً فِي قَصدَه، وَعَظِيماً فِي خُلقه؟.. وَإِذَن يَستَحِيل أَنْ يَدّعي النُّبوّة إلاَّ إِذَا ٱقْتَنع، وَلاَ وَلَن يَقْتَنع إلاَّ بالحِسّ وَالتَّجربَة، وَكَفَىٰ بتَجربَة مُحَمَّد ضمَاناً وَبُرهَاناً.

وَكُلّ النَّاس قَدِيماً وَحَديثاً يُطبقُون هَذَا المَبدأ عَلَىٰ كُلّ دَعوَة مُخلصَة وَنَزيهَة يَدّعيهَا عَالِم مُجرّب، وَأَمِين مُتثَبت... يَبْحَث العَالِم وَيُنَقّب حَتَّىٰ إِذَا أَدرَك الحَقِيقَة أَعلَنها عَلَىٰ النَّاس، فَيَتقبلُونهَا شَاكرِين أَمَانَة مَنقُولَة، وَيُدينُون بِهَا تَمَاماً كمَا تَقبلُوا «الجَاذبيَة» مِن نيُوتن، و «النّسبيَة» مِن إِينشتِين.. وَمِن الفَلَكي وَالجُغرَافِي، وَعَالِم الإِجتمَاع وَالنَّفس... وَمِن سيبَوَيه، وَنَفطوَية، وَٱبن درستوَيه إِلَىٰ غَير ذَلِكَ مِن الآرَاء وَالمُعتقدَات الَّتي نَتلقَاها بالتَّصدِيق عَن العُلمَاء الأُمنَاء دُون أَنْ نُجرّب كمَا جَربُوا، وَنَستَنبط كمَا ٱستَنبطُوا حَتَّىٰ وَلَو كَان ذَلِكَ مُمكنَاً لنَا وَمَقدُوراً.

وَأَختُم هَذَا الفَصْل بكَلمَة للدُّكتُور مُحمَّد سعَاد جَلاَل. وَهَذَا نَصّها بالحَرف الوَاحد:

«أَمعَن ٱلْقُرْءَان الكَرِيم فِي الإِسْتدلاَل بالمَصنُوعَات الكَونيَّة، وَظوَاهر الوجُود

---

(١) ٱلمَائِدَة: ٣٢.

(٢) ٱلشُّعَرَاء: ١٠٧.

المُتنوعَة فِي الأَرْض، والأَنْهار، وَالنَّبات، وَالسُّحب، وَالأَمطَار، وَاَخْتلاَف الأَلوَأَنْ. وَالأَلسنَة، وَالجِبَال، والنَّاس، وَالأَنْعَام وَغَيرهَا، وفِي السَّموَات وَالأَرْض، وَالشَّمس وَاَلْقَمَر، وَالنّجُوم، وَالمَشَارق وَالمَغَارب، مِمَّا حَفَل اَلْقُرْءَان بذِكرَه وَغَدا يُكَرّره وَيُعِيد تِكرَارَه دَائِماً.

فَلَفت نَظري ذَلِك وَتَسَاءَلت: أَنَّ الإِستدلاَل عَلَىٰ وجُود الله وَحِكمَته وَعِلمَه بمَظَاهر المَوجُودَات وَدلاَلتهَا هُو قمّة القِمَم فِي الفَلسَفَة الإِلٰهيَّة، وَالثَّقَافَة الدِّينيَّة العَقلاَنيَّة، وَإِنْ تَكرّر هَذَا الإِستدلاَل بصُورَة تُمثّل نهَايَة الإِمعَان وَالإِغرَاق، إِنَّ هَذَا ليَدل عَلَىٰ قَصد مَقصُود، وَبَاعث عَظِيم الوَعي لهَذَا الجَانب مِن الإِستدلاَل وَإِيقَاظ البَصَائِر وَالأَبصَار إِلَيهِ، وَلاَ يَكُون مُصَادفَة وَاَتّفَاقاً، وهُو عَمَل لاَ يُمْكن أَنْ يَصْدُر إِلاَّ عَن ثقَافَة فَلسفيَّة، وَدرَاسَات عِلميَّة مُتنوعَة، وَتَربيَة ذهنيَة مَنطقيَة للمُستَدل بهِ، فَأَين كَانَت نَشأَة مُحمَّدﷺ وَتَربِيَته مِن هَذَا الحسَاب كلّه، وهُو اليَتِيم الأُمّي المَنشَأ فِي بِيئَة جَاهليَة، وَأُمّة أُمّيَة؟.

لقَد كَان مِن المُستَحِيل عَلَىٰ مُحمَّدﷺ أَنْ يَلتَفت ذِهنَه بحُكم بِيئَته وَمُكوّنَاته الطَّبيعيَة وَإِنطبَاعَاته الإِجتمَاعيَّة وَالثَّقافيَّة، وأَنْ يَتّجه وَعيَه إِلَىٰ هَذَا الأُسلُوب النَّادر الخَفي الدَّقِيق فِي الإِستدلاَل بصُورَة تَدل عَلَىٰ شدّة القَصد وَقوّة الوَعي، كَان مِن المُستَحِيل أَنْ يَكُون ذَلِكَ لَو لَم يَكُن نَبيّاً يَتَلقىٰ وَحي ذَلِكَ المَنْهَج مِن السَّماء، ومِن لَدُن رَبّ العَالمِين، فَهَذَا المَنْهَج مِن الإِستدلاَل، وَصدُورَه عَمّن لاَ يَملك شرُوطَه ـ دَلِيل قَاطع عَلَىٰ صِدق صَاحبه حِينَما يَدّعي الوَحي وَالبَلاَغ عَن الله رَبّ العَالمِين»[1].

(١) أُنظر، جَرِيدَة الجمهُوريّة المَصريَّة (١٠ / ٧ / ١٩٧٣م). مَقَال، للدُّكتُور مُحمَّد سعَاد جَلاَل. (مِنهُ ﷺ).

كِتَاب الظَّاهِرَة ٱلْقُرْءَانِيَّة

مُفِيد وَلَكِن مُعَقَّد:

أَلَّف الكَاتب الجزَائِري الشَّهير مَالِك بن نَبيّ كتَابَاً فِي اللُّغَة الفَرنسيَّة، أَسمَاه الظَّاهِرَة ٱلْقُرْءَانِيَّة، وَتَرجَمه إِلَىٰ العَربيَّة الأُسْتَاذ عَبدالصَّبُور شَاهِين، وَالهَدف الأَوّل مِن الكِتَاب إِثبَات نُبوّة مُحمَّدﷺ بِمَنْطق الحِسّ وَالعَقْل، لاَ بِالنّصُوص وَالمُغيبَات، وَالأَسرَار وَالمُعجزَات... وَقَد أَنَار الطَّرِيق لكُلّ تَائِه وَحَائِر، وَأَفحَم كُلّ مُعَاند وَمُكَابر.

وَلاَ عَيب فِيهِ إِلَّا الغمُوض وَالتَّعقِيد... إِنَّه أُسلُوب عَتِيق، يَرجَع إِلَىٰ عَصْر مَا قَبل المَطَابع وَالجرَائِد، وَلَو كَان فِي أُسلُوب هَذَا العَصْر لكَانَت فَائدَته أَكمَل وَأَعَم. وَعَلَىٰ سَبِيل المثَال أَذكُر مِنْهُ هَذِهِ العِبَارَة: «أَنَّ إِنفرَاد النَّبيّ بكَونه الشَّاهد الوَحِيد عَلَىٰ الظَّاهِرَة يَخْلَع عَلَىٰ هَذِهِ الحَقِيقَة قِيمَة إِسْتِثنَائيَة خَاصّة».

وَالمَعنىٰ بِإِخْتصَار كَامل وَوَاضح أَنَّ النَّبيّﷺ عَلِم الوَحي بِطَرِيق الحِسّ وَالمُشَاهدَة وَهَذَا الطَّرِيق يَتعَذّر عَلَىٰ غير الأَنْبيَاء، وعَلَيهِم أَنْ يَبحثُوا عَن طَرِيق آخر لمَعرفَة الوَحي.

ومِن أَجل هَذَا رَأيتُ مِن المُفِيد أَنْ أَعْرض بَعْض أَفكَار الكِتَاب بِإِيجَاز وَبكَثِير مِن التَّصرف فِي الشَّكل دُون المُحتَوىٰ.

أزمَة خطِيرَة:

يَمرّ الإِسْلاَم والمُسْلمُون الآن بأَزمَة خَطِيرَة جداً... أَحدَثها وَأَثَارها عَدَد مِن شَبَابنَا المُسلم بالأَبوَين الَّذِين تَخرجُوا مِن جَامعَات أَجنبيَة، وَأَصرُوا عَلَىٰ تَردِيد الأَفكَار الَّتي زَكّاهَا أَسَاتذتهُم مِن غير تَمحِيص وَرَويّة... وَمَا كَان فِي هَـذَا مِـن بَأس لَو وَقَف عِندَ الحقَائِق العِلميَّة، أَو التَّقَالِيد العُرفيَّة «الأتيكيت» وَلَكن تَعدّاه إِلَىٰ الهوىٰ، وَالتَّعصب الصَّاخب وَالتَّمَستر بستَار العِلْم وَحُرّية الفِكْر، وَعَن هَـذَا الطَّرِيق تَوغل الإِلحَاد وَالتَّشكِيك فِي كُلّ تُرَاث إِسلاَمي وَعَربي إِلَىٰ دَرجَة كَبِيرَة.

ومِن المُؤلم أَنْ يُوجد إِلَىٰ جَانب هَؤُلاَء جمهُور يَنْتَمي إِلَىٰ الدِّين، وهُو يَحْمل أَفكَاراً خرَافيَة، وَعَقلاً مَشلُولاً عَن كُلّ تَقدّم! مِمَّا سَاعَد عَلَىٰ زَعزعَة الثّقة فِـي الدِّين وَأَهْلَه.

الظَّاهِرَة الدِّينيَّة:

أَظهَر عِلْم الآثَار أَنَّ الإِيمَان بالله قَدِيم بقِدَم الأَزمَان، فَمِن الكَعبَة إِلَىٰ كـهُوف العِبَادَة فِي العَصْر الحَجري، ومِنْهَا إِلَىٰ مَعْبَد سُليمَان، وَعَهد المَعَابد الفَخمَة، ومِن هَذِهِ المَعَابد أَشرَقت الحَضَارَات، وَأَزْدَهـرَت الجَـامعَات، وَدَارَت المُـنَاقشَات السِّيَاسيَّة، وَالعِلميَّة، وَالفَلسفيَّة، وأَيـضاً كُـلّ القَـوَانِـين، لاَهُـوتيَة فِـي أَصْـلهَا وَأَسَاسهَا، أَمَّا مَا يَطلقُون عَلَيهِ اسم القَانُون المَدني فَإِنّه دِيني فِي جَوهَرِهِ وَلاَ سِيَّمَا فِي فَرنسَا حَيْث تَعرّف الفَرنسيُون عَلَىٰ الشَّريعَة الإِسْلاَمِيَّة أَثنَاء حَملَة نَـابليُون عَلَىٰ مَصْر، وَاشتَقُوا مِنْهَا قوَانِينَهُم.

ما وراء الطبيعة:

المَادّة قَاصرَة قصُوراً ذَاتياً عَن خَلق نَفْسهَا، وعَن إيجَاد نظَامها وَتَركيبهَا، لأنّهَا عبَارَة عَن مُجرّد حوَادث مُتتَابعَة، كمَا قَالَ عُلمَاء الطّبيعَة، وبالتَالي فَإنّ المَادّة تَعْجز عَن تَزويدنَا بنَظرَة عِلميّة، أو فَلسفيّة عَن الخَلق وَمَا فِيهِ مِن تَطور وَنظَام.. وَإذن فَمِن الضّروري أَنْ نَفرض وجُود قوّة وَرَاء المَادّة، وَمُتميّزة عَنْهَا... وَهَذِهِ القوّة وَحدهَا هِي الّتي تَمدنَا بالتّفسِير الصَّحِيح لوجُود الكَون وَنظَامه، وَلكُلّ مَا تَعْجَز العُلُوم الطّبيعيّة عَن تَفْسِيره.

هَذَا مَا يَقرّه العَقْل الّذي يَربط المُسببَات بأَسبَابهَا، وَالنّتَائج بمُقدّمَاتها... أمّا المَادّيُون فَأنّهُم يَلجَأون إلَىٰ الصّدفَة حِينَ يَعْجَز العِلْم عَن التّفسِير، وَمَعنىٰ هَذَا أَنّ الصّدفَة هِي الإله المَعبُود للمَادّيِّين، وأَنّ الله سُبْحَانَه هُو إله المُؤمِنين.

وَكُلّما تَقدّم العُلمَاء اكتَشف العُلمَاء أَنّ وَرَاء ملاَيِّين السّنِين الضّوئيّة أَشيَاء وَحقَائق يَستَحِيل الوصُول إلَىٰ مَعرفتها بأَي طَريق.. وَحَسب المُؤمِن بالله أَنْ لاَ يَصْطَدم إيمَانه مَع مُكتشفَات العِلْم الحَدِيث... هَذَا إذَا لَم يُدِل ببَرَاهِين جَدِيدَة عَلَىٰ وجُود الله، وَيَزد الأَدلّة القَدِيمَة قوّة ووضُوحاً... وَالإختلاَل الرُّوحي هُو الّذي يَخلق الصّراع بَيْنَ العِلْم والدِّين.

مبدأ النّبوّة:

مُنذُ إبرَاهِيم الخَلِيل إلَىٰ مُحمّد ﷺ جَاء أَنْبيَاء كُثر وَخَاطبُوا النّاس بأسم الله الوَاحد الأَحد، وَقَالُوا: أَنّهُم مُرسَلُون مِن عِندَ الله ليُبلغُوا كَلمَته إلَىٰ خَلْقِهِ، كمَا

أَشَارَت الآيَة: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[١].

وَكُلّ ظَاهِرَة طَبيعيَّة كَانَت أَو إجْتمَاعيَّة إذَا تَكرّرت وَٱستَمرت بإنْتظَام ـ تُعْتبر شَاهداً عِلميّاً عَلَىٰ أَنّها حَقِيقَة ثَابتَة بالضَّرُورَة، وأَنَّ لهَا خَصَائصهَا وَمميزَاتهَا.

وإذَا دَرَسنَا حَيَاة الأَنْبيَاء نَجد أَنَّ مِن أَخصّ خَصَائِصهُم الكَمَال الجِسمي، وَالعَقلي، وَالخُلقي، وأَنَّ رسَالَة اللاَّحق مِنْهُم آمتدَاد لرسَالَة السَّابق فِي جَوهرهَا وَهَدفهَا، وأَنَّهُم مِن أَجلهَا كَانُوا فِي صرَاع دَائِم وَمَرير مَع قِوىٰ البَغي، وَالشَّر حَتَّىٰ قُتل مِنْهُم العَدِيد، وَشُرد آخرُون بَعد التَّعذِيب وَالتَّنكِيل، لاَ لشَيء إلاَّ فِي سَبِيل دَعوَة الخَير، والحَقّ، والعَدْل، وَالمُسَاوَاة، كمَا أَشَارَت الآيَة: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾[٢].

وَهَذَا يُؤدّي بنَا حَتمَاً إلَىٰ الإيمَان بصدقِهم وَأَمَانَتهم، كمَا هُو الشَّأن مِن شُهدَاء المَبدأ وَالعَقِيدَة، لاَ شَأن المُتهَوسِين وَأَربَاب الأَمْرَاض النَّفسيَّة.

ٱلقُرءَان الكَرِيم:

يَمتَاز الإِسْلاَم مِن بَيْنَ الأَديَان فِي العَالَم كلّه ـ بأَنّه الدِّين الوَحِيد الَّذي ثَبَت كتَابه السّمَاوي مُنذ اللّحظَة الأُولىٰ لوجُودَه، وَتَنَقّل طوَال أَربعَة عَشَر قَرنَاً دُون أَنْ يَتَعرض لأَدنىٰ تَحرِيف أَو رَيب، أَمَّا التَّورَاة فقَد وضعَت بَعد مُوسىٰ، وَالإنـجِيل بَعد عِيسىٰ بعَهد طَويل، وَنَالتهُما يَد التَّقلِيم وَالتَّطعِيم بإعترَاف الشُّرّاح والنَّاقِدِين

(١) ٱلأَحقَاف: ٩.

(٢) ٱلمَائِدَة: ٧٠.

مِن أَهَل الكتَابَين[١] . وَإِذَن فَلَيسَت هُنَاك أيّة مُشكْلَة بالنّسبَة إِلَىٰ ٱلْقُرْءَان، كمَا هُو الأَمْر بالقِيَاس إِلَىٰ التَّورَاة وَالإِنْجِيل. وَبهَذا نَجد تَفْسِير الآيَـة: ﴿إِنَّـا نَـحْنُ نَـزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[٢].

قَبلَ البِعثَة:

أَنَّ الخُطوَة الأُولىٰ إِلَىٰ الحُكم بأَنَّ نُبوّة مُحَمَّدﷺ حَق وَصِدق هِي أَنْ نَدْرُس نَفسيَته مِن حَيْث عَقْلَه وَإِخلاَصَه، لأَنَّهُما الأَسَاس الجَوهَري لكُلّ دَلِـيل يُـمْكن الإِعتمَاد عَلَيهِ فِي هَذَا المَوضُوع، وَلكَي نَخْرج بنَتِيجَة صَحِيحَة فَعَلينَا أَنْ نَنظُر إِلَىٰ حَيَاة مُحَمَّدﷺ فِي عَصْر مَا قَبل البِعْثَة، وَيَمتَدّ أَرْبَعِين سَنَة[٣]، وَعَصر الوَحـي، وَالبِعثَة، وهُو عبَارَة عَن ثَلاَثَة وَعشرِين عَامَاً[٤].

قَـضىٰ مُـحَمَّدﷺ حـوَالي خَـمْس سَـنوَات فِـي الصَّـحرَاء عِـندَ مُـرضَعَته «حَلِيمَة»[٥] وَكَان لهَا مَصْدَر خَوف وَسرُور، خَوف عَلَيهِ، وَسرُور بهِ، وَبَعد قَلِيل

---

(١) أُنظر، كِتَاب إِظهَار الحَقّ للشَّيخ رَحمَة الله الهِنْدي. (مِنْهُ ﵀).

(٢) ٱلْحِجْر: ٩.

(٣) أنظر، مُسْنَد أحمَد: ٣/ ٢٤٠ ح ١٣٥٤٣، مُسْنَد أَبِي يَعلى: ٦/ ٣١٩ح ٣٦٤٣، فَتح البَاري: ٧/ ١٦٤ح ٣٦٣٨، تُحْفَة الأَحْوَذي: ١٠/ ٦٧، التَّمهِيد لِابن عَبد البرّ: ٣/ ١٣، شَرح النَّووي عَلىٰ صَحِيح مُسْلِم: ١٥/ ٩٩، حلية الأَوْلِيَاء: ٣/ ٢٦٢، صَفوة الصَّفوة: ١/ ١٥٢، تَأْرِيخ الطَّبَرِيّ: ١/ ٥٢٦، مُسْتَدرَك الحَاكِم: ٢/ ٦٢٢، تَأْرِيخ أبن كَثِير: ٣/ ١٢٢.

(٤) أُنظر، صَحِيح البُخَاري: ١/ ٢٦، مُسْنَد أحمَد: ٣/ ١٨، كَنز العُمَّال: ١٢/ ٢٦٢ ح ٣٤٩٦١، الطَّبقَات الكُبرىٰ: ٢/ ٢٠٤، مَجْمَع الزَّوائد: ٩/ ٢٤، سُنن الدَّارمي: ١/ ٣٧، المُعْجَم الكَبِير للطَّبرانِي: ٢٢/ ٣٤٧.

(٥) أُنظر، الطَّبقَات الكُبرىٰ: ١/ ٣٣٧، تَأْرِيخ الطَّبريّ: ٢/ ١٥٧، المُعجَم الكَبِير للطَّبراني: ٢٤/ ٢١٢،

مَاتَت أُمّه آمنة[١]، فَضمّه جدّه عَبدالمُطّلب، وَمَا بَلَغ الثّامنَة مِن عُمْره حَتّىٰ مَات جَدّه[٢]، فَكَفَلَهُ عَمّه أَبُو طَالب[٣]، وَقَضىٰ مُحمَّد مَرحلَة الشَّبَاب دُون أَنْ يَـنزَلق

↔ الإستيعَاب: ٤ / ١٨١٢، تَأرِيخ دِمَشق: ١ / ٧٢، شَرح الهمزيّة نَقلاً عَن هَامش السِّيرَة الحَلبيّة: ٥٦، سِيرَة أبن هِشَام: ١ / ١٥٨ - ١٦٧، أَبُو الفتوح الرَّازيّ فِي تَفسِيرِه الكَبِير: ٤ / ٢١٠، التَّعظِيم وَالمِـنَّة للسُّيوطي: ٢٥، شَرح النَّهج، لِابْن أَبي الحَدِيد: ٣ / ٣١١، ذَخَائر العُقبىٰ: ١٦٥، تَهذِيب أَبن عَسَاكر: ٦ / ٣٩٠، فَتح البَاري: ١ / ٢٧، تَأرِيخ دِمَشق: ٢٣ / ٤٣١، مَجْمَع الزَّوَائد: ٥ / ٣٠٦.

(١) خَرجت بِهِ أُمّه إِلىٰ المَدِينَة لزِيَارَة أَخوَاله مِن بَني النَّجار أَي أَخوَال جَدّه عَبدالمُطلب فَمَرضت وَهِي رَاجعَة بِهِ، وَمَاتت وَدُفنَت بِالأَبوَاء. وَالأَبوَاء: قَريَة مِن أَعمَال المَدِينَة بَيْنَهَا وَبَين الجُـحفَة مِـمّا يَـلي المَدِينَة ثَلاَثَة وَعشرُون مِيلاً. وَقِيلَ: جَبل عَلىٰ يَمِين المَصْعد إِلىٰ مَكّة مِـن المَـدِينَة. أُنـظر، مُـعجَم البُلْدَان: ١ / ٧٩، المَعَارف لِابْن قُتَيبَة: ١٥٠، المَنَاقب لِابْن شَهرآشُوب: ٣ / ٤٣٧، السِّيرَة لِابْن هِشَام: ١ / ١٦٩، تَأرِيخ اليَعقُوبيّ: ٢ / ٦ و ٧، دَلاَئِل النُّبوَّة للبَيهقي: ١ / ١٨٣.

(٢) أُنظر، شَرح صَحِيح مُسْلم: ٩ / ١٤٠، و: ١٧ / ١٣٣، الدِّيبَاج عَلىٰ مُسْلم: ٣ / ٤٠٨ و: ٦ / ١٤٨، تَلخِيص الحَبِير لِابْن حَجر: ٤ / ٥٩٥، مُسْنَد أَحمَد: ١ / ٣٦٣ و: ٥ / ٨٩، السُّنن الكُبرىٰ: ٣ / ١٩٦، دَلاَئل النُّبوَّة للبَيهقي: ٢ / ١٥٣، سُنن الدَّارمي: ١ / ١٥ و ١٨ و ٣٦٧، مَجمع الزَّوَائـد: ٢ / ١٨٢ و: ٨ / ٢٩٨، البِدَاية وَالنِّهاية: ٦ / ١٤١ و: ٣٠٨، المُصنَّف لِابْن أَبي شَيبَة الكُوفِي: ٧ / ٤٣٣، صَحِيح أبن خُزَيمة: ٣ / ١٤٠، المُعجَم الكَبِير: ١٢ / ١٤٥ و: ٢٣ / ٢٥٥، الطَّبقَات الكُـبرىٰ: ١ / ٢٥٢، تَأرِيـخ دِمَشق: ٤ / ٣٩٠ و: ٧ / ٢٠٢، أُسد الغَابة: ١ / ٢٩، الكَامل فِي التَّأرِيخ: ٣ / ٢٨٨، تَهذِيب الكمَال: ١ / ٢٣٥، أُسد الغَابة لِابْن الأَثِير: ١ / ١٤، الشّفا بِتَعرِيف حقُوق المُصْطفىٰ، القَاضي عِيَاض: ١ / ٥٦.

(٣) أَصَابه ﷺ فِي السَّنَة السَّابعَة رَمَد شَدِيد، وَلمَّا مَرض جَدُّه عَبدالمُطلب مَرض المَوت أَوصىٰ بِهِ إِلىٰ عَمّه أَبي طَالب لفَخَامته وَكَونه شَقِيق أَبِيهِ عَبدالله فَأفْتَخر بِشَرف كفَالَته، وَتَربِيته ﷺ، وَكَان يَرىٰ مِنْهُ الخَير وَالبَرَكَة كَشِبع عِيَاله إِذَا أَكل مَعهُم وَعَدم شِبعهم إِذَا لَم يَأكُل مَعَهُم. وَنزُول المَطر الغَـزير حِـين أسْتَسقىٰ بِهِ لقَحط أَصَاب أَهْل مَكّة، وَسَافر بِهِ إِلىٰ الشَّام فِي تجَارة. فَلَمَّا نَزَل الرَّكب بُصرىٰ رَآه ﷺ رَاهب بِهَا يُقَال لهُ بُحيرَا، وَهُو فِي صَومَعته، وَكَان قَد أَنْتَهىٰ إِلَيه عِلم النَّصرَانيّة فَصَنع للقَوم طَعَاماً كَثِير لأَجله ﷺ، وَكَثِيراً مَا كَانُوا يَمرُون بِهِ فَلاَ يُكلمهُم وَلاَ يَعرض عَلَيهِم. ثُمَّ قَال لعَمّه أَرجع بِأبن أَخِيك، وَأحذَر عَلَيه مِن اليَهُود. فَلَمَّا فَرَغ أَبُو طَالب مِن تجَارته رَجَع مُسرعَاً إِلىٰ مَكّة. أُنظر، البِدَاية وَالنّهاية: ↔

فِي إِثم أَو شَهوَة مَع أَنَّ فُرَص الفَسَاد كَانَت وَافِرَة فِي مَكَّة، وكَان فِي أَعيُن قَومَه الصَّادِق الأَمِين[١]، وَهَذِهِ شهَادَة تَارِيخيَّة تُعطِينَا صُورَة مُفصَّلة وَثَمِينَة عَن نَفْسِيَته.

وفِي سِن الخَامسَة وَالعِشرين تَزْوّج خَدِيجَة[٢]، وَتَرَك هَذَا الزَّوَاج وَثَائِق قَيّمَة فِي سِيرَة مُحَمَّدﷺ مِنْهَا الخُطبَة الَّتي أَلقَاهَا عَمّه أَبُو طَالب فِي زَوّاج ابن أَخِيه حَيْث قَالَ:

↔ ٢ / ٣٤٥، الكَاشف: ٣ / ٢٦٤، تَقريب التَّهذِيب: ٢ / ٣٨٤، وَأَخرجَهُ أَبُو نَعِيم عَن الوَاقديّ عَن شيُوخه، وَذَكره ابن حَجر فِي الإِصَابة: ١ / ١٧٩، وَابن سَعد فِي الطَّبقَات: ١ / ١٢١، وَالسّيوطيّ فِي الخَصَائص: ١ / ٢٠٨، وَدَلاَئل النُّبوَّة: ١ / ٢١٥، و: ٢ / ٢٤، ابن هِشَام فِي السِّيرَة: ١ / ١٨٠، وَالتِّرمذيّ بِرَقم «٣٦٢٤»، وَالفتح: ١٠ / ٣٤٥، البِدَايَة وَالنِّهاية: ٢ / ٣٤٥، تَقريب التَّهذيب: ٢ / ٣٨٤، الإِصَابَة: ١ / ١٧٩، الطَّبقَات الكُبرىٰ: ١ / ١٢١، وَالسُّيوطيّ فِي الخَصَائِص: ١ / ٢٠٨، دَلاَئل النُّبوَّة: ١ / ٢١٥، و: ٢ / ٢٤، ابن هِشَام فِي السِّيرَة: ١ / ١٨٠، عُمدَة القَارِيء للعَيني: ٣ / ٤٣٤، المَوَاهب اللَّدُنيَّة: ١ / ٤٨.

(١) أُنظر، مُسند الشّهاب: ١ / ٧٥ ح ٦٨، أَمثَال الحَدِيث: ١ / ١٥٣ ح ١١٧، شُعب الإِيمَان: ٥ / ١٧٥ ح ٦٢٦٠، الفِردَوس بمَأثُور الخِطَاب: ٢ / ٥٥ ح ٢٣١٣، السِّيرَة النَّبوَية لِابن هِشَام: ٣ / ١٨٢، سُبل الهُدىٰ وَالرَّشَاد: ١ / ٤٧٨، تَارِيخ اليَعقُوبي: ٢ / ٨، تَارِيخ الطَّبري: ١ / ٥٨١.

(٢) أَوّل أَزوَاجه ﷺ: خَدِيجَة بِنت خُوَيلد بن أَسدٍ بن عَبدالعزّىٰ بن قُصيّ. تزوَّجها ﷺ قَبل الوَحي وَعُمره حِينئذٍ خَمسٍ وَعشرُون سَنَة، وَقِيلَ: إِحدىٰ وَعشرُون سَنَة. وكَانَ عُمرُهَا حِينَئذٍ أَربَعِين سَنَة، وَأَقَامت مَعهُ أَربعاً وعشرين سَنَة، وَلَم يَنكح عَلَيْهَا إِمرَأَةً حَتَّىٰ مَاتت. وَأُمّها: فَاطِمَة بِنت زَائِدَة بن الأَصمّ، مَن بَنِي عَامر بن لُؤي.

وكَانَتْ خَدِيجَة رَضي الله عَنهَا أَوسط نِسَآءَ قُرَيْش نَسباً، وَأَعظَمهنّ شرفَاً. تُوفيت بَعد أَبي طَالبﷺ بثلاَثة أَيّام. وَسمّىٰ رَسُول الله ﷺ ذَلِكَ العَام بعَام الحُزْن. (أُنظر، جوَامع السِّيرَة: ٣١، أُسد الغَابَة: ٧ / ٧٨، المعَارف لِابن قُتَيبَة: ١٣٢ تَحقِيق ثَروَة عكَاشة طَبْعَة قُم، السِّيرَة النَّبويَّة لِابن هِشَام: ١ / ١٨٩).

« أمَّا بَعْد ، فإنَّ مُحمَّداً مِمَّن لاَ يُوزَن بِهِ فَتىً مِن قُرَيْش إلَّا رَجَح بِهِ شَرَفاً وَنُبلاً ، وَفَضلاً وَعَقلاً ، وإنْ كَان قُلاً فَإنَّ المَال ظِل زَائِل ، وَعَارِيَة مُسترجعَة وَلهُ فِي خَدِيجَة بِنْت خُوَيلد رَغبَة ، وَلهَا فِيهِ مِثْل ذَلِكَ »[١].

وَهَذِهِ الكَلِمَات تَصلنَا تَمَامَاً بصُورَة الصَّادِق الأَمِين ، وَتَتَّفق مِن كُلّ وَجْه مَع الصُّورَة التَّأرِيخيَّة لبَطل أعْظَم مَلحمَة فِي العَالَم كُلّه .

وَكَان مُحمَّد أُمّيَاً ، وَعَاش فِي بِيئَة جَاهِلَة مُشركَة ... وَلَكنّه كَان حَنِيفَاً يُؤمِن بإله وَاحد ، وَقَد أتَاه هَذَا الإيمَان مِن إلهَام الفِطرَة ، وَصفَاء العَقْل ، وَمِن الورَاثَة عَن جَدّه البَعِيد إسمَاعِيل ، وَلَم يَكُن فِي مَقدُورِه أنْ يَحصَل عَلَىٰ أيّة مَعلُومَات مِن مَصدَر خَارِج ، وكَان يَمِيل إلَىٰ العُزلَة بخَاصّة بَعد زوّاجه .

وَلاَ شَيء عَلَىٰ الإطلاَق يُشِير ، وَلَو مِن بَعِيد ، إلَىٰ أنَّه كَان يَحلَم وَيُفكّر فِي أنْ يَكُون نَبيّ المُستقبَل ، بَل لَدَينَا شَاهد تَأرِيخي غَير قَابل للطّعن وَالتَّجرِيح ـ عَلَىٰ أنّه لَم يَكُن لَدَيه أدنىٰ أمَل فِي أنْ يَقُوم بدَور النَّبيّ ، وهُو قَوْله تعَالَىٰ : ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾[٢].

وَهَذِهِ الآيَة صُورَة صَحِيحَة وَصَادقَة لحَالَة النَّفس عِندَ مُحمَّد أيَّام غَار حِرَاء[٣] ، وَإذَن فَلَيس هُنَاك مِن سَبَب لأنْ يُنْسَب إلَىٰ الصَّادِق نيَّة مُبيّتَة لدَعوَة

(١) أُنظر ، صَفوَة الصَّفوَة : ١ / ٧٤ ، السِّيرَة الحَلبيَّة : ١ / ١٣٨ ، الرَّوض الأُنف : ٢ / ٢٣٨ ، المَعَارف : ١٦٧ ، السِّيرَة النَّبويَّة : ١ / ١٢٠ ، الوَفَا بأحوَال المُصطَفىٰ : ١ / ١٤٥ ، مُنيَة الرَّاغب : ٥٧.

(٢) ٱلْقَصَصِ : ٨٦.

(٣) أُنظر ، تَفسِير ابن كَثِير : ٢ / ١٣٨ ، صَحِيح مُسْلم : ٥ / ١٨١ ، كتَاب الهوَاتف لإبن أبي الدُّنيا : ١٦ ، صَحِيح ابن حِبّان : ١٤ / ٥١٧ ، شَرح النَّووي عَلىٰ صَحِيح مُسْلم : ١٢ / ١٥٥ ، الرَّوض الأُنف : ٢ / ١٦٨ ، شَرح الأزهَار : ١ / ١٢٠ ، تَلخِيص الحَبِير : ٧ / ٣ ، المُحلىٰ : ٥ / ١٠٥.

النُّبوّة، كمَا زَعَم بَعْض المُسْتَشرِقين وَالمُبَشرِين ضِدّ الإِسْلاَم.

وَالخُلاَصَة: أَنَّ جَمِيع صِفَات مُحَمَّدﷺ وَأَحوَاله قَبل البِعثَة كَانَت تُرشّحه للرّسَالَة الإِلٰهيّة، وَلكُلّ مَا حَدَث بَعد البِعْثَة دُون أَنْ يَشعر هُو بذَلِكَ.

وَقَد عَلِم الله والنَّاس هَذِهِ الصّفَات الجَليّة مِن الصَّادِق الأَمِين وَسَجّل سُبْحَانَه فِي كتَابِهِ العَزِيز بقَولَه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1]، وقَولَه: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2].

بَعْدَ البِعْثَة:

وَجَاءَت سِيرَة مُحَمَّدﷺ بَعْد البِعثَة ٱمتدَاداً لسِيرَته قَبلهَا كَمَالاً فِي العَقْل وَالإِدْرَاك، وَعَظمَة فِي الصّفَات وَالأَخلاَق، ذَلِكَ هُو الأَسَاس وَالخَطّ العَرِيض لأَقوَاله وَأَفعَاله فِي شَتّىٰ مَرَاحل حَيَاته، وَكُلّ مَا فِي الأَمْر أَنّه ٱخْتَفىٰ مِن مَسرَح التّأرِيخ قَبل البِعْثَة، وَظَهر بَعدَها كَالشَّمس فِي وَضَح النَّهار.

وَمَرّ مُحَمَّدﷺ بفَتْرَة عَصِيبَة، وَشَملهُ الْهَم وَالأَلَم بَعد أَنْ أَتمَّ الأَربَعِين مِن عُمره الشَّرِيف، ذَلِكَ أَنَّه سَمَع صَوتَاً يُنَادِيه وَيَقُول لهُ: ٱقْرَأْ.

فَقَال: مَا أَنَا بقَارِيء فَضَمّه حَتَّىٰ بَلَغ مِنْهُ الجَهد، ثُمَّ أَطلَقه.

فَقَالَ لهُ: ٱقْرَأْ.

فَقَالَ: مَا أَنَا بِقَارِيء فَضَمّه كَذَلَكَ ثُمَّ أَطْلَقه.

فَقَالَ لهُ: ٱقْرَأْ.

---

(١) ٱلأَنْعَام: ١٢٤.

(٢) يُونُس: ١٦.

فقَالَ : مَا أَنَا بِقَارِيء فَضَمَّه كَذَلَكَ ، ثُمَّ أَطْلَقه .

فقَالَ لهُ : ٱقْرَأْ .

فقَالَ : مَا أَنَا بقَارِيء فَضَمَّه كَذَلَكَ ثُم أَطْلَقه .

فقَالَ لهُ : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[١] .

فَوَقف حَائِرَاً لهَذهِ المُفَاجَأة ، وَهَب كَأنَّما مَسّته الحُمّىٰ ، وَفكّر مَلياً : مِن أَيـنَ جَاء هَذَا الصَّوت ؟ وهَل مُجرّد سَمَاعَه كَافٍ للتَّصدِيق[٢] ؟ .

أَبداً . . . لاَ يَأخذ مُحمَّد بالشُّبهَة ، وَلاَ يَجْزم باللَّمحَة ، وَلاَ يَثق إِلاَّ بالحُجّة البَالغَة وَالبَرَاهِين القَاطعَة ، كمَا هُو شَأن كُلّ عَظِيم يُسَيطر عَلَىٰ ذَاته ، وَيُقَدّر كُلّ خُطوَة مِن خُطوَاته بخَاصّة إِذَاكَان الأَمِين عَلَىٰ التَّنزِيل ، وَلَكن الصَّوت يُعَاوِدَه وَيَتكرّر . . . ثُمَّ يَظْهَر لهُ جِبريل عَلَىٰ هَيئَة رَجُل ، وَيَستَيقن النَّبيّ ، وَيَخشَع قَلبَه ، وَتـزُول الرِّيـبَة وَالحَيرَة . . . قَالَ أَهْل التَّفسِير : حِينَ نَزَلت هَذِهِ الآيَة : ﴿فَـإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَاتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[٣] .

---

(١) ٱلعَلَق : ١ ـ ٥ . وأنظر ، صَحِيح البُخَاري : ١ / ٣ ، مُسْنَد أَحـمَد : ٦ / ٢٣٣ ، فَـتح البَـاري : ١ / ٢٢ ، الدِّيبَاج عَلىٰ صَحِيح مُسْلم : ١ / ١٨٣ ، المُصنَّف لعَبدالرَّزَاق الصَّـنعَاني : ٥ / ٣٣٥ ، الذُّرِيَّـة الطَّـاهِرَة النَّبوِيّة : ٣٤ .

(٢) أنظر ، مُسْنَد أحمَد : ٣ / ٢٤٠ ح ١٣٥٤٣ ، مُسْـنَد أَبـي يَـعلى : ٦ / ٣١٩ ح ٣٦٤٣ ، فَـتح البَـاري : ٧ / ١٦٤ ح ٣٦٣٨ ، تُحفَة الأَحْوذي : ١٠ / ٦٧ ، التَّمهيد لِابْن عَبد البرّ : ٣ / ١٣ ، شَرح النَّووي عَـلى صَحِيح مُسْلِم : ١٥ / ٩٩ ، حـليَة الأَوْلِـيَاء : ٣ / ٢٦٢ ، صَـفوة الصَّـفوة : ١ / ١٥٢ ، تَأرِيـخ الطَّـبَريّ : ١ / ٥٢٦ ، مُسْتَدرَك الحَاكِم : ٢ / ٦٢٢ ، تَأرِيخ ٱبن كَثِير : ٣ / ١٢٢ .

(٣) يُونُس : ٩٤ .

فَعَقّب النّبيّ عَلَيهَا وقَالَ: لاَ أَشك وَلا أَسأَل[١].

وَلاَ شَكَّ أَنَّ هَذَا الإِقتنَاع وَاليَقِين بُرهَان مُبَاشر عَلَىٰ نُبوّة مُحَمَّد، لأَنّه لَمْ يَحْدث عَن حَدَس وَوَهم، بَل عَن حِسّ وَعِلم... عَلَىٰ أَنَّ هَـذَا الدَّلِـيل يَـصحبَه دَلاَئِـل كَثِيرَة، مِنْهَا الدَّلِيل التَالي:

إعجَاز ٱلقُرْءان:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[٢].

وَمَا ذَكَر التَّأرِيخ أَنَّ أَحداً قَد أَجَاب عَن هَذَا التَّحدي، وَمَعنىٰ ذَلِكَ أَنَّ إِعْجَاز ٱلقُرْءَان الأَدبي قَد أَفْحَم فِعلاً عَبقريَّة ذَاك العَصْر... هَذَا مُلَخصّ مَا قَـالَه عُـلمَاء المُسْلِمين.

وَلَكن لَدَينَا دَلِيل آخر، وهُو أَنَّ النَّفس البَدويَّة طَرُوب فِـي جَـوهَرهَا، وَقَـد تَجَلىٰ ذَلِكَ فِي تَعبِير مُوسِيقىٰ مَوزُون هُو بَيْت الشِّعر الَّذي ٱستَوحَاه العَرْب مِـن خُطوَة الْجَمَل القَصِيرَة أَو الطَّويلَة، وَٱلْقُرْءَان الكَرِيم عَبّر عَن هَذِهِ النَّفس البَدويَّة الطَّرُوب بصُورَة جَدِيدَة، وهِي النَّثر ٱلْقُرْءَاني الَّذي أَقصىٰ الشِّعر وَأَبـقىٰ الوَزن وَالمُوسِيقىٰ... وَهُنا يُكمُن سرّ الإِعجَاز الأَدبي[٣]. وَبهِ يُـفسّر قَـول الوَلِـيد بـن

---

(١) أُنظر، تَفْسِير جَامع البَيَان: ١١ / ٢١٨، المُصنَف لعَبدالرَّزاق الصَّنعَاني: ٦ / ١٢٦ ح ١٠٢١١، الأَذكَار النَّووِيّة: ١٢٨، تَفْسِير آبن كَثِير: ٢ / ١٧٣، تَفسِير الجَلاَلَين: ٢١٨، الدُّر المَنثُور: ٣ / ٣١٧، تـفْسِير الثَّعَالبي: ٣ / ٢٦٦.

(٢) ٱلبَقَرَة: ٢٣.

(٣) أَيضاً نَحْنُ لَدَينا وَجْه آخر أَشرنا إِلَيه فِي التَّفسِير الكَاشف: ٥ / ٤٣٧، وَيتلَخص بأَنَّ أُسلُوب الكَلاَم

المُغيرَة : « وَالله لَقَد سَمعتُ كَلاَمَاً مِن مُحَمّد مَا سَمعتُ مِثْلَه قَطّ ، وَالله مَا هُو بِالشّعر وَلاَ بِالكهَانَة »[١] . وَهُنَاك العَدِيد مِن الشّوَاهد عَلَىٰ أَنَّ كَثِيراً مِن بُلغَاء العَرب تَحولُوا مِن الشّرك إِلَىٰ الإِسْلاَم بِفعل هَذَا التَّأثِير .

هَذَا مِن حَيْث الشّكل ، أَمّا مِن حَيْث المَضمُون فَإِنَّ رَحَابَة المَوضُوعَات ٱلْقُرْءَانِيّة وَتَنوعهَا لشَيء فَرِيد فَهُو يَبدَأ حَدِيثَه مِن الذَّرة فِي الصَّخرَة ، وفِي الأَرْض وفِي السَّمَاء ، كمَا فِي الآيَة : ﴿يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[٢] ، ثُمَّ يَتَحدّث عَن النَّجم الَّذي يَسْبَح فِي فُلكهِ نَحو مُستَقرِه المَعلُوم ، وعَن الكَون وَمَا وَرَاءَه ، وعَن الإِنْسَان ، وَالأَديَان ، وَالعَادَات ، وَالأَخلاَق ، وَالتَّشرِيع ، وَالأُمَم المَاضيَة ، وَالقرُون الخَاليَة ... إِلَىٰ كَثِير ... وَأَمَام هَذَا المَشهَد العَظِيم وَقَف الفَيلسُوف « تُومَاس كَارليل » وَصَرخ مِن أَعمَاقه صَرخَة الإِعجَاب وَقَالَ : « هَذَا ٱلْقُرْءَان صَدىٰ مُتَفجّر مِن قَلْب الكَون نَفْسَه » .

فَهَل كَان عِندَ مُحَمَّد عِلْم الكَون كُلّ مَا فِي ٱلْقُرْءَان مِن عِلْم ، ثُمَّ جَمَعهُ فِي كِتَاب كمَا يَفْعَل المُؤلفُون وَالمُصنفُون ؟ ... كَلَّا ، أَنَّ عَبقريَّة الإِنْسَان مَهمَا بَلَغَت مِن العَظمَة فَإِنّهَا تَحمل بِالضّرُورَة طَابع الأَرْض ، تَخْضَع لقَانُون الزّمَان وَالمَكَان ، بَينَمَا يَتَخطىٰ ٱلْقُرْءَان دَائمَاً هَذَا القَانُون ... وَفَضلاً عَن ذَلِكَ لَو كَان ٱلْقُرْءَان مِن عِندَ مُحَمَّد ﷺ لتَحدّث فِيهِ كَثِيراً عَن نَفْسَه ، وعَن النَّازلَة الَّتي أَصَابَته فِي أَوج دَعوَته

↔ فِيهِ رُوح المُتَكلّم ، وَالله سُبحَانَه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ٱلشُّورَىٰ : ١١ . فَكَذَلكَ كَلاَمه . (مِنْهُ ﷺ) .

(١) أنظر . تَفسِير القُرطُبي : ١٥ / ٣٣٩ ، تَفسِير الطّبري : ٢٩ / ١٥٧ ، الإِعْتقَاد : ١ / ٢٦٧ ، السّيرَة النّبويّة : ٢ / ١٣٢ .

(٢) لُقمَان : ١٦ .

بفَقْد عَمّه أَبي طَالب، وَزَوّجَته خَدِيجَة، وَقَد كَان حَتَّىٰ آخر لَحظَة مِن حَيَاته يَبكِيهُما بخَاصّة إِذَا ذُكر اسم أَحدهمَا أَمَامَه، وَرَغم هَذَا لاَ نَجد أَي صَدىٰ لمَوتهُما فِي ٱلْقُرْءَان.

هَل أَخَذ مُحَمّدﷺ مِن التَّوراة وَالإِنْجِيل؟:

وَقَالَ قَائِل: أَنَّ مُحَمَّداً تَلَقىٰ تَعلِيماً شَخصيّاً وَمُبَاشَراً عَن التَّورَاة وَالإِنْجِيل!.

وَنَقُول فِي جوَابهِ:

أَوّلاً: أَنَّ الدُّكتُور بشَر فَارس تَسَاءَل فِي إِحدَىٰ الدّرَاسَات: هَل الإِسْلاَم مِن صُنع اليَهُود النَّصارىٰ؟

ثُمَّ أَجَاب: بأَنَّ الأَب لاَمَانس المَعْرُوف بعَدَائِهِ للإِسلاَم قَد نَفىٰ ذَلِكَ.

ثَانِياً: لَمْ يَكُن فِي عَهْد الرَّسُولﷺ أَيَّة تَرجَمَة عَربيَّة للتَّورَاة أَو الإِنْجِيل، وَلاَ كَان مُحَمَّدﷺ أَو غَيرَه مِن أَهْل مَكّة يَتّقن اللُّغَة العِبريَّة[1].

ثَالِثاً: أَنَّ ٱلْقُرْءَان تَحدّىٰ اليَهُود فِيمَا دَار بَيْنهُم وبَيْنَ مُحَمَّدﷺ وقَالَ لهُم: ﴿فَأْتُوا۟ بِالتَّوْرَىٰةِ فَاتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[2].

وَأَيضاً تَحدّىٰ أَهْل الكِتَاب بوَجه عَام فِي الآيَة: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[3].

فَأَينَ مَكَان الدَّلاَلَة عَلَىٰ السَّرقَات وَالفَلتَات... أَجل، أَخَذ ٱلْقُرْءَان مِن التَّورَاة

---

(١) وإِلَىٰ هَذَا تُشِير الآيَة: (١٠٣) مِن ٱلنَّحْل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) آلِ عِمْرَانَ: ٩٣.

(٣) ٱلصَّافَّات: ١٥٧.

هذه الآية التي رسمت لليهود هذه الصورة: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[1].

وأيضاً أخذ القرءان من الإنجيل هذه الآية: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾[2]؛ وهذه الآية: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3].

---

(١) ٱلْمَائِدَة: ٦٠.

(٢) ٱلْمَائِدَة: ٧.

(٣) آلِ عِمْرَانَ: ٧١ ـ ٧٢.

بَاقَة مِن حَدِيقَة الرَّسُول الْأَعْظَم ﷺ

رُبّمَا كَان الدّاء دَوَاء:

شَعَرتُ مُنذُ أَيَّام بِالمَلَل وَالعزُوف عَن القرَاءَة وَالكتَابَة... وَلَكنّي حِرتُ فِي أَمري وَتَسَاءَلتُ: بِمَاذَا أَلهُو وَأَسد الفرَاغ؟... وَأَين هُو المُحدّث اللّبق أَو المُسْتَمع الفَهِيم... وَالمُشكِلَة أَنّ الكِتَاب وَالْقَلَم هُمَا مُتعَتي الوَحِيدَة، وَمهْنَتي الأُولىٰ والأَخِيرَة، فَإِذَا تَعذرَا فَمَا عَسَىٰ أَنْ يَبقىٰ؟.

وَأَجَاب الإِمَام عَليّ عليه السلام عَن هَذَا السُّؤال بقولِهِ: «رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً، وَالدَّاءُ دَوَاءً»[1]. وَنَظم أَبُو نُوَاس هَـذِهِ الحِكمَة فَقَال: «وَدَاوني بِالَّتي كَانَت هِي الدَّاء»[2]. وَإِذَن لاَ طَرِيق إِلَىٰ الخَلاَص إِلاَّ بِالْقَلَمِ أَو الكِتَاب، وَاخْتَرتُ القِرَاءَة لأَنَّهَا أَيسَر مَؤونَة، وَأَكثَر مُتعَة.

وَلَكن مَاذَا أَقرَأ، وَلاَ جَدِيد عَليّ فِي مَكْتَبتي؟ وَهَل أُعِيد وَأُكَرّر مَا سَبق؟ كَيْف وَأَنَا هَارب مِن السَّآمَة وَالمَلاَمَة... وَبلاَ شَرْح طَوِيل أَو قَصِير فَقَد دَبرهَا سُبْحَانَه

---

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلرّسَالَة (٣١).

(٢) أُنظر، الدّيوَان: ٢٣١، شَرْح نَهج البَلاَغَة لِابْن أَبي الحَدِيد: ١٦ / ١٠١، وَصَدر البَيْت:

دَع عَنك لَومي فَإِنَّ اللّوم إِغـــرَاء

بلُطفه، وَأَلهمني إِلَىٰ السِّيرَة النّيرَة العَطرَة، سِيرَة المُصْطَفَىٰ وَالرَّسُول المُجْتَبىٰ... وَمَا أَنْ قَرَأتُ أَوّل سَطر وَقَعَت عَيني عَلَيهِ حَتَّىٰ عَبقَت رَائِحَة النُّبوّة، وَهَبّت أَنسَامهَا فِي قَلبي فَأَحيَته وَأَنعَشَته... وَأَقف هُنا عِند البَاقَة التَالِيَة مِن حَدِيقَة الرَّسُول الأَعْظَم.

مِن خلاله الجُلىٰ:

كَان النَّبيّ أَوَّل مَن يَجُوع وَآخر مَن يَشبَع، وكَان فِي طَعَامِهِ لاَ يَرد مَوجُوداً وَلاَ يَتَكلّف مَفقُوداً وَمَا عَاب طعَاماً قَطّ وإِذَا لَم يَجْده صَبَر حَتَّىٰ أَنَّه ليَربط حَجَر المَجَاعَة عَلَىٰ بَطْنه أَنّه كَان يَشدّ عَلىٰ بَطنِهِ حَجراً مِن المَجَاعَة[1]، وَصَلّىٰ مَرّة وهُو جَالس مِن شِدّة الجُوع، وَتُوفّي وَدرعَه مَرهُونة هَذَا[2]، وَثَروَة جَزيرَة العَرب طَوع بنَانه، وَلَكن مَا دَام فِيهَا جَائِع وَاحد فَعَلىٰ وَلي الأَمْر أَنَّ يُسَاويه فِي البَأسَاء وَالضَّرَاء وَإِلاَّ كَان مُغتَصباً لحقّه وَمُعتَدياً عَلَيهِ.

وَكَان يُحبّ النّظافَة وَحُسن المَظهَر، وكَان أَكثَر النَّاس ٱبْتسَاماً، وَلاَ يَتَكلّم إِلاَّ فِيمَا رَجَا ثوَابه مِن الله، وَمَا ذَم أَحداً، أَو عَيّره بشَيء أَو طَلَب لَهُ عَثرَة وَعَورَة، وَلاَ سَأَله أَحد حَاجَة إِلاَّ وَرَجع بِهَا أَو بمَيسُور مِن القَوْل، وَكَان يَصْبر عَلَىٰ جَفوَة السَّائل، وَلاَ يَقبَل ثَنَاء إِلاَّ مِن لكَافىء، وَلاَ يَقطَع عَلَىٰ أَحد كَلاَمَه إِلاَّ إِذَا تَجَاوز

---

(١) أنظر، مَجْمَع الزَّوَائد: ٨ / ٣٠٧، المُصَنَّف لِابْن أَبي شَيبَة: ٧ / ٣٧٧ح ٣٦٨١١، شَرح مَعَاني الآثَار: ٢ / ١٦، المُعْجَم الأَوسَط: ٣ / ٢٦٧، مُسْنَد أَحمَد: ٣ / ٤٤ح ١١٤١٩، الزُّهْد لِهنَّاد: ٢ / ٣٩٤ح ٧٦٥، فَتْح البَاري: ٦ / ٥٨٩، صَفوَة الصَّفوَة: ١ / ١٩٩، المُعْجَم الكَبير: ٢٥ / ١٠٦.

(٢) أَنظر، مَجْمَع الزَّوَائد: ٣ / ١٢٠، كَنز العُمَّال: ٦ / ٣٥٦ح ١٦٠٣٨، مُسْنَد أَحمَد: ١ / ٣٠٠، السُّنن الكُبْرىٰ: ٤ / ٧، تَركَة النَّبيّ ﷺ لحمَاد بن زيد البَغدَادي: ٧٦، البِدايَة والنِّهَايَة: ٥ / ٣٠٥.

فينهَاه أو يقوم، وإذَا دَخل عَلَىٰ قَوم قَعَد حَيْث يَنْتَهي بـهِ المَكَـان، وَيُـعطي كُـلّ جَلِيس حَقّه، بَل مَا جَالَس أحداً إلاَّ وَحَسب أنَّه أكرَم النَّاس عَلَيهِ، وإذَا بَلَغهُ عَن أحد مَا يَكرَه فلاَ يُسمّيه، وَيَكتَفي بقَوله: «مَا بَال أقوَام يَفعلُون كَذَا وَكَيت»[١].

لاَ تَغضبَه الدُّنْيا، وَلاَ مَا كَان فِيهَا، فَإذَا اَعْتَدىٰ عَلَىٰ الحَقّ لَمْ يَقم لغَضَبه شَيء حَتَّىٰ يَنْتَصر لهُ وَلاَ يَغْضَب لنَفْسه، وَلاَ يَنْتَصر لهَا، يُحَسن الحَسن وَيُقَويه، يُـقَبّح القَبِيح وَيَردَعه.

يضحك للنُّكتة:

كَان نُعيمَان الأَنْصَاري يُمَارس الدَّعَابَة، وكَان النَّبيّ يَبْتَسم كُلَّمَا رَآه، وفِي ذَات يَوْم جَاء أعرَابي إلَىٰ النَّبيّ، فَدَخل المَسجِد وَتَرَك نَاقَته بالقُرب مِنْهُ.. فَقَال بَعْض الصَّحَابَة لنُعيمَان: لَو نَحرتهَا، فَقَد مَضىٰ عَلَينَا أمَد لَمْ نَذق فِيهِ اللَّحم، وَالنَّبيّ يَدفَع ثَمَنهَا للأعرَابي، فَبَادَر نُعيمَان وَنَحرهَا، ثُمَّ أطلَق سَاقَيه مَع الرِّيح، وَلمَّـا خَـرَج الأَعرَابي ذَهَل مِمَّا رَأىٰ بنَاقَته، وَصَاح: وَاعَقرَاه يَا مُحَمَّد.

فَخَرج يَسأَل: مَا الخَبَر؟.

قَالُوا: نُعيمَان فَعَل مَا تَرىٰ يَا رَسُول الله، فَأمر بالبَحث عَنْهُ، وكَان قَد اَخْتَبأ فِي خَنْدَق، فَأَخرجُوه، وَجيء بهِ، فَقَال لهُ النَّبيّ: مَا حَمَلك عَلَىٰ هَذَا؟

قَالَ: الَّذِين وَشُوا بي هُم أغرَوني يَا رَسُول الله فَضَحك النَّبيّ، وَدفَع ثَمَن النَّاقَة.

كَان نُعيمَان يَشْتَري الأَطعمَة وَالفَاكهَة، وَيَأتي بِهَا إلَىٰ النَّبيّ وَيَقُول لهُ: كُل يَا

(١) أنظر، شرح النَّووي عَلىٰ صَحِيح مُسْلِم: ٣ / ٤٨، الدّيبَاج: ١ / ٨٠ ح ٥٨، فَيْض القَـدِير: ١ / ٦٣، البَيَان وَالتَّعرِيف: ١ / ١١، أَبجَد العُلُوم: ٢ / ٥٣٧.

رَسُول الله ، هِي هَدِيَة مِنّي إِلَيك ، إِذَا طَالَب صَاحب السّلعَة نُعيمَان أَخَذه إِلَىٰ النَّبيّ وقَالَ لهُ : أَعطه ثَمَن مَتَاعه . فيَقُول لهُ النَّبيّ : أَلَم تُهده لنَا ؟

فَيَقول لهُ نُعيمَان : بَلىٰ ، وَلَكن أَنتَ الَّذي أَكَلتهُ ، وَلَيس أَنَا ، فَـيَضحك النَّـبيّ ، وَيَدفَع الثَّمن[١] .

وَقَبّل رَجُل اَمرَأة أَجنَبيَة كَانَت مَارّة فِي طَرِيقهَا ، فَشَكتهُ إِلَىٰ النَّبيّ ، وَلمَّا سَأَلهُ اَعْتَرف وَقَالَ : مَرّها يَا رَسُول الله أَنْ تَقْتَص مِنّي . فَتَبَسّم النَّبيّ وَقَالَ : اَسْتَغفر الله ، وَلاَ تَعد إِلَىٰ مِثلَها .

فَقَال : لَن أَعُود يَا رَسُول الله ، فَتجَاوز عَنْهُ[٢] .

وَقَالَ لهُ أَعرَابي : بَلَغنا أَنَّ الدَّجَّال يَأتي النَّاس بالثَّرِيد ، وَقَد هَـلكُوا جُـوعَاً ، أَتَرىٰ أَنْ أَكُفّ تَعففُاً وَأَمُوت جُوعَاً ؟ .

فَضَحك النَّبيّ وقَالَ : يُغنِيك الله بمَا يُغني المُؤْمِنِين[٣] .

وَجَاءَه رَجُل مِن الصَّحَابَة ، وقَالَ لهُ : هَلَكت يَا رَسُول الله ؟ .

فَقَالَ لهُ : وَمَا هَلَكك ؟ .

قَالَ : وَقَعتُ عَلَىٰ أَهلي فِي رَمضَان .

قَالَ : هَل تَجد رَقبَة تَعتقهَا ؟ .

قَالَ : لاَ .

قَالَ : هَل تَستَطِيع إِطعَام ستِّين مِسكِيناً ؟ .

---

(١) أُنظر ، تَارِيخ مَدِينَة دِمَشق : ٦٢ / ١٤٦ و ١٤٧ ، أُسد الغَابَة : ٥ / ٣٦ ، الإِصَابَة : ٦ / ٣٦٦ ، الأَعلاَم : ٨ / ٤١ .

(٢) أُنظر ، بحَار الأَنوَار : ٦ / بَاب مزَاحه وَضحكَه . (مِنْهُ ﷺ) .

(٣) أُنظر ، مَنَاقب آل أَبي طَالب : ١ / ١٢٩ ، بحَار الأَنوَار : ١٦ / ٢٩٥ ، مُستَدرَك الوَسَائِل : ٨ / ٤١١ .

قَالَ : لاَ .

فَجَاء النَّبيّ بوعَاء مِن تَمر وَقَالَ : تَصَدق بِهِ .

قَالَ : وَالله ما عَلَىٰ وَجه الأَرْض مِن أَهْل بَيْت أَحوَج منّا .

فَضَحك النَّبيّ وَقَالَ : إِطْعمهُ أَهلَك . وَهَكَذا فَاز الرَّجل باللَّذتَين[١] .

أعْدَاؤهُ :

كَان الصّدق وَالْإِخلاَص عِدّة النَّبيّ وَدِرعَه الوَاقيَة ، وَكَان يُقَاوم قِوىٰ العتُو وَالبَغي بالصَّبر وَالْإِحتمَال ، وَالثّقة بالله وَالحَقّ . .

قَالَت لهُ زَوّجَته خَدِيجَة ، وهِي أَعرَف النَّاس بِهِ : : كَلاَّ أُبَشر فوَالله لاَ يُخزِيك الله أَبَداً إِنَّك لتَصل الرّحم ، وَتَصدُق الحَدِيث ، وَتَحمل الكَلّ ، وَتُقري الضَّيف ، وَتُعين عَلىٰ نوَائب الحَقّ . ثُمَّ أنْطَلقت بِهِ خَدِيجة حَتَّىٰ أُتيَت بِهِ وَرَقَة بن نُوفل[٢] هُو آبن عَمّ خَديجَة وَكَان آمْرأً تَنَصَّر فِي الجَاهليَة ، وَكَان يَكتُب الكتَاب العَربي ، وَفِي روَاية العِبرَاني فَيَكتُب بِالعَربيَة مِن الْإِنْجِيل مَا شَاء الله أَنْ يَكتُب ، وَكَان شَيخاً كَبِيراً قَد عَمِىٰ .

فَقَالت لهُ خَديجَة : يَا آبن العَمّ آسمَع مِن آبن أَخِيك ! .

---

(١) أنظر ، صَحِيح البُخَاري : ٢ / ٢٣٦ ، مُسنَد أَحمَد : ٢ / ٥١٦ ، المُحلىٰ لِابْن حَزم : ٦ / ١٩٠ ، السُّنن الكُبرىٰ : ٢ / ٢١٢ ح ٣١١٧ ، مُسنَد أَبي يَعلَىٰ : ١٠ / ٨٩ح ٥٧٢٥ ، دَعَائِم الإِسلاَم : ١ / ٣٧٣ .

(٢) أنظر ، مَجْمَع الزَّوَائد : ٩ / ٤١٥ ، سَألُوا رَسُول الله ﷺ عَن وَرَقة بن نُوفل ، فَقِيلَ : : يَا رَسُول الله كَان يَسْتَقبل القِبلَة ، وَيَقول : إِلٰهي إِلٰهُ زَيدٍ ، وَدِيني دِينُ زَيدٍ ، فَقَال : « رَأيتهُ يَمشي فِي بُطْنَان الجنَّة عَلَيه حُلَّةٌ مِن سُندسٍ » ، كمَا جَاء فِي دَلاَئل النُبوَّة ، لأَبي نَعِيم : ح ٥٥ ، تَأريخ الطَّبَريّ : ٥ / ٤٢ ، الطَّبَقَات الكُبْرَىٰ لِابْن سَعد : ٣/ق ١ / ٢٥٨ ، فتوح البُلْدَان للبَلاذُري : ٤٦٠ .

فَقَالَ لهُ وَرَقة : يا ٱبن أَخي ! مَاذَا ترىٰ ؟ فَأَخبر رَسُول الله ﷺ خبر مَا رَأىٰ .
فَقَالَ لهُ وَرَقة : هَذَا النَّامُوس الَّذي نَزَل علىٰ مُوسىٰ[١] . يَاليتني فِيهَا جِذعاً ، لَيتني أَكُون حَيّاً إِذَا يَخرجُك قَومك .

فَقَال رَسُول الله ﷺ أَومُخرجيّ هُم ؟ .

قَالَ : نَعَم . لَم يَأت رَجُل قَطّ بِمِثل مَا جِئتَ بهِ إلاَّ عُودِيَ ، وَإنْ يَدركني يَومك أَنصُرك نَصراً مُؤزواً ، ثُمَّ لَم يَنْشب وَرَقة أنْ تُوفّي ، وَفتر الوَحي فَترَة حَتَّىٰ حَزن رَسُول الله ﷺ حُزناً شَدِيداً ، وَكَان مُدَّة فترَته ثَلاَث سِنِين كمَا جَزَم بِهِ ٱبن إسْحٰق .
ثُمَّ نَزَل عَلَيه جِبرِيل بسُورَة : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَٱلرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[٢] .

وَإِذَا رَآه أَعرَابي قَالَ : مَا هَذَا الوَجْه وَجه كَذّاب ... وَلَكن أَعدَاءه قَالُوا : هُو سَاحر ، لأَنّه أَتىٰ بمَا عَجزُوا عَن الإِتيَان بمِثلَه ، وقَالُوا : مَجنُون ، لأَنّه سَفّه عقُولهُم ، وقَالُوا : كَاهن ، لأَنّه أَخبَر بالغَيب ... وَسُرعَان مَا ٱفتَضحُوا بأَكَاذِيبهِم وَأَضَالِيلهِم وَٱستَسلمُوا للحَقّ صَاغرِين .

كَان النَّبيّ يَوماً فِي المَسجِد ، والصَّحَابَة مِن حَولهِ ، يُحدّثهُم وَيَستَمعُون إِلَيهِ ، فَقَالَ لهُم مِن جُملَة مَا قَالَ : سَيَدخُل عَلَيكُم مِن هَذَا البَاب رَجُل مِن أَهْل الجنَّة ، وَمَا أَتَم كَلاَمه حَتَّىٰ دَخَل رَجُل مِن سَائِر النَّاس لاَ أَحد يَعرف لهُ سَابقَة تُذكَر ، فَتَعجب الصَّحَابَة ، وَتَسَاءلُوا فِي أَنْفسِهم : مَا الَّذي رَفَع هَذَا الشَّخص عَلَىٰ سوَاه ؟ وَبأَي شَيء إِستَحق هَذِهِ المَنزلَة وَالشّهَادَة مِن رَسُول الله ؟ .

---

(١) أنظر ، السِّيرَة النَّبويّة لِابن هِشَام : ١ / ٢٣٧ ، بِالإِضَافة إِلَىٰ المَصَادر السَّابقَة .
(٢) ٱلْمُدَّثِّر : ١ ـ ٥ .

فَتَقَصَّىٰ عَبدالله بن عُمر أَخبَاره، وَظَل يُرَاقبهُ أَيَّامَاً عَسىٰ أَنْ يَهتَدي إِلىٰ طَرِيقَه فَيَسلكَه... وَلَكن مَا وَجَده أَكثَر عِبَادَة وَعِلمَاً، وَلاَ جِهَاداً وَكَرمَاً مِن أَي رَجُل مِن الصَّحَابَة، فَذَهَل وَٱستَولَت عَلَيهِ الحَيرَة، وقَالَ للرَّجُل: أَنَّ رَسُول الله أَخبرنَا أَنَّك مِن أَهْل الجَنَّة، وَمَا رَأيتُ مِنكَ مَا تَمتَاز بِهِ عَمَّن سوَاك، فَمَا هُو السِّر؟.

قَالَ الرَّجُل: أَبدَاً لاَ سرّ وَلاَ شَيء وَرَاء مَا رَأَيت... أَجَل أَنّي لاَ أَحقد عَلَىٰ أَحد، وَلاَ أَحسد أَحداً عَلَىٰ خَيرٍ أَعطَاه الله لهُ.

قَالَ ٱبن عُمَر: هُنا يَكمُن السِّر[1].

أَجل، هَذَا هُو ثَمَن الجَنَّة فِي رِسَالة مُحَمَّد ﷺ: أَنْ لاَ تَحقد وَتَحسد، لاَ تُقلق وَتُنَافق، لاَ تَشمت بالمُصِيبَة، وَتَحسد عَلَىٰ النِّعمَة... أَمَّا العِبَادَة فَالحِكمَة مِـنْهَا التَّذكِير بالله، وَالْإِستعدَاد التَّام لطَاعَته، وَالكَف عَن مَعصِيَته، وَمَا عُصي الله بشَيء مِثْل الْإِسَاءَة إِلَىٰ عِبَاد الله وَعِيَالَه.

وفِي الحَدِيث أَنَّ النَّبيّ قَالَ لأَبي ذَرّ: كُفّ آذَاك عَن النَّاس فَـإِنَّه صَـدَقة عَـن نَفْسَك»[2].

وقَالَ الْإِمَـام أَمِير المُـؤْمِنِين ﷺ: «بِـئْسَ الزَّادُ إِلَـىٰ الْـمَعَادِ الْـعُدْوَانُ عَـلَىٰ الْعِبَادِ»[3]. وَمِن أَقْوَال الْإِمَام ﷺ: «أَسْوَأ النَّاس حَالاً مَنْ لَمْ يَـثِق بِأَحَـدٍ لسُـوء ظَنّه، وَلَمْ يَثِق بِهِ أَحد لسُوء فِعْله»[4].

(١) أنظر، كتَاب الصَّمت وَآدَاب اللّسَان لاَبن أَبي الدُّنيَا: ٩٤.

(٢) أُنظر، صَحِيح اَبن حِبَّان: ٨ / ١٧١ ح ٣٣٧٧، شُعب الأيمَان: ٦ / ١٠٦ ح ٧٦١٨.

(٣) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٢٢١).

(٤) أُنظر، كَنز الفوَائِد: ٢٨٣، بحَار الأَنْوَار: ٧٥ / ٩٣ ح ١٠٤، وفِي شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة لِابن أَبي ٱلْحَدِيد: ٢٠ / ٣١١، ورَدَت ٱلْحِكْمَة (٥٦٨) هَكَذا: «مَن لَمْ يَثِق لَمْ يُوثَق بِهِ».

وَقَالَ ﷺ : « وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ ، وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ ، وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ مَنْ تَعَدَّىٰ الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ ، وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَىٰ قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَىٰ لَهُ ، وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ سُبْحَانَهُ »[1] .

مَحْوُ الأمّيّة :

أَوَّل آيَة نَزَلت عَلَىٰ رَسُول الله : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[2] .

وَقَضىٰ النَّبيّ فِي أَسرَىٰ بَدْر أي يَطلق كُلّ أَسِير يُعلّم عَشراً مِن صِبيَان المُسْلِمين ، وَمِن الأُسّس الإِسْلاَمِيَّة وَأُصُولهَا وَجُوب التَّعلِيم وَالتَّعلم ، وَمَن أَهمَل وَقَصّر استَحق اللّوم وَالعِقاب[3] .

وَكَان فِي قَبِيلَة الأَشعريّين فُقهَاء ، وَلَكنَّهُم كَانُوا لاَ يَنفرُون إِلَىٰ مَن حَولهِم مِن القَبَائِل ليُفقهُوهُم فِي الدِّين . . . فَخطب النَّبيّ ﷺ النَّاس وقَالَ غَاضباً : « مَا بَال أَقوَام لاَ يُفْقهُون جِيرَانَهُم وَيُعلمُونهُم ؟ وَمَا بَال أَقوَام لاَ يَتعلمُون مِن جِيرانهُم وَلاَ يَتَفقهُون وَعَرف الأَشعريُون أَنَّ النَّبيّ يَقصدهُم بقَوله : « لاَ يُفْقهُون جِيرَانهُم » فَقَالُوا : يَا رَسُول الله لقَد ذَكَرتنَا بشَرّ : قَالَ : ليُعلمَنَّ قَوْم جِيرَانهُم ، أَو لأُعجَلنَّهُم

---

(١) أنظر . نَهج ٱلبَلاَغَة : مِن وَصيَةٍ لهُ ﷺ إلىٰ ٱبنِهِ الإِمَام الْحَسَن ﷺ رَقم الرِّسَالَة (٣١) .
وأنظر . قَرِيب مِن هَذا بِلَفظ : « القَرِيب مَن قرّبته الأَخلاَق » فِي الكَافِي : ٢ / ٦٤٣ ح ٧ ، وتُحف العُقُول : ٢٣٤ ، وَسَائِل الشِّيعَة : ١٢ / ٥٢ ح ٤ ، كَنز العُمَّال : ١٦ / ١٢٢ و ١٨١ ح ٤٤١٤٣ و ٤٤٣٩٢ ، تَأرِيخ بغدَاد : ٣ / ٣٠٨ ، عُيون الحِكم والموَاعظ : ٢٦٦ .

(٢) ٱلعَلَق : ١ .

(٣) أهملَت الدُّول الإِسْلاَمِيَّة هَذَا المَبدَأ وهُو مِن صَمِيم الإِسْلاَم عَلَىٰ رَغم مَا تَملك مِن ثَروَات وَطَاقَات ، وَلإِهمَال هَذَا الأَصل بالخصُوص ، وَغَيره عَلَىٰ العمُوم تَأخر المُسْلمُون عَن رَكب الحَيَاة ، وَتَسلط عَلَيهِم شرّ أَهل الأَرض الصَّهيُونيَّة وَالإِستعمَار . (مِنهُ ﷺ) .

بالعقوبة في الدُّنيا »[١] ... وأيًّا كان راوي هذا الحديث فنحن لا نشك في صدقه، لأنه قائم على أساس صلب ومتين في مكافحة الجهل والأمية.

القرآن يأسر القلب والعقل:

كان ثمامة بن أثال يعتز برياسته على قومه بني حنيفة، وكان يشتط ويفرط في عدائه للإسلام ونبيّه ... يؤلب عليه، ويسعى لقتله بكل سبيل، وكان النبيّ يدعو ربّه بأن يمكّنه من ثمامة ... وقد استجاب سبحانه دعاء نجيّه، وجيء بثمامة أسيراً إلى رسول الله، فأمر بحبسه في المسجد، ووكّل به بعض الصحابة، وكان النبيّ إذا دخل المسجد يوم المسلمين في الصلاة ـ يقترب من ثمامة ويقول له: مالك يا ثمامة؟ فيجيب: قد كان ذلك يا محمّد ... إن تقتل فإنّ ورائي قوماً، وإن تعف، تعف عن شاكر، وإن طلبت مالاً حملته إليك. وتكرّر السؤال من النبيّ كلّ يوم، والجواب واحد من ثمامة.

وكان النبيّ في كلّ مرّة يوصي بثمامة، وينصرف إلى الصلاة، ويتلو من آي الذكر الحكيم، والمسلمون خلفه يركعون ويسجدون، يستوي بينهم الصغير والكبير، والغني والفقير، وبعد الصلاة يتحلقون حول النبيّ يستمعون إليه بقلوبهم وعقولهم راجين خاشعين، كلّ ذلك وثمامة يسمع ويرى ويعجب من هذه الوحدة والإلفة، وهذه الروح القدسيّة التي تسيطر على الجميع، وكيف يساوي الدين الجديد بين الناس جميعاً لا سيّد ومسود ولا نسب وحسب، ولا جاه وثراء ...

---

(١) أنظر، مجمع الزوائد: ١ / ١٦٤، كنز العمّال: ٣ / ٦٨٤ ح ٨٤٥٧ و: ٩ / ٥٨ ح ٢٤٩٣، الترغيب والترهيب: ١ / ٧١ ح ٢٠٤.

وأيْضاً يُدهَش ثُمَامَة مِن حفَاوة الصَّحَابَة بالنَّبيّ، وَحبّهُم لهُ، يَفتَدُونه بالمُهَج والأرواح، وَالآبَاء وَالأبْنَاء!... وَفوق ذَلِكَ كَان ثُمَامَة مَأخُوذاً بِسحر القُرْءَان وإعْجَازه نَاسيَاً قَومَه وَأهلَه، وَذُله وَأسرَه، وَلَم يَعد يَشعر بشَيء إلاَّ بعَظَمَة الإسْلاَم وَنَبيّ الإسْلاَم وَصحَابَته.

فَحَاسَب نَفْسَه، وَندم عَلَىٰ مَا فَات، وَتَمنىٰ لَو كَان قَد سَبَق إلَىٰ الإسْلاَم وَجَاهَد أعدَاءَه بالنَّفس وَالنَّفِيس، أمَّا الآن فَلاَ يَتّبع مُحَمَّداً مِن مَوقف الأسر وَالضَّعف خَوفَاً مِن العَار، وأنْ يُقَال: مَا أسلَم بَل استَسلَم حِرصَاً عَلَىٰ حشَاشَته. وَقرَأ النَّبيّ مَا فِي نَفْس ثُمَامَة فقَال لَه: مَالك؟ فَأَبىٰ أنْ يَلِين وهُو أسِير وقَالَ: إنْ تَقتُل فَإنَّ وَرَائي قَومَاً، وَإنْ تعفُ، تَعفُ عَن شَاكرٍ.

فَقَال النَّبيّ: بَل عَفَوت عَنْكَ.

فَقَال ثُمَامَة: أمَّا الآن فَأَشهَد أنْ لاَ إله إلاَّ الله، وَأنّك رَسُول الله.

كَيفَ تَحوَل ثُمَامَة، وَانْتَقل بمَا يَشبَه الطَّفرَة مِن العدَاء إلَىٰ الوَلاَء، ومِن الكُفر إلَىٰ الإيمَان؟ أنَّهَا لظَاهرَة فَريدَة للوَهلَة الأُولىٰ، وَلَكن إذَا تَأمَلنَا قَليلاً اتَّضَح السَّبَب وَزَال العَجَب... أنَّ الحَقّ بطَبعِهِ يَأسَر القَلْب والعَقْل إلاَّ أنْ يَحول دُونَه حَائِل مِن الهَوىٰ وَالجَهل.. وَالحَائِل العَارض يَزُول لسَبب أو لآخر.... وَمَا تَنَكّر ثُمَامَة للإسلاَم ومُحَمَّدﷺ إلاَّ للجَهْل وَتَضلِيل الدّعَايَات الكَاذبَة وَبَعد أنْ شَاهَد ورَأىٰ ظَهر الحَقّ، وَأثّر أثَره وَأَسرَ قَلْبَه تِلقَائيَّاً ومِن غَير قَصْد[1]. وَصَدق عَلَيهِ

(١) أُنظر. قصّة ثُمَامَة فِي صَحِيح البُخَاري: ٤/١٥٨٩ ح ٤١١٤، تَفْسِير القُرطُبي: ١٢/١٤٣، تَفْسِير ابن كَثِير: ٤/١٧٤، تَفْسِير الطَّبري: ٢٦/٤٢، صَحِيح ابن خُزَيمَة: ١/١٢٥ ح ٢٥٢، صَحِيح ابن حِبَّان: ٤/٤٢ ح ١٢٣، موَارد الظّمآن: ١/٥٦٨ ح ٢٢٨١، مُسنَد أَبي عَوَانة: ٤/٢٥٧ ح ٦٦٩٦، مَجْمَع الزَّوَائِد: ١/٢٨٣، سُنَن البَيهقي الكُبرىٰ: ١/١٧١ ح ٧٧٧.

قَول الإمَام أَمِير المُؤْمِنِين عليه السلام: «مَا جَالَسَ هَذَا ٱلْقُرْءَان أَحَدٌ إلاّ قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ، أَوْ نُقْصَانٍ: زِيَادَةٍ فِي هُدىً، أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمىً. وَٱعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَىٰ أَحَدٍ بَعْدَ ٱلْقُرْءَان مِنْ فَاقَةٍ، وَلاَ لِأَحَدٍ قَبْلَ ٱلْقُرْءَان مِنْ غِنىً، فَٱسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ، وَٱسْتَعِينُوا بِهِ عَلَىٰ لأْوَائِكُمْ، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ: وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ، وَالْغَيُّ وَالضَّلاَلُ، فَٱسْأَلُوا اللهَ بِهِ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ، وَلاَ تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ بِمِثْلِهِ»[١].

وقَالَ مِن يَنْطُق بلُغَة الوَحي: «مِثْل مَا بَعَثني الله بهِ مِن الهُدىٰ وَالعِلْم كمَثَل غَيْث أَصَاب أَرضاً، فكَان مِنْهَا نَقيَّة قَبِلَت المَاء، فَأَنْبَتَت الكَلأَ وَالعُشب الكَثِير، وَكَان مِنْهَا أَجَادب أَمسَكَت المَاء فَنَفع الله بِهَا النَّاس، فَشَربُوا وَسَقُوا وَزَرعُوا، وَأَصَاب مِنْهَا طَائِفَة أُخرىٰ، إِنَّمَا هِي قِيعَان لاَ تَمسك مَاء، وَلاَ تَنْبُت كَلأً»[٢].

الرِّفق بالحَيوان:

كَان ﷺ يَسقي الهِرّة بِيَده، وَيمِيل لهَا الإنَاء لتَشرَب، وَرَأىٰ جَمَلاً هَزِيلاً فَقَال: أتّقوا الله فِي هَذِهِ البَهَائِم أَطعمُوهَا وَاركبُوهَا صَالحَة»[٣]. وَرَأىٰ فَرخ طَائِر فِي يَد

---

(١) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١٧٦).

(٢) أنظر، صَحِيح البُخَاري: ١/٤٢ ح ٧٩، تَفْسِير ٱبن كَثِير: ٢/٢٢٣، صَحِيح مُسْلِم: ٤/١٧٨٧ ح ٢٢٨٢، صَحِيح ٱبن حِبَّان: ١/١٧٧ ح ٤، مُسْنَد أَبي يَعلىٰ: ١٣/٢٩٦، السُّنَن الكُبرىٰ: ٣/٤٢٧ ح ٥٨٤٣، مُسْنَد البَزّار: ٨/١٤٩ ح ٣١٦٩، إعتِقَاد أَهل السُّنَّة: ١/٧٨ ح ٨٧، التَّرغِيب وَالتَّرهِيب: ١/٥٥ ح ١٢٢، شَرح النَّووي عَلىٰ صَحِيح مُسْلِم: ١٥/٤٦.

(٣) أنظر، المَجمُوع: ٤/٣٩١، تَأرِيخ المَدِينَة: ٢/٥٣٦، وَسَائِل الشِّيعَة: ١٦/٥٤٢ ح ١١، مَكَارم الأَخلاَق: ٢٩، مَنَاقب آل أَبي طَالب: ١/١٠٤، فَيض القَدِير شَرح الجَامع الصَّغِير: ٥/٢٤٧، كَشف الخَفَاء: ١/١٧٤ ح ٥١٧.

رَجُل وَأُمّه تَحُوم حَوله وَتُرَفرف فَغَضب وقَالَ: «أردُد إلَيهَا وَلدهَا».

وَمَرّت بهِ شَاة، وهُو يَأكُل الرَّطَب فَأَشَار إلَيهَا بالنّوىٰ، فَدَنَت وَأَطعمهَا بيَدَه ورَأىٰ كَلبَة مَع صغَارهَا فَأَمر برعَايَتها... وَعَلّق الكَاتب الإنجلِيزي (مونتجمري) عَلَىٰ هَذهِ الحَادثَة فِي كِتَاب مُحَمَّد ـ يَقُول: «هَذَا شَيء رَائع فِي ذَلِكَ العَصْر».

ومِن أَحَادِيثَه: «الرِّفق يُمن، وَالخَرق شُؤم[1]... أَنَّ الله رَفِيق يُحبّ الرِّفيق.. لَكُم فِي كُلّ كَبَد أَجر... المُثلَة حَرَام حَتّىٰ بالكَلب العَقُور[2]... أَنَّ للدابَّة عَلَىٰ صَاحبهَا ستُ خِصَال: (يَعلفهَا إذَا نَزَل عَنْهَا، وَيَعرض عَلَيهَا المَاء إذَا مَرّ بهِ، وَلاَ يَضرب وَجههَا، وَلاَ يَقف عَلَىٰ ظَهرهَا، وَلاَ يُحمّلهَا فَوق طَاقَتها، وَلاَ يُكلفهَا مِن المَشي مَا لاَ تَستطِيع... رُبّ دَابّة مَركُوبَة خَير مِن رَاكبهَا)[3]. وَهَكَذَا يُحرّم الإسْلاَم أذىٰ كُلّ ذِي نَفس إنْسَاناً كَان أَم حَيوَاناً.

وَكَان النَّبيّ ﷺ يُوصي زوّجتَه خَدِيجَة أَنْ تُعَامل جوَاريهَا كمَا لَو كُنّ حَرَائِر،

---

(١) أُنظر، كَنز العُمَّال: ٢ / ٥١ ح ٥٤٤٧ و ٥٤٤٨، الأَحكَام للإمَام يَحيىٰ بن الحُسَين: ٢ / ٥٣٧، الكَافِي: ٣ / ١١٩ ح ٤، تُحَف العُقُول: ٣٩٥. مِيْزَان الإعتدَال فِي نَقد الرِّجَال: ٢ / ١٩ ح ٧٨٣٤، التَّأريخ الكَبِير لِلبُخاري: ١ / ١٥٧ الرَّقم «٤٦٩». الكَامِل فِي التَّأريخ: ٦ / ١٨٨، التَّأرِيخ الصَّغير: ٢ / ١٦٢.

(٢) أُنظر، ذَخَائر العُقبىٰ: ١١٦، مَجمَع الزَّوائد: ٦ / ٢٤٩ و: ٩ / ١٤٢، المُعْجَم الكَبِير: ١ / ١٠٠ و: ١٢ / ٤٠٣ ح ١٣٤٨٥ و: ١٨ / ١٥٧ ح ٣٤٣ و ٣٤٥، البدَاية فِي تَخريج أحَاديث الدّرَاية: ٢ / ٣٨ ح ٤٩٨، نَصب الرَّاية: ٣ / ٢٢٤، المَبسوط للسَّرخسي: ٩ / ١٣٥، السِّير الكَبِير للشَّيباني: ١ / ١١٠ و: ٣ / ١٠٢٩، تَنزِيه الأَنْبِيَاء: ٢١٨. وهُنالك أحَادِيث كَثِيرة تَنهىٰ عَن المُثلَة كمَا جَاء فِي مُسْنَد أَحمَد: ٤ / ٢٤٦ و ٤٤٠ و: ٥ / ١٢، شَرح مَعَانِي الآثَار: ٣ / ١٨٣، السُّنن الكُبْرَىٰ: ٩ / ٦٩.

(٣) أُنظر، الكَافِي: ٦ / ٥٣٧ ح ١، دَعَائِم الإسلاَم: ١ / ٣٤٧، وَسَائِل الشِّيعَة: ١١ / ٤٨٠ ح ٦، مَكَارم الأَخلاَق: ٢٦٢، المَحَاسن: ٢ / ٦٢٧ ح ٩٦، الخِصَال: ٣٣٠ ح ٢٨.

وأنْ تُسمّي مَن تَملك الفتيَان والفتيَات بَدلاً مِن كَلمَة الجَوزاري والعَبيد.

وكَان يَشعر بحنَان خَاصّ نحو الأطفَال، فإذَا مَرّ بصِبيَة ٱبْتَسم لهُـم وأقـرأهُم السّلاَم، وتَحدّث إلَيهم وقَالَ: «خَيْرُكم خَيْرُكم لأَهْلَه، وأنَا خَيْرُكم لأَهْلِي»[١].

ولمَّا أُصِيب زَيد بن حَارثَة ذَهَب إلَى بَيْتَه فَبكت ٱبْنَته، فَبكى[٢]، وفِي ذَات يَوْم مَرّ بصَبي فرَآه حَزيناً، ولمَّا سَألهُ عَن السَّبَب قَالَ: أنَّ بُلبله قَد مَات. فَعزّاه وخَـفف عَنْهُ[٣]... ومِن أحَادِيثه: «مَن كَان لهُ صَبي فَليَستَصَاب لهُ»[٤]. أي يُعَاملهُ كمَثِيل ونَظِير.

الفِرَاسَة:

كَان إذَا سَأل النّبيّ سَائِل تَفرّس فِي وَجْهَه، ثُمَّ يُجيبَه بمَا يَتنَاسب مَع حَـالَه،

---

(١) أُنظر، صَحِيح ٱبن حِبّان: ٩ / ٤٨٤ ح ٤١٧٧، موَارد الظّمْآن: ١ / ٣١٨ ح ١٣١٢، سُنن التِّـرمِذي: ٥ / ٧٠٩ ح ٣٨٩٥، سُنن البَيْهَقِيّ الكُبْرَى: ٧ / ٤٦٨ ح ١٥٤٧٧، سُنن ٱبن مَاجَه: ١ / ٦٣٦ ح ١٩٧٧، مُعتَصر المُختَصر: ١ / ٣٠٣، مُسْنَد البزّار: ٣ / ٢٤٠ ح ١٠٢٨، الآحَاد والمثَاني: ٤ / ٤٦٥ ح ٢٥١٩، تُحْفَة الأَحْوَذي: ٤ / ٢٧٣، كَشف الخفَاء: ١ / ٤٦٣ ح ١٢٣٤.

(٢) أُنظر، سِـير أعـلاَم النُّـبلاء: ١ / ٢٣٠، تَأرِيـخ دِمَشـق: ١٩ / ٣٧١، الطّـبَقَات الكُـبْرَى: ٣ / ٤٧، الدَّرجَات الرّفيعَة: ٤٣٩، فَيض القَدير شَرح الجَامِع الصّغِير: ٣ / ٦٩٥ ح ٤١٨٣، الإخوَان لاِبْن أبِـي الدُّنيَا: ١٥٢، مُسكن الفُؤاد: ٩٦، بحَار الأَنْوَار: ١٦ / ٢٣٦، مكَارم الأخلاَق للطّبرسي: ٢٢، مُسْتَدرَك الوَسَائِل: ٢ / ٤٦٤.

(٣) أُنظر، سُنن أبي دَاود: ٢ / ٤٧٠ ح ٤٩٦٩، مُنْتَخب مُسنَد عَبد بن حميد: ٤١٤ ح ٦٤١٥ و ٦٤١٦، الأدَب المُفرد: ١٨٢ ح ٧٤٧، شَرْح مُسنَد أبي حَنِيفَة: ٣٣٩، تَأرِيخ دِمَشـق: ٤ / ٣٨، سُـبل الهُـدى وَالرَّشَاد: ٧ / ١١٦.

أُنظر، كتَاب تُومَاس ووكَر آرند (تَعَالِيم الإسْلاَم).

(٤) أُنظر، كَنْز العُمّال: ١٦ / ٤٥٧ ح ٤٥٤١٣، رَدّ ٱعتبَار الجَامع الصّغِير: ٢٣ ح ٥٨١٢.

ومِن أَمثلَة ذَلِك أَنَّ رَجُلاً قَالَ لهُ : أَوصني يَا رَسُول الله ، فَقَال لهُ : لاَ تَغْضَب فكرّر السُّؤال ، وَلَكن الجوَاب لَمْ يَخْتَلف ... ثُمَّ تبيَّن أَنَّ السَّائِل يَثُور لأَتفه الأَسبَاب[1].

وَقَالَ لهُ آخر : أَي الإِسْلاَم خَير ؟.

فَقَالَ لهُ : « فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ ، وَيَدِهِ »[2].

وَجَاء آخر وَقَالَ : أَي الإِسْلاَم خَير ؟.

فَقَالَ لهُ : تُطعِم الطَّعَام ، وَتُقرىء السَّلاَم عَلَىٰ مَن تَعرف[3] ... وَأَخيراً ظَهَر أَنَّ الأَوّل كَان يُعيب النَّاس ، وَالثَّاني كَان شَحِيحاً.

وَبَعد ، أَلَيسَت هَذِهِ الصِّفَات آيَات وَدلاَئِل عَلَىٰ نُبوّة صَاحبهَا وَرسَالَته ؟.

---

(١) أُنظر ، صَحِيح البُخَاري : ٥ / ٢٢٦٧ ح ٥٧٦٥ ، فِقه الرِّضَا لِابْن بَابوَيه : ٣٥٤ ، صَحِيح اَبـن حِـبَّان : ١٢ / ٥٠٤ ح ٥٦٩٠ ، المُستَدرَك عَلى الصَحِيحَين : ٣ / ٧١٣ ح ٦٥٧٨ ، سُنن التِّرمِذي : ٤ / ٣٧١ ح ٢٠٢٠ ، مَجمَع الفَائِدَة : ١٢ / ٣٦٩ ، سُنن البَيهقي الكُبرىٰ : ١٠ / ١٠٥ ، مَجمَع الزّوائد : ٨ / ٦٩ و ٧٠ ، المُصنَّف لِابْن أَبي شَيبَة الكُوفِي : ٧ / ٦٧ ح ٣٤٢٤٥.

(٢) أُنظر ، صَحِيح البُخَاريّ : ١ / ١٣ ح ١٠ ، مَجمَع الزّوائد : ٣ / ٢٦٨ ، الْمُعْجَم الأَوسَط : ٤ / ٥٦ ح ٣٥٩٨ و ٣٧٤٥ و ٤٢٣١ ، مُسْنَد أَحْمَد : ٢ / ٢١٢ ح ٦٩٨٢ و ٦٩٨٣ و : ٦ / ٢٢ ح ٢٤٠١٣ ، مُسْنَد الشَامِيِّين : ٢ / ٤٤٣ ح ١٦٦٧ ، الْمُعْجَم الْكَبِير : ٣ / ٢٩٣ ح ٣٤٤٤ و ٣٤٦٢ و : ١٩ / ١٧٥ ح ٤٠٠ ، الزُّهد لهنَّاد : ٢ / ٥٤٧ ح ١١٣١ ، كَشف الْخَفَاء : ٢ / ٢٧٤ ح ٢٣٠٤ ، الإِيمَان لِابْن مُندَه : ١ / ٤٥٢ ح ٣١٥ ، التَّمهِيد : ٩ / ٢٤٤ ، التَّأرِيخ الْكَبِير : ٣ / ٣٣٤ ح ١١٣٢ ، فَيض القَدِير : ٦ / ٢٧٠.

(٣) أُنظر ، صَحِيح البُخَاري : ١ / ١٣ ح ١٢ و ٢٨ و : ٥ / ٢٣٠٢ ح ٥٨٨٠ ، صَحِيح اَبن حِبَّان : ٢ / ٢٥٨ ح ٥٠٥ ، صَحِيح مُسْلِم : ١ / ٦٥ ح ٣٩ ، صَحِيح اَبن مَاجَه : ٢ / ١٠٨٣ ح ٣٢٥٣ ، مُسْنَد أَحمَد : ٢ / ١٦٩ ح ٦٥٨١ ، سُنن أَبي دَاود : ٤ / ٣٥٠ ح ٥١٩٤.

حَوْل البَعْث

لكلّ ناكث شُبْهَة:

تَعَلّق مَن أَنْكَر البَعْث بشُبهَتَين :

الأُولىٰ : أنَّه غير مُمّكن ، لأَنَّ مَن مَات فَات ، وَكَيف تَحيَا العِظَام ، وَهِي رَمِيم ؟ .

الشُّبهَة الثَّانيَة : مَع التَّسلِيم جَدَلاً بأَنَّ البَعْث مُمّكن فَإِنّه غَير وَاقع حَيْث لَمْ نَجد لهُ أَي أَثَر يَدل عَلَيهِ ـ مَثَلاً ـ تَنْظر العَين إِلَىٰ الكَون وَإِتقَانه فَيَحكُم العَقْل بـوجُود المُكوّن وَالمُتّقن كمَا هُو شَأنه دَائِماً فِي الإِنتقَال مِن الشَّاهد إِلَىٰ الغَائِب ٱستنَاداً لمَبدَأ العلّيَة . . . وَأَيْضاً نَقرَأ سِيرَة مُحمَّد ﷺ وَرسَالَته فَنَعتَقد بصِدقهِ وَعَظَمته . . . أَمَّا البَعْث فَلاَ نَحسّ لهُ مِن أَثَر ، أَو نَسمَع لهُ صَوتاً فَكَيف يَسُوغ الإِيمَان بهِ ؟ .

وَمِن هُنا ٱهتَدىٰ خَلق كَثِير إِلَىٰ الإِيمَان بالله دُون البَعْث ، بَل أَنَّ أَكثَر المُشركِين أَو الكَثِير مِنْهُم رَفضُوا دَعوَة مُحمَّد وَقَاومُوهَا لاَ لشَيء إِلاَّ لأَنّهَا جَمَعت بَيْنَ الإِيمَان بالله وَاليَوْم الآخر ، وكَانُوا عَلَىٰ أَتَم الإِستعدَاد للتَّصدِيق برَسُول الله لَو أَعفَاهُم مِن البَعْث ، وَيُومِيء إِلَىٰ ذَلِكَ عَدَد مِن الآيَات ، مِنْهَا : ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيداً﴾[1] .

---

(١) ٱلإِسْرَاء: ٤٩.

وَجَاء أَحد المُشركِين إِلَىٰ النَّبيّ سَاخرَاً بعَظمَة بَاليَة وَفتّها بيَدِه، وَنَشرهَا فِي الهَوَاء ثُمَّ سَأَل النَّبيّ سَاخرَاً: مَن يُحيي العِظَام وهِي رَمِيم؟ فنَزلَت الآيَة: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[1].

وَلَم تك شَيئاً مِن قَبل.

الإِجَابَة عَن الشُّبهَتَين:

وَعَن الشُّبهَة الأُولىٰ نُجيب بأَنَّ العُلمَاء والفَلاَسفَة فَرقُوا بَيْنَ القَانُون الطَّبِيعِي وَالقَانُون العَقلي وقَالُوا: القَانُون العَقْلي يَطّرد حَتمَاً، وَلاَ يُمْكن خَرقَه بحَال مِثْل الوَاحد نِصف الاِثْنَين، وَالمُسَاوِييَّن لثَالث مُتسَاويَان، أَمَّا القَانُون الطَّبِيعي فَلاَ ضَرورَه تَحْتم اَطّرَادَه عَلَىٰ كُلّ حَال فِي نَظَر العَقْل، وَيَجُوز حدُوث الخوَارق وَالمُعجزَات فِي نوَامِيس الطَّبِيعَة، وَلاَ يسُوغ لأَي عَاقل أَنْ يَقُول: هَذَا مُستَحِيل عَقلاً لمَن حَدّث وقَالَ: كَانَت النَّار بَرداً وَسَلاَماً عَلَىٰ فُلاَن، أَو قَالَ: تَوقَفت الأَرْض عَن الدَّورَان حَول الشَّمس فِي حِين مِن الأَحيَان... أَجل. لهُ كُلّ الحَقّ أَنْ يُطَالبه بالإِثبَات وَدَلِيل الوقُوع. أَمّا دَعوىٰ الإِمتنَاع عَقلاً فَلاَ أَسَاس لهَا عَلَىٰ الإِطلاَق.

وإِذَا أَجَاز العَقْل خَرق القوَانِين الطَّبيعيَّة فَبالأَولىٰ أَنْ يُجِيز إِعَادَة ٱلحَيَاة بَعد المَوْت، إِذْ هِي أَهوَن وَأَيسَر. غَايَة الأَمْر أَنَّها تُخَالف العُرف وَالعَادَة... وَلَيْس أَكثَر مِن الشَّوَاهد عَلَىٰ تَغيِّير المُعتَاد والمَعْرُوف، ومِنهَا الصّعُود عَلَىٰ ٱلْقَمَر... وَرُبَّما كَان لاَ شَيء بالقِيَاس إِلَىٰ الآتي.

---

(١) يس: ٧٩.

وَنُجيب عَن الشُّبهَة الثَّانيَة بأَنَّ الإِسْلاَم لَم يُوجب البَعْث لمُجَرد البَعْث وَكَفىٰ ، وَإِنَّما أَوجَبه لهَدَف الحِسَاب وَالجزَاء عَلَىٰ فِعل الخَير والشَّر ، وَمَعنىٰ هَذَا أَنَّ البَعْث نَتِيجَة حَتميَّة للعَدَالَة الإِلٰهيَّة لاَ لقَانُون الطَّبيعَة وَنظَامهَا كمَا يَرىٰ وَيَحسّ . . . وَأَيضاً مَعنَىٰ هَذَا أَنَّ الإِيمَان بالبَعْث يَرتَبط حَتماً بالإِيمَان بالله وَعَدله وَحِكمَته وأَنَّـه لاَ حُجَّة بدَلِيل البَعْث عَلَىٰ مَن كَفَر بالله ، بَل يَحتَج عَلَيهِ بالدَّلِيل القَاطِع عَلَىٰ وجُوده تَعَالَىٰ . . . فَإِلىٰ هُنَاك .

وَتَسأَل : وَأَيَّة عِلاَقَة بَيْنَ عَدَالَته تَعَالَىٰ وبَيْنَ البَعْث ؟ .

الجوَاب :

لاَ يَستَقِيم أَبداً مَع العَدْل الإِلٰهي أَنْ يَستَوي مَصِير المُجرمِين وَالأَبريَاء ، فَيَذهَب هَؤُلاَء بلاَ ثوَاب ، وَأُولَٰئك بلاَ عقَاب .

سُؤال ثَان : أَجل ، وَلَكن لمَاذَا لاَ يَكُون الجزَاء فِي ٱلْحَيَاة الدُّنْيَا ؟ .

وَالجوَاب وَاضح ، لأَنَّه تَعَالَىٰ لَو عَجَّل الجزَاء لعبَادِه ، أَو كَشف لهُم عَنْهُ ـ لكَان ، جَلّت صفَاته ، كَالمُعز الفَاطمي حِين دَعَا الكُبرَاء وَسلَّ السَّيف بـيَد وقـالَ : هَـذَا نَسَبي وَنَقد الذَّهب بيَد وقَالَ : هَذَا حَسَبي . فَقَالُوا جَمِيعاً : سَمعنَا وَأَطعنَا[1] ! إِنَّ الله

(١) هُو المُعزّ لدِين الله ، أَبُو تَمِيم مَعد بن المَنْصُور إِسْمَاعِيل بن القَائِم ، العُبَيدي ، المَهدَوي ، المَغربي ، الَّذي بُنِيَت القَاهرَة المَعزيَّة لهُ . كَان صَاحب المَغرب ، وَكَان وَلي عَهد أَبِيه . وُلي سَنَة (٣٤١ هـ) ، وَسَار فِـي نوَاحي إِفرِيقيَة يُمَهد مُلكه ، فَذَلَّل الخَارجِين عَلَيه . وَٱستَعمل مَماليكهُ عَلَىٰ المُدن ، وَٱستَخدم الجُند ، وَأَنْفَق الأَموَال ، وَجَهّز مَملُوكهُ جَوهَر القَائِد فِي الجُيُوش .

وَضُربَت السِّكَّة عَلَىٰ الدِّينَار بمَصر وَهِي : (لاَ إِلٰه إِلاَّ الله مُحَمَّد رَسُول الله ، عَليّ خَير الوَصيِّين) ، وَالوَجْه الآخر ٱسم المُعزّ وَالتَّاريخ . وَأَعلَن الأَذَان بحَيَّ عَلىٰ خَير العَمَل ، وَنُودي : مَن مَات عَن بِنْتٍ وَأَخ أَو أُخت فَالمَال كُلّه للبِنْت . كَان المُعزّ لدِين الله مُثقفاً ، وَمُولعاً بِالعُلُوم وَالآدَاب ، كمَا عُرِف بحُسن ↔

سُبْحَانَه يُثِيب وَيُعَاقب، مَا فِي ذَلِكَ رَيب، وَلَكن بَعد أَنْ تَظهَر الأَفعَال بالإِرَادَة والإِختيَار، لاَ بِالضَّغط أَو بِالرَشوَة.

الدَّلِيل الأَصِيل:

وَمِمَّا تَقدَّم يَتبيَّن مَعنَا أَنَّ الَّذِين كَذّبُوا بالبَعْث لاَ يَعْتمدُون عَلَىٰ أَسَاس سِوَىٰ الجَهْل أَو العِنَاد تَمَاماً كمَن كَذّب برحلاَت الفَضَاء فِي بَادِيء الأَمْر... أَمَّا الدَّلِيل الأَصِيل عَلَىٰ وقُوع البَعْث وَحدُوثه فيَتلخَص بأَنَّ البَعْث مُمّكن بحُكم العَقْل، وَثَابت بصَحِيح النَّقل عَن المَعْصُوم فيَجب التَّصدِيق.

↔ التَّدْبِير، وأَحْكَام الأُمُور، لذَا دَانَت لهُ قبَائل البَربَر، وَأَطَاعَتهُ عَلَىٰ مَا بَيْنهَا مِنَ اخْتلاَف، وَقَد رَأَىٰ بَعد أَنْ أَستَتب الأَمن فِي ربُوع المَغْرب، وَأَطمَأَنت بِهِ الحَال أَنْ يَعد العِدّة لغَزو مَصْر، لثَروتهَا، وَموقعهَا الجُغرَافِي الَّذِي يُمهّد السَّبِيل لإمتدَاد النَّفوذ وَالسَّيطرَة عَلَىٰ كَثِير مِنَ الأَقطَار، بخَاصَّة الشَّام، والحِجَاز، وكَان هَذَان القطرَان خَاضعَين للأَخشِيديِّين حُكَّام مَصْر فِي ذَلِكَ الحِين.

وَفِي سَنَة (٣٥٦هـ) أَمَر المُعزّ بإِنْشَاء الطُّرق، وَحفَر الآبَار فِي طَرِيق مَصْر، وَأَقَام المَنَازل عَلَىٰ رَأس كُلّ مَرحلَة، ولمَّا وَصَلتهُ الأَخْبَار بوفَاة كَافُور سَنَة (٣٥٧هـ) أَخَذ فِي إِعدَاد الجَيْش، وَالمَال، وَبَعث إِلَىٰ دُعَاته فِي مَصْر يَعْلمهُم بِعزْمه، ليُمهدُوا سُبل الغَزْو، وعَهْد إِلَىٰ قَائِدهِ جَوهر الصّقلي بقيَادَة الحَمْلَة، فَسَار جَوهر بجَيْشه سَنَة (٣٥٨هـ) حَتَّىٰ وَصَل برقّة، فَقدَّم لهُ صَاحبهَا الطَّاعَة، ثُمَّ مَضىٰ إِلَىٰ الإِسكَندريَّة، فَدَخلهَا مِنْ غَير مُقَاومَة.

أُنظر، المُغْنِي لِابْن قُدَامَة: ٦/ ١٦٨، المُنْتَظم لِابْن الجَوري: ٨/ ٨٢، الكَامِل فِي التَّأْرِيخ: ٨/ ٤٩٨، تَأرِيخ ابن خَلدُون: ٤/ ٤٥، النُّجُوم الزَّاهِرَة: ٤/ ٢٦١، سِير أَعلاَم النُّبلاَء: ١٥/ ٣٥١، البِدَايَة وَالنِّهَايَة: ١١/ ٢٨٣، خُطَط المَقريزي: ١/ ٣٥١، أتعَاظ الحُنفَا: ١٣٤-٢٦٥.

وَمَات المُعز سَنَة (٣٦٥هـ) بَيد أَنَّهُ لَم يُغَادر هَذِهِ الحَيَاة، حَتَّىٰ كَانَت الخِلاَفَة الفَاطميَّة تَبسط سُلطَانهَا، وَإِمَامتهَا عَلَىٰ المَغرب، وَمَصر، وَالشَّام، حَتَّىٰ حَلَب وَالحرَمَين. وَقَالَ ابن الأَثِير: «كَان المُعز عَالماً، فَاضلاً، جَوَاداً، شُجَاعاً، جَارياً عَلَىٰ مِنْهَاج أَبِيه مِنْ حُسن السِّيرَة، وَإِنْصَاف الرَّعِيَّة».

أُنظر، الحَاكِم بِأَمر الله لمُحَمَّد عَبد الله عنَّان: ٧٩ طَبْعَة ثَانيَة، الكَامِل فِي التَّأرِيخ: ٨/ ٦٦٣.

وَهَذَا الدَّلِيل ـ كَمَا تَرىٰ ـ يَعْتَمد عَلَىٰ العَقْل وَالنَّقل حَيْث لاَ شَيء غيرهُما مِن قَبل. أَمَّا الآن، وَقَد تَطوّر العِلْم وَوسائلِه الحِسّيَة، فَإِنَّ النَّاس سَوف يُشاهدُون لاَ محَالَة الرُّوح بَعْد فِرَاقِهَا للجَسَد تَمَامَاً كمَا شَاهدُوا الإِنْسَان عَلَىٰ القَمَر... وَكُلّ مَن يُؤمِن بالعِلْم يَتحتّم عَلَيهِ أَنْ يَثق بذَلِكَ مِن غير تَردّد... وَلَو أَنَّ العُلمَاء الَّذِين انْصَرفُوا بكُلّ طَاقَاتِهم لدرَاسَة العَالَم المَادّي، اهتمُوا بَعْض الإهتمَام بعَالَم الرُّوح ـ لوَضعُوا أَيديهم مُنذ زَمَان عَلَىٰ هَذِهِ الحَقِيقَة، عَلَىٰ أَنَّ التَّباشِير بَدأت الآن بالظُّهُور، وَللهِ الحَمْد.

فَقَد نَشَرت جَرِيدَة الأَخْبَار المَصْريّة مقَالاً جَاء فِيه: «لَقَد نَجحَت البحُوث العِلميَّة فِي تَصوِير خرُوج الرُّوح مِن الجَسَد بأَشعَة غَير مَنظُورَة، وَاستخدَام أَلوَاح حَسَاسَة خَاصّة... وَالَّذي تَتَبع تَطور البَحْث العِلمي فِي مَيدَان الرُّوح، لاَ بُدّ أَنْ يَقْتَنع بأَنّنا أَوشَكنَا أَنْ نَضع أَيدِينا عَلَىٰ الحَقِيقَة... أَنّ كُلّ مَا أَبدعهُ الخَالِق فِي هَذَا الكَون لَيْس سِوىٰ وَسِيلَة للتَّدلِيل عَلَىٰ وجُودَه، وَحَثنَا عَلَىٰ التَّفْكِير فِيمَا وَرَاءَه، لأَنَّ مِن طَبيعَة هَذَا الكَون عَدَم الإِستمرَار. أَنّ كُلّ المَاديّات مَصيرهَا إِلَىٰ التَّحول... وَلاَ يُعقَل أَنْ يَكُون الله قَد خَلَق لنَا هَذَا العَقْل لنَرىٰ جُزءً مِمَّا أَبدعهُ، وَلفَترَة قَصِيرَة هِي عُمر الإِنْسَان، فَيكُون مَثلنَا فِي ذَلِكَ مَثل النَّبَات»[1].

وَنَشَرت جَرِيدَة الجمهُوريّة المَصريّة مقَالاً جَاء فِيه:: «إِنَّ الطَّبيب السّويدِي يلنز ظَهَر لهُ أَخِيراً فِي دسلدورف كِتَاب بعُنْوَان الحَيَاة بَعد المَوْت أَكّد فِيهِ أَنَّ هَذِهِ الحَيَاة كَانَت تَبدُو وَكأَنَّها حُلم، وَلَكن التَّشَابه كَبِير بَيْنَ الحَيَاة قَبل المَوْت

(١) أنظر. جَرِيدَة الأَخْبَار المَصْريّة (٢٨/ ٦/ ١٩٦٣م) مقَالاً بعُنْوَان عَصْر الفَضَاء أَم عَصْر الرُّوح؟ للأُستَاذ عَبد السَّلاَم دَاود. (مِنهُ ﵀).

وَبعدَه... حتّىٰ كأنَّ الميّت لاَ يَحسّ أنَّ الرُّوح قد خرَجت مِن جَسَده، بَل يَعْتَقد أنَّه مَا زَال يَعِيش »[١].

مِن كِتَاب يَوْم القِيَامَة:

ألّف الأُستَاذ عَبدالرَّزَاق نُوفَل كتَاباً أسمَاه يَوْم القِيَامَة، وفِيهِ خَمسَة فصُول، أَربَعَة مِنْهَا مِن التُّرَاث الّذي قَرأنَاه أو سَمعنَاه، وَفَصل وَاحد وَلِيد هَذَا العَصْر وَابن العِلْم الحَدِيث، وهُو فَصل « مِن المَوْت حَتَّىٰ يَوْم القِيَامَة » حَيْث ذَكَر فِيهِ آخر مَا وَصَل إلَيهِ العِلْم عَن الْحَيَاة بَعد المَوْت، وَأَنّه لأَخطَر مِن الصّعُود إلَىٰ المرِيخ وَالْقَمَر، فَقَد أثبَت حَقِيقَة كَان يَرَاها أَكثَر النّاس مِن الخرَافَات وَالأَسَاطِير، وَنُوجزهَا فِيمَا يَلي بشَيء مِن التَّصرف فِي الشَّكل دُون المُحتَوىٰ ـ أَهَم مَا جَاء فِي كِتَاب يَوْم القِيَامَة:

لَقَد اكتَشف عُلمَاء الطَّبِيعَة وَالتَّشرِيح أنَّ لكُلّ عُضو وَجهَاز فِي جِسم الإِنْسَان خَلاَيَاه الحيّة الخَاصّة بهِ، وَأنَّ جَمِيع الخَلاَيَا بشَتّىٰ أنوَاعها تَمُوت بمَوت الإِنْسَان مَا عَدَا خَلاَيَا الجِهَاز العَصَبي فَإنّهَا تَبقىٰ حيَّة بَعد مَوتهَا مَهمَا طَرَأ عَلَىٰ الجِسم، وَأنّه عَن طَرِيقهَا يَحسّ المَيّت وَيَشعر بمَا حَوله، وَلكنَّه لاَ يَستَطِيع الحَركَة وَالحَدِيث، لأنَّ الخَلاَيَا الّتي كَان يَتَحرّك وَيَتكلّم بوَاسطتهَا مَاتَت بكَاملهَا. وَبكَلمَة تَمُوت كُلّ الخَلاَيَا إلاَّ الخَلاَيَا خَلاَيَا الشُّعُور.

وَهَذَا يُفسّر عَذَاب القَبر... وأيضاً يُفسّر مَا تَوَاتر عَلَىٰ لسَان أَهل التَّأرِيخ وَالسِّيَر: أنَّ الرَّسُول الأَعْظَم ﷺ خَاطَب القَتْلىٰ مِن كُفّار قُرَيْش يَوْم بَدْر، وَنَادَاهُم

(١) أنظر، جَريدَة الجمهُوريّة المَصريَّة: (١٩/ ١٢/ ١٩٧٢م). (مِنْهُ ﷺ).

بأَسمَائِهِم قَائِلاً : « يَا أَهْل القَلِيب ، يَا عُتْبَة بن رَبِيعَة ، يَا شَيْبَة ٱبن رَبِيعَة ، يَا أُميَّة بن خلف ، يَا أَبَا جَهل بن هِشَام ، هَل وَجَدتُم مَا وَعَد رَبّكم حَقّاً ؟ فَإِنّي وَجَدتُ مَا وَعَدني رَبّي حَقّاً .

فَقَال الْمُسْلِمُون يَا رَسُول الله ! أَتُنَادي قَوماً جَيَّفُوا ؟ .

قَالَ : مَا أَنْتُم بِأَسمع لِمَا أَقوَل مِنْهُم ، وَلَكنَّهُم لاَ يَسْتَطِيعُون أَنْ يَجِيبُونِي »[١] .

---

(١) وَقَد أَمَر رَسُول الله ﷺ أَنْ تُطرح القَتْلىٰ فِي القَلِيب ، فَطُرِحُوا فِيهِ ، وَلمَّا أُلقُوا فِي القَلِيب وَقَف عَلَيْهِم ﷺ وَقَالَ : (يَا أَهْل القَلِيب بِئس عَشِيرة النَّبيّ كُنْتُم لِنَبِيّكُم ! كَذَّبتمُونِي وَصَدَّقني النَّاس . . . .

ثُمَّ قَالَ : يَا عُتبَة ، يَا شَيبَة ، يَا أُميَّة بن خَلف ، يَا أَبَا جَهل بن هُشَام ، وَعدَّد مَن كَان فِي القَلِيب ، هَل وَجَدتُم مَا وَعَدكُم رَبّكُم حَقّاً ؟ فَإِنّي وَجدتُ مَا وَعدنِي رَبّي حَقّاً .

فَقَال لهُ أَصْحَابه : أَتُكلِّم قَوماً مَوتىٰ ؟ .

فَقَال ﷺ : مَا أَنْتُم بِأَسمَع لِمَا أَقوَل مِنْهُم وَلكنَّهُم لاَ يَسْتَطِيعُون أَنْ يُجِيبُونِي . . . . ثُمَّ ٱستَوصىٰ بِالأَسرىٰ خَيراً .

أنظر ، الكَامِل فِي التَّأرِيخ لِابْن الأَثِير : ٢ / ١٢٩ ، صَحِيح البُخَارِيّ : ٢ / ١٠١ ، فَتح البَارِي : ٧ / ٢٣٥ ، مُقدَمة فَتح البَارِي : ٢٦٧ ، مُسْنَد ٱبن رَاهوِيه : ٢ / ٥٧٣ ، مُسْنَد أَحمَد : ٢ / ١٣١ و : ٦ / ٢٧٦ ، المُصَنَّف لِابْن أَبِي شَيبَة : ١٤ / ٣٧٩ ، دَلاَئِل النُّبُوَّة لِلبَيهقي : ٢ / ٣٣٢ و ٣٣٩ ، الكَامِل فِي التَّأرِيخ : ٢ / ١٢٩ ، المغَازي للوَاقدي : ١ / ١١٢ ، مُنْتَخَب مُسْنَد عَبد بن حَمِيد : ٢٤٦ ح ٧٦٢ ، صَحِيح ٱبن حِبّان : ١٥ / ٥٦٢ ، كَنز العُمَّال : ١٠ / ٣٧٧ ح ٢٩٨٧٥ ـ ٢٩٨٧٧ و ٢٩٩٧٦ ، الثِّقات لِابْن حبّان : ١ / ١٧٥ ، أُسد الغَابَة : ٢ / ٣٨٢ ، الإِصَابَة : ٣ / ١٩٥ ح ٣٦٤٤ ، البدَاية والنّهاية : ١ / ١٥٨ و : ٣ / ٣٥٧ ، السِّيرَة لِابْن هِشَام : ٢ / ٢٨٠ ، السِّيرَة الحَلبِية : ٢ / ١٩٠ ، تَأرِيخ الطَّبَرِي : ٢ / ١٥٥ ، الْمُعْجَم الصَّغِير : ٢ / ١١٣ ، الْمُعْجَم الكَبِير : ٧ / ١٦٥ و : ١٠ / ١٦٠ ح ١٠٣٢٠ ، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلحَدِيد : ١٤ / ١٧٨ .

وَقَالَ جَابر : لَبَس الإِمَام عَلي نَعْلِيه وَأَلقىٰ إِزاره عَلىٰ مَنْكَبِيه وَخَرَجنَا نَتسَاير ، فَذهب بِنَا إِلىٰ الجَبَّانة ـ جَبَّانة الْكُوفَة ـ فَسَلَّم عَلىٰ أَهْل القُبُور ، فَسمعتُ ضَجَّة ، وَهَجَّة فَقلتُ : مَا هَذا يَا أَمِير الْمُؤْمِنِين ؟ .

وَقرأتُ فِي قصّة الفَلسَفَة تأليف ول. ديورانت: «أَنَّ النَّملَة الإستراليَّة إذَا انْقَسمت إلَىٰ قِسمَين تبدأ المَعركَة بيْنَ الرَّأس وَالذّنب وَقد تدُور نِصف سَاعَة، ثُمَّ يَموتَان مَعاً أَو تَسحَبهُما بقيّة النَّمل».

تأريخ فِكرَة الخُلود:

تَدل الأَخبَار وَبقَايَا الآثَار أَنَّ فِكرَة الخُلُود قَدِيمَة بقِدَم الإِنْسَان، فَقَد كَانَت مَعرُوفَة فِي الدِّيَانَة الفرعُونيَّة وَالفَارسيَّة، أَمَّا الفَلسَفَة اليُونَانيَّة فَيقُول أُستَاذهَا الشَّهير إفلاَطُون: «لَو لَمْ يَكُن لنَا مَعَاد نَرجُو فِيهِ الخَيرَات لكَانَت الدُّنْيَا فُرصَة الأَشرَار، وكَان القِرد أَفضَل مِن الإِنْسَان».

↔ فَقَال: هَؤُلاَء بِالأَمس كَانُوا مَعنَا وَاليَوْم فَارقُونا، أتسَأل عَن أَحوَالِهِم فَهُم إخوانٌ لاَ يَتزَاورُون وَأودَاء لاَ يَتعَاودُون. ثُمَّ خَلَع نَعليه وَحَسر عَن ذِرَاعيهِ، وَقَال: يَا جَابر أعطُوا مِن دُنيَاكُم الفَانِيَة لآخِرَتكُم البَاقِيَة، وَمِن حَيَاتكُم لِمُوتكُم، وَمِن صِحَّتكُم لِسُقمكُم، وَمِن غِنَاكُم لِفَقركُم، اليَوْم أَنتُم فِي الدُّور وَغداً فِي القُبُور وإلَىٰ الله تَصِير الأُمور.

ثُمَّ أنشَأ يَقول، كمَا جَاء فِي نُظم دُرر السّمطِين: ١٧٣، المنَاقب للخوَارزمي: ٣٧٠، نُور الأَبصَار: ٨٥، الفصُول المُهمّة لِابْن الصَّباغ المَالكي: ١ / ٥٦٩، بِتحقِيقنا.

سَلاَمٌ عَلىٰ أَهْل القُبُور الدّوَارِس ... كَأَنَّهُم لَمْ يَجلسُوا فِي المجَالِس
وَلَمْ يَشربُوا مِن بَارِدِ المَاء شِربة ... وَلَم يَأكلُوا مَا بَيْنَ رَطبٍ وَيَابِس
ألاَ فَأخبرُونِي أَين قَبْر ذَلِيلكُم ... وَقبْر العَزِيز البَاذِخ المُتنَافِس

وَلَهُ عليه السلام:

وَالله لَو عَاش الفَتىٰ مِن دَهرِهِ ... أَلفاً مِن الأَعوَام مَالِكَ أَمْرِه
مُتلذذاً فِيها بِكُلِّ هَنِيئة ... وَمُبلغاً كُلَّ المُنىٰ مِن دَهرِهِ
لاَ يَعرف الآلاَم فِيها مَرّة ... كَلّا وَلاَ جَرت الهمُوم بِفكرِهِ
مَا كَان ذَاكَ يُفِيده مِن عَظم مَا ... يَلقىٰ بَأوّل لِيلة فِي قَبرِهِ

وَمِن قَبلِهِ قَالَ الفِيلسُوف اليُونَاني فيثَاغُورس: «أَنَّ النَّفس الطَّاهِرَة تَسكُن بَعد المَوْت فِي المَكَان اللّائِق بِهَا، وَتَصحَب مَعهَا جَانباً مِن الجَسَد الَّذي كَانَت تَحتَله فِي الحَيَاه الدُّنْيَا، وَهُو لَطِيف مُهذّب مِن كُلّ ثقل وَكَدر».

وَيَلتَقي هَذَا مَع مَا رَوَاه الشَّيْخ البَهَائي عَن الإِمَام جَعْفر الصَّادِق عليه السلام وَهَذَا نَصّ الرّوَايَة بالحَرف: «إِذَا قَبَض الله أَروَاح المُؤْمِنِين صَيّرهَا فِي قَالَب كَقَالبهَا فِي الدُّنْيَا، فَيأكلُون وَيَشربُون وَيَتعَارفُون» [١].

طَرِيق الجَنَّة:

حَدَّد ٱلْقُرْءَان طَرِيق الجَنّة بالْإِيمَان وَالعَمَل الصَّالح فِي العَدَيد مِن آيَاته. وَجَاء التَّحدِيد فِي بَعْض الآيَات بكَلمَة وَاحدَة: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٢].

وَالمُرَاد بالمُتّقِين الَّذِين عَنَاهُم سُبْحَانَه فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [٣]. وَالآيَة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [٤].

وقَالَ الرَّسُول الأَعْظَم صلى الله عليه وآله: «أَقْرَبكُم مِنّي مَجلساً يَوْم القِيَامَة أَحَاسنكُم أَخلاَقاً» [٥]. وَقَالَ: «مَن سَلَك طَرِيقاً يَلْتَمس فِيهِ عِلمَاً سَهّل الله لَهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى

(١) أُنظر، كِتَاب الأَربَعِين حَدِيثاً، الشَّيْخ البَهَائي: ١٩٠. (مِنْهُ قدس سره).

(٢) ٱلشُّعرَاء: ٩٠.

(٣) ٱلتَّوْبَة: ١١١.

(٤) آلِ عِمْرَان: ١٤٢.

(٥) أُنظر، مُسنَد زَيد بن عَليّ: ٤٧٩، كَنْز العُمّال: ٣ / ١٠ ح ٥١٧٨، العهُود المُحَمديَّة: ٣٠٦، كَشف

الجنّة »[١]. وَلاَ خُلق أكرَم وَأحسَن مِن الجِهَاد بالنَّفس وَالمَال فِي سَبِيل الله ... أمَّا العِلْم فَلَيس المُرَاد مَا يَترك شَيئاً جَدِيداً وَمُفِيداً لبَني الإنْسَان ... وعَلَيهِ فَأي مَعْبَد لاَ يَتّجه بالعَابد إلَىٰ العِلْم وَالعَمَل النَّافع ـ فَمَا هُو بالطَّرِيق المُؤدّي إلَىٰ الجَنّة ، وَأي مَصنَع أو مُختَبر يَنْفَع النَّاس بجِهَة مِن الجِهَات فهُو طَرِيق ، الفَوز بالجنَّة ، وَالنَّجَاة مِن النَّار .

وَخِتَاماً نُسجّل هَذِهِ الحِكمَة البَالغَة : « ألاَ وَمَنْ أكَلَهُ الحَقُّ فَإلَىٰ الْجَنَّةِ ، وَمَنْ أكَلَهُ الْبَاطِلُ فَإلَىٰ النَّارِ »[٢]. وَ « أكَلَه » الأُولَىٰ تَعْني التَّضحيَة بالنَّفس وَالمَال فِي سَبِيل الله ، وَ « أكَلَهُ » الثَّانيَة تَعْني الخُسْرَان فِي طَاعَة الشَّيطَان كمَن أتلَف مَالَه فِي الفسُوق وَالفجُور ، أو قَتَل نَفْسَه مَع قَائِد ضَلّ بهِ ... وَهَذِهِ الحِكمَة القيمَة الغَالية للإمَام أمِير المُؤْمِنِين صَلوَات الله وَسَلامَه عَلَيهِ ، وَرَضي عَنْهُ ، وَكَرّم وَجهَه الَّذي أدركته بَركَة سَيِّد الكَونَين ﷺ حِينَ دَعَا لهُ بقَوله : « أللَّهُمَّ أهْدِ قَلْبَه ، وثبّت لسَانَه ، وَأعْطِهِ فَهْم مَا يُخَاصم فِيهِ »[٣].

↔ الخَفَاء : ١ / ١٦٠ ح ٤٨٠ .

(١) أنظر ، صَحِيح أبن مَاجَه : ١ / ٨ ح ٢٢٣ ، صَحِيح التِرمذي : ٤ / ١٣٧ ح ٢٧٨٤ ، مُسْنَد أحمَد : ٢ / ٣٢٥ ، سُنن أبي دَاود : ٢ / ١٧٥ ح ٣٦٤١ ، المُستَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحَين : ١ / ٨٩ ، الثَّمر الدَّاني : ٧٢١ ، المَجمُوع : ١ / ١٩ ، مُسنَد زَيد بن عَليّ : ٣٨٣ ، مُغني المُحتَاج : ١ / ٨ ، إعَانَة الطَّالِبين : ١ / ٢٣ .

(٢) أنظر ، نَهج البَلاَغَة : الرِّسَالَة (١٧) .

(٣) أنظر ، « أخبَار القُضَاة » لوَكِيع ـ مِن عُلَمَاء السُّنَّة فِي القَرن الثَّالث الهِجري : ١ / ٨٨ طَبْعَة سَنَة ١٩٤١ م ، وَمُسْنَد زَيد بن عَليّ : ٢٩٤ ، دَعَائِم الإسْلاَم : ٢ / ٥٢٩ ح ١٨٨٠ ، مَنَاقب أمِير المُؤْمِنِين للكوفِي : ٢ / ٦٠٥ ح ١١٠٤ ، تَأرِيخ مَدِينَة دِمَشق : ٢ / ٤٩٠ ، المُصَنَّف لابْن أبي شَيبَة : ١٢ / ٥٨ ، المُستَرشد فِي الإمَامَة : ٣٥٢ ، شَرح الأخبَار : ٢ / ٣٠١ ح ٦٢٠ ، الطَّبَقَات الكُبرىٰ : ٢ / ٣٣٧ ، مُسْنَد ↔

بِدْعَة التَّعْصب وَالْإِجْتهَاد فِي مَورِد النَّص

الإِجْتهَاد:

يَتَلخصّ الْإِجْتهَاد فِـي الفِـقْه بأَنّـه اَسْـتخرَاج الفَـرع الشَّـرعي مِـن أَصْـلهِ، وَالْإِسْتدلاَل عَلَيهِ بدَلِيه، وَأَوضَح مِثَال عَلَىٰ ذَلِكَ ـ لمُجَرّد التَّوضِيح ـ قصَّة عُمَر بن الخَطّاب وَالمَرأَة حِينَ أَرَاد أَنْ يَجْعل للمَهر حَدّاً أَعلَىٰ، فعَارَضَته وقَالَت: لَـيْس ذَلِكَ لَكَ يَا عُـمَر، لأَنَّ الله يَـقُول: ﴿وَءَاتَـيْتُمْ إِحْـدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَاتَأْخُـذُوا مِـنْهُ شَيْـًٔا﴾[1].

فكَان قَولهَا بدَلِيل، وقَوْله بلاَ دَلِيل. بَل إجْتهَاد فِي مَورد النَّص بإِعترَافه حَيْث قَالَ: «أَصَابَت اَمرَأة، وَأَخطَأَ عُمَر»[2]، وَقَالَ: «كُلّ النَّاس أفْقَه مِن عُمَرَ حَـتَّىٰ رَبَّات الحِجَال»[3].

↔ أحمَد: ١ / ١٣٦، سُنن اَبن مَاجَه: ٢ / ٧٧٤، أَنسَاب الأَشْرَاف: ٢ / ١٠١، مُسْنَد أَبي يَعلىٰ: ١ / ٢٦٨، تَأريخ بَغدَاد: ١٢ / ٤٤٣، الصَّوَاعِق المُحرِقَة: ١٢٢.

(١) اَلنِّسَاء: ٢٠.

(٢) أنظر، تَفْسِير القُرطُبي: ٥ / ٩٩، الإِحْكَام فِي أُصُول الأَحْكَام، لعَليّ اَبن مُحَمَّد الآمُدي: ٤ / ١٩٣.

(٣) أُنظر، مَجْمَع الزَّوَائد: ٤ / ٢٨٤، الكشّاف للزَّمَخشري: ١ / ٤٩١، فَـيض القَـدِير: ٢ / ٨ح ١١٨٧، كَشْف الخَفَاء: ١ / ٢٦٩ ح ٨٤٤، المَجمُوع للنَّووي: ١٦ / ٣٢٧، المَبْسُوط للسَّرَخَسِي: ١٠ / ١٥٣، ↔

البدْعة:

البِدْعَة فِي الدِّين إحدَاث مَا لَيْس لهُ أَصل فِي الشَّريعَة[١]، وهِي بهَذَا المَعْنَىٰ مِن كبَائِر المُحرمَات إجمَاعاً وَعقلاً وَشرعاً، قَالَ الرَّسُول الأَعْظَم ﷺ: «كُلّ بدعَة ضَلاَلَة، وكُلّ ضَلاَلَة سَبِيلهَا إِلَىٰ النَّار[٢]... إذَا رَأَيتُم أَهْل البِدَع مِن بَعْدِي فَأَظهرُوا البَرَاءَة مِنْهُم[٣]... مَن تَبَسّم فِي وَجْه مُبتَدع فَقَد أَعَان عَلَىٰ هَدم دِيْنَه[٤]».

التعصّب:

التَّعصّب مِن العَصبيَّة، وهِي المَيل إِلَىٰ الجَانب الَّذي تُحبّ وَإِنْ كَان عَلَىٰ خَطَأ وَضَلاَل، وَالجَور عَلَىٰ الجَانب الَّذي تَكرَه، وإِنْ كَان عَلَىٰ حَقّ وَصوَاب.

وَبَعد هَذَا التَّمهِيد نُشِير فِيمَا يَأْتي إِلَىٰ قَول مَن ٱتّهم الدِّين بالتَّعصب، وإِلَىٰ أَوَّل مَن ٱبتَدع القَتْل وَالقتَال بَيْنَ الصَّحَابَة، وَمَهّد السَّبِيل لمَا حَدَث مِن الفِتَن بَيْنَ المُسْلمِين، وكَان السَّبَب المُوجب لفَتْح بَاب الإِجْتهَاد فِي مَورد النَّص، وَالتَّحَايل

↔ شَرْح نَهج ٱلْبَلاَغَة لاِبْن أَبي ٱلحَدِيد: ١/ ١٨٢ و: ١٧/ ١٧١، المُصَنَّف لعَبدالرَّزاق: ٦/ ١٦٠، سُنن البَيْهَقِي: ٧/ ٤٤٢، سُبل السَّلاَم: ٣/ ١٤٩، الدُّر المَنثُور: ٢/ ٤٦٦، كَنْز الْعُمَّال: ١٦/ ٥٣٧ ح ٤٥٧٩٨، تَفْسِير ٱبْن كَثِير: ١/ ٤٧٨، عِلَل الدَّار قُطني: ٢/ ٢٣٩، فَتْح القَدِير: ١/ ٤٤٣.

(١) أُنظر، لسَان العَرَب: ٨/ ٦، مُختَار الصِّحَاح: ١/ ١٨.

(٢) أُنظر، سُنن أَبي دَاود: ٤/ ٢٠٠ ح ٤٦٠٧، سُنن الدَّارمي: ١/ ٤٤، سُنن ابن مَاجَه: ١/ ١٥ ح ٤٢، كَنْز العُمَّال: ١/ ٢٢١ ح ١١١٣، مُسنَد أَحمَد: ٣/ ٣١٠، سُنَن النَّسَائي: ٣/ ١٨٩، تُحفَة الأَحوَذي: ٧/ ٢٧٠، العهُود المُحَمَّديَّة: ١٧.

(٣) أُنظر، الكَافِي: ٢/ ٣٧٥ ح ٤، وَسَائِل الشِّيعَة: ١٦/ ٣٦٧ ح ١.

(٤) أُنظر، مَنَاقب آل أَبي طَالب: ٣/ ٢٧٥، دَفع الشّبه عَن الرَّسُول ﷺ: ٦٧، مُستَدرَك الوَسَائِل: ١٢/ ٣٢٢ ح ١٢٠.

عَلَىٰ دِين الله، وَمَا إِلَىٰ ذَلِكَ مِمَّا يَجْرِي بِهِ ٱلْقَلَمِ[١].

الدِّين وَمَارْكس وَرَاسل:

قَالَ الفَيلَسُوف الإِنجلِيزي الشَّهِير رَاسل: أَبَاح الدِّين التَّعصب وَالبَغضَاء وَكَرسَهُما. (كِتَاب رَاسل يَتَحدَّث مِن مشَاكِل العَصْر). وَهَذَا القَوْل يَشبَه إِلَىٰ حَدٍّ كَبِير قَول مَاركس: «الدِّين أَفْيُون الشّعُوب»[٢].

وَفِي ظَنِّي أَنَّ رَاسل وَمَاركس أَرَاد بكَلمَة الدِّين هُنا اليَهودِيَّة وَالمَسيحيَّة فَقَط دُون الْإِسْلَام، لأَنَّ نصُوص ٱلْقُرْءَان والسُّنَّة النَّبويَّة تُنكر التَّعصب وَتَعدّه مِن كَبَائِر السَّيئَات، وَتَأمر بالْإِعتمَاد عَلَىٰ العِلْم، وَالْإِحْتكَام إِلَىٰ العَقْل، وَتَعتَبر إِهمَالَه وَعَدم الرّكُون إِلَيهِ جَرِيمَة تَستَحق العِقَاب وَالتَّوبِيخ... وَمَعنَىٰ هَذَا أَنَّ أَي مُسلِم لاَ يَنْظر بعَقلِهِ وَبَصِيرَته، أَو يَتَعصب لهَوَاه وَعَشِيرَته فهُو مُنَابذ لدِينَه وَالحُجّة قَائِمَة عَلَيهِ مِن كِتَاب الله وسُنَّة نَبيّه.

---

(١) أُنظر، الأُصُول العَامَّة للفِقه المُقَارَن، مَدْخَل إِلىٰ دِرَاسَة الفِقه المُقَارَن، العَلاَّمَة السَّيِّد مُحمَّد تَقي الحَكِيم: ٥٧٩، الإِجْتِهَاد وَالتَّقلِيد، حِوَار عَلىٰ الوَرَق، إِعدَاد مُحمَّد الحُسِيني: ١٤ـ ١٥، الفِكْر القَانُوني الإِسْلاَمِيّ، الأُستَاذ فَتحي عُثمَان: ٣٦٠، فِي مَيدَان الإِجْتهَاد للشَّيخ الصَّعيديّ: ٩، خَاطرَات جَمَال الدِّين الأَفغَاني، مُحمَّد بَاشَا الخوَارزميّ: ١٧٧، الإِحْكَام فِي أُصول الأَحْكَام، لعَليّ أبن مُحمَّد الآمُدي: ٤ / ٢٣٠.

(٢) أَلقَىٰ الفَيلَسُوف الفَرنسي «رُوجِيه جَارُودي» مُحَاضرَة فِي القَاهرَة بدَار الأَهرَام، نَشرتهَا مَجلّة الطَّلِيعَة المَصْريّة بتَأرِيخ آذَار (١٩٧٠م)، وَجَاء فِيهَا. أَنَّ هَذِهِ الكَلمَة قَالهَا مَاركس فِي أَوَّل كِتَاب لهُ، وكَان عِمرَه آنذَاك (٢٥) سَنَة، وَأَنَّه لَم يُردّدهَا بَعْد ذَلِكَ. (مِنْهُ ﷺ).
أُنظر، كِتَاب أَفيُون الشُّعُوب لِلعَقَاد، وسُبل الهُدَىٰ والرَّشَاد: ١ / ٣١.

اليهود والمسيحيّة والتّعصب:

التّعصب عِندَ اليَهُود دِين وعَقِيدَة، لأَنّهُم ـ كمَا يَزعمُون ـ شَعْب الله المُختَار بَنصّ التَّورَاة، فهُو سُبْحَانَه لهُم وَحدَهُم، وَلاَ يَعْنِيه مِن شَيء فِي السَّمَاء والأَرْض سِوىٰ مُشكْلاَتِهم[١]. وَكَفىٰ دَلِيلاً عَلَىٰ تَعْصب المَسيحيَّة مَا سَجّلَه التَّأرِيخ مِن فَجَائِع الكَنِيسَة فِي القرُون الوسطَىٰ.

وَتَسأَل: لمَاذَا نُسبَت عَصبيَة مَن تَعْصب مِن المُسْلِمِين إِلَىٰ ذَاتَه وَمُعَانَدَته لدِينَه، لاَ إِلَىٰ الإِسْلاَم، وَنُسبَت عَصبيَة مَن تَعَصب مِن المَسيحيِّين إِلَىٰ المَسيحيَّة لاَ إِلَىٰ ذَات المُتَعصب وَمُعَانَدَته لدِينَه، مَع العِلْم بأَنَّ إِنجِيل مَتىٰ يَقُول: «أَحبّوا أَعدَاءكُم، بَارِكُوا لأَعينكُم، أَحسنُوا إِلَىٰ مُبغضِيكُم»[٢]؟. أَلَيْس هَذَا تَحيز مِنْك وَتَعَصب؟.

الجَوَاب:

لَقَد نَصّ ٱلْقُرْءَان الكَرِيم صَرَاحَة عَلَىٰ حُرمَة التَّعصب ـ كمَا سَيَأتي وأَيْضاً نَصّ عَلَىٰ أَنَّ «الْحَلاَلَ مَا أَحَلَّ اللهُ، وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَ اللهُ»[٣]. وَمَا لأَحد مِن خَلقِهِ أَنْ يُشرّع مِن عِندَه، وَيَحكُم بغَير مَا أَنزَل الله. قَالَ سُبْحَانَه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[٤]؛ وَقَالَ: ﴿فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[٥].

---

(١) أُنظر، سِفر التَّثنيَة الإِصحَاح: ٦ فِقرَة ٦. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، إِنجِيل مَتىٰ الإِصحَاح: (٥ فِقرَة ٤٣). (مِنْهُ ﷺ).

(٣) أُنظر، خُطَب نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٢ / ٩٤، جُزء مِن خُطبَةٍ لَهُ (١٧٦).

(٤) ٱلْمَائِدَة: ٤٥.

(٥) ٱلنِّسَاء: ٥٩.

أَمَّا إِنجِيل مَتىٰ الَّذي يَقُول: « أَحبّوا أَعداءكُم، بَاركُوا لأَعينكُم، أَحسنُوا إِلَىٰ مُبغضِيكُم » فَإِنّه قَالَ أَيضاً لرِجَال الكَنِيسَة: « كُلّ مَا تَربطُونَه فِي الأَرْض يَكُون مَربُوطاً فِي السَّماء، وَكُلّ مَا تَحلُونه فِي الأَرْض يَكُون مَحلُولاً فِي السَّماء »[١]. وَمَعنىٰ هَذَا أَنَّ الدِّيَانَة المَسيحيَّة تُؤخذ مِن رجَال الكَنِيسَة لاَ مِن الأَنَاجِيل فَقَط وَكَذلكَ الدِّيَانَة اليَهوديَّة تُؤخذ مِن رجَال البَيع لاَ مِن التَّورَاة وَحدهَا، فَقَد جَاء فِي إِصْحَاح إِشعيَا: « مِن صهيُون تَخرج الشَّريعَة، ومِن أُورشلِيم كَلمَة الرَّب »[٢]. عَلَىٰ العَكس تَمَاماً مِمَّا جَاء فِي ٱلقُرْءَان الكَرِيم الَّذي قَالَ لمُحمَّد ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[٣]؛ وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾[٤]؛ وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[٥].

فِيتُو الكَنِيسَة ضِدّ الإِنجِيل:

كَان المَسيحيُون يَلعنُون اليَهُود فِي كُلّ صَلوَاتهِم، لأَنَّهُم السَّبَب الأَوّل لصَلب السَّيِّد المَسِيح، كمَا يَزْعمُون، وفِي سَنَة (١٩٦٥ م) حَصَل اليَهُود عَلَىٰ وَثِيقَة بَابَا رُوما بتَبرئَة اليَهُود مِن دَم المَسِيح ... وَهَذِهِ الوَثِيقَة تُعَارض نصّاً صَريحاً فِي إِنْجِيل مَتىٰ، وَهِي « أَنَّ دَم المَسِيح عَلَىٰ اليَهُود وَأَولاَدهُم »[٦]، وَمَع ذَلِكَ وَافق الكَاثُولِيك

(١) أنظر. إِنجِيل مَتىٰ الإِصحَاح: (١٨ فِقرَة ١٨). (مِنهُ ﵀).
(٢) أُنظر. الإِصحَاح إِشعيَا: (٢ فِقرَة ٣). (مِنهُ ﵀).
(٣) آلِ عِمْرَانَ: ١٢٨.
(٤) آلِ عِمْرَانَ: ١٥٤.
(٥) ٱلأَنْفَال: ٣٩.
(٦) أُنظر. إِنْجِيل مَتىٰ الإِصحَاح (١٦ فِقرَة ٢٦). (مِنهُ ﵀).

وَالبُروتستَانت عَلَىٰ وَثِيقَة البَابا وَبَاركُوها وَتَركُوا لَعن اليَهُود فِي صَلوَاتهم!... وَمَعنىٰ هَذَا أَنَّ للكَنِيسَة كُلّ الحَقّ فِي إِستعمَال الفِيتُو ضِدّ الإِنجِيل، فَتَنسخ مِنهُ مَا تَشَاء حِين تُريد.

ومِن طَرِيف مَا قَرَأت حَول هَذِهِ التَبرئَة مَا نَشَرتهُ جَرِيدَة الأَخبَار المَصريَة: «أَنَّ مُحَامِياً يَهودياً أَصرَّ عَلَىٰ بقَاء لَعن اليَهُود، وَاستَأنَف الحُكم بتَبرَئتهم مِن دَم المَسِيح بزَعم أَنَّ لَعن النَّصارىٰ شَرَف كَبِير لمَن يَلعنُوه، وَلَكن المَحكَمَة الَّتي أستُؤنف إِلَيهَا الحُكم رَفضَت دَعوىٰ المُحَامي اليَهودي، لأَنَّهَا قَضيَّة تَأرِيخيَّة، وَلَيس لهَا أَطرَاف مُتَخاصِمَة»[١].

وعَلَىٰ أَيّة حَال فَقَد اتَّضح مَع الأَيَّام أَنَّ الهَدَف مِن هَذِهِ التَّبرئَة هُو دَعم الصّهيُونيَة وَإِسرَائِيل لكَي تُحقّق أَطمَاعهَا عَلَىٰ حِسَاب العَرب والمُسْلِمِين... وَلاَ ضَير إِطلاَقاً فِي إِعتدَاء إِسرَائِيل عَلَىٰ المُقدّسَات المَسِيحيَة فِي فَلسطِين مَا دَامَت الصّهيُونيّة فِي طَرِيقهَا لإِيجَاد الدَّولَة الَّتي نَصّت عَلَيهَا التَّورَاة، وَحَدّدتها مِن النِّيل إِلَىٰ الفُرَات[٢].

كُلّ هَذَا وَغيرَه كَثِير يَدل عَلَىٰ أَنَّ الإِنجِيل المَوجُود الآن يُجِيز لرجَال الكَنِيسَة أَنْ يَتجَاوزُوا أَي نَصّ مِن نصُوصَه. أَمَّا القُرءَان الكَرِيم فَقَد أَعلَن بوضُوح بقَوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٣]؛ وَقَوله تَعَالَىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾[٤].

---

(١) أنظر، جَرِيدَة الأَخبَار المَصريَة تَأريخ (٩/٧/١٩٧٢م). (مِنهُ ﷺ).
(٢) أنظر، سِفر التَّكوين الإِصحَاح (١٥ فِقرَة ١٨). (مِنهُ ﷺ).
(٣) الحِجر: ٩.
(٤) فُصّلَتْ: ٤٢.

الإسلام والتعصب:

سبق أن أشرنا إلى أن نصوص القرءان والسنة النبوية تنهى عن التعصب وتأمر بالاحتكام إلى العقل، ونذكر الآن أمثلة من هذه النصوص... قال سبحانه في الآية: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[1].

والمراد بالقول هنا ما يشمل كل قول حتى الحكم بالإعدام والشهادة المؤدية إليه. وفي الآية: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[2].

أي الذين ينصفون الناس من أنفسهم، ويثق المحق بإخلاصهم، ويخشى المبطل من عدلهم.

وقال الرسول الأعظم ﷺ: «أيها الناس ربكم واحد، وأبوكم واحد، كلكم من آدم، وآدم من تراب»[3]، وما دام مصدر الكل ومعدنهم واحد فما هو المبرر للعصبية؟ وأين الفوارق التي تفصل وتميز بين القرشي والحبشي، والعدناني والقحطاني، والآري والسامي؟. وأيضاً قال: «ومن خرج قيد شبر عن الجماعة فقد خلع ربقة الإسلام عن عنقه»[4]... «ومن فارق الجماعة مات ميتة

---

(١) الأنعام: ١٥٢.

(٢) الممتحنة: ٨.

(٣) أنظر، سنن البيهقي: ٩ / ١١٨، سبل الهدى والرشاد: ٥ / ٢٤٢، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٧ / ٢٨١، بحار الأنوار: ٣١ / ٣٥.

(٤) أنظر، المجموع: ١٩ / ١٩٠، المبسوط للسرخسي: ٧ / ٢٦٣، روضة الطالبين: ٧ / ٢٧، مغني المحتاج: ٤ / ١٢٤، حواشي الشرواني: ٩ / ٦٥، كشف القناع: ٦ / ٢٠٦، إعانة الطالبين: ٤ / ١٧٨، نيل الأوطار: ٧ / ٣٥٧، المحاسن: ١ / ٩٤، الكافي: ٥ / ٤٠٥ ح ٤.

جاهلية »[١]. ومعنىٰ هذا في ظاهره أنّ التّعصب كُفر وَإرتداد.

مَن البادي بتفريق المُسلمين؟:

كَان الصّحابَة بَعْد رَسُول الله ﷺ يبذلُون المُهج وَالأرواح مِن أجل مَصلَحَة الإسلاَم وَمُقدّساته، وَلاَ يَشهر وَاحد مِنْهُم السّيف عَلَىٰ أخِيه أيّاً كَانَت الأسبَاب حَتّىٰ وَلو تنَافسُوا عَلَىٰ الرّيَاسَة وَالخِلاَفَة.... أبداً لاَ يَلقُون بأسهُم إلاّ عَلَىٰ أعدَاء التّوحِيد وَعصَابَة الشّرك وَالإلحَاد.

وَأوّل مَن خرَج عَلَىٰ هَذَا المَبدَأ ٱلْقرْءَاني، وَفتَح البَاب بَاب القَتل وَالقتَال بَيْنَ الصّحَابَة أنْفسهُم هُما طَلحَة وَالزُّبَيْر فِي وَقعَة الْجَمَل[٢]... وَقد دَفَع العَالَم

(١) أنظر، مُنْتهَىٰ المَطلب للعلاّمَة الحِلي: ٢ / ٩٨٣، سُبل السّلاَم: ٣ / ٢٦١ ح ٥، نَيل الأَوطَار: ٧ / ٣٥٦ ح ٣١٨١، سُنن البَيْهَقِيّ: ٨ / ١٥٧، تَيسِير الوصُول: ٢ / ٣٩، صَحِيح مُسْلِم: ٦ / ٢١.

(٢) ذكر قِصَّة الْجَمَل، وكِلاَب الْحَوْأب، الطّبري فِي تَأريخه: ٣ / ٤٧٥، وَأسم جَمل أمّ الْمُؤمِنِينَ يسمّىٰ «عَسكَراً» وكَانَ عَظِيم الخَلق شَدِيداً، فَلَمَّا رَأتهُ أعجَبهَا، وَأنشأ الجمّال يُحدّثها بقُوّته، وشِدَّتِهِ، ويَقُول فِي أثنَاء كَلاَمه «عَسْكر» فَلَمّا سَمعَت هَذِهِ اللّفظة أسترجَعت، وَقَالت: ردّوه لاَ حَاجَة لِي فِيهِ، وذَكرت حِين سُئلت أنّ رَسُول الله ﷺ ذَكر لهَا هَذَا الاِسم، وَنَهاهَا عَن ركُوبه وَأمرت أنْ يُطلب لهَا غَيْره، فَلم يُوجد لهَا مَا يُشبهه فَغيّر لهَا بجلالٍ غَيْر جَلاله، وَقِيل لهَا: قَد أصبنَا لَكِ أعظم مِنْهُ خَلقاً، وأشدّ مِنْهُ قوّة، وأتيت بِهِ فَرَضيت!

أنظر، شَرح النّهج لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ٦ / ٢٢٤، وَفِي: ٦ / ٢٢٧ (أنّ عَائِشَة رَكَبت يَوْم إلَىٰ الْجَمَل المُسمّىٰ عَسْكراً فِي هَودجٍ قَد أُلبس الرّفُوف، ثُمّ أُلبس جلُود النّمر، ثمّ أُلبس فَوق ذَلِكَ درُوع ٱلحَدِيد)، فِي تَأرِيخ ٱبن أعْثَم: ١٧٦ مِثْله، وَزَاد الطّبَرِيّ فِي تَأرِيخه: ٥ / ٢١٢، وأبن الأثِير: ٣ / ٩٧ أنّ ضَبّة، والأزد أطَافت بعَائِشَة يَوْم الْجَمَل. وَإذَا رجَال مِن الأزد يَأخذُون بَعر الْجَمَل يَفتّونه ـ يكسرُونه بأصَابِعِهِمْ ـ وَيَشمّونه ويَقُولُون: بَعرُ جَمَل أُمّنا رِيحهُ رِيح المِسك...

مُروج الذّهب: ٢ / ٣٦٦، تَأرِيخ الطّبري: ٥ / ١٧٨، وَطَبعة أوروبا: ١ / ٣١٢٧، أبن كَثِير فِي ↔

الإسلامي الثمن فادحاً لهذه الوقعة الميشومة.

وإليك بعض آثارها وأسواءها:

١ ـ جرأت معاوية أن ينازع الإمام الخلافة، ويحشد الجيوش لحربه في صفين[١]. وتمخضت هذه الحرب عن وقعة النهروان[٢].

↔ تأريخه: ٦/٢١٢، السيوطي في خصائصه: ٢/١٣٧، والبيهقي، والمستدرك: ٣/١١٩، والإصابة: ٦٢، السيرة الحلبية: ٣/٣٢٠، مسند أحمد: ٦/٩٧، السمعاني في ترجمة الحوأب في الأنساب، والسيرة الحلبية: ٣/٣٢٠، ومنتخب الكنز: ٥/٤٤٤.

(١) على وزن سجين. موضع قريب من الرقة بشاطىء الفرات وهو من الصف أو من الصفون فعلى الأول النون زائدة، وعلى الثاني أصلية كذا في المصباح.

أنظر، مصباح المنير: ٢٩٤، قعة صفين: ١٣١، والفهرست لابن النديم: ١٣٧، ابن خلكان: ١/٥٠٦، الطبري في تأريخه: ٥/٢٣٥، الإشتقاق: ١٥٢، غيرهم كثير.

ولما اتفق معاوية وعمرو على حرب علي قدم جرير بن عبدالله البجلي على علي عليه السلام فأعلمه بذلك.

قال صاحب الفصول المهمة: فخرج وعسكر بالنخيلة. أنظر، الفصول المهمة في معرفة الأئمة لابن الصباغ المالكي: ١/٤٤٦، بتحقيقنا، الفتوح لابن أعثم: ١/٥٧١، الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١٢٠، تأريخ الطبري: ٣/٥٦٣.

(٢) النهروان، مكان بين بغداد وحلوان، وقد حصلت فيه الواقعة المعروفة بوقعة الخوارج سنة (٣٧هـ).

وسببها أن أمير المؤمنين لما عاد من صفين انحرفت طائفة من جيشه في أربعة آلاف فارس، وهم العباد والنساك أصحاب الجباه السود، وقالوا للإمام: تب من خطيئتك في تحكيم الرجال.

فقال لهم الإمام: «ألم أقل لكم: أن أهل الشام يخدعونكم بالمصاحف فإني قد عرفتهم، فذروني أناجزهم. فأبيتم إلا التحكيم، وأردت أن أنصب ابن عمي عبدالله بن عباس حكماً؛ فإنه رجل لا يخدع. فأبيتم إلا أبا موسى الأشعري، وقلتم رضينا به حكماً، فأجبتكم كارهاً. ولو وجدت أعواناً غيركم في ذلك لما أجبتكم. وشرطت على الحكمين بحضوركم أن يحكما بما أنزل الله تعالى في كتابه من فاتحته إلى خاتمته، وإن هما لن يفعلا فلا طاعة لهما.

↔

٢ ـ فرّقت المُسْلِمين إلىٰ شِيع وطوائف : **طائفة تقُول** : كِلاَ الفريقين كافر ، وثانيَة : كلاهُما فاسق ، وثالثَة : كلاهُما تأوّل فأخطأ ، ورابعَة : أحدهُما فاسق والآخر مُؤمِن ، وخامسَة : أرجأت وأمسكَت عَن القَوْل[1] .

↔ فلَم يَسْمعوا لَهُ ، وَانصرفُوا عَنْهُ ، وهُم يقولُون : « لاَ حُكْمَ إلاّ للهِ » .

وَهِي تعبير ثانٍ عَن قَوْله تَعالى : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ . يُوسُف : ٦٧ .

وَلكن الخَوارج استدلوا بِقَول الله علىٰ تبرير مَعْصِيَة الله الّذي قَالَ : ﴿**أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ . ٱلنِّسَاء : ٥٩ .

وَالإمَام مِن أُولي الأمْر . وَالخَوارج مَرَقوا مِن الدِّين لأنّهم عَصوا الإمَام وَأفسَدوا فِي الأرْض . وَثبُت عَن الرَّسُول ﷺ بالتّوَاتر أنَّه وَصَف الخَوارج بقَوْله : « يَمْرقُون مِن الدِّين كمَا يَمرُق السَّهم مِن الرَّمِيّة » .

أنظر ، صَحِيح البُخاريّ : ٩ / ٢١ ، صَحِيح مُسْلِم : ٢ / ٧٤١ ، كَنز العُمّال : ١١ / ٢٠٨ . وَفِي الخُطْبَة (٤٠) ذكَر الإمَام قَول الخَوارج ، وَردّ عَلَيْهِ بِمَنْطِق الدِّين وَالعَقل ، وَشَرحنَا ذلِكَ مُفصّلاً ، وَتكلّمنَا عَن الخَوارج بِمَا فِيهِ الكفَايَة .

وَأمّروا عَلَيهم رَجُلا يُلَقب بِذي الثَّدية ، لأَن يَده كَانَت كثَدي المَرأة ، عَلَيها شَعرات كشَارب الهرّ .

أنظر ، المُحَاورَة الَّتي دَارت بَيْنَ الإمَام عَليّ ﷺ وبَيْنَ أهْل العِرَاق .

فَقَالَ لَهُمْ عليّ ﷺ ، قَد عَصيتمُوني فِي أوّل الأمْر ، وَلاَ تعصوني الآن لاَ أرىٰ أنْ تولّوا أبَا مُوسَىٰ الحُكُومَة فإنّه يَضعف عَن عَمْرُو ، وَمَكايده ، فَقَالَ الأشْعَث ، وزَيد بن حصين الطّائي ، ومسعر بن فَدَكي : لاَ نرضىٰ إلاّ بِهِ ؛ فإنّه قَد حذّرنا مِمّا وَقعنا فِيهِ فَلم نَسمع مِنْهُ .

أنظر ، وَقعَة صِفّين : ٤٩٩ ، الإصَابَة لِابْن حجر رَقم ٢٨٨٧ وَقدْ سَبقَتْ خُطْبَة له فِي وَقْعَة صِفّين : ٩٩ و ١٠٠ ، الفُتُوح لِابْن أعْثَم : ٢ / ١٩٣ ، وأنْسَاب العَرَب : ٣٧٨ ، والطَّبَريّ : ٦ / ٢٨ ، و : ٤ / ٣٦ طَبعَة أُخرىٰ .

فَقَالَ عليّ ﷺ : إنّ أبَا مُوسَىٰ لاَ يَكمل فِي هَذَا الأمْر ، وَلَكن هَذَا ابن عَبّاس دَعوني نُوليه ؛ فإنّه أدرىٰ مِنهُ بِهَذِه الأُمُور . فقَالُوا : والله لاَ نُبَالي أنْتَ كُنت أم ابن عَبّاس لاَ نُريد إلاّ رجلاً هُو مِنك وِمن مُعَاوِيَة سَوَاء ، فَقَالَ : فَدعُوني أجعل الأشْتَر . قَالُوا : وهَل سعّر الأرْض ناراً إلاّ الأشْتَر ؟ !

الفُتُوح لِابْن أعْثَم : ٢ / ١٩٤ ، والأخْبَار الطِّوال : ١٩٢ ، وتَأرِيخ الطّبَريّ : ٤ / ٣٧ ، يَنَابِيع المَوَدّة : ٢ / ١٧ ، وَقعَة صِفّين : ٢٧١ و ٥٠٣ ، تَهْذِيب ابْن عسَاكر : ٥ / ١٣٢ ، الطّبَريّ : ٦ / ٢٥ ، و : ٤ / ٣٧ طَبعَة أُخرىٰ ، وَقعَة صِفّين : ٥٠١ .

(١) أنظر ، شَرح النَّهج لِابْن أبي الحَدِيد : ٢ / ٢٦٦ تحقِّيق مُحَمّد أبُو الفَضْل ، الكَامِل فِي التَّأرِيخ :

٣ ـ فَتَحت وَقعَة الْجَمَل البَاب لبِدعَة الْإِجْتهَاد فِي مَورد النَّص ، وَالتَّحايل عَلَىٰ حَلاَل الله وَحَرَامه . . . قَالَ رَسُول الله ﷺ : « عَمَّار تَقْتلهُ الفِئَة البَاغِيَة ، يَدعُوهم إِلَىٰ الجنَّة ، وَيَدعُونه إِلَىٰ النّار »[1] . وَقَالَ للزُّبَيْر : « أَمَا إِنَّك ستُقَاتل عَلِيّاً ، وَأَنْتَ لهُ ظالِمٌ »[2] ! . وَقَالَ المُبتَدعُون : كلَّا ، مَا بَغي مَن قَتل عَمّاراً ، وَلاَ ظَلم مَن قَاتَل عَلِيّاً ، بَل إِجْتَهد فَأخطَأ ، و « أَنَّهم كَانُوا فِيهَا مُتَأوِّلِين وَللمُجْتَهد الْمخطِىء أَجر »[3] . وَقَالَ الْإِمَام الشّوكَانِيّ : « إِنَّ حدُوث التَّمذهب بِمَذْهَب الْأَئِمّة الْأَرْبَعة

---

٣ / ١٩٠ و ٣٤٣ ـ ٣٤٦ ، تَاج العَرُوس : ٤ / ٣٧٩ ، النِّهاية : ٢ / ١٩ ، تَارِيخ الطَّبَرِيّ : ٥ / ٧٢ ، مرُوج الذَّهب : ١ / ٤١٥ ، تَذكرة الخواصّ : ١٠٠ ، المُسْتَرشد فِي الْإِمَامَة : ٦٧٣ ، صَحِيح البُخَارِيّ : ٩ / ٢١ ، صَحِيح مُسْلِم : ٢ / ٧٤١ ، الْفِتْنَة الْكُبْرَىٰ ـ ٢ ـ عليّ وبَنُوه للدّكتور . طَه حُسَين : ١٨٨ طَبْعَة دَار المَعَارف بِمَصر .

(١) أنظر ، المُسْتَدرَك عَلَىٰ الصَّحِيحَين : ٣ / ٤٣٢ ح ٥٦٤٦ و ٥٦٦٦ ، مَجْمَع الزّوائد : ٩ / ٢٩٣ ، الْمُعْجَم الْأَوسط : ٢ / ١٤١ ح ١٥٠٨ ، الْمُعْجَم الْكَبِير : ٢٤ / ٧٦٩ ، شُعب الْإِيمَان : ٢ / ٢٣٩ ح ١٦٣١ ، تَهذِيب الكَمَال : ٢١ / ٢١٦ ، تَارِيخ بَغدَاد : ١ / ١٥٠ رَقم « ٦ » و : ٣ / ٣١٤ و : ١١ / ٣٤٣ ، الإِسْتِيعَاب : ٤ / ١٥٨٩ ح ٢٨٢٢ ، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ : ٣ / ٢٤٩ و : ٤ / ١٣٦ ، الْإِصَابَة : ٤ / ٢٦٦ رَقم « ٥٠٣٤ و ٥٧٠٨ » و : ٦ / ٦٣٩ رَقم « ٩٢١٤ » و : ٧ / ٧١٢ رَقم « ١١٣٣٦ » ، تَهذِيب الأَسمَاء : ٢ / ٣٥٢ و ٤٤٦ ، عِلل الدّار قُطني : ٣ / ٣٥ ح ٢٧٢ ، السِّيرَة النَّبَوِيَّة : ٢ / ١٦٢ .

أنظر ، صَحِيح البُخَارِيّ : ١ / ١٢٢ ، صَحِيح مُسْلِم : ٤ / ٢٢٣٥ ، صَحِيح التِّرمذي : ٥ / ٦٦٩ ، مُسْنَد أحمَد : ٢ / ١٦١ و ١٦٤ ، و : ٤ / ١٩٧ ، و : ٦ / ٢٨٩ ، مُسْنَد أَبي دَاود الطَّيَالسِي : ٣ / ٩٠ ، حليَة الْأَوْلِيَاء : ٤ / ١١٢ .

(٢) أنظر ، الْفُتُوح لِابْن أَعْثَمْ : ١ / ٤٧٥ ، الطَّبَرِيّ : ٣ / ٥١١ ، اَبن قُتَيْبَة فِي الْإِمَامَة وَالسِّيَاسَة : ١ / ٩٣ ، البِدَاية وَالنِّهَايَة : ٧ / ٢٧٧ ، مُروج الذَّهب : ٢ / ٣٦٢ ، الْإِسْتِيعَاب : ٢٠٣ ، تَارِيخ الطَّبَرِيّ : ٥ / ١٩٩ ، و : ٣ / ٥٤٠ طَبعَة أُخرىٰ ، الْأَغاني : ١٦ / ١٢٦ ، اَبْن أَبِي الْحَدِيد فِي الشَّرح : ١ / ٧٨ ، تَهْذِيب اَبْن عسَاكر : ٥ / ٣٦٤ ، أُسد الغَابَة : ٢ / ١٩٩ ، اَبْن الْأَثِير فِي تَارِيخه : ٣ / ٩٤ ، العِقد الفَرِيد : ٤ / ٣٢٢ ، المُسْتَدرَك : ٣ / ٣٦٦ ، كَنز الْعُمَّال : ٦ / ٨٢ ح ١٢٨٣ و ١٢٩٠ و ١٣١٨ ـ ١٣٢٠ ، الذَّهبي فِي النُّبلاء : ١ / ٣٨ ، تَارِيخ اليَعقُوبي : ٢ / ١٥٨ ، الْإِصَابَة : ١ / ٥٢٧ ، مُسْنَد أحمَد : ١٦٥ .

(٣) أُنظر ، الْإِصَابَة لِابْن حَجَر : ٧ / ٢٦٠ ، شَرح المُحلّىٰ عَلَىٰ جَمع الجوَامع : ١١ / ٩٧ ح ٢١٥٤ ، شَرح

إنّما كَان بَعد انقرَاض الأئمّة الأرْبَعة، وإنّما أحدثهَا العوَامّ المُقلّدة مِنْ دُون أنْ يَأذن بهَا إمَام مِنْ الأئمّة المُجتَهدِين، وكأنّ هَذِه الشّرِيعَة الّتي بَيْن أظهرنَا مِنْ كِتَاب الله وسُنّة رَسُوله ﷺ قَد صَارت مَنْسُوخةً، وَالنّاسخ لهَا مَا ابتَدعُوه مِنْ التّقْلِيْد فِي دِين الله »[1]. طَائِفَة تَفقّهت فِي مَذْهَب مَنْ انتَسبت إلَيه، وَحَفظت فَتَاوِيه وَفُرُوعه، وَأقرّت عَلَىٰ نَفْسهَا بِالتّقْلِيْد المَحْض مِنْ جَمِيع الوجُوه، فَإنْ ذَكرُوا الكِتَاب والسُّنّة يَوماً مَا فِي مَسْألَةٍ فَعَلَىٰ وَجْه التّبرّك وَالفَضِيلَة، لاَ عَلَىٰ وَجْه الإحْتجَاج وَالعَمَل، وَإذَا رَأوا مِنْ الصَّحَابَة قَد أفْتُوا بِفُتيَا وَوجَدُوا لإمَامهم فُتيَا تُخَالفهُم أخذُوا بِفُتيا إمَامهم وَتركُوا فَتَاوىٰ الصَّحَابَة)[2].

وَهَذَا الإجْتهَاد المَاكر الخَادع هُو الّذي أغرىٰ شَيخاً مِن مَشَاهِير المَذْهَب الحَنَفي، يَدّعي الكَرخي، وَجَرّأه أنْ يَقُول: كُل آيَة فِي الْقُرْءَان، أو روَايَة عَن رَسُول الله ﷺ تُخَالف مَا قَرّره مَذْهَب أبي حَنِيفَة فَهي مُؤوّلة أو مَنسُوخَة[3].

وَعَلّق المُؤلّف عَلَىٰ هَذِهِ البِدعَه بقَوله: « يَا لله للمُسْلِمين!... ألَيْس مَعنَىٰ هَذَا أنّ قَول عُلمَاء الأحنَاف هُو المُتَحكّم وَالمُهَيمن عَلَىٰ كِتَاب الله وَسُنّة نَبيّه، فإنْ أمكَن تَأويلهَا وموَافَقتهُما لمَذهب أبي حَنِيفَة فَذَاك وَإلاّ حَكَم عَلَيهمَا بالإعْدَام » أي

↔ صَحِيح مُسْلم: ٧ / ١٦٨، مُسْنَد أبي يَعلىٰ: ٢ / ٦ ح ٦٣٠.

(١) أنظر، رسَالة القَول المُفِيد فِي أدلّة الإجْتهَاد وَالتّقْلِيْد، مُحمّد عَليّ الشّوكَاني: ١٧.

(٢) أنظر، أعْلاَم المُوقعِين، عَنْ رَبّ العَالمين: ٤ / ٢١٢، وَرَاجع الأصُول العَامّة للفِقْه المُقَارَن، مَدْخَل إلى دِرَاسَة الفِقْه المُقَارَن، العَلاّمَة السَّيِّد مُحمّد تَقي الحَكِيم، وَالوَافِية فِي أصُول الفِقْه للفَاضل التُّوني.

(٣) أنظر، تَفْسِير المَنَار للآيَة (١٦٧): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ مِن ٱلْبَقَرَة. وكِتَاب مَا لاَ يَجُوز فِيهِ الخِلاَف لوَزِير الأزهَر الشّيْخ عَبدالعَزِيز عِيسىٰ الفَصْل الثّامِن. (مِنْهُ ﷺ).

النَّسخ .

وهذا الإشكال وارد على كل من إجتهد في مورد النص، ولكنه يرد أيضاً على جميع المذاهب الأربعة، لأنها تعتمد بكاملها على القياس، وأن اختلفت في استعماله سعة وضيقاً، وهو كما حددوه يؤول إلى إثبات النص في مورد عدم النص ونسبته إلى النبي مع علمهم بأنه سكت عنه، وهذا أعظم من الإجتهاد في مورد النص... واختصاراً أن السنة سدوا باب الإجتهاد في إستخراج الحكم من النص الثابت، وفتحوا باب الإجتهاد في إثبات النص حيث لا نص[1].

الخلفاء وبعض الفقهاء:

٤ ـ أنَّ الخلفاء وبعض الفقهاء رأوا في تلك البدع سابقة من سنة الأولين يقتدون بها في التحايل على الدين. وتكييفه طبقاً لأهوائهم وأغراضهم... وعلى سبيل المثال نذكر الحادثة التالية:

---

(١) وقد لاحظت هذا الواقع في كثير من علماء الإسلام من أهل السُّنَّة يوم سدوا على أنفسهم أبواب الإجتهاد. وحصروا التقليد بخصوص أئمتهم. حيث ظلت الحركة الفكرية واقفة عند حدودها لديهم قبل قرون. وما ألف بعد ذلك كان يفقد في غالبه عنصر الأصالة والإبداع.

فقد أقفل باب الإجتهاد فيها، بتأثير عوامل مختلفة. وذلك منذ منتصف القرن الرابع الهجري. أنظر. الإجتهاد في الإسلام أصوله. أحكامه. آفاقه. للدكتورة نادية شريف العمري: ٢١٨.

وقال السيد جمال الدين الأفغاني: «ما معنى باب الإجتهاد مسدود؟ وبأي نص سد باب الإجتهاد..»؟. وقال أيضاً: «لا أرتاب في أنه لو فسح من أجل أبي حنيفة، ومالك، والشافعي. وابن حنبل وعاشوا إلى اليوم لظلوا مجتهدين ومجددين. يستنبطون لكل قضية حكماً من القرءان. والحديث. وكلما ازداد تعمقهم وتمعنهم ازدادوا فهماً دقيقاً».

أنظر. خاطرات جمال الدين الأفغاني. محمد باشا الخوارزمي: ١٧٧.

قَالَ ابن خِلّكَان فِي « وَفِيَات الأَعْيَان » تَرجَمَة القَاضي أَبي يُوسُف صَاحِب أَبِي حَنِيفَة : « إِنَّ هَارُون الرَّشِيد أَحَبَّ جَارِيَة عِيسىٰ بن جَعْفر ، فَسَأله هِبَتها لهُ ، أَو بَيْعَها فَأَبىٰ ، وَقَالَ : بِالطَّلاَقِ ، وَالعِتَاقِ ، وَصَدَقَة جَمِيع مَا أَملك إِنْ بعتهَا أَو وَهَبتهَا ، فَطَلب الرَّشِيد مِن أَبي يُوسُف ، أَنْ يُوجد لهُ حَلاً شَرعِيّاً لِهَذِه المُعْضِلَة . فَقَالَ أَبو يُوسُف لِعيسىٰ : هِبْه نِصْفها ، وَلاَ حَنث فِي ذَلِكَ ، لأَنَّك مَا بِعْتَها كـلّها وَلاَ وَهَـبتَها كلّها .

فَفَعل عِيسىٰ ، وَحُملَت الجَارِية إِلىٰ الرَّشِيد ، وَهُو فِي مَجلِسَه ، فَقَال الرَّشِـيد لأَبِي يُوسُف بَقِيَت وَاحدة . قَالَ : وَمَا هِي ؟ قَالَ : هِي جَارِية وَلاَ بُدَّ أَنْ تَسْـتَبرىء وَإِذَا لَم أَبت مَعَهَا لِيلي هَذَا خَرَجَت نَفْسي . قَالَ أَبُو يُوسُف : أَعْتِقها فَتَصبَح حُرَّة ، وَأعقد عَلَيْهَا بَعد العِتق فَإِنَّ الحُرَّة لاَ تَسْتَبرىء ، فَأَعتَقها الرَّشِيد ، وَعَقد لهُ عَـلَيْهَا أَبُو يُوسُف ، وَقَبَض مِئَتي أَلف . . . كُلّ ذَلِكَ حَدَث فِي سَاعَة وَاحِدَة ، وَقَبل أَنْ يَقوم الرَّشِيد مِن مكَانه ! »[1] .

---

(١) أنظر ، وَفيّات الأَعْيَان : ٤ / ٢٥٤ ، وَتَأريخ بَغدَاد : ١٤ / ٢٥٣ .

وَعِندما أَفضَت الخِلاَفَة بوَاسطة البَيْعَة المَقِيتة ، وَوِلاَية العَهْد السَّقِيمة ، أَخَذت نَزوَات الرَّشِيد الَّتي غَابَ عَنْهَا القَانُون الشَّرعِي وَالأَخلاَقي تَطفُو عَلىٰ السَّطح ، فَقَد وَقَعت فِي نَفْسه جَارِيَة مِـن جـوَاري المَهدِيَ فرَاودَها عَنْ نَفْسها فَقَالت لاَ أَصْلُح لَكَ ، أَنَّ أَبَاك قَد طَاف بِي ، لَكنّه شَغَف بِها ، فَأَرسَل إِلىٰ أَبِي يُوسُف قَاضِيه الشَّهِير وَالمُلقب بـ« فَقِيه الأَرض وَقَاضِيها » ، فَسَأله الرَّشِيد : أَعِندَك فِـي هَـذَا شَـيء ؟ وَجَاءه الجَوَاب : « إِهْتِك حُرمَة أَبِيك ، وَأَقضِ شَهوته ، وَصَيره فِي رَقَبتي » . أُنظر ، تَأرِيخ الخُلفَاء : ٢٩١ .

وَكَأن قَاضي القُضَاة صَاحب دُكَانَ أو بقَالية عِندما يَسأله الرَّشِيد أَعندَك شَيء ؟ وَمَع الأَسَف الشَّدِيد فِعلاً أَصْبَح قَاضي القُضَاة صَاحب بقَالية ، وَلكنَّ مَائِدتها مِن المَوَاد المُحرَّمَة الَّتي لاَ يَجوز التَّكسب بِهَا ؟ وَفِعلاً أَفتىٰ القَاضي الشَّهِير بِفتوَاه لإِرضَاء شَهوَات الحَاكِم وَالخَلِيفَة ، وَصَاحب البَيْعَة ، وَوِلاَية العَـهد
↔

كُلّ هَذَا العَبَث فِي الدِّين ، وَأكثر مِن هَذاكَان يَحدث فِي المُجتَمع الإِسْلاَمي بَعْد تِلكَ السَّابقَة الَّتي ٱبتَدعهَا المُجْتَهدون فِي مَورد النَّص لتبرير الخرُوج عَلَىٰ الإِمَام ، وَحَشْد الجيُوش لحَرْبه فِي البَصره وَصفّين .

أمْثلَة مِن التّعصب المَذْهَبِي :

وَالْآنْ وَبَعد أَنْ عَرضنَا بَعْض الأَمثلَة مِن بِدعَة الإِجْتِهَاد فِي مَورد النَّص ـ نَعْرض أَمثلَة مِن التَّعصب المَذْهَبي . قَالَ أَحمَد تَيمُور فِي كِتَاب المَذَاهب الأَرْبعَة : « جَاء فِي مُعجَم يَاقُوت أَنَّ أَهْل الرَّي كَانُوا ثَلاَثَة طَوائِف : شِيعَة ، وَحنَفيَّة ، وَشَافعيَّة ، فَتضَافرَت الطَّائِفتَان الأَخِيرتَان عَلَىٰ الشِّيعَة فأَفنُوهُم ، ثُمَّ قَامَت إِلَىٰ بَيْنَ الشَّافعيَّة وَالحَنفيَّة فكَان الظَّفر لأُولئِكَ عَلَىٰ هَؤُلآء ، وَخَرجَت محَال الشِّيعَة وَالحَنفيَّة ، وَبَقِيَت مَحلّة الشَّافعيَّة »[1] .

وِقَالَ الشَّيخ عَبدالعَزِيز عِيسىٰ فِي كِتَاب مَا لاَ يَجُوز الخِلاَف : « سُئل بَعض فُقهَاء الشَّافعيَّة عَن حُكم الطَّعَام الَّذي وَقَعت فِيه قَطرَة نَبِيذ ؟

فَقَالَ : يُرمىٰ لكَلبٍ أَو حَنَفي ! لأَنَّ الحَنفيَّة يَقُولُون بطهَارَة النَّبِيذ وَالشَّافعيَّة

↔ وَالإِخْتِيار ، مِن قِبل أَهْل الحَل وَالعَقد ، وَأَهْل الشُّورَىٰ ، و . . . و . . ثُم لَم يَكتَف بِهَذه الرَّشيد ، بَل أَنَّه ذَات مَرّة سَأل قَاضي القُضَاة : أَنِي ٱشتَريت جَارية . وَأُريد أَنْ أَطأهَا الآنَ قَبل الإِسْتبرَاء ، فَهَل عِندك حِيلَة ؟ قَالَ : نَعم ! تَهَبها لِبعض وِلدك ، ثُم . . . الله أَكبَر ! هَذا فَقيه الأَرض وَقَاضِيها فَلا تَمنَعه الدَّرَاهم وَالدَّنَانِير مِن أي فَتوىٰ ، وَلاَ بُدَّ للرَّشيد أَنْ يُعجل بِها لهُ قَبل الصُّبح ، فَقَالُوا لهُ أَنَّ الخَازن فِي بَيْتِه وَالأَبوَاب مُغلَقه . فَقَال أَبُو يُوسُف : « فَقَد كَانَتْ الأَبوَاب مُغْلَقة حِين دَعَاني فَفُتِحت ! ! » . المَصْدَر السَّابِق : ٢٩٢ .

(١) أُنظر ، أَحمَد تَيمُور فِي كِتَاب المَذَاهب الأَرْبعَة : ٤٩ طَبعَة ١٩٦٥م . (مِنهُ ﷺ) .

بنجَاسته »[١].

وَسُئِلَ بَعْض فُقهَاء الحَنفيَّة عَن زَوّاج حَنَفي بشَافعيَّة ؟

فقَال : يَجُوز الزَّوَاج بِهَا ، لاَ عَلَىٰ أَنَّها مُؤمنَة ، بَل قِيَاساً عَلَىٰ الزَّوَاج باليَهودِيّة وَالنّصرانيَّة »[٢].

وأَيْضاً نَقَل الشَّيْخ عَبدالعَزِيز عِيسىٰ فِي كتَابهِ المَذكُور أَنَّ حَنفيّاً وَشَافعيّاً كَانَا يُصليّان جَمَاعَة ، فَقَرأ الشَّافعي الفَاتحَة ، وَلمَّا سَمعهُ الحَنَفي ضَرَبهُ ضَربَة قَوية عَلَىٰ صَدْرَه وَقَع مِنْهَا عَلَىٰ ظَهرَه حَتَّىٰ كَاد يَمُوت ، لاَ لشَيء إلاَّ لأَنَّ الحَنفيَّة لاَ يُتَابعُون الإِمَام فِي قِرَاءَة الفَاتحَة »[٣].

المُتعَة وَشَيخ أزهَري :

وَحَدّثني أَخ كَرِيم أَنّه إجْتَمع بشَيْخ مِن كـبّار عُـلمَاء الأَزهَـر وَمَشَـاهِيرهَا ، وَعِندَمَا عَرف أَنّي شِيعَي قَالَ ، بحدّة كَادَت تُخرجَه عَن رُشدَه : الشِّيعَة يُـجِيزُون زَوّاج المُتْعَة ، وَالزّنَا خَير مِنْهَا وَأَفضَل !.

وَلاَ أَدري لمَاذَا نَسي هَذَا الشَّيْخ أَو تَنَاسىٰ مُشكْلَة الإِلحَاد وَإِعرَاض النَّـاس عَن الدِّين وَالقِيم ، وَمُشكْلَة قِوىٰ الشَّر وَأَسـلحَتها المُـدمرَة . وَمُشكْـلَة التَّـفرقَة العُنصريَّة وَالصّهيُونيَّة وَوجُود إِسرَائِيل عَلَىٰ الخَرِيطَة ، وَغَيرهَا مِـن المُشكْـلاَت وَالوَيلاَت ، نَسي كُلّ ذَلِكَ ، وَمَا تَذَكر وَذكر إلاَّ المُتعَة حَتَّىٰ كَأَنّها مَركَز الثّقل مِـن

---

(١) أُنظر ، الشَّيْخ عَبدالعَزيز عِيسىٰ فِي كِتَاب مَا لاَ يَجُوز الخِلاَف ، الفَصْل الثَّامِن . (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر ، الشَّيْخ عَبدالعَزيز عِيسىٰ فِي كِتَاب مَا لاَ يَجُوز الخِلاَف ، الفَصْل الثَّامِن . (مِنْهُ ﷺ).

(٣) أُنظر ، الشَّيْخ عَبدالعَزيز عِيسىٰ فِي كِتَاب مَا لاَ يَجُوز الخِلاَف ، الفَصْل الثَّامِن . (مِنْهُ ﷺ).

التوتر الَّذي يَسُود العَالَم فِي شَرقهِ وَغَربهِ !... وأَيْضَاً لاَ أَدري كَيف أَطلَق الحُكم بالزّنَا عَلَىٰ المُتْعَة مِن غَير تَحفظ وَتَردّد مَع العِلْم بأَنَّ كُلّ مَن أَبطَل المُتعَة مِن فُقهَاء السُّنَّة أَدخَلها فِي بَاب الشُّبهَة وَالجَهل بالتَّحريم ؟ .

وإذَا كَان غَضَب الشَّيْخ لدِين الله، وَحَافزَه الغيرَة عَلَىٰ الشَّريعَة فكَان عَـلَيهِ أَنْ يَنسَجم مَع دِينَه وَضَميرَه، وَيُنكر مَا جَاء فِي فِقْه مَذَاهب السُّنَّة مِن أَحكَام تمجّها الأَسمَاع وَالأَفئدَة، وَتُسيء إلَىٰ الإسْلاَم وَشَريعَته، وَفِيمَا يَلي نَعْرض طَرفَاً مِـنْهَا عَلَىٰ سَبِيل التَّمثِيل[1] .

(١) مِنْ مَعَاني المُتْعَة الزَّوَاج إلَىٰ أَجَل، وَقَدْ اَتّفَق المُسْلمُون قَولاً وَاحداً السُّنَّة مِنْهُم والشّيعَة عَلَىٰ أَنَّ الإسْلاَم شَرعهَا، ورَسُول الله أَبَاحهَا، وَاَستَدلوا بالآيَة: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَاجُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِن بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. ٱلنِّسَاء: ٢٤.

وجَاء فِي صَحِيح البُخَاري: إنَّ رَسُول الله قَالَ لأصْحَابهِ فِـي بَـعْض حُـرُوبه: «قَـد أذنَ لَكُـم أَنْ تَسْتَمتعُوا فَاَستَمتعُوا... أَيمَا رَجُل أَو اَمرأَة تَوَافقَا فَعشرَة مَا بَيْنَهُما ثَلاَث لَيَالٍ، فإنْ أَحبَّا أَنْ يَتزَايدَا أَو يَتتَاركَا تَركَا». أُنظر، صَحِيح البُخَاري: ٧/كتَاب النّكَـاح: ٥/١٩٦٧ ح ٤٨٢٧، المُـعْجَم الكَـبِير: ٧/٢٤ ح ٦٢٦٦، تَغلِيق التَّعلِيق: ٤/٤١٢ ح ٥١١٩، فَتح البَاري: ٩/١٧٣.

وَفِي صَحِيح مُسْلِم، عَنْ جَابِر بن عَبد الله الأَنْصَاري أَنَّهُ قَالَ: «اَستَمتعنَا عَلَىٰ عَهْد رَسُول الله، وأَبِي بَكْر، وعُمَر». أُنظر، صَحِيح مُسْلِم: ٢/١٠٢٣، الإصَابَة: ٢/٦٣، المُوطّأ: ٢/٥٤٢، سُنن النّسَائي: ٦/٦٧، كَنْز العُمَّال: ١٦/٥٢٠. وعَنْ جَابِر، قَالَ فِيهِ: «ثُمَّ نَهَانَا عَنهُ عُمَر». أُنظر، صَـحِيح مُسْـلِم: ٢/١٠٢٥ ح ١٤٠٦، صَحِيح اَبن حبّان: ٩/٤٥٨، السُّنن الكُـبرىٰ: ٣/٣٢٦ ح ٥٥٣٨، المُـصنَّف لعَبدالرَّزّاق: ٧/٥٠٦ ح ١٤٠٤٨، شَرح مَعَاني الأَخبَار: ٣/٢٦، فَتح البَاري: ٩/١٧٠، التَّمهِيد لإبن عَبد البر: ١٠/١١١، تَهذِيب الكَمَال: ٨/٣٠٧، نَيل الأَوطَار: ٦/٢٧٤.

وَبَعد أَنْ اَتّفَق المُسْلمُون عَلَىٰ شَرعِيتهَا وَإبَاحتهَا فِي عَهْد رَسُول الله، اَختَلفُوا فِي نَسخهَا: وَهَـل صَارت حَرَامَاً بَعد أَنْ أَحلّها الله ؟.

ذَهَب السُّنَّة إلَىٰ أَنَّهَا نُسخَت، وَحُرِّمت بَعد الإذن بهَا قَالَ اَبن حَجر العَسقلاَني: وَرَدَت عِدّة أَحَادِيث ↔

اَستَأجَر اَمرَأَة للزّنَا:

جَاء فِي مِيْزَان الشَّعرَاني، بَاب الزّنا، مَا نَصّه بالحَرف الوَاحد: «اَتَّفق الأَئِـمّة عَلَىٰ أَنَّ مَن اَستَأجَر اَمرَأة ليَزني بِهَا فَفعل فَعَليهِ الحَدّ إلاَّ مَا يُحكىٰ عَن أَبي حَنِيفَة مِن قَوْلَه: لاَ حَدّ عَلَيهِ». وَنَقل الغَزّالي هَذَا القَـوْل عَـن أَبـي حَـنِيفَة فِـي كِـتَاب المَنخُول وَعَلَّق عَلَيهِ بقَوله: «وَمَن يَبغي البغَاء ـ أَي الزّنا بمُومسَة ـ كَيف يَعجز عَن اَستئجَارهَا؟ ومَن عَذيرنَا مِمَّن يَفْعَل ذَلِكَ[١]؟.

وَنُعَلق عَلَيهِ نَحْنُ بأَنَّ كُلّ مَا يَحرُم فِعلَه يَحرُم بَيعَه وَشرَاؤه وَإِيجَاره كتَابَاً وسُنَّة وَإِجمَاعَاً وَعَقلاً.

الزّنَا وَشهَادَة الزُّور:

وأَيْضَاً نَقَل الغزَّالي، وَالقَرَافِي، وَاَبن همَّام الحَنَفي، وَاَبن قدَامَة. نَقَلوا عَن أَبي

↔ صَحِيحَة وَصَريحَة بِالنَّهي عَنْ المُتْعَة بَعد الإِذن بِهَا». اُنظر، اَبن حَجر العَسقلاَني فِي كِتَاب «فَتْح البَاري بِشَرح صَحِيح البُخَارِي: ١١/ ٧٠ طَبْعَة (١٩٥٩م).

وَجَاء فِي المُغْنِي، مَا نَصّه بِالحَرف: قَالَ الشَّافعِي: «لاَ أَعْلَم شَيئَاً أَحلّه الله، ثُمَّ حَرّمهُ، ثُمَّ أَحلّه ثُمَّ حَرّمه، إلاَّ المُتْعَة». اُنظر، المُغْنِي لاِبْن قُدَامَة: ٦/ ٦٤٥ طَبْعَة ثَالثَة.

وقَالَ الشِّيعَة: أَجْمَع المُسْلمُون عَلَىٰ إبَاحَة المُتْعَة، وَاَختَلفُوا فِي نَسخهَا. وَمَا ثَبَت بِاليَقِين لاَ يَزُول بمُجرّد الشَّك والظَّن. وأَيْضَاً اَسْتَدلُوا عَلَىٰ عَدَم النَّسخ بِأَنَّ الإمَام الصَّادق سُئل: «هَل نُسْخ آيَة المُتْعَة شَيء قَالَ: لاَ، وَلَولاَ مَا نَهىٰ عَنْهَا عُمَر، مَا زَنىٰ إلاَّ شَقي». اُنظر، النّهَايَة: ٢/ ٢٤٩ و ٤٨٨، المُصنّف لعَبدالرَّزَاق: ٧/ ٥٠٠، تَفسِير الفَخر الرَّازي: ٣/ ٢٠٠، تَفسِير القُرطُبي: ٥/ ١٣٠، تَفسِير أَبي حَيَّان: ٣/ ٢١٨، الهِدَايَة الكُبْرَىٰ: ٤٢٤، تَفسِير الطَّبري: ٥/ ١٧، تَفْسِير الدُّر المَنثُور: ٢/ ٤٠.

(١) اُنظر، المَنخُول: ٥٠٢ طَبعَة أُولىٰ. نَقل الغَزّالي هَذَا القَول عَن أَبي حَنِيفَة. (مِنْهُ ﷺ). واُنظر، المُـغني لاِبْن قُدَامة: ٨/ ٢١١، الطَّبعَة الثَّالثَة، المَبسُوط للسَّرخسـي: ٩/ ٥٨ و ٦١ و ٨٥، اللُّـبَاب: ٣/ ٨٣، الهِدَايَة الكُبرىٰ: ٤/ ١٤٤، تَبيِين الحَقَائِق: ٣/ ١١٩، المَجمُوع: ٢٠/ ٢٥، البَحر الرَّائِق: ٥/ ٣٠.

حَنِيفَة : أَنَّه قَالَ : لَو أَنَّ رَجُلَين تعمدَا شَهَادَة الزُّور عَلَىٰ رَجُل أَنَّه طَلَّق ٱمرَأَته ، وَفرق القَاضي بَيْنَهُما ٱعتمَاداً عَلَىٰ الشَّهَادَة الكَاذبَة ـ لجَاز لأَحد الشَّاهدَين الكَاذبَين العَالِم بتَعمدَه الكَذِب أَنْ يَتزَوّجها[١] .

وَأَيضاً نَقَل صَاحب المُغني عَن أَبي حَنِيفَة : لَو أَنَّ رَجُلاً ٱدّعىٰ كَاذبَاً أَنَّ فُلاَنَة زَوّجَته ، وَأَقَام شَاهدي زُور فَحَكم القَاضي بالزَّواج فَحَلّت لهُ ، وَصَارَت زَوّجَته ، وَكَذا لَو أَنَّ ٱمرَأة ٱستَأجرَت شَاهدي زُور بأَنَّ زَوّجهَا طَلقهَا ، وَحَكم القَاضي بالطَّلاق ـ لحَلَّ لهَا أَنْ تَتزَوّج بمَن تَشَاء[٢] ! .

وَأَصَاغر الطَّلبَة يَعرفُون أَنَّ مَا بُني عَلَىٰ الفَاسد فهُو فَاسد . . . وَإِذَا سَقَط الأَصل سَقَط الفَرع .

إِلحَاق الوَلَد بغَير أَبيه :

قَالَ أَبُو يُوسُف تِلمِيذ أَبي حَنيفَة : « إِذَا غَاب الزَّوج عَن زَوّجَته ، ثُمَّ نُعي إِلَيهَا فَٱعتَدت وَتَزوّجت برَجل آخر ، وَرُزق مِنْهَا أَولاَد ، ثُمَّ جَاء زَوّجها الأَوّل ـ فَالأَوْلاَد كُلّهُم للأَوّل الّذي كَان غَائبَاً وَبحُكم المَيّت »[٣] .

---

(١) أنظر ، المَنخُول : ٥٠٣ طَبعَة أُولى . نَقل الغَزَالي هَذَا القَوْل عَن أَبي حَنِيفَة ، وَالقَرَافِي فِي كِتَاب الفرُوق : ٤ / ٣١ طَبعَة ١٣٤٦ هـ ، وَٱبن همَّام الحَنَفي فِي فَتح القَدِير : ٢ / ٣٨٩ ، وَٱبن قدَامَة فِي كِتَاب المُغني : ٩ / ٥٩ طَبعَة سَنَة ١٣٦٧ هـ . (مِنهُ ﷺ) .

(٢) أنظر ، المُغني : ١١ / ٤٠٨ ، الشَّرح الكَبِير : ١١ / ٤٠٨ و ٤٦٥ ، كَشف القِنَاع : ٥ / ٣٩١ ، المُصنّف لِابْن أَبي شَيبَة الكُوفِي : ٨ / ٤٢٦ مَسأَلَة (١١٢) .

(٣) أُنظر ، إِختلاَف أَبي حَنِيفَة ، وَٱبن أَبي لَيلَىٰ : ١٨٣ طَبعَة أُولَى . (مِنهُ ﷺ) . أُنظر ، رَحمَة الأُمَّة : ٢ / ٦٩ ، المِيزَان الكُبرىٰ : ٢ / ١٨٢ ، بدَايَة المُجْتَهد : ٢ / ١١٧ ، الشَّرح الكَبِير : ١٠ / ٦٥ ، المَجْمُوع : ١٧ / ٤٠٤ .

وَفِي كِتَاب الأَحوَال الشَّخصيَّة لمُحَمَّد مُحيي الدِّين عَبدالحَميد: «أَنَّ أَبَا حَنيفَة قَالَ: لَو وَكّل رَجُل فِي مَصْر رَجُلاً فِي الأُندلُس بأَنْ يُزوّجه فُلاَنَة، فَعَقد لهُ عَلَيهَا، وَلَم يَلتَقيَا أَصلاً، ثُمَّ تَجيء بوَلَد بَعد العَقْد يُنْسَب الوَلد لزَوّجهَا المُقِيم فِي مَصْر!»[1].

يَا سُبحَان الله! إلحَاق الوَلَد بغَير أَبيه شَرع وَدِين وَحُكم القَاضي إعتمَاداً عَلَىٰ الزُّور حَقّ وَعَدل، وَمُجَرد الإستئجَار عَلَىٰ الزّنا يُحَللّ الحَرَام، أَمَا العَقد عَلَىٰ المَرأة الخلِيَة بمَهرٍ وَأَجلٍ فَأَشد مِن الزّنا!... وَمَرّة ثَانيَة يَا سُبحَان الله!.

زَوَاج المُتعَة وَالزَّوَاج المُؤقّت:

وبهَذِهِ المُنَاسبَة نُشير إِلَىٰ أَنَّ جَمَاعَة مِن فُقهَاء السُّنَّة يُفرقُون بَيْنَ الزَّواج المُتْعَة وَالزَّواج المؤقَت مِن أَوْجه ثَلاَثَة:

الأَوّل: أَنَّ المُتعَة لاَ تَكُون إِلَّا بلَفظ مَتعتُ، وَالمُؤقَت يَكُون بلَفظ الزَّوَاج.

الثَّاني: أَنَّ المُتْعَة لاَ تَحتَاج إِلَىٰ شهُود، وَهُم شَرط فِي المُؤقَت.

الثَّالِث: أَنَّ تَعيِّين الوَقت شَرط فِي المُتعَة وَلَيس بشَرط فِي المُؤقَت بَل يَجُوز بمُجَرد كَلمَة «وَقت أَو زَمن أَو أَجَل» مِن غَير تَعيِّين.

وقَالَ بَعْض فُقهَاء الحَنفيَّه: فِي الزَّوَاج المُؤقَت يُبطل الأَجل وَيَصح العَقد.

وَقَالَ جمهُور السُّنَّة: لاَ فَرق مِن حَيْث فَسَاد العَقد وَبُطلاَنه بَيْنَ المُتعَة وَالمُؤقَت[2].

---

(١) أُنظر، الأَحوَال الشَّخصيَّة لمُحَمَّد مُحيي الدِّين عَبدالحَميد: ٤٧١ طَبعَة سَنَة ١٤٩٢م. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر، الأَحوَال الشَّخصيَّة لمُحَمَّد مُحيي الدِّين عَبدالحَميد: ٤٧١ طَبعَة سَنَة ١٤٩٢م، الأَحوَال

وَقَالَ الشّيعَة: المُتْعَه كَالزّواج الدّائِم فِي خُلو المَرأَة مِن الزّوَاج وَالعِدّة، وَفِي إلحَاق الوَلَد بأُمّه وَأَبِيه، وَوجُوب أَصل العِدّة بَعد إنتهَاء المُدّة، وَالعَقد المُشتَمل عَلَىٰ الإِيجَاب وَالقَبُول. وَالفَرق أَنّ المُتعَة تَقع بلَفظ مَتعتُ أَو زَوّجتُ أَو أَنْكَحتُ فَقَط لاَ غير، أَمّا الزّوَاج الدّائِم فَلاَ يَقع إلاّ بَزوّجتُ أَو أَنْكَحتُ وَلاَ يَصح بـمَتَعتُ وَحدهَا وَلاَ بُدّ مِن تَعيِّين الأَجَل وَتَحدِيده فِي المُتعَة دُون الزّوَاج الدّائِم، وأَيْضاً ذِكْر المَهر رُكن فِيْهَا دُونَه... وَلَيس للمُتَمتّع بِهَا نَفقَة وَلاَ إِرث إلاّ مَع الشّرط، وَللدّائِم النّفقَة وَالإِرث حَتّىٰ مَع شَرط عَدَمها. وَالتّفصِيل فِي كُتب الفِقْه، ومِنْهَا كِتَاب فِقْه الإِمَام جَعْفَر الصّادِق عليه السلام.

صَلاَة الشّيطَان:

سُؤال آخر نُوجّههُ إِلَىٰ الشّيْخ الأَزْهَري الّذي قَالَ: الزّنـا خَير مِن المُتْعَة، وَنَطلبُ مِنْهُ الجَوَاب. فَقَد آشتَهر عَن أَبي حَنِيفَة أَنّ مَن أَدّىٰ الصّلاَه الوَاجبَة عَلَىٰ الصُّورَة التّاليَة فَقَد أَطَاع الله، وَسَقط عَنْهُ الوجُوب، وَهِي:

أَنّ يَغمس الإِنْسَان جِسمَه فِي برمِيل مِن نَبيذ، وَيَلبَس جِلد كَلب مَدبُوغ[1] وَيَدخُل فِي الصّلاَة بلاَ نيّة، وَيُكبّر تَكبِيرَة الإِحرَام بالهِنديّة أَو بَأيّة لُغَة غَير عَربيّة، وَيَقرَأ فِي الصّلاَة ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾[2] بلاَ فَاتحَة[3] ثُمّ يَترك الرُّكُوع المُطمَئن

↔ الشّحصيّة لأبي زُهرَة: ٣٦. طَبعَة ١٩٤٨م. (مِنهُ رحمه الله).

(١) في بدَايَة المُجتَهد لِابن رُشد أَنّ أَبَا حَنِيفَة أَجَاز الوضُوء بنَبِيذ التمر، وَجِلد الكَلب المَدبُوغ. (مِنهُ رحمه الله).

(٢) الرّحمَن: ٦٤.

(٣) قَالَ آبن حَجَر فِي فَتح البَاري شَرح صَحِيح البُخَاري: ٢ / ٣٨٤ طَبعَة سَنَة (١٩٥٩م). بَاب وجُوب ↔

المُستَقر[١] ثُمَّ يُحدث عَمداً ـ أَي يَخرج الرِّيح مِن بَطنِهِ ـ بَلاَ تَسليم فِي آخر الصَّلاَة.

وَسَئلتُ أَكثَر مِن مرّة عَن هَذِهِ الصَّلاَة وَصحة نِسبتها إِلَىٰ أَبي حَنِيفَة ؟ وَمَن الَّذي ذكرهَا ؟ وَفِي أَي كِتَاب ؟ وَكُنتُ أُجِيب بأَنَّ أَجزَاء هَذِهِ الصَّلاة وَأركَانهَا مَوجُودَة فِي فِقْه السُّنَّة ، وَلَكنّها ذُكرَت أَشتَاتاً وفِي مَسَائِل مُتفرقَة... ثُمَّ رَأيتهَا مَلمُومَة وَمَجمُوعَة فِي كِتَاب المَنخُول للغزَّالي عَلَىٰ الشَّكل التَّالي[٢]:

«إِذَا عَرَض أَقل صَلاَته ـ أَي صَلاَة أَبي حَنِيفَة ـ عَلَىٰ عَامّي جِلف اْمتَنع عَن تَقلِيدَه وَاْتّبَاعه ، فَإِنَّ مَن إِنْغَمس فِي مُستَنقع نَبِيذ ، فَخَرج فِي جِلد كَلب مَدبُوغ وَلَم يَنو ، وَيُحرم فِي الصَّلاَة مُبدلاً صِيغَة التَّكبِير بترجَمته تُركيًا أَو هِنديًا ، وَيَقْتَصر فِي قِرَاءَة اْلقُرْءَان عَلَىٰ ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾[٣] ، ثُمَّ يَترُك الرُّكُوع ، وَيَنقر نَقرتَين لاَ قعُود بَينَهُما ، وَلاَ يَقرأ التَّشهد ، ثُمَّ يُحدث عَمداً فِي آخر صَلاَته بَدل التَّسلِيم ، وَلَو اْنفَلتَت مِنْهُ بأَنْ سَبقَه الحَدَث يُعِيد الوضُوء فِي أَثنَاء صَلاَته ، وَيُحدث بَعدَه عَمداً ، فَإِنّه لَم يَكُن قَاصداً فِي حَدَثه الأَوّل ـ تَحَلل مِن صَلاَته عَلَىٰ الصِّحَة».

القِرَاءَة للإِمَام وَالمَأمُوم : أَنَّ الفَاتحَة وَاجبَة فِي الصَّلاَة عِندَ الحَنفيَّة ، وَلَكن مَن تَركهَا عَمداً تَصح صَلاَته ، وَلاَ تَجب الإِعَادَة عَلَيه ، وَإِنَّما يَأثم فَقَط . ثُمّ قَال اْبن حَجَر : أَنَّ بَعْض الأَحنَاف يَترُك الفَاتحَة فِي صَلاَته عَمداً وَيَتقصَّد الإِثم لاَ لشَيء إِلاَّ مُبَالغَة فِي مُخَالفَة مَذهَب الغَير أَي الشَّافعي . (مِنْهُ ﷺ).

(١) فِي كتَاب الفِقْه عَلىٰ المَذَاهب الأَربَعَة : أَنَّ الرّكُوع عِندَ الحَنفيَّة يَحصَل بطَأطَأة الرَّأس بأَنْ يَنحَني إِنحنَاء يَكُون لهُ إِلىٰ الرّكُوع أَقرَب ؟ وَلَيس مِن شَكّ أَنَّ القَرِيب أَو الشَّبِيه بالرّكُوع لَيس بركُوع . (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أُنظر . المَنخُول : ٥٠١ طَبعَة أُولىٰ . (مِنْهُ ﷺ).

(٣) أُنظر . المَنخُول : ٥٠٢ طَبعَة أُولىٰ ، نَقل الغزّالي هَذَا القَوْل عَن أَبي حَنِيفَة . (مِنْهُ ﷺ). وأُنظر . المُغني لِابْن قُدَامة : ٨ / ٢١١ ، الطَّبعَة الثَّالثَة . المَبسُوط للسَّرخسي : ٩ / ٥٨ و ٦١ و ٨٥ . اللُّبَاب : ٣ / ٨٣ . الهدَايَة الكُبرىٰ : ٤ / ١٤٤ . تَبيِين الحَقَائق : ٣ / ١١٩ . المَجمُوع : ٢٠ / ٢٥ . البَحر الرَّائق : ٥ / ٣٠.

وَعَلَّق الغزَّالي عَلَىٰ ذَلِكَ بقوله : « وَالَّذي يَنْبَغي أَنْ يُقطع بِهِ كُلّ ذِي لُب أَنَّ مِثل هَذِهِ الصَّلاَة لاَ يَبْعَث الله لهَا نَبيّاً ، وَمَا بَعْثَ الله مُحمَّداًﷺ لَيدعُو النَّاس إِلَىٰ مِثل هَذِهِ الصَّلاَة ، وهِي قُطب الإِسْلاَم وَعمَاد الدِّين »[1].

وَأُكرّر ثَانيَة وَثَالثَة لمَاذَا يَتنَاسىٰ المُتعصبُون هَذِهِ العَورَات فِي مَذْهَبِهِم ، وَيُقيمُون الكَون عَلَىٰ رُؤوس الشِّيعَة مِن أَجل المُتعَة ، وهِي لاَ تَخلُو مِن أَحد فَرضَين : أَمَّا زَوَاج شَرعي كمَا يَقُول الشِّيعَة ، وَأَمَّا شُبهَة بلاَ إِثمَّ كمَا يَقُول السُّنَّة ، أَو تَقُول مَبَادئهُم وَقوَاعدهُم .

لِكُلّ رَأيَة وَعُذرَة :

مِن المُتَّفق عَلَيهِ وَالمَقطُوع بِهِ عِندَ السُّنَّة وَالشِّيعَة أَنَّ النَّبيّﷺ أَجَاز المُتعَة وَأَبَاحهَا ، ثُمَّ اخْتَلفُوا فِي النَّسخ فَقَال السُّنَّة : ثَبت عِندَنَا بِروَايَة الثِّقَات أَنَّ النَّبيّﷺ نَسَخهَا وَحرّمهَا بَعد أَنْ حلَّهَا وَأَذنَ بِهَا .. فَقَالَ لهُم الشِّيعَة : لَكُم رَأيكُم وَعُذركُم فِي ذَلِكَ مَا دَام رَاوي النَّسخ مَقبُولاً وَمُعتَمداً عِندَكُم ... وَالفَقيه المُحقّق المُثبت هُو الَّذي يَفْحَص وَيَبْحَث جَاهداً عَن النَّص ، وَيَعمَل بِهِ بَعْد أَنْ تَثْبت أَمَانَة الرَّاوي عِندَه لاَ عِندَ غَيره .

ونَحْنُ الشِّيعَة قَد فَحَصنا وَبَحثنَا جَاهِدِين عَن النَّسخ فَلَم نَعْثَر لَهُ عَلَىٰ عَين وَلاَ أَثَر فِي النَّقل المَوثُوق الأَمِين عِندَنَا ... وَمِن البَدَاهَة بمكَان أَنّه لاَ يَجُوز القَول

---

(١) نَقل الغزّالي هَذَا القَول عَن أَبي حَنِيفَة . (مِنهُ ﷺ) . أُنظر ، الفِقْه عَلىٰ المَذَاهب الأَرْبعَة : ١ / ٢٦ و ٢٣٠ ، المَجمُوع : ٣ / ١٩٢ ، تَفْسِير القُرطُبي : ٥ / ٢٣١ ، المَبسُوط للسَّرخسي : ١ / ٨٨ ، بدَائع الصَّنائع : ١ / ١٥ ، بدَايَة المُجْتَهد : ١ / ٣٣ .

بنَسخ الحُكم الثَّابت عِندَنَا قَطعاً وَبـإتّفاق المُسْـلِمين جَـمِيعاً إلّا إذَا تـجلىٰ ذَلِكَ بوضُوح كَامِل، لأَنَّ مَا ثَبَت باليَقِين لاَ يَرتَفع وَيَزُول إلاَّ بيَقِين مِثلَه عِندَ مَن أيـقَن بالثبُوت لاَ عِندَ غَيرَه كمَا أشرنَا، وَلَو قُلنَا بالنَّسخ؛ وَالحَال هَذِهِ، لكنَّا مِمَّن يُحَلّل حَرَام الله مِن غَير دَلِيل ـ مَا زَال الكَلاَم للشّيعَة ـ وَإذَن فَتَكلِيفنَا الشَّرعي هُو إبقَاء مَا كَان عَلَىٰ مَا كَان مَا دَام لَمْ يَثْبت العَكس، وَلاَ عُذر لنَا عِـندَ الله إطـلاَقاً لَـو قُـلنَا بالنَّسخ... فَلمَاذَا لاَ يَعذرنَا إخوَاننا السُّنَّة كمَا عَذرنَاهُم؟ وهَل يَرتَاب أَحـد أَنَّ النَّسخ لَو لَمْ يَثْبت عِندَ السُّنَّة لقَالُوا بقَول الشِّيعَة، وأَنَّه لَو ثَبَت عِندَ الشِّيعَة لقَـالُوا بقَول السُّنَّة؟.

وَبَعْد، فَقَد كُنتَ فِي غِني عَن هَذَا النَّقض وَالجدَال لَوْلاَ ذَاك الأَزهَري العَجُوز وَمَن عَلَىٰ شَاكلَته الَّذِين يُلجئُون الآخرين للرَّد عَلَيهم خَـوفاً مِـن وَبَـاء التَّـقلِيد الأَعمَىٰ، وَأنْتشَار المُحَاكَاة للجَهل وَالتَّعصب الَّذي يُبَدد الشَّمل ويُشل العَزم فِي وَقتٍ نَحْنُ أَحوَج إلَىٰ العَمَل يَداً وَاحِدَة وَقَلباً وَاحداً لتَحقِّيق مَـا نَـصبُوا جَـمِيعاً إليهِ[1].

---

(١) أَنَّ كَثِيراً مِنْ النَّاس يَحسبُون المُتْعَة ضَرباً مِنْ الزِّنَا وَالفُجُور، جَهلاً بِحَقِيقتهَا، ويَعْتَقدُون أَنَّ ابن المُتْعَة عِند الشِّيعَة، لاَ نَصِيبَ لهُ مِنْ مِيرَاث أَبِيه، وأَنَّ المُتَمَتع بهَا لاَ عِدّة لهَا وأَنَّها تَستَطِيع أَنْ تَنْتَقل مِنْ رَجُل إلَىٰ رَجُل إنْ شَاءَت... وَمِنْ أَجْل هَذَا اَسْتقبحُوا المُتْعَة، وَاَسْتَنكرُوهَا، وَشنَعُوا عَلَىٰ مَنْ أَبَاحهَا.

وَالوَاقِع أَنَّ المُتْعَة عِندَ الشِّيعَة الإثْني عَشَريَّة كَالزَّوَاج الدَّائِم، لاَ تَتمَ إلاَّ بِالعَقد الدَّال عَـلَىٰ قَـصد الزَّوَاج صَرَاحَة، وأَنَّ المُتَمتَّع بهَا يَجب أَنْ تَكُون خَالِيَة مِنْ جَمِيع المَوَانع، وأَنَّ وَلدَها كَالوَلد مِنْ الدَّائِمَة فِي وجُوب التَّوَارث. وَإنفَاق، وسَائِر الحقُوق المَاديَّة وَالأَدبيَّة وأَنَّ عَلَيهَا أَنْ تَعتَد بَعد اَنْتهَاء الأَجل مَع الدُّخُول بهَا، وإذَا مَات زَوجهَا وهِي فِي عِصمَته، اَعْتَدَت كَالدَائِمَة مِنْ غَير تَفَاوت إلَىٰ غَير ذَلِكَ مِـنْ الآثَار وَالأَحكَام. أُنظر، صَحِيح مُسْلِم: ٢ / ١٠٢٣، الإصَابَة: ٢ / ٦٣، المُـوطَأ: ٢ / ٥٤٢، سُـنن ⟷

↔ النَّسائي: ٦ / ٦٧، كنز العُمَّال: ١٦ / ٥٢٠، الفِقْه عَلَىٰ ٱلمَذَاهِب الخَمْسَة، والَّذي حَقَّقنَاه، وَطَبَعْته مُؤسّسَة دَار ٱلكِتَاب الإسْلاَمي: ٢ / ١١٠، المُغْنِي: ٦ / ٦٤٤، الطَّبعَة الثَّالثَة، صَحِيح مُسْلِم: ٢ / ١٠٢٧، كتَاب الأُم: ٥ / ٧٩، أحْكَام ٱلقُرءَان للجصَّاص: ٢ / ١٥٠، السُّنن الكُبرَىٰ: ٧ / ٢٠١، المَجْمُوع: ١٦ / ٤٢٩، المَبْسُوط للسَّرَخْسِي: ٥ / ١٥٢، مَن لاَ يَحضره الفَقِيه: ٣ / ٢٩٧، الكَافِي: ٥ / ٤٦٥، الوَسَائِل: ١٤ / ٤٤٢، الإسْتِبْصَار: ٣ / ١٥٠، التَّذكرَة: ٢ / ٦٤٦، صَحِيح مُسْلِم: ٢ / ١٠٢٣، الإصَابَة: ٢ / ٦٣، سُنن النَّسائي: ٦ / ٦٧. وَيُسمُونهَا بالزَّوَاج المُنْقَطع، وَبِالزَّوَاج إِلَىٰ أَجَلٍ، وهِي كَالزَّوَاج الدَّائِم لاَ تَتم إلاَّ بِعَقد صَحِيح دَال عَلَىٰ قَصد الزَّوَاج صَرَاحَة، وَيَحتَاج العَقد إِلَىٰ إيجَاب. وَهُو قَول المَرأة أَو وَكِيلهَا: زَوّجتُ أَو أَنْكَحتُ أَو مَتَّعتُ، وَلاَ يَكُون بِغَير هَذِه الأَلفَاظ الثَّلاَثَة أَبدَاً. وإلَىٰ قَبُول مِنْ الرَّجُل، وَهُو قَبلتُ أَو رَضِيتُ.

وَكُلّ مُقَارَبَة تَحصل بَيْنَ رَجُل وَٱمرَأة مِنْ دُون هَذَا العَقد فَهِيَّ سِفَاح. ولَيْسَت بِنكَاح حَتَّىٰ مَع التَّرَاضِي، وَالرَّغبَة الأَكِيدَة. وإذَاكَان العَقد بلَفظ أَجْرّتُ، أَو وَهَبتُ أَو أَبَحتُ وَنحوهَا، فَهُو لَغو لاَ أَثَر لَهُ أَبدَاً. وَمَتىٰ تَم العَقد كَان لاَزمَاً يَجب الوَفَاء بِهِ، وَأَلزَم كُلّ وَاحد مِنْ الطَّرفَين بِالعَمل عَلَىٰ مُقتضَاه.

وَلاَ بُدّ فِي عَقد المُتْعَة مِنْ ذِكْر المَهر، وَهُو كَمَهر الزَّوجَة الدَّائِمَة لاَ يَتَقدّر بقِلّة أَو كَثرَة، فَيَصح بكُلّ مَا يَترَاضىٰ عَلَيه الرَّجُل وَالمَرأة، وَيَسقط نِصفه بِهبَة الأَجل، أَو إنْقضَائه قَبل الدُّخُول، كمَا يَسقط نِصف مَهر الزَّوجَة بِالطَّلاَق قَبل الدُّخُول.

وَلاَ يَجُوز لِلرَّجُل أَنْ يَتمتّع بذَات مَحرَم كَأُمّه، وَأُختَه، وَبِنْته، وَبِنْت أَخِيه، وَبِنْت أُخته، وَعمّته، وَخَالَته، نَسبَاً وَلاَ رضَاعَاً، وَلاَ بِأُمّ زَوْجَته وَلاَ بِنْتِهَا، وَأُختهَا، وَلاَ بِمَن تَزوّج أَو تَمتع بِهَا أَبُوه أَو أَبْنه، وَلاَ بِمَن هِي فِي العِدّة مِنْ نِكَاح غَيرَه، وَلاَ بِمَن زَنىٰ بِهَا وهِي فِي عِصمَة غَيرَه. فَالمُتعَة فِي ذَلِكَ كُلّه كَالزَّوجَة الدَّائِمَة مِنْ غَير تَفَاوت.

وعَلَىٰ المُتَمتع بِهَا أَنْ تَعتَد مَع الدُّخُول بَعد إِنْتهَاء الأَجل، كَالمُطلّقة، سِوىٰ أَنَّ المُطَلّقة تَعتَد بثَلاَث حَيضَات، أَو ثَلاَثة أَشهُر، وهِي تَعتَد بحَيضَتَين أَو بِخَمسَة وَأَربَعِين يَومَاً. أَمَّا العِدّة مِنْ الوَفَاة فَهُمَا فِيهَا سوَاء، وَمُدتهَا أَربعَة أَشهُر وَعَشرَة أَيَّام، سوَاء أحصَل الدُّخُول أَم لَم يَحصَل.

وَالوَلد مِنْ المُتْعَة كَالوَلد مِنْ الزَّوجَة الدَّائِمَة فِي المِيرَاث، وَالنَّفَقَة وسَائِر الحقُوق المَاديَّة، والأَدبيَّة.

وَلاَ بُدّ مِنْ أَجل مُعَيّن فِي المُتْعَة يُذكَر فِي مَتن العَقد، وبِهذَا تَفترق المُتْعَة عَنْ الزَّوَاج الدَّائِم، وَلَكِنَّ الطَّلاَق يَفصم عُرىٰ الزَّوَاج، كمَا يَفصمه إِنْتهَاء الأَجل فِي المُتْعَة، فَإِنْتهَاء الأَجل طَلاَق فِي المَعنىٰ، ↔

↔ وَلَكن بِغَير أُسلُوبه.

وَلاَ مِيرَاث للمُتَمتع بهَا مِنَ الزَّوج، وَلاَ نَفَقَة لهَا عَلَيه، والزَّوجَة الدَّائِمَة لهَا المِيرَاث، وَالنَّفقَة وَلَكن للمُتمتع بهَا أَنْ تَشتَرط عَلَىٰ الرَّجُل ضِمن العَقد الإِنفَاق وَالمِيرَاث، وإِذَا تم هَذَا الشَّرط كَانَت المُتَمتَع بهَا كَالزَّوجَة الدَّائِمَة مِنْ هَذِه الجِهَة أَيْضاً، وَيُكرَه التَّمتع بِالزَّانيَة، وَالبِكْر.

هَذِه هِي المُتْعَة، وَهَذي حُدُودهَا وَقيُودهَا، كمَا هِي مُدونَة فِي جَمِيع الكُتُب الفِقْهِية للشِّيعَة الإِمَامِيَّة، وَلَم تَستَعمل المُتْعَة شِيعَة سُوريَا، وَلُبنَان، وَلاَ عَرب العرَاق، وَالمَنقُول أَنَّ بَعْض المُسنَّات فِي بِلاَد إِيرَان يَستَعملن المُتْعَة.

وَالخُلاَصَة: أَنَّ الشِّيعَة الإِمَامِيَّة يَقُولُون بإِبَاحَة المُتْعَة، وَلَكن عَلَىٰ الأَسَاس الَّذي بَيِنَّاه. وعَلَىٰ الرَّغم مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّهم لاَ يَفعَلُونهَا، وَمَا هِي بشَائِعَة فِي بِلاَدهِم. وَإِنَّما الزَّوَاج الشَّائع بَيْنَهُم هُو الزَّوَاج الدَّائِم المَعْرُوف المَأْلُوف عِندَ جَمِيع الطَّوَائف، والأُمَم. وَلاَ أَثَر لهَا فِي مُحَاكمهِم الشَّرعيَّة.

وَفِي الحَدِيث مَا ذَكرَه مُسْلِم فِي صَحِيحه عَنْ جَابِر بن عَبدالله قَالَ: «أَستَمتَعنَا عَلَىٰ عَهْد رَسُول الله، وأَبِي بَكْر، وعُمَر». أُنظر، صَحِيح مُسلِم: ٢ / ١٠٢٣، الإِصَابَة: ٢ / ٦٣، المَوطأ: ٢ / ٥٤٢، سُنن النَّسائي: ٦ / ٦٧، كنز العُمَّال: ١٦ / ٥٢٠.

وَلَكن السُّنَّة قَالُوا: إِنَّ المُتْعَة نُسخَت وَأَصْبَحت حَرَامَاً بَعد أَنْ أَحلهَا الله سُبْحَانَه، وقَالَ الشِّيعَة: لَم يَثْبُت النَّسخ عِندَنا، كَانَت حَلاَلاً، مَا زَالَت عَلَىٰ مَا كَانَت عَلَيه. أُنظر، الفِقْه عَلَىٰ المَذَاهِب الخَمْسَة، والَّذي حَقَّقنَاه، وَطَبَعَته مُؤسَسَة دَار الكِتَاب الإِسْلاَمي: ٢ / ١١٠ المُغْنِي: ٦ / ٦٤٤، الطَّبعَة الثَّالِثَة، صَحِيح مُسلِم: ٢ / ١٠٢٧، كتَاب الأُم: ٥ / ٧٩، أَحْكَام القُرءَان للجصَّاص: ٢ / ١٥٠، السُّنن الكُبْرَىٰ: ٧ / ٢٠١، المَجْمُوع: ١٦ / ٤٢٩، المَبْسُوط للسَّرخَسِي: ٥ / ١٥٢. وأُنظر، مَن لاَ يَحضَره الفَقِيه: ٣ / ٢٩٧، الكَافِي: ٥ / ٤٦٥، الوَسَائِل: ١٤ / ٤٤٢، الإِستِبْصَار: ٣ / ١٥٠، التَذكرَة: ٢ / ٦٤٦، صَحِيح مُسلِم: ٢ / ١٠٢٣، الإِصَابَة: ٢ / ٦٣، المُوطَأ: ٢ / ٥٤٢، سُنن النَّسائي: ٦ / ٦٧، كَنز العُمَّال: ١٦ / ٥٢٠.

مُشكلَات نَهْج البَلاَغَة

مُسحَة إلٰهيَة وَعَبقَة نبوّيَة:

قَرَأتُ أكثر مِن كِتَاب فِي مُشكِل القُرْءَان، وَغَرِيب الحَدِيث وَعُلُومهَا وَمَجَازَاتهما، وَمَا رَأيتُ كتَاباً وَاحداً أُفرَد بتَأوِيل المُشكْلاَت فِي نَهْج البَلاَغَة مَع أنَّ فِيهِ العَدِيد مِن المُتشَابِهَات الَّتي يَدُور حَولهَا التَّسَاؤل، وَيَكثَر الجِدَال وَالنّقَاش.

وَإذَا لَمْ يَكُن «النَّهج» وَحيّاً فَإنَّ صَاحبهُ رَبِيب الوَحي وَكَاتِبه، وَأَخُو الرَّسُول وَبقيّة النُّبوّة، وَأدركَته دَعوَة النَّبيّ الأعْظَم ﷺ حِينَ قَالَ: «أللّهُمَّ اهْدِ قَلْبَه، وثبّت لسَانَه، وَأعْطِهِ فَهْم مَا يُخاصم فِيهِ»[1]. وقَالَ الشَّرِيف الرَّضي: «أنَّ كَلاَم الإمَام عَلَيهِ مُسحَة مِن العِلْم الإلٰهي، وفِيهِ عَبقَة مِن الكَلاَم النَّبوي»[2]. وقَالَ الشَّيخ الدُّكتُور أحمَد الشَّربَاصي: «إذَا كَان الإمَام قَد نَثَر المِئَات مِن كَلمَاتَه، وَجَعَل كُلّ حِكمَة مِنْهَا تَسِير بَيْنَ المَشرق وَالمَغرب مَسِير المَثل الشَّرُود، فَإنّه فِي بَعْض الأحيَان يَجْمَع المَجمُوعَة مِن كَلمَاتَه الحَكِيمَة فِي عَقدٍ وَاحد يَنْتَظمهَا كَلمَة بجوَار

---

(١) تَقدّمَت تَخرِيجَاتَه.

(٢) أنظر، شَرح نَهج البَلاَغَة لِابن أبِي الحَدِيد: ١/ ٤٥، خُطَب شَرح نَهج البَلاَغَة لمُحَمَّد عَبده: ١/ ١١.

كَلمَة »[١].

وَنَعرض فِي هَذَا الفَصْل طَرفَاً مِن مُشكْلاَت النَّهج، عَسَىٰ أَنْ يَكُون حَافزاً لعَالِم بَيَاني قَدِير، عَلَىٰ أَنَّ يُؤلّف كتَاباً خَاصّاً بهذَا المَوضُوع الَّذي يَنطَوي عَلَىٰ أَدَق الحقَائِق وَأَعمَقهَا.

وحدَة الذّات والصّفات:

قَالَ الإمَام عَليّ عليه السلام فِي أَوَّل خُطْبَة مِن خُطَب النَّهج: « أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الإِخْلاَصُ لَهُ، وَكَمَالُ الإِخْلاَصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ أَوَّلُ الدِّينِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ المَوْصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ »[٢]. سُبْحَانَه وتَعَالَىٰ...
وَهُنَا سُؤال يَفْرض نَفْسَه، وَيَخطر فِي فِكْر أَي قَارِيء، وهُو كَيف يَكُون الإِيمَان باللهِ كَاملاً وَخَالصَاً لوَجْهِهِ الكَرِيم بنَفي الصّفَات عَنْهُ، وهُو جَلّت كَلمَته قَد نَعَت نَفْسَه بالعَدِيد مِن الصّفَات، كَالرَّحْمَٰنِ الرَّحِيم، وَالقَدِير العَلِيم، وَالغَفُور الوَدُود... وَأَيضاً وَصَفهُ الرَّاسخُون فِي العِلْم بكُلّ كمَال وَجلاَل حَتَّىٰ كَلاَم الإِمَام مُتخَم بالنّعُوت الإِلٰهيّة، وَالصّفَات القُدسيّة؟.

الجَوَاب:

الصّفَات بمَا هِي عَلَىٰ نوعَين: الأَوّل وَصف الشَّيء بحَقِيقَته وَطَبِيعَته بحَيث الوَصف تِكرَاراً وَبيَاناً لذَات المَوصُوف بلاَ زِيَادَة عَلَيهَا، كَوَصف الإِنْسَان

(١) أنظر، مَجلّة الهِلاَل، شَهر أَيلُول سَنَة (١٩٧٣م)، مَقَال للشَّيخ الدُّكتُور أَحمَد الشّرَبَاصي. (مِنْهُ رحمه الله).
(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: الخُطْبَة (١).

بالإنسانيّة، فإنّ هذا الوصف غير منفصل عن طبيعة الموصوف، ولا يضيف إليها شيئاً لا نعرفه من قبل.

النوع الثاني وصف الشيء بما هو خارج عن ذاته وحقيقته وزائد عليها، كوصف الإنسان بالعلم، فإنّ حقيقة العلم الكشف عن الواقع، وحقيقة الإنسان الحيوان الناطق، كما هو شائع، فإذا وصفنا الإنسان بالعلم فقد أضفنا إليه جديداً وزائداً على ذاته وهويته.

والإمام أراد بنفي الصّفات عن الله النوع الثاني أي الخارجة عن الذات والزائدة عليها... وأنّ الصّفات الإيجابية الثبوتية الّتي وصف الله بها ذاته القدسيّة كالعلم، والقدر هي من النوع الأوّل، لأنّه تبارك وتعالى واجب الوجود، وواحد أحد، ومنزّه عن الأعراض والحوادث. ولا بدّ من مراعاة هذه الأصول والحرص عليها في كلّ ما ينسب إليه سبحانه، فإذا نسب إليه ما يتنافى مع الوجوب أو التوحيد أو التنزيه بوجه من الوجوه ـ كانت النسبة كذباً وافتراءً عليه تعالى... مثلاً إذا وصفتَ الله بالعلم على أنّه عين ذاته لا غيرها ولا زائد عليها فهذا الوصف حقّ وصدق، لأنّه ينسجم تماماً مع الوجوب والتوحيد والتنزيه، أمّا إذا وصفته بالعلم على أنّه غير الذات الواجبة والواحدة المنزّهة وزائد عليها ـ فالوصف زور وبهتان لأنّ المغاير الزائد على الذات إن كان واجب الوجود لزم تعدد الواجب وهو عين الشرك، وإن كان ممكناً لا واجباً لزم أن يكون علمه تعالى بالاكتساب لا بالذات تماماً كعلم المخلوقين، وأن تكون ذاته القدسيّة محلاً للإعراض والأحداث. وكلا الفرضين باطل من الأساس، لأنّ الأوّل ضدّ التوحيد، والثاني ضدّ الوجوب والتنزيه.

التّجارة بالصّدقة:

قَالَ الإِمَام ﷺ: «اَسْتَنْزِلُوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ»[١].

وفِي مَعْنَاهَا: «إِذَا أَمْلَقْتُمْ فَتَاجِرُوا اللهَ بِالصَّدَقَةِ»[٢].

وَقَالَ الشَّيخ مُحمَّد عَبْدَه: «هَا هُنا سِرٌ لاَ يُعْلَم»[٣]. وَقَد يَكُون السِّر هُو مُجَرد التَّوكُلّ عَلىٰ اللهِ، وَالاِنْقطَاع إِلَيْهِ بِصدقٍ وَإِخلاَص، وَعَدم اليَأس مِن فَضْلِهِ وَرَحمَته وَمَن تَوكُلّ عَلَيْهِ كَفَاه.

وذَلِكَ أَنَّ ظَاهر الكَلاَم يَدل عَلَىٰ أَنَّ الصَدَقَة تَدّر الرِّزق تَمَاماً كَالكَدح وَالسَّعي الدَّائب، أَو أَنْفَع وَأَعوَد!. وَهَذَا بَعِيد عَن قَضَايَا اَلْحَيَاة وَالخِبرَة الحسّيَة، وَلَو كَان مِن وَاقع اَلْحَيَاة الدُّنْيَا وَحَقِيقَة مَلمُوسَة ـ لمَا وجدَ بَخِيل وَفَقِير.

الجَوَاب:

١ ـ أَجل، أَنَّ التَّجربَة لاَ تُثْبت ذَلِكَ، وَإِذَن لَيْس مِن قَصد الإِمَام ﷺ أَنَّ الصَّدقَة وَسِيلَة للرِّزق عَلَىٰ سَبِيل الحَتم وَلاَ ضَرُورَة، بَل القَصد أَنَّ للصَّدقَة بَعْض التَّأْثِير فِي ذَلِكَ كعنَايَة الله تَعَالَىٰ وَهدَايَته إِلَىٰ السَّعي النَّاجح، وَالعَمَل الَّذي يُثمر الرِّزق.

٢ ـ أَنَّ الخِطَاب فِي «اَسْتَنْزِلُوا، وَتَاجِرُوا» غَير مُوجّه للفُقرَاء كَيف وَفَاقد الشَّيء لاَ يُعطِيه؟. وإِنَّمَا المُرَاد بِهِ الأَغنيَاء الَّذِين يَبخلُون بِأَموَالِهِم، وَلاَ يُنفقُونَهَا فِي سَبِيل الله خَوفاً مِن الفَقر، وعَلَيهِ يَكُون المَعنىٰ المُرَاد مِن تَاجِرُوا الله بالصَّدقَة وَنَحوه هُو عَين المُرَاد مِن الآيَة أَو يُومِيء إِلَيهِ، وهِي: ﴿اَلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ اَلْفَقْرَ

---

(١) أنظر، نَهج اَلْبَلاَغَة: اَلْحِكْمَة (١٣٦).

(٢) أنظر، نَهج اَلْبَلاَغَة: اَلْحِكْمَة (٢٥٧).

(٣) أنظر، خُطَب شَرح نَهج اَلْبَلاَغَة: ٤/ ٥٨.

وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً ﴾[١].

وَالمُرَاد بالفَضل هُنا الغِنىٰ فِي مقَابل الفَقر الَّذي وَعَدهُم بهِ الشَّيطَان.

الثِّقَة بِالله:

قَالَ الإمَام عليه السلام: « فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَىٰ قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ ظَنّاً بِاللهِ أَشَدُّهُمْ خَوْفاً للهِ »[٢].

وَتَسأَل: أَنَّ حُسن الظَّن مَعنَاه الثِّقَة، وهِي تَستَدعي الأَمَان. وَالخَوف ضِدّ الأَمَان، فكَيف يَكُون أحسَن النَّاس ظَنّاً باللهِ أَشدّهُم خَوفاً مِنْهُ؟. وَمَا هُو القَاسم المُشتَرك وَالقَدر الجَامع بَيْنَ المَاء وَالنَّار؟. وَأَوضَح مثَال لحُسن الظَّن باللهِ رِوَايَة تَقُول: أَنَّ أعرَابيّاً سَأَل النَّبيّ صلى الله عليه وآله: « مَن يَلي حِسَاب الخَلق يَوْم القِيَامَة؟.

فَقَال النَّبيّ: الله عزّوجلّ.

فَقَال الأَعرَابي: هُو نَفْسه؟.

قَالَ النَّبيّ: نَعَم. فَتَبسم الأَعرَابي. وَلمَّا سَأَلهُ النَّبيّ عَن ذَلِكَ؟

قَالَ: نَجَونَا وَرَبّ الكَعبَة، إِنَّ الكَرِيم إِذَا قَدر عَفَا، وإِذَا حَاسَب سَمح.

قَالَ النَّبيّ: لاَ كَرِيم أَكرَم مِن الله ...... »[٣]. وَلَيس مِن شَكّ أَنَّ قَول النَّبيّ وَعَليّ وَاحد فمَا هُو وَجْه الجَمع؟.

الجَوَاب:

إِنَّ الإِمَام عليه السلام يُشِير بقَوله هَذَا إِلَىٰ مَعْنىٰ جَلِيل وَعَمِيق، وَهُو أَنَّ الثِّقة بِالله شَرط

---

(١) ٱلْبَقَرَة: ٢٦٨.

(٢) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلرِّسَالَة (٢٧).

(٣) أُنظر، تنْبِيه الخوَاطر: ١ / ٩، كَنز العُمَّال: ١٤ / ٦٢٨ ح ٣٩٧٤٩، كَشف الخَفَاء: ٢ / ١١٠ ح ١٩٢٥.

أَسَاسي لصِدق الْإِيمَان بِهِ وَالْإِخلاَص لهُ، ومِن أَقوَاله فِي ذَلِكَ: «لاَ يَصْدُقُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّىٰ يَكُونَ بِمَا فِي يَدِ اللهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ»[1].

وَلَكن الْإِمَام عليه السلام يُحَدّد هَذِهِ الثّقة بأَنْ تَكُون تَصرفَات العَبد بكَاملهَا لله وَحدَه، فَلاَ يَرجُو ثوَاباً عَلَىٰ فِعلٍ أَو تَركٍ إِلَّا ثوَاب الله، وَلاَ يَخَاف عقَاباً عَلَىٰ شَيء إِلَّا عقَاب الله عَلَىٰ أَنْ يَكُون رَجَاء الثَّوَاب عَلَىٰ الحَسَنَة تَمَاماً عَلَىٰ قَدر الخَوف مِن العقَاب عَلَىٰ السَّيئَة لَو وَزنا مَعاً لَم تَرجَح كَفّة أَحدهُما عَلَىٰ كفَّة الآخر... وَبتَعبِير ثَانٍ أَنَّ الثّقَة تَجمَع بَيْنَ الرَّجَاء والرَّغبَة فِي رَحمَة الله الوَاسعَة، وبَيْنَ الخَوف وَالرَّهبَة مِن عَدْلِهِ الصَّارم. وَمَعنىٰ هَذَا أَنَّ مَوضُوع الخَوف غَير مَوضُوع الرَّجَاء، وأَنَّ هَذَين الضّدَين لَمْ يَجتَمعَا فِي مَوضُوع وَاحد كَي يُسأل وَيُقَال: كَيف جَمَع الإِمَام بَيْنَهُما؟.

وَمَا قَرَأتُ كَلمَة دَفعت بِي إِلَىٰ العَمَل لوَجه الله وَالْإِخلاَص لهُ، وَمَلأَت قَلْبي ثقَة بِهِ وَبِرَحمَته ـ مِثْل هَذِهِ العِظَة البَالغَة للْإِمَام زين العَابدِين عليه السلام حِينَ يَقُول: «لَو أَنزَل ٱلله تَعَالىٰ كتَاباً إِنّه مُعَذِّب رَجُلاً وَاحِداً خِفْت أَنْ أَكُونه، أَو أَنّه رَاحم رَجُلاً وَاحِداً لرَجَوت أَنْ أَكُونه، أَو أَنَّه مُعذبِي لاَ مَحَالَةَ، مَا ٱزْدَدت إِلَّا اِجْتهَاداً، لِئَلاَّ أَرْجَع إِلىٰ نَفْسِي بِالمَلاَمَة»[2]. وَمَعنَىٰ هَذَا أَنَّ الله سُبْحَانَه لَو قَالَ للْإِمَام: وَقَد وَرَد فِي الحَدِيث القُدّسي: قَالَ صلى الله عليه وآله، قَالَ تَعَالىٰ: «وَعِزَّتي وَجَلاَلِي إِنّي لاَ أَتقبل الصَّلاَة إِلاَّ لِمَن تَوَاضَع لِعَظمَتِي، وَكَفَّ نَفْسه عَن الشَّهوَات ٱبْتغَاء مَرضَاتِي، وَقَطَع نهَاره

(١) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٣١٠).
(٢) أُنظر، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢ / ١٠٠ و: ١٥ / ١٦٧.

فِي ذِكري وَلَم يَبت مُصرّاً عَلىٰ الخَطِيئَة، وَلَم يَتعَاظم عَلىٰ خَلقي...»[١]. لكَان هَذَا أَقوىٰ البَوَاعث فِي نَفْس الإمَام عَلىٰ الإخلاَص لله وَالتّعبد لهُ خَوفاً مِن الإهمَال وَالتَّقصِير إذَا هُو تَرَك العَمَل والإجْتهَاد لمُجرّد التّهدِيد وَالوَعِيد بِالعَذَاب.

وَبَعد، فَهَل حُدّثت أَو مَرّ بخَيَالك مِثل هَذَا العِلْم بالله، وَالثّقة برَحمَته، وَاليَقِين بعَظَمته؟. وهَل فِي القَدِيم وَالجَدِيد أُسلُوب فِي الدّعَايَة وَإعلاَم يُضَارع هَذَا الأُسلُوب فِي جَذْبه وَتَأْثِيره؟. وَأَنْصَح كُلّ مَن يُؤمِن بالله أَنْ يَلح عَلَيهِ ويُلحِف بالسُّؤال مِن فَضلِه، فَإنّه تَعَالَىٰ لَيْس كَأحدنَا يضِيق بالسَّائلِين وَالمُلحفِين... وَفِي أُصُول الكَافِي عَن الإمَام الصَّادِق عليه السلام: «أَنَّ الله عزّوجلّ كَرِه إلحَاح النَّاس بَعْضهُم عَلَىٰ بَعْض فِي المُسَأَلة، وَأَحبّ ذَلِكَ لنَفْسَه»[٢].

قصّة الشّامي مَع الإمَام عليه السلام:

رَوىٰ جَمَاعَة، مِنهُم الكُلِينِي فِي «أُصُول الكَافِي»، وَأبُو الحُسين فِي كِتَاب «الغُرَر»، وَالشَّرِيف الرَّضِيّ: قَالَ: قَام شيخٌ إلىٰ عَليٍّ عليه السلام، فَقَالَ: أَخبرْنا عَن مَسيرنَا إلىٰ الشّام، أَكَان بِقضَاء الله وقَدره؟

فَقَال: فَوَ الّذِي فَلَقَ الْحبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسمَةَ، مَا وَطِئْنَا مَوْطِئاً، وَلاَ هَبطنَا وَادِياً إلاَّ بِقضَاء الله وَقَدرَة.

فَقَالَ الشَّيخ: فَعِندَ الله أَحْتَسِب عَنَائي! مَا أَرَىٰ لِي مِن الأَجْر شَيْئاً!.

---

(١) أنظر، التَّأرِيخ الكَبِير لِلبُخاري: ٨ / ١٥ الرَّقم «١٩٨١»، الكَامِل فِي التَّأرِيخ: ٢ / ٤٢١، مِيزَان الإعتدَال: ٢ / ٥١٩.

(٢) أنظر، الكَافِي: ٢ / ٤٧٥ ح ٤، تُحف العُقُول: ٢٩٣، وَسَائِل الشّيعَة: ٧ / ٥٨ ح ٢.

فَقَالَ : مَهْ أَيُّها الشَّيخ ، لَقَد عَظَّمَ اللهُ أَجْرَكُم فِي مَسِيرَكُم وَأَنْتُم سَائِرُون ، وَفِي مُنصَرَفكُم وَأَنْتُم مُنصَرِفُون ، وَلَم تَكُونُوا فِي شَيء مِن حَالاَتُكِم مُكْرَهين ، وَلاَ إِلَيْهَا مضطَرِّين .

فَقَالَ الشَّيخ : وَكَيفَ القَضَاءُ والْقَدَر سَاقَانا ؟ .

فَقَالَ : وَيْحَكَ ! لَعَلَّكَ ظَنَنْتَ قَضَاءً لاَزِماً ، وَقَدَراً حَاتِماً ! ...)[1] .

وَفِي هَذَا الجَوَاب حَلقَة مَفقُودَة ، وهِي سكُوت الإِمَام عَمَّا أَرَاد مِن القَضَاء وَالقَدَر فِي جوَابه الأَوّل للشَّامي ، وهُو يَقُول لهُ : « مَا وَطِئْنَا مَوْطِئاً ، وَلاَ هَبطنَا وَادِياً إِلاَّ بِقَضَاء الله وَقَدَرَه » . وَقَد تَرَكَت هَذِهِ الحَلقَة المَفقُودَة الكَثِير مِن قُرّاء النَّهج فِي حَيرَة ، وَالبَعْض مِنهُم خَلَط بَيْنَ مَسأَلَة القَضَاء وَالقَدَر ، وَمَسأَلة الجَبر وَالإِختيَار ، وَظنَّ أَنَّ الإِمَام يَتَكلّم عَن مَعْنىٰ القَضَاء وَالقَدَر فِي قَوْلَه للشَّامي : « لعَلَّكَ ظَنَنْتَ قَضَاءً لاَزِماً ، وَقَدَراً حَاتِماً ! لَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لَبَطَلَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ ، وَسَقَطَ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ . إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ عِبَادَهُ تَخْيِيراً ، وَنَهَاهُمْ تَحْذِيراً ، وَكَلَّفَ يَسِيراً ، وَلَمْ يُكَلِّفْ عَسِيراً ، وَأَعْطَىٰ عَلَىٰ الْقَلِيلِ كَثِيراً ؛ وَلَمْ يُعْصَ مَغْلُوباً ، وَلَمْ يُطَعْ مُكْرِهاً ، وَلَمْ يُرْسِلِ الأَنْبِيَاءَ لَعِباً ، وَلَمْ يُنْزِلِ الْكُتُبَ لِلْعِبَادِ عَبَثاً ، وَلاَ

---

(١) أُنظر ، الكَافِي : ١ / ١٥٥ ح ١ ، التَّوحِيد لِلشَّيخ الصَّدوق : ٣٨٢ ، رَسَائِل السَّيِّد المُرتَضىٰ : ٢ / ٢٤١ ، الإِرْشَاد للشَّيخ المُفِيد : ١ / ٢٢٥ ، عوَالي اللّئالي : ٤ / ١٠٨ ، بحَار الأَنْوَار : ٥ / ١٢٦ ، خَصَائِص الأَئِمَّة : ٩٣ ، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابن مِيثَم البَحراني : ٥ / ٢٧٨ ، رَوضَة الوَاعِظِين : ٤٠ ، الفصُول المُختَارة : ٧١ ، أَمَالي السَّيِّد المُرتضىٰ : ١ / ١٠٥ . وَمِمَّا يَجدر ذِكره أَنَّ الشَّيخ فِي آخر الأَمر نَهَض مَسرُوراً وَهُو يَقول :

أَنتَ الإِمَامُ الَّذي نَرجُو بِطَاعَتِهِ ... يَوْمَ النُّشورِ مِن ٱلرَّحمَن رِضوَانا

أَوْضَحتَ مِن دِيننا مَا كَانَ مُلتَبِساً ... جَزَاكَ رَبُّك عَنَّا فِيهِ إِحسَانا

أَنظر ، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابن أَبِي ٱلحَدِيد : ١٨ / ٢٢٧ .

خلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا »[١]. مَع أَنَّ هَذَا الكَلاَم خَاصّ بالجَبر وَالإِختيَار لاَ فِي القَضَاء وَالقَدَر... وَفِيمَا يَلي البَيَان:

القَضَاء وَالقَدَر:

لكَلمَة القَضَاء مَعَانٍ عَدِيدَة، مِنْهَا اللّزُوم وَالحَتم الَّذي هُو تَعبِير ثَانٍ عَن الجَبر وَعَدَم الإِختيَار... وَمِنْهَا عِلْم الله سُبْحَانَه بالطَّرِيق الَّذي سَوف يَسلكَهُ العَبد فِي جَمِيع أَفعَالَه الإِختيَاريَّة خَيراً كَانَت أَم شَرّاً.

وَأَيْضاً لكَلمَة القَدَر مَعَان عَدِيدَة، مِنْهَا اللّزُوم وَالحَتم كَالمَعْنىٰ الأَوّل للقَضَاء، وَمِنْهَا إِيجَادَه سُبْحَانَه وتَعَالَىٰ للمُسببَات عِندَ وجُـود أَسـبَابهَا إِرَاديَـة كَـانَت أَم قَهريَة.

وَحِينَ قَالَ الإِمَام: « مَا وَطِئْنَا مَوْطِئاً، وَلاَ هَبطنَا وَادِياً إِلاَّ بِقَضَاء الله وَقَدَرَة ». فَهَم الشَّامي مِن كَلمَة القَضَاء وكَلمَة القَدَر مَعْنىٰ وَاحداً، وهُو اللّزُوم وَالحَتم، وَلذَا قَالَ: « مَا أَرَىٰ لِي مِن الأَجْر شَيْئَاً!، فَـزَجرَه الإِمَـام وَنَـفىٰ أَنْ يَكُـون أَرَاد هَـذَا المَعنَىٰ، وَقَالَ: « وَيْحَكَ! لعَلَّكَ ظَنَنْتَ قَضَاءً لاَزِماً، وَقَـدَراً حَـاتِماً!». وَاكْـتفىٰ الإِمَام بهَذَا النَّفي دُون أَنْ يُبيّن المَعنىٰ الَّذي أَرَادَه مِن القَضَاء وَالقَدَر، وَانْتقل إِلَىٰ مَسأَلَة ثَانيَة، وَهِي مَسأَلَة الجَبر وَالإِختيَار.

وَمَهمَا يَكُن فَإِنَّ الإِمَامﷺ أَرَاد مِن القَضَاء وَالقَدَر المَعنَىٰ الَّـذي يَـنْسَجم مَـع إِختيَار العَبد فِي أَفعَاله، وَلاَ يُنَاقض صحَة التَّكليف، وَجوَاز الثَّوَاب وَالعِقَاب كمَا يَدل عَلَيه ظَاهر كَلاَمه. وَالمَعنىٰ الَّذي يَتّفق وَيَنسَجم مَع حُـرّيَّة العَـبد، وَيُـرِيدَه

---

(١) أُنظر، نَهج البَلاغَة: الحِكمَة (٧٦).

الإمَام هُو أَنْ نُفسّر القَضَاء هُنا بعِلْم الله أَنَّ العَبد سَيَفعَل كَيت وَكَيت بـإِرَادَته وَإِختيَارَه، وَنُفَسّر القَدَر بأَنَّ الله يُوجد الأَفعَال عِندَ وجُود أَسبَابهَا، ومِن جُملَة أَسبَابهَا إرَادَة العَبد وَقُدرَته، وَالله عَلِيم بذَلكَ وَغيرَه.

مُشكلَة الجبر وَالإِختيَار:

تَكَلمنَا عَن هَذِهِ المُشكْلَة فِي التَّفسِير الكَاشف، وفِي ظِلاَل نَهْج البَلاَغَة، وَمَعَالم الفَلسَفَة وَغير ذَلِكَ مِمَّا كَتبنَا وَنَشرنَا، وَأَطلنَا الشَّرح وَالكَلاَم عَنْهَا وعَن مَسأَلَة القَضَاء وَالقَدَر، وَالخَير والشَّر، وَالهُدىٰ وَالضَّلال فِي كِتَاب فَلسَفَة التَّوحِيد وَالوْلاَية وَنُشِير هُنا إِلَىٰ مَذْهَب الإِنْسَان القُدرَة عَلَىٰ مَعرفَته وَالإِيمَان بـوجُودَه، وعَلَىٰ التَّميِّيز بَيْنَ الخَير والشَّر، وَهَذِهِ القُدرَة موجُودَة فِي عَقل الإِنْسَان... وَأَيْضاً وَهَب سُبْحَانَه الإِنْسَان القُدرَة فِي بَدَنه عَلَىٰ الكَدح وَالعَمَل مُخيراً لاَ مُسَيراً.

وقَالَ السُّنَّة أَو جُلّهُم: أَنَّ القُدرَة مَوجُودَة فِي الإِنْسَان، مَا فِي ذَلِكَ رَيب، وَلكنّها مُعطّلَة وَمَشلُولَة لاَ يَستَند إِلَيها فِعل وَلاَ تَرك، وَوجُودهَا فِيهِ تَمَاماً كوجُود الشَّعر عَلَىٰ بَدَنه، وَالفَاعل لكُلّ مَا يَصدُر عَن الإِنْسَان هُو الله وَحدَه، وَلَيس الإِنْسَان إِلَّا مُجَرّد ظَرف وَوعَاء للفِعل الَّذي يُخيَّل إِلَينَا أَنّه صَادر عَنْهُ... وَيُسَمىٰ أَهْل هَذَا المَذْهَب الجَبريَة[1].

وقَالَ آخرُون: إِنّ الله سُبْحَانَه وَهَب الإِنْسَان هَذِهِ القُدرَة عَلَىٰ أَنْ تَكُون مُلكاً مُطلقاً لَهُ لاَ يُعَارضه فِيهَا أَحد حَتَّىٰ الله تَبَارَك وتَعَالَىٰ، لأَنّه نَقَلهَا مِن سُلطَانه القَاهر

---

(١) أنظر، الهِدَايَة للشَّيخ الصَّدوق: ١٩، وَسَائِل الشِّيعَة: ٢٨ / ٣٤٠ ح ٤، الإِحتجَاج للطَّبرسي: ٢ / ١٩٨، مُسْنَد الإِمَام الرِّضَا: ١ / ٣٧ ح ٥٢، نُزهَة النَّاظر وَتَنْبِيه الخَاطر للحَلوَاني: ١٣١ ح ٢٢.

إلَىٰ سُلطَان الْإِنْسَان تَمَامَاً كمَا تَنْتَقل مُلكيَة المَتَاع مِن البَائِع إلَىٰ المُشتَري، وَمِن المَورِّث إلَىٰ الوَارث، غَايَة الأَمْر أَنَّه عزّوجلّ أمر العَبد أَنْ يَستَعمل قُـدرَته فِـي الخَير لاَ فِي الشَّر، وَتَرك لهُ الخَيَار، إنْ شَاء أَطَاع، وَإِنْ شَاء عَصَىٰ.. وَيُسَمىٰ أَهْل هَذَا المَذهَب المُفوضَة[1]، أَي أَنَّ الله فَوض أَمْر القُدرَة لِعبَادِه، وَقَطع كُلّ علاَقَة بَيْنَه وَبَينهَا، كمَا يَزعمُون.

وقَالَ أَهْل الْبَيْت: كَلَّا «لاَ جَبْر وَلاَ تَفويض بَل أَمرٌ بَيْنَ الأَمْرَين»[2]. وَالمُرَاد بلاَ جَبر هُنا أَنَّ أَفعَال الْإِنْسَان تَستَند إلَىٰ قُدرَته مُبَاشرَة. وَالمُرَاد بلاَ تَفوِيض أَنَّ

(١) أنظر، أَوَائِل المَقَالاَت: ٧٧، شَرح عَقَائد الصَّدُوق ـ بَـاب الغُـلوّ وَالتّـفويض. وَكـتَابنَا: «الجُـذُور التَّاريخيَة وَالنَّفسِيَة لِلغُلوّ، وَالغُلاَة، دِرَاسَة تَحليلِية فِي الهَوِية وَالجُذُور لوَاقع الفِرق المُغَالِية»: ٢٩٩.

(٢) الإِسْلاَم دِين التَّوحِيد، وَالتَّوحِيد هُو الأَسَاس الَّذي يَنْطَلق مِنْهُ المُسلم فِي بنَاء عَقِيدَته، وَبِـدونه لاَ يَكُون مُسلِماً. وَلِذا كَان أبن بَابويه توّاقاً إلىٰ دَفع وَدَحض التُّهمَة القَائِلة بِأَنَّ أَحَاديث الإِمَامِيَّة مُتضَاربة مَع التَّوحِيد، وَلِذا يقول فِي مُستَهل كتَاب التَّوحِيد «إنَّ الَّذي دَعَاني إلىٰ تَأْليف كتَابي هَذَا أَنّي وَجَدت قَوماً مِن المُخالِفين يَنْسبُون عَصَابَتنا إلىٰ القَول بِالتَّشبِيه، وَالجَبر لمَا وَجدُوا فِي كُتبهِم مِن الأَخبَار الَّتي جَهلُوا تَفسِيرها وَلَم يَعرفُوا مَعَانِيها وَوَضعُوها فِي غَير مَوضعهَا». ثُمَّ يُتَابع كَـلاَمه فَـيقول: بِأَنَّ هَـذِه الأَحَاديث يَجب أَنْ تُؤول وَتُفسر بِنفس التَّوجه السَّلِيم فِي تَأْوِيل القَرَائن الوَارِدة حَول تَفسِير الآيَات القُرْءانِيَّة.

أنظر، الكَافِي: ١ / ١٦٠ ح ١٣، الإِعتقَادَات: ٢٩، الإِحـتِجَاج: ٢ / ١٩٨ و ٢٥٣، فِـقْه الرِّضـا: ٣٤٨، الوَافِي: ١ / ٥٣٥، تُحف العُقُول: ٣٤٤ و ٣٤٦، الهِدَاية لِلشَّيخ الصَّدوق: ١٩، رَسَائل المُرتضىٰ: ١ / ١٣٥، عُيُون أَخبَار الرِّضا: ٢ / ١١٤ ح ١٧، رَوضة الوَاعِظِين: ٣٨، مُختَصر بـصَائِر الدَّرجَـات: ١٢٨، تَصحِيح اعتقَادَات الإِمَامِيَّة: ٤٦، كَنز العُمَّال: ١ / ٣٤٩ ح ١٥٦٧، تَأريخ آل زُرَارة: ١ / ١١٤، تَأريخ دِمشق: ٥١ / ١٨٢، كَشف الغُمَّة: ٣ / ١٠٢، كتَاب الهِدَاية لِابْن بَابويه: ٥، مَجمُوعة فِي فنُون مِن عِلم الكَلاَم (مَخطُوط)، انقَاذ البَشر مِن الجَبر وَالْـقَدر، إلىٰ رَسَـائِل الشَّـرِيف مُـرَاجـعة أَحـمَد الحُسِيني: ١٠٦، بُلُوغ الأَرب وَكنُوز الذَّهب فِي مَـعرِفة المَـذْهَب: ٤٥٢، كـتَاب التَّـوحِيد للشَّـيخ الصَّدوق: ١٧.

سُلطَان الله عَلَىٰ قُدرَة الإِنْسَان قَـائِم بـالفِعل وأَنَّـهَا تَـمَامَاً كَـالعَاريَة يَـنْتَفع بِـهَا المُستَعِير، وهِي عَلَىٰ مِلك صَاحبهَا المُعِير، لأَنَّ العَبد وَمَا مَلَكت يَدَاه فِي قَـبضَة مَولاَه. هَذَا هُو الأَمْر بَيْنَ الأَمْرَين، أَي أَنَّ الإِنْسَان يُؤمِن وَيَـعلَم بـطَاقَته القَـلبيَة وَالعَقليَة، وَيَكدَح وَيَعمَل بقُدرَته الجِسميَة، وَيَترك وَيَفعَل بـإِرَادَتـه الشَّـخصيَّة، وَفِي الوَقت نَفْسَه كُلّ مِن الله، وَلكنّه تَعَالَىٰ أَذِن لعَبدَه أَنْ يَنصَرف بِهَا فِي حُـدُود حَلاَلَه وَحرَامه، فَإِنْ أَطَاع فَلَه جَزَاء مَن أَحسَن عَملاً، وَإِنْ شَقّ العَـصَا فَـإِنَّ الله شَدِيد العِقَاب[1].

(١) أنظر، الأُصُول مِن الكَافِي: ١ / ١٥٠ ح ١، المَحَاسِن: ١ / ٢٤٤ ح ٢٣٧، مُسْنَد الإِمَام الرِّضا: ١ / ٢٠ ح ١٣، الوَافِي: ١ / ١١٤.

أَخْطَر مِن القُنْبلَة الذَّريَّة

فِي سَنَة (١٩٦٨ م) أَشرتُ فِي كِتَاب « مِن هُنَا وَهُنَاك » إِلَىٰ أَنَّ الصَّهاينَة طَبعُوا مِئَات الأُلُوف مِن نُسَخ ٱلْقُرْءَان، وَوزعُوهَا عَلَىٰ مُسلِمِي آسيَا وَأَفرِيقيَا بَعد أَنْ حَرّفُوا العَدِيد مِن آيَاته... وَفِي (٦ / ١ / ١٩٧٠ م) قَرَأتُ فِي جَريدَة الجمهُوريَة المَصريَة مَا نَصّه بالحَرف الوَاحد: « قَالَ أَحد زُعمَاء الصَّهيونيَّة: يَجْب أَنْ نَتّخذ مِن ٱلْقُرْءَان سلاَحاً مَشهُوراً ضِدّ الإِسْلاَم لنَقضي عَلَيهِ، فَيَرىٰ المُسْلمُون أَنَّ الصَّحِيح فِي ٱلْقُرْءَان لَيْس جَدِيداً، وَأَنَّ الجَدِيد فِيهِ لَيْس صَحِيحاً». وَأَشرتُ إِلَىٰ ذَلِكَ فِي مُقدَّمَة كِتَاب « الإِسْلاَم بنَظرَة عَصريَة ».

وَالآنَ وَبَعد أَنْ ٱنْتهت المَطبعَة مِن كتَابي هَذَا: « شُبهَات المُلحدِين وَالإِجَابَة عَنْهَا » قَرَأتُ فِي الصَّفحَة السَّابعَة مِن هَذِهِ الجَرِيدَة بِالذَات (٦ / ٦ / ١٩٧٤ م) مَقَالاً شُجَاعاً وَمُخلصاً يَفْضَح صَرَاصِير الصّهيُونيَّة مِن أَسَاتذَة الجَامعَات فِي بَعْض البلاَد العَربيَّة، وَالمَقَال بقَلَم الأُستَاذ مُحَمَّد ديَاب، وَعُنوانَه « أَخْطَر مِن القُنْبلَة الذَّريَّة ». وَفِيمَا يَلي أَذكَر الرَّكِيزَة وَالحَجَر الأَسَاس لهَذَا المقَال، عَسَىٰ أَنْ يَنْتَبه الغَافلُون. قَالَ الأُستَاذ ديَاب:

« مُنذ أَيَّام ٱسْتَمع النَّاس فِي البَرنَامج الثَّاني للإِذَاعَة المَصريَة إِلَىٰ نَدوَة عَن التَّفسِير العِلمي ٱلْقُرْءَان، ٱرتَكبَ فِيهَا بَعْض أَسَاتذَة الجَامعَة « الدَّكَاترَة »

إنحرَافَات بَالغَة الخُطُورَة ضِدّ ٱلْقرْءَان... فَقَد زَعمُوا أَنَّ ٱلْقرْءَان لاَ يَتَّفق مَع العِلْم ، وَلاَ العِلْم يَتّفق مَع ٱلْقرْءَان... وَالهَدَف مِن هَذَا الزَّعم هُو عَزل ٱلْقُرْءَان عَن ٱلْحَيَاة ، وَالتَّشكِيك فِي عِلْم التَّفسِير ، وَالوَاضح مِن تَرتِيب هَذِهِ النَّدوَة وَإختيَار المُشتَركِين فِيهَا أَنَّهَا تَعمدَت النَّيل مِن كِتَاب الله بدَلِيل أَنَّ المُشتَركِين لَيسُوا مِن أَهْل العِلْم بِالتَّفسِير ٱلْقُرْءَاني ، وأَنَّ أَحداً مِن العُلمَاء المُتخَصّصِين لَمْ يُدع للإشترَاك فِيهَا ، عَلَىٰ الأَقل ليَردّ عَلَىٰ هَذِهِ الإفترَاءَات الجَريئَة ».

وَنَتسَاءل : كَيف التَقىٰ هَؤُلآء « الأَسَاتذَة الجَامعيُون الدَّكَاترَة » مَع ذَاك الزَّعِيم الصَّهيُوني فِي عَدَاوَة الإِسْلاَم وَالتَّشكِيك فِيهِ عَن طَرِيق الطَّعن بِٱلْقرْءَان ؟ . ولمَاذَا سَمَحت إِذَاعَة القَاهرَة بالإفترَاء عَلَىٰ كِتَاب الله ودِين مُحَمَّد رَسُول الله ﷺ ؟ وَأَينَ شيُوخ الأَزهَر حُمَاة الدِّين وَالمُروجُون لهُ عَن هَذَا الغَزْو الصَّهيوني الدَّاخلي ؟ وهَل هَذِهِ الظَّاهرَة مِن إذَاعَة القَاهرَة هِي مِن ذيُول الإنفتَاح الجَدِيد ، وَعطُور الصَّداقَة المَصريَة الأَمرِيكيَة ؟ .

نُثِير هَذِهِ التَّساؤلاَت ، ونَحْنُ نَعْلَم كَم يُضحي الأَزهَر وَالمَجلِس الأَعْلَىٰ للشُّؤون الإسْلاَمِيَّة مِن أَجل الإِيمَان وَحمَايَة الإِسْلاَم... أَجل ، نَحْنُ نُدرك ذَلِكَ مِن الأَعمَال وَالآثَار وَنُقدره شَاكرِين ، وَلَكن نُطَالب المَسؤلين مِن شيُوخ الأَزهَر وَغيرهِم أَنْ يَتَنبهُوا لهَذَا الغَزْو الدَّاخلي الَّذي يَنْفث سمُوم الصَّهيونيَّة بِٱسم العِلْم مَرّة ، وَالدِّين ثَانيَة ، وَالتَّجدد وَالإنفتَاح تَارَة أُخرىٰ .

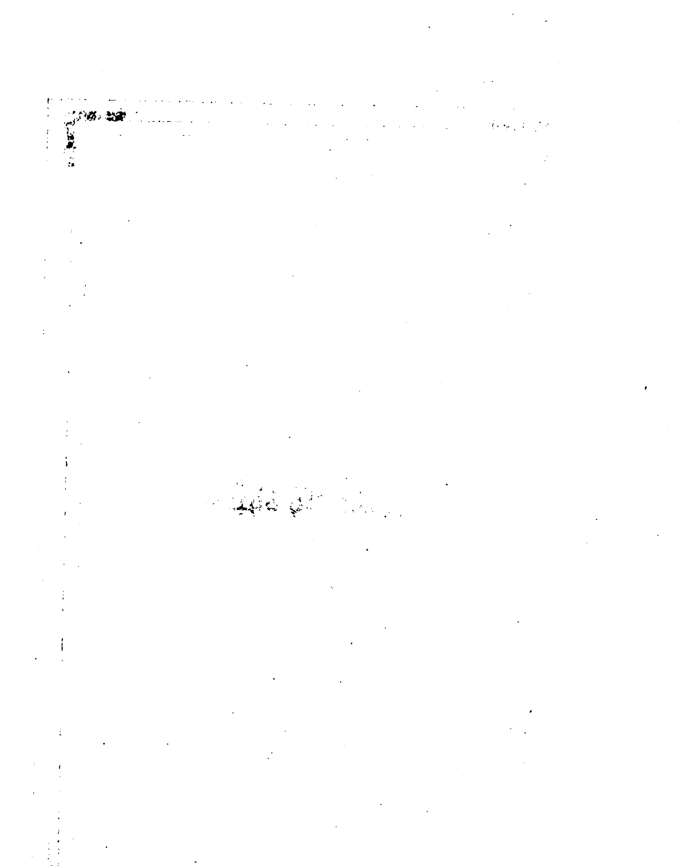
أَنَّ الشَّعب المَصْري قَاتل وَضَحىٰ بالكَثِير لاَ مِن أَجل الأَرْض فَقَط ، بَل وَمِن أَجل الدِّين ، وَالوَعي ، وَاللُّغة ، وَالتُّرَاث ، وَالبِنَاء فِي كُلّ مَيدَان... وَالعَدوّ يُدرِك ذَلِكَ جَيداً ، وَيُحَاول مَا ٱستطَاع أَنْ يُحَاربنَا بكُلّ سلاَح مِن الدَّاخل وَالخَارِج...

وَأَمضىٰ الأَسلحَة وَأَخطرَها عَلَىٰ الإِطلاَق حَملَة الشَّهادَات المُـرتَزقَة وَأَربَـاب الهَوىٰ وَالتَّزعصب، وَأَشرنَا إِلَيهم فِـي فَـصل الظَّـاهرَة ٱلـقُرْءَانِـيَّة فِـقرَة «أَزْمَـة خَطِيرَة».





النُّبُوّة وَالعَقْل



تَمْهِيد

إِنَّ مَسأَلَة النُّبوّة الَّتي نَتكلّم عَنْهَا فِي هَذِهِ الصَّفحَات لَيْسَت مِن المَـوضُوعَات الحَدِيثَة ، وَلاَ مِن المَسَائِل المُعَقدَة الغَامضَة ، فَقَد عَـرَفهَا النَّـاس مُـنذ عَشـرَات القُرُون ، وَتَحدّثَت عَنْهَا كُتب الدِّين ، والكَلاَم ، وَالفَلسَفَة بإِسهَاب وَتَعمُّق ، وَآمَن بِهَا أُلُوف المَلاَيِّين فِي العَصْر الحَاضر وَالغَابر .

ونَحْنُ لاَ نَجد شَيئَاً جَدِيداً نُضِيفه إِلَىٰ أَقْوَال العُلمَاء الرَّاسخِين ، وَإِنَّمَا غَـرضنَا الوَحِيد أَنْ نُوضّح وَنُبَسط آرَاءهُم للشَّبَاب ، لعَلّهُم يَقرأُونهَا فِيمَا يَقرَأُون مِن هَـذِهِ الكُتُب الحَدِيثَة الَّتي تَزخَر بِهَا المَكتبَات ، والَّتي صَرَفَتهُم عَن كُلّ قَدِيم ، حَتَّىٰ وَلو كَان دَوَاء لاَ دَاء بَعدَه ، وَهُدىٰ لاَ ضَلاَلَة فِيهِ .

ظَنّوا أَنَّ الدِّين حَافل بالبِدَع وَالخرَافَات ، وأَنَّه لاَ عَـمَل لرَجـل الدِّيـن إِلَّا أَنْ يَسيرُوا فِي ركَاب الجَائِرين ، وَيُزينُوا لهُم البَغي وَالعُـدوَان عَـلَىٰ المُسـتَضعَفِين ، فَتَنكرُوا للدِّين وَأَهلَه ، وَنَفرُوا مِنهُ ومِنْهُم .

وَنَحْنُ لاَ نُرِيد مِنْهُم إِلَّا أَنْ يَقرَأُوا كِتَاب الله وَسِيرَة النَّبيّ الكَرِيم ، ثُمَّ يَحكمُوا بمَا يَشعرُون ، كمَا يَفعَل المُفكّر الرَّشِيد ، وَمَتىٰ قَرأُوا وَأَنصفُوا يَتم الصُّلح بَيْنَهُم وبَـيْنَ العُلمَاء الَّذِين يُنزهُون الإِسْلاَم عَن الأَسَاطِير وَالأَوهَام .

وَتشَاء الصّدَف أَنْ يَقع فِي يَدنَا كتَابَان ، ونَحْنُ نَبحَث وَنَتتبّع المَرَاجع القَـدِيمَة

وَالحَدِيثَة الَّتي تَتَّصل بهَذَا المَوضُوع. وَقَد وَقَفتُ عِند الكتَابَين طَويلاً لأَنَّ أَحدهُما مَوعظَة وَذِكرىٰ، وَالآخر فِيهِ تَجن وَهَوىٰ، وَاسم الأَوّل «مُحمَّد الرِّسَالَة وَالرَّسُول» أَلَّفه دُكتُور مَسِيحي مِن أَقبَاط مَصر، دَرَس الأَديَان وَقَارَن بَيْنَها، ثُمَّ انْتهىٰ إِلَىٰ الإِيمَان بنُبوّة مُحمَّد وَتعَالِيمه. وَيَجد القَارِيء مُلخصاً لهَذَا الكِتَاب، فِي الفُصُول الآتيَة بعُنْوَان «الرِّسَالَة وَالرَّسُول» وَاسم الكِتَاب الثَّاني «قصُور وَلُبَاب» وَصَاحِبه دكتُور مَصْري وهُو زَكي نَجِيب مَحمُود، وَقَد تَعَرض فِيهِ لمَفهُوم الأَدَب، وَالعِلْم، وَالفَلسفَة، وَحَمل عَلَىٰ المِيتافِيزيقيَا، وَنَسَب كُلّ مَا يَتّصل بمَا وَرَاء الطَّبِيعَة إِلَىٰ الأَوهَام وَالأَسَاطِير، وأَطَال الكَلاَم فِي الأَدلّة عَلَىٰ دَعوَاه هَذِهِ، ثُمَّ انْتهَىٰ إِلَىٰ النَّتِيجَة التَاليَة:

«وَمَا دَامَت المِيتافِيزيقيَا كُلّهَا كَلاَماً فَارغاً عَلَىٰ النَّحو الَّذي بَينّا، فَمَا نَحْنُ صَانعُون بهَذِهِ الأَسفَار الضَّخمَة الَّتي تَرَاكمَت لَدينَا عَلَىٰ مَرّ القُرُون مِمَّا كَتَبه المِيتافيزيقيُون؟ أَنَّه لعَزيز عَليّ وَعَلَيك أَنْ تَلقىٰ هَذِهِ الأَسفَار، كمَا يَنْبَغي لهَا طَعَاماً لأَلسنَة النَّار، أَو أَثقَالاً فِي قَاع البَحر، وإِلاّ فَلنَبق عَلَيهَا، ليَقرَأهَا القَارِيء، إِذَا أَخذَه الحَنِين إِلَىٰ المَاضي، كمَا يَقرَأ أَسَاطِير الأَوّلين»[١].

وَلَيْس بجَدِيد عَلَينَا هَذَا القَوْل، فَقَد أَلفنَاه مُنذ القَدِيم، وَنَاقشنَاه فِي مَا نَشرنَا مِن مقَالاَت وَمُؤلفَات، وَلَكن الجَدِيد الَّذي لَمْ نعرفه مِن قَبل، وَلَم نَسمَعه مِن أَحد هُو قَول المُؤلّف:

«إِنَّ فَتَح النَّوَافذ وَالأَبوَاب أَمَام المَدنيَّة الغَربيَّة لَم يُصَادف هَوىٰ عِند طَائِفَة مِن النَّاس، فَبَين ظَهرَانِينَا فَرِيق كَبِير جدّاً كَان يَتَمنىٰ بحُكم تَربِيَته أَنْ يَكُون نهُوضنَا

(١) أُنظر. قصُور وَلُبَاب الدُّكتُور زَكي نَجِيب مَحمُود: ٢١٩ و ٢٢٠ طَبعَة (١٩٥٧م). (مِنْهُ ﷺ).

كلّه نمّواً مِن الدَّاخل وَرجوعاً إِلَىٰ المَاضي ، فَلمَّا رَأوا أَنَّ تَيَار الحَضَارَة الغَربيَّة العِلميَّة جَارف يَمسّ أَوضَاع ٱلْحَيَاة كلّها ، لَم يَروا بُدّاً مِن الحَركَة فِي ٱتّجَاهِهِم ، وَهُو الجَري إِلَىٰ الوَرَاء لإِستخرَاج كنُوز المَاضي ، لعَلّهُم يُجَابهُون بِهَا الغَرب الدَّخِيل ، وَلَكنّهُم لَن يَقتَصرُوا عَلَىٰ مُجَرّد نَشر القَدِيم نَشراً مُزدَوجاً بالشَّرح وَالتَّعلِيق ، بَل أَضَافُوا إِلَىٰ ذَلِكَ « تعقِيل » هَذَا التُّرَاث مَا ٱستطَاعُوا إِلَىٰ ذَلِكَ مِن سَبِيل »[1] .

وَهُو يُرِيد بقَوله هَذَا رجَال الدِّين وَغيرهِم مِن قَادَة الفِكر ، لأَنّه ضَرب مَثلاً بمُفكّر وَضَع كتَاباً فِي الشِّعر العَرَبي القَدِيم ، وَبإِمَام فَسّر ٱلْقُرْءَان تَفسِيراً رَاعىٰ فِيهِ أَنْ تَظهَر أَحْكَامَه للنَّاس مُتّسقَة مَع العَقْل العِلمي الحَدِيث .

وَلَو أَنَّ الدُّكتُور زَكي دَرَس الإِسْلاَم ، وَٱطّلع عَلَىٰ أَحْكَامَه وَتَعَاليمه لإِسْتَثنىٰ قَادَة الدِّين مِن قَوْلَه : « أَضَافُوا إِلَىٰ ذَلِكَ (تعقِيل) هَذَا التُّرَاث » وَلعَلمَ أَنَّهُم لَم يُحَاولُوا إِعطَاء الإِسْلاَم أَيّة قِيمَة أَجنبِيَة عَنْهُ ، وَإِنّمَا كَشفُوا عَن بَعْض قِيَمه وَخَصَائِصه ، وأَنَّهُم لَم يَذكرُوا مِن كنُوزَه وَأَسرَارَه إِلاَّ القَلِيل .

إِنَّ أَئِمَّة المُسْلِمِين لَم يَرسمُوا لتَفسِير ٱلْقُرْءَان خُطَطاً مِن عِندَهم تَتَلاءَم مَع العَقْل الحَدِيث أَو القَدِيم ، بَل أَنَّ ٱلْقُرْءَان هُو الَّذي أَرشَدهُم إِلَىٰ مَنْهَج العِلْم والعَقْل ، وَأَمرهُم بنَبذ الخرَافَات وَالأَوهَام ، وَلَو أَنَّ رجَال الدِّين ٱتّبعُوا مَنْهَج ٱلْقُرْءَان فِي التَّفسِير وَالتَّشرِيع لمَا رَأينَا فِي أَقْوَال بَعْضهِم مَا يُلاَم عَلَيهِ . لذَا تَرَانا نَحتَج بٱلْقُرْءَان وَبٱسم الدِّين عَلَىٰ مَن يَنحَرف عَن طَرِيق الفِطرَة والعَقْل ، وَلَكن البَعْض يَتجَاهَل هَذِهِ الحَقِيقَة ، وَيَعْكس الآيَة ، فَيَحتَج عَلَىٰ رجَال الدِّين إِذَا تَركُوا

---

(١) أنظر . قصُور وَلُبَاب الدُّكتُور زَكي نَجِيب مَحمُود : ١٥٥ طَبعَة (١٩٥٧م) . (مِنهُ ﷺ) .

البِدَع وَالضَّلاَلاَت وَيَزعَم أَنَّهُم يَتَكلفُون وَيَتمحلُون! كَأَنَّ الدِّين «بصَارَة برَاجَة» أَو تَغسِيل أَموَات، وَتلاَوَة آيَات!.

قَالَ المُستَشرق الفَرنسي جَاسنتُون: «إِنَّ ٱلْقُرْءَان هُو مَنبَع الدِّين العَقلي وَدستُورَه، فَقَد ٱحتَوىٰ عَلَىٰ أُسّس تَستَند إِلَيهَا حَضَارَة العَالَم»، وَيَقول دُكتُور مُسلِم: «لَقَد أَضَاف القَادَة إِلَىٰ تُرَاثنَا التَّعقِيل»، أَي أَعطُوا العَقْل لمَا لاَ يَعْقل!.

إِنَّ العُلمَاء الرَّاسخِين لَم يَنفُوا عَن الدِّين مَا هُو مِنْهُ، وَلَن يَضِيفُوا إِلَيهِ مَا خَرَج عَنْهُ. أَنَّهُم لَم يَفعلُوا شَيئَاً أَكثَر مِن الكَشف عَن الوَاقِع، وَإِزَاحَة السّتَار عَن جَوهَر الدِّين وَحَقِيقَته «رَأوا مَن يُخطيء فَهم الدِّين، وَيُلقي عَلَيهِ التَّبعَات كمَا رَأوا تَحكّم القَوي بالضَّعِيف، وَشيُوع الفِسق وَالفُحش، وَالإِضطِرَاب فِي الأَعمَال وَالأَخلاَق، فَشَعرُوا بالمَسؤوليَة أَمَام الله وَالضَّمِير عَن مَعَاني الحَقّ وَالفَضِيلَة، فَبَيّنُوهَا للنَّاس، وَدَافعُوا عَنهَا وَدَعوا إِلَيهَا، وَرَفعُوا أَصوَاتِهم مَع أَصوَات المُعَذَبِين فِي كُلّ شعُوب العَالَم، أَو أَثَارُوا فِي النُّفُوس النَّزعَة الإِنسَانيَّة نَحو الخَير، وَرَبطُوا مَسَائِل الدِّين بصَالح الجَمَاعَة، وَبرّأوه مِن كُلّ مَا يَضِير الإِنسَان، كمَا جَعلُوه وَسِيلَة للتَّعاطُف وَالتَّفاهُم، وَطَرِيقَاً للعَدل وَالأَمن وَالسَّلاَم.

وَهَذَا هُو ذَنبهم عِند البَغض! مسَاكِين أَهْل العِلْم، إِنْ سَكتُوا قِيل كُسَالىٰ مُهملُون، وَإِنْ تَكلمُوا قِيل مُتَعَصبُون مُتَمحلُون، وَلَكن يُهوّن الخَطب أَنَّ مَن يَقول هَذَا القَوْل هُم شُذّاذ الأَحزَاب الَّذِين لاَ يَرضُون عَن أَي إِنسَان وَبخَاصّة عَن رَجُل الدِّين إِلاَّ إِذَا طَبّل لهُم وَزَمّر، وَحرّف لهُم كَلاَم الله وَسُنن الأَنبِيَاء وَالصَّالحِين، وَرَمىٰ مِن لاَ يُشَايعهُم عَلَىٰ الضَّلاَل بالزَّيغ وَالإِنحرَاف وَصَدَق الله العَظِيم حَيْث خَاطَب نَبيّه الكَرِيم بقَوله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ

مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾[١].

وَقَد عَلّمَتنَا الأَيَّام وَالتَّجَارب أَنَّ أَخوَف مَن يخَاف مِنْهُ المُجرِم المَأجُور هُـو رَجُل الدِّين الَّذي لاَ يُؤثر عَلَىٰ عَقِيدَته شَيئاً.

وإِذَا فَسّر المُتحَذلقُون أَقْوَال رِجَـال الدِّيـن بأَنَّـها تَـمَحّل وَتَـعَصب لدِيـنهِم وَعَقِيدَتهم، فمَاذَا يُفسّرون قَـول الدُّكـتُور فِـيلِيب حَـتي المَسِـيحي المُـعَاصر، وَالمُؤرّخ الكَبِير الَّذي وَصَف الإِسْلاَم بأَنّه حَضَارَة عَامّة شَاملَة تَـنتَظم كُـلّ مَـن يَعِيش تَحتَ سَمَائِها فِي حُرّيَة وَصفَاء، ويَعِيش غَير المُسْلمِين مَع المُسْلمِين عَلَىٰ قَدَم المُسَاوَاة وَتَربطهُم بروَابط المَحبّة وَالأُخوَة»!.

وإِذَا عَقل غَير المُسلِم فَضل الإِسْلاَم وَعَظَمته، وَنَطَق بكَلمَة الحَقّ لوَجه الحَقّ، فَهَل يَكتمهَا عُلمَاء المُسْلمِين، وَقَد أَحيَا الله قُلوبهم بـنُور الإِسْـلاَم مُـنذ عَـرفُوا ٱلْحيَاة؟! كَلَّا سَيمضُون فِي هَذَا الطَّرِيق غَير مُبَالِين وَلاَ مُكتَرثِين يَجهرُون بالحَقّ، وَيَدفعُون عَنْهُ بصَرَاحَة وَشجَاعَة لاَ تَأخذهُم رَغبَة فِي مَنْصب وَمَال، وَلاَ رَهبَة مِن قُوّة وَسُلطَان، وَلاَ يَبتغُون إِلَّا وَجْه الله، وَخدمَة الإِسْلاَم.

---

(١) ٱلْبَقَرَة: ١٢٠.

الحُسْنُ وَالقُبْحُ

قَالَ بَعْض ٱلشُّعْرَاء:

رُبَّ قُبْح عِندَ زَيد هُو حَسَنٌ عِندَ عَمرُو
فَهُمَا ضِدّان فِيهِ وَهُو وَهمٌ عِندَ بَكْر
لَيْتَ شِعْرِي فَمَن الصَّادِق فِيمَا يَدّعِيه
وَلمَاذَا لَيْس للحُسن قِيَاسٌ، لَسْتُ أَدري

بَل، أَنَّ قِيَاس الحُسن مَوجُود، وَلَو كُشف عَنْهُ الغِطَاء لَم يَخْتَلف فِيهِ ٱثنَان، وَالَّذي دَعَا الشَّاعر إِلَىٰ نَفيهِ، وَأَوقَعهُ فِي الحَيرَة وَالتَّشكك مَا قَرَأه فِي بطُون الكُتُب مِن الآرَاء وَالأَقوَال المُتضَاربَة حَول تَحدِيد قِيَاس الحُسن وَبَيَان مَفهُومَه وَمَعنَاه.

لَقَد ٱتَّفَقَت الكَلمَة عَلَىٰ أَنَّ للحُسن وَاقعاً، وأَنَّ لَهُ قِيَاساً دُون رَيب، وَلَكن وَقَع الإِختلاَف فِي حَقِيقَة هَذَا القِيَاس. فَذَهَب الأَشَاعِرَة[1] إِلَىٰ أَنَّه لَيْس للفعل صِفَة يَكُون بإِعتبَارهَا حُسناً أَو قُبحاً، أَنَّ الله لاَ يَجب عَلَيهِ شَيء، وَلاَ يَقْبَح مِنْهُ شَيء، وأَنَّ الحَسن مَا أَمرَ بهِ الشَّرع، وَالقَبِيح مَا نَهىٰ عَنْهُ، وَأَنَّه لَو أَمَر بمَا نَهىٰ لصَار

(١) الأَشَاعِرَة هُم أَتبَاع أَبي الحَسَن الأَشعَري المُتوفَىٰ حَوَالي (٣٣٠هـ). (مِنهُ ﷺ).

حَسناً، وَلو نَهىٰ عمَّا أَمَر لصَار قَبيحاً[١].

فَالصِّدق وَالكَذِب، والأَمَانَة وَالخيَانَة، سيَّان فِي الوَاقِع قَبل أَنْ يَنصّ الشَّرع عَلَىٰ التَّحلِيل أو التَّحرِيم، ومِمَّا ٱحتَجَّ بِهِ هَؤُلَآء: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[٢].

وَالنَّتِيجَة المَنطقيَّة لِهَذَا القَوْل أَنْ لاَ فَضَائِل وَلاَ رَذَائِل فِي الأَفعَال قَبل أَمر الشَّرع وَنَهيَه.

وَيَكفِي للرَّد عَلَىٰ القَائِلِين بِهِ أَنَّ عقُولنَا تُدرك حُسن الصّدق النَّافع وَرَد الوَديعَة ووَفَاء الدَّين، وَقُبح الكَذِب الضَّار وَالخيَانَة وَالتَّعَاون عَلَىٰ الإِثم كمَا نُدرك ضَوء الشَّمس، وَكمَا نَعْلَم أَنَّ ضَمّ وَاحد إِلَىٰ مِثلَه يُصبحَان ٱثنَين، أَجل إِنَّ الله سُبْحَانه لاَ يَأمر إِلاّ بالحُسن وَلاَ يَنْهىٰ إِلاّ عَن القَبِيح، كمَا قَالَ الإِمَام عَليّ، وَلذَا لاَ نَقُول: هَذَا حَسن لأَنَّ الله أَمَر بِهِ، وذَاك قَبِيح لأَنّه نَهَىٰ عَنْهُ، وَإِنّمَا نَقُول: إِنَّ الله أَمَرنَا بهَذَا لأَنّه حَسَن وَنَهانَا عَن ذَاك لأَنّه قَبِيح.

أَمَّا مَعنىٰ قَوْلَه تَعَالَىٰ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾.

فهُو أَنَّ العَبد لاَ يَحق لهُ أَنْ يَقول لله لِم فَعَلت؟ لأَنّه سُبْحَانَه قَادِر عَلَىٰ كُلّ مَقدُور، وَعَالم بقُبح القَبَائِح وهُو غَني عَنهَا. ومَن كَان كَذَلك ٱستحَال أَنْ يَفعَل القَبِيح بخلاَف العَبد، حَيْث يَجوز عَلَيهِ ذَلِكَ، وَلذَا كَان مَسؤولاً.

وقَالَ المُعتزلَة والإِمَامِيَّة: إِنَّ الأَفعَال مِنْهَا مَا هُو حَسن بحُكم العَقْل لاَ بِإعتبَار

(١) أُنظر، المَوَاقف للأَيجي وَشَرحَه للجُرجَاني: ٨/ ١٨١ و ١٩٠، الكَشف عَنْ مناهج الأَدلّة لِابن رُشد: ١١٣ المَسأَلَة الرَّابعَة فِي العَدْل وَالجَور.

(٢) الأَنبيَاء: ٢٣.

حُكم الشَّرع، كالصِّدق النَّافع وَمَا إِلَيهِ، ومِنْهَا مَا هُو قَبِيح كَذَلك، كَالكَذِب الضَّار، ومِنْهَا مَا لاَ يَستَقل العَقْل بالحُكم عَلَيهِ سَلبَاً أَو إِيجَاباً، فَنحتَاج حِينَئذٍ إِلَىٰ الشَّرع[1]، كوجُوب الوفَاء بعَقد البَيع، وتَحرِيم أَكْلِّ لَحم المِيتَة، وَمَا كَان مِن النَّوع الأَوّل يُعبّرون عَنْهُ بالحُسن أَو القُبح العَقلي، والنَّوع الثَّاني يَنعتُونَه بالشَّرعي.

وَبالجُملَة: «إِنَّ العَقْل يَستَقل بحُسن شَيء وَقُبح آخر، وَلَو فِي بَعْض الأَشْيَاء وعَلَىٰ سَبِيل المُوجبَة الجُزئيَّة، وَلَو عَزلنَاه كلّيَة لتَهدم أَسَاس إِثبَات الصَّانع، وَلزِم إِفحَام الأَنْبيَاء، حَيْث يُجِيز العَقْل، وَالحَالة هَذِهِ، أَنْ تَظهَر المُعجزَة عَلَىٰ يَد مَن يَدّعي النُّبوّة كَذباً وَٱفترَاءً»[2]. وَمُؤدىٰ هَذَا القَوْل أَنَّ العَقْل يُدرك شَيئَاً مِن الحُسن وَالقُبح، وَلاَ يُدرك شَيئَاً مِنْهُما، والَّذي يُدرك كُلّ شَيء هُو الله وَحدَه جَلَّ وَعلاَ.

وقَالَ آخرُون: كُلّ مَا يُحقّق رَغبَات الفَرد وَمَيُوله فهُو حَسن، وَكُلّ مَا يَتنَافَىٰ مَعهَا فهُو قَبِيح، وهَؤُلاَء هُم الفَوضُويُون الَّذِين لاَ يُدينُون بشَيء وَلاَ يَعتَرفُون بكَائن غَير أَنْفسهِم.

وَلَو أَخَذنا بنَظرِيتهِم هَذِهِ لبَقي الإِنْسَان كمَا كَان يَعِيش فِي الكهُوف وَالغَابَات يَقتَات النَّبَات وَالحَشرَات، وَلَم يَتَقدّم خُطوَة وَاحدَة فِي مضمَار الْحَيَاة، وَكَيف يَستَطِيع الفَرد أَنْ يُحقّق غَايَاته إِذَا لَمْ تَتَّفق مَع غَايَات الآخرِين. أَنَّه جُزء مِن كُلّ يَرتَبط وجُودَه بوجُود غَيرَه، فَلُو عَمِلَ عَلَىٰ أَسَاس تَجَاهل الحَقَائِق وَعَدم المَسؤولِيَة لتَحطمَت حُرّيّة الجَمَاعَة وَكرَامتهَا، وَلتَعذّر عَلَىٰ أَي إِنسَان أَنْ يُحقّق

---

(١) أُنظر، الإِرشَاد الهَادي إِلىٰ مَنظُومَة الهَادِي فِي العَقَائِد الزَّيدِيَّة: ٢٥ (مَخطُوط). الإِصْبَاح عَلىٰ المصبَاح فِي مَعرفَة المَلك الفَتَّاح: ٧٨.

(٢) أُنظر، تَقرِيرَات المِيرزا النَّائِيني للخرَاسَاني: ١ / ٢٢ طَبْعَة (١٣٤٥ هـ). (مِنْهُ ﷺ).

شيئاً مِمّا أَراد. وَماذا يَبقىٰ لَك أَو لِي أَو لغيرنا إِذا أَنكرنا الشَّرائع وَالأَخلاق ؟!.

وَفِئَة ثَالثَة ذَهَبَت إِلَىٰ الحُسن مَا يَستحسنه النَّاس، وَيَأْلفه المُجْتَمع. وَهٰذا القَوْل لاَ يَصح فِي المُجْتَمع الفَاسد، فَقَد وَأد أَهْل الجَاهليَّة الآنَاث، وَاعتبرُوهن سلعاً تُشترىٰ وَتُبَاع [١]، وكَان المَصريُون يَزفُون بنَاتهم إِلَىٰ النِّيل وَيَغرقُونهنَّ أَحيَاء [٢]، وإِلَىٰ اليَوْم نَسمَع بوجُود أَكلَة لحُوم البَشَر، وأَنَّ الإِنْسَان يُقدَّم قُربَاناً للآلهة ففي «أُوينتشا» يُقدّم أَهلها كُلّ سَنَة شَخصَين قُربَاناً لآلهتِهم! وَكَذا تُدفن الزَّوجَة فِي بَعْض بلاَد الهِند حيَّة مَع زَوْجها؛ وَكُلّنا يَعلَم كَيف يُعَامل المُلونُون فِي أَميركَا وَجنُوب أفريقيَا!.

وَالحَقِيقَة أَنَّ كُلّ مَا يَنْهَض بالْحَيَاة، وَيَرفَع مِن شَأنها بجهَة مِن الجهَات الرُّوحيَّة أَو المَادّيَة فَهو حَسن، وَكُلّ مَا يُؤخرهَا عَن التَّقدم، وَيَقف فِي طَريق نمُوهَا وَازدهَارهَا فهُو شَرّ وَقَبِيح، فَنهضَة الصّنَاعَة، وَالزّرَاعَة، وَالثَّقَافَة، وَالتَّحرر مِن

(١) مَأسَاة مَا دُونهَا مَأسَاة، بَل هِي أَبْشَع تَمثِيل بحُجَجٍ وَاهيَة خَوفاً مِن العَار وَالفَضِيحَة كمَا فَعَل «لقُمَان بن عَاد» و «قَيْس بن عَاصم» وَيَعتَبرُون هَذِه المَأسَاة الَّتي مَا تَزَال تُورّق الضَّمِير الإِنْسَاني رَحمَة لهَا فَآثرُوا لهَا المَوْت حتّىٰ قَالَ قَائِلهُم: «آمنكُم الله عَارهَا، وَكَفَاكُم مُؤنتهَا، وَصَاهَرتُم القَبْر».
فَهذَا هُو التَّقْلِيد المَورُوث، وَالأَنَانيَّة المَقِيتَة لاَ تَدع لصَاحبهَا عقلاً، وَلاَ وِجدَاناً، وَلاَ إِحسَاساً. وَلَكن لَيسَت هَذِه الصُّورَة البَشعَة هِي السَّائِدَة فِي كُلّ المُجْتَمع العَربي، بَل هُنَالك صُوَر مُشرقَة حَدّثنا عَنهَا التَّأرِيخ.
إِيثَار البِنْت بَدَل الوَاْد. وَالحبّ بَدَل الكُرْه. وَالكُنيَة بِالأُنْثَىٰ بَدَل الذَّكر. وَالمَدْح بَدَل الهِجَاء. وَالصِّهر بَدَل القَبْر. وَالنَّسب وَالإِرْتبَاط بَدَل العَار، وَالفِرَار. وَالقَدَاسَة بَدَل الإِحْتقَار. فَهِي الأُمّ، وَالزَّوجَة، وَالأُخت، وَالحَبِيبَة. وَمَا رُوي مِثْلَه ﷺ قَطّ فِي إِكرَام الأُنْثَىٰ وَالتَّرفق بهَا، حَتّىٰ وَافق عَلَىٰ أَجَارَت زَيْنَب ابْنَته أَبَا العَاص بن الرَّبِيّع، وَاستَأمَنَت أُمّ حَكِيم بِنْت الحَارث «عِكرمَة بن أَبِي جَهْل» عَام الفَتْح، وَهَذَا حَدَث لأُمّ هَانيء بِنْت أَبِي طَالِب.

(٢) أُنظر، تَأرِيخ عُمَر بن الخَطّاب لابن الجَوزيّ: ١٥٦.

العبُوديّة، وَالصّدق، وَالأمَانَة، وَضَبط النّفس عَن الحَرَام، وَالرَّذِيلَة، وَالجِهَاد وَالتّضحيَة، وَمَا إِلَىٰ ذَلِكَ مِمَّا يَحل مُشكلات المُجتَمع كلّه خَير وَحَسن فِي ذَاته وَعندَ العَقل والنّاس أجمَعِين.

أَمَّا الرّكُود وَالجمُود، أَمَّا الكَذِب وَالدَّس، وَالإِعَانَة عَلَىٰ الظُّلم وَالإِستغلاَل فشرّ وَقَبِيح، لأَنّه المَوْت وَالهَلاَك بعَينه. إِذَن، العَقْل يُدرك الكَثِير مِمَّا يَنفَع الإِنسَانيَّة وَيَضرهَا كَالأَمثلَة المُتقدمَة، وَيَخفىٰ عَلَيهِ الكَثِير كَأَكْلِ لَحم المِيتَة وَمَا إِلَيهِ فَنحتَاج وَالحَال هَذِهِ إِلَىٰ حُكم الشَّرع ليَكشف لنَا الحَقِيقَة.

وَقَد يَتسَاءل: إِذَا كَان العَقْل يُدرك الكَثِير مِن حُسن الأَشيَاء وَقُبحهَا، وكَان القِيَاس الَّذي يُميِّز بَيْنهُما بهَذَا الوضُوح وَهَذِهِ البَديهَة، فَلمَاذَا وَقع الخلاَف فِي تَحدِيدَه بَيْنَ أَهْل الرَّأي وَالنَّظر ؟!.

وَالجَوَاب: أَنَّ اختلاَف هَؤُلاَء فِي مَعْنىٰ الحُسن وَقيَاسَه لاَ يَدل عَلَىٰ عَدَم وجُودَه، أَو خفَائه وَغمُوضَه، وإِنَّمَا يَدل دَلاَلَة وَاضحَة عَلَىٰ أَنَّهُم لَمْ يُدركُوا حَقِيقَة العَالَم الَّذي عَاشُوا فِيهِ، وَلَم يَعرفُوا شَيئاً عَن حَيَاة المُجتَمع وَفئَاته. فَلقَد كَانُوا يَعيشُون فِي بُرج عَاجي، وَيَرتفعُون إِلَىٰ السَّماء، وَيَتكلمُون عَن أَهْل الأَرْض دُون أَنْ يَعرفُوا عَنهُم شَيئاً، وَمَن نَأىٰ بِإِحسَاسَه وَوجدَانَه عَن حَيَاة النَّاس، لاَ يَحق لَهُ أَنْ يَتكلّم عَنهُم وعَن مقَايِيس حَيَاتِهم.

وَمهمَا يَكُن فَإِنَّ الحُسن حَقِيقَة وَاقعَة وَقيَاسَه جَلي وَوَاضح، وإِنْ كَثُرت الأَقوَال وَتضَارَبت الآرَاء فِي شَرحهِ وَتَفسِيرَه. ومِن النَّتَائج المُترتبَه عَلَىٰ إِدرَاك العَقْل للحُسن وَالقُبح أَنَّ كُلَّ شَيء يَحكم العَقْل بحُسنه فهُو مَحبُوب شَرعاً، وَمَا يَحكُم بقُبحه فهُو مَكرُوه كَذَلكَ، وَهَذَا مَعنىٰ قَول طَائِفَة مِن فُقهَاء المُسْلمِين: «أَنَّ

كُلّ مَا يَحكُم بِهِ الْعَقْل يَحْكُم بِهِ الشَّرع، وَأَنّ حُكم الشَّرع يُستَكشف مِن حُكم الْعَقْل... وَالعَقْل رَسُول فِي البَاطن، والشَّرع عَقل فِي الظَّاهر ـ مَثَلاً ـ إِذَا أَدرَك العَقْل أَنَّ العَدْل حَسَن، والظُّلم قَبِيح نَحكُم بأَنَّ العَدْل مَحبُوب لله، والثَّاني مَكرُوه لهُ، لأَنَّ المَفرُوض أَنَّ أَوَامر الله وَنوَاهِيه تَتّبع المَصَالح وَالمَفَاسد فِي نَفْس الأَفعَال الَّتي تَعَلقَت بِهَا.

وَقَد نُدرك الجِهَة الدَّاعيَّة لأَمر الله، وَالجهَة البِاعثَة عَلَىٰ نَهيَه، وَقَد تُخفىٰ عَلَينَا تِلكَ الجهَات غَير أَننَا نَعلَم عِلْم اليَقِين بأَنَّ مَا خَفي عَلَينَا لَو اطّلعَت عَلَيهِ عقُولنَا لكَان حُكمهَا موَافقاً لحُكم الشَّرع تَمَاماً، لأَنَّنا نَثق بعَدل الله وَحِكمَته أَكثَر مِمَّا نَثق بمَقدَرَة الطّبِيب وَإِخلاَصه الَّذي نَستَسلم لهُ وَلتَعالِيمَه مِن دُون قَيد وَشَرط.

وَمرّة أُخرىٰ نَقول: إِذَا عَزَلنَا العَقْل عَن إِدرَاك الحُسن وَالقُبح للزَم أَنْ تَكُون الأَشْيَاء كلّها فِي نَظرَة عَلَىٰ نَسَق وَاحد، فَلاَ حَقّ وَلاَ بَاطل، وَلاَ خَير وَلاَ شرّ، وَلاَ صوَاب وَلاَ خَطأ، وَللزَم أَيْضاً أَنْ يُجِيز العَقْل عَلَىٰ الله سُبْحَانَه اللّغو وَالعَبث، وَالتَّرجِيح بلاَ مُرجّح، وأَنَّه لاَ مَانع أَبداً أَنْ يَأمر بقَتل الأَطفَال، وَالنّسَاء، وَالطَّيبين الأَبريَاء، وأَنْ يُعَذّب بنَاره الشُّهدَاء والأَنْبيَاء، وَيَدخل جَنّته السَّفاكِين وَقَتلَة الشّعُوب، وأَنْ يُصَدق الكَاذب، وَيُكَذب الصَّادِق.

إِذ المَفرُوض أَنَّ العَقْل لاَ يَقرّ وَلاَ يُنْكر، لاَ يَستَحسن وَلاَ يَسْتَقبح، وإِنَّمَا تُوجد جِهَة الحُسن فِي الشَّيء بَعد أَنْ أَمَر الله بِهِ، وَتَتحَقّق جِهَة القُبح فِيهِ بَعد أَنْ يَنهىٰ عَنْهُ، مَع أَنَّ العَكس هُو الصَّحِيح، أَي أَنَّ الله أَمَر بهَذَا لأَنّه حَسن، وَنَهىٰ عَن ذَاك لأَنّه قَبِيح، بدَلِيل قَوْلَه عزّ مَن قَائِل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ

وَٱلْـمُنكَرِ وَٱلْـبَغْيِ﴾[١]. وَقـوله تـعَالىٰ: ﴿وَيُـحِلُّ لَـهُمُ ٱلطَّـيِّبَـٰتِ وَيُـحَرِّمُ عَـلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰئِثَ﴾[٢]. وَقوله تعَالىٰ: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَايَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ﴾[٣].

أجل، أَنَّ حُكم العَقْل بحُسن هَذَا وَقُبح ذَاك يَتّفق تَمَاماً مَـع الْإِرَادَة الْإِلـٰهيَّة، وَستَلزمهَا بالضَّرورَة، فَإِنَّ عَدل الله الشَّامل، وَقُدرَته عَلَىٰ كُلّ مَقدُور، وَتَنزيهه عَن اللَّغو وَالعَبث، وَعِلمَه بالخَفَايا وَالأَسرَار، وَحِكـمَته الَّـتي تَسـتَوجب أَنْ تَكُـون أَفعَاله، وَأَوَامره، وَنوَاهيه كلّها عَلَىٰ أَتم مَا يَنبَغي، وَأَبلَغ مَا يتصُور، بحَيث عَلَيهَا المَصَالح، وَالمَنَافع، وَتَندَفع بِهَا المَضَار وَالمفَاسد، أَنَّ هَذِهِ وَمَا إِلَيها تَستَدعي أَنْ يَفعَل الله الحَسن دُون القَبِيح.

وعَلَىٰ هَذَا الأَسَاس، أَسَاس إِدرَاك العَقْل للحُسن وَالقُبح، وَعـدَالَـة البَـاري وَقُدرَته وَحِكمَته سنَتكلّم فِي الفَصْل التَالي بعُنْوَان: النُّبوَّات، نَتكلّم فِيهِ عَن هَذِهِ الحَقِيقَة: «هَـل يَـحكُم العَـقْل بأَنَّ إِرسَـال الرُّسـل مُـبَشرِين وَمُـنذَرِين حَسـن أَولاً؟» وَمَتىٰ أَثبَتنا هَذَا بحُكم العَقْل ثبَت بالضَّرورَة وَالبَـديهَة أَنَّ الله قَـد بَـعَث أَنبيَاءه هُدَاة للنَّاس.

(١) ٱلنَّحل: ٩٠.

(٢) ٱلأَعرَاف: ١٥٧.

(٣) ٱلأَعْرَاف: ٢٨.

النُّبُوَّات

نَبدَأ هَذَا الفَصْل بذِكر الصّفَات الَّتي يَجْب توَافرهَا بالنَّبيّ، ليُصْبح أَهلاً لتَـلقي الوَحي، وَبَيَان الغَايَة مِن إرسَالَه وَبعثَته، وَمِنْهُما يَتّضح حُكم العَقْل بثبُوت النُّبوَّات وَإرسَال الرُّسل.

النَّبيّ إِنْسَان مَبعُوث مِن الله إِلَىٰ النَّاس، مِن الحَقّ إِلَىٰ الخَـلق، وَلاَ يَـبْعَث الله رَسُولاً حَتَّىٰ تَجْتَمع فِيهِ الصّفَات التَاليَة:

صِفَاتُ الرَّسُول:

١ ـ أَنْ يَكُون كَامل العَقْل وَالذَّكَاء بحَيث يُدرك مَا يَسْمَع وَيُقَال لهُ عَلَىٰ حَقِيقَته، وَيَفطَن الشَّيء بسُرعَة وَإِنْ كَان خَفيَّاً، وَلاَ يَتحَيَّر وَيَترَدّد فِي الأُمُور.

٢ ـ أَنْ يَكُون كَبِير النَّفس يَسمُو بطَبعَه إِلَىٰ الأَرفَع وَالأَفضَل.

٣ ـ أَنْ يَكُون سَلِيم الجِسم مِن الأَمْرَاض المُنَفرَة كَالجُذَام وَالبَرص وَمَا إِلَيهمَا.

٤ ـ أَنْ يَكُون أَمِيناً وَمُنزّهاً عَن الفَظَاظَة وَالغِلظَة، وعَن دَنَـاءَة الآبَـاء وَعِـهر الأُمّهَات. وَكُلّ مَا يُشوه السُّمعَة وَالسِّيرَة، لئَلاَ تَـنفر مِـنْهُ الأَذوَاق السَّـلِيمَة فَـلاَ يَحصَل مِن بِعثَته الغَرَض المَطلُوب، وهُو حَمل النَّاس عَلَىٰ الحَقّ وَالإِبتعَاد بِـهم عَن البَاطل.

٥ ـ أَنْ يَكُون شُجَاعَاً غَير هَيَّاب لاَ يَجْبن وَلاَ يَتخَاذل فِي سَبِيل الحَقّ وَالعَدْل، مَهمَا تَحرَجت الأُمُور وَأَنذَرت بالشَّدَائِد وَالمِحَن، لأَنَّ الرّضُوخ وَالتَّخَاذل لاَ يَتَّفق مَع الوَفَاء للعَقِيدَة وَالمَبدَأ. وأَنْ يَكُون كَرِيمَاً يُؤثّر عَلَىٰ نَفْسَه، وَلَو كَان بِهِ خَصَاصَة.

٦ ـ أَنْ يَكُون زَاهدَاً غَير شَرّه عَلَىٰ الشَّهوَات، لأَنَّهَا تُحَول بَيْنَ المَرء وَعَقلَه وَدِينَه.

٧ ـ أَنْ يَكُون بَلِيغَاً يُعبّر عَمّا يُرِيد بأَكمَل وَأَوضَح بَيَان، لأَنَّ ذَلِكَ أَدعَىٰ فِي التَّأثير، وَأَجدىٰ فِي التَّبشِير.

٨ ـ أَنْ يَكُون مَعْصُومَاً عَن الزَّلَل وَالخطأ وَالسَّهو فِي تَبلِيغ الأَحكَام، لأَنَّ الغَرض مِن بِعْثَته إرشَاد النَّاس إِلَىٰ الحَقّ وَرَدعهِم عَن البَاطل، فَلو جَاز عَلَيهِ الخَطأ وَالمَعصيَة لذَهَب الغَرض المَطلُوب. وَقَدِيمَاً قِيل: «فَاقد الشَّيء لاَ يُعْطِيه».

وَمِن هَذِهِ الصّفَات يَتبَيَّن مَعنَا أَنَّ النَّبيّ بَشَر كَسَائر النَّاس لاَ يَخْتَلف عَنْهُم فِي شَيء إلاَّ أَنَّه إِنْسَان كَامِل خَصّه الله بوَحيِهِ وَرسَالَته: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَاسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾[1].

الغَايَةُ مِن البِعْثَة:

أَمَّا الغَايَة المُتوخَاة مِن وجُود الأَنْبيَاء فَهي أَنْ يُسمعُوا أَهْل الأَرْض نِدَاء السَّمَاء، أَنَّ يَدعُوا إِلَىٰ الإِيمَان بِإِله لاَ شَرِيك لَهُ وَلاَ مَثِيل، وَإِلَىٰ الخشُوع وَالخُضُوع للحَقّ بنيَّة خَالصَة مُخلصَة، وأَنْ يَرشدُوا إِلَىٰ مَا فِيهِ الخَير وَالسَّعَادَة

(١) فُصِّلَتْ: ٦.

للجَمِيع دُنياً وَآخرَة ، فَيَبثُوا رُوح التَّعاطف وَالتَّرَاحم بَيْنَ النَّاس ، وَحثّ العَدْل وَالحَقّ ، وَيُهيئُوا كُلّ فَرد بوَازع مِن عَقِيدَته وَإِيمَانه إِلَىٰ عَمَل الخَقىٰ وَتَرك الشَّر ، إِلَىٰ التَّحرر مِن المَنَافع الشَّخصيَّة ، وَالقِيَام بالوَاجبَات الإِجتمَاعيَّة ، وَأَبلَغ كَلمَة تُعَبّر عَن مُهمَة النَّبيّ قَول الرَّسُول الأَعْظَم : « إِنّمَا بُعَثْتُ لأُتَمِم مَكَارِم الأَخْلاَق »[1].

وَمِن الخَير أَنْ نَنقُل هُنا كَلمَة صَغِيرَة كَبِيرَة لبَعْض المُخلصِين خَاطَب بِهَا مَرجعاً دِينيّاً كَبِيراً ، قَالَ :

« تَذكَّر أَنَّ الدِّين هُو صَاحب السِّيَادَة لاَ أَنْت ، وَإِنَّمَا أَنْت وَاحد مِن النَّاس ، وَأَخ بَيْنَ أُولَئك الَّذِين يَجدُون غِبطَة فِي الله : وَشَرِيك مَع الَّذِين يَخَافُونَه ، وَفِيمَا عَدَا ذَلِكَ فَأعتبر نَفْسَك مُجبرَاً أَنْ تَكُون وَجْه العَدَالَة ، وَمرآة القَدَاسَة ، وَنمُوذَج التُّقىٰ ، وَمُعِيداً إِلَىٰ الحَقِيقَة حُرّيَتها ، وَمُدَافعاً عَن الإِيمَان ، وَمُعلماً للأُمَم ، وَدَاعياً للشَّعب ، وَسيِّداً للحَقّ ، وَمَلجَأ للمَظلُومِين ، وَمُحَامياً عَن الفُقرَاء ، وَأَملاً للمُتَأَلمِين ، وَحَامياً للأَيتَام ، وَقَاضياً للمُترَملِين ، وَعَيناً للمَكفُوفِين ، وَعَصَا عَلَىٰ الأَقويَاء ، وَمَطرقَة عَلَىٰ الطُّغَاة ، وَأَبَاً للمُلُوك ، وَمُدِيراً للقَوَانِين ، وَمُرَاقباً للأَنظمَة ، فَأَنتَ مِلح الأَرْض وَنُور العَالَم ؛ وَخَادم الرَّب العَظِيم . تَذكّر مَا أَقُول لَكَ ، وَلِيُعطك الله فَهمَاً » .

وَبهَذِهِ الصِّفَات يَصْبَح صَاحبهَا طَرِيق الحَقّ وَصرَاط الله القَوِيم ، وَالعَقْل الكَامِل للإِنسَانيَّة جَمعَاء . وعَلَيهِ تَكُون بعثَة الأَنْبيَاء حَسنَة بحُكم العَقْل وَالضَّرُورَة وَكُلّ

(١) أُنظر . بدَايَة المُجتَهد : ٢ / ٣٢١ . السُّنن الكُبْرَىٰ : ١٠ / ١٩٢ . تُحفَة الأَحْوَذي : ٥ / ٤٧٠ . نُظم دُرَر السَّمطَين : ٤٢ . كَنْز العُمَّال : ١١ / ٤٢٠ ح ٣١٩٦٩ . فَيض القَدِير شَرْح الجَامِع الصَّغِير : ٥ / ٢٠٩ . كَشف الخَفَاء : ١ / ٢١١ ح ٦٣٨ . مَكَارِم الأَخلاَق للطَّبرسي : ٨ . مَكَارِم الأَخلاَق لِابْن أَبي الدُّنيَا : ٦ . مُسْنَد الشّهاب : ٢ / ١٩٢ ح ١١٦٤ . تكمِلَة حَاشيَة ردّ المحتَار : ١ / ٢٣٤ .

حَسن فَهُو مَحبُوب وَمُرَاد لله سُبْحَانَه. ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[١].

إِذَن البِعثَة كَائنَة وَمُتحقّقَة بِالفِعل.

وَسُئل الإِمَام جَعْفر الصَّادِق عَن الدَّلِيل عَلَىٰ البعثَة فَقَال:

« لمَّا أَثبَتنَا أَنَّ لنَا خَالقاً مُتعَالياً عنَّا، وعَن جَمِيع مَا خلَق، وَكَان ذَلِكَ الصَّانع حَكِيماً لاَ يُشَاهدَه خَلقَه، فَلاَ يُلاَمسهُم وَلاَ يُلاَمسُونه، وَلاَ يُبَاشرهُم وَلاَ يُبَاشرُونَه ثَبَت أَنَّ لَهُ سُفرَاء فِي خَلقِهِ وَعبَاده يُدلُونهُم عَلَىٰ مَصَالحِهِم وَمنَافعِهِم... وَهُم الأَنْبيَاء وَالصَّفوَة مِن الخَلق ».

البَرَاهِمَة:

وَقَالَ البَرَاهمَة[٢]: لاَ حَاجَة لِبعثَة الأَنْبيَاء، لأَنَّ النَّبيّ إِمَّا أَنْ يَأتي بِمَا يُوَافق العقُول، وَإِمَّا بِمَا يُخَالفهَا، فَإِنْ جَاء بِمَا يوَافق لَم تَكُن إِلَيهِ حَاجَة، وَلاَ فِيهِ فَائِدَة، لأَنَّ العَقْل يُغني عَنْهُ، وَإِنْ جَاء بِمَا يُخَالِف وَجَب إِهمَالَه وَردّه.

وَالجَوَاب: أَنَّنا لاَ نَشك بِأَنَّ العَقْل يُدرك حُسن بَعْض الأَفعَال كَالصّدق وَالعَدْل، وَقُبح بَعْضهَا كَالكَذِب وَالظُّلم ـ كمَا أَسلَفنا ـ وهُو يَحكُم أَيْضاً بِأَنَّ فَاعل الحَسن يَستَحق المَدح، وَمُرتَكب القَبِيح يَستَوجب الذَّم، وَلَكن هُنَاك أُمورَاً كَثِيرة لاَ يُدركهَا العَقْل، وَلاَ يَحكُم بِهَا سَلبَاً أَو إِيجَابَاً، كَشَكل العِبَادَات الَّتي تُقربنَا مِن الله سُبْحَانَه، وَكَالوفَاء بعَقد الزَّوَاج وَالبَيع وَالهِبَة، وَكَيفيَة تَقسِيم المِيرَاث، وَنَوع

---

(١) يس: ٨٢.

(٢) قِيل: أَنَّ البَرَاهمَة طَائِفَه فِي الهِند تَنْتسب إِلَىٰ بَرهَم أَحد حُكمَاء الهِند القُدَامىٰ. (مِنْهُ ﷺ).

أُنظر، دَائرَة مَعَارف القَرن العشرِين: ٢ / ١٦١، مَوسُوعَة الأَديَان فِي العَالَم / الدّيَانَات القَدِيمَة: ٩٢ نَشر دَار كريبس انترناشيونال / تَرجمَة وَإِشرَاف الدّكتُور جمَال بن مَدكُور.

العِقَاب الَّذي يَستَحقهُ المُجرم، وَكحقُوق الزّوج وَالزّوجة، وَالوَالد وَالوَلد، وَالرّبا وَالزّنا، وَاللّوَاط، وَأَحكَام الشّركَات، وَالبَلديَات، وَالنّقَابَات، وَمَا إِلَىٰ ذَلِكَ مِن حَاجَات المُجتَمع الَّتي لاَ يَبلغهَا الإِحْصَاء.

أَنَّ الإِنسَان يَمتَاز عَن الجَمَادَات وَالحَيوَانَات بأَنّه لاَ يَستَطِيع أَنْ يَحتَفظ بكيَانَه، وَيُحَقّق غَايَة مِن غَايَاته الإِجتمَاعيَّة، كَإِنسَان إِجتمَاعي إِلاَّ بشَريعَة عَادلَة وَاعيَة يَخضَع لهَا فِي سلُوكَه وَأَفعَاله. وَهَذِهِ الظَّاهرَة لاَزَمت المَدنيَات وَالْحَيَاة الإِجْتمَاعيَّة مُنذ وجُودهَا حَتَّىٰ اليَوْم، وَستلاَزمهَا إِلَىٰ آخر سَاعَة.

مَنْ هُو المُشَرّع؟:

وَهُنا سُؤَال يَفرض نَفْسَه: مِن أَين تُستَمد قوّتهَا هَذِهِ الشَّريعَة؟ وَمَن الَّذي يَجْب أَنْ نَأخذهَا عَنْهُ، وَنَرجَع بِهَا إِلَيهِ؟.

وَتَقدَّم مَعنَا أَنَّنا لاَ نَستَمدهَا مِن العَقْل وَحدَه كمَا يَدّعي البرَاهمَة. فَالعَقل لاَ يَلزَمك أَنْ تتحَمل مَرَارَة العَيش وَمتَاعب الْحَيَاة مِن أَجل زَوّجَتك وَتَربيَة أَولاَدك، وأَنْ تَعمَل لَيل نهَار تَغرس وَتَبني للأَجيَال المُقبلَة الَّتي لاَ يَربطك بِهَا رَابط بَعد أَنْ تُفَارق الْحَيَاة، وَعَقلَك لاَ يَلزمك أَيْضاً بأَنْ تُضحي بدمَائك وَأَموَالك وَأَولاَدك فِي سَبِيل وَطَن وُلدتَ فِيهِ، وَأَرض الله وَاسعَة الفَضَاء. هَذَا، إِلَىٰ أَنَّ أَكثَر مَن يَدّعون النَّظر، وَالتَّفكِير يَشرحُون بمَنطق العَقْل ـ كمَا يَزعمُون ـ حوَادث لاَ تَمت إِلَيهِ بصلَة. وفِي كُلّ يَوْم نَسمَع وَنَرىٰ العَشرَات مِن المُتعَلمِين وَغَير المُتَعلمِين يَفعلُون وَيَتركُون بدَافع مِن عَاطِفَتهم وَرَغبَتهم، وَهُم يَحسبُون أَنَّ مَا أَقدمُوا عَلَيهِ، وَأَحْجَمُوا عَنْهُ كَان بإِملاَء العَقْل وَحدَه، وأَنَّهُم لاَ يَأتمرُون إِلاَّ بأَمرِهِ،

وَلاَ يَنتهُون إلَّا بِنَهيه .

وَقَد يُقَال : نَأخذ الشَّريعَة مِن الفَلسَفَة ، وَنُجيب : أَنَّ للـفَلسَفَة مَـذاهب شَـتّىٰ فَعَلىٰ أيّها نَعتَمد ، عَلَىٰ الفَلسَفَه المثاليَة أو المَاديَّة ، ثُمَّ بأَيّة مثاليَة نَأخذ ، بالمثاليَة القَائِلَة بأنّه لاَ وجُود للطّبيعَة أَبداً إلاَّ فِي خيَالنَا وَأذهَاننا ، أو بالمثَاليَة الزَّاعمَة بأَنَّ الطَّبيعَة موجُودَة ، وَلَكن العَقْل يَعْجَز عَن إدرَاكها ، وإذَا تَركنَا هَـذِهِ وَرَجـعنَا إلَـىٰ الفَلسَفَة المَاديَّة ، فهَل نَعْتَمد المَاديَّة الميكَانِيكيَّة أو الدّيَالكتيكيَّة[1] .

أَو يُقَال : نَأخذ الشَّريعَة مِن العِلْم . وَكلّنا نَعرف أَنَّ العِلْم لاَ شَأن لهُ بـالشَّريعَة وَالتَّشرِيع ، وَإِنَّما يَكشف عَن قِوىٰ الطَّبِيعَة ، وَحقَائِق الأَشيَاء وَخوَاصّها ، وَمَا يَنْتُج عَنْهَا ، عَلَىٰ أَنَّ العِلْم فِي هَذَا العَصر قَدّم لنَا القَـنَابل ، وَالمُـدمرَات ، وَالنَّـاسفَات ، وَاتّخذ مِنْهُ المُحتَكرُون وَالمُستَغلُون أَدَاة اللُّصُوصيَّة وَالقَرصَنَة .

أَو يُقَال : نَأخذ التَّشرِيع مِن الملُوك وَالأُمرَاء ، كمَا كَانُوا يَفعلُون مِن قَبل . أَجل لَقَد بَنىٰ فرعَون مَصْر الأَهرَام ، وَأَنفق عَلَيهِ مَا يَبني أَكثَر مِن سَدّ عَال ، بنَاه لاَ ليُطعِم الجَائِعين ، بَل ليَحفظ جُثّته وَجُثَث ذَويه وَحَاشِيَته بَـعد المَـوْت . وَكُـلّ المـلُوك وَالأَمْراء فَرَاعنَة وَملاَعنَة .

أَو يُقَال : نَأخذ القَوَانِين مِن البَرلمَانَات وَالهَيئَات الدَّوليَّة .

وَجوَابنَا أَنَّ عُصبَة الأُمَم أَقرّت إعتدَاء موسُوليني عَلَىٰ الحَبشَة وَالبَانيَا . وَأَقرَّ مَجلس العمُوم البرِيطَاني ، وَالبَرلمَان الفَرنسي إحتلاَل هِتلَر لتشـيكوسلُوفا كـيَا

---

(١) الفرق بَيْنهُما أَنَّ الميكَانيكيَّة تُفسّر الوجُود تَفسِيراً آليَاً مَحضاً . وَتَخضَع كُلّ كَائِن لقـوَانِـين صَـارِمَة يَستَحِيل تَغييرُهَا أو تَبديلهَا تَمَاماً كالأجرَام السَّماويَّة الَّتي تَدُور فِي أَفلاَكهَا برتَابَة وَلاَ تَحِيد عَنْهَا قَيد شَعرَة عَلَىٰ العَكس مِن المَاديَّة الدّيالكتيكيَّة فَإنَّها تَنمُو وَتَتطَور عَلَىٰ الدَّوَام ، وَبنتَائجهَا تَتفَاعل وَتتبَادل التَّأثِير ، وَتَأتي بنتَائج أُخرىٰ ، وَهَكذَا إلَىٰ مَا لاَ نهَايَة . (مِنهُ ﷺ) .

قُبيل الحَرب الثَّانيَة ، كمَا أَقرّت الأُمَم المُتحدَة الحَرب فِي كَوريَا ، وَإِعتدَاء إِسرَائِيل عَلَىٰ فلسيطِين ، وَإِعترفت بفرمُوزا ، وَأَنكرت الصِّين الشَّعبيَة .

أَنَّ أَكثَر القوَانِين الحَدِيثَة الَّتي أَقرّتهَا أَمثَال هَذِهِ الهَيئَات قَد وَضعَت لصَالح لفِئَات وَاَستغلاَل الأَقليَه للأَكثريَة . أَمَّا مَا نَرَاه فِي بَعْض القوَانِين مِن حقُوق العُمّال ، وَالضّمان الإِجتمَاعي بزَعم وَاضعِيها فلاَ تَجتَث المُشكْلَة مِن الجذُور لأَنَّها وضعَت عَلَىٰ أَسَاس النّظَام الإِقتصَادي المَوجُود . وَأَغرَب مَا فِي هَذِهِ القوَانِين أَنَّها تَحتَوي عَلَىٰ موَاد تَبعَث عَلَىٰ التّسول وَالتّشرد ، وَموَاد أُخرىٰ تَنصّ عَلَىٰ عقُوبَة المُتسولِين وَالمُتَشردِين ، فَهي تَخلق الإِجرَام وَتُعَاقب عَلَيهِ فِي آنٍ وَاحد ، وَصَدق اَلْقُرْءَان الكَرِيم : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾[1] .

إِذَن ، نَحْنُ فِي حَاجَة إِلَىٰ نظَام لاَ يَستَمد قوّته مِن المَذَاهب الفَلسفيَّة ، وَلاَ مِن أَصْحَاب المصَانع وَالشَّركَات الإِحتكَاريَة ، وَلاَ مِن المَجَالس وَالهَيئَات السِّيَاسيَّة . وَكَيف تُؤخذ القوَانِين وَالأَحكَام مِن المَصَالح وَالمنَافع الضَّخيَة ؟ ! وَمَن الَّذي يَقبَل شهَادَة مَن يَجر النَّار إِلَىٰ قُرصهِ وَيَبتَغي النَّفع مِن شهَادَته ؟ ! وَأَيّة هَيئَة مَهمَا بَلَغَت مَقدَرتهَا وَفطنَتها تَستَطِيع أَنْ تَأتي بنظَام يَتنَاسب بأُسّسه وَمبَادئه مَع جَمِيع العصُور وَالشّعوب وَالفِئَات وَفِي كَافَّة الأَحوَال ؟ ! كمَا هِي الحَال فِي الشَّريعَة الإِسْلاَميَّة .

وَالنَّتيجَة المَنطقيَة لذَلِكَ أَنْ لاَ غِنىٰ للنّظَام السَّلِيم والشَّريعَة الصَّحِيحَة مِن الإِعتمَاد عَلَىٰ قوّة مُدركَة عَالمَة بمَا يَنْفَع الإِنْسَان وَيَضرّه ، وَيُصلحَه وَيُفسدَه وَغَنيَة مُنزّهَة عَن الغَايَات وعَن كُلّ نَوع مِن أَنوَاع النَّفع ، وَلاَ يَتوفرّ هَذَان العُنصرَان

(١) اَلنِّسَاء : ٨٢.

إلّا بالوَحي مِـن الله الغَـني العَـلِيم: ﴿فَـإِن تَـنَـٰزَعْتُمْ فِـى شَـىْءٍ فَـرُدُّوهُ إِلَـى ٱللَّـهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[١].

وَمِن هُنا يَتبيَّن الخَطأ فِيمَا ذَهَب إِليهِ البرَاهمَة مِن الإكتفَاء بالعَقل عَن الشَّرع[٢] أَجل، يَجب أَنْ لاَ يَكُون فِي الشَّرع شَيء يُخَالِف العَقْل وَيُنَاقضَه.

دَلائِل النُّبوّة:

تُعرَف نبوّة النَّبيّ بأُمُور ثَلاَثَة:

١ ـ أَنْ لاَ يُقرّر مَا يُخَالِف العَقْل وَالوَاقِع، كتَعَدُد الآلهَـة، وأَنَّ الأَرْض لَـيْسَت كرويَة، وأَنْ تَتَّفق تَعَاليمَه مَع الفِطرَة، وَلاَ تَتنَافىٰ مَع الغَرَائِز البَشـريَة وَطـبَائِعهَا، كتَحرِيم الزَّوَاج وَذَم العِلْم، وَمَا إِلَىٰ ذَلِكَ.

٢ ـ أَنْ تَكُون دَعوَته طَاعَة لله، وَخَيراً للإِنسَانيَّة.

٣ ـ أَنْ يَظهَر عَلَىٰ يَدَه مُعجزَة تَظهَر صِدق دَعوَاه.

وَقَالَ المُتكلمُون فِي تَعرِيف المُعجزَة: أَنَّهَا ثبُوت مَا لَيس بـمُعتَاد مَـع خَـرق العَادَة، كَإِنقلاَب العَصَا حَيّة، أَو نَفي مَا هُو مُعتَاد، كمَنع القَوْل عَـن رَفـع أَخَـف الأَشْيَاء، كَالرِيشَة[٣] وَسَنَرىٰ فِيمَا يَأْتي مُعجزَة مُحَمَّد وأَنَّهَا الحَقّ والصِّدق فِي كُلّ مَا أَتىٰ بِهِ، وَأُنزل إِليهِ مِن رَبّه.

---

(١) ٱلنِّسَاء: ٥٩.

(٢) تَعَرضنَا فِي كتَاب «الإِسلاَم مَع الحَيَاة» لقَول البرَاهمَة عِـندَمَا تَكـلمنَا عَـن الوَحـي، وَأَجـبنَا عَـنْهُ بأُسلُوب آخر. (مِنْهُ ﷺ).

(٣) قَالَ عُلَمَاء الإِسْلاَم: أَنَّ المُعجزَة تَنفَرد عَن الكرَامَة بأَنَّ الأُولىٰ لاَ تَظهَر إِلّا عَـلَىٰ يَـد الأَنـبيَاء، وَلذَا يَشتَرط فِيْهَا التَّحدي بأَنْ يَقُول النَّبيّ لمَن بُعث إِليهِم: إِنْ لَم تَقبلُوا قَولي فَأفعلُوا مِثل هَذَا الفِعل، أَمَّـا الكرَامَة فتَظهَر عَلَىٰ يَد الصَّالِحِين وَالأَوليَاء مِن غَير تَحدٍّ، كقصّة مَريَم وَحَملهَا بالسَّيِّد المَسِيح. (مِنْهُ ﷺ).

مُعْجِزَة مُحَمَّد ﷺ

رَوىٰ المَجلِسي فِي كِتَاب البحَار عَن كِتَاب المَنَاقب أَنَّـه كَـان لمُـحَمَّد مِـن المُعجزَات مَا لَمْ يَكُن لأَحد مِن الأَنْبيَاء، وَقَد بَلَغَت أَربَعَة آلاَف وَأَربَعمئَة وَأَربَعِين مُعْجزَة، وأَنَّهَا تَنْقَسم إِلَىٰ أَرْبَعَة أَنوَاع:

النَّوع الأَوّل: كَان قَبل مِيلاَدَه.

وَالثَّانِي: بَعد مِيلاَدَه.

وَالثَّالث: بَعد بِعْثَته.

وَالرَّابع: بَعد وَفَاته[1].

وَسوَاء أكَان لهُ كُلّ هَذِهِ المُعجزَات أَو بَعْضهَا، فَلَسنَا بحَاجَة إِلَيهَا مَا دَام ٱلْقُرْءَان الكَرِيم، وَشَريعَة الإِسْلاَم وَشَخصيَّة مُحَمَّد أَقوَاهَا وَأَبقَاها[2]. وَلله دَر مَن قَالَ:

« وَمَا الشَّهادَة للنُّبوّة إِلَّا أَنْ تَكُون نَفْس النَّبيّ أَبلَغ نفُوس قَومَه، حَتَّىٰ لهُو فِي طبَاعهِ وَشَمائِله طَبِيعيَة قَائِمَة وَحدهَا، كَأَنَّهَا الوَضع النَّفسَاني الدَّقِيق الَّذي يَنْصّب ليُصحِّح الوَضع المَغلُوط للبَشريَّة ».

(١) أُنظر، بحَار الأَنوَار: ١٧ / ٣٠١ ح ١٣، مَنَاقب آل أَبي طَالب: ١ / ١١٧.

(٢) أُنظر، إِعجَاز ٱلْقُرْءَان، البَاقلاَني: ١٦، وَمَا بَعدهَا، وَكُتب إِعجَاز ٱلْقُرْءَان كَثِيرَة.

وَهَذِهِ هِي بالضَّبط نَفْس مُحَمَّد وَأخلاَقه، أَنَّهَا آيَة كُبرىٰ تُثْبت صِدقَه لَدىٰ العَارِفين المُنصفِين، وَتُصَحّح الوَضع المَغلُوط، أَمَّا أَهْل الغَبَاوَة وَالبَلاَء، أَمَّا المُكَابِرُون الَّذِين لاَ يُؤمنُون حَتَّىٰ يُشَاهدُوا الَّذِين لاَ يُؤمنُون حَتَّىٰ يُشَاهدُوا بأعيُنهم إنشقَاق ٱلْقَمَر [١]، وَتَكلّم الحَصىٰ وَالشَّجر [٢]، أَمَّا هَؤُلاَء ومَن إِلَيهم فَلاَ خَير فِيهِم وَلاَ فِي إيمَانهم، أَنَّهُم تَمَامَاً كَبَني إسرَائِيل، آمنُوا بمُوسىٰ، وَعندَمَا رَأوا قَومَاً: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [٣].

وَقَد يَتَساءَل: كَيْف فَضّل الله اليَهُود عَلَىٰ عَالمي زَمَانِهم، وَهَذَا شَأنُهم! وَأُجِيب عَن هَذَا السُّؤال بأَنَّ التَّفضِيل لَم يَكُن لصفَة حَسنَة فِيهِم، وإِنَّمَا فُضّلُوا بأَنَّ مُوسىٰ مِنْهُم، وَبنجَاتهم مِن أَذىٰ فِرْعَون وَقَومَه، كَمَا يَدل عَلَيهِ قَوْل الله سُبْحَانَه فِي الآيَة اللاَّحقَة: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [٤].

---

(١) أنظر، صَحيح البُخَاري: ٣ / ١٣٣٠ ح ٣٤٣٧، صَحِيح مُسْلم: ٤ / ٢١٥٨ ح ٢٨٠٠، تَفسِير القُرطُبي: ١٧ / ١٢٦، تَفسِير الطَّبري: ٢٧ / ٨٤، صَحِيح أبن حبَّان: ١٤ / ٤٢٠ ح ٦٤٩٥، تَفسِير أبن كَثِير: ٣ / ٤٤١، فَتح البَاري: ٧ / ١٥٨، البِدَاية وَالنّهاية: ٢ / ٣٣٧، السِّيرة النَّبويَّة لإبْن هِشَام: ١ / ١٥٤، السِّيرَة النَّبوِيَّة لإبْن كَثِير: ١ / ٢٣٠، سُبل الهُدىٰ وَالرَّشَاد: ٢ / ٥٠.

(٢) أنظر، صَحِيح البُخاري: ٣ / ١٣١٢ ح ٣٣٨٦، سُنن التّرمذي: ٥ / ٥٩٧ ح ٣٦٣٣، سُنن أبن خُزيمَة: ١ / ١٠٢ ح ٢٠٣، تَفسِير القُرطبي: ١٠ / ٢٦٨، تَفسِير أبن كَثِير: ٣ / ٤٣، صَحِيح أبن حبَّان: ١٤ / ٤٢٤ ح ٦٥٠٤، مَورد الظَّمآن: ١ / ٥١٩ ح ٢١٠٩، مَجْمع الزَّوَائد: ٨ / ٢٩٢.

(٣) ٱلأَعْرَاف: ١٣٨ ـ ١٤٠.

(٤) ٱلأَعْرَاف: ١٤٢.

وعَلَىٰ الرَّغم مِن نجَاتهم مِن سُوء العَذَاب، وَتحررهُم مِن العُبوديّة فَمَا أَنْ أنْتَقل مُوسىٰ إِلَىٰ رَبّه حَتَّىٰ: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾[1].

وَقَد أُبتُلي مُحمّد بأَمثَال هَؤُلاَء، وَبأَشدّ مِنْهُم توحشاً. قَالَ صَاحب كِتَاب البحَار: «أَنَّ جمَاعَة جَاءُوا إِلَىٰ الرَّسُول، فَقَالَ لهُ أَحدهُم ـ مَالك بن الصَّيفي ـ: لَن نُؤمِن لَكَ حَتَّىٰ يَشهَد لكَ هَذَا البسَاط الَّذي نَجْلس عَلَيهِ، وقَالَ آخر ـ أَبُو لبابَة ابن عَبد المُنذر ـ: لاَ أُصَدقك حَتَّىٰ يَعْترف لَكَ هَذَا السَّوط الَّذي فِي يَدي. وقَالَ ثَالث ـ كَعْب بن الأَشرَف ـ: وَأَنَا لاَ أُقرّ لَك النُّبوّه حَتَّىٰ يَنطق حمَاري هَذَا الَّذي أَركَبه بأَنّك عَلَىٰ حَقّ. ثُمَّ قَالَ صَاحب البحَار: بالرَّغم مِن أَنَّ مُحمَّداً قَالَ لهُم: لَيْسَ لنَا أَنْ نَفْترح عَلَىٰ الله، وإِنَّمَا عَلَينَا التَّسلِيم وَالإنقيَاد لأَمره، فَقَد أَلقَىٰ كُلّ مِن البسَاط، وَالسّوط كَلمَة طَويلَة، وَهدَّد السَّوط صَاحبَه بالضَّرب حَتَّىٰ المَوْت، وَالحمَار رَاكبَه بالرَّفس حَتَّىٰ الهَلاَك»[2].

ومَهْمَا يَكُن، فَإِنَّ الَّذي جَاء بالهُدىٰ وَدِين الحَقّ لاَ يَحتَاج إِلَىٰ شَهَادَة الحَمِير، وَالسّيَاط، وَالبسَاط. وَإِنْ دلّت هَذِهِ الرّوَايَة عَلَىٰ شَيء فَإِنّهَا تَدل عَلَىٰ مَا كَان يُلاَقِيه الرَّسُول مِن المُكَابرين وَالمُتعنتِين. وَقَد جَاء: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلاً أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ

---

(١) ٱلأَعْرَاف: ١٤٨.

(٢) أنظر، بحَار الأنوَار: ١٧ / ٣٠٢ ح ١٤.

تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾(١).

وَجَاء فِي الآيَة: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾(٢).

أرَأيت إلَىٰ هَذِهِ القُلُوب ؟! إلَىٰ هَذَا الدَّاء الأَصِيل الَّذي لاَ دَوَاء لهُ إلَّا المَوْت ؟! وَهَل سَمعتَ بصَلاَفَة وَغوَايَة أشدّ مِن هَذِهِ ؟! وَبأَي لَفظ نُعَبّر عَن هَؤُلآء ؟! أَنَّهُم لئَام وَكَفىٰ، فهُم لاَ يُؤمنُون، وَإنْ كَلّمهُم المَوتىٰ أو أتَاهُم الله وَالمَلاَئِكَة والنَّاس أجمَعِين.

وَهؤُلآء الشَّياطِين مَوجُودُون فِي كُلّ طَائفَة وكُلّ بَلَد وكُلّ زَمَان. أُبتُلي بِهم مُحمَّد بالأَمس، وَالمُخلصُون اليَوْم، وَسَيَبتلي بِهم كُلّ طَيّب غَداً. تَأتِيهِم بالحَقِيقَة فَيقُولُون لَكَ: ولَكن لمَاذَا كَان كَذَا، وَلَم يَكُن كَيت ؟! وَتُجَابههُم بالمَنطق الَّذي لاَ سَبِيل إلَىٰ رَدّه وَإنكَاره فَيأبُون إلاَّ التَّعنّت وَالمُكَابرَة، وَتُكَافح الإِسْتعمَار وَالإقطَاع وَالعُملاَء فَيقُولُون تَجَاوزَت الحُدُود، وَتَدعو إلَىٰ الدِّين فَيقُولُون طَائِفي مُتعصّب، وَتَسكُت فَيقُولُون سَلبي إنعزَالي. وَمَا دَاموا كَذَلكَ فمَا عَلَيكَ إذَن إلَّا أَنْ تَشدّ مِن عَزمك وَتَمضي فِي طَرِيقك.

وَنَحنُ لاَ نَعجَب وَلاَ نَستَغرب مِن مَوقف هَؤُلآء، لأنّنا عَلَىٰ يَقِين بأنَّهُم لَيسُوا مِن ذَوي العَقَائِد وَالمَبَادِيء. أنَّ صَاحب المَبدأ لاَ يَفتَري وَلاَ يَختَلق الأَكَاذِيب،

---

(١) الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣.

(٢) الأنعام: ١١١ ـ ١١٢.

فثقته بعقيدته تغنيه عن التزييف والتلفيق، وصاحب المبدأ لا يستنكر من غيره ما يرتضيه لنفسه، ولا يستعمل العنف، ولا ينهش لحوم الغائبين، بل ينصح ويصفح، ويتهم نفسه، ويسأل الله الهداية له وللناس كافة، وبكلمة أنّ أصحاب المبادىء يتجنبون الأقذار والأوزار.

ونعود إلى رسالة محمّد، وما يدعمها من أدلة العقل وهي تفوق الحصر ولا يبلغها الإحصاء، كانت في عهده وما زالت حتّى الآن يستطيع النظر إليها من شاء، فهذا القرءان الكريم، وشريعة الإسلام، وسيرة الرّسول في متناول كلّ يد، فعلى طالب الحقيقة أن يقرأ ويتدبّر، أمّا القول تعصباً وبغير علم فهو جور وفتنة وتضليل.

وسنروي في الفصل التّالي قصّة دكتور مسيحي من أقباط مصر، أطّلع على الأديان وقارن بينها، وانتهى إلى الإيمان بمحمّد، ووضع كتاباً للدّفاع عن رسالته. وأراهن أنّ من قرأ هذا الكتاب لا بدّ أن يؤمن بكلّ ما جاء فيه، من حيث يريد أو لا يريد، لأنّ الواقع يفرض نفسه. وقبل أن ننتقل إلى قصّة الكتاب وصاحبه وإلى الكلام عن القرءان وبعض خصائص الرّسول الأعظم نشير إلى حقيقتين تتّصلان بنبوّة محمّد وصدق رسالته:

١ ـ من الآراء السّائدة اليوم أنّ الهدف الّذي يؤلف بين المجتمع، أي مجتمع، لا بدّ أن يتّصل من قرب أو بعد العلاقات الإقتصاديّة، والضّرورات المادّيّة، وأنّ أي إصلاح أو حركة لا يكتب لها النّجاح والدّوام إلّا إذا قامت على عنصر مادّي. سواء أكان القائم بها سياسيون أو دينيون أو فلاسفة.

وعلى هذا المنطق يحقّ لنا القول بأنّ نجاح محمّد في دعوته ينبغي أن يعد من

أَهَم المُعجزَات وَخوَارق العَادَات، لأَنَّ رسَالَته قَامَت فِي بِدئهَا عَلَىٰ نَبذ الأَصنَام وَعِبَادَة مَبدَأ أَعلَىٰ، وعَلَىٰ الإِيمَان بالجنَّة والنَّار، وَالثَّوَاب وَالعقَاب بَعد المَوْت، فَدَعوَته وَالحَال هَذِهِ، كَانَت دَعوَة غَيبيَّة بدَافع مِن حَاجَات العَقْل وَالرُّوح أَي أَنَّهَا دَعوَة مِيتافِيزيقيَّة، وعَلَيهِ لاَ مَنَاص مِن أَحد أَمرَين: إِمّا الإِيمَان وَالتَّصدِيق بنُبوّة مُحمَّد لظهُور هَذِهِ المُعجزَة عَلَىٰ يَده، وَإِمّا الإِعترَاف أَنَّ الضَّرورَة الإِقتصَاديَّة لَيْسَت كُلّ شَيء، وأَنَّه لاَ بُدّ أَنْ نَدخُل فِي حسَابنَا عَنَاصر أُخرىٰ، ومِن أَهمّهَا دَعوَة الأَنْبيَاء إِلَىٰ الإِيمَان بالله واليَوْم الآخر.

٢ ـ أَنَّ كُلّ مَن اعترَف بمَبدَأ النُّبوّة مِن حَيْث هُو، وآمَن بنُبوّة نَبي وَاحد كَائناً مَن كَان يُلزمَه قَهراً أَنْ يَعْتَرف ويُؤمِن بنُبوّة مُحمَّد، ومَن أَنكَر نبُوّة مُحمَّد يُلزمَه أَنْ يُنكر نُبوّة جَمِيع الأَنْبيَاء ورسَالَته جَمِيع الرُّسل، لأَنَّ مَا مِن صفَة أَو آيَة كَانَت لنَبي إِلّا كَان لمُحمّد مِثلهَا أَو أَعْظَم مِنْهَا، وَقَد قِيل: «مَا حَصَل بِهِ الإِتّفَاق لاَ يَكُون سَبباً للإِفترَاق» فَإِذَا قُلت: كُلّ إِنْسَان فَانٍ، فَلاَ يَحقّ لَكَ أَنْ تُفرّق فِي هَذَا الحُكم بَيْنَ زَيد وَعَمرو، فَتَقول: هَذَا فَانٍ، وذَاك بَاقٍ. لأَنَّ القَانُون العَام يَصدُق عَلَىٰ الجَمِيع. وَصَدَق الله حَيْث قَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾[1].

أَنَّ مَن يُؤمِن ببَعض الرُّسل دُون بَعْض فهُو كَافر بالله بحُكم ٱلۡقُرۡءَان، إِذْ لَو كَان صَادقاً فِي إِيمَانه بالله سُبْحَانَه لصَدَّق جَمِيع رُسُله، لأَنَّ الدَّلِيل الَّذي دَلّ عَلَىٰ نبُوّة البَعض قَد دَلّ فِي نَفْس الوَقت عَلَىٰ أَصل النُّبوّة مِن حَيْث المَبدَأ، فَإِذَا صَدّقنَا

(١) ٱلنِّسَاء: ١٤٩ ـ ١٥١.

البَعض لزَمتنَا الحُجّة بألّا نُكَذّب البَعض الآخـر، وإلّا كَـان إنكَـاراً بـلاَ سَـبَب، وَتفَاضُلاً بلاِ مُوجب.

ومِن هُنا آمَن المُسْلمُون بالأَنبيَاء جَمِيعاً دُون اَسْتثنَاء، وَفِي طَلِيعَتهُم مُوسىٰ وَعِيسىٰ عليهما السلام.

وَفِي الصَّـفحَات التَـاليَة نَـتَكلّم عَـن «الرّسَـالَة والرَّسُـول» و «اَلْـقُرْءَان» و «مُحَمَّد» فِي بَعْض خصَائِصه، وَكَفىٰ بِهَا حُجّة وإعْجَازاً.

الرِّسَالَة وَالرَّسُول ﷺ

الدّكتُور نَظمي لوقَا مِن الأَقْبَاط المَصريِّين تولّد مِن أَبَوين مَسيحيِّين، كَانَا يَقرَآن لهُ فصُولاً مِن الإنجِيل كُلّ يوْم، ويُرسلانه إلَىٰ الكَنِيسَة، ولوَالِده أجدَاد كُثر مِن القِسيسِّين وَذوي الطَّيَالس السُّود، والدّكتُور نَظمي عَالِم وَأَدِيب وَلَهُ مَا يَقرُب مِن أَربَعِين كتَابَاً فِي موَاضِيع شتّىٰ، وَقَد قَرأَ ٱلْقُرْءَان وَحَفظَه وَقَارَن بَيْنَ الأَديَان وَتَعمّق فِي درَاسَة السِّيرَة النَّبويّة، وَأَخلاَق الرَّسُول الأَعْظَم، وَاطّلع عَلَىٰ الكَثِير مِن أَسرَار الإِسْلاَم وَشَرِيعَته وتَعاليمه فآمَن بمُحمَّد وَمَا أُنزل إِلَيهِ مِن ربّه، آمَن بهِ عَن عِلْم وَبَصِيرَة، وبدَافع مِن الإِخلاَص للحَقّ وَأَهله، وَوضَع فِي هَـذِهِ السَّنَة (١٩٥٩ م) كتَابَاً خَاصّاً تَحدّث فِيهِ عَن شَخص الرَّسُول ورسَالَته وَأَثبَت صِدقهَا بالأَرقَام وَمَنطق العَقْل وَالوجدَان، وأَنَّ جَمِيع تَعَالِيمَها تَقُوم عَلَىٰ أَسَاس الصّدق والعَدْل وَالمُسَاوَاة، وَتَهدف إِلَىٰ تَقدِّيس الإِنْسَانيَّة وَسعَادَتها وَهَذِهِ هِي مُهِمَّة الدِّين الصَّحِيح، أَمَّا مُحمَّد فَقَد إجتَمعَت لهُ صِفَات الأَنْبيَاء وَالرُّسل بكَاملهَا.

وَأَسمىٰ المُؤلّف كتَابَه «مُحمَّد، الرِّسَالَة وَالرَّسُول»، وَصَدّره بهَذِهِ الآيَة: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ

﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[١].

مُشِيراً بِهَذِهِ الآيَة إِلَىٰ أَنَّه أَحد المَعنيِّين بِهَا. ونَحْنُ نُلَخصّ للقُرّاء بَعْض فصُول هَذَا السِّفر الخَالد، وَهَدفنَا أَنْ نُبَيِّن أَنَّ الحَقّ لاَ يُلتَمس بمَا أَلِفَ الإِنْسَان مِن عَادَات وَمَا وَرَث مِن تقَالِيد فحَسب، وَنُجمل أَقوَالَه فِيمَا يَلي:

أَنَّ آفَة العقُول البَشريّة هُو التَّعصب الذَّمِيم، لأَنّه العَمىٰ وَالصَّمم، أَمَّا الصّدق وَالإِنْصَاف، أَمَّا الإِعتِرَاف بالحَقِيقَة وَإِنصَافك لخَصمَك فَيَشهَد لَكَ بِالفَضل وَحُسن الرَّأي وَأي شَرِيعَة أَدعىٰ لِلإِنصَاف مِن رسَالَة مُحَمَّد الَّتي تَقُول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[٢]. ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[٣].

وَأي إِنْسَان لاَ يُنصف دِيناً تُنَادي شَرِيعَته بالحَقّ والعَدْل فهُو جَاهل أَو مُتَعصّب لاَ يَستَأهل التَّكرِيم وَالإِحترَام. وَكَيف يَستَكثر غَير المُسلِم الإِنصَاف عَلَىٰ رَسُول كمُحَمّد لاَ لشَيء إِلاَّ لأَنَّه أَتىٰ بغَير مَا كَان يُؤمِن بِهِ آبَاؤه وَيَدينُون. وَمَن فَعَل ذَلِكَ فَقَد ظَلَم نَفْسَه وَحَملهَا عَلَىٰ الجحُود وَالجَور. أَنَّ مَن يَحتَكم إِلَىٰ العَقْل يَرىٰ أَنَّ مُحَمَّداً قَد إِجْتَمعَت لهُ الآء الرُّسل وَمفَاخر البَشريّة بكَاملهَا، وَمَن أَرَاد الخَير للإِنسَانيَة فَلاَ يَحقّ لهُ أَنْ يَثلب أَبطَالهَا وَهُدَاتهَا، وَيَهدم عزّها وَمَجدهَا.

ثُمَّ مَا مِن نَبيّ حَمَل إِلَىٰ النَّاس صَكّاً مُذيلاً بتَوقِيع الله بأَنَّه رَسُول مِن عِنده يَنطُق بلسَانَه، وإِنَّمَا الدَّلِيل الوَحِيد الَّذي يَشهَد بصِدق النَّبيّ، وَلاَ يُغني عَنْهُ أَلف

(١) آلِ عِمْرَانَ: ١٩٩.
(٢) ٱلْمَائِدَة: ٨.
(٣) ٱلْأَنْعَام: ١٥٢.

دَلِيل وَدَلِيل هُو أَنْ يَطمئن العَقْل إِلَىٰ مَا جَاء بِهِ بحَيث يَبدُو أَنَّ كُلّ مَا يُبَاينَه هَزِيلٌ وَاضح البُطلاَن .

وإِذَا نَظرنَا مِن هَذِهِ الكُوّة إِلَىٰ رسَالَة مُحَمَّد لَمَسنَا فِيْهَا آيَات الصّدق والحَـقّ ، وَلَم نَجد أَي شَيء يَدمغهَا بالزَّيف وَالبُطلاَن ، أَو يُبَرّر الشَّك وَالرَّيب ، ومَن أَنْكَـر هَذِهِ الحَقِيقَة فَلاَ حُجّة لهُ إِلاَّ قَوْله : « هَذَا رَأي وَكَفىٰ » . وَمثله لاَ يُعَوّل لهُ عَلَىٰ رَأي لأَنّه مُكَابر بغَير حُجّة . وإِلَيكَ أَدلَة العَقْل عَلَىٰ نُبوّة الصَّادِق الأَمِين :

١ ـ أَنَّ الْإِنْسَان بطَبِيعَتة فِي حَاجَة إِلَىٰ عَقِيدَة سَليمَة ، وَلاَ تَكُون كَذَلكَ إِلاَّ إِذَا صَحّت مَا تَردَت فِيهِ الإِنْسَانيَّة مِن الأَخطَاء فِي الأَفكَار وَالتَّقَالِيد ، وَإِلاَّ أَنْ تَـتَّجه إِلَىٰ النَّاس كَافَة ، لاَ فَرق بَيْنَ شَعب وَشَعب وَلاَ بَيْنَ جِيل وَجِيل ، وَلاَ بَيْنَ فِئَة وَفِئَة . ومِن أَهَم هَذِهِ الأَخطَاء الَّتي وَقَعَت فِيْهَا البَشريَّة الإِعتقَاد بتَجسِيم الخَالِق وَتَعدّده ، وَالتَّفَاضل بَيْنَ النَّاس عَلَىٰ أَسَاس عُنْصري أَو جُغرَافِـي أَو نَسَب أَو مَـال . وَقَـد صَححَّ ٱلْقُرْءَان الكَرِيم الإِنحرَاف الأَوّل بسُورَة : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَـمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[1] .

وَلاَ شَيء أَقرَب إِلَىٰ طُمَأنِينَة العَقْل وَالقَلب ، وَأَدعىٰ إِلَىٰ كَرَامَة الإِنسَـان مِـن الإِيمَان بإِله وَاحد مُنزّه عَن كُلّ مَثِيل وَشَبيه . وَصَححَّ الخَطأ الثَّانِي بالآيَة الكَرِيمَة : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[2] .

وَقَالَ الرَّسُول ﷺ : « أَيُّها النَّاس رَبّكُم وَاحد ، وَأَبُوكُم وَاحد ، كُلّكم مِـن آدَمَ ،

(١) ٱلْإِخْلَاص : ١ ـ ٤ .

(٢) ٱلْحُجُرَات : ١٣ .

وآدمَ مِن تُرَاب »[١].

٢ ـ لَيْسَ فِي عَقِيدَة المُسْلِمين تَأْليه وَلاَ شُبه تَأْليه لمَعنىٰ النُّبوّة، فَقَد صَرّح ٱلْقُرْءَان عَلَىٰ لسَان مُحَمَّد: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[٢].

وفِي إختيَار لَفظَة ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ مَعنىٰ مَقصُود بِهِ التَّسويَة وَالحَيلُولَة دُون الإرتفَاع بِفكرَة النُّبوّة فَوق مُستَوىٰ البَشَر بحَال مِن الأَحوَال، بَل نَجد فِي ٱلْقُرْءَان مَا هُو أَصرَح مِن هَذَا: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[٣]؛ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[٤]؛ وَقَولَه تَعَالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٥].

وَمِثل هَذَا كَثِير فِي ٱلْقُرْءَان والحَدِيث. أَرَاد مُحَمَّد أَنَّ يُشعر النَّاس بأَنّه مِثْلَهُم حَقّاً وَصِدقاً، يَمسّه السُّوء وَالثّكل، وَلَم يَستَعمل الإحتيَال مَع أَحد، كَمَا نَستَعمله نَحْنُ مَع الأَطفَال، ليَقبلُوا عَلَىٰ مَا نُرِيد، وَيَعزفُوا عمَّا نَكرَه.

٣ ـ جَاء الإسْلاَم بشَرِيعَة تَجمَع فِي مَملكَة الحَقّ والعَدْل بَيْنَ الدُّنْيَا والآخرَة: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ وَلَاتَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾[٦].

---

(١) أنظر. سُنن البَيْهَقِي: ٩/ ١١٨، سُبل الْهُدَىٰ والرّشاد: ٥/ ٢٤٢، شَرْح نَهج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبي ٱلْحَدِيد: ١٧/ ٢٨١، بحَار الأَنْوَار: ٣١/ ٣٥.

(٢) ٱلْكَهَف: ١١٠.

(٣) ٱلشُّورَىٰ: ٤٨.

(٤) ٱلْغَاشِيَة: ٢١ ـ ٢٢.

(٥) ٱلأَعْرَاف: ١٨٨.

(٦) ٱلْقَصَص: ٧٧.

« اَعْمل لدُنْيَاكَ كَأنَك تَعيش أَبَداً ـ أَي مَع الأَجْيَال إِلىٰ يَوْم يُبعثُون ـ واَعْـمل لآخِرتك كأنّك تَمُوت غداً » أَي اتّقِ الله فِي عَملك لدُنْيَاكَ[1]. وَتَستَوحي هَـذِهِ الشَّريعَة تَحسِين حَال الجَمَاعَة تَحسِيناً يَنْعَكس عَلَىٰ كُلّ فَـرد، وَتَـربُط حُسن الأَخلاَق بالمَصلحَة الإِجْتمَاعيَّة، فَالخَير أَنْ تَبتَغي الرِّزق بالعَمَل، وَتَـتعَاون مَـع النَّاس عَلَىٰ البِر وَالتَّقوىٰ. والشَّر أَنَّ تَعِيش عَلَىٰ حسَـابِهم، وَتَـتّخذ مِـن الرِّيَـاء وَالنّفَاق أَدَاة للكَسب. وَهَذِهِ هِي شَريعَة اَلحَيَاة بعَينهَا، تُنفق مَع الفِطرَة، وَتُسَـاير التَّطور الطَّبِيعي، وَتَسمح للإِنْسَانيَّة بالتَّسامي إِلَىٰ أَقصىٰ مَا يُمْكن أَنْ تَصل إِلَيهِ.

٤ ـ أَنَّ الرِّسَالَة الَّتي تُسِير بصَاحبهَا عَلَىٰ الوَرد، ويَكُون هَدفهَا الغُنم لهُ وَلذَويه فَهي إِفترَاء وَزُور، أَمَّا الرِّسَالَة الَّتي يُلاَقي صَاحبهَا فِي سَبِيل إِنْـتشَارهَا وَبـقَائِها العَنَت وَالجُهد فَهي صِدق وَعَدل. وَقَد اَمتَحنَت الخُطُوب مُحَمَّداً بمَا لَمْ تُمتَحن بهِ أَحداً، وحِينَ كَتَب لدَعوَته النَّصر، وَتَم لهُ الفَتح لَم يَظفَر مِن الدُّنْيَا إِلاَّ بمَا كَان لعَامّة جُندَه وَفُقرَاء رَعِيّته، وكَان فِي وسعِهِ وَمَقدُورَه أَنْ يَكُون أَغنَىٰ الأَغنيَاء.

جَاء المُشركُون إِلَىٰ عمّه أَبي طَالب، وقَالُوا لهُ: أَنَّ اَبْن أَخِـيك شَـتَم آبَـاءنَا، وَسَفّه أَحلاَمنَا، وَعيّب آلهَتنا، فَقُل لهُ أَنْ يَترُك هَذَا الأَمْر، ونَحنُ نُقيمَه عَلَينَا مَلكاً، وَنُقَاسمهُ جَمِيع أَموَالنا، وَإِلاّ نَازلنَاه وَنَازلنَاك حَتَّىٰ يَهلَك أَحد الفَرِيقَين وَتَقدَّم إِلَيهِ عمّه وقَالَ لهُ: يَا اَبْن أَخي أَبقِ عَليّ وعَلَىٰ نَفْسك وَلاَ تُحمّلني مَا لاَ أُطِيق. فَأَجَابه الرَّسُول: يَا عَمّ: « لَو وِضعَت الشَّمس فِي يَمِيني، وَاَلقَمَر فِي شمَالي مَـا تَـركتُ

(١) أنظر. تَحرِير الأَحْكَام لِلعلاّمة الحِلي: ٢ / ٢٤٩، تَفْسِير القُرطُبي: ٤ / ٣٥، مَن لاَ يَـحضره الـفَقيه: ٣ / ٩٤ ح ٣٥٦، مَعَانِي الأَخْبَار للنَّحاس: ٦ / ٣٠٥، وَسَائِل الشِّيعة: ١٧ / ٧٦ ح ٢، فَيض القَدِير شَرح الجَامِع الصَّغِير: ٢ / ١٦، كَنز العُمَّال: ٥ / ٥٨١، تَنبِيه الخوَاطر: ٢ / ٢٣٤.

قَوْل : لاَ إِله إِلاَّ الله مُحَمَّد رَسُول الله أَبداً ، حَتَّىٰ أُنفذه أَوْ أُقتل دُونه »[١] .

لَقَد آثَر مُحَمَّد الفقر وَالغنَاء عَلَىٰ السُّلطَان وَالثَّـرَاء ، لأَنَّـه صَـاحب رسَـالَة لاَ طَالب مَال أَو جَاه ، وأَصْحَاب الرّسَالَة لاَ يَرون ٱلحَيَاة إِلاَّ فِي مبَادِئِهم ، وَالتَّضحيَة فِي سَبِيلهَا بالنَّفس وَالنَّفِيس . ومِن هُنا كُتب لدَعوَة مُحَمَّد الخُلُود وَالصّمود ، وَآمَن بِهَا مِئَات المَلاَيِّين .

ثُمَّ خَتَم الدّكتُور لوقَا كتَابه بجُملَة مِن صفَات الرَّسُول قَالَ : كَان مُحَمَّد رَسُول السَّمَاء لَيْسَ فَوقَه إِلَّا الله ، وَمَع ذَلِكَ أَطرَاه أَصحَابه مَرّة بالحَقّ الَّذي يَعلمُون فَقَال لهُم : « لاَ تَطرُوني كمَا أَطرَت النّصَارىٰ عِيسىٰ ، وَقُولُوا : عَـبد الله وَرَسُـولَه »[٢] .

وَأَتَاه أَعرَابي يَوْم الفَتْح ليُبَايعَه ، وحِينَ وَقَف بَيْنَ يَدَيه أَخذَتهُ الرَّهبَة وزاَرتَعد مِن هَيبَة الحَقّ فَقَالَ لهُ : هَوِّن عَلَيْكَ ، فإِنّي ٱبن ٱمرَأة كَانَتْ تَأكُل القَدِيد بِـمَكَّة »[٣] .

وفِي ذَات يَوْم خَرج عَلَىٰ جَمَاعَة فَنَهضُوا تعظِيماً لهُ فَنَهاهُم قَائِلاً : « لاَ تَقُومُوا لِي

---

(١) أُنـظر ، دَلاَئِـل النُّبوَّة ، الإِصْبهَاني : ١ / ١٩٧ ، السِّيرَة النَّبوِيَّة لِابْـن هِشَـام : ٢ / ١٠١ ، تَأْرِيخ الطَّبري : ١ / ٥٤٥ .

(٢) أُنظر ، صَحِيح البُـخاريّ : ٣ / ١٢٧١ ح ٣٢٦١ ، صَـحِيح ٱبـن حِـبَّان : ١٤ / ١٣٣ ح ٦٢٣٩ ، سُنن الدَّارمي : ٢ / ٤١٢ ح ٢٧٨٤ ، المُعْجَم الأَوسَط : ٢ / ٣٦٢ ح ١٩٣٧ ، مُعجَم الشُّيوخ : ١ / ١٦٦ ، مُسنَد أَحمَد : ١ / ٢٣ ح ١٥٤ ، الدّر المَنثُور للسّيوطيّ : ٢ / ٢٤٩ ، المُوطّأ : ١ / ١١ و ١٢ .

(٣) أُنظر ، المُسْتَدرَك عَلَىٰ الصَّحِيحَين : ٢ / ٥٠٦ ح ٣٧٣٣ و : ٣ / ٥٠ ح ٤٣٦٦ ، مَجْمَع الزّوائد : ٩ / ٢٠ ، مصباح الزّجاجة : ٤ / ١٩ و ٢٠ ، سُنن ٱبن مَاجه : ٢ / ١١٠١ ح ٣٣١٢ ، المُعْجَم الأَوسَط : ٢ / ٦٤ ح ١٢٦٠ ، الزُّهْد لهنَاد : ٢ / ٤١٣ ح ٨٠٢ ، نوَادر الأُصُول فِي أحَادِيث الرَّسـول : ٢ / ١٠٤ ، الفِـرْدَوْس بمأثور الخِطَاب : ٤ / ٣٢٤ ح ٦٩٤٣ ، تَهذِيب الكَمَال : ٣ / ٤٤ ، الطَّبقَات الكُبْرَىٰ : ١ / ٢٣ ، عِلل الدَّار قُطني : ٦ / ١٩٤ ح ١٠٦٣ .

كَمَا يَقُوم الأَعَاجم يُعَظِّم بَعْضهُم بعضاً »[١].

وكَان إِذَا مَرض المَرِيض مِن أَدنَىٰ النَّاس يَعُودَه وَيقبَل دَعوَة المَسَاكِين إِلَىٰ الطَّعَام[٢]، وَيُدَاعب الأَطفَال، وَيُجلسَهُم فِي حِجرَة، وَيُمَازح أَصحَابه، وَيَتَبَسط مَعَهُم فِي الحَدِيث[٣]، وَيَقُوم بحَاجَة الفَقِير وَالضَّعِيف[٤]، وَيَحلب الشَّاة وَيُقطِّع اللَّحم[٥]، وَيَعقل البَعِير[٦].

وحِينَ شَعر بدنُو أَجَله تَحَامل عَلَىٰ نَفْسَه، وَخَرج إِلَىٰ المَسجِد، وَخَطب فِي النَّاس خُطبَتَه الأَخِيرَه قَائِلاً:

« أَيُّهَا النَّاس مَن جَلَدتُ لهُ ظَهراً فَهَذَا ظَهري، ومَن أَخَذتُ لهُ مَالاً فَهَذَا مَالي، ليَأخُذه مِنْهُ، وَلاَ يَخشَىٰ الشَّحنَاء مِن قِبَلي، فَإِنَّهَا لَيْسَت مِن شَأني. أَلاَ وأَنَّ أَحَبّكُم إِليّ مَن أَخَذ مِنّي حَقّاً إِنْ كَان لهُ، أَو حَلّلني مِنْهُ، فَلَقيتُ رَبّي طَيّب النَّفس.

فَقَال سوَاد بن غَزّيَة: يَا رَسُول الله أَوجَعتَ بَطنِي بالقَضِيب يَوْم بَدْر، وَأَنْتَ تُسوي النَّاس صفّاً صَفّاً، فَمَكّني مِن نَفْسَك لأَقتصّ مِنْكَ. فَوَقف النَّبيّ دَعَاهُ للإِقتصَاص

---

(١) أُنظر، تُحفَة الأَحوَذي: ٨/ ٢٥، أَدَب الإِملاَء وَالإِستملاَء: ١/ ٣٤، مُسنَد الرّوِيَاني: ٢/ ٣١٣ ح ١٢٧١.

(٢) أُنظر، مُسْنَد أَحمَد: ٢/ ٤٢٤، السُّنن الكُبرىٰ للبَيهقي: ٦/ ١٦٩، المُعجَم الكَبِير: ١١/ ١٢٠، شَرح السُّنة للبَغوي: ٩/ ١٤١، صَحِيح مُسْلم: ٤/ ١٥٣، سُنن التّرمذي: ٢/ ٣٩٧، المُحلىٰ: ٩/ ١٥٤.

(٣) أُنظر، كتَاب المُوطَّأ: ٢/ ٩١٩ ح ١، تَنوِير الحوَالَك: ٦٦٤ ح ١٦٣٩، مَنَاقب آل أَبي طَالب: ١/ ١٣٦، مُسْنَد أَحمَد: ٣/ ٢٤٠، صَحِيح البُخَاري: ٤/ ١٦٥ و: ٧/ ٥٧، سُنن التّرمذي: ٥/ ٢٥٢، فَتح البَاري: ٦/ ٤١٢، المُصنَّف لعَبدالرَّزاق الصَّنعَاني: ١١/ ٢٦٠ ح ٢٠٤٩٢، شمَائِل التّرمذي: ٢٨.

(٤) أُنظر، المُستَدرك عَلَىٰ الصَّحِيحَين: ٢/ ٥٠٦ ح ٣٧٣٣، مَجمع الزّوَائد: ٩/ ٢٠، مصبَاح الزُّجَاجة: ٤/ ١٩، سُنن ابن مَاجه: ٢/ ١١٠١ ح ٣٣١٢، المُعْجَم الأَوسَط: ٢/ ٦٤ ح ١٢٦٠.

(٥) أُنظر، كتَاب سرّ العَالَمين: ٢٥٤، مَكَارم الأَخلاَق: ٢٩.

(٦) أُنظر، الموَاهب اللّدنيَة كمَا فِي شَرْح الزّرقَاني: ٤/ ٢٤٦، تَأرِيخ مَدِينَة دِمَشق: ٤/ ٥٨.

مِنْهُ بالقَضِيب، فَرَفع الرَّسُول قَمِيصَه عَن بَطْنه مُتَأهباً للقصَاص مِن نَفْسَه، فمَا كَان مِن سوَاد إلّا أنْ عَانَقهُ وقبّل بَطنَه العَاري، ليَمس جَسَده الشّريف قَبل أنْ يُفَارق الدُّنيَا»[1].

أبَعد كُلّ مَا قَدّمت يَا أبَا القَاسم لقَومك مِن البِر والخَيْر وَالفَضل وَبَعدمَا أخرَجتهُم مِن الظُّلمَات إلَىٰ النُّور، أبَعدمَا نَصَحت لهُم وَجَاهدَت وَتحمَلت مِن أجلِهِم مَا تَحَملت تَقف لهُم مَوقف «المُذنِب» ليَقتَصّوا مِنْكَ، وَيَستُوفوا حقُوقهم مِن شَخصَك.

أيُّ رَحمَة أوسَع؟ وَأيّ خُلق أكرَم؟ وَأي عَدل أبلَغ؟!؛ وَأيّة مُعْجزَة أعْظَم مِن هَذِهِ؟! وهَل نَحتَاج بَعدهَا إلَىٰ دَلِيل عَلَىٰ صِدق مُحَمَّد؟ إذَن «لَيْسَ يَصح فِي الأفهَام شَيء». هَذَا مَع العِلْم أنّ سِيرَته وَتَعَاليمه كلّها مُعجزَات وَآيَات لاَ تَترك للجَاحد إلّا التّعَنت وَالمُكَابرَة.

وَبَعد، فَقَد قَدّم المُؤلّف فِي كتَابهِ هَذِهِ خِدمَة عُظمَىٰ للحَقّ والعَدْل، وَأتمَنىٰ أنْ يَقرَأه كُلّ إنْسَان، ثُمَّ يَرجَع القَارِيء إلَىٰ نَفْسَه ليَرىٰ وَقع الكِتَاب وَسَيكُون عَلَىٰ يَقِين مِن إيمَانه بكُلّ مَا جَاء فِيهِ مِن حَيْث يُرِيد أو لاَ يُرِيد، لأنَّ الوَاقِع يَفرض نَفْسَه، شِئنَا أم أبَينَا. وَجَزىٰ الله الدّكتُور لوقَا جَزَاء المُجَاهدِين فِي سَبِيل الحَقّ وَالعَدَالَة.

---

(١) أنظر. مَجْمَع الزّوَائِد: ٩ / ٢٦، المُعْجَم الأوسَط: ٣ / ١٠٤ ح ٢٦٢٩، المُعْجَم الكَبِير: ٣ / ٦٢ و: ١٨ / ٢٨٠ ح ١٧٨، مِيزَان الإعتدَال: ٥ / ٤٦٣ ح ٦٨٦١، لسَان المِيزَان: ٤ / ٤٦٨، تَأرِيخ الطّبري: ٢ / ٣٢ و ٢٢٧، الإصَابَة: ٣ / ٢١٨، كَشف الخَفَاء: ٢ / ٥٣.

ٱلْقُرْءَان

كَان الْإِمَام زَين العَابدِين إِذَا خَتَم ٱلْقُرْءَان يُنَاجِي رَبّه بدُعَاء طَـوِيل ، يَـفْتَتِحهُ بقَوْله :

« أَللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعَنْتَنِي عَلَىٰ خَتْمِ كِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَهُ نُوراً ، وَجَعَلْتَهُ مُهَيْمِناً عَلَىٰ كُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلْتَهُ ، وَفَضَّلْتَهُ عَلَىٰ كُلِّ حَدِيثٍ قَصَصْتَهُ ، وَفُرْقاناً فَرَقْتَ بِهِ بَيْنَ حَـلالِكَ ، وَحَرَامِكَ ، وَقُرْآناً أَعْرَبْتَ بِهِ عَنْ شَرَائِعِ أَحْكَامِكَ ؛ وَكِتَاباً فَصَّلْتَهُ لِعِبَادِكَ تَفْصِيلاً ، وَوَحْياً أَنْزَلْتَهُ عَلَىٰ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَنْزِيلاً .

وَجَعَلْتَهُ نُوراً نَهْتَدِي مِنْ ظُلَمِ الضَّلَالَةِ ، وَالْجَهَـالَةِ بِـاتِّبَاعِـهِ ، وَشِـفَـآءً لِـمَنْ أَنْصَتَ بِفَهْمِ التَّصْدِيقِ إِلَىٰ ٱسْتِمَاعِهِ ، وَمِيْزَان قِسْطٍ لاَ يَحِيْفُ عَنِ الْحَقِّ لِسَانُهُ ، وَنُور هُدىً لاَ يُطْفَأُ عَنِ الشَّاهِدِينَ بُرْهَانُهُ ، وَعَلَمَ نَجَاةٍ لاَ يَضِلُّ مَنْ أَمَّ قَصْدَ سُنَّتِهِ وَلاَ تَنَالُ أَيْدِي الْهَلَكَاتِ مَنْ تَعَلَّقَ بِعُرْوَةِ عِصْمَتِهِ »[1] .

تَحَدّث ٱلْقُرْءَان الكَرِيم عَن الله وَصفَاته ، وعَن الآخِرَة وَالحِسَـاب وَالجَـزَاء ، وَجَادل أَهْل التَّورَاة بتورَاتِهم ، وأَهْل الإِنْجِيل بإِنْجِيلهِم ، وأَهْل الشِّرك بأَصنَامِهِم . وبَيَّنَ مِن أَنوَاع العِبَادَات مَا يُذَكِّر النَّاس بالله ، وَيَبعثهُم عَلَىٰ الإِخلَاص لهُ فِي

---

(١) أُنظر . الصَّحِيفَة السَّجَّاديَّة : الدُّعَاء الثَّاني وَالأَربعُون دُعَاؤهُ عِنْدَ خَتْمِهِ ٱلْقُرْءَان .

القَوْل والعَمَل ، فَهي ركُوع وَسجُود فِي صُورهَا ، وَخُلق كَرِيم فِي جَوهَرهَا .

وَشرّع نظَامَاً إنْسَانياً شَاملاً لأحكَام العقُود وَالمُوجبَات ، وَالزّوَاج وَالطّلاَق وَالوَصَايَا وَالموَاريث ، والحُدُود وَالعقُوبَات ، وَمَا إلَىٰ ذَلِكَ مِمَّا يَحتَاج إلَيهِ الفَرد الجمَاعَة ، أو قُل أنَّ ٱلْقُرْءَان حَدّد مَسؤوليَة الإِنْسَان تجَاه نَفْسَه وَخَالقه وغَيْرَه ، وبيَّن لهُ كَيف يوَاجه هَذِهِ المَسؤوليَات وَيُمَارسهَا .

وَسجَّل أخبَار الأُمَم المَاضيَة وَالقُرُون الخَاليَة .

وَأرشَد إلَىٰ حقَائِق عِلميَّة تَكشف عَن أسرَار الكَون ، كَمَا أمَر بالتَّأمل وَالتَّفكِير وَاتّبَاع العِلْم .

وَتَضمَّن أخبَاراً عَن الغَيب ، وَتَنبأ بحوَدات تَحَقَّقت عَلَىٰ النَّحو الَّذي أَخبَر بهِ .

وَقَد عَاش مُحَمَّد بن عَبدالله بَيْنَ قَومَه كَمَا عَاشُوا ، وَسَعىٰ كَمَا سَعوا ، وَكَانُوا خُلوّاً مِن العُلُوم وَالفنُون لاَ يَملكُون مَعمَلاً وَلاَ جهَازاً ، وَلاَ مُختَبراً بَل وَلاَ وَعياً يَستَنبطُون بِهِ القوَانِين كفلاَسفَة الإغرِيق ، وكَان هُو أُميّاً ، لاَ يَقرأ وَلاَ يَكتُب ، كَأكثَر أبْنَاء قَومَه وَبيئَته . إذَن كَيْف ٱمتَاز عَنْهُم ؟ ومِن أَين جَاءَته هَذِهِ العُلُوم إذَا لَم يَكُن نَبيَّاً يُوحىٰ إلَية ؟ ! .

قَالَ المُعَاندُون فِيمَا مَضَىٰ : أَنَّ ٱلْقُرْءَان سِحر ، بَعد أَنْ ٱنْقطَعَت جَمِيع أَعذَارهُم ، وَٱنْسَدّت عَلَيهِم المَسَالك والمَذَاهب . . . فمبَاذَا يَتعلّلُون اليَوْم ، وَالسّحر فِي أذهَان النَّاس حَدِيث خُرَافَة ؟ ! .

أَجل ، لَقَد تَعلّلُوا وقَالُوا : أَنَّ مُحَمَّداً عَظِيم فِي أَخلاَقه ، وَعَظِيم فِي بلاَغَته ، وَعَظِيم فِي موَاهبَه وَجَمِيع أَعمَاله الَّتي لاَ يَسْمَع أَحداً إلَّا إكبَارهَا وَتَقدِيرهَا . فهُو عَظِيم ، وَهَذَا ٱلْقُرْءَان مَظهَر مِن مَظَاهر تِلكَ العَظمَة ، وبالتَالي فهُو مِن وَحيَه لاَ مِن

وَحي الله .

وَالجَوَاب : لَيس مِن شَكّ فِي أَنّ الْإِنْسَان قَد يَكُون عَظِيماً وَلاَ يَكُون نبيّاً وَلَكن هَل يُمْكن أَن يَكُون عَالمَاً دُون أَنْ يَتَعلّم أَو دُون أَنْ تُوجَد عُلُوم بِالمَرّة ؟ وإِذَا ٱفتَرضنَا أَنّ مُحَمَّداً قَرَأ قصّة آدَم وَحوّاء ، وَأخبَار المَاضِين فِي كِتَاب قَدِيم ، أو نَقَلهَا إِلَيهِ نَاقل ، فَأَين دَرَس التّشريع وَالعُلُوم الطَّبِيعيّة وَالرِّيَاضيّة وَالْإِجتمَاعيّة وَغيرهَا مِمَّا أَشَار إِلَيهِ ٱلقُرْءَان ؟ ! وإِذَا ٱفترضنَا أَنّ مُحَمَّداً أَدرَك بصَفَاء فِطرَته أَنّ فِي القَصَاص حيَاة النَّاس فَهَل أَدرَك بفِطرَته هَـذِهِ الشَّرِيعَة الإِنسَانيّة الكَامِلَة الشَّامِلَة للأَحوَال الشَّخصيّة ، وَالصّنَاعيّة ، وَالتّجَاريّة ، وَالزّرَاعيّة ، وَالجنَائيّة ، وَالعَسكريّة ، وَالسِّيَاسيّة ، وكُلّ مَا يَحتَاج إِلَيهِ الفَرد ، وَالمُجتَمع ، والدَّولَة ؟ ! هَل أَدرَك رَبِيب الصَّحرَاء هَذِهِ الشَّرِيعَة الَّتي تَصلح بمبَادِئها وَأُسّسها لكُلّ زَمَان وَمَكَان والَّتي وضعَت مِئَات المُجلّدَات لأَحكَامهَا ، وَأُصُولهَا ، وَقوَاعدهَا ، وَتَأسّست لدرَاستهَا ومَعْرِفَة أَسرَارهَا الكُلّيَات وَالجَامعَات ؟ ! وهَل فِي التَّأرِيخ رَجُل وَاحد كُلّ هَذِهِ المَكَانَة فِي عَالَم التَّشرِيع ؟ .

إِنّ الَّذي نَعهدَه أَنّ الشَّرائع الوَضعيّة تَضعهَا الهَيئَات لاَ الْأَفرَاد ، وأَنّه يُعرَض عَلَيهَا التّقلِيم وَالتَّطعِيم بمُرُور الزّمن ، لأَخطَاء تَظهَر بَعد التَّطبِيق وَالْإِختبَار ، وَمَا عَهدنَا رَجُلاً وَاحداً ٱستَقل بوَضع نظَام كَامل شَامل ، مَهْمَا بَلَغت موَاهبَه ، وَٱتّسعَت معَارفَه . . . إِذَن فَالشَّرِيعَة الْإِسلاَمِيّة لَيسَت مِن الْإِنسَان ، بَل مِن خَالق الْإِنْسَان وَمُبدعَه ، فَهي أَشبَه بالتَّعالِيم الَّتي نَجدهَا مَع زجَاجَة الدَّوَاء وبَعْض الآلاَت تَرشدنَا إِلَىٰ كَيفيّة الْإِستعمَال ، وَوضع الشّيء فِي مَكَانه خَوفاً مِن الفَسَاد والْإِفسَاد ، إِنّها مِن مُختَرع الآلَة لاَ مِن غَيْرَه .

ثُمَّ هَذِهِ الحقَائِق الكَونيَة وَالأَسرَار العِلميَّة الَّتي تَضمنهَا ٱلْقُرْءَان، كَيْف وَصَل إلَيهَا مُحمَّد ـ وَالمَفرُوض أَنَّهَا لاَ تُعرَف إلَّا بمَعرفَة المُختبرَات وَالأَدوَات الفَنيَّة الَّتي لَم يَكُن لهَا مِن قَبل عَينٌ وَلاَ أَثر ؟ ! هَل تَلقَاهَا مِن أُستَاذ، وَمَن يكُون هَذَا الأُستَاذ ؟ ! أَو هِي هَاجسَة مِن هَوَاجس فِكرَه، وَظنٌ مِن ظنُونَه ؟ ! والظَّن لاَ يُغني عَن الحقَائِق شَيْئاً. إذَن هِي مِن وَحي الخَالِق الَّذي أَوجَدهَا وَأَوجَد كُلّ شَيء.

كُنّا قَد ذكَرنَا فِي القِسم الأَوّل «الله والعَقْل» نَمَاذج مِن تِلكَ الأَسرَار الَّتي أَشَارَت إلَيهَا الآيَات ٱلْقُرْءَانِيَّة، وَلَم يَكتَشفهَا العِلْم إلَّا بَعد ثَلاَثَة عَشَر قَرناً وَنِصف القَرن، وَنَذكر هُنا طَرفاً آخر مِنْهَا، مَع الإعترَاف بأَنَّنا لَم نَبلُغ مِن العِلْم بِهَا إلَّا النَّقل عَن عُلمَاء الغَرب !.

لَقَد عَنىٰ المُسْلمُون بٱلْقُرْءَان عِنايَة كُبرىٰ شَمَلت العَدِيد مِن نوَاحِيه، أَفَاد مِنْهَا الدِّين والعِلْم بشَتّىٰ فرُوعَه، فَلَقَد وَضعُوا خدمَة لكتَاب الله مِئَات المُؤلّفَات فِي النَّحو، وَالصَّرف، والبَلاَغَة، وَالتَّجوِيد، وَمُفردَات اللُّغَة، وَالتَّفسِير، وَالفِقْه، وَالأُصُول، وعِلْم الكَلاَم، وَالأَخلاَق وَغَيرهَا. وَزَخرَت المَكتبَة العَربيَّة، وَمَكتبَات أُخرىٰ أَجنَبيَّة بهَذِهِ الكُتُب، وَمَا زَال المُسْلمُون حَتَّىٰ يَومنَا هَذَا يُوَاصلُون هَذَا النَّشَاط.

وَلاَ نُغَالي إذَا قُلنَا: أَنَّه لَم يُلاَق كِتَاب مِن الكُتُب السَّماويَّة وَالأَرضِيَة مِن العنَايَة مَا لاَقَاه ٱلْقُرْءَان عَلَىٰ أَيدي المُسْلمِين. وَلَو أَنَّهُم ٱهتَموا بالنَاحيَة العِلميَّة فِي ٱلْقُرْءَان، كَمَا ٱهتَمُوا بغَيرهَا لكنَّا الآنْ أَمَام طَائفَة مِن النَّظريَّات الرَّائعَة الَّتي تُسْرع بالْحَيَاة نَحو الحضَارَة وَالمَدنيَّة، وَلكَانَت الحقَائِق الَّتي نُسمِّيها اليَوْم بالنَّظريَات الحَدِيثَة مِن مُخلفَات المَاضي البَعِيد.

لَقد ٱهتَم المُسْلمُون كَثِيراً بالكَشف عَن كنُوز الدِّين ، والشَّريعَة ، وَالأَخـلاَق ، وَالفَلْسفَات ، وعَن خَصَائِص اللُّغَة مِمَّا صَرَفهُم أَو كَاد عَن الحقَائِق الكَونيَّة ، وَلعَلَّ لهُم العُذر ، لأَنَّ العِلْم يَومذَاك كَان فِي دَور التَّكوِين أَو الإِنتقَال ، عَلَىٰ أَنَّهُم أَخرجُوا للنَّاس مِن ثَمرَات العُلُوم مَا كَان لهُ أَطيَب الأَثَر فِـي حَـيَاة الجَـمَاعَة الإِنسَـانيَّة وَتَطورهَا .

وَعلَىٰ أَي حَال ، فَلُو تَسَنىٰ للمُسْلمِين أَنْ يَهتمُوا بالعُلُوم العِمليَّة ، كَمَا ٱهتمُوا بالعُلُوم النَّظريَة لكُنَّا فِي غِنىً عَن البَحْث وَالتَّنقِيب عَن أَقْوَال الغَـربيِّين لنَسُـوق الأَدلَّة المَحسُوسَة عَلَىٰ عَظمَة الكَون وَحكـمَة خَـالقَه . وَنَـتعَرض هُـنا لآيَـتَين إِحدَاهُما فِي عِلْم الفَلك ؛ وَالأُخرىٰ فِي عِلْم الحَيوَان .

فِي عِلم الفَلَك :

لاَحظ الفَلكيُون خِـلاَل السَّـنوَات الأَخِـيرَة أَنَّ المِـريخ كَـوكَب حَـي ، فِـيهِ مَخلُوقَات تَحسّ وَتُدرك . وإِذَا وَجَدت ٱلْحَيَاة فِي المِريخ فَمِن المُمكِن أَنْ تُوجَد فِي كَوَاكب أُخرىٰ . وَفِي ٱلْقُرْءَان آيَات تُشِير إِلَىٰ هَذِهِ الحَقِيقَة ، مِنْهَا الآيَة : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[1] ، وَالآيَة : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَـهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2] .

وَلَفظَة « مَنْ » يُعبَّر بِهَا عَن العَاقِل المُدرِك .

---

(١) ٱلْإِسْرَاء : ٤٤.

(٢) ٱلنُّور : ٤١.

فِي عِلم الحَيوان:

أَثْبَت العِلْم أَنَّ الفِيَلَه تَعْقد المَحَاكم للمُخَالفَات الَّتي تَقطَع مِن بَعْضهَا، وَتُصدر المَحكمَة حُكمهَا عَلَىٰ الفِيل المُذْنب بالنَّفي عَن الجَمَاعَة، ليَعِيش وَحِيداً فِي عُزلَته[1].

وفِي كِتَاب «اللهُ والعِلْم الحَدِيث»: «إِنَّ العَالِم «رويَال دينكسون»، وهُو عَالِم فِي التَّأرِيخ الطَّبيعي، قَالَ فِي كتَابه «شخَصيَّة الحَشرَات»:

«لَقَد دَرَستُ مَدِينَة ٱلنَّمْل عشرِين عَامَاً فِي بُقَاع مُختَلفَة مِن العَالَم فَوجَدتُ أَنَّ كُلّ شَيء يَحْدث فِي هَذِهِ المَدِينَة بدقّة بَالغَة، وَتعَاون عَجِيب، وَنظَام لاَ يُمْكن أَنْ نَرَاه فِي مُدن البَشَر، لَقَد رَاقَبتُ ٱلنَّمْل وهُو يَرعىٰ أبقَاره، وهِي خَنَافس صَغِيرَة رَبَّاهَا فِي جَوف الأَرْض زَمَاناً طَويلاً حَتَّىٰ فَقَدت فِي الظَّلام بَصَرهَا».

وَلاَ أَحد يَدري فِي أَي عَصر بَدَأ ٱلنَّمْل حِرفَة الرَّعي، وَتَسخِير الأَبقَار، وكُلّ مَا نَعلَمه أَنَّ الإِنْسَان إِنْ كَان قَد سَخّر نَحواً مِن عشرِين حَيوَاناً لمنَافعَه، فإِنَّ ٱلنَّمْل قَد سَخّر مِئَات الأَجنَاس مِن حَيوَانَات أَدنىٰ مِنْهُ جِنسَاً فَإِنَّ بَقَ النَّبات حَشرَة مِن الحَشرَات يَعسر إِستِصَالهَا، وأَنَّ أَجنَاساً كَثِيرة مِن ٱلنَّمْل تَرعىٰ تِلكَ الحَشرَات، فَفي البَاكر يَرسل ٱلنَّمْل الرُّسل لتَجمَع لهُ بَيض هَذَا البَق، فَإِذَا جِيء بِهِ وَضَعهُ فِي المُستَعمرَة مَوضع البَيض، وَيَعني بِهِ حَتَّىٰ يُفقس وَتَخرج صغَارَه، وَمَتىٰ كَبُرَت تَدر سَائِلاً حُلواً يَقُوم عَلَىٰ حَلْبه جَمَاعَة مِن ٱلنَّمْل، لاَ عَمَل لهَا إِلَّا حَلب هَذِهِ الحَشرَات بمَسها بقُرونهَا، وَتَنتُج هَذِهِ الحَشرَة (٤٨) قَطرَة مِن العَسَل كُلّ يَوْم، أَو بمقدَار يَزِيد مِئَة ضَعف عمَّا تُنْتجَه ٱلبَقَرَة.

---

(١) أُنظر، كِتَاب التَّعايُش الدِّيني فِي الإِسْلاَم لمَحمُود العَزب: ٤٩. (مِنْهُ ﷺ).

وَلاَحَظ العَالِم المَذكُور أَنَّ ٱلنَّمْل قَد زَرَع مَسَاحَة بَلَغت خَمسَة عَشَر متراً مُربعاً مِن الأَرْض، وأَنَّ جَمَاعَة مِن ٱلنَّمْل تَقُوم بحَرثهَا عَلَىٰ أَحسَن مَا يَقضي بِهِ عِلْم الزّرَاعَة، وحِينَ يَنْبُت الزَّرع تَخرج مَعَهُ أَعشَاب مُضرَة، وَتَتجَمع عَلَيهِ الدِّيدَان. فَتَخْتَص جَمَاعَة مِن ٱلنَّمْل لإِزالَة هَذِهِ الأَعشَاب وَالطُّفيليَّات وَأُخرىٰ لحرَاسَة الزَّرع مِن الدِّيدَان. وهَكَذَا رَأىٰ هَذَا العَالِم قُرىٰ ٱلنَّمْل مُزدَحمَة بالعَمل وَالعُمَّال، وَالتَّدبِير والنّظَام، وَالتَّعاون عَلَىٰ الصَّالح»[1].

وإِلَىٰ هَذَا الإِحكَام وَالإِبدَاع العَجِيب أَشَار ٱلْقُرْءَان الكَرِيم فِي الآيَة: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[2].

فَسُبحَان مَن أَعطىٰ كُلّ نَفْس هُدَاهَا وَجَعل مِن الذَّرّة آيَات لأُولي الأَلبَاب!.

لَقَد أَمضَىٰ العُلمَاء سَنوَات فِي الجَامعَات وَالمُختبرَات يَدرسُون وَيَتعلمُون، ثُمَّ قَضوا أَمَداً طَويلاً يَبحثُون وَيُلاَحظُون بمَعُونَة أَدوَاتِهم الحَدِيثَة حَتَّىٰ ٱهتَدوا إِلَىٰ شَيء مِمَّا أَشَارت إِلَيهِ الآيَة الكَرِيمَة وَمَا خَفي عَنهُم مِن أَسرَار الكَون الَّتي أَشَار إِلَيهَا ٱلْقُرْءَان يَعدل أَضعَاف مَا ٱكتَشفُوا حَتَّىٰ اليَوْم[3]. وعَلَىٰ هَذَا نُكرّر مَا قَدّمنَاه مِن التّسَاؤل: مِن أَين أَتَت هَذِهِ المَعلُومَات إِلَىٰ مُحمَّد؟!.

وَلنفترض أَنَّ عُلُوم هَذَا العَصر بجَامعَاتها، وَكُتبهَا وَمُختبرَاتها، وآلاَتها كَانَت مَوجُودَة فِي عَهْد مُحمَّد فَهَل ٱستطَاع أَنْ يُحِيط بكُلّ العُلُوم وَيَتقنهَا جَميعاً لاَ

(١) أُنظر، «اللهُ والعِلْم الحَدِيث» لعَبد الرَّزاق نُوفَل: ١٢٨. (مِنهُ ﷺ).

(٢) ٱلأَنْعَام: ٣٨.

(٣) لاَ بُدّ مِن يَوْم تَتكشَف فِيهِ هَذِهِ الأَسرَار بَعد أَنْ إِنطَلقَت العُلُوم وَالأَقمَار الإِصطنَاعيَّة مِن عقَالهَا، وفِي ذَلِكَ اليَوْم الَّذي لاَ رَيب فِيهِ يَقف كُلّ إِنسَان وَجهاً لوَجه أَمَام عَظمَة المُحرك الأَوّل، وَلاَ يَبقىٰ عَلَىٰ وَجه الأَرْض مُنكر وَلاَ مُشكك. ومَن يَعِش يَر. (مِنهُ ﷺ).

يَعزب عَن عِلمهِ مِنْهَا كَبِيرَة وَلاَ صَغِيرَة ؟ ! أَنَّ مُحَمَّداً عَظِيم مَا فِي ذَلِكَ رَيب ، ولَكن عَظَمَته لاَ تَرتَفع بِهِ مَا فَوق الإِنْسَانيَّة . إِذَن فَالنَّتيجَة الحَتميَّة لِهَذَا الَّذي قَدَّمنَاه أَنَّ ٱلْقُرْءَان مِن وَحي خَالق الكَون وَمُبدعَه : ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1] .

وَسَيقُول المُعَاندُون إِلَىٰ أَنَّ هَذَا إِثبَات لِلْقُرءَان بِإِلزَام العَقْل لاَ بطَرِيق التَّجربَة والمُشَاهدَة إِذْ جَعَلتُم إِستحَالَة صدُور ٱلْقُرْءَان عَن مُحَمَّد دَلِيلاً عَلَىٰ أَنَّه مِن عِند الله وَهَذِهِ طَرِيقَة عَقليَة لاَ تُوصل إِلَىٰ يَقِين مَا دُمنَا لَم نَرَ المُوحي بأَعيُننا وَنَسمَعه بآذَانِنَا .

وَنُجيب بأَنَّ إِلزَام العَقْل يُؤدي إِلَىٰ اليَقِين ، تمَامَاً كَالمُشَاهدَة والتَّجربَة ، فَإِنَّ عُلمَاء الفَلك قَد رَأوا كَوكبَاً « اورَانوس » يَتَحرك حَرَكَات لَمْ يَستَطيعُوا تَعلِيلهَا إِلَّا بفَرض وجُود جُرم سمَاوي آخر لَم يَكُونُوا قَد رَأوه بَعد ، وَأَطلقُوا عَلَىٰ هَذَا الجُرم السَّماوي المَفرُوض اسم « نيبتون »[2] . وإِذَا دَلَّ هَذَا عَلَىٰ شَيء فَإِنَّمَا يَدل عَلَىٰ أَنَّ للحوَاس حدَّاً لاَ تَستَطِيع أَنْ تَتجَاوَزه بِحَال ، كَمَا فَصَّلنَا ذَلِكَ فِي بَحثنَا « الله وَالعَقْل » .

وإِذَا أَجَزتُم للعُلمَاء أَنْ يَستَدلُوا بعقُولهِم عَلَىٰ وجُود كَوكَب رُبَّمَا كَان أَكبَر مِن الأَرْض بآلاَف المَرَّات ، وأَنْ يَضعُوا لهُ اسمَاً فَلِمَاذَا لاَ تُجِيزُون أَنْ نَستَدل نَحْنُ بعقُولنَا ؟ ! .

* * *

(١) ٱلْإِسْرَاء : ٨٩.

(٢) أُنظر ، كِتَاب « قُشُور وَلُبَاب » للدكتُور نَجِيب زَكي محمُود : ٢٤٨ . (مِنْهُ ﷺ) .

وَقَد أَفرَد عُلمَاء الإِسْلاَم القُدامىٰ وَالمُحَدثُون لإِعجَاز ٱلْقُرْءَان كُتباً[1] لاَ يُحِيط بِهَا الحِسَاب، وَلاَ يَتّسع المقَام لنَقل أَقوَالهم. ومِن مضَامِينهَا:

أَنَّ العَرب كَانُوا فِي عَهْد مُحَمَّد أَكْثَر النَّاس فصَاحَة وَكَلاَماً، فدعَاهُم ٱلْقُرْءَان إِلَىٰ أَنْ يُؤمنُوا بِهِ أَو يُعَارضُوه ببضَاعَتهم الَّتي يُفَاخرُون بِهَا، وَيَأْتُوا بسُورَة مِن مِثْلِهِ إِنْ كَان كَاذباً، فحَاوَلوا، وَتَكلفُوا، ولَكن عَلَىٰ غَير جَدوىٰ، فهَجَاهُم ٱلْقُرْءَان وَقَرّعهُم بالعَجز وَالنُّقصَان، وَٱزدَاد لهُم تَحدّياً، فَلَم يَجدُوا حِيلَة وَلاَ وَسِيلَة. وأَمَّا سرّ عَجزهِم عَن المُعَارضَة فهُو فَصَاحَة اللَّفظ، وَصِدق المَعنىٰ، وَسمُو الهَدَف، وَإِيجَاز دُون إِخلاَل، وَمعَارف إِلٰهيّة، وَشَريعَة إِنسَانيَّة، وَسَلاَمة مِن التَّناقض، ومِن الخرَافَات وَالأَبَاطِيل، كَمَا لهُ مِن المُوسِيقىٰ وَطَرَاوَة الأُسلُوب مَا تَجعَله جَدِيداً فِي كُلّ زَمَن.

وفِي كِتَاب الله وجُوه أُخرىٰ للإِعجَاز لاَ تَقل فِي عَظَمتهَا عَن الإِعجَاز العِلمي، وَلاَ نَحتَاج فِي تَفهمهَا إِلَىٰ العُلُوم وَالأَدوَات الفَنيَّة، فَيَكفي أَنْ نَتّجه إِلَيهَا بأَفكَارنَا لنَشعر برَوعَتها، ونُؤمِن بأَنَّها مِن لَدُن حَكِيم عَلِيم. مِن تِلكَ الوجُوه هٰذِهِ الصُّور المُتنوعَة ٱلْحَيَاة النَّاس وَفئَاتهم الَّتي جلاَهَا ٱلْقُرْءَان وَأَظهرهَا أَمثَالاً وَأَضدَاداً مِن حَيَاة الفُقرَاء الكَادِحِين إِلَىٰ الأَغنيَاء المُرَابين. ومِن الزُّهّاد وَالعُبّاد إِلَىٰ المُلحدِين والمُستَهترِين، ومِن المُبَذرِين المُسرفِين إِلَىٰ الأَشحّاء وَالمُقتَرِين ومِن العُملاَء الخَائنِين إِلَىٰ المُخلصِين المُجَاهدِين... إِلخ وَلَو أَردنَا تِعدَاد هٰذِهِ الصُّور وَشَرحهَا لطَال بنَا المقَام وَحَسبنَا أَنْ نَتَدبر الآيَات التَاليَة:

---

(١) أنظر. آخر كِتَاب قَرَأتهُ عَن ٱلْقُرْءَان كِتَاب «نظَرَات فِي ٱلْقُرْءَان» للشَّيخ مُحَمَّد الغزّالي، وفِيهِ آيَات بَيّنَات لقَوم يَسمعُون وَيَعقلُون. (مِنهُ ﷺ).

فَقَد جَاء فِي الآيَة : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾[1] .

اقرأ هَذِهِ الآيَة لتَرىٰ فِيهَا صُورَة أُولئكَ العُملاَء الَّذِين اتَّخذُوا مِن أَعْدَاء الله وَالوَطن أَوليَاء وَأَصدقَاء يَلقُون إِلَيهِم بالمَودّة وَالإِخلاَص، وَيُمهدُون لهُم سَبِيل البَغي والعُدْوَان عَلَىٰ أُمّتهِم وَوَطنهِم، وَهُم يَعلمُون أَنَّهُم لاَ يُدينُون دِين الحَقّ، وَلاَ يُحرمُون مَا حَرّم الله .

وَجَاء فِي الآيَة : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾[2] .

وَأي عَالِم لَمْ يَمر بهَذِهِ التَّجربَة وَيخَاصمَه المُكَابرُون بغَير دَلِيل مِن البَديهَة وَالتَّجربَة، وَلاَ مِن مَنطق العَقْل، وَلاَ مِن وَحي مُنزل، وَقَد أَرشَدتنَا الآيَة نَفْسَهَا أَنَّه لاَ عِلاَج لهَذَا المَرض إِلَّا السُّكُوت وَالإِعرَاض : ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[3] .

لأَنّه لاَ دَوَاء للمَرء وَالإِستمسَاك بالجَهْل إِلاَّ التَّجاهل وَاللاَّمُبَالاَة. وهَل يَقهَر الجَاهل بالحُجّة والعِلْم ؟ ! وَصَدق مَن قَالَ : « مَا حَاجَجتُ جَاهلاً إِلاَّ حَجّني »[4] أَنَّ الجَاهل يُدَافع عمَّا قَالَ لاَ لأَنّه صوَاب، بَل لأَنّه قَالَه وَكَفىٰ .

أَمَّا العُلمَاء فَيدركُون أَنَّ آرَاءهُم لَيْسَت هِي الوَاقِع بعَينه، بَل صُورَة عَنْهُ تُخطيء وَتُصِيب، لِذَا قَالَ بَعْض العُلمَاء : « لَقَد حَرّمت عَلَىٰ نَفْسي أَنْ أَستَعمل قَولاً يَدل

(١) المُمْتَحِنَة : ١ .
(٢) الحَجّ : ٨ .
(٣) الحَجّ : ٦٨ .
(٤) لَمْ أَعْثر عَلىٰ هَذا القَول .

عَلَىٰ رَأيٍ قَاطع مِثْل : قَطعَاً . وَبلاَ شَكّ . وعَلَىٰ التَّحقِيق . وَصُرت أَستَعمل بدَلاً مِن ذَاك : أَحسب . وَأَظن . وَيَبدُو لِي . وَقَد أَكُون مُخطئَاً . وَمَا إِلَىٰ ذَاك »[1] .

وَهَذِهِ سَبِيل مَن يَشعر مِن نَفْسه أَنَّه عُرْضَة للخطَأ وَالسَّهو . ومِن النَّاس مَن لاَ حُجّة لَهُ إِلاَّ السَّيف وَالنَّطع ، كَالذي خَطَب بَيْنَ يَدي مُعَاوِيَة حِينَ طَلَب مِن النَّاس أَنْ يُبَايعُوا وَلَدهُ يَزيد . قَالَ الخَطِيب : « إِنْ مَاتَ هَذَا فهَذَا ، وَمَن أَبىٰ فَهَذَا »[2] . وَأَرَاد فِرْعَون مَصْر أَنْ يَقتل نَبيّ الله مُوسىٰ ، لاَ لشَيء إِلاَّ لأَنّه قَالَ لهُ : « اللهُ رَبّي لاَ أَنْتَ » .

وَنَقتَطف مِن أَقْوَال الغَربيّين فِي ٱلْقُرْءَان الكَلمَات التَالِيَة :

قَالَ المُستَشرق سيل : « أَنَّ أُسلُوب ٱلْقُرْءَان جَمِيل وَفيَّاض ، ومِن العَجب أَنّه يَأسر بأُسلوبه أَذهَان المَسيحيِّين ، فَيَجذبهُم إِلَىٰ تِلاَوَته ، سوَاء فِي ذَلِكَ الَّذِين آمَنُوا بِهِ أَم لَم يُؤمنوا بهِ وَعَارضُوه » .

---

(١) مِن الخَير أَنْ نَنقُل قَاعدَة فِي عِلم الأُصُول وهِي : إِذَا تَعَارَض دَليلاَن فِي مَوضُوع وَاحد يـنظر فَإنْ تَسَاويَا فِي القوّة مِن جَمِيع الجِهَات أَسقَط كُلّ وَاحد مِنهُمَا الآخر ، وَتَكُون النّتِيجَة وَكَأنّه لاَ دَليل يَصلُح لإثبَات أَو نَفي . وإِذَا كَان أَحدهُمَا أَقوىٰ مِن الآخر أَسقَط القَوي الضَّعِيف ، وَبَقي وَحدَه حُجّة بلاَ مُعَارض . وَهَذَا المَبدَأ يَعمَل بِهِ كُلّ مَن طَلَب الحَقّ لوَجه الحَقّ ، وَأَنصف مِن نَفْسه كَمَا أَنتَصف لهَا . أَمَّا مَن يُجَادل ليَرىٰ النَّاس أَنَّ مَرجع القَوْل إِلَيهِ وَحدَه دُون سوَاه فَلاَ بُدَّ أَنْ يَجر القَصد إِلَىٰ الضَّعف وَالتَّعنُّت والقَوْل بغَير عِلم ، وإِنْ دَرَس العُلُوم وَأَلَف المُجلّدَات . (مِنهُ ﷺ) .

(٢) قَد اتَّضح ذَلِكَ عِندَمَا أرسل إِلَيهِمْ فِي أَخذ البَيْعَة لِيَزِيد وَلِيّاً لِلعَهد قَام يَزِيد بن المُقَنع فَلَخص المُوقف الأُموي مِن الخِلاَفَة بعبَارَة وَجِيزَة ، ولكنّها بَليغَة قَال : « أَمِير المُؤمِنِين هَذَا ، وأَشَار إِلَىٰ مُعَاوِيَة ... فإنْ هَلك فهَذَا ، وأَشَار إِلَىٰ يَزِيد ... فَمَن أَبَىٰ فهَذَا ، وَأَشَار إِلَىٰ سَيفه ! ... فقَال لهُ مُعَاوِيَة : « إِجلس فإنّك سَيّد الخُطَبَاء » . أنظر ، العِقد الفَرِيد : ٥ / ١١٢ ، طَبعة سَنَة ١٩٥٣ م ، دَار الكُتب العِلمِية بَيرُوت ، و : ٢ / ٣٠٢ ـ ٣٠٤ ، الكَامِل لِابْن الأَثِير : ٣ / ٢١٤ ـ ٢١٦ و ٥١١ ، الإِمَامَة والسِّيَاسَة تَحقِيق الشِّيري : ١ / ١٩٣ ، البَيَان والتَّبيِين : ١ / ٣٠٠ .

وقَالَ هرشفلد : « لَيْسَ للقُرءَان مَثِيل فِي قوّة إقنَاعَه وَبلاَغتَه وَتـركِيبَه ، وإلَـيهِ يَرجع الفَضل فِي إزدهَار العُلُوم بكَافّة نوَاحِيها فِي العَالَم الإِسْلاَمي » .

وقَالَ استنجاس هُوز : « يُمكننَا أنْ نَقُول بكُلّ قوّة أَنَّ ٱلقُرْءَان أَعْظَم مَا كُتب فِي تَأرِيخ البَشَر . . . ومِن هُنا لاَ يَصح أنْ نَقِيس ٱلقُرْءَان بأَي كِتَاب آخر . . . لَقَد نَفَذ إِلَىٰ قُلُوب سَامعِيه بكُلّ قوّة وَإقنَاع ، وَٱجتَث مِن ثنَايَاها كُلّ مَا كَان مُتأصّلاً فِيهَا مِن وَحشيَّة وَٱنتزَاع كُلّ هَمجيَّة مِمَّا أَوجَد ببلاَغَته وَبسَاطَته أُمّـة مُـتَمدنَة مِـن أُمّـة مُتوَحشَة مُتبَربرَة » .

وقَالَ غوته الشّاعر الأَلمَاني الكَبِير : « أَنَّ ٱلقُرْءَان سَيُحَافظ عَلَىٰ تَأثِـيره إِلَـىٰ الأَبد ، لأَنَّ تَعَالِيمَه عِمليَّة » .

وقَالَ جاستون : « إحتَوىٰ ٱلقُرْءَان عَلَىٰ أُسّس تَستَند إِلَيهَا حضَارَة العَالَم » .

وَجَاء فِي دَائرَة المَعَارف البرِيطَانيَّة : « أَنَّ مُحَمَّداً إِجْتَهد فِي الله وفِي نجَاة أُمّته ، وَبالأَصَح إِجْتَهد فِي سَبِيل الإِنْسَانيَّة جَمعَاء »[1] .

---

(١) أُنظر ، كِتَاب التَّعايُش الدِّيني فِي الإِسْلاَم لمَحمُود العَزب : ٤٩ . (مِنْهُ ﷺ) .

مُحَمَّد ﷺ فِي بَعْض خَصَائِصه

جَاء فِي كُتب السِّيَر: أَنَّ الله خَصَّ مُحَمَّداً ﷺ بفضَائِل لَمْ تَكُن لنَبي قَبْلَه، وَلَن تَكُون لإِنْسَان بَعدَه. وَسَرَد بَعْض الرُّوَاة هَذِهِ الخصَائِص فَبَلغَت مِئَة وَخَمسِين، وَسوَاء أَصحَّ هَذَا القَوْل أَم كَان مُبَالغاً فِيهِ فَإِنَّ مُحَمَّداً عَاش كَمَا عَاش سَائِر النَّبِيِّين وَعَامّة النَّاس فِي عَهْده، لَمْ يَدخُل مَدرَسَة، أَو يَجلُس إِلَىٰ فَيلسُوف، وَأَدّىٰ الرِّسَالَة كَمَا أَدّاهَا الأَنْبيَاء مِن قَبل، وَٱحتَمل فِي سَبِيلهَا أَلوَاناً مِن الجُهد وَالمَشقة كَمَا ٱحتَملُوا وَصَبر كَمَا صَبرُوا.

ولَكن إِذَا رَجعنَا إِلَىٰ آثَار النَّبِيِّين المَوجُودَة بَيْنَ أَيدِينَا وَجَدنَا الفَرق كَبِيراً بَيْنَ مُحَمَّد وغَيْرَه مِن الأَنْبيَاء:

١ ـ لمُحَمَّد شَرِيعَة ثَابتَة الأُصُول كَاملَة الأَركَان تَشْمل أَحكَامهَا شُؤون ٱلْحَيَاة بشَتّىٰ فرُوعهَا وَنوَاحِيها. وَقَد ٱعتَرف البَعِيد قَبل القَرِيب بأَنَّها تَسْتَجِيب لتَطَور ٱلْحَيَاة، وَتَسمُو بالفَرد والجَمَاعَة إِلَىٰ الأَفضَل وَالأَكمَل.

٢ ـ نَزل عَلَىٰ مُحَمَّد كِتَاب مِن الله سُبْحَانَه تَحدّىٰ كُلّ جِيلٍ مَضىٰ مُنذ نُزُوله، وَيَتحدّىٰ كُلّ جِيلٍ يَأتي بأُسلُوبه وَبَيَانه، وَبمَا يَحوِيه مِن المَعَاني وَالحَقَائِق فهُو كِتَاب الدَّهر الَّذي يُعرّف النَّاس بحَقِيقَتهم وَمَصِيرهم، وبأَسرَار الكَون وَعَظَمَته.

٣ ـ دِين مُحَمَّد للنَّاس كَافّة، ولَيْسَ لشَعبٍ دُون شَعَب، كَدِين بَني إِسْرَائِيل

الَّذين يَعبدُون رَبّاً يَمنَحهُم القوّة وَالغلَبَة عَلَىٰ النَّاس أَجمَعِين، وَيُشَرّع لهُم مِن الأَحكَام مَا يَستَحلُون بِهَا الدّمَاء وَالأَموَال. كَمَا أَنَّه لَم يُزَهّد النَّاس فِي هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاة، وبَيَّنَ لهُم قُصوراً فِي الجنّة، وَيُوزع الثَّوَاب عَلَىٰ أَهْل القبُور فقَط، لَم يَجْعَل مِن الشَّيطَان وَقَيصَر شَرِيكَين لله، فَيُعطِيه الآخرَة، لأَنَّهَا طُهر، وَيُعطِيهمَا الدُّنيَا لأَنَّهَا رِجْس.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾[1]؛ وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2].

وَلاَ شَيء للشَّيطَان وَقَيصَر، وَلاَ للشّركَات وَالحُكّام. وَمَا كَان لله فهُو للنَّاس، وِلذَا خَاطَبهُم بقَولَه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾[3]؛ وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾[4]؛ وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾[5].

٤ ـ لاَ نَعْرف أَحداً مِن الأَنبيَاء وَغيرهم، دَعَا إِلَىٰ العِلْم وَرغّبت فِيهِ وَرَفع مِن شَأنَه وَحثَّ أَتبَاعَه عَلَيهِ كَمَا دَعَا إِلَيهِ مُحمَّد، فَمِن أَقوَالَه:

«لَيسَ مِنّي إِلَّا عَالِم أَو مُتعلّم»[6]، لأَنَّ المُتَدَين بدُون عِلْم لاَ حَصَانَة لَه، فَقَد

(١) ٱلرَّعد: ٣١.
(٢) ٱلتَّوبَة: ١١٦.
(٣) ٱلبَقَرَة: ١٦٨.
(٤) ٱلمَائِدَة: ٨٧.
(٥) ٱلمُلك: ١٦.
(٦) أنظر، الفِرْدَوْس بمَأثُور الخِطَاب: ٣/١٤٩ ح ٥٢٧٩، لسَان المِيزَان: ٣/٣٣٠ ح ١٣٧٢، رِيَاض الصَّالحِين للنَّووي: ٤٩، الجَامع الصَّغير: ٢/٤٦٨ ح ٧٦٩٩، كَنز العُمّال: ١٠/١٥٦ ح ٢٨٨٠٤.

يَستَجِيب إِلَىٰ غُرُور الشَّيطَان، وَبَاطلَه المُمَوّه و

وقَالَ: «مَن ظَنَّ أَنَّ للعِلْم غَايَة فَقَد بَخَسَه»[١]. أَي أَنَّ العِلْم لاَ نهَايَة لَهُ، وَيَدل هَذَا القَوْل عَلَىٰ بُعد فِي النَّظر لاَ يُدرَك مَدَاه.

وَقَالَ: «لَيسَ الحَسَد مِن خُلق المُؤْمِن إِلَّا فِي طَلَب العِلْم»[٢].

وَقَالَ: «مُجَالسَة العُلَمَاء عِبَادَة»[٣].

وَقَالَ: «عَالم يُنْتَفع بِعِلْمه أَفضَل مِنْ سَبعِين أَلف عَابد»[٤].

وَقَوْلَه: «الحَسَد فِي طَلَب العِلْم مِن خُلق المُؤمِن»[٥]. دَعوَة صَرِيحَة للتّنَافس وَالمُبَارَاة عَلَىٰ صَعِيد الحَاجَات الثّقَافيّة. وَيُشِير بقَولَه: «يُنْتَفع بعِلمه»، إِلَىٰ العُلُوم العِمليّة الَّتي تُثمر ثَمرَاً مَحسُوسَاً مَلمُوسَاً. أَمّا «العُلُوم» الَّتي لاَ تَتجَاوز الكَلاَم فَهي نَافلَة وَفضُول.

رُوي أَنَّ النَّبيّ دَخَل المَسجِد، فَإِذَا جَمَاعَة قَد أَحَاطُوا برَجُل فَقَال: مَا هَذَا؟ قِيل: عَلاّمَة.

قَالَ: وَمَا العَلاَّمَة؟.

قِيلَ: أَعْلَم النَّاس بأَنسَاب العَرَب.

قَالَ: «ذَا عِلْم لاَ يَنْفَع مَن عَلمَه، وَلاَ يَضُرّ مَن جَهِلَه»[٦].

---

(١) أنظر، جَامِع بَيَان العِلْم وَفضلَه: ١ / ١٠٩، مُنيَة المُرِيد: ٢٥٩.

(٢) أُنظر، غُرَر الحِكَم: ٢ / ٥٩٣ ح ٣، عُيُون الحِكَم وَالموَاعظ: ٤٠٩.

(٣) أُنظر، كَنز العُمّال: ١٠ / ١٤٨ ح ٢٨٧٥٦، مُسنَد الإِمَام الرِّضَا: ١٦٤ ح ٨١.

(٤) أُنظر، الكَافِي: ١ / ٣١ ح ٨، تُحف العُقول: ٢٩٣، مُنيَة المُرِيد: ٢٩، بِصَادر الدَّرجَات: ٢٦.

(٥) أُمظر، كَنز العُمّال: ١٠ / ١٨٠ ح ٢٨٩٣٧، كَشف الخَفَاء: ٣ / ٢٩٤ ح ٢٦٨٥.

(٦) أُنظر، التَّرَاتِيب الإِدَارِيَة: ٢ / ٣٠١، الأَنسَاب للسَّمعَاني: ١ / ٩، الكَافِي: ١ / ٣٢ ح ١.

أَمَّا قَوْلَه : « اطلبُوا العِلْم وَلَو بالصِّين »[١] . . . .

وَقَالَ : « الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ ، فَخُذِ الْحِكْمَةَ وَلَوْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ »[٢] .

وَفِي روَايَة ثَانيَة : « خُذْ الحِكمَة ، وَلاَ يَضرك مِن أَي وعَاء خَرَجت »[٣] .

وَفِي ثَالثَة : « خُذِ الْحِكْمَةَ أَنَّىٰ كَانَتْ ، فَإِنَّ الْحِكْمَةَ تَكُونُ فِي صَدْرِ الْمُنَافِقِ فَتَلَجْلَجُ فِي صَدْرِهِ ، حَتَّىٰ تَخْرُجَ فَتَسْكُنَ إِلَىٰ صَوَاحِبِهَا فِي صَدْرِ الْمُؤْمِنِ »[٤] .

أَمَّا قَوْلَه هَذَا فَدَلِيل وَاضح عَلَىٰ أَنَّ العِلْم لاَ يُجَنَّس بدِين وَلاَ بلُغَة أَو وَطَن ، وأَنَّ عَلَىٰ طَالبِهِ أَنْ يَسعَىٰ وَرَاءَه أَنّي يَكُون ، بصَرف النَّظر عَن دِين صَاحبَه وَبَلدَه وَأَخلاَقه . وَبَعد فَهَل يُدرك هَذِهِ الحَقَائق ، وَيَدعُو إِلَيهَا رَجُل أُمّي عَاش فِي الجَاهليَّة الجَهلاَء إِذَا لَمْ يَكُن نَبيّاً ؟ ! لَقَد طَار العِلْم إِلَىٰ القَمَر وَتَجاوَزه إِلَىٰ مَا لاَ نهَايَة ، وَمَا زَال جَمهرَة مِن النَّاس يَتَنكرُون لهَذِه الحَقَائِق ، وَيَنصبُون العَدَاوَة وَالبَغضَاء لمَن يَجهَر بهَا .

لَقَد فُتح مُحَمَّد النَّوافذ للعَرب والمُسلِمين عَلَىٰ عُلُوم العَالَم كلّها ، وَالأَفكَار كلّها بغَير قَيد وَلاَ شَرط لأَنَّه يَعْلَم عِلْم اليَقِين أَنَّ العُلُوم هِي الأَسَاس الأَوّل للنَّجَاح ، وَالأَدَاة الفعَّالَة للتَّطور . وَقد وجدَت دَعوَته إِلَىٰ العِلْم صَدَاهَا بَيْنَ أَتبَاعَه ، وَبفَضلهَا انْتهت إِلَيهم « زَعَامَة العَالَم كلّه » كَمَا قَالَ « دربير » المُدَرس

(١) أنظر ، كَنز العُمَّال : ١٠ / ١٣٨ ح ٢٨٦٩٧ ، شَرح أُصول الكَافِي : ١ / ١٥٧ ، فَيض القَدِير : ١ / ١٦٨ ح ١١١٠ و ١١١١ ، وَسَائِل الشّيعَة : ٢٧ / ٢٧ ، الجَامِع الصَّغِير للسُّيوطي : ١ / ٤٤ ، البَحر الرَّائق : ٤ / ٢١ .

(٢) أنظر ، نَهج البَلاَغَة : الحِكْمَة (٨٠) .

(٣) أنظر ، خُطَب نَهج البَلاَغَة : ٤ / ١٨ ، سُنن ابن مَاجَه : ٢ / ١٣٩٥ ح ٤١٦٩ ، سُنن التِّرمذي : ٤ / ١٥٥ ح ٢٨٢٨ .

(٤) أنظر ، نَهج البَلاَغَة : الحِكْمَة (٧٧) .

بإحدىٰ جَامعَات الْوِلاَيَات المُتحدَة.

وَلَو أَخلَص المُسْلمُون لتعَالِيم نَبيّهم، وَٱستَمرُوا عَلَىٰ الخُطّة الَّتي رَسَمهَا لدَامَت لهُم الزّعَامَة العِلميَّة إلَىٰ الأَبَد، وَلَوزعُوا الفَنيِّين، والخُبرَاء عَلَىٰ أَهْل الشَّرق والغَرب، وَلمَا ٱستَجدُوا المُسَاعدَات وَالمَعُونَات مِن هُنا وهُنَاك، لَو جَاهَد المُسْلمُون فِي الله، وَٱبتَعدُوا عَن أعدَائه وَأَعدَائهم وَلَم يَتّخذُوا مِنْهُم بطَانَة وَأَوليَاء، لَو تنَاهوا عَن المُنْكَر وَالشّقاق كَمَا أَمَرهُم الله وَرَسُوله لمَا كَان للإِستعمَار وَالصَّهيونيَّة فِي بلاَدهِم عَينٌ وَلاَ أَثَر. لَو عَملُوا بقَول الرَّسُول الأَعْظَم: «لاَ تَجمعُوا مَا لاَ تَأكلُون، وَلاَ تَبنُوا مَا لاَ تَسكنُون»[1]. لِمَا سَمع العَالَم بـلَفظ الإِشْتِرَاكيَّة وَأَحزَابهَا وَأَقطَابِهَا.

أَنَّ النُّصُوص وَالقوَانِين تَظل جَامدَة وَأُمُوراً شَكليَة حَتَّىٰ تُطَبق عَمليَّاً وَتَتحوّل إلَىٰ وَقَائِع. ولَوْلاَ أَنْ تَجد الإِشْتِرَاكيَّة أُمّة تُنَاصرهَا وَتُمَارسهَا لكَانَت مُجَرد كَلمَات نَقرأهَا كَمَا نَقرَأ جمهُوريَّة إفلاَطُون، وَمَدينَة الفَارَابي. إنَّ النُّصُوص أَشبَه بمُخطَط لعمَارَة لاَ يَظهَر أَثرَه إلَّا بَعد البِنَاء وَالإِنتهَاء مِن العَمَل.

قَالَ الرَّسُول الأَعْظَم: «مَن سَرَّه بَحبُوحَة ٱلجَنَّة فَليَزَم الْجَمَاعَة»[2]... «ومَن

---

(١) أنظر، كَنز العُمّال: ١/ ٢٧٥ ح ١٣٦٣، تَأريخ دِمَشق: ٤١/ ٢٠٠، مُسنَد الشّهاب: ١/ ٤٥ ح ٥٩١، الجَامع الصَّغِر: ٢/ ٢٩٨ ح ٦٤٣٣، شَرح نَهج البَلاَغَة لابن أبي الحَدِيد: ٦/ ٢٣٣.

(٢) أنظر، كَنز العُمّال: ١/ ٢٠٧ ح ١٠٣٣، الفَائِق فِي غَريب الحَدِيث: ١/ ٧٣، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لابن أَبي ٱلحَدِيد: ٨/ ١٢٣، مُسنَد الشّهاب: ١/ ٢٥٠ ح ٤٥٠، المُعْجَم الأَوسَط: ٧/ ١٩٣، مُنْتَخَب مُسْنَد عَبد بن حَمِيد: ٣٧، المُصَنَّف لعَبدالرّزاق الصَّنعاني: ١١/ ٣٤١، مَجْمَع الزّوَائد: ٥/ ٢٥٥، سُنَن التّرمِذي: ٣/ ٣١٥، مُسْنَد أَحمَد: ١/ ٢٦، كتَاب المُسنَد للشَّافعي: ٢٤٤.

خَرَج قيد شِبْر عَن الْجَمَاعَة فَقد خَلع رَبقة ٱلإِسْلاَم عَن عُنقه »[١] ... « ومَن فَارق الْجَمَاعَة مَات مِيتَة جاهْلِية »[٢]. يُشِير بهَذَا إِلَىٰ أَنَّ أَيَّة فِكرَة لاَ تَعْتَمد عَلَىٰ جَمَاعَة مِن النَّاس تُؤمِن بِهَا وَتُدَافع عَنْهَا مُحكُوم عَلَيهَا بالفَشَل. وَهَذِهِ النَّظرِيَة مِن أَحدَث النَّظريَّات الَّتي ٱكتُشفت فِي عَصرنَا هَذَا. وَكَم فِي تَعَالِيم مُحمَّد مِن أَفكَار لَو كُشف عَنْهَا الغطَاء، وَقُورنَت بالأَفكَار يَومذَاك، لتَبيَّن أَنَّهَا سَبَقت عَصرهَا بآلاَف السِّنِين.

يَقُول عُلمَاء التَّربيَة: إِنَّ الإِنْسَان نَتيجَة لعوَامل كَثِيرة، مِنْهَا الزَّمَان وَالمكَان، وَتَقالِيد مَن يُعَاشر، بَل مِنْهَا غذَاؤه وَكسَاؤه، وَالهوَاء الَّذي يُستَنشَق، وَالصَّوت الَّذي يُسمَع، وَالضَّوء الَّذي يُرىٰ، وَمَا إِلَىٰ ذَاك، ولِذَا إِذَا أَرَادُوا مَعْرفَة شَخص عَلَىٰ حَقِيقَته دَرسُوا مِهنَته، وَبِيئَته، وَالظُّروف المُحيطَة بِهِ.

ومُحمَّد كَان غَريباً عَن قَومِهِ فِي أَخلاَقه وَأَفكَاره. كَانُوا يَعبدُون الأَوثَان، وكَان أَبغَض النَّاس لهَا[٣]، وكَانُوا يَظلمُون وَيُكذبُون، وَلاَ يَتورعُون عَن المُنْكَرات

(١) أنظر، المَجمُوع: ١٩ / ١٩٠، المَبسُوط للسَّرخسي: ٧ / ٢٦٣، رَوضَة الطَّالِبين: ٧ / ٢٧، مُغني المُحتَاج: ٤ / ١٢٤، حَوَاشِي الشّروَاني: ٩ / ٦٥، كَشف القنَاع: ٦ / ٢٠٦، إِعَانَة الطَّالِبين: ٤ / ١٧٨، نَيل الأَوطَار: ٧ / ٣٥٧، المَحَاسِن: ١ / ٩٤، الكَافِي: ٥ / ٤٠٥ ح ٤.

(٢) أنظر، مُنْتَهىٰ المَطلب للعلاَمَة الحِلي: ٢ / ٩٨٣، سُبل السَّلاَم: ٣ / ٢٦١ ح ٥، نَيل الأَوطَار: ٧ / ٣٥٦ ح ٣١٨١، سُنن البَيْهَقِيّ: ٨ / ١٥٧، تَيسِير الوصُول: ٢ / ٣٩، صَحِيح مُسْلِم: ٦ / ٢١.

(٣) قَبلَ أَنْ يَبلغ مُحمَّد ﷺ سنّ الرِّجَال، قَالَ لهُ البَعْض، يَا غُلاَم أَسأَلك بحَقّ اللاَّت وَالعُزىٰ إِلاَّ أَخبَرتَني عَمَّا أَسأَلك؟.

فَقَالَ لهُ مُحمَّد: لاَ تَسأَلني باللاَّت وَالعُزىٰ: فوَالله مَا بَغَضتُ شَيئاً بُغضَهُما.

وكَان بَيْنَه وبَيْنَ رَجُل إِختلاَف فِي شَيء، فَقَال لهُ الرَّجُل: إِحلف باللاَّت وَالعُزىٰ؟.

فَقَال لهُ: مَا حَلَفتُ بهمَا قَطّ. وَأَنّي أَعرض عَنْهُما. (مِنْهُ ﷺ).

أُنظر، السِّيرَة النَّبويَّة لاِبْن هِشَام: ١ / ١١٧، السِّيرَة النَّبويَّة لِابن كَثِير: ١ / ٢٤٥، دَلاَئِل النُّبوَّة

وَالفوَاحش ، وكَان أَشدّ النَّاس نُفرَة مِن الظُّلم ، وَالكَذِب ، والمُـنْكَر ، وَالفَـحشَاء ، ومِن كُلّ مَا يُشِين حِينَ أَسمَوه الصَّادِق الأَمِين . وكَانُوا يَعيشُون فِي عُزلَة عَن الأُمَم وَأفكَارها وَعُلومهَا ، حَتَّىٰ تَغلبَت عَلَيهم البدَاوَة بأَجمَع مَعَانِيها ، وَكَان هُو مَعْدن العُلُوم وَمَصدرهَا . وإذَا كَان فِكر الإنْسَان لاَ يَتجَاوز حُدُود المَعَارف فِي عَـصرهِ مَهْمَا سَمَت موَاهبَه وَعَبقرِيَته ، فَمِن أَين هَذِهِ العُلُوم فِي ٱلْقُرْءَان والحَدِيث ؟ ! .

رُبَّمَا يُوجَد فَرد أَو أَفْرَاد يَمتَازُون عَن بِيئَتهِم بالوَعي وَالإِدْرَاك ، فَيَنفرُون ـ مَثلاً ـ مِن الرِّق وَالعبُوديَّة ، وَيُحبُون لغَيرهِم مَا يُحبُون لأَنْفسهِم ، ورُبَّمَا يُوجَد مِن العُبَّاد وَالزُّهَاد مَن يُخَالِف قَومَه فِي التَّقالِيد وَالعَادَات ، فَـيَعتَزل عَـنْهُم فِـي صَـومعَة لاَ يَبرحهَا مَدىٰ ٱلْحَيَاة ، يُصَلي فِيْهَا وَيَصُوم ، وَلاَ يَعرف عَن شُؤون النَّاس كَثِيراً وَلاَ قَلِيلاً ، أَمَّا أَنْ يَعِيش رَجُل فِي بِيئَة أَبعَد مَا تَكُون عَن الحضَارَة وَالمَدنيَة ، ثُمَّ يُدرك أُسّس العُلُوم ، وَأُصُول التَّشرِيع ، وَأَسرَار الحِكمَة ، وَلاَ يَشتَبه عَلَيهِ الحَـقّ مَـهْمَا خَفي ، وَيَجمَع بَيْنَ القُلُوب المُتنَافرَة ، وَيُوجِد أُمّة مِن العَدَم تُقوم الأُمَم ، وَتَحدث فِي العَالَم العَجب العُجَاب ، أَمَّا هَذَا فَلاَ يَبلغ هَذِهِ المَنزلَة إلَّا إذَا نَطَق بكَـلمَات الله وَعِلمَه وَحِكمَته .

↔ للإِصبهَاني : ٢٣٠ ، عُيُون الأَثَر لِابْن سَيِّد النَّاس : ١ / ٦٢ ، البدَايَة وَالنّهايَة : ٢ / ٣٤٦ ، سُـبل الهُـدىٰ وَالرَّشَاد : ١ / ٩ ، الطَّبقَات الكُبرىٰ : ١ / ١٥٤ .

مُحَمَّد ﷺ خَاتَم النَّبيِّين

جَاء فِي الآيَة : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[1].

وَنَتَسَاءل : لمَاذَا خُتِمَت النُّبوّة بـمُحَمَّد ؟ ! وَمَا هُو السَّبَب لهَذَا الإِحتكَار وَالْإِستئثَار ؟ ! وإذَا حَكَزم العَقْل بضَرُورَة البِعثَة للنَّاس كَافَّة ، وَحَاجَتهُم المَاسَّة إلَيهَا ، كَمَا سَبَق ، فَإنَّ حُكمَه هَذَا لاَ يَختَص بزَمَان دُون زَمَان وَجِيل دُون جِيل .

وَالجَوَاب : أَنَّ مُهمَّة النَّبيّ هدَايَة النَّاس إلَىٰ الَّتي هِي أَقوَم ، وَإرشَادهُم بأَنَّ لهُم خَالقاً عَظِيماً ، مِن حقّه أَنْ يُعبد ويُطاع ، وأَنَّهُم مَبعُوثُون وَمَسؤولُون ، وأَنْ يُبلغهُم مَا يَحتَاجُون إلَيهِ مِن القوَانِين فِي معَاشهِم وَمُعَامَلتهم وَسَائِر أَفعَالهُم ، وأَنْ يُلقي الحُجَّة عَلَيهِم بالتَّبلِيغ : ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[2].

وَهَٰذَا ٱلْقُرْءَان فِيهِ بَلاَغ مِن الله وَنَصَائح للنَّاس ، وَتبيَان كُلّ شَيء : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[3].

---

(١) ٱلْأَحْزَاب : ٤٠.

(٢) ٱلنِّسَاء : ١٦٦.

(٣) ٱلنَّحْل : ٨٩.

وَمَا دَام ٱلْقُرْءَان قَائِماً، وَخَالداً، وَلَم تَنلهُ يَد التَّحرِيف، وَالتَّقلِيم، وَالتَّطعِيم فبَأي شَيء يَأتي النَّبيّ الجَدِيد؟! فَإِنْ جَاء بمَا يُوافق لَم يَكُن إِلَيهِ حَاجَة، أَو بمَا يُخَالِف وَجَب رَدّه وَتكذيبه، لأَنَّ ٱلْقُرْءَان تَام كَامل، وكُلّ مَا فِيهِ مِن العقَائِد وَالمَعَارف والأَخلاَق وَالأَحكَام حَقّ وَصِدق، فدِين مُحَمَّد وَشَريعَته، وَتعَالِيمَه قَد بَلَغت الغَايَة وَالكمَال، وَالزّيَادة عَلَىٰ التَّمام نُقصَان، كَالإِصبع السَّادسَة فِي الكَفّ وكُلّ ضَوء مَع نُور الشَّمْس عَدَم.

ثُمَّ نَسأَل مَن يَستَكثر عَلَىٰ مُحَمَّد أَنْ تُختَم بِهِ النُّبوّة، وعَلَىٰ الإِسْلاَم أَنْ تَنْتَهي بِهِ الأَديَان: هَل مِن أُمّة ٱتّخذَت الإِسْلاَم دِيناً، وطبّقت تَعَالِيمَه كَمَا يَجب فعَاقَهَا عَن التَّقدم وَالنّهوض فِي سَبِيل ٱلْحَيَاة؟!.

وَعَلَىٰ الرَّغم مِن أَنَّ أَطفَال المَدَارس يَعلمُون أَنَّ الدُّنيَا بكَاملهَا والأَجيَال القَدِيمَة وَالحَدِيثَة قَد ٱستفَادَت مِن الإِسْلاَم حَتَّىٰ الَّذِين لَم يَعتَنقُوه وَيُؤمنُوا بِهِ، لأَنَّه نُور، وَالنُّور يُضيء طَرِيق السَّالكِين مَهْمَا كَان لَونهُم، والشَّمْس تَشرُق عَلَىٰ المُؤْمِنِين وَالجَاحدِين سوَاء بسوَاء، عَلَىٰ الرَّغم مِن ذَٰلِكَ فَإِنّنا نَدع الجوَاب لغَيرنَا، لغَير المُسْلِمِين مِن كبّار الأُدبَاء، والفَلاَسفَة، والعُلمَاء، قَالَ غوتَه الأَلمَاني الَّذي ٱعتَرفَت أُوروبَا بزعَامَته الأَدبيَة: «أَنَّ مُحَمَّداً رَجُل خَارق للعَادَة، وأَنَّه نَبي لَيْسَ بشَاعر»[1]. وقَالَ هـ. ج. ويلز الإِنچلِيزي الشَّهير فِي كتَابِهِ «مُوجز تَأرِيخ العَالَم» عِندَ كَلاَمه عَن العَرب «كَان العِلْم يَثب عَلَىٰ قَدَمَيه وَثباً فِي كُلّ مَوضع حَلّ فِيهِ الفَاتح العَربي».

وقَالَ نهرُو رَئِيس وزرَاء الهِند فِي كتَابه «لَمحَات مِن تَأرِيخ العَالَم»: «كَان

---

(١) أُنظر، كِتَاب التَّعايُش الدِّيني فِي الإِسْلاَم لمَحمُود العَزب: ١١٣. (مِنْهُ ﷺ).

مُحَمَّد وَاثقاً بنَفْسه ورسَالته. وَقد هَيأ بهَذِهِ الثّقة، وَهَذَا الإِيمَان لأُمَّته أَسبَاب القوّة وَالعزّة وَالمُتعَة، وحوّلهَا مِن سُكّان صَحرَاء إِلَىٰ سَادَة يَفتَتحُون نِصف العَالَم المَعْرُوف فِي زَمَانهم، كَانَت ثقَة العَرب عَظِيمَين. وَقَد أَضَاف الإِسْلاَم إِلَيهمَا رسَالَة الأُخوّة، وَالمُسَاوَاة، والعَدْل... وَثَب الشّعب العَرَبي بنَشَاط فَائِق أَدهَش العَالَم وَقلَبه رَأساً عَلَىٰ عَقب، وأَنّ قصّة انتشَار العَرب فِي آسيَا وَأُوروبَا، وَأَفريقيَا، وَالحضَارَة الرَّاقيَة، وَالمَدنيَة الزَّاهرَة الَّتي قَدّمُوهَا للعَالَم هِي أُعجُوبَة مِن أُعجُوبَات التَّأرِيخ... لَقَد امتَازُوا بالرُّوح العِلميَّة الإِستطلاَعيَّة مِمَّا يَجعَلهُم يَدعُون بجَدَارَة آبَاء العِلْم الحَدِيث».

وَكُلّ كَلاَم بَعد هَذَا نَافلَة وَفضُول سِوىٰ هَذِهِ الجُملَة، وهِي أَنَّ اهتمَام العَرب بالعِلم مُنبَثق مِن أَصل العَقيدَة الإِسْلاَمِيَّة الَّتي رَفعت العِلْم إِلَىٰ أَسمىٰ المَرَاتب.

وقَالَ كَاتب مِن كُتّاب هَذَا العَصْر: «أَنَّ الأَنْبيَاء كَانُوا مُجَدَدِين حقاً، لأَنَّهُم ثَارُوا عَلَىٰ القَدِيم، غير أَنَّ أَتبَاعهُم المُتمرسِين عَلَىٰ فَهم الدِّين وَنَشر تَعَالِيمَه رَجعيُون، لأَنَّهُم حَافظُوا عَلَىٰ ذَلِكَ القدِيم مَع مُرُور الزّمن، بهَذَا استحَال الدِّين مِن أَنبيَائه التَّقدميِّين إِلَىٰ رجَالَه الرَّجعيِّين، لأَنَّ الفِكْرة الَّتي تَكُون جَدِيدَة بالقيَاس إِلَىٰ عَهدهَا تُصبح قَدِيمَة بالنِّسبَة إِلَىٰ مَا بَعدهَا.

وَالجَوَاب: أَنَّ رِجَال الدِّين تَقدّميُون أَيْضاً إِذَا سَارُوا بسِيرَة أَنبيَائهم وَقَامُوا عَلَىٰ سُنَنهم، وَلَم يَتّخذُوا مِن دِينهم أَدَاة للكَسب، وَيَستَغلوا عوَاطف النَّاس الدِّينيَّة لصَالح الحُكّام، والشّركَات، وَالإِقطَاعيِّين. لقَد جَاء الأَنْبيَاء بالحَقّ وَأَقرُوا مِن حَيث المَبدَأ كُلّ جَدِيد مُفيد كَان ويَكُون والحَق لاَ يُقَاس بمقَاييس العصُور والأَجيَال، فهُو كالنُّور، وَالمَاء، وَالهوَاء جَدِيد أَبداً وَدَائماً، فَمَن آمَن بِهِ وَعَمل لَهُ

فهُو مُجَدّد وَتَقَدُّمي دِينيّاً كَان أَو زَمنيّاً ، ومَن عَانَده فهُو رَجعي خُرَافِي كَائناً مَن كَان . أَنَّ الرَّجعيَّة لَيْسَت وَقفاً عَلَىٰ رِجَال الدِّين ، وَلاَ التَّقدّميَّة مُنحصِرَة بغيرهِم ، وَإِذَا كَان لبَعض رِجَال الدِّين مِن ذَنْبٍ فَهو الجَهل برُوحهِ وَحَقِيقَته ، أَو التَّضلِيل وَالتَّلبِيس عَلَىٰ الأَبريَاء لمَآرب يَأبَاها الدِّين والإِنْسَانيَّة .

وَمرّة ثَانيَة إِلَىٰ النَّبيّ الجَدِيد .

لَقَد أَقرّ الإِسْلاَم مَبدَأ التَّوحِيد ، والعَدْل فِي العَقِيدَة . وَنزّه الخَالِق عَن كُلّ مَا يُشِين ، وَأَثبَت لهُ جَمِيع المعَاني الَّتي تُعبّر عَنْهَا الأَسمَاء الحُسنىٰ مِن القُدرَة ، وَالحِكمَة ، والعِلْم ، والغِنىٰ ، وَالحُبّ ، وَالرَّحمَة ، وَالجُود ، وَالمَغفرَة ، وَالعِزّة ، وَالكرَامَة ، وَمَا إِلَىٰ ذَاك مِن صِفَات التَّقدِيس ، وَالتَّعظِيم الَّتي يُجِيز العَقْل أَنْ نَصف بِهَا الذَّات الإِلٰهيَّة ، كَمَا نزّه الأَنْبيَاء عَن الجَهل ، وَالخَطأ ، وَالشَّهوَات ، وَأَثبَت لهُم جَمِيع صِفَات الجَلاَل ، وَالكَمَال الَّتي يُمْكن لبَشر مُنقذٍ أَنْ يَتَحلىٰ بِهَا .

وَرَكّز الإِسْلاَم شَرِيعَته ، وَحَلاَله ، وَحَرَامه عَلَىٰ قَانُون الطَّبِيعَة ، وَمَبدَأ العَدَالَة فكُلّ مَا فِيهِ الخَيْر ، وَالصَّلاح للنَّاس بجِهَة مِن الجِهَات فهُو حَلاَل ، وَمَحبُوب ، وَكُلّ مَا فِيهِ الشَّر ، والفَسَاد بجِهَة مِن الجِهَات فهُو حَرَام ، وَمَكرُوه . وأَقرّ الإِسْلاَم مَبدَأ الأُخوّة ، وَالمُسَاوَاة فِي المُجتَمع ، وَحَثّ عَلَىٰ التَّعايش السِّلمي[1] ، وَحَلّ المُنَازعَات ، وَالخُصُومَات بالحِكمَة ، وَالمَوعظَة الحَسَنة : ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[2] .

أَي تَعَالُوا إِلَىٰ العَدْل ، وَالمَودّة لاَ إِلَىٰ المُؤامرَات ، وَالدَّسَائِس ، وَالضَّغَائن ، وإِلَىٰ

(١) أُنظر . كِتَاب التَّعايُش الدِّيني فِي الإِسْلاَم لمَحمُود القَزب . (مِنْهُ ﷺ) .

(٢) آلِ عِمْرَانَ : ٦٤ .

الثقة ، وَالتَّبادل الثَّقافِي ، وَالإِقتصَادي لاَ إِلَى السَّلب ، وَالنَّهب ، وإِلَى الأَمن وَالأَمَان لاَ إِلَى الأَحلاَف العَسكريَّة ، وَالإِستعدَادَات الحَربيَّة .

وَأقرّ الإِسْلاَم مَبدَأ الفَضِيلَة فِي الأَخلاَق ، فَنَهَىٰ عَن الكَذِب ، وَالرِّيَاء ، وَالقَسوَة ، وَالجَفَاء ، وَالزّنىٰ ، وَالخيَانَة ، وَجَميع المَظَالم ، وَالفوَاحش مَا ظَهر مِنْهَا وَمَا بَطن . وَسلاَم عَلَىٰ مَن قَالَ : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتمم مَكَارِم الأَخْلاَق »[١] .

وَإِذَا كَان دِين مُحَمَّد هُو دِين الفِطرَه ، والإِنْسَانيَّة ، فمَاذَا يَبقَىٰ للنَّبيّ أَو المُتَنبي الجَدِيد ؟ ! أَللَّهُمَّ إِلاَّ أَنْ يُغَيِّر ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَايَعْلَمُونَ﴾[٢] ، فَيَأمر بالحرُوب ، وَالإِستغلاَل ، وَالسَّرقَة ، وَالخيَانَة ، وَالكَذِب ، وَالزّنىٰ ، وَالقمَار ، وَالخلاَعَة ، وَيَنهىٰ عَن السَّلاَم ، والحرِّيَّة ، والأَمَانَة ، وَالصّدق ، وَالعِفّة ! ! .

تنبيه:

قُلنَا فِي بَحثنَا « الله والعَقْل » سَنَتَعرض لكتَاب « الدِّين وَالضَّمِير » مُفصّلاً فِي بَحثنَا « النُّبوّة والعَقْل » . وَحَيث لَمْ تَتَّسع هَذِهِ الصَّفحَات لمُلاَحظَاتنَا عَلَىٰ الكِتَاب المَذكُور لأَنَّهَا بَلَغَت مَا يَقرب مِن عشرِين صَفحَة فَقَد أَرجَأنَاهَا إِلَىٰ فُرصَة ثَانيَة ، وَلعَلّهَا تَسنَح فِي البَحْث الثَّالِث ، أَو الرَّابع . وَمِن الله سُبْحَانَه نَستَعمد الهدَايَة وَالتَّوفِيق .

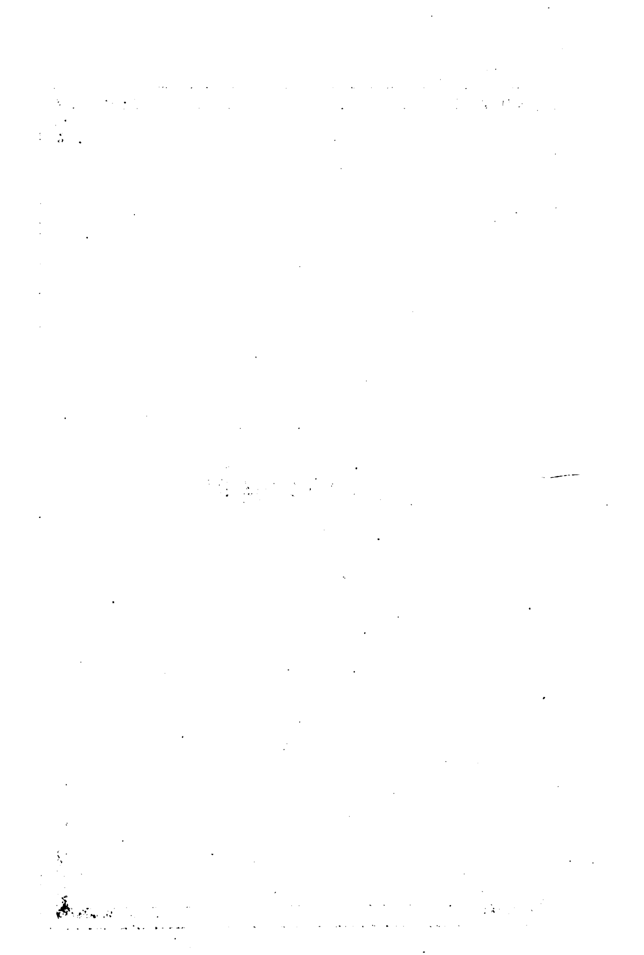
---

(١) أنظر . بدَايَة المجْتَهد : ٢ / ٣٢١ . السُّنن الكُبْرَىٰ : ١٠ / ١٩٢ . تُحفَة الأَحْوَذي : ٥ / ٤٧٠ . نُظم دُرَر السّمطين : ٤٢ . كَنز العُمَّال : ١١ / ٤٢٠ ح ٣١٩٦٩ . فَيض القَدِير شَرح الجَامِع الصَّغِير : ٥ / ٢٠٩ . كَشف الخَفَاء : ١ / ٢١١ ح ٦٣٨ . مَكَارِم الأَخلاَق للطَّبرسي : ٨ . مَكَارِم الأَخلاَق لإِبْن أَبي الدُّنيَا : ٦ . مُسْنَد الشّهاب : ٢ / ١٩٢ ح ١١٦٤ . تَكملَة حَاشيَة ردّ المحتَار : ١ / ٢٣٤ .

(٢) الرُّوم : ٣٠ .



الآخِرَةُ وَالعَقْل



تمْهيد

قَبلَ أَنْ أَبدَأ فِي وَضع هَذَا الفَصْل قَالَ لِي أَحد الأَخْوَان: أَنَّ مَوضُوع الآخـرَة أَصْعَب المَوضُوعَات الَّتي تُعَالجهَا، لأَنَّك تَتوخىٰ التَّوضِيخ، وَإِقنَاع النَّاشئَة وَهَذَا المَوضُوع مُعَقَّد شَدِيد الغمُوض.

وفِي الحَقّ أَنّي ٱقتَنَعتُ بقَوله، وَأَخذَني الوَهم فِي بدَايزة الأَمْر، لأَنّي مِن الَّذِين يُؤمنُون بأَنَّ السّهُولة، وَالتَّوضِيح حَقّ للقَاريء عَلَىٰ الكَاتب، وَلَكنَّني مَا شَرَعتُ بالكتَابَة حَتَّىٰ وَجدتُ الأَمْر أَيسَر، وَأَسهَل مِمَّا تَوهَمت، وَلَـم أَر أَي فَـرق بَـيْنَ مَوضُوع الآخرَة، ومَوضُوع المَبحَثَين السَّابقِين «اللهُ والعَقْل» أَي فَرق و «النُّبوّة والعَقْل».

وَأَخَال أَنَّ البَعض إذَا قَرَأ الاِسم عَن قُرب أَو بُعد سَيقُول: وَأي شَأن للعَقل فِي هَذَا المَوضُوع!.

وَلاَ جَوَاب لدَيَّ إلاَّ الدَّعوَة إِلَىٰ قرَاءَة هَذِهِ الصَّفحَات، وَسَيَجدهَا القَاريء سَهلَة وَمُقنعَة بحَول الله تَعَالَىٰ، فَإِنْ تَرَدَّد فِي شَيء مِمَّا فِيْهَا فَـليَتّهم فَـهمَه، أَو يَـتَهمني بالتَّقصِير فِي البَحث وَالتَّنقِيب، أَو الخَطأ فِي طَرِيقَة العَرض. أَمَّـا أَصـل الفِكْـرة وَالمَبدَأ نَفْسَه فَحقّ لاَ رَيب فِيهِ، وَالله سُبْحَانَه المَسْؤول أَنْ يَجعلهَا مِن الأَعـمَال الَّتي تَنفعنَا يَوْم نَلقَاه، أَنَّه سَمِيع مُجِيب.

أَوْهَام الجَاحِدِين

النَّاس فِي أَمْر الآخرَة وَالبَعث عَلَىٰ طَوَائِف :

مِنْهُم الطَّائفَة : تَجمَع بَيْنَ إِنْكَار الخَالِق ، وَإِنكَار البَعث .

وَثَانيَة : تَعْتَرف بالخَالق ، وَتُنكِر البَعَث .

وَثَالثَة : تَعْتَرف بهمَا مَعاً ، وهِي أَرسَخ عِلماً وأَكْثر عَدَداً .

وَرَابعَة : تُشَكّك لاَ تَنفي وَلاَ تُثبِت .

ولمُنكري البَعْث أَلوَان مِن التَّفْكِير :

مِنْهَا ، أَنَّ الإِنْسَان لَيْسَ إِلَّا هَذَا الهَيكَل المَحسُوس الَّذي تَلمسَهُ اليَـد ، وَنـرَاه بالعَين ، وَلاَ شَيء وَرَاء ذَلِكَ ، أَمَّا ٱلحَيَاة وَسَائِر القِوىٰ الَّتي نُسمّيهَا الرُّوح ، والعَقْل فَهي عَرض زَائِل كَالمَاء فِي النَّبَات ، وَالنَّار فِي الحَطَب ، وَالزَّيت فِي الزَّيتُون تَنعَدم وَتَتلاَشىٰ بالمَوت ، وَلاَ يَبقىٰ إِلَّا العنَاصر الَّتي يَتَكون مِنْهَا الجِسم .

الجَوَاب :

١ ـ أَنَّ هَذَا القَوْل لاَ يَستَنِد إِلَىٰ دَلِيل مِن العَـقْل ، وَلاَ مِـن التَّـجربَة ، وَلاَ مِـن المُشَاهَدة ، وإِنَّمَا هُو حَدَس فِي حَدَس .

٢ ـ أَنَّ العُلمَاء يَـعرفُون حَـقِيقَة هَـذِهِ العَـنَاصر الَّـتي يَـتَألَّف مِـنْهَا الجِسـم ، وَيَستَطِيعُون تَركِيبهَا فِي صُورَة إِنسَان ، وَلكنَّهُم يَعجزُون عَن بَعث ٱلحَيَاة فِي خَليَة

وَاحدَة، وَلَو كَانَت النَّفس عَرَضاً وَصفَة تَتولد قَهراً مِن تَركِيب الجِسم وَضَم الأَجزَاء بَعْضهَا إِلَىٰ بَعْض لإستَطاعُوا أَنْ يُوجدُوا إنْسَاناً سَاعَة يَشَاءُون تمَامَاً كَمَا يُوجدُون الطَّائرَة، وَالسَّيَّارَة، لأَنَّ الأَسبَاب إذَا تَكرّرت أَدّت إلَىٰ نَفس النَّتَائج الَّتي حَدَثت أَوّلاً، مَع أَنَّ العُلمَاء حَاوَلوا، وَجَربُوا، وَكَرّروا التَّجربَة مرّات وَمرّات، وَبَعد أَنْ بَذَلوا جَمِيع الجهُود أَتوا بكَائِن مُحنّط ظَنّوه شَبيهَاً بالحَيّ، وَبَعد الدَّرس وَالتَّمحِيص اَتَّضح لهُم أنَّه أَبعَد مَا يَكُون عَن الكَائنَات الحَيّة بمَعنَاهَا الحَقِيقي. وَجلّ الَّذي قَالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[1].

٣ ـ لَو صَحّ هَذَا القَوْل لتَسَاوت أَفْرَاد الإِنْسَان فِي جَمِيع القِوىٰ، وَالموَاهب وَلكَان مُختَرع الأَقمَار الصّناعيَّة كَأي إنْسَان سوَاء بسوَاء، لأَنَّ المَادّة وَالهَيئَة وَاحدَة فِي الجَمِيع لاَ تَختَلف فِي فَرد عَن فَرد، حَيث أَثبَت العِلْم أَنَّ الإِنْسَان يَتكوّن فِي أَصلِهِ مِن خَليَة وَاحدَة، يَنشَأ الطَّويل، وَالقَصِير، وَالأَسوَد، وَالأَبيَض، «وَمَا بِهِ الإِجْتمَاع لاَ يَكُون بِهِ الإفتِرَاق».

٤ ـ أَي عَاقل يُصَدق بأَنَّ هَذَا الإِنْسَان الَّذي يَتَفجّر عَبقريَة وَذكَاء لاَ يَفْتَرق فِي حَقِيقَته عَن النَّبَات وَالحَشرَات، هَذَا المَخلُوق العَجِيب الَّذي غَيَّر وَجه الأَرْض، وَقَلبهَا رَأساً عَلَىٰ عَقب، ثُمَّ صَعَد إلَىٰ القَمَر، وَتجَاوزَه إِلَىٰ المِريخ وَأحَال عِلْم الفَلك مِن عِلْم مُرَاقبَة وَمُشَاهدَة إلَىٰ عِلْم التَّجرِيب، هَذَا الرَّأي جَعَل المُستَحِيل مُمكنَاً، وَاَجتَمَعت فِيهِ قِوىٰ العَالَم بكَاملهَا حَتَّىٰ قِيل فِيهِ:

---

(١) ٱلحَجّ: ٧٣.

وَتَـحْسبُ أنّك جِـرمٌ صَـغِير   وَفِيكَ أنطوىٰ العَالَم الأَكْبَر [١]

هَذَا الإِنْسَان الَّذي تَجَلَىٰ فِي مُحَمَّد، وعَلِيّ، وَسُقرَاط، وَغَاندي، وإِينشتَاين، وَالمَعرّي [٢]، وَعبَّر عَنْهُ ٱلْقُرْءَان الكَرِيم أنَّه خَلِيفَة الله فِي أَرْضِهِ، وَالإِنْجِيل بأنّه ٱبْن الله. وَخَاطَبه الجَلِيل بقوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [٣].

هَذَا الإِنْسَان يَتَألف مِن بِضع موَاد كِيمَاويَّة فَقَط لاَ غير!...

قَالَ بَعْض العُلمَاء: فِي الإِنْسَان مِن الدّهن مَا يَكفي لصُنع سَبع قِطَع صَابُون، ومِن الكَربُون مَا يَكفي سَبعَة أقلاَم رصَاص، ومِن الفُوسفُور مَا يَكفي لرُؤوس (١٢٠) عُود ثقَاب، ومِن المِلح مَا يَصلح جُرعَة للإِسهَال، ومِن الحَدِيد مَا يُصنَع مِنْهُ مِسمَار مُتَوسط الحَجم، ومِن الجصّ مَا يُبيض بَيْت دجَاج، ومِن الكِبرِيت مَا يَطهَر جِلد كَلب مِن البرَاغِيث.

أَهَذَا هُو الإِنْسَان، وَهَذي حَقِيقَته؟! أَسْتَغفر الحَقّ أَو العِلْم.

ومِن تَفكِيرهم أَيْضاً أَنَّ الإِنْسَان يُولَد نَتِيجَة التَّزَاوج بَيْنَ الذَّكر وَالأُنثَىٰ، وَيَمُوت نَتِيجَة لمَرض أَو قَتل أَو لإِنهيَار جِسمَه بَعد أَنْ يَصل إِلَىٰ الشَّيخُوخَة.

وَهَذَا القَوْل لاَ يَختَلف عَن سَابقِهِ إلاَّ فِي التَّعبِير غَير أَنَّه أَكْثر شَبهاً بقَول القَائِل:

---

(١) يُنسب هَذَا ٱلبَيْت إِلَىٰ أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين الإِمَام عليّ عليه السلام كَمَا فِي الدِّيوَان المرتضوي: ١٤٥، فيض القَدِير شَرح الجَامع الصَّغِير: ٥ / ٤٦٦، جوَاهر المَطَالب فِي مَنَاقب الإِمَام عَليّ عليه السلام: ٢ / ٦٣٦.

(٢) قَرَأتُ فِي جَرِيدَة وَطَني المَصريّة تَأرِيخ: (١٨ / ١٠ / ١٩٥٩م) أَنَّ ريتشَارد بوجين كَان يَحفظ مُؤلّفَات ٱلشُّعَرَاء، والفَلاَسفَة، وَيُحَدّد مكَان أيَّة كَلمَة مِن أيَّة صَفحَة. وأَنَّ يُوسف مزوفاني يَتَحدّث بسَبعِين لُغَة بلهجَاتهَا المُعقدَة، وأَنَّ شَاباً مِن كورسيكا تُلي عَلَيهِ سِتَة وَثلاَثُون أَلف كَلمَة فَحفظهَا بمُجَرّد سمَاعها. وفِي العَرب القُدَامى عَدِيد مِن هَذَا النَّوع، كَابن عبَّاس، وَالمَعرّي، وَالأَصمَعي، وَغيرهم، ومَن أَحبَّ الإِطّلاَع فَعَلَيه بالجُزء الأَوّل مِن تَأريخ آدَاب العَرب للرَّافعي. (مِنْهُ رحمه الله).

(٣) ٱلنِّسَاء: ١١٣.

كَأَنَّـنا وَالمَـاء مِـن حَـولنَا   قَوْم جُلُوس حَوْلَهم مَـاء[١]

وَمَن يَشك فِي أَنَّ الإِنْسَان يُولد ثُمَّ يَمُوت ؟! ولَكن أَي دَلِيل فِي هَذَا عَلَىٰ أَنَّ الإِنْسَان إذَا مَات فَات ؟! أَنَّ الدَّعوىٰ لاَ تَصلح أَسَاساً للإِستدلاَل، فَإِذَا قُلت: بَلَغ فُلاَن مِن العُمر عِشرين سَنَة، لأَنَّ عُمرَه عشرُون سَنَة كَان قَولَك هَـذَا نَـوعَاً مِـن الهَرَاء وَالهَذيَان. وَقَد رَدّ ٱلْقُرْءَان عَلَىٰ هَؤُلاَء وَأَخزَاهُم بالآيَة: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[٢].

ومِن تَفكِيرهُم أَيضاً أَنَّ الجِسم بَعد أَنْ تَأكلَهُ الدِّيدَان، وَلاَ يَبقىٰ مِنْهُ إِلَّا عظَام نَخرَة يَعُود ثَانيَة! أَنَّ هَذَا لشَيء عُجَاب! ومَن شَاهَد أَو سَمع أَنَّ مَـيّتَاً عَـاد إِلَـىٰ ٱلْحيَاة بَعد أَنْ أَصَابه البَلىٰ، وَذَهب فِي التُّرَاب ؟!.

ونَحْنُ لاَ نَجد سَبَباً لِهَذَا الإِسْتعبَاد سِوىٰ قيَاس فِعل الله عَلَىٰ فِعل البَشَر فَـإِذَا عَجزنَا نَحْنُ عَن إِحيَاء المَوتىٰ يَجْب أَنْ يَعجَز الله عَنْهُ أَيْضاً! تَعَالَت قُدرَته: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٣].

لقَد ٱستبعَد هَـؤُلاَء البَـعث، لأَنَّـه مُـخَالف لـلمُعتَاد وَالمَأْلُـوف، وَبَـديهَة أَنَّ الإِسْتعبَاد لاَ يَصلُح دَلِيلاً للنَّفي وَلاَ للإِثبَات. فَبالأَمس القَرِيب كُنَّا نَـرىٰ أَشـيَاء مُستَحِيلَة الوقُوع، ثُمَّ أَصبحَت حَقِيقَة وَاقعَة كالتّلفُون، وَالتّلفَاز، وَمَا أَشبَه. وَقَد أَشَار الله سُبْحَانَه إِلَىٰ إستعبَاد المُنْكَرين فِي موَاضع عِدّة، مِنْهَا الآيَـة: ﴿أَءِذَا كُـنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾[٤].

---

(١) أنظر، تفْسِير المِيزَان للعَلاَّمَة السَّيِّد الطَّبَاطبَائي: ١١/ ١١٠.

(٢) ٱلْجَاثِيَة: ٢٤.

(٣) يٰس: ٨٢.

(٤) ٱلإِسْرَاء: ٤٩.

وَرَدّ عَلَيهم فِي آيَات، مِنْهَا الآيَة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾[١].

خَاطَب الله سُبْحَانَه المُرتَابِين بِهَذَا الأُسلُوب البَعِيد عَن الإِستعلاَء القَرِيب إِلَىٰ كُلّ قَلْب، بَعد أَنَّ سَأَلهُم: هَل دَاخلهُم الشّك؟ لَفَت نَظَرهُم إِلَىٰ آيَات الله الَّتي يُشَاهدُونهَا فِي غَيرهِم وفِي أَنفسهِم، وإِلَىٰ إِنشَائِهم وَإِبتدَاء خَلقهِم، وَكَيف أَوجَدهُم مِن العَدَم، وَٱنْتهىٰ بِهم إِلَىٰ نَتِيجَة لاَ يَسَعهُم إِلَّا التَّسلِيم بِهَا، والإِذعَان لهَا، وهِي أَنَّ مَن يَقدَر عَلَىٰ إِيجَاد المَعدُوم فهُو عَلَىٰ إِعَادَة المَوجُود أَقدَر، إِنْ صَحّ التَّعبِير[٢]. ٱبتَدأ مَعَهُم مِن الشّك وَالتَّسَاؤل، وَٱنْتَهىٰ بِهم إِلَىٰ اليَقِين والإِطمئنَان.

قَالَ الكِندي فَيلسُوف العَرب: أَنَّ خَلق الإِنْسَان أَو إِحيَاءه بَعد المَوْت أَيسَر مِن خَلق العَالَم الأَكْبَر بَعد أَنْ لَم يَكُن، وَهَذَا هُو مَضمُون آيَة: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٣].

وهَكَذَا لاَ تَجد فِي أَقْوَال مُنكرِي البَعث أَيّة حُجّة مُثبتَة لدَعوَاهم سِوىٰ عَجزهِم عَن الفَهْم والإِدْرَاك، وكَثِيراً مَا يَكُون هَذَا العَجْز لنَقص فِي الأَفهَام وَعَدَم مُلاَءمَة الظّرُوف فَنحنُ نُشَاهد الشَّمْس، وَٱلْقَمَر، وَآلاَف النُّجوم، وَلهَا تَأْثِير بَالغ فِي حَيَاتنَا، وَمَع ذَلِكَ نَعجَز عَن إِدرَاك حقَائِقهَا، ومَعْرفَة أَسرَارهَا. وَقَد يُقَال: أَنَّ الَّذِين يُؤمنُون بالبَعْث جُهّال مُقلدُون.

وَنَسأَل بدَورنَا: مَن هُو الجَاهل المُقلد؟ سُقرَاط، أَو إِفلاَطُون، أَو الفَارَابي، أَو

(١) ٱلحَجّ: ٥.

(٢) لاَ يُوجَد بالنّسبَة إِلَى الله شَيء أَسهَل أَو أَصعَب مِن شَيء. فَخَلق الذّرّة وَخَلق الكَون سوَاء لَدَيه تَعَالَىٰ. (مِنهُ ﷺ).

(٣) يٰس: ٨١.

ٱبْن سِينَا، أو ٱبْن رُشد وَغَير هَؤُلآء الكُبَار الَّذِين آمنُوا بالله واليَوْم الآخر، وَوَضعُوا فِي إثبَات المَعَاد المُؤلّفَات الطّوَال؟! أو مَن قَلد سقرَاط، وَإفلاَطُون، وٱبْن سِينَا؟! وإذَا كَانُوا مُقَلدِين فَمَن هُم الفَلاَسفَة المُتنورُون الَّذِين تَكَشفَت لهُم أَسرَار الكَون، وَحقائق ٱلْحَيَاة، وَمَا قَبلهَا وَمَا بَعدهَا؟!.

وَفِي الحَقّ أَنّنا لَم نَر أَحداً يُحسن التَّقلِيد وَيُتقنَه كَهَذِه «الحُزمَة» مِن الشَّبَاب الَّذِين ٱستَخفوا بدِين آبَائهم، وَٱتّهمُوا كُلّ مَن يُؤمن بالله واليَوْم الآخر بالتَّقلِيد لاَ لشَيء إلاَّ لكَلمَة سَمعُوهَا مِن إبَاحي مُتحذلِق، أو قَرَأوهَا فِي كِتَاب أو صَحِيفَة تَبث السّمُوم، وَتَنشر الفُوضىٰ، وَالفَسَاد.

وَالخُلاَصَة: أَنَّ الفَرق كَبِير جداً بَيْنَ مُمتَنع الوقُوع، ومُمّكن الوقُوع، فَالأَوّل لاَ يَتحقَّق بحَال، فَإنْ ٱدّعَاه شَخص يُكذّب بمُجَرد الدَّعوىٰ، وَدُون أَنْ يُطَالب بالدَّلِيل، فَإنْ ٱدّعَاه شَخص يُكذّب بمُجَرد الدَّعوىٰ، وَدُون أَنْ يُطَالب بالدَّلِيل، فَإذَا قَالَ قَائِل: رَميتُ حَجراً مِن عُلوٍ فَارتَفع نَحو السَّمَاء، أَو قَالَ: أَنَّ الشَّمْس كَوكَب بَارِد، عَلَيهِ أَحيَاء مِن أَنوَاع شَتّىٰ جَاز للسَّامع أَنْ يَقُول لهُ بدُون توَقف هَذَا محَال، لأَنَّ الأَرْض تَجذب الأَجسام إلَيهَا، وَحرَارَة الشَّمْس تَمنَع مِن وجُود ٱلْحَيَاة عَلَيهَا، أَمّا الثَّانِي أَي المُمكن فَلاَ يَصح تَكذِيب مُدّعِيه بمُجَرد الدَّعوىٰ، وإنَّمَا يُطَالب بالدَّلِيل، فَإذَا قَالَ القَائِل: أَنَّ رَجُلاً صَعَد إلَىٰ ٱلْقَمَر، ثُمَّ عَاد سَالمَاً إلَىٰ الأَرْض فَلاَ يُقَال لهُ: هَذَا كَذب «ضَربَة وَاحدَة». وإنَّمَا يُسأَل عَن الدَّلِيل لأَنّه يَدّعي وجُود شَيء مُمّكن أَنَّ يَتَحقَّق مَتىٰ تَهيأَت لهُ الأَسبَاب. وٱلْحَيَاة بَعد المَوْت مِن النَّوع الثَّانِي أَي مُمكنَة غَير مُمتنعَة.

فِكْرَة الآخِرَة وَتأثِيرهَا فِي السُّلُوك

أَنَّ العوَامل الَّتي تتَحكم فِي سُلُوك الإِنْسَان، وَيَخضَع لهَا فِي حَركَاته وَسَكنَاته تَنْقَسم إِلَىٰ نوعَين:

الأوّل: العوَامل الخَارجيَّة، كَالبِيئَة، وَالحوَادث العَامّة وَالخَاصّة، ولَيْسَ لهَذه مِن ضَابط مُعيَّن، لأَنَّهَا تَختَلف بإِختلاَف المُحِيط، وَالمُجْتَمع الَّذي يَعِيش فِيهِ، وَتَتنوع حَسَب الظُّرُوف، والأَحوال الَّتي لاَ تَدخُل فِي حسَاب.

الثَّانِي: العَوَامل الدَّاخليَة، كَالمَشَاعر، وَالنَّزعَات النَّفسيَّة، وهِي كَثِيرة مِنْهَا:

١ ـ مَنطق الْحَيَاة الَّذي يَفرض حُكمَه بَعِيداً عَن تَأثِير الإِرَادَة، والإِخْتيَار، كَالتَّنفس، وَنمُو الجِسم، وَتطور الأَعضَاء، وَقُدرتهَا عَلَىٰ القيَام بوظَائفهَا الخَاصّة.

٢ ـ مَنطق العَاطفَة، وهُو مَصدَر لأَكثَر مَا نَقُوم بهِ مِن أَعمَال فِي حَياتنَا اليَوميَّة، كَالمُحَافظَة عَلَىٰ الأَبنَاء وَتَربيَتهم، والثَّنَاء عَلَىٰ مَن نُحبّ، وَالطَّعن فِيمَن نَكره، ولاَ يَسلَم مِن سُلطَان هَذَا المَنطق أَحد حَتَّىٰ أَهْل الفَضَائِل، وَالذَّكَاء.

٣ ـ مَنطق العَقْل، وهُو مَصدَر الإِدْرَاك، وَالتَّفْكِير، وَأَصل العُلُوم، وَالصّنَاعَات، وبهِ يَتَغلب الإِنْسَان عَلَىٰ الطَّبِيعَة، وَيُميز بَيْنَ الحَقّ والبَاطِل، وَالضَّار وَالنَّافع.

٤ ـ مَنطق العَدوّىٰ وَالتَّقليد، كالأَفكَار المُتولدَة مِن الكُتُب، وَالجَرائِد، وَالخُطَب، وَكَالنَّظر بدُون شعُور إِلَىٰ جهَة يَنْظر إِليهَا الغير، وَمَا إِلَىٰ ذَاك.

٥ ـ مَنطق العَادَة، كَشُرب ٱلدُّخَان، وَالنَّوم فِي وَقت مُعَيَّن، وَمَا إِلَىٰ ذَاك.

٦ ـ مَنطق الدِّين، وَيَتضمّن الكَثِير مِن التَّعقل، وَالتَّأمل وَقَد مَثّل دوراً عَـظِيماً فِي تَأرِيخ الأُمم، والأَفرَاد حَيث كَان وَمَا يَزَال المقيَاس الوَحِيد لأَفعَال المُتَدينِين وَأَقوَالهم، كَمَا أَنَّ لهُ تَأثِيراً بَارزاً فِي الفنُون، وَالآدَاب، والسِّيَاسيَّة، والأَخـلاق. وَهَذِهِ النَّزعَات تَتفَاعل مَع العوَامل الخَارجيَّة، فَتَتأثّر بِهَا، وَتُوثّر فِيْهَا.

وَغَرضنَا مِن هَذَا الحَدِيث يَتّصل بـمَنطق التَّـدَين، وَبـنَوع أَخـصّ الإِعـتقَاد بِالبَعث، وَكَيف يُؤثّر فِي أَخلاَقنَا وَسلُوكنَا. وَكُلّنا نَعلَم أَنَّ شعُور الإِنْسَان بأَنَّ عَلَيهِ رَقِيباً يَعْلَم السّر وَأَخفىٰ، وأَنَّه مَسؤول عَن كُلّ كَبِيرَة وَصَـغِيرَة، وأَنَّـه يُـحَاسب وَيُعَاقب إِنْ أَسَاء، وَيُثَاب إِنْ أَحسَن. أَنَّ هَذَا الشُّعُور يَبعَثه ـ فِي الغَالب ـ عَلَىٰ فِعل الخَيْر، وَتَرك الشَّر، وعَلَىٰ أَنْ يَكبَح الإِنْسَان جمَاح نَفْسَه، وَيَمنَعهَا مِن أَنْ تُحقّق أَهوَاءهَا وَشَهوَاتهَا.

وَرُبّ قَائِل يَقُول: لَقَد رَأينَا أَفْرَاداً يَعتَقدُون بالجنَّة وَالنَّار مَع أَنَّهُم يَرتَكبُون أَكبَر الخَطَايَا، وَأَحط الأَعمَال، ورَأينَا أَفْضَل مِنهُم أَخلاَقاً، وعَلَىٰ حَظّ مِن الخَيْر مَـع أَنَّهُم لاَ يَدينُون شَيء.

الجَوَاب:

أَنَّ الَّذِين يَدّعُون أَنَّهُم مِن الدِّين وَأَهلَه، ثُمَّ يُخَالفُون عَـن أَمْرِهِ، وَيَسـتَخفُون بتَعَالِيمَه عَلَىٰ نَوعَين:

النَّوع الأَوّل: لاَ يَعرفُون مِن الدِّين أَصلاً، وَلاَ فَرعَاً، وَلاَ يَعنِيهم مِن أَمْره كَثِير، أَو قَلِيل، وإِنَّمَا يَصرخُون بٱسم الدِّين، وَيَتشَبثُون بأَذيَاله كُلَّمَا خَرَج «آدَمي» عَن طَاعَتهم، وكُلَّمَا فَشلت لهُ مُؤامرَة، وكُلَّمَا هُزم لهُم لصّ مُدرّب عَلَىٰ الإِجرَام. أَنَّهُم

يُردّدُون لَحن الدِّين بأَنغَام شَتَّىٰ لاَ يَعرفهَا نَبي، وَلاَ وَصي نَبي. وَأَنَّنا مَوضع التَّساؤل، بَل مَوضع الشَّك، وَالرَّيب! لمَاذَا هَذَا التَّهوِيش، وَهَذِهِ المُنَادَاة بالوَيل، وَالثّبُور، وَعظَام الأُمور، وَإِظهَار الغَيرَة عَلَىٰ الدِّين أَكثَر مِن الأَنبيَاء، والأَوليَاء؟! مَع أَنَّهُم لاَ يُؤدّون فَرضاً مِن فَرَائِضه، وَلاَ يَتورعُون عَن مُخَالفَة أَمْره وَنَهيَه[1].

وَهَذَا دَلِيل وَاضح فَاضح عَلَىٰ أَنَّهُم سمَاسرَة أَديَان يَتَسترُون بأَسمهَا اتقَاناً للخَديعَة، وَخَوفاً مِن الفَضِيحَة، وَمَا قَرَأت كَلمَة تُعبِّر عَن حَقِيقَة هَؤُلاَء أَجمَع مِن قَوْل سيِّد الشُّهدَاء الحُسَين بن عَليّ: «إِنّ النَّاس عَبِيد الدُّنْيَا، والدِّين لَعِقٌ عَلَىٰ أَلسِنتهم يُحوطُونَه مَا دَرّت مَعايشهُم، فَإِذَا مُحصُوا بالْبَلاَء قَلّ الدَّيانُون»[2].

النَّوع الثَّانِي: مِن النَّاس يُؤمنُون بالله وَحسَابه وَعقَابه، وَلَكنَّهُم يَتنَازلُون عَن بَعْض مَا يُدِينُون رَغبَة فِي مَنْصب، وَرَهبَة مِن قَوي، أَو خَوفاً مِن عَوز، أَو لضَعف فِي الإِرَادَة، وَالتَّفْكِير؛ وَمَا إِلَىٰ ذَاك مِن الأَسبَاب الَّتي لاَ يِملكُون مَعهَا المَنَاعَة الكَافيَة إِذَا تَصَادَمت مَع عَقِيدَتهم. أَنَّ هَؤُلاَء مُؤمنُون بلاَ رَيب وَلَكنَّهم ضُعفَاء لاَ يَحتملُون الهَم وَالمَتَاعب. والإِنْسَان، أَي إِنْسَان فِي صرَاع مُستَمر مَع الخَوف مِن العوَاقب. وَالقَوي مَن ثَبَت عَلَىٰ عَقِيدَته حَتَّىٰ وَإِنْ زَالَت الأَرْض مِن تَحتَه،

---

(١) خَاطَب الله نَبيّه مُحمَّداً بقَوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّـٰلِمِينَ﴾. الأَنْعَام: ٥٢. وَقَولَه تَعَالَىٰ: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ الْكَهف: ٢٩. وَقَولَه تَعَالَىٰ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. الْكَافِرُون: ٦. وَمَا إِلَىٰ ذَلِكَ مِن الآيَات. وَقَد اتّفق عُلمَاء الإِسْلاَم عَلَىٰ هَذِهِ القَاعدَة: «مَن كَفَر وَاعتَزل تَركنَاه». وَلَكن الخَائِن دَائماً يَكُون مَلكيّاً أَكثَر مِن مَلك. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) أنظر. تُحف العُقُول: ٢٤٥. مَقتَل الإِمَام الحُسَيْن للخوَارزمِي: ١/٢٣٧. كَشف الغُمّة: ٢/٢٤١. بحَار الأَنوَار: ٤٤/٣٨٣ و: ٧٨/١١٧.

وَأطبقت السَّمَاء عَلَىٰ رَأسه .

وَمَهْمَا يَكُن فَإِنَّ الفرق بَعِيد جداً بَيْنَ مَن يَضمُر الجحُود ، وَيُظهر الإِيمَان كَذباً وَٱفترَاء ، وبَيْنَ مَن يُؤمِن بالحَقّ ، ولَكن لاَ يَثبُت عِند الصَّدمَات . أَنَّ الفَـرق بَـيْنَ الاِثْنَين كالفَرق بَيْنَ مَن سَار إِلَىٰ المَعركَة مَع الجُـند ليَـتَجَسس وَيُـدَبر المَكَـائد وَالمَصَائد ، وبَيْنَ مَن هَرب مِن الجُندية حِرصاً عَلَىٰ حَيَاتَه وَحيَاة أَولاَده ، فالأَوّل تَعمد الإِجرَام ، والعُدْوَان ، وَتَاجر بالدّمَاء والأَروَاح ، لغَايَة الكَسب وَالرِّبح ، أَمَّـا الثَّانِي فكُلّ مَا يبتَغِيه « سَلاَمَات يَـا رَأس » وَلاَ يَـضمر لأَحـد شـرّاً وَقَـد يَشـعر بالخَطِيئَة وَالخَجل مِن نَفْسَه ، وَيَطلب السَّماح وَالغُفْرَان ، بَل قَد يَحس بـالرَّاحَـة عِندَما يُعَاتب أَو يُعَاقب ، وَقَد رَأينا مَن يَعْتَرف بالذَّنب عَلناً ، وَيَطلب إِيقَاع العقُوبَة بِهِ ، ليَخلص مِن تَوتر الأَعصَاب ، وَتَأنِيب الضَّمِير الَّذي لاَزَمهُ فِي لَـيلَهِ وَنـهَاره . وإِلَيكَ ـ مَثلاً وَاحداً مِن آلاَف الأَمثلَة :

كَان بَعْض القُدَامىٰ يَرفض مَا يَصطَدم مَع دِينَه وَوجدَانَه ، وهُـو فِـي مُـقتَبل العُمر ؛ وَعندَمَا تَقدَّمت بِهِ السّن ، وأَصْبَحَ ذَا عيَال ، وَأَطفَال تَقبَّل بَـعْض مَـا كَـان يَرفض مِن قَبل ، وفِي ذَات يَوْم رَجع إِلَىٰ نَفْسَه ، وَقَارن بَيْنَ يَوْمَه وَأَمسَه ، فذَاب قَلبَه حَسرَات أَرسَلهَا مَع أَنفَاسزه المُلتَهبَة فِي هَذَين البَيتَين[1] :

عَصَيتُ هُوىٰ نَفْسي صَغِيرَاً فَعِندَمَا ... رَمَتْني اللّيَالي بِالمَشِيب وَبـالكِبَر
أَطَعتُ الهَوىٰ عَكْس القَضِيَة لَيتَني ... وُلدتُ كَبيرَاً ثُمَّ عُدّت إِلَىٰ الصِّـغَر

وَلَيْسَ مِن شَكّ أَنَّ الكَرِيم سُبْحَانَه قَد غَفَر لهَذَا الشَّاعر الَّذي تَحرّق أَلمَاً مِـن

(١) تُنسَب هَذِهِ الأَبيَات إِلَىٰ الشَّاعر فَخر الدِّين بن يُوسُف بن الشَّيخ حَمَوَيه . أَنظر ، البدَايَة وَالنّهَايَة لإِبن كَثِير : ١٣ / ٢٠٨ .

ذَنْبه، وَنَكّس رَأسه حَيَاءً مِن رَبّه.

قَدّمنَا أَنَّ الْإِيمَان باليَوم الآخر يَخلق فِي الْإِنْسَان حَافزاً إِلَىٰ عَمَل الفَضَائِل وَالخَيْرات، وَتَجنُّب الشّرور وَالمُوبقَات. وَللتّدلِيل عَلَىٰ هَذِهِ الحَقِيقَة نَذكر طَرفاً مِن مُعَاملَة الْإِنْسَان فِي العَالَم الثَّانِي: عَن أَي شَيء يُسأَل؟ وَبِمَاذَا يُكَافَأ؟.

وَجَاء فِي الحَدِيث: «كُلّكُم رَاع، وكُلّ رَاعٍ مَسؤول عَن رَعِيّته»[1]. ولَيْسَ مِن شَكّ أَنَّ مَسؤوليَة كُلّ إِنْسَان تَكُون عَلَىٰ قَدَر وَسعَة وَمَقدرتَه، فَمَسؤوليّة الحَاكِم غَير مَسؤوليّة المَحكُوم، وَمَا يُطلَب مِن الغَني لاَ يُطلَب مِن الفَقِير؛ وَتَكليف العَالِم غَير تَكلِيف الجَاهل، ومِن هُنَا قِيل: أَنَّ الطَّرِيق الَّتي تَوصل إِلَىٰ الله بعَدَد أَنفَاس الخلاَئق، أَي أَنَّ السَّبِيل إِلَيهِ سُبْحَانَه سَهلَة يَسِيرَة، وآمنَة لاَ هَول فِيْهَا وَلاَ خَوف، يَستَطِيع أَنْ يَسلكهَا كُلّ فَرد، مَا دَام الله ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

وَفِي يَوْم القِيَامَة يُسأَل المَرء عَن أَفعَاله وَأَقوَاله، وَمَا أَبدَاه وَأَخفَاه مِن خَيرٍ أَو شرّ، ثُمَّ يُلقىٰ الجَزَاء وفَاقاً عَلَىٰ مَا كَان يَصنَع: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[3].

---

(١) أُنظر. صَحِيح البُخَاري: ٢/ ٨٤٨ح ٢٢٧٨ وص: ٩٠١ح ٢٤١٦ وص: ٩٠٢ح ٢٤١٩ و: ٣/ ١٠١٠ح ٢٦٠٠ و: ٥/ ١٩٨٨ح ٤٨٩٢ وص: ١٩٩٦ح ٤٩٠٤و: ٦/ ٢٦١١ح ٦٧١٩، صَحِيح أبن حِبَّان: ١٠/ ٣٤٢ح ٤٤٨٩، سُنن التّرمذي: ٤/ ٢٠٨ح ١٧٠٥، مَجمَع الزّوائد: ٥/ ٢٠٧، تَفسِير القُرطُبي: ٥/ ٢٥٨، صَحِيح مُسلِم: ٣/ ١٤٥٩ح ١٨٢٩.

(٢) ٱلْبَقَرَة: ٢٨٦.

(٣) ٱلْمُدَّثِّر: ٣٨.

فالعَمل وَحدَه مقيَاس الثَّوَاب وَالعِقَاب، فَمَن أَحسَن: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[1]، وَلاَ سَيئَة مَع السَّهو وَالخَطَأ، وَلاَ مَع الإِضطرار، والإِلجَاء، وَمَن تَعمد فبَاب ٱلتَّوْبَة مَفتُوح مَن دَخَلهُ كَان آمناً.

ومِمَّا جَاء فِي الحَدِيث: «يُسأَل العَبد غَداً عَن عُمرِهِ فِيمَا أَفنَاهُ، وَعَن جَسَدِهِ فِيمَا أَبلاَهُ، وَعَن مَالِهِ مِمَّا ٱكْتَسَبَهُ، وَفِيمَا أَنْفَقَهُ؟»[2]، وفِي حَدِيثٍ آخر يُقَال لَهُ: هَل عَلمتَ؟ فَإِنْ قَالَ: نَعَم. قِيل لهُ هَلَّا عَمِلتَ؟ وإِنْ قَالَ: لاَ. قِيلَ لَهُ هَلَّا تَعَلمتَ حَتَّىٰ تعمَل»[3]؟.

فمُقيَاس الفضِيلَة وَالرَّذيلَة؛ وَالقُرب مِن الله وَالبُعد عَنْهُ هُو الأَعْمَال وَحدهَا، لاَ

---

(١) يُونُس: ٢٦.

(٢) أُنظر، المَبْسُوط للسَّرخَسي: ٣٠/٢٨٦، مَجمَع الزَّوائد: ٩/٣٤٦، و: ١٠/٣٤٦، بشَارَة المُصْطَفَىٰ: ٢٥٢، سُنن التِّرمِذي: ٤/٣٦ ح ٢٥٣٢، كَنز العُمَّال: ٦/٢١٨ ح ٣٨٩٨٢، و: ٧/١٠٣، و: ١٤/٣٧٩، المنَاقِب لِابْن المغَازلي: ١١٩ ح ١٥٧، جوَاهر العِقدَين: ٢/٢٤٦، أُنظر التَّعليق فِي العُمدَة لِابْن البَطريق: ٢١٩ و ٢٨٣ و ٢٨٤ عَلىٰ هَذَا الحَدِيث. لأَنَّ تَكملَة الحَدِيث: وَعَن حبّنا أَهْل ٱلبَيْت، فقَالَ لهُ عُمَرَ بن الخَطَّاب: فمَا آيَة حُبّكم مِن بَعدكُم؟.

فَوَضع يَدَه عَلىٰ رَأس عليّ، وَهُو جَالس جَنبَه فقَالَ: آيتَه حُبّ هَذَا مِن بَعدي. كَمَا جَاء فِي مَعَالِم العِتْرَة النَّبَويَّة: ٥٣ ورَق (م)، وكَذَلِكَ المَصَادِر السَّابقة، وَاللَّاحقَة.

وأُنظر، تَعلِيق العلاَمة البَيَّاضي فِي ٱلصِّرَاط المُستَقِيم: ٢/٥١، ٱلبِحَار: ٣٩/٣١٠، دَلاَئِل الصِّدْق: ٢/١٢ و ١٣ و ١٥٥ و ١٥٦، السّيوطي فِي إِحيَاء ٱلمَيِّت هَامش الإِتحَاف: ١١٥ طَبعَة الحَلبي، فرَائد السِّمطَين: ٢/٣٠١، مَقتَل الإِمَام الحُسَيْن للخوَارزمِي: ٤٣، المنَاقِب المُرتَضوِيّة للكَشفي: ٩٩، أَرْجَح المطَالِب: ٥٢٤، كفَايَة الطَّالب: ١٨٣، الذَّهبي فِي مِيْزَانه: ١/٢٠٦، لِسَان المِيْزَان: ٤/١٥٩، رَشفَة الصَّادي لِابْن شهَاب الدِّين: ٤٥، الشَّرف المُؤبَد: ١٧٨، الثَّعلبي فِي تَفْسِيره: ٢/٤.

(٣) أُنظر، أَمَالي الشَّيخ الطُّوسي: ١/٩.

الصُّور والأَشكَال، وَلاَ الأَحسَاب والأَنسَاب، وَلاَ الجَاه وَالمَال، ومَن اعتَمد عَلَىٰ شَيء مِنهَا فقَد غفَل عمّا يُرَاد مِنهُ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[1].

ومِن طَرِيف مَا قَرَأتُ عَن ديَانَة (زرَادشت) أَنَّ عَمَل الإِنسَان إِنْ كَان حَسناً أَتَاه غدَاً فِي صُورَة فتَاة جَمِيلَة يُسرّ بحُسنهَا، وَيَتمتّع بجمَالهَا مَتىٰ يَشَاء وَكَيف شَاء، وَإِنْ كَان عَمَلهُ سَيئاً أَتَاه فِي صُورَة عَجُوز شَمطَاء مُفزعَة لاَ تُفَارقهُ لَحظَة، وَلاَ يَستَطِيع التَّهرب مِنْهَا بحَال، أَجَارنَا الله وَإِيَّاكُم.

وَإِذَا إِعتَقد الإِنسَان أَنَّه لاَ يُترك مُهملاً مِن غَير تَكلِيف يُسأَل عَنْهُ، ويُؤخذ بهِ، تَورع عَن مَحَارم الله، وَتَردَّد طَويلاً قَبل أَنْ يُقدِم، وَتُحفّظ مَا استطَاع.

ومِن أَغرَب مَا قَرَأتُ أَنَّ كَاتباً فَرنسيَّاً يُدعىٰ «بيار جوايو» زَعم أَنَّ النَّاس خُلقُوا للخُدَاع وَالسَّرقَة، وَالقتل والإِغتصَاب، وأَنَّه وَضع كِتَاب شَرَح فِيهِ فَلسَفَته هَذِهِ وَأَصدَره سَنَة (١٩٥٣ م)، وَأَسمَاه «لَم يَكُن شَيء وَهَذَا كُلّ شَيء»!.

وَمَاذَا يَبقىٰ مِن الخَيْر إِذَا انتَشرت هَذِهِ الفَلْسَفَة، أَو الفَلْسفَات الأُخرىٰ الَّتي لاَ تَعتَرف بالبَعْث وَالنَّشر؟!.

أَجل، أَنَّ هُنَاك أُنَاساً لاَ يَعتَرفُون بعَالَم الغَيب، وَمَع ذَلِكَ تَرَاهُم عَلَىٰ كَثِير مِن الخَيْر، ورُبَّمَا أَكثَر مِن الَّذِين يُؤمنُون ـ كَمَا قَدّمنَا ـ وكَثِيراً مَا تَغرس التَّربيَة الشُّعُور بالمَسؤوليَة فِي نفُوس الكبَار وَالصّغار، وَتَحملهُم عَلَىٰ احتِرَام القَانُون حَتَّىٰ وَلَو لَم يَكُن مِن رَقِيب وَحَسِيب.

أَجل، نَحْنُ لاَ نُنكر هَذَا، ولَكن الإِحسَاس بوجُود قوّة عَالمَة عَادلَة دُونهَا كُلّ

(١) المُؤمِنُون: ١١٥.

قوّة لاَ بُدّ أَنْ يُترك أثراً ملموساً لاَ يَتركه الضّمِير والأَخلاَق. أَنَّ الضَّمِير يُؤنّب وَلاَ يُعَذّب، وَيُعَاتب وَلاَ يُعَاقب، ولَيْسَ كُلّ النَّاس عَليّ بن أَبي طَالبعليه السلام عَبد الحَقّ لِذَات الحَقّ: وَلاَ يُنكر لهُ مَهْمَا تَكُن النَّتَائج، بَل أكثَرهُم يَبكُون ذنُوبهم وَلاَ يَكترثُون لهَا، ومِنْهُم مَن يَستَمريء الجَرَائِم، وَيُكرّرهَا بنَشوَة وَقسوَة، وَيَتبجّج قَائِلاً دُون خَجَل: «الدُّنْيا فَرِيسَة الشّاطر»، ومِنْهُم مَن يَفْعَل الخَطِيئَة ثُمَّ يَقذف بِهَا الأَبريَاء، وَيَتهمهُم زُوراً وَبُهتَاناً، ومِنْهُم مَن تَبلغ بِهِ الحَال أَنْ يُعَاقب الطَّيبين الأَخيَار عَلَىٰ ذَنْبٍ صَاحبه وَفَاعلَه.

وَبالتَالي، فَإِنَّ الدِّين وَحدَه العَاصم، وَلاَ سُلطَان فَوق سُلطَانه، أَمَّا الضَّمِير فَهو أَشبَه بالنَّاصح الَّذي لاَ يَملك نَفعاً وَلاَ ضَرّاً، وكَثِيراً مَا يَغلب عَلَىٰ أمْره، فَيَكُفّ وَيَعتَزل.

ثُمَّ إِذَا كَان الضَّمير وَازعاً مِن الدَّاخل، وَالسِّجن أَو المَشنَقَة وَازعاً مِن الخَارِج فَإِنَّ الإِيمَان بالله واليَوْم الآخر يَجمَع بَيْنَ الاِثْنَين بحَيث لاَ يَستَطِيع المُؤْمِن التَّهرب مِنْهَا بحَال، وَيَبقىٰ شَاعِراً بالمَسؤوليَة، خَائفاً مِن عقَاب الله وَعَذَابه، حَتَّىٰ وَلَو ٱختَفىٰ بجَرِيمَة عَن أَعيُن النَّاس، وَأَمِن مَلاَمتهم، وَعقُوبَة الحُكّام، إِذْ لاَ مَفرّ لهُ مِن حُكم الله وَسُلطَانه، وإِلَيكَ هَذَا الشَّاهِد:

رُوي أَنَّ رَجُلاً تَكرَّرت مِنهُ المَعَاصي وكُلَّمَا حَاوَل ٱلتَّوبَة والإِقلاَع عَنْهَا غَلَبَتهُ نَفْسَه، فَأَتىٰ (عَليّ) الحُسَين وقَالَ لَهُ:

يَا ٱبْن رَسُول ٱلله أَسرَفتُ عَلىٰ نَفسِي، فَٱعرَض عَليَّ مَا يَكُون لَهَا زَاجراً، أَو مُستَنقِذاً.

فَقَال الإِمَامعليه السلام: إِنْ قَبلتَ مِنّي خِصلَة مِن خَمس خِصَال فَقَدرَت عَلَيهَا لَم

تَضُرك المَعصيَة .

قَالَ الرّجل : مَا هِي يَا ٱبْن رَسُول ٱلله ؟ .

١ ـ قَالَ الْإِمَام : إِذَا أَردتَ أَنْ تُعصي ٱلله جَلّ وَعزّ فَلاَ تَأكُل مِن رِزقهِ ؟

قَالَ الرّجل : إِذَن أَمُوت جُوعاً .

قَالَ الْإِمَام : أَيُحسن بِكَ أَنْ تَأكُل رِزقَه ، وتُعصي أَمْره ؟

قَالَ الرّجل : هَات الثّانيَة .

٢ ـ قَالَ الْإِمَام : إِذَا أَرَدت أَنْ تَعصِيه فَلاَ تعصَه فِي مُلكَه .

قَالَ الرّجل : هَذِهِ أَعْظمْ مِن تِلكَ ، كَيف ! وَلله مُلك السَّموَات ، وَٱلْأَرْض ؟

قَالَ الْإِمَام : أَيَلِيق بكَ أنْ تَأكُل رِزقَه ، وَتَسكُن مُلكَه ، وَتُعصِيه ؟

قَالَ الرّجل : أَين الثّالثَة ؟

٣ ـ قَالَ الْإِمَام : إِذَا أَرَدت أَنْ تَعصِيه ، فَٱخْتَر مَوضعاً لاَ يَرَاك فِيهِ .

قَالَ الرّجل : أَيش هَذَا ؟ وَهَل تُخفىٰ عَلىٰ ٱلله خَافيَة ؟

قَالَ الْإِمَام : أَتَأكُل رِزقَه ، وَتَسكُن أَرْضَه ، ثُمَّ تَعصِيه بمَرأىٰ مِنْهُ ؟

قَالَ الرّجل : أَين الرَّابعَة ؟

٤ ـ قَالَ الْإِمَام : إِذَا جَاءَك مَلك الْمَوْت ليَقبَض رُوحك ، فَقُل لهُ : أَخّرني حَتّىٰ أَتُوب .

قَالَ الرّجل : بَقِيَت الخَامسَة .

٥ ـ قَالَ الْإِمَام : إِذَا جَاء الزّبَانيَة يَوْم الْقِيَامَة ليَأخذُوك إِلَىٰ جَهَنّم فَلاَ تَذهَب مَعَهُم .

فَقَال الرّجل : حَسبي ، حَسبي ، يَا ٱبْن رَسُول ٱلله ، أَتُوب إِلَىٰ ٱلله ، وَلَن يَرَانـي

بَعد اليَوْم فِيمَا يَكرَه .

(سُبْحَانَكَ أخشىٰ خَلْقِكَ لَكَ أعلَمُهُمْ بِكَ) بنَصّ ٱلقُرْءَان ٱلكَرِيم : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[(١)] ... ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[(٢)] .

وَفِي الحَدِيث : « ٱلْعُلَمَاء أُمنَاء ٱلله عَلىٰ خَلْقِه »[(٣)] ، وفِيهِ إِشعَار بأَنّ الدّين عِلْم ، ولَيْسَ غَيباً فِي غَيب ، وَكَفىٰ حتّىٰ الغَيب فإِنّه يَنتَهي إِلَىٰ العَقْل ، وَلاَ دِين ، وَلاَ عِلْم بلاَ عَقل .

وَهَكَذَا تَزجُر المَوَاعظ عَن الرَّذَائِل مِن أَحيَا الله قَلبَه بهَيبَته وَجلاَله ، وَالخَوْف مِن غَضَبَه وَسَطوَته .

وَقَبل أَنْ نَترُك هَذَا الفَصْل لاَ بُدّ مِن الإِشَارَة إِلَىٰ أَنَّ الدِّين لَم يَفرض عَلَينَا الْإِيمَان باليَوم الآخر كوَسِيلَة وَلاَ تَرغيباً فِي عَمَل الخَيْرَات ، وإِنَّمَا أَوجَبه كفَايَة فِي نَفْسَه ، لأَنّه حَقِيقَة ثَابتَة لهَا وجُود وَاقعي ، فالإِيمَان بِهِ إِيمَان وَتَسلِيم بالأَمر الوَاقِع ، أَمَّا الوقُوف عِندَ الحُدُود فهُو فَرع لهَذَا الأَصل ، وَثَمرَة مِن ثَمرَاته ، كمَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾[(٤)] .

---

(١) فَاطِر : ٢٨.

(٢) آلِ عِمْرَانَ : ٧.

(٣) أُنظر ، مُسنَد الشّهاب : ١ / ١٠٠ ح ١١٤ و ١١٥ ، الجَامع الصّغير : ٢ / ١٩٠ ح ٥٧٠٠ ، كَنز العُمّال : ١٠ / ١٣٤ ح ٢٨٦٧٥ ، كَشف الخفَاء : ٣ / ٦٥ ، شَرح أُصُول الكَافِي : ٩ / ٥٦ ح ١٤.

(٤) سَبأ : ٣.

الدَّلِيل الآخر

تنقَسم أفكَارنَا مِن حَيْث أَصلهَا إِلىٰ نوعَين: أَفكَار فِطريَة لاَ يَحتَاج إِثبَاتهَا إِلىٰ الأَدلّة وَالبَرَاهِين، كَالشّعُور بأَنَّ الاِثْنَين أَكْثَر مِن الوَاحد، وَالبَصَر خَير مِن العَمىٰ، وَمَا إِلىٰ ذَاك مِن البَديهَات الَّتي تُثبت نَفْسَهَا بنَفسهَا.

وَأُخرىٰ مُكتَسبَة لاَ نَتوصَل إِلىٰ مَعرفتهَا مُبَاشرَة، بَل لاَ بُدّ مِن النَّظر، وَعَمليَة الإِستدلاَل، وَاَستخرَاج المَجهُول مِن المَعلُوم ـ مَثلاً ـ إِذَا جَهلنَا مُقدَار حرَارَة المَرِيض أَو تَبدلاَتهَا، فَلاز نَعرفهَا بالفِطرَة، بَل بوَاسطَة مِيْزَان الحَرَارَة، وَمُشَاهدَة إِرتفَاع الزِّئبَق.

وَقَد اَتّفقَت كَلمَة العُلمَاء عَلَىٰ العَمَل بالأَفكَار الفِطريَة الَّتي لاَ يُحتَمل فِيْهَا الكَذِب وَالخَطأ، لأَنَّ مَصدَرهَا أَمَّا الرُّؤيَة الوَاضحَة، وَأَمَا الغَرِيزَة الَّتي جُبلَت فِينَا، وَأَصبَحت جُزء مِن عقُولنَا، وَالعُلمَاء لاَ يَتَكلمُون عَن هَذِهِ الأَفكَار، كغَايَة مُستَقلّة بنَفسهَا، بَل كَوَسِيلَة وَمُقدّمَة يَتَألّف مِنْهَا الدَّلِيل وَالقِيَاس، أَمَّا الأَفكَار المُكتَسبَة فَتَدخل فِي صُلب العُلُوم، وَقَد أَولاَهَا العُلمَاء اَهتمَاماً بَالغاً، وَاَعتَبرُوهَا الغَايَة القُصوىٰ وَالمَثل الأَعْلَىٰ لبحُوثهِم وَجهُودهِم.

وَلكنَّهُم اَختَلفُوا فِي نَوع الدَّلِيل الَّذي يَعصم الأَفكَار المُكتسبَة مِنْهُ عَن الخَطَأ، وَيَجعلهَا مُطَابقَة للوَاقع: هَل هُو الحوَاس كالسَّمع، والبَصَر، أَو العَقل، أَو التَّجربَة

والمُشَاهدَة[١] ، أو الدِّين ، أو الإتصَال المُبَاشر كَمَا يَزعَم المُتصوفَة[٢] ، أو لاَ يُمْكن الحصُول عَلَىٰ المَعْرفَة بحَال ، كَمَا يَقُول السّفسطَائيُون الشَّاكّون فِي كُلّ شَيء حَتَّىٰ فِي أَنَّهُم شَاكّون ، وَقَد ذَكرنَا هَذِهِ الأَقوَال فِي البَحث الأَوّل « الله والعَقْل » بعُنْوَان « سَبَب المَعْرفَة » وَأشرنَا إِلَىٰ مَا هُو الحَقّ . القَصد مِن هَذِهِ الإِشَارَة مَعْرفَة الطَّرِيق الَّذي يَنْتَهي بنَا إِلَىٰ الإيمَان بالمَعَاد هَل هُو العَقْل ، أَو الوَحي ؟ هَل هُو البـرَاهِـين العَقليَّة ، أَو الكُتُب السَّماويَّة ؟ هَذَا مَع العِـلْم بأَنَّ المَـعَاد لاَ يُـمْكن فِـيهِ التَّـجربَة والمُشَاهدَة .

وَقَد ذَهَب كَثِير مِن الفَلاَسفَة ، وعُلمَاء الأَديَان وَالمِلَل إِلَىٰ أَنَّ العَقْل وَحدَه هُو السَّبِيل إِلَىٰ مَعْرفَة المَعَاد ، وأَنَّه يَحكُم بوجُودَه مُستقلاً عَن كُلّ شَيء كَمَا يَـحكُم بوجُودَه الله ، وقَالَ آخرُون : إِنْ مَسأَلَة المعَاد لاَ تَمُت إِلَىٰ العَقْل بصلَة مُبَاشرَة ، لاَ يَحكُم بِهِ سَلباً وَلاَ إِيجَاباً ، أَجل ، إِنّه يَرىٰ إِمكَان الإِعَادَة وإِنْ شَاء أَبقَىٰ مَا كَان عَلَىٰ مَا كَان ، وَحَيث أَخبَر ٱلْقُرْءَان الكَرِيم ، وَسَائِر الكُتُب السّماويَّة أَنَّ المَعَاد كَائِن لاَ محَالة ، وَقَد حَكَم العَقْل بإمكَانه ، فَـيكُون وَالحَـال هَـذِهِ ، حَـقِيقَة ثَـابتَة يَـجْب التَّصدِيق بِهَا عَلَىٰ وِفق الشَّرع .

---

(١) كَانُوا يُفرقُون بَيْنَ التَّجربَة والمُشَاهدَة بأَنَّ المُشَاهدَة تَقْتَصر عَلَىٰ المُلاَحظَة فَقَط كـمرَاقـبَة النّـجُوم وَالنَّظر إِلَىٰ الأَجرَام السَّماويَّة . أَمَّا التَّجربَة فَلاَ بُدّ فِيهَا مِن التَّحلِيل وَالتَّركِيب وَالعِمليَّة الدَّقِيقَة ، وَبَـعد الإِقمَار الصِّنَاعيَّة تَحول عِلْم الفَلك مِن عِلْم المُشَاهدَة إِلَىٰ العِلْم التَّجرِيبي . (مِنْهُ ﷺ) .

(٢) قَالَ المُتَصوفَة : إِذَا تَجردَت النَّفس مِن عوَارض الشَّهوَات حَصَل لَهَا الكَشف الرّوحَاني ، وَأُلقي العِلْم فِيهَا إِلقَاء دُون أَيَّة وَاسطَة مِن الحوَاس أَو التَّجربَة والعَقْل ، وَبَديهَة أَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَة لَيْسَت مِن العِلْم فِي شَيء ، وإِلاَّ بَطَل النَّظر وَالتَّفْكِير ، وكَانَت الكُلّيَات ، والجَامعَات ، وَالمَصَانع ، وَالمُختبرَات كلّها عَبثاً فِي عَبَث ! . (مِنْهُ ﷺ) .

ونَحْنُ نَعتَمد هَذَا الطَّرِيق، لإِثبَات المعَاد، لأَنَّـه أَيسَـر الطُّـرق وَأَقـربهَا إِلَـىٰ الأَفهَام، ولأَنّه يَجْمَع بَيْنَ حُكم العَقْل بالإِمكَان وَعَـدم الإِمـتنَاع، وبَـيْنَ حُكـم الوَحي بالوقُوع وَالثّبُوت.

أَمّا حُكم العَقْل بالإِمكَان فلأَنَّ إِعَادَة الإِنْسَان بَعد المَوْت تمَاثُل خَلقَه وَإِيجَادَه فِي هَذِهِ الدُّنْيا بَعد أَنْ كَان عَدَماً، والعَقْل لاَ يُفرّق بَيْنَ المُتسَاوِيّين، وَيَجعَل وجُود أَحدهُما دَلِيلاً عَلَىٰ إِمكَان وجُود المَسَاوي الآخر ـ مَثلاً ـ إِذَا ٱستطَاع نـجّار أَنْ يَصنَع بَابَاً لِهَذَا البَيْت فبإِمكَانه أَيْضاً أَنْ يَصنَع مِثلَه أَو دُونَه لبَيْت آخر.

وَالإِنْسَان لَمْ يَكُن شَيْئَاً مَذكُورَاً، فأَوجَده الله مِن ﴿تُرَابٍ[١] ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[٢]، وَأَقرهَا فِي الأَرحَـام مُحاطَة بثَلاَثَة أَغشيَة[٣] لاَ يَنفذ إِليهَا المَاء، وَالنُّور، وَلاَ الهوَاء، ثُمَّ أَخرجَها طِفلاً لِيبلُغ أَشُدّه، وَجَعلَ لهُ أَعضَاء مُختَلفَة الصُّور، وَالقوَام حَتَّىٰ أَصْبَحَ فِـي أَحسَـن تَقوِيم، ثُمَّ وَهَبَه النُّـطق، والعَـقْل قَـاهر الطَّـبِيعَة، وَصَـانع المُـعجزَات، وَرَائِـد

(١) أَثبَت العِلْم الحَدِيث أَنَّ الإِنْسَان يَحتَوي مِن العنَاصر مَا تَحتَوِيه الأَرْض. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) ٱلحَجّ: ٥.

(٣) جَاء فِي الآيَة (٦) مِن سُورَة ٱلزُّمَر: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُـلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ﴾ وَفَسّر القُدَامىٰ الظُّلمَات الثّلاَث بظُلمَة البَطن، وَالرّحم، وَالمَشِيمَة. وَأَثبَت العِـلْم الحَـدِيث أَنَّ الجَنِين فِي بَطْن أُمّه يُحَاط بثَلاَثَة أَغشيَة تَقِيه المَاء، وَالضَّوء، وَالهوَاء، وَتُعرَف هَـذِهِ الأَغشـيَة بِاسـم المنَاريَّة، والأَمنيونيَّة، وَالخرنُوبيَّة. (مِنْهُ ﷺ).

المُسَافرين إلَىٰ الكوَاكب . ومَن أخرَج هَذَا الإنْسَان مِن العَدَم إلَىٰ الوجُود فهُو قَادر بلاَ رَيب عَلَىٰ أَنْ يُعِيدَه ثَانيَة قيَاسَاً للإستئنَاف عَلَىٰ الإبتدَاء لأَنَّهُما مُتسَاويَان بَل البِدء أعْظَم وأَخطَر وَمَن اَستطَاع أَنْ يَبني قُصراً فَأَولىٰ بهِ وَأَجدَر أَنْ يَبني كُوخَاً: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[١] .

أمَّا الوَحي فَقَد اَتّفقَت الشَّرائع ، والأَديَان حَتَّىٰ الصَّابئة عَلَىٰ وجُود ٱلْحَيَاة بَعد المَوْت ، وَإِنْ اَختَلفوا فِي صفَة الوجُود ، فَذَهب جمهُور المُتَكلمِين ، وَعَامّة الفُقهَاء وأَهْل الحَديث إلَىٰ أَنَّه جِسمَاني فقَط ، وقَالَ الفَلاَسفَة : أَنَّه رُوحني فَقط ، وَذَهب الغزّالي ، والكَعبي ، وَالرَّاغب الأَصفهَاني ، وكَثِير مِن عُلمَاء الأَماميَّة مِنْهُم الشَّـيْخ المُفِيد ، وَالمُرتَضىٰ ، والشَّيْخ الطُّـوسي وَغَـيرهم ـ ذَهـبُوا إلَـىٰ القَـوْل بـالمعَاد الجِسمَاني ، وَالرَّوحَاني معَاً ، ثُمَّ اَختَلف القَائلُون بالمعَاد الجِسمَاني فَـمِنْهُم مَـن قَالَ يُعَاد هَذَا البَدَن بعَينَه ، ومِنْهُم مَن قَالَ يُعَاد بمِثلَه لاَ بعَينَه[٢] .

ولَيْسَ مِن غَرضنَا تَحقِّيق هَذِهِ الأَقوَال ، وَبَيَان المُختَار وإنَّمَا المُهم لَدينَا أَصل الفِكْرة ، وَعَودَة الإنْسَان كَيف اَتّفق إلَىٰ حَـيَاة ثَـانيَة يُـحَاسب فِـيْهَا ، وَيُـجزىء بأَعمَاله ، إنْ خَيراً فَخَيراً ، وَإنْ شرّاً فَشَراً ، وهِـي أَي العَـودَة ـ مـحَل وفَـاق عِـندَ الجَمع ، لأَنَّهَا مُمكنَة عَقلاً ، ووَاقعَة حَتمَاً بنَصّ ٱلْقُرْءَان ، وَسَائر الكُتُب السَّماويَّة .

أَمَّا وجُوب الأَخذ بٱلْقُرْءَان ، وَالتَّصدِيق بخَبر النُّبوّة فَقَد أَثـبَتنَاه فِـي مَـبحثنَا

---

(١) يٰس : ٧٨ ـ ٧٩ .

(٢) كِتَاب المَبدَأ وَالمعَاد لصَدر الدِّين الشِّيرَازي ، المَعرُوف بالمُلا صَدرا المَقَالة الثَّالثَة مِن الفَن الثَّـانِي . (مِنهُ ﷺ) .

الثَّانِي « النُّبوّة والعَقْل » ، فَمَن اَعترَف بالوَحي يَجب عَلَيهِ التَّصدِيق بالآخرَة بَعد أَنْ أَخبَر الصَّادِق الأَمِين بوقُوعهَا ، كَمَا يَجْب تَصدِيق الطَّبِيب العَارف إذَا أَخبَر بوجُود الدَّاء ونَوع الدَّواء ، ومَن أَنكَر الآخرَة بَعد اَعترَافه بالوَحي ، والنُّبوّة كَان كَمَن يَعترف بأَنَّ فِي البَيْت رَجُلَين وَاَمرأتين ، وَيُنكر أَنَّ المَجمُوع (٤) ، وَبكَلمَة ثَانيَة أَنَّه لاَ يُمْكن بحَال الجَمع بَيْنَ الإعترَاف بالوَحي ، والنُّبوّة ، وَإنكَار الآخرَة ، لأَنَّ إنكَارهَا إنكَار للوَحي بالذَات ، أَمَّا مَن يُنكر وجُود الخَالِق فَلَيس مِن الحِكمَة أَنْ تُحَاول إقنَاعه بالآخرَة ، وإنَّمَا نُحِيله عَلَىٰ البَحث الأَوّل « اللهُ والعَقْل » .

قَدّمنَا فِيمَا سَبق أَنّنا نَعتَمد لإثبَات الآخرَة عَلَىٰ حُكم العَقْل بالإمكَان ، وَإخبَار الوَحي بالوقُوع ، وَأثبَتنا كلاَ الأَمْرَين ، وزيَادَة فِي الإطمئنَان نُورِد فِيمَا يَلي بَعْض الشَّواهد الَّتي تُعزّز ، وَتُؤكّد أَخبَار السَّمَاء ، وَتَنفي عَنْهَا كُلّ شَكّ وَرَيب .

١ ـ إنَّ اللهَ سُبْحَانَه أَمَر الإنْسَان بالفَضَائل ، ونَهاَه عَن الرَّذَائِل ، وَوَعد الطَّائع بالثَّواب ، وَتَوعد العَاصي بالعِقَاب . وَقَد رَأينا كَثِيرين يَطغُون ، وَيَبغُون عَلَىٰ الضُّعفَاء ، وَيُفسدُون فِي الأَرْض ، وَيَسفكُون الدّمَاء ، ثُمَّ يَمُوتُون دُون أَنْ يُصِيبهُم أي أذىٰ ، فَلَو لَم يَكُن حسَاب وَعقَاب وَلاَ يَوْم يُقتَص فِيهِ للمَظلُوم مِن الظَّالم لَذهب كُلّ حَقّ هدَراً ، وَكَان التَّكلِيف عَبثاً ، وَلَم يَكُن أي فَرق بَيْنَ الأَنْبيَاء وَالصُّلحَاء ، وبَيْنَ الأَشرَار وَالفُجّار ، بَل كَان الطَّيبُون أسوَأ حَالاً ، وَأَشقىٰ مَآلاً ، لأَنَّ أُولَئك سُعدُوا وَتَنعمُوا فِي هَذِهِ الحَيَاة ، وَتَحمل هَؤُلآء مِن أرزَائِهَا الكَوَارث والمِحن . وعَلَيهِ يَكُون النَّعِيم وَالثَّواب للخَبِيثِين الأَشرَار ، وَالعقَاب للطَّيبين الأَبْرَار ، وَهَذَا أَفحَش الظُّلم تَعَالَىٰ الله عَن ذَلِكَ عُلُوّاً كَبِيراً .

قَالَ إفلاَطُون لَو لَم يَكُن لنَا مَعَاد نَرجُو فِيهِ الخَيْرات لكَانَت الدُّنْيَا فُرصَة

الأشرار وكان القرد أفضل من الإنسان.

٢ ـ لقد أودع الله في نفس الإنسان من القوى والمشاعر ما تسير به في طريق التقدم والتطور حتى يبلغ درجة ليس فوقها إلا الخالق، أما الحيوانات والحشرات فإنها تسير به في سبيل واحدة لا تحيد عنها قيد شعرة، ولو ذهبت مشاعر الإنسان ومداركه بذهاب الجسم، ولم ينتقل إلى حياة أخرى لكان مصيره كمصير النبات، والحشرات، وكان ما أودع في طبيعته من العقل، والإدراك نافلة لا طائل تحتها، تعالت حكمة الله وعظمته. ولا نشك أن من نفى وجود العالم الثاني قد رضي لنفسه أن يكون في حكم الحشرات.

٣ ـ أن الإنسان لم يكن إنساناً ببدنه وهيكله، بل بنفسه وعقله، فإذا قال: «أنا. وأنت. وهو» فإنه لا يشير بهذه الألفاظ إلى البدن المركب من الرأس، واليدين، والرجلين، وإنما يشر إلى معنى عظيم الشأن، يحرك الجسم ويدبره، ويختلف عنه بحقيقته، وصفاته أشد الإختلاف، وهو المعنى الشريف الجليل الذي نعبر عنه بلفظ النفس، أو الفكر.

العَالَم حَادِث

هَذَا الكَون العَجِيب بأَرضِهِ ، وَسمَائه يُقَال لهُ العَالَم ، وَقَد آختَلف النَّاس هَل هُو حَادث ، أَي لَم يَكُن فكَان ، أَو قَدِيم لاَ أَوَّل لهُ وَلاَ آخر ؟ .

ذَهَب المُسْلمُون ، وَالنَّصارىٰ ، واليَهُود ، وَالمَجُوس إِلَىٰ أَنَّـه حَـادث . وقَـالَ آخَرون بأَنّه قَدِيم . وَهَذِهِ المَسأَلَة مِن أجلّ المَسَائل وَأَهمهَا ، وعَلَيهَا تَرتَكز قوَاعد الأَديَان كلّها ، حَيث آتّفقَت كَلمتَها عَلَىٰ أَنَّ القَدِيم وَاحد لاَ غَير ، وهُو الله سُبْحَانَه ، وأَنّه وجَد فِي الأَزل ، وَلَم يُوجد مَعَهُ شَيء ، وأَنَّه خَلَق الكَون مِن العَدَم ، وَأَبدَعه حَسَب مَشِيئَته وَإِرَادَته ، وإِذَا قُلنا بقِدَم العَالَم يَلزَم اللّوَازم البَاطلَة الآتيَة :

١ ـ أَنْ لاَ يَحتَاج العَالَم إِلَىٰ مُوجد لأَنّه لاَ بدَايَة لهُ وَلاَ نهَايَة[1] .

٢ ـ أَنْ يَكُون القَدِيم أَكثَر مِن وَاحد ، وأَنَّه كَان الله وكَان مَعَهُ قَدِيم آخر .

٣ ـ أَنْ يَكُون الله مَغلُوباً عَلَىٰ أَمره ، لأَنَّ الكَون وجدَ فِي الأَزل قَهراً بحَيث لاَ

---

(١) حَاوَل بَعْض الفَلاَسفَة أَنْ يُوفق بَيْن القَول بقِدَم العَالم وَإِيجَاد الله لهُ : أَنَّ للقَدِيم مَعنَيَيْن ، الأَوّل القَدِيم بالذَات وهُو مَا كَانَت ذَاته علّة لوجُودِه ، وَهذَا يَصدُق عَلىٰ الله وَحدَه . وَالثَّاني القَدِيم بالزَّمَان وَهُو الَّذي لاَ أَوّل لهُ غَير أَنّه مُقَارن لقوّة تُوجدَه وهُو العَامّ . وَعلَيه يَكُون العَالَم قَدِيماً زَمَانا مُمكناً ذَاتاً لأَنَّ الله أَوجَدَه وَإِذَا دُفع هذَا القَول إِشكَال عَدَم الخَلق ؛ فَإِنّه لاَ يُدفَع بقيَّة اللّوَازم البَاطلَة كتَعَدد القَدِيم وَكَون الله مَغلُوباً عَلىٰ أَمرِه . (مِنْهُ ﷺ) .

يَستَطِيع أَنْ يُحدثَه فِي زَمَان مُتَأخر.

٤ ـ أَنْ يَكُون الله غَير قَادر عَلَىٰ إفنَاء هَذَا العَالَم، وَالإِتيَان بعَالَم آخر يُحشَر النَّاس فِيهِ للحسَاب، لأَنَّ هَذَا العَالَم لَم يَنْتَقل مِن العَدَم إِلَىٰ الوجُود فكَذَلك لاَ يَنْتَقل مِن الوجُود إِلَىٰ العَدَم، ولأَنّه ثَابت لاَ يَتبدّل، كَمَا هُو شَأن القَدِيم.

وَمِن أَجل ذَلِكَ قَالَ العُقلاَء، وأَهْل الأَديَان: أَنَّ العَالَم حَادث، وأَنَّ الله كَان وَحدَه وَلَم يُشَاركَه شَيء فِي القَدِيم وَالآزَل.

وَقَد ٱستَدل مُتكلمُو المُسلِمين عَلَىٰ حدُوث العَالَم بأَدلَة أَشهرهَا الدَّلِيل التَالي:

وهُو أَنَّ الجِسم لاَ يَخلُو مِن الحوَادث، وكُلّ مَا لاَ يَخلُو مِن الحوَادث فهُو حَادث. وإِلَيكَ شَرْح هَذَا الدَّلِيل:

إِنَّ مِن جُملَة الحوَادث الَّتي لاَ يَنفَك عَنْهَا الجِسم السّكُون وَالحَرَكَة، لأَنَّ كُلّ جِسم لاَ محَالَة إِمّا أَنْ يَكُون سَاكنَاً، وَإِمّا أَنْ يَكُون مُتحركَاً، وَمَعنىٰ سكُون الجِسم مُكوثه فِي مَكَان وَاحد أَكْثَر مِن زَمَان وَاحد وَمَعنىٰ حَرَكَته إنتقَالَه مِن مكَان إِلَىٰ مكَان. وَالسّكُون وَالحَرَكَة مِن الأُمُور الحَادثَة، لأَنَّ كلًّا مِنهُمَا يَزُول وَيَتبَدل، فالمُتَحرك قَد يَسكُن، وَالسَّاكن قَد يَتَحرك، وَالقَدِيم هُو الثَّابت بطَبعِهِ عَلَىٰ طَرِيقَة وَاحدَة لاَ يَتَغير وَلاَ يَتبدل، ثُمَّ أَنَّ الحَرَكَة مَسبُوقَة بحَرَكَة قَبلهَا، وكَذَلكَ المَكُوث فِي المَكَان الوَاحد مَسبُوق بمكُوث قَبلَه، أَي أَنَّ المكُوث فِي اللَّحظَة الثَّانيَة مَسبُوق بالمكُوث فِي اللَّحظَة الأُولىٰ، وكُلّ مَا سَبَق بالغَير فهُو حَادث.

وَإِذَا كَان السّكُون، وَالحَرَكَة حَادثَين، وَالجِسم لاَ يَخلُو عَنْهُما لزَم أَنْ يَكُون الجِسم مَحلاً للحوَادث فَلاَ بُدّ أَنْ يَكُون حَادثَاً، وَلو ٱفتَرضنَا أَنَّه غَير حَادث لكَان

مَعنَىٰ هَذَا أَنَّه وجدَ فِي الأَزَل قَبل الحَركَة وَالسّكُون، وأَنَّ الجِسم قَد مَضىٰ عَلَيهِ أَمَد لَم يَكُن سَاكنَاً فِيهِ وَلاَ مُتحركاً، وهُو محَال، وعَلَيهِ تَكُون الأَجسَام حَادثَة.

وَسَلك فَيلسُوف العَرب الكِندي طَرِيقاً آخر لإِثبَات حدُوث العَالَم، قَالَ: كُلّ جِسم مَوجُود بالفِعل أَو سيُوجد فهُو مُتنَاه، وَيَستَحِيل أَنْ يَكُون سَرمديَّاً وَبَاقياً إِلَىٰ الأَبد. وَاستَدل بالدَّلِيل المَعْرُوف عِندَ الفَلاَسفَة ببُرهَان التَّطبِيق الَّذي اعتَمدُوا عَلَيهِ لبُطلاَن التَّسلسُل وَعَدم التنَاهِي فِي الزَّمَان المَاضي، فَاتَّخذ الكِندي مِنهُ دَليلاً عَلَىٰ التَّناهِي فِي المُستَقبَل أَيْضاً، وَيَتلخَصّ:

فِي أَنَّنا لَو فَصَلنَا جُزء مَحدُوداً مِن الجِسم المَفرُوض أَنَّه لاَ نهَايَة لهُ، فالبَاقي مِن هَذَا الجِسم إِنْ كَان مُتنَاهياً فهُو المَطلُوب، وَإِنْ فُرض أَنَّه غَير مُتنَاه، وأَنَّه بَقي كَذَلكَ غَير مُتنَاه أَيْضاً بَعد أَنْ زُدنا عَلَيهِ مَا أَخَذنا مِنْهُ أَوّلاً، وَلَكن هَذَا الجِسم بَعد الزِّيَادَة أَكبَر مِنْهُ قَبلهَا، فَإِذَا كَان فِي كلاَ الحَالَين غَير مُتنَاه تَكُون النَّتِيجَة الحَتميَّة أَنَّ اللاَّمُتنَاهِي أَكبَر مِن اللاَّمُتنَاهِي، وأَنَّ الكُلّ بمُقدَار الجُزء، وهُو محَال، إِذَن فَلاَ بُدّ أَنْ يَكُون الجِسم مُتنَاهياً فِي المُستَقبَل، ويَكُون أَيْضاً مُتنَاهياً فِي المَاضي، وهُو مَعنَىٰ الحدُوث.

وإِذَا أَثبَت أَنَّ العَالَم حَادث، وأَنَّه وجدَ بقُدرَة الله المُبدعَة المُطلقَة فَيكُون بقَاؤه مُتوقفاً عَلَىٰ إِرَادَته أَيْضاً، إِنْ شَاء أَبقَىٰ، وإِنْ شَاء أَفنَىٰ.

وَقَد يَتسَاءل: كَيف تُوجد أَشيَاء مِن لاَ شَيء.

وَنُجِيب بالتَّساؤل: مِن أَينَ جَاء ذَلِكَ الشَّيء الَّذي هُو مَصدَر الأَشيَاء فَإِنْ وجدَ مِن شَيء آخر أَعدنَا التَّساؤل إِلَىٰ مَا لاَ نهَايَة، وَلاَ حَل أَبداً إِلاَّ أَمْر الله إِذَا أَرَاد شَيْئاً

أَنْ يَقُول لهُ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[١].

فَالْإِرَادَة الإِلٰهيّة هِي الّتي تُبدع الكَون، وتُوجده بَعد أَنْ لم يَكُن شَيئاً، وهِي الّتي تُفنِيه فيُصبح لاَ شَيء، والعِلْم الحَدِيث لاَ يَتصَادم مَع هَذَا بخَاصّة بَعد أَنْ أثبَت أَنَّ المَادّة تَتحوّل إِلَىٰ طَاقَة. وَالطّاقَة إِلَىٰ مَادّة، وأَنّه لاَ حلُول نهَائِيّة، وَلاَ حَقَائِق مُطلقَة فِي «عِلْم الطَّبِيعَة الّذي تَكوّن عَلَىٰ يَد كبَار عُلمَاء النّسبيّة فِي القَرن العشرين، وَهُم الّذِين تَتَّسع فَلسَفتهُم وَنَظرتهُم إِلَىٰ هَذَا العَالَم المَادّي للقَول بالخَلق، وَالفنَاء، كَمَا تَتّسع للقَول بنَوع مِن المَعْرفَة بهَذَا العَالَم غَير المَعْرفَة المَأخُوذة مِن العِلْم الطَّبيعي»[٢].

وَبالتَالي فَنَحنُ نَتحدىٰ الفَلاَسفَة، والعُلمَاء فِي هَذَا القَرن، وفِي كُلّ قَرن أَنْ يَحلّوا مُعضلَة الكَون حَلاً سَليماً دُون أَنْ يَرجعُوا إِلَىٰ قُدرَة الله، وَإِرَادتـه، فَإِنْ فَعَلوا، وَلَن يَفعلُوا، فَنَحنُ أَوّل مَن يَسلم وَيَستَسلم. وَبالتَالي، فإِنّ كُلّ مَا نحسّه وَنُشَاهدَه مِن أَنْفسنَا، ومِن عوَارض الكَون فهُو حَادث، وَمُتَجدّد، فَمِن الكِبر إِلَىٰ الصّغر، ومِن الشّروق إِلَىٰ الغرُوب، ومِن الجَذب إِلَىٰ الإِقبَال، ومِن الصّحو إِلَىٰ غَيْره، وهكَذَا حَتّىٰ الحَجر الأَصم فِي تَغيّر دَائِم، كَمَا تَقتَضِيه النّظريّة الحَدِيثَة، والفَلْسَفَة الدّيَاليكتيكيَة، وَتَغيّر هَذِهِ الأَشْيَاء مَعنَاه حدُوثهَا وَتَجددهَا، وإِذَا كَانَت حَادثَة فَالنَتِيجَة المَنطقيّة أَنَّ الكَون الّذي يَتَألّف مِنْهَا حَادث أَيْضاً، لأَنَّ وجُود الكُلّي عَين وجُود أَفْرَادَه، ولَيْسَ لهُ وجُود مُستَقل عَنْهَا.

وَالحَمد الله الأَوّل بلاَ أَوّل يَكُون قَبلَه، والآخر بلاَ آخر يَكُون بَعدَه.

---

(١) يس: ٨٣.

(٢) أنظر، رَسَائِل الكِندي الفَلسفيّة. لأَبي رِيدَه: ٧٥ طَبْعَة (١٩٥٠م). (مِنْهُ ﷺ).

الآخِرَة وَالعِلْم الحَدِيث

مِن مَظَاهر الرُّقي وَالحضَارة عِندَ نَفَر مِن الشَّبَاب أَنْ يُطلقُوا فِي سُخرِيَة كَلمَة « مِيتَافِيزِيقي » عَلىٰ كُلّ مَن يَتَدَين ، وَيَتكَلّم بِاسم الدِّين ، فهُو بزَعمهِم مثَالي بَعِيد عَن الوَاقِع ، وَهُم وَاقعيُون لأَنَّهُم يُنكرُون الأَديَان .

وإِذَا كَان أَصحَاب الدِّين غَيبيِّين مِيتَافيزيقيِّين ، لأَنَّهُم آمنُوا بالله دُون أَنْ يُجربُوا وَيُشَاهدُوا فالذَّين جَحدُوا أَيْضاً غَيبيُون مِيتَافيزيقيُون ، لأَنَّهُم أَنكرُوا مِن غَير عِلْم وَلاَ مُشَاهدَة ، فمَا سَمعنَا أَنَّ أَحداً مِنْهُم أَو مِن قَام برِحلَة إِلَىٰ مَا ورَاء الطَّبِيعَة ، ثُمَّ عَاد وَأَخبَر أَنَّه لَم يَجد شَيْئَاً هُنَاك . . . إِذَن المُؤْمِن وَالجَاحد سوَاء فِي عدَم التَّجربَة والمُشَاهدَة ، فكَيف يُقَال عَن أَحدهمَا وَاقعي ، والآخر مثَالي ! .

وَبتَعبِير ثَاني إِنْ كَان الإِيمَان بالله لاَ يَصدق إِلَّا إِذَا اكتَشفنَا وجُود الخَالِق بالآلاَت كَمَا نَكتَشف دَرجَة الحرَارَة بـمِيْزَان الحَرَارَة ، فَإِنَّ كُلًّا مِن الجَاحد وَالمُؤْمِن لَم يَستَعمل الآلاَت وَالمُختبرَات ، فكَيف نُسب ذَاك إِلَىٰ الوَعي ، وَهذَا إِلَىٰ الجَهل ؟ ! .

ثُمَّ إِذَا كَان كُلّ مَن يَعتَمد العَقْل والإِستِنتَاج مِيتَافيزيقيًّا فَجَمِيع النَّاس ، إِذَن ، مِيتافيزيقيُون دُون استثنَاء ! ، فَمَن قَالَ : كُلّ شَيء فِي الوجُود مَادّة فَقط أَو رُوح فقط ، أَو هُما معاً فَقَد قَالَ قَولاً مِيتَافيزيقيّاً ، وَكذَا مَن قَالَ : المَعْرفَة لاَ تَحصَل إِلَّا

مِن الحوَاس وَحدهَا، أَو مِن العَقْل وَحدَه، أو مِنْهُمَا مُتعَاونَان، أَو قَالَ: الأُمور كلّها نِسبيَة وَلاَ حقَائق مُطلقَة، أَو قَالَ: الكَون قَدِيم أو حَـدِيث، وأَنَّ أَصـلَه ذرّات أَو غَازَات، وَأَصل الإِنْسَان قِرد أَو طَحلَب، وأَنَّ الأَرْض قِطعَة مِن الشَّمْس، والمَادّة فِي حَركَة دَائمَة، وأَنَّ هَذَا خَيرٌ أَو شَرٌّ، وذَاك جَمِيل أَو قَبِيح، وَمَا إِلَـىٰ ذَلِكَ مِـن الأَحكَام العَامّة فَهُو غَيبي مِيتافيزيقيُون، لأَنّه لَم يُجَرب وَيُشَـاهد، بَـل العُـلمَاء الَّذِين جَربُوا وَشَاهدُوا ميتَافيزيقيُون أَيْضَاً، إِذْ لاَ غِنىٰ لهُم عَن العَـقْل، والإِدْرَاك الَّذي لاَ يَنفَك عَن الذَّات بحَال، فالمَعرفَة أَيّاًكَان سَبَبها فَإِنّهَا تَرد صَـاحبهَا إِلَـىٰ ذَاتَه، ولِذَا قِيل: لاَ يُوجد أَشيَاء ذَاتيَة خَالصَة مِئَة بالمِئَة، وَلاَ مَوضوعيَّة مُطلقَة مِئَة بالمِئَة، وإِنَّمَا تَتكَيَّف الذَّات بحَسَب المَوضُوع، وَيتكيَّف الحُكم عَلَىٰ المَـوضُوع بحَسَب الذَّات. وعَلَىٰ هَذَا تَكُون المِيتافيزيقَا عَلَىٰ أَنـوَاع لاَ نَـوع وَاحـد، فَـمِن الخَطأ أَنْ تحصرهَا بمَا وَرَاء الطَّبِيعَة فَقَط، لأَنَّ كُلّ فِكرَة لاَ تَـقُوم عَـلَىٰ التَّـجربَة والمُشَاهدَة فَهي غَيبيَّة مِيتافيزيقيَّة، سوَاء أَكَان مَصدَرهَا العَقْل أَو الوَحي أَو أَي سَبَب آخر.

أَنَّ سَبِيل الحَقِيقَة لاَ يَنْحَصر بالتَّجربَة والمُشَاهدَة، وَلاَ سَبِيل الخرَافَة بـالغَيب وَالمِيتافيزيقَا، وإِنَّمَا معيَار الحَقِيقَة وَمدَارهَا أَنْ تَكُون ثَابتَة فِي نَـفْسَهَا وَمُـطَابقَة للوَاقع، وَللحَقَائِق الغَيبيَة وَاقع خَارجي، تَمَاماًكالحَقَائِق الطَّبيعيَّة.

وقَالَ قَائِل: كَيف يَكُون الغَيب حَقِيقَة مَع بُعده عَن عَالَم المُشهَادَة الَّذي نَعِيش فِيهِ؟! أَنَّ لَفظَة غَيب بنَفسهَا تُشعر بالعَدم المَحض الَّذي لاَ يَصح وَصفَه بـالكَذِب وَلاَ بالصّدق، لأَنَّ مَا يُوصف بالكَذِب يَنبَغي أَنْ يَكُون قَابلاً للإِتّصَاف بالصّدق - مَثلاً - إِذَا قَالَ لَكَ قَائِل: فِي الصَّندُوق أَربَع بُرتقَالاَت، فبإِمكَانك أَنْ تَتحقق مِـن

هَذَا الزَّعم بالنَّظر فِي دَاخل الصَّندُوق، فإنْ وجدَت فِيهِ البُرتقالاَت الأَربع فَهُو صَادق وإلّا فهُو كَاذب، أمَّا الَّذي لاَ تَكمُن فِيهِ عَمليَة التَّجربَة والمُشَاهدَة فهُو أَسوَأ حَالاً مِن الكَذِب، لأنَّه كَلاَم فَارغ لاَ مَدلُول[1].

ونَحْنُ نَسأَل هَذَا «القَائِل» عَلَىٰ أي شَيء اَستَندتَ فِي قَولك هَذَا؟ هَل جَرّبتَ رَأيَك وَحَلّلته فِي المَعَامل وَالمُختبرَات قَبل أَنْ تَنطق بِهِ؟! وأيْضاً لقَد اَعترفتَ فِي صَفحَة (١٩٠): «أَنَّ للإِنسَان جِسماً وَرُوحاً، فَمِن أَينَ جَاءَك العِلْم بهَذَا؟! هَل لمَستَ الرُّوح بيَدَيك، أَو شَاهدتهَا بعَينَيك؟!.

قَالَ «دَارون» صَاحب نَظريَة النّشوء والإرتقَاء: «يَستَحِيل عَلَىٰ العَقْل الرَّشِيد أَنْ تَمر بِهِ ذَرّة مِن شَكّ فِي أَنَّ العَالَم الفَسِيخ بمَا فِيهِ مِن الآيَات البَالغَة، والأَنفُس النَاطقَة المُفكرَة قَد صَدَر عَن مُصَادفَة عَميَاء، لأَنَّ المُصَادفَة لاَ تَخلق نظَاماً، وَلاَ تُبدع حُكماً، وذَلِكَ عِندي أَكبَر دَلِيل عَلَىٰ وجُود الله».

ولَكنَّه عِند الكَاتب أكبَر دَلِيل عَلَىٰ عَدَم الوجُود، لأنّه لاَ يُمكن أَنْ يَتحقَّق مِنْهُ بالتَّجربَة كَمَا يَتحقَّق مِن وجُود البُرتقَالاَت فِي الصّندُوق!.

وَمرّة ثَانيَة نَقُول: لَيسَت التَّجربَة هِي السَّبِيل الوَحِيد لمَعرفَة الحَقِيقَة فإنَّ فِي الغَيب حَقَائِق لاَ تَدخُل فِي حسَاب، ولَيْسَ بَينَها وبَيْنَ الحَقَائِق الطَّبيعيَّة أَي تَنَاقض أَو تَضَاد، بَل هُما متَآزرتَان تَدعم إحدَاهُما الأُخرىٰ. فَقَد جَاء فِي الحَدِيث: «الْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ، فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ، وَالْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا اَرْتَحَلَ عَنْهُ»[2]. وَقَالَ: «الحَيَاء وَالدِّين مَع العَقل حَيْث كَان»[3]. ويُومىء

---

(١) أنظر، كِتَاب «قُشُور وَلُبَاب» للدكتُور نَجِيب زَكي مَحمُود: ٢٠٧ طَبعَة (١٩٥٧م). (مِنهُ ﷺ).

(٢) أنظر، نَهج البَلاَغَة: الحِكمَة (٣٦٥).

هَذَا إِلىٰ أَنَّ الْإِيمَان لاَ يَسْتَقِيم إِلّاَ مَع الْعَقْل. وفِي الْحَدِيث الشَّرِيف: «المَعْرِفَة رَأْس مَالِي، وَالعَقْل أَصْل دِيني، والحُبّ أَسَاسِي، والشَّوْق مَرْكَبِي، والْخَوْف رَفِيقِي، والْعِلْم سِلاَحِي، والْحِلْم صَاحِبِي، والتَّوكُلّ زَادِي «رِدَائِي»، والقَنَاعَة كَنْزِي، والصِّدْق مَنْزِلي، والْيَقِين مَأْوَاي، وَالْفَقْر فَخْرِي وَبِهِ أَفْتَخر عَلىٰ سَائِر الْأَنْبِيَاء والْمُرْسَلِين»[٤]. كَمَا قَدَّمت العُلُوم الجَدِيدَة كَثِيراً مِن الشَّوَاهد عَلَىٰ أَنَّ مَا جَاء فِي الْإِسْلاَم عَن الْأُلُوهِيَّة، والوَحي، وَالبَعث هِي حقَائِق لاَ رَيب فِيْهَا، وَقَد قَدّمنَا طَرفَاً مِنْهَا فِي الكِتَاب الْأَوّل الّذي خَصّصنَاه للأُلُوهيَّة، وفِي الكِتَاب الثَّانِي المَوضُوع للوَحي. وَنَنُقل فِيمَا يَلي بَعْض الشَّوَاهد والأَرقَام العِلميَّة الَّتي تَتّصل بالآخرَة.

بَقَاء الرُّوح:

أَثبَتَت التَّجَارب العِلميَّة الَّتي جرَت فِي أَمريكَا، وَإِنْجلتَرا، وَفَرنسَا أَنَّ الْإِنْسَان مُركّب مِن جِسم وَرُوح، وَأُنشيء فِي الجَامعزات فَرع للبحُوث الرُّوحيَّة تَخصّص بِهَا العُلمَاء حَتَّىٰ أَصبَحت عِلمَاً مُستقلاً مُعترفَاً بِهِ كسَائِر العُلُوم، وَأبتَدأت الدَّارسَة الرُّوحيَّة فِي أَمريكَا سَنه (١٩٣٧ م)، وفِي أَكسفُورد، وَإِنْجلتَرا سَنَة (١٩٤٣ م)، ثُمَّ تَتَابعَت هَذِهِ الدّرَاسَات فِي بُون، وَميُونيخ، وَبَرلين، وَقَدّم الدّكتُور هتنجر دَارسَة رُوحيَّة عَمِيقَة لنَيل الدّكتُورَاه فِي جَامعَة كَمبردج عُنوَانهَا: «القوّة فَوق

(٣) أنظر، كَشف الغُمّة: ٣ / ٦٢.

(٤) أُنظر، الشّفا بتَعريف حقُوق المُصطَفىٰ: ١ / ١٤٦، المحجة البَيضَاء: ٨ / ١٠١، عوَالي اللّيالِي: ٤ / ١٢٥ ح ١، مُستَدرك الوَسَائِل: ١١ / ١٧٣ ح ١٢٦٧٢.

المُدركَة » وأثبَت العِلْم الحَدِيث فِي مَعَامل الجَامعَات أَنَّ الرُّوح بَعد أَنْ تُغَادر الجَسَد لهَا كيَانها الأَثِيري. أَمَّا المُؤلّفَات الَّتي وضعَت لهَذه، الغَاية فكَثِيرَة، وَكلّها تُجْمع عَلَىٰ أَنَّ الرُّوح بَاقيَة، وأَنَّ الْحَيَاة مُتوَاصلَة بَعد المَوْت وَصَدق الله العَظِيم: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[1]؛ وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2].

يوم الآخرة كألف سنة:

جَاءَ فِي الآيَة: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[3].

وفِي الآيَة: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[4].

وَالآيتَان مُتنَافِيَتَان بحَسَب الظَّاهر، لأَنَّ الأُولىٰ قَدرَت يَوْم الآخـرَة بأَلف، وَالثَّانيَة بخَمسِين أَلف، ولَكن هُنَاك سرّ عِلمي يَدفَع هَذَا التّنَافِي، إذْ قرّر التَّارِيخ الجيُولُوجي، وَالفَلكي أَنَّ الأَرْض بَعد انفصَالهَا عَن الشَّمْس كَانَت تَدُور حَول نَفْسهَا بسُرعَة أكبَر مِمَّا هِي عَلَيهِ الآنْ، فكَانَت دَورَتها تَتم مرّة كُلّ أَربَع سَاعَات، أَي أَنَّ مَجمُوع اللّيل وَالنَّهار كَان أَربَع سَاعَات فقَط، وبتَوَالي النَّقص فِي سُرعَة دَورَانهَا حَول نَفْسهَا، زَادَت المُدّة الّتي تَتم فِيهَا دورَانهَا هَذَا، فزَادت مُدّة اللّيل

(١) الفَجْر: ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) آل عِمْرَانَ: ١٦٩.

(٣) السَّجْدَة: ٥.

(٤) المَعَارِج: ٤.

وَالنَّهار إِلَىٰ خَمس سَاعَات، ثُمَّ سِتِ حَتَّىٰ وَصَلت إِلَىٰ أَربَع وَعشرِين سَاعَة الَّتي هِي عَلَيهَا الْآنْ، وهَكَذَا يَتوَالي النَّقص وَيَطّرد طُول اللَّيل وَالنَّـهار، وَيَأتـي يَـوْم مُقدَاره أَلف، وآخر خَمسُون أَلفاً إِلَىٰ أَنْ يَصبَح الوَجه المُقَابل للشَّمس نَهَاراً دَائمَاً وَالوَجه الخَلفي لَيلاً دَائمَاً.

هَذَا، وأَنَّ ٱلْحَيَاة الثَّانيَة لاَ تَقُوم عَلَىٰ هَذَا الكَوكَب الَّذي نَعِيش فِيهِ، بَل ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[1]. وَبَديهَة أَنَّ اليَوْم يَخْتَلف طُولاً وَقصراً بِإختلاَف الكَوَاكب، فَيَوم ٱلْقَمَر وَلَيلَته (٢٧) يَومَاً مِن أَيَّامنَا[2]. وَالله أَعْلَم بأَيَّام الكَوَاكب الأُخرىٰ.

إِنشقَاق ٱلْقَمَر:

قَالَ الله تَعَالَىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّـاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[3].

ويَقُول العَالَم الفَلَكي سِير جِيمس فِي كِتَاب «النُّجُوم فِي مَسَالكهَا»: «سَوف يَقْتَرب ٱلْقَمَر مِن الأَرْض شَيْئاً فَشَيْئاً حَتَّىٰ يَصِير فِي النّهايَة قَرِيبَاً مِنْهَا قُرباً يَحُول بَيْنَ ٱلْقَمَر وَالسَّلاَمَة، وَحِينَئذٍ يُنفذ فِيهِ القَضَاء، وَيَتفَتت وَيَتمَزق».

ولَيْسَ مِن شَكّ أَنَّ إِنشقَاق ٱلْقَمَر وَسقُوطَه يَكُون إِيذَاناً بِإِختلاَل الجَاذبيَة بَيْنَ الكَوَاكب، فَتُسوىٰ الشَّمْس إِلَىٰ الأَرْض، أَو إِلَىٰ مَا لاَ نَعرفَه وَنَتَصورَه، ويَكُـون ذَلِكَ مِن أَدلَة قِيَام السَّاعَة.

---

(١) إِبْرَاهِيم: ٤٨.

(٢) أُنظر، جَرِيدَة الأَهرام تَأرِيخ: (٣١/ ١٠/ ١٩٥٩م). (مِنْهُ ﷺ).

(٣) ٱلْقَمَر: ١.

وفِي جَرِيدَة «الأَهرَام» تَأرِيخ: (٣١/ ١٠/ ١٩٥٩م) أَنَّـه بَـعد أَنْ اُلتـقَطت صُورَة الوَجه الخَلفي مِن اَلْقَمَر تَكهنَ بَعْض العُلمَاء بسـقُوطَه إِلَىٰ الأَرْض فِـي المُستَقبَل. وَأَذَاعت الجِهَات العِلميَة فِي آخر (١٩٥٥م) أَنَّ لُجنَة الطَّاقَة الذَّريَّة قَد أَعلَنَت أَنَّ الدّكتُور (إيرنست لورنس) تَوصل إِلَىٰ اَكـتشَاف خَـطِير؛ وهُـو وجُود كهَارب مِن جِنْس البرُوتُون، وَلَكنّها سَـالبَة، وأَنَّـها تُكـوّن طَـبقَة حَـول الأَرْض فِي طَبقَات الجَو العُليَا، وأَنَّ وجُود هَذِهِ الكَهَارب المُغَايرَة للطَبيعَة أَخطَر مَا يُمْكن أَنْ يَتصَورَه العَقْل البَشَري.

وعَلَىٰ ذَلِكَ فَلُو تَحطمَت ذَرَّة مِن ذَرّات عُنصر هَام يَدخُل فِي تَركِيب كَثِير مِن المَوَاد بَدلاً مِن اليُورَانيُوم خَطأً أَو قَصداً فَسَينتُج عَن ذَلِكَ غَاز مُشتَعل مُـلتَهب، وَتَصْبَح مِيَاه البحَار، وَالمُحيطَات، والأَنْهَار نَاراً مُتأجِجّة بأَقل مِن لَـمح البَـصَر. وَقَد نَطَق اَلْقُرْءَان الكَرِيم بذَلكَ: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾[١].

وَفِي آيَة ثَانيَة: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[٢].

وَفِي آيَة ثَالثَة: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾[٣].

وَفِي آيَة رَابعَة: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾[٤].

وَقَد أَثبَت العِلْم كُلّ هَذِهِ الصُور، وأَنَّ التَّدمِير سَيكُون فِي دَاخل الذَّرّات فِـي

(١) اَلطُور: ٦ ـ ٧.
(٢) اَلتَّكوِير: ٦.
(٣) اَلإِنفطَار: ٣.
(٤) اَلإِنْشقَاق: ١ ـ ٥.

الأَرْض وَالسَّماوَات[١].

هَذِهِ بَعْض الشَّوَاهد العِلميّة الّتي تُلقي ضَوء عَلَىٰ وجُود الآخرَة، وَتُثبت أَنَّـهَا نَفْس الحَقِيقَة الّتي نَطَق بِهَا الوَحي قَبل مِئَات السّنِين. ولَيْسَ مِن شَكّ أَنّنا سَنَظفر بالمَزِيد مِن هَذِهِ الأَرقَام كُلّمَا تَقدّم العِلْم.

لَقَد اهتَم ٱلْقُرْءَان الكَرِيم بقَضيّة الدَّار الآخرَة، ليُفهم كُلّ إِنْسَان أَنَّه لَـن يُـترَك سُدىٰ، وأَنَّه مَسؤول وَمُحَاسب عَلَىٰ كُلّ كَبِيرَة وَصَغِيرَة، وأَنَّ كُلّ شَيء يُـفنىٰ إِلّا وَجهَه الكَرِيم اهتَم ٱلْقرْءَان بهَذَا كِي يَتّجه كُلّ وَاحد منّا اتجَاهاً مُستَقِيماً فِي سَعيَه وَسلُوكَه فِي هَذِهِ ٱلْحيَاة. أَمَّا عَلاَمَات السَّاعَة فَقَد ذَكرهَا ٱلْقُرْءَان الكَرِيم للتَّنبِيه وَالتَّذكِير، كَمَا هُو شَأن الوعّاظ وَالمُنذرِين فَمِن خُطبَة للإِمَام عَليّ عليه السلام فِـي هَـذَا البَاب قَوْلَه:

«حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَالأَمْرُ مَقَادِيرَهُ، وَأُلْحِقَ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ، وَجَاءَ مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا يُرِيدُهُ مِنْ تَـجْدِيدِ خَـلْقِهِ، أَمَـادَ السَّـمَاءَ وَفَـطَرَهَا، وَأَرَجَّ الأَرْضَ وَأَرْجَفَهَا، وَقَلَعَ جِبَالَهَا وَنَسَفَهَا، وَدَكَّ بَعْضُهَا بَعْضاً مِنْ هَـيْبَةِ جَـلاَلَتِهِ، وَمَـخُوفِ سَطْوَتِهِ، وَأَخْرَجَ مَنْ فِيهَا، فَجَدَّدَهُمْ بَعْدَ إِخْلاَقِهِمْ، وَجَـمَعَهُمْ بَـعْدَ تَـفَرُّقِهِمْ، ثُـمَّ مَيَّزَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ عَنْ خَفَايَا الأَعْـمَالِ، وَخَـبَايَا الأَفْـعَالِ، وَجَـعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ: أَنْعَمَ عَلَىٰ هَؤُلاَءِ، وَانْتَقَمَ مِنْ هَؤُلاَءِ»[٢].

أَجَارنَا الله مِن غَضَبِهِ وَسَطوَته، وَشَملنَا بعَفوَه وَرَحمَته.

---

(١) نَقَلنَا أَقوَال العُلمَاء الغَربيّين فِي هَذَا البَاب عَن كِتَاب الله والعِلْم الحَدِيث. وَٱلْقرْءَان وَالعِلْم الحَـدِيث للأُستَاذ عَبدالرَّزاق نُوفل. وَمَن قَرَأ هَذَين الكتَابَين يحمد الله وَالمُؤلّف عَلَىٰ مَا فَتحَا لهُ مِن أَبوَاب العِلْم بنَفسه وَمَصِيرَه. (مِنهُ رحمه الله).

(٢) أنظر. نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطبَة (١٠٩).

التَّنَاسُخ

اَختَلف النَّاس فِي حَقِيقَة النَّفس، وتَعَدّدت الأَقوَال حَتَّىٰ بَلَغَت أَربَعَة عَشَر قَوْلاً[1]، أَسخَفهَا القَوْل بأَنَّ نَفْس الإِنْسَان هِي الله بالذَّات، وأَضعَفها أَنَّهَا المَاء، وَالهَوَاء، أَو النَّار، أَو هَذِهِ العَنَاصر مُجْتَمعَة، لأَنَّه لاَ حَيَاة مَع فَقَد أَحدهَا، وأَشهَر الأَقوَال قَولاَن:

الأَوّل: أَنَّهَا جَوهَر مُجَرد عَن المَادّة وَعوَارضهَا، أَي لَيْسَت جِسمَاً، وَلاَ حَالَة فِي جِسم، وإِنَّمَا تَتّصل بِهِ اَتّصَال تَدبِير وَتَصرف، وبالمَوت يَنْقَطع الإِتّصَال. وعَلَىٰ هَذَا الرَّأي جمهُور الفَلاَسفَة، والشِّيعَة الإِمَامِيَّة، وَالغزّالي مِن الأَشَاعِرَة.

الثَّانِي: أَنَّهَا جَوهَر مَادّي، ذَهَب إِلَيهِ جَمَاعَة المُعتَزلَة، وكَثِير مِن المُتَكلمِين[2] وقَالَ الحَنبَليَّة، وَالكَرَاميَّة وكَثِير مِن أَهْل الحَدِيث: كُلّ مَا لَيْس جِسمَاً، وَلاَ يُدرَك بإِحدىٰ الحوَاس فَهُو لاَ شَيء[3].

وَاَستَدل القَائلُون بنَفي المَادّة عَن النَّفس بأَنَّها تُدرِك وَتُفَكّر، والمَادّة لاَ تُدرِك

---

(١) أُنظر، بحَار الأَنوار: ١٤ باب السَّماء والعَالَم. طَبْعَة الكُمبَاني و: ٦٣/ ٤٨٧.

(٢) أُنظر، رسَالَة البَاب المَفتُوح للشَّيخ عَليّ بن يُونُس نَقلهَا صَاحب البحَار فِي مُجلّد السَّمَاء وَالعَالَم. (مِنهُ ﷺ).

(٣) أُنظر، المَبدَأ وَالمَعَاد لصَدر المُتألهِين الشّيرَازي. (مِنهُ ﷺ).

وَلاَ تُفكِّر، فتَكُون مُغايرَة لهَا.

وَأَجابهُم القَائلُون بثبُوت المَادّة للنّفس، بأنَّ الجِسم يَحسّ وَيُدرك حَرارَة النَّار، وَبرُودَة الثّلج، وَحلاَوة العَسَل، وَأَلم الضَّرب، وكَذلكَ إذَا قَالَ القَائِل: أَكلتُ، وَنمتُ، وَتزوّجتُ وَسَافرتُ، فَإنَّ هَذِهِ وَمَا إلَيهَا مِن خوَاص الجِسم وعَلَيهِ يَكُون الجِسم مُدركاً مِثْل النَّفس.

الجَوَاب:

إنَّ إدرَاك الحَرَارَة، وَالبُرودَة، والأَلَم مِن خوَاصّ النّفس، وَالجِسم وَاسِطَة وَآلَة، تمَاماً كَأدوَات البِنَاء بالقِيَاس إلَىٰ البَاني، وإلَّا لَو كَان الإِدرَاك، والإِحساس للجِسم وَحدَه لكَان كُلّ جِسم يَحسّ وَيُدرك حَتَّىٰ الحَجَر.

أَمَّا عَدَم فنَاء النَّفس وَبقَاؤهَا بَعد المَوْت فَقَد أَطَال الفَلاَسفَة فِي إقَامَة البَرَاهِين العَقليَّة عَلَيهِ. والحَقِيقَة أَنَّ فَنَاء الجِسم لاَ يَستَدعي فَنَاء النَّفس وَلاَ بقَاءهَا، وَأَنَّ العَقْل لاَ يَحكُم بذَلكَ سَلباً وَلاَ إيجَاباً، بَل يَتركَه إلَىٰ الشَّرع. وَقَد أَجمَعَت الأُمّة، وَتوَاتَرت السُّنَّة، وَنصّ ٱلْقُرْءَان الكَرِيم عَلَىٰ أَنَّ النَّفس بَاقيَة بَعد فنَاء الجِسم: ﴿وَلَاتَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1].

وَقَد دَانَت طوَائف مِن شعُوب شَتّىٰ ببقَاء النَّفس بَعد فَنَاء الجِسم، وَبتنَاسخهَا مُتَنقلَة مِن بَدَن إلَىٰ بَدَن، بحَيث يَكُون بَيْنهَا وبَيْنَ الثَّانِي مِن العلاَقَة مَا كَان بَيْنَهَا وبَيْنَ الأَوّل. ومِن عَقِيدَة أَهْل التّنَاسخ أَنَّ النَّفس إذَا كَانَت مُطِيعَة لله تَعَالَىٰ، ومِن ذوَات الأَعمَال الطَّيبَة والأَخلاَق الطَّاهرَة ٱنتَقلت بَعد مَوتهَا إلَىٰ أَبدَان السُّعدَاء وأَهْل الجَاه وَالثّرَاء، وإذَا كَانَت عَاصيَة شَقيّة ٱنتَقلت إلَىٰ أَبْدَان الحَيوَانَات، وَكُلّمَا

(١) آلِ عِمْرَان: ١٦٩.

كَانَت أَكْثَر شقَاوَة أُختِير لهَا بَدَن أَخس وأَكْثَر تعبَاً.

وقَالَ صَدر المُتَألِهين الشِّيرَازي فِي كِتَاب «المَبدَأ وَالمَعَاد» إِذَا ٱنْتَقَلت النَّفس الإِنْسَانيَّة إِلَىٰ بَدَن إِنْسَان سُمّي ذَلِكَ نَسخاً، وإِذَا ٱنتَقَلت إِلَىٰ بَدَن حَيوَان كَان مَسخاً، وإِذَا ٱنْتقلَت إِلَىٰ النَّبَات فَهُو الفَسخ، أَو إِلَىٰ الجَماد فَهُو الرَّسخ. وَلاَ حسَاب عِند أَهْل التَّناسُخ، بَل تَنْتقل النَّفس فِي هَذِهِ ٱلْحَيَاة مِن كَائِن إِلَىٰ كَائِن، وهَكَذَا إِلَىٰ مَا لاَ نهَايَة، وَغير بَعِيد أَنَّ مُختَرع هَذِهِ الفِكْرة كَان رحَّالاً مِن عُشَّاق الأَسفار. ومَهْمَا يَكُن فَقَد ٱستَدلوا عَلَىٰ التَّناسُخ بمَا يَلي:

١ ـ أَنَّ النَّفس لَو لَم تَنْتَقل بَعد فسَاد الجِسم الأَوّل إِلَىٰ غيْرِه لبَقِيَت مُعطَّلَة بلاَ عَمَل، لأَنَّ البَدَن بمَنزلَة الآلاَت، والأَدوَات للنَّفس، وَبدُونَه لاَ تَستَطِيع القيَام بأَي عَمَل.

وَأُجيبُوا بأَنَّه ثُمَّ مَاذَا؟! وَأي بَاطل يَترتَب عَلَىٰ تَركهَا للعَمل؟! وعَلَىٰ ٱفترَاض أَنَّه لاَ بُدّ لهَا مِن تَدبِير عَمَل فَلَيس مِن الضَّرُوري أَنْ يَكُون عَمَلهَا بَعد مُفَارقَة البَدَن تَمَامَاً كعَمَلهَا حِينَ ٱتّصَالهَا بِهِ، فَرُبّما كَان مِن نَوع آخر كالإِشراق والإِبتهَاج وَمَا إِلَىٰ ذَلِكَ مِمَّا لاَ يَستَدعِي وجُود البَدَن.

٢ ـ أَنَّ النُّفُوس هِي عبَارَة عَن كَميَّة مَحدُودَة العَدَد، لأَنَّهَا مَوجُودَة بكَاملهَا فِعلاً وَخَارجَاً لاَ تُزِيد وَلاَ تُنقص، أَمَّا الأَجسَام فَلاَ نهَايَة لهَا، بَل تَتجَدّد وَتَتبدّل عَلَىٰ التَّوالي وَالتَّعاقب، وَبذَلكَ تَكُون الأَبْدَان أَكْثَر عَدَداً مِن النُّفُوس، فَإِذَا لَم تَنْتَقل النَّفس الوَاحدَة بَيْنَ أَبْدَان عَدِيدَة لَزَم أَنَّ تَبقَىٰ أَبْدَان بلاَ نفُوس، لأَنَّ تَوزِيع الأَقل عَلَىٰ الأَكثَر بالتَّساوي محَال.

وَالجَوَاب: أَنَّ هَذِهِ دَعوىٰ بلاَ دَلِيل، وَٱفترَاض بدُون أَسَاس، ومَن الَّذي قَام

بعَمليَة الإِحْصَاء، وَثبتَ لهُ بالتَّتبع، وَالإِستقرَاء أَنَّ النُّفُوس أَقل مِن الأَجسَام ؟! .

وعَلَىٰ الرَّغم مِن أَنَّ أَقْوَال أَهْل التَّنَاسُخ كُلّها مِن هَٰذَا القَبِيل فَقَد اَستَدل العُقلاَء عَلَىٰ بُطلاَن التَّنَاسُخ بأُمُور :

١ ـ لَو اَنْتَقلَت النَّفس مِن البَدن الأَوّل إِلَىٰ الثَّانِي للَزَم أَنْ يَتَذكر الإِنْسَان شَيْئاً مِن أَحوَال البَدَن الأَوّل، لأَنَّ العِلْم، وَالحِفظ، وَالتَّذكر مِن الصّفَات الَّتي لاَ تَختَلف بإِختلاَف الأَبْدَان، والأَحوَال، مَع أَنَّنا لاَ نَعرف شَيْئاً عَمّا كَان قَبل وجُودنَا الحَالي .

٢ ـ لَو تَعَلقَت النَّفس بَعد مُفَارقَة هَٰذَا البَدن ببَدن آخر للَزَم أَنْ يَكُون عَدَد الوفيَات بمقدَار عَدَد المَوَالِيد دُون زيَادَة أَو نُقصَان، لأَنّه إِذَا زَادَت المَوَالِيد بَقيتْ أَبْدَان بلاَ نفُوس، وهُو بَاطل عِندَ أَهْل التَّنَاسُخ، لأَنّه يَستَلزم تَعطِيل النُّفُوس، وَأَمَّا تَعطِيل الأَبْدَان، فَإِنَّهُم يَمنعُون مِن وجُود المُعطّل فِي الطَّبِيعَة . هَٰذَا بالإِضَافَة إِلَىٰ أَنَّ المَوَالِيد لاَ تَتَساوىٰ أَبداً مَع الوَفَيَّات، فأَيَّام الحَرب، وَالجُوع، والأَمْراض، وَالطُّوفَان، وَالزَّلاَزل تُزيد الوَفيَّات، وَأَيَّام السِّلْم، وَالرَّخَاء تُزيد المَوَالِيد .

٣ ـ أَنَّ النَّفس لاَ تَتَّصل بالبَدَن إِلَّا بَعد أَنْ يَكُون لهُ الصَّلاحيَّة، والإِستعدَاد التَام لقَبولهَا، فالجَمَاد، وَالنَّبات، وَالحَيوَانَات غَير صَالحَة لتَقبُّل النَّفس الإِنْسَانيَّة وَكَذا بَدَن عَمرُو لاَ يَصلُح بحَال لأَنْ يَتَقبَّل نَفْس زَيد، لأَنّه مُنذ تَكوينه فِي بَطن أُمّه تَتَّصل بِهِ نَفْسه المُختَصّة بِهِ، وَلاَ تَنفك عَنْهُ بحَال، وإِلَّا لَزم تَخلف المَعلُول عَن عِلّته، وَبَعد أَنْ تَتَّصل بِهِ نَفْسه الخَاصّة لاَ يُمْكن أَنْ تَنتَقل إِلَيهِ نَفْس أُخرىٰ، إِذْ لاَ تَجْتَمع نَفسَان فِي بَدَن وَاحد، كَمَا لاَ يَشتَرك بَدنَان فِي نَفْس وَاحدَة .

وبالتَالي، فَلاَ أَحد منَّا يَشعر بأَنَّ لهُ نَفسَين مُختَلفَين تَتصرفَان بشُؤونَه وَبَدَنه، وإِنَّمَا الَّذي يَحسّه وَيَشعر بِهِ أَنَّ لهُ ذَاتاً وحدَة لاَ غَير، وأَنَّه لاَ يَعْلَم شَيْئاً عمَّا كَان

قَبل حَيَاته هَذِهِ. كَمَا أَنَّه لاَ يَجد وَلَن يَجد شَخصاً يُمَاثله فِي جَمِيع صفَاته النَّفسيَّة، وَمِن هَذَا يَتَبيَّن أَنَّ التَّنَاسُخ وَهَمٌ وَهرَاء[1].

(١) أنظر. بيَان الأَديَان: ٢٩. الآثَار البَاقيَة للبيرُوني: ٣٢. درَاسَات فِي الفِرق وَالعَقَائد الإِسْلاَمِيَّة: ٧٤. رسَالَة أضحويّة فِي أَمْر المَعَاد لِابن سِينَا: ٥٨. الغُلوّ وَالفِرق الغَاليَة للسَّامرَائي: ١٢٦. رسَالَة الغُفرَان: ٤٠٩. مَوسُوعَة الأَديَان فِي العَالم. الدّيَانَات القَدِيمَة: ٩٤. أَديَان الهِند الكُبرى: ٢٩.

مَن كَانَ فِي هَـٰذِهِ أَعْمَىٰ

مِن الأَوْهَام أَنَّ فِكرَة الآخرَة تُعَارض وَتُقَاوم التَّطور وَالتَّقَدم، لأَنَّ المُؤْمِنِين بِهَا يَهتَمُون بخَلاَصهم فِي العَالَم الثَّانِي أَكْثَر مِن اهتمَامِهم فِي هَذِهِ الْـحَيَاة، لاَ فَـرق عِندَهُم بَيْنَ أَنْ يَظلّوا فِي الوَضع الَّذي هُم عَلَيهِ أَو يَنتَقلُوا مِنْهُ إِلَىٰ أَسوَأ أَو أَحسَن. ولِذَا تَرَاهُم يَسمحُون للإِنتهَازيِّين بإِستثمَارهم، وَإِستغلاَل أَوطَانهم.

وَلَيْسَ مِن شِكّ بأَنَّ هَذَا صَحِيح بالقِيَاس إِلَىٰ دِين يُعَارض الإِصلاَح، وَيَأمـر أَتبَاعه بالبُعد عَن وَاقع الْحَيَاة وَأَشيَائها، أَمَّا الدِّين يَثق بالإِنسَان وَعَظمَته، وَيَحثّه عَلَىٰ العِلْم، والعَمَل حَتَّىٰ لاَ يَفُوته شَيء مِن مُقدّسَات الْحَيَاة، وحَتَّىٰ يَستَغل كُلّ مَا فِي هَذَا الكَون لمَنفَعَة العَالَم، أَمَّا العَقِيدَة الَّتي يَقُول كتَابهَا المُقَدّس: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[1].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2].

---

(١) ٱلإِسْرَاء: ٧٢.

(٢) ٱلصَّف: ١٠ ـ ١١.

ويقُول قَادتهَا: « اَعْمل لدُنْيَاكَ كَأنّك تَعيش أَبَداً ـ أَي مَع الأَجْيَال إِلىٰ يَوْم يُبعثُون ـ واَعْمل لآخِرتك كأنّك تَمُوت غداً »[١]. « إنّ أَهْل الْمَعْرُوف فِي الدُّنْيَا هُم أَهْل الْمَعْرُوف فِي الآخِرَةِ »[٢]. « الله فِي عَون العَبد مَا كَان العَبْد فِي عَون أَخيهِ »[٣]. « خَيْر النَّاس مَن اَنْتَفَع النَّاس بِهِ »[٤]. أَمَّا فِكرَة الآخرَة فِي هَذَا الدِّين وَهَذِهِ العَقِيدَة فَهي غَايَة مثاليّة تَدفَع بصَاحبهَا إِلَىٰ التَّقدّم والعَمَل فِي سَبِيل الْحَيَاة، وَحَافز إِجتمَاعي يَحثّه عَلَىٰ الجِهَاد وَالتَّضحيَة مِن أَجل أُمّته وَبلاَده.

وَلاَ شَيء أَدل عَلَىٰ هَذِهِ الحَقِيقَة مِمَّا جَاء فِي الكِتَاب، والحَدِيث عَن أَوصَاف أَهْل الجنَّة وَالنَّار؛ فَمِن الكِتَاب:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ﴾[٦].

---

(١) تقدّمت تخريجاته.

(٢) أُنظر، المُسْتدرك عَلَىٰ الصَّحيحَين: ١/٢١٣ ح ٤٢٩، مَجْمَع الزَّوَائد: ٣/١١٥، سُنن البَيهَقِيّ الكُبْرَىٰ: ١٠/١٠٩، المُصَنَّف لإبن أبي شَيبَة: ٥/٢٢١ ح ٢٥٤٢٨، المُعْجَم الكَبِير: ٦/٢٦٤ ح ٦١١٢، المُعْجَم الصَّغِير: ١/١٣٣ح ١٩٩، المُعْجَم الأَوسَط: ١/٥٦ ح ١٥٦، الأَدَب المُفرد: ١/٨٦ ح ٢٢٠، الفِرْدَوْس بمأثُور الخِطَاب: ١/٤٠٩ ح ١٦٥٣.

(٣) أُنظر، شَرْح الأَزهَار: ١/٤٦٩، سُبل السَّلاَم: ٤/١٦٩، المُعْجَم الأَوسَط: ٦/١٨.

(٤) أُنظر، فَيض القَدِير: ٣/٤٦٦، شُعَب الإيمَان: ٦/١١٧ ح ٧٦٥٨، مُسْتَدرك الوَسَائِل: ١٢/٧٨ ح ٤، الإخْتِصَاص: ٢٤٣، أَمَالي الصَّدوق: ٢٨ ح ٤، لِسَان المِيزَان: ٣/٣٩٥، التَّدوِين فِي أَخْبَار إِصْفهَان: ٢/٣٠٨.

(٥) الشُّعرَاء: ٨٨ـ ٨٩.

(٦) الأَعْرَاف: ٥١.

وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾[1] .

وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[2] .

وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[3] .

وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[4] .

وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾[5] .

وَمِن الحَدِيث :

« مَن سَلَك طَرِيقَاً يَلْتَمس فِيهِ عِلمَاً سَهّل الله لَهُ بِهِ طَرِيقَاً إِلَىٰ الجَنّة »[6] .

« مَن كَتَم عِلمَاً جَاء يَوْم القِيَامَة بلُجَام مِن نَار »[7] .

« مَن لَقي النَّاس بوَجهَين وَلسَانَين جَاء يَوْم القِيَامَة ، وَلهُ لسَان مِن قَفَاه ، وَآخر

---

(١) إِبْرَاهِيم : ٢٣ .

(٢) ٱلْإِنفِطَار : ١٣ ـ ١٤ .

(٣) ٱلصَّف : ٣ .

(٤) يُونُس : ٥٢ .

(٥) ٱلْمَائِدَة : ١١٩ .

(٦) أنظر ، صَحِيح أبن مَاجَه : ١ / ٨ ح ٢٢٣ ، صَحِيح التِّرمذي : ٤ / ١٣٧ ح ٢٧٨٤ ، مُسْنَد أَحمَد : ٢ / ٣٢٥ ، سُنَن أَبي دَاود : ٢ / ١٧٥ ح ٣٦٤١ ، المُستَدرَك عَلَىٰ الصَّحِيحَين : ١ / ٨٩ ، الثَّمر الدَّاني : ٧٢١ ، المَجمُوع : ١ / ١٩ ، مُسنَد زَيد بن عَليّ : ٣٨٣ ، مُغني المُحتَاج : ١ / ٨ ، إِعَانَة الطَّالِبين : ١ / ٢٣ .

(٧) أنظر ، صَحِيح أبن مَاجَه : ١ / ٩٧ ح ٢٦٥ ، مُسْنَد أَحمَد : ٢ / ٤٩٩ ح ١٠٤٩٢ ، المُستَدرَك عَلَىٰ الصَّحِيحَين : ١ / ١٨٢ ح ٣٤٦ ، مَجمُوع الزَّوَائِد : ١ / ١٦٣ ، المُعْجَم الكَبِير : ١١ / ٥ ح ١٠٨٤٥ ، مَوَارد الظَّمآن : ١ / ٥٥ ح ٩٥ ، صَحِيح أبن حِبَّان : ١ / ٢٩٧ ح ٩٥ و ٩٦ .

مِن قدّامه يَلتهبَان نَاراً »[١].

« يُحشَر ٱلْمُتَكبِّرون عَلىٰ هَيئَة الذَّر يَطَأهُم النَّاس بأَقدَامهم جَزَاءً، وفَاقاً عَلىٰ تَعالِيهم »[٢].

« مَن خَاف النَّاس مِن لسَانَه فَهُو مِن أَهْل النَّار »[٣].

« إنَّ فِي الجَنّة غُرفَاً يَرىٰ ظَاهرهَا مِن بَاطنهَا وَبَاطنهَا مِن ظَاهرهَا لاَ يَسكنهَا إلَّا مَن أَطَاب الكَلاَم، وَأَنعَم الطَّعَام، وَأَفشَىٰ السَّلاَم »[٤].

وَمَا إِلَىٰ ذَلِكَ مِمَّا لاَ يِتَّسع لهُ المَجَال. إذَن فَطَرِيق الجَنّة هُـو العِـلْم، والعَـمَل النَّافع، وَأتبَاع الحَقّ والصّدق، وَإفشَاء السَّلام، والأَمِن، والأَمَان. وَطَرِيق النَّـار هُو الظُّلم، والفَسَاد، وَكتمَان العِلْم، وَالكَذِب، وَالنَّميمَة وَمَا إلَىٰ ذلِكَ.

وَأَجمَع كَلمَة وَأَبلَغها قَوْل الله عزَّوجلَّ: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَـهُوَ فِـى

(١) أنظر، مَجمُوع الزَّوَائِد: ٨/٩٦، المُعْجَم الكَبِير: ٩/٢٣٨ ح ٩١٦٨، سُنَن الدَّارمي: ٢/٤٠٥ ح ٢٧٦٤، المُصنَّف لِابن أَبي شَيبَة: ٥/٢٢٣ ح ٢٥٤٦٢، التَّخويف مِن النَّار: ١/١٢٨، السُّنَّة لِابن أَبي عَاصم: ١/٢١٦، الزُّهد لِابن حَنبَل: ١/١٠٩ ح ٢١٣ - ٢١٤، فَتح البَاري: ١٠/٢٧٥، الإِصَابَة: ١/١٩٥ تحتَ رَقْم « ٤٥٠ ».

(٢) أنظر، كَشف الخَفَاء: ٢/٥٣٣ ح ٣٢٣٦، تَأرِيخ بَغدَاد: ١٢/٢٩٤ رَقم (٦٧٤٠)، حـليَة الأَوْلِيَاء: ٥/٣٧٠، تُـحفَة الأَحـوَذي: ٧/١٦٢، التَّرغيب والتَّرهيب: ٣/٣٥٥ ح ٤٤١٨، الأَدب المُـفرد: ١/١٩٦ ح ٥٥٧، شُعب الإِيمَان: ٦/٢٨٨ ح ٨١٨٥، تَفْسِير القُرطُبي: ١٥/٢٧٤، سُنَن التِّرمِذي: ٤/٦٥٥ ح ٢٤٩٢، مَجْمَع الزّوائد: ١٠/٣٣٤، مُسْنَد أَحمَد: ٢/١٧٩ ح ٦٦٧٧، مُسْنَد الحُمَيدي: ٢/٢٧٢ ح ٥٩٨، التَّخوِيف مِن النَّار: ١/٩٠.

(٣) أنظر، مَكَارم الأَخلاَق: ٤٣٣، وَسَائِل الشِّيعَة: ١٦/٣٤ ح ١١، مَن لاَ يَحضَره الفَـقِيه: ٤/٣٥٣ ح ٥٧٦٢، السَّرَائِر: ٣/٦١٥.

(٤) أنظر، وَسَائِل الشِّيعَة: ١٢/٦٠ ح ٧، مَعَاني الأَخبَار: ٢٥١ ح ١، أَمَالي الصَّدُوق: ٤٠٧.

ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[1].

وَقد يَتساءَل: إِذَا كَانَت الجنَّة تُدرَك بالعَمل للعِمْرَان، وَالسَّعَادَة فِي هَذِهِ ٱلْحَيَاة فمَاذَا نُفسّر مَا جَاء فِي ٱلْقُرْءَان، والحَدِيث مِن ذَم الدُّنْـيَا وَأَهـلهَا، وَالحَثّ عَـلَىٰ الْإِعرَاض عَنْهَا، وَزُهد الْأَنبيَاء فِيْهَا؟!.

الجَوَاب:

لَقَد خَلَط النَّاس لزَمَن طَوِيل بَل حَتَّىٰ الآنْ بَيْنَ حُبّ المَال وَجَمعَه كغَايَة، وبَيْنَ حُبّ ٱلْحَيَاة، وَظَنّوا أَنَّ الاثْنَين شَيء وَاحـد، أَو أَنَّـهُما مُـتسَاوِيَّين لاَ يَـفتَرقَان، وَمَنشَأ هَذَا الخَلط، وَالوَهم مَا جَاء فِي الكِتَاب العَزِيز:

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[2].

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[3].

وفِي الحَدِيث: «إِنَّ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ عَدُوَّان مُتفَاوِتَانِ، وَسَبِيلَانِ مُخْتَلِفَانِ؛ فَمَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وَتَوَلَّاهَا أَبْغَضَ الآخِرَةَ وَ عَادَاهَا، وَهُمَا بِمَنْزِلَةِ الْـمَشْرِقِ وَالْـمَغْرِبِ، وَمَاشٍ بَيْنَهُمَا؛ كُلَّمَا قَرُبَ مِنْ وَاحِدٍ بَعُدَ مِنَ الآخَرِ، وَهُمَا بَعْدُ ضَرَّتَانِ!»[4]. وَمَا إِلَىٰ ذَلِكَ مِمَّا أَكَّد هَذَا المَعنَىٰ تَصرِيحاً أَو تَلوِيحاً.

وَلَكن مَع النَّظر الفَاحص يَتبَيَّن لنَا أَنَّ أَحدهُما غَير الآخر، إِذ المُـرَاد بـالدُّنيَا المَذمُومَة تَأليه المَال، وَالتَّكالب عَلَيهِ، وبالآخرَة الحَـق، والعَـدْل. وَلاَ رَيب أَنَّ الحَق، والبَاطِل ضِدّان لاَ يَجْتمعَان، أَمَّا طَلَب المَال للعَيش، وَسدّ الخِلة فَهُو مِن

(١) ٱلْإِسْرَاء: ٧٢.
(٢) آلِ عِمْرَانَ: ١٨٥.
(٣) الْإِعَلَىٰ: ١٦ـ١٧.
(٤) أنظر. نَهج ٱلْبَلَاغَة: ٱلحِكْمَة (١٠٣).

أفضَل الطَّاعَات بحُكم العَقْل، والشَّرع، وَيَدل عَلَيهِ قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ وَلَاتَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾[1].

وَقَوله تَعَالَىٰ: ﴿لَاتُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[2].

وَقَوله تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[3].

وفِي الحَدِيث: «لَيسَ خَيركُم مَن تَرَك ٱلْحَيَاة، وطَبِيعتهَا لِغيره»[4]. قَالَ رَسُول الله ﷺ: «لَيسَ خَيْركم مَن تَرَك الدُّنْيَا لِلآخِرَة، لِلدُّنيا، وَلَكنْ خَيْركُم مَن أَخَذَ مِن هَذِه لِهَذِه»[5]. وَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «المُؤْمِن القَوي خَير وَأَحبّ إِلَىٰ الله مِنْ المُؤْمِن الضَّعِيف»[6].

إِنَّ الإِنْسَان مَهْمَا تَجَرد وَعَفّ، وَسَمىٰ برُوحَانِيتَه فَلاَ يُمكنَه بحَال أَنْ يَدع التَّفْكِير فِي عَيشَهِ، وَطَعَامه، وَشَرَابه، فَقَد يَهون عَلَيهِ أَنْ يَكبَح شَهوَته الجِنسيَّة، وَيَهُون عَلَيهِ أَنْ يَترُك الكَثِير مِمَّا ٱعتَاد وَأَلِف، ولَكنَّه لاَ يَستَطِيع أَنْ لاَ يُفكّر فِي الغَذَاء مَا دَامَت مِعدَته تَطلب ذَلِكَ. وعَلَىٰ هَذَا لاَ يَكُون العَمَل فِي نطَاق العَيش وَسَدّ الحَاجَة ضَرباً مِن الآنَانِيّة، وَالمَنَافع الخَاصّة، وإِنَّمَا هُو عَمَل إِنسَاني وَنضَال مِن أَجل ٱلْحَيَاة العَامَّة، وَالمصلحَة الإِجْتمَاعيَّة، فَمَن عَمَل لصِيَانَة نَفْسَه، وَحِفظ

---

(١) ٱلْقَصَص: ٧٧.

(٢) ٱلْمَائِدَة: ٨٧.

(٣) ٱلحَجّ: ٦٥.

(٤) تَقَدّمت تخرِيجَاته.

(٥) أُنظر. الفِرْدَوْس بمَأثور الخِطَاب: ٣/ ٤٠٩ ح ٥٢٤٩. كَشف الخَفَاء: ٢/ ٢٢٠ ح ٢١٣٩. ذِكر أَخبَار إِصبهَان: ٢/ ١٩٧.

(٦) تَقَدّمت تخرِيجَاته.

حَيَاته فَقَد عَمَل لصَالح الجَمَاعَة الَّتي هُو فَرد مِنْهَا، وَنَاضَل فِي سَبِيل مَثَل إِنْسَاني نَبيل، أَمَّا إِذَا عَمَل للتَّفاخر، وَالتَّكاثُر بالمَال، وَإِيثَاراً للرَّاحَة، وَحُبِّ الشَّـهوَات، فَقَد عَمَل لمَآربه الشَّخصيَّة.

قَالَ الرَّسُول الأَعْظَم: «طَلب الدُّنْيَا مُكَاثِرَاً مُفَاخِراً لَقي الله، وهُو عَلَيهِ غَضبَان، وَمَن طَلبهَا ٱستعفَافَاً، وَصيَانَة لنَفسه جَاء يَوْم القِيَامَة وَوَجهه كَالْقَمَر لَيلَة البَدْر»[1] لأَنَّ عَمَل الثَّانِي ٱتَّخَذ شَكلاً إِنْسَانِيَّاً، بعَكس الأَوَّل الَّذي تَمَثَّل فِي عَمَلِهِ الطَّـمع وَالجَشَع.

قَالَ بَعْض العُلمَاء: كُلّ مَا تَدعُوا إِلَيهِ الحَاجَة مِن المَأكُل، وَالمَلبَس، وَالمَسكَن فَهُو لله، وَمَا زَاد عَنْهَا، وَصَرف للتَّنعُم، وَالتَّرف فَهُو لغَير الله[2]. إِذَن مَعَاش الإِنْسَان فِي حَيَاته هَذِهِ حَقّ مِن حقُوق الله. ولِذَا أَولاَهَا الأَنْبيَاء العنَايَة وَالإِهتمَام، وَأَعلنُوا حَرباً شَعوَاء عَلَىٰ الَّذِين يَجمعُون المَال كغَايَة قُصوىٰ لجهُودهم، وَلاَ يَرون الخَيْر وَالجمَال وَالحَـق إِلَّا بـجَمعه وَٱحـتكَاره، فَـمِن آيَـات ٱلْـقُرْءَان المُـنَزّل عَـلَىٰ مُحمَّد ﷺ: ﴿أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْـتَرَوُا ٱلْـحَيَوٰةَ ٱلدُّنْـيَا بِـٱلْأَخِرَةِ فَـلَايُـخَفَّفُ عَـنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[3].

---

(١) أُنظر، شُعَب الإِيمَان: ٧ / ٢٩٨ ح ١٠٣٧٤، نَوَادر الأُصُول فِي أَحَادِيث الرَّسُول: ٤ / ٢٧، مُسنَد عَبد ٱبن حُمَيد: ١ / ٤١٨ ح ١٤٣٣، مُسنَد إِسحَاق بن رَاهـوَيه: ١ / ٣٥٣ ح ٣٥٢، مُستَدرَك الوَسَـائِل: ١٣ / ٣٢ ح ١٩، كتَاب المَجرُوحِين لِٱبْن حِبَّان: ١ / ١١٨.

(٢) الحَاجَة وَسَط بَيْنَ الضَّرُورَة وَالتَّرف، فَالضَّرُورَة مَا تُبقي عَلَىٰ الأَنفَاس، كَأَكْل الخُبز بلاَ أَدَام، وَالتَّرف أَنْ يَكُون لَدَيك مَا لَذّ وَطَاب، وَسَدّ الحَاجَة أَنْ يَتوَافر لَكَ كُلّ مَا تَستَدعِيه ٱلْحَيَاة دُون زِيَادَة أَو نُقصَان. (مِنْهُ ﵀).

(٣) ٱلْبَقَرَة: ٨٦.

وَمِن آيَات ٱلْقُرْءَان المُنَزّل عَلَىٰ مُحَمَّدﷺ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[1] .

وَمِن آيَات ٱلْقُرْءَان المُنَزّل عَلَىٰ مُحَمَّدﷺ : ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[2] .

وفِي الحَدِيث : « حُبّ الدُّنْيا رَأْس كُلّ خَطِيئَة »[3] .... « مِثْل الحَرِيص عَلَىٰ الدُّنْيَا كَمَثل دُودَة القَزّ كُلَّمَا ٱزدَادَت عَلَىٰ نَفْسَهَا لَفّاً كَان أَبعَد لهَا مِن الخُرُوج حَتَّىٰ تَمُوت غَمّاً »[4] . وقَالَ عِيسىٰ رُوح الله : « الرَّب مَسَحني لأُبَشر المَسَاكِين وَأَرسَلني لأُشفي مُنكَسري القُلُوب ، وَأُنَادي للمَأسُورِين بالإِنطلاَق ، وَللعُمي بِالبَصر ، وَللمُستَحقِين بالحُرّيَة »[5] .

---

(١) آلِ عِمْرَانَ : ١١٦.

(٢) ٱلتَّوْبَة : ٣٤ـ ٣٥.

(٣) أنظر ، عُيون الحِكم وَالموَاعظ : ٢٣١ ، تُحفَة الأَحْوَذي : ٦ / ٨٢ ، الجَامِع الصَّغير : ١ / ٥٦٦ ح ٣٦٦٢ ، كَنز العُمَّال : ٣ / ١٩٢ ح ٦١١٤ ، فَيض القَدِير شَرح الجَامِع الصَّغير : ٣ / ٤٨٧ ح ٣٦٦٢ ، كَشف الخَفَاء : ١ / ٣٤٤ ح ١٠٩٩ ، شَرح نَهج ٱلبَلاَغة لِابْن أَبي ٱلحَدِيد : ١٩ / ٣٣١ ، البَحر الرَّائق : ٧ / ٤٨٣ ، الدُّر المختَار : ٦ / ٢٥٥ ، الكَافِي : ٣ / ١٣١ ح ١١ ، الخِصَال لِلشَّيخ الصَّدوق : ٢٥ ح ٨٧ ، وَسَائِل الشِّيعة : ١٦ / ٩ ح ٢.

(٤) أُنظر ، الكَافِي : ٢ / ١٣٤ ح ٢٠ ، وَسَائِل الشِّيعَة : ١٦ / ٢٠ ح ١.

(٥) مَعْنَىٰ رُوح الله رَحمَتَه تَعَالَىٰ أي أَنَّ عِيسىٰ أَرسَلَه الله رَحمَة للنَّاس كَالمَطر ، فَهُو شَبِيه مُحَمَّد الَّذِي قَالَ سُبْحَانَه عَنْهُ : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ ٱلأَنْبِيَاء : ١٠٧ . وقَد أَستَعمَل ٱلقُرْءَان الكَرِيم لَفظَة الرُّوح بهَذَا المَعنىٰ فِي الآيَة ٢٢ مِن سُورَة ٱلمُجَادِلَةِ : ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن

وَمِن هَٰذِهِ الآيَات، والأَحَادِيث يَتبيَّن لنَا أَنَّ زُهد الأَنْبِيَاء لَم يَكُن مِن أَجل الفَقر وَالعَوز، وَلاَ تَحقِيراً للمَلذَات، وَتَحريمَاً للطَّيبَات، وَلاَ مِن أَجل تَروِيض النَّفس وَتَمرِينهَا عَلَىٰ المشَاق، والأَثـقال، وَلاَ لأَنَّ الزُّهـد عَـقِيدَة دِيـنيَّة، ومِـن القِـيم الرُّوحيَّة، كَمَا يَظن كَثِيرُون، وإِنَّمَا هُو إحتجَاج صَارخ عَلَىٰ المُستَغلِين، وثَـوْرَة عَلَىٰ مَن قَسّم النَّاس إِلَىٰ مِئَات، وعَلَىٰ مَن ظَنّ أَنَّ الفَـقر خسَـاسَة، وَإِنـحطَاط، وَالثَّروَة شَرَف، وَكَرَامَات[1]. وهُو دَلِيل أَيْضاً عَلَىٰ أَنَّ الأَنْبِيَاء يُحيّون مَا يَقُولُون وَيَقُولُون مَا يُحيّون، وهُو دَرس كَذَلكَ أَعطَاه الأَنْبِيَاء للمُستَضعَفين بأَنْ لاَ يَيأَسُوا وَلاَ يَقنطُوا مَهْمَا تَكُن الظُّرُوف والأَحوَال، وبأَنَّ الفَـقر، وَالجُـوع لاَ يَـعُوق عَـن النّضال، وَالكِفَاح، وأَنَّ السِّلاح الأَكْبَر هُو الحَقّ، فَمَا دُمتَّ تَطلُب بـحَقّك فَـإِنّك قَوي، وَإِنْ كُنتَ جَائعَاً مُعدَماً، وإِذَا نَاصَرت البَاطِل فَإِنّك ضَعِيف، وَإِنْ تَـمّت لَكَ العِدّة وَالعَدَد.

لقَد قَاوَم الأَنْبِيَاء المُستَغلِين، وهُم عُزّل مِن المَال، وَالسِّـلاح، ليُـحَركُوا فِـي نفُوس المُضطَهدِين، إِرَادَة التَّحدي لكُلّ مُعتَد أَثِيم، وَلاَ يَتنَازلُوا لهُ عَن شَيء مِن حقّهم، وَإِنْ اَمتَلأَت بِهم السّجُون، وَاَرتَفعَت أَجسَامهم عَلَىٰ أَعوَاد المَشَانق.

أَنَّ زُهد الأَنْبِيَاء، وَالصُّلحَاء كَـان لحسَـاب الإِنْسَـان، ومِـن أَجـل حـقُوقه،

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي برَحمَة مِنهُ. (مِنْهُ ﷺ).

(١) قِيل: أَنَّ ثريّاً تَاه وَاَفتَخر عَلَىٰ فَقِير، فَقَال لهُ: إِنْ اَفـتَخَرت بـفَرسَك فَـالحُسن للـفَرس لاَ لَكَ، وَإِنْ اَفتخَرت بثِيَابك فَالحُسن لهَا دُونَك، وَإِنْ اَفتخَرت بآبَـائك، فَـالفَضل فِـيهم لاَ فِـيك، وَإِنْ اَفـتخَرت بمَنصبَك فَالشَّرف مِنْهُ لاَ مِنكَ، فكُلّ المَحَاسن خَارجَة عَنك، وَأَنْتَ مُنسَلخ عَنْهَا، وَقَد رَددنَاهَا عَـلَىٰ أَصحَابهَا، وَبَقِيتَ صِفر اليَدَين... (مِنْهُ ﷺ).

وَكَرَامَته، أَنَّهُم يَعلمُون أَنَّ هَذَا الرَّغِيف، وَهَـذَا القَـمِيص مِـن عَـرق الكَـادِحِين وَدمَاؤهُم، فَكَيف يَشبعُون مِن الطَّعَام، وَلعَل الَّذي زَرعَه، وَحَصدَه جَائعاً! وَكَيف يَلبسُون فَاخر الثِّيَاب، ورُبَّمَا الَّذي حَاكهَا عُريَان! قَـالَ الإِمَـام عَـليّ بـن أَبـي طَالب عليه السلام:

«وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ، إِلَىٰ مُصَفَّىٰ هَذَا الْعَسَلِ، وَلُـبَابِ هَـذَا الْـقَمْحِ، وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ. وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَـعِي إِلَـىٰ تَـخَيُّرِ الأَطْعِمَةِ ـ وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ الْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ ـ أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَىٰ، وَأَكْبَادٌ حَرَّىٰ، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ[1]:

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِـبِطْنَةٍ وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَىٰ الْـقِدِّ

أَنَّ التَّكَالُب عَلَىٰ المَال يُفقِد الشَّخص إِنسَانِيَّته، وَيُزِيل مِن نَفْسه كُـلّ شـعُور بالوَاجب، أَي وَاجب. فَلَقَد رَأينَا كَيف تَعَاون أَربَاب المَصَانع، وَالمَكَـاسب مَـع المُستَعمِرين ضِدّ أَوطَانهم! وَكَيف اَستَقبَلُوهُم بأَقوَاس النَّصر، وَأَكَـالِيل الزَّهـر كَأَنَّهُم مُحرِرُون مُنقذُون! وَكَيف يُتَاجرُون بالعَوَاطف الدِّينيَّة، وَلاَ يَعبدُون الله إِلَّا عَلَىٰ حَرف. ومِن هُنَا كَان مَوقف الأَنْبيَاء مَعَهُم تمَامَاً كـمَوقِفهم مَـع الجَـاحِدِين وَالمُشْرِكين.

وَبالتَالي، نُعِيد القَوْل مرّة ثَانيَّة أَنَّ طَرِيق الجَنّة هُو العِلْم النَّافع، والعَمَل البَنَّاء، وَيَكفي شَاهداً عَلَىٰ هَذِهِ الحَقِيقَة قَوْل الإِمَام عَليّ عليه السلام لمَن ذَمَّ الدُّنْيَا:

«الدُّنْيَا مَنْزل صِدق لمَن صَدّقهَا، وَمَسكَن عَافيَة لمَن فَهم عَنْهَا، وَدَار غِنىٰ لمَن

---

(١) يُنْسَب هَذَا البَيْت لحَاتم بن عَبدالله الطَّائي كمَا جَاء فِي شَرح نَهج البَلاَغَة لِابْن أَبِي الحَدِيد: ١٦ / ٢٨٨، ودِيوَان الحَمَاسَة بِشَرح الزّرقَاني: ٤ / ١٦٦٨.

تَزَود مِنْهَا، فِيْهَا أَنْبيَاء الله، وَمَهبط وَحيِّه، وَمُصلىٰ مَـلاَئِكَته، وَمَسكَـن أَحـبَابَه، وَمَتجَر أَوليَائه، اَكـتَسبُوا فِـيْهَا الرَّحـمَة، وَرَبـحُوا مِـنْهَا الجَـنّة. فَـمَن ذَا يَـذم الدُّنْيَا؟!»[1].

أَنَّ فِكرَة الآخرَة تَنهىٰ عَن الظُّلم، والإِحتكَار، وَاستغلاَل الإِنسَـان للإِنسَـان وَتَبعَث عَلَىٰ العَمَل، وَالتَّضحيَة لخَير النَّاس، وَالصَّالح العَام، وَهَذَا مَا أَرَادَه الإِمَام بقَوله: «وَمَتجَر أَوليَائه، اَكتَسبُوا فِيْهَا الرَّحمَة، وَرَبحُوا مِنْهَا الجَنّة.».

(١) أنظر، كتَاب الزُّهد لحُسَين بـن سَـعِيد الأَهـوَازي: ٤٧ ح ١٢٨، أَمَـالي الطُّـوسي: ٥٩٤، المِـعيَار وَالموَازنَة: ٢٦٨، تُحَف العُقُول: ١٨٦.

الدِّين وَالضَّمِير[1]

تُسَيطر عَلَىٰ عُقُول أَبنَائنَا فِكرَة ظَاهرهَا الرَّحمَة وَبَاطنهَا العَـذَاب، وَهِـي أَنَّ الدِّين صَلاَح الضَّمِير وَكَفىٰ، أَي لاَ تَسرُق، لاَ تَكذب، وَلاَ تَعتَدِ عَلَىٰ أَحد، أَمَّـا الصَّوم، وَالصَّلاَة، أَمَّا تَمجِيد الحَقّ، والخُضُوع لله فمَرَاسـم، وَأَشكَـال لاَ دَاعـي إِلَيهَا!.

وَقَد وَضَع مَحمُود الشَّرقَاوي كتَابَاً أَسمَاه «الدِّين وَالضَّمِير» لهَذِه الغَايَة، نَنقُل مِنهُ بَعض الفِقرَات ليَتَبيَّن للقُرّاء أَنَّه لاَ هَدَف لأَربَـاب هَـذِهِ الدَّعـوَة إِلَّا ٱنْـتشَار الفُوضىٰ، والفَسَاد، والقَضَاء عَلَىٰ الدِّين، والأَخلاَق.

قَالَ فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[2].

تَقَرّر أَنَّ الله يُحبّ الَّذي يَتَكرّر مِنهُ الذَّنب وَالخَطِيئَة، ثُمَّ تَتَكرّر مِنهُ ٱلتَّوبَة[3].

وَقَالَ: «ثُمَّ نَجد ذَلِكَ الحَدِيث الَّذي يَحتَوي دَلاَلَة لَيسَ بَعدهَا دَلاَلَة، وهُو حَدِيث قُدّسي يَتَلخص فِي: «أَنَّ عَبداً أَذنَب فَٱستَغفر الله، فَغَفر لهُ ثُمَّ عَاد، فَٱستَغفَر، فَغَفر الله لهُ، تكَرّر ذَلِكَ مِنهُ مَرّة بَعدَ مَرّة.

---

(١) ٱقتَطفنَا هَذِهِ الفِقرَات مِمَّا كَتَبنَاه حَول كِتَاب (الدِّين وَالضَّمِير) لأَنَّ المَقَام لاَ يَتّسع لأَكثَر مِنهَا. (مِنهُ ﷺ).

(٢) ٱلبَقَرَة: ٢٢٢.

(٣) أُنظر، الدِّين وَالضَّمِير، لمَحمُود الشَّرقَاوي: ٧٦. (مِنهُ ﷺ).

فَقَالَ الله لهُ : اْعْمَل مَا شِئت لَقَد غَفرتُ لَكَ »[١].

وقَالَ أَيْضَاً : « جَاء فِي الحَدِيث أَنَّ مَن مَات عَلَىٰ التَّوحِيد لَم يُشرك بالله غَيْرَه دَخَل الجنّة ، وَإِنْ زَنىٰ وَسَرق »[٢].

وقَالَ : « رَوىٰ أَبُو هُرَيرَة عَن رَسُول الله أَنَّه قَالَ : وَالَّذي نَفس مُحَمَّد بِيَدَه لَو لَم تَذنبُوا لذَهَب الله بكُم وَلجَاء بقَوم يَذنبُون فَيَستَغفرُون الله فَيَغفر لهُم . . »[٣]. وَلعَلنَا نُوشك أَنْ نَقُول : أَنَّ هَذَا الحَدِيث لاَ يُهَوّن الذّنُوب فَقَط . بَل كَأَنَّه يَحضّ وَيُحرّض ، وهُو وَاضح فِي جَعل الخَطِيئَة وَٱلتَّوبَة مِن مُبرّرَات ٱلحَيَاة الإِنْسَانيَّة ، ومِن أَسبَاب إِبقَاء الله عَلَيهَا ».

ثُمَّ تَتلاَحق أَقْوَال المُؤلّف فِي هَذَا البَاب حَتَّىٰ يَنْتَهي إِلَىٰ قَولٍ مَا نَصّه بِالحَرف الوَاحد :

« ونَحْنُ عِندَمَا نَجعَل المقَايِّيس هَذِهِ أَسَاسَاً لفَهم العَقِيدَة وَتَقدِير الخَلق ، نَقْتَحم مَيدَانَاً جَدِيدَاً مِن مَيَادِين الإِدْرَاك السَّلِيم لتَأرِيخنَا العَرَبي وَالإِسْلاَمي ، وَنَضع قوَاعد قَد تَكُون صَارمَة قَاسيَة ، وَلَكنَّها صَحِيحَة ، مُستَنِيرَة ، وَاعيَة مُجَردَة مِن التَّأثِير ، وَالعوَاطف ، والإِنقيَاد ، وهِي فِي نَفس الوَقت مُفِيدَة إِلَىٰ أَبعَد غَايَة فِي تَربيَة نفُوسنَا ، كَمَا هِي مُفِيدَة إِلَىٰ أَبعَد غَايَة أَيْضاً فِي فَهم تَأرِيخنَا فَهمَاً سَلِيمَاً »[٤].

---

(١) أُنظر ، الدِّين وَالضَّمِير ، لمَحمُود الشَّرقَاوي : ٧٧ . (مِنْهُ ﷺ) . وأُنظر ، مِثل هَذِه الأَحَادِيث فِي تَأرِيخ بَغدَاد : ٩ / ١٣٧ ، وَتَأرِيخ دمَشق : ٦ / ٧١ ح ١٤١٤ ، وَغَرِيب الحَدِيث : ٢ / ٦٩٥ .

(٢) أُنظر ، الدِّين وَالضَّمِير ، لمَحمُود الشَّرقَاوي : ١٠٠ . (مِنْهُ ﷺ) . أُنظر ، كتَاب السُّنَّة لِابن أَبي عَاصم : ٤٥٠ ح ٩٥٦ ، صَحِيح البُخَاري : ٨ / ١١٦ ، صَحِيح مُسلِم : ٢ / ٦٨٨ ، مُسنَد أَحمَد : ٥ / ١٥٢ .

(٣) أُنظر ، الدِّين وَالضَّمِير ، لمَحمُود الشَّرقَاوي : ١٠٤ . (مِنْهُ ﷺ) . أُنظر ، صَحِيح مُسلِم : ٨ / ٩٤ ، مُسنَد أَحمَد : ٢ / ٣٠٩ ، مَجمَع الزَّوَائِد : ١٠ / ٢١٥ ، الدِّيبَاج عَلىٰ صَحِيح مُسلِم : ٦ / ٩٥ ح ٩ ، تُحفَة الأَحوَذي : ٩ / ٣٦٧ ، المُعجَم الأَوسَط : ٢ / ١٢٣ ، كَنز العُمّال : ٤ / ٢١٦ ح ١٠٢٢٦ .

(٤) أُنظر ، الدِّين وَالضَّمِير ، لمَحمُود الشَّرقَاوي : ١١٨ . (مِنْهُ ﷺ) .

وَلاَ نُرِيد أَنْ نُطِيل الكَلاَم مَع صَاحب هَذَا القَوْل، بَل نوجّه إِلَيهِ الأَسئلَة التَاليَة:

أَوّلاً: إِنَّك دَعَوتَ إِلَىٰ تَقوِيم الأَخلاَق، والعَمَل الصَّالح، وَقُلتَ: أَنَّه الغَايَة الأُولىٰ والأَخيرة مِن وجُود الأَديَان. فَهَل الزِّنىٰ، والسَّرقَة، وَتِكرَار الذَّنب وَالخَطِيئَة مِن الأَخلاَق الكَرِيمَة، والأَعمَال الصَّالحَة؟! ثُمَّ إِذَا اتّخذنَا مِن حُبّ الله للجَرِيمَة وَتكرَارهَا، وَتحرِيضه عَلَىٰ دَوَامهَا، والإِبقَاء عَلَيهَا أَسَاسَاً لفَهْم العَقِيدَة وَتَقدِير الأَخلاَق فَهل تَكُون عَقِيدَتنَا، وَالحَال هَذِهِ صَحِيحَة مُستَنِيرَة، وَاعيَة مُجَردَة، وَتَكُون أَخلاَقنا قَوّيَة كَرِيمَة؟ وَتَأرِيخنَا العَربي، والإِسْلاَمي سَلِيماً مُفِيداً إِلَىٰ أَبعَد الغَايَات؟!.

ثَانِيَاً: إِذَا كَانَت الغَايَة مِن التَّوبَة هِي تِكرَار الذّنُوب وَدَوَامهَا، والإِبقَاء عَلَيهَا، لأَنَّهَا مِن مُبرّرَات الحَيَاة الإِنسَانيَّة فَلِمَاذَا لَم يَأمر الله بِهَا، وَيُحرّض عَلَيهَا بدُون التَّوبَة مَا دَامَت الجَرِيمَة مَحبُوبَة، وَمَطلُوبَة بذَاتها عِند الله؟! لمَاذَا التَّوبَة، وَالضّحك عَلَىٰ الذّقُون؟!.

وَالحَقِيقَة أَنَّ الله سُبْحَانَه قَد قَبل مِن التَّائِب بقَلبٍ طَاهر نَقي، كَي لاَ يَقنُط، فَيستَزِيد مِن الذَّنب، ويَقُول: أَنَا الغَرِيق فَلاَ أَخشَىٰ مِن البَلَل. فَالغَايَة إِذَن مِن التَّوبَة إِسْتصلاَح الفَاسد لاَ المَزِيد مِن الفَسَاد، وَالحَدّ مِن الذَّنب لاَ تِكرَاره، وَالإِبقَاء عَلَيهِ.

ثَالثاً: لمَاذَا أَخَذتَ أَيُّهَا المُؤلّف بالحَدِيث الَّذي أَبَاح الزِّنىٰ، وَالسَّرقَة، وَتَجَاهَلتَ قَوْل الله سُبْحَانَه: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾[1].

وَقَوْل الله سُبْحَانَه: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً بِمَا كَسَبَا

(١) النُّور: ٢.

نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾[١].

كَيف تَشَبثتَ بهَذَا الحَدِيث الضَّعِيف الَّذي لاَ نَشكّ بأَنَّ وَاضعَه مِن كبَّار الزُّنَاة، وَاللُّصُوص، وَأَعرضتَ عَن قَوْل الله تَعَالَىٰ، مَع أَنَّ المَذَاهب الإِسْلاَمِيَّة بكَامِلهَا لاَ تَقبَل حَدِيثاً يُخَالِف صَرِيح ٱلْقُرْءَان[٢]؟!.

أَمَّا حَدِيث أَبي هُرَيرَة، مِن أَنَّ النَّاس إِذَا لَمْ يَقطعُوا مَا أَمَـر الله بـهِ أَنْ يُـوصَل وَيُفسدُوا فِي الأَرْض يَستَبدل قَوماً غَيرهُم يَسفكُون الدِّمَاء، وَيَزنُون، وَيَسرقُون، أَمَّا هَذَا الحَدِيث فَإِنّه يُعطي مُهمّة الشَّيطَان للأَنْبيَاء، وَمُـهمَّة الأَنْـبيَاء للشَّـيطَان، فَيَحمل هُو رَايَة الهُدَىٰ، والحَقّ، وَيَبسط العَدْل، وَيُـقِيم الحُـدُود، أَمَّـا الأَنْـبيَاء فَيُفرقُون بَيْنَ المَرء وَزَوّجه، وَيَلقُون بَيْنَ النَّاس العَدَاوَة، وَالبَغضَاء، وَيَـصدُّونهُم عَن ذِكر الله، وعَن الصَّلاَة.

هَذَا هُو كِتَاب الشَّرقَاوي «الدِّين وَالضَّـمِير». وَهَـذي هِـي طَـهَارَة النَّـفس، وَتَزكيَة الضَّمِير عِندَه، وَبهَذَا المَنطق يُحَاول إِقنَاعنَا بأَنَّ الصَّلاَة، وَالصِّيَام وَهْـمٌ، وإِذَا دَلَّ هَذَا التَّهافُت، وَالتَّنَاقض عَلَىٰ شَيء فَإِنّمَا يَدل عَلَىٰ وَاحد مِـن اثْـنَين لاَ ثَالِث لهُمَا: إِمّا أَنَّه لَيسَ للمُؤلّف هَدَف مُعيَّن، وَلاَ خُطّة مَرسُومَة. وَإِمّا أَنْ تَكُون غَايَته هَدم الدِّين، والأَخلاَق، وَانْتشَار الفَسَاد، وَالفُوضَىٰ، ولَكنَّهُ لَم يَجرء عَلَىٰ إِعلاَنهَا وَالجَهر بِهَا، فَتَستَتر بِاسم تَربيَة الضَّمِير، وعَمَل عَلَىٰ هَدم فِي الخفَاء.

---

(١) ٱلْمَائِدَة: ٣٨.

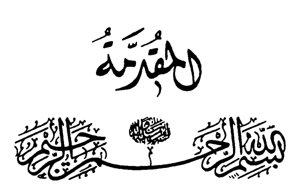
(٢) مِن أَغرَب مَا قَرَأتُ أَنَّ مُستَشرقاً يُدعىٰ «لاَمانس» يَرىٰ أَنَّ كُلّ مَا يُوَافق ٱلْقُرْءَان فَهُو دَسّ، وَافتِرَاء عَلَىٰ الرَّسُول!... مَع أَنَّ المُسْلِمِين كَافّة يَعكسُون القَوْل، وَيَرَون الحَدِيث شَارحاً، وَمُـفسّراً لِلْـقُرْءَان الكَرِيم. (مِنهُ ﷺ).



بَيْنَ اللهِ وَالإِنْسَان

[illegible]

المقدمة



وَالحَمْد لله رَبّ العَالَمِين، وَالصَّلاَة عَلىٰ مُحَمَّد وَآله الأكرَمِين

أنَا وأنتَ:

أَنَا أَكْتُب، وَأَنْتَ تَقْرَأ، وكُلّ مِنّا يتَأثّر بالآخر، ويُؤثّر بهِ، أَنَا أَتأثّر بِكَ، لأَنّك بإيمَانك، وَحُسن إقبَالك عَلىٰ مَا أَكتُب خَلَقتَ فيّ الشّعُور بأنّي مَسؤول عَنْكَ، وَأنَّ عَليّ أنْ أَنصَحك وَأدلك عَلىٰ الحَقّ وَالخير، وَأَنَّ وَقْتي الّذي أحْرص عَلَيه كُلّ الحِرص، وَعَملي الّذي لاَ يَعْرف التّوقف وَالرّكُود هُو لِي وَلَك، وَنَحنُ فِيهِ شُركَاء.

وَأَنْتَ تَتَأثر بِي، لأَنّي بسهُولَة التّعبِير، وَالبُعد عَن التّعقِيد المُنفّر، وَالحِرص عَلىٰ الحَقِيقَة اسْتَطعتُ ـ بحَمْد الله ـ أَنْ أُثِير رَغْبَتك فِي قِرَاءَتي وَمُتَابَعتي، وَأحْملك مِن حَيْث تُرِيد أَو لاَ تُرِيد عَلىٰ إنْتظَار مَا تُخرجَه لِي المَطَابع بَيْنَ فَتْرَة، وَفَتْرَة... قَالَ حَكِيم قَدِيم: «مَنْ لَمْ يَكْتُب وَلَم يَقْرَأ خَسِرَ العُمْر كُلّه».

فَإِا عَكفَتُ أَنَا عَلىٰ الكِتَابَة، وَأَنْت عَلىٰ القِرَاءَة رَبحنَا مَعاً العُمر كُلّه... وَبَديهَة

أنَّ الكَاتِب يَكْتُب حِين يَجْد القَارِيء، تَمَاماً كَـالخَطِيب يَـخْطب حَـيْث يُـوجد الجُمهُور، وَالقَارِيء إنَّمَا يَقرَأ، حِيْث يَجْد الفَائِدَة وَالمُتعَة، كَالظّمآن يَشْرَب المَاء، حَيْث يَجدهُ عَذباً فُرَاتاً.

وَأنْتَ تَعْرفني ـ أيّها القَارِيء ـ بكتَابي هَذَا وَغيره، وَأنَا لاَ أعْرف عَنْكَ شَـيْئاً وَلَكنّي أُحبّك كَثِيراً، لاَ لأَنَّ قُرّائي يَزدَادُون بِكَ وَاحداً، بَل لأنّي بقرَاءَتك أحْصَل عَلىٰ تَأشِيرَة الدّخُول إلىٰ الجَنَّة وَإيّاك إذَا انْتَفعتُ بمَا قَرَأت. وَآخذ بِكَ فِي سَبِيل الهِدَايَة وَالرَّشَاد. وَأسْأل الله لَكَ وَلي العَمْل بمَا نَعْلَم.

وَأحْسب أنَّ الله سُبْحَانه قَـد أرَاد لَكَ وَلي الخَـير... أرَاد الخَـير لَكَ، حَـيْث صَرفَك عَن الخَمْر وَالمَيسَر، وَالكُتب الجِنْسيَّة، وَالْقَصَص الخلاَعيّة، وَالرّوَايَات الإجْرَاميَة إلىٰ هَذَا الكِتَاب، وَمَا إلَيهِ مِمَّا يَتّجه بِكَ إلىٰ الله سُبْحَانه، وَيَغرس فِـي نَفْسَك بذُور الإيْمَان وَالخَيْر وَالفَلاَح.

وَأرَاد لِي الخَير، حَيْث أبْعَدني عَن الخمُول وَالكَسَل إلىٰ الكِتَابَة وَالتَّألِيف فِي العَقِيدَة، وَالفَضَائِل، وَالفِقه، وَالأخلاَق... وَقَد دَلتني التَّجارب الكَثِيرَة المُتكرّرة أنَّ الإنْسَان لَو جَمَع عُلُوم الأوّلِين وَالآخرِين، وَبَلغ مِن الذّكَاء مَا بَلَغ، وَتَوفرَت لَهُ الرَّغبَة، وَالعَافيَة، وَالرَّفَاهيَة لاَ يَسْتَطِيع القِيَام بأَي عَمَل فَضلاً عَن تَألِيف كتَاب، أو وَضع مَقَال إذَا لَمْ يُحَالفهُ التَّوفِيق وَالعِنَايَة الإلٰهيَة.

الغَرَض مِن هَذَا الكِتَاب:

لَيْسَ الغَرَض مِن هَذِه الصَّفحَات التّسليَة وَالتّرفِيه عَن النّـفْس القَـارِيء، وَلاَ الكَشف عَن نَظرِيَة جَدِيدَة لاَ يَعْرفهَا الأوّلُون، وَإنَّمَا الغَرض أنْ يَتَذوّق القَـارِيء

حلاَوَة الإِيْمَان وَعذُوبَته بالتَّوجه إِلىٰ الله، وَالثّقَة بـهِ، والتَّـوكل عـلَيه وَالرَّجَـاء لثَوَابه، وَالخَوف مِن عَذَابه. الغَرَض أَنْ يَـصبَح القَـاريء فَـاضلاً مُـتسَامياً فِـي أَخلاَقهِ، صَالحاً تَقيّاً فِي أَعْمَاله، صَادقاً فِي نوَايَاه وَمقَاصدَه.

وَلاَ شَيء يُحقّق هَذِه الفَضَائِل، وَيَضمَنها للإِنْسَـان كـتَعاليم أَهْـل الْـبَيْت عليهم السلام وَمَقَايِّيسهم الَّتي تَرتَكز عَلىٰ كتَاب الله، وَسُنّة جَدّهم رَسُول الله صلى الله عليه وآله، وَلأَجل هَذَا اَقْتَطَفتُ جُملاً مِن مُنَاجَاة الإِمَام زَيـن العَـابدِين عليه السلام فِـي الصَّـحيفَة السَّـجَّاديَّة، وَمَضيتُ فِي شَرحهَا، وَتَحلِيلهَا مَع الفِطرَة دُون تَعسُف وَتَكلّف، وَلَو تَـهيأت لِـي ثَقَافَة أَشْمَل، وَذَوق أَكمَل لكَشَفت عَن جوَانب مِنْهَا أَسمىٰ وَأَعْظَم، عَـلىٰ أَنّـي أَعْتَقد جَازمَاً بأَنَّ أَي إِنْسَان كَائنَاً مَن كَان لاَ يَستَطِيع أَنْ يَبلُغ الغَايَة مِن أَسرَارهَـا وَكنُوزهَا.

أَقسَام الكِتَاب:

سَبَق أَنْ كتَبَتُ وَنَشرتُ كَلمَات مُتفرقَة حَوْل مُنَاجَاة الإِمَام زَين العَابدِين عليه السلام، ثُمَّ أَحْسَستُ بالرَّغبَة فِي جَمْعهَا بكتَاب لتَكُون الفَائدَة أَتمّ وَأَكْمَل، وَلَكنّي رَأيتهَا لاَ تَتَجاوز خَمْسَة أَو سِتَة فصُول، فَكَتَبتُ نَحو عِشرِين فَصلاً جَدِيداً، لَمْ أَنْشر مِنْهَا شَيئَاً مِن قَبل، وَأَضَفتهَا إِلىٰ تِلكَ، وَأَخْرجتهَا مُجْتَمعَة فِي هَذَا الكِتَاب، وَقَسّـمته إِلىٰ ثَلاَثَة أَقْسَام: البُرهَان عَلىٰ وجُود الله، وَبقَاء الرّوح بَـعْد المَـوت بأُسـلُوب جَدِيد يُخَالف الأُسلُوب الَّذي اَتبَعته فِي مُؤلّفَاتي السَّابقَة، القِسْم الثَّاني، يَشْتَمل عَلىٰ الفصُول الَّتي لَمْ تُنْشَر مِن قَبل فِي صَحِيفَة أَو كتَاب، القِسْم الثَّالث جَمَعتُ فِيه

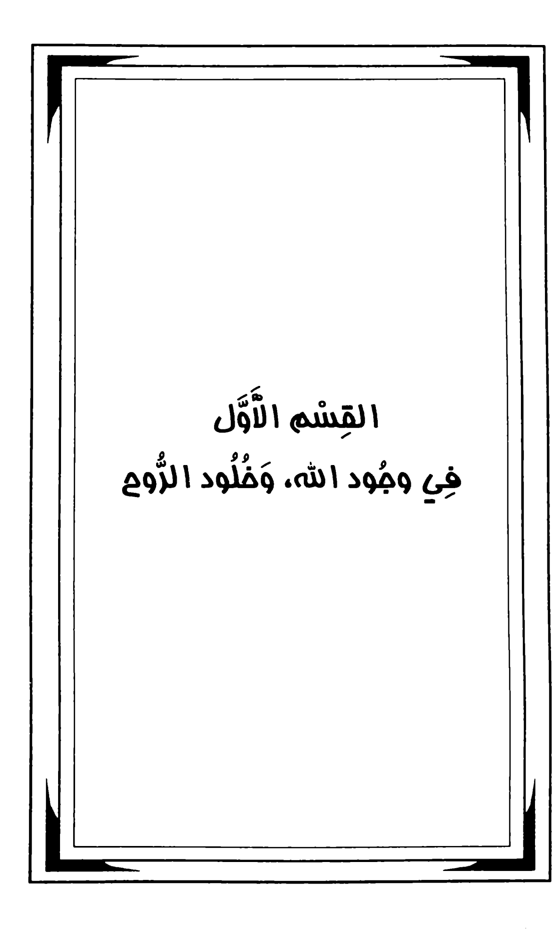
مَا سَبَق أَنْ نُشر [١]، مَع العِلم بأَنَّ الثَّاني وَالثَّالث مِن المُنَاجَاة، وَأَنَّ الأَقسَام الثَّلاثَة يَربطهَا رَابط وَاحد، وَيَجمعهَا جَامع وَاحد.

نَصيحَة:

إِذَا أَرَدت هِدَايَة مَن تُحبّ، أَو تَخْشىٰ عَلىٰ دِيْنه وَخُلقه مِن تَـيَّارَات الفَسَـاد وَالإِلحَاد فَاَحْمله بكُلّ سَبِيل عَلىٰ قِرَاءَة هَذَا الكِتَاب، فَإِنَّ فِيهِ حَوَادث وَوقَائِع مِن حَيَاة النَّاس تَحْمل الإِنْسَان تلقَائيَاً عَلىٰ الإِيْمَان بالله، وَخلُود الرُّوح وَبقَائهَا حيَّة بَعد المَوت، هَذَا، إِلىٰ أَنَّ فصُوله الأُخرىٰ تَبْعَث الإِنْسَان عَلىٰ العَمَل بوَحي هَـذَا الإِيْمَان مِن حَيْث لاَ يَحسّ وَلاَ يَشعر.

وَالله سُبْحَانه المَسؤول أَنْ يُوفقنَا جَمِيعَاً إِلىٰ طَاعَته، وَيَشملنَا برَحمَته، أَنّه خَير مَسؤول، وَصَلّىٰ الله عَلىٰ مُحمَّد وَآله الأَطهَار.

(١) لَقَد نَقلنَا هَذَا القِسْم (الثَّالِث) إِلىٰ الجزء الأَوّل مِن هَذَا الكِتَاب وَذَلِكَ للمُلاَئمَة بيْنَهُمَا.



القِسْم الأَوَّل

فِي وجُود الله، وَخُلُود الرُّوح

ܩܘܠܐ ܗܫܢܝܬܐ

ܘܩܘܠܐ ܕܦܘܩܕܢ ܡܫܝܚܐ ܕܚܕܒܫܒܐ

كَيْف آمَنْت

ٱسْتَجَبتُ ـ أوّل مَا ٱسْتَجَبت ـ إِلىٰ دِين آبَائي، وَأَجدَادي تَمَاماً كَمَا ٱسْتَجَبت إِلىٰ لُغَتِهم، وَعَادَاتِهم، وكُلّ مَا يَتّصل بحَيَاة الْبَيْت الَّذي عِشتُ فِيهِ مِن قِيَم وَمَعايِّير وَمُثل.

لَقَد آمَنْتُ تِلقَائيّاً دُون أَنْ يَكُون لِي الخَـيَار فِـي القَـبُول، أَو الرَّفـض، وفِـي التَّبدِيل، أَو التَّعدِيل... وَلَستُ أَقْصد بالإِسْتجَابَة ـ هُنا ـ التَّقلِيد، بَل أَقْصد مَعْنَىٰ وَرَاء التَّقلِيد، وَأَكثَر مِنْهُ، وَأَقْصد مَـعْنَىٰ يَشْـبَه الإِمْـتصَاص وَالتَّـقمص إِنْ صَـحّ التَّعبِير... لأَنَّ التَّقلِيد يُؤاخذ عَلَيه صَاحبَه، وَيُلاَم، وَالطِّفل لاَ يُؤاخَذ بشَـيء وَلاَ يُلام عَلىٰ شَيء.

كَانَت أُمّي، وَهي مِن بَيْت عِلْم وَدِين، تُرَدّد فِي كَلاَمهَا كَثِيراً ٱسم الله، ومُحَمَّد، وَعَليّ، وَفَاطِمَة وَحَسَن وَحُسَين، فَإِا تَحَركت حَرَكَة تَخَافها عَليّ، أَو عَطَست، وَمَا أَشْبَه قَالَت: الله... وإِذَا نَظَرت إِليّ ٱمرَأة تَخْشَىٰ مِن عَـيْنهَا رَفَـعت صَـوتهَا بالصَّلاَة عَلىٰ مُحَمَّد وَآل مُحَمَّد.

وَلَم يَقف الأَمر بوَالدَتي عِندَ هَذَا الحَدّ، بَل كَانَت تُلَقنني أَسمَاء الله، والنَّـبيّ، والأَئِمَّة الأَطْهَار، تَمَاماً كَمَا هُو شَأن الأُمّهات المُؤمنَات... وَمُـنذ القَـدِيم أَدرَك شَاعر إِمَامي أَنّه مَدِين لأُمّه بهَذَا الوَلاَء، فَأَنْشَأ يَـقُول طَـالباً لَهَـا مِـن الله العَـفو

وَالغُفرَان :

لاَ عَـــذّب الله أُمّـــي أَنَّـــهَا شَــرِبَت
حُبّ الوَصـــــيّ وَغَـــذّتْنِيه بـــاللّبنِ
وَكَـــان لِـــي وَالد يَـــهْوىٰ أَبَـا حَسَـن
فَصِرْت مِنْ ذَا وَذِي أَهْوىٰ أَبَا حَسَن[١]

أَمَا وَالدي فَقَد كَان لاَ يَهْتَم بشَأن مِن شُؤوني كَمَا يَهْتَم بتَنْشئتي عَـلىٰ الدِّيـن وَالوَلاَء لأَهل الْبَيْت : . . فَقَد كَان عَالمَاً مِن عُلمَاء الدِّين مُهمّته وَهَمّه غَرْس التَّقوىٰ وَالوَلاَء فِي النّفُوس مُؤمناً بهَذِه المُهمّة كُلّ الإِيْمَان ، مُخلصاً لهَا كُلّ الإِخْـلاَص ، وَكَان رَقِيق الشّعُور ، مُـرهَف الحِسّ ، سَـخي الدَّمـعَة ، وَتَـروىٰ عَـنْهُ فِـي ذَلِكَ حكَايَات ، مِنْهَا : أَنّه حَضَر مَجْلسَاً لتَعزيَة أَبي عَبدالله الحُسَين عليه السلام ، وَمَا أَنْ افْتَتح القَاريء كَلاَمه بقَوْله : (صَلّىٰ الله عَلَيكَ يَا رَسُـول الله ، صَـلّىٰ الله عَـلَيكَ يَـا أَبَـا عَبدالله) .

حَتّىٰ أَخَذهُ الحُزْن ، وَأَجْهَش بالبُكَاء

فَقَالَ لهُ أَحَد الظُّرفَاء مِن أَهْل المَجْلس : « طَوّل رُوحَك ، حَتّىٰ نَـعْرف الحَـقّ عَلىٰ مَن ؟ . . . . » .

وإذَا كَانَت مُهمّة أَبي غَرْس الوَلاَء فِي النّفُوس فبالأَولىٰ أَنْ يَهتَم بطِفْله ، وَيَبذُل كُلّ جُهد لغَرس هَذَا الوَلاَء وَتَنميَته فِي نَفْسَه . . . وَمَا زلتُ أَذْكُر أَنّ أَوّل بَيْت حَفظتَه مِن الشّعر هُو للشّيخ الأُزْري مِن قَصِيدَته الأُزريّة الشّهِيرَة وهَذَا هُو[٢] :

(١) أُنظر ، دِيوَان الشّافعي الطّبْعَة الثّالِثَة بَيْرُوت : ٥٥ ، دَلِيل فِقْه الشّافِعي : ١١ .

(٢) أُنظر ، دِيوَان الأُزري الكَبِير ، للشّيخ كَاظم الأُزري التّمِيمي : ٢٧٨ .

مَــلِكٌ شَــدّ أَزْرَه بأَخِــيه فَاْستقَامَت مِن الأُمُور قَـنَاهَا

وَأَبي هُو الَّذي أَغرَاني بحِفْظه بقِطعَة مِن النّقود، وكَان لِي يَـومذَاك سِتٍ مِـن العُمر. وَأَعْـتَقد جَـازماً أَنَّ حِـفظي الأَول لهَـذَا الْـبَيْت فِـي مَـدِيح عَـليّ أَمِـير المُؤْمِنين عليه السلام، وَسيِّد الوَصيِّين، وَتردَادي لكَلاَمه، وَأَنَا اَبن سِتٍ سِنِين كَان لهُ أَبْلَغ الأَثر فِي حَيَاتي المُقبلَة، فَقْد كَان وَلاَ شَكّ مِفتَاح الخَير، وَسرّ التَّوفِيق رَغم أَنّـي حَفظتَه كَالبَبَغاء، تَنْطق، وَلاَ تُدرك.

وَإِنْ لَمْ يَكُن لأَبي عَليّ سِوىٰ هَذِه اليَد الكَريمَة العَظِيمَة الَّتي جَعَل الله فِيهَا خَيراً كَثِيرَاً لوَجب عَليّ أَنْ أبرّه وَأَشكُره... فَعَلَيك مِن الله الرَّحمَة يَا أَبْـتَاه، وَخَـصّك بالمَغْفرَة وَالرّضوَان، وَحَشرك مَع الأَئِمَّة الأَطهَار أَنْتَ وَجَمِيع الآبَـاء والأُمّـهَات الَّذين يَغرسُون فِي نفُوس أَبْنَائهم الحُبّ وَالوَلاَء للنَّبيّ وَآله الهُدَاة.

وَكَان أَبي ـ أَحْسَن الله إِلَيهِ ـ يَأمرني إِذَا شَربتُ المَاء أَنْ أَقُول: الحَمْد لله، وَلَعَن الله مَن ظَلَمك يَا أَبَا عبدالله، وَمَنعَك شِرب المَاء، وكَان يُرَدّد عَلىٰ مَسْمَعي صَبَاح مَسَاء أَسمَاء الأَئِمَّة الإِثنَا عَشَر، حَتّىٰ اَطمَأَنَّ إِلىٰ حِفْظي لهَا عَلىٰ التَّرتِيب، كَـمَا كَان يَصْحبني مَعَه إِلىٰ مَجَالس التَّـعزيَة، وَزيَـارَة المَشَـاهد المُشَـرّفَة، وَصَـلاَة الجَمَاعَة.

وَمَا زِلت أَذْكر أَنّه حَضَر فِي ذَات يَوْم أَحْد المَجَالس لتَعزيَة الحُسَين عليه السلام فِـي قَريَة العَبَّاسيَة، فَـتَجمع أَطـفَال القَـريَة، وَجَـلسُوا فِـي الطَّـرف، فَـحَاول أَحـد الحَاضرين أَنْ يَطردهُم، فَزجرهُ أَبي، وَقَالَ لهُ: «دَعهُم يَتمرنُوا وَيَعتَادوا».

وَكَان مِن نَتِيجَة هَذِه التَّربيَة أَنْ صَار الدِّين وَالوَلاَء فِي نَفْسي كَطَبيعَة أَصِيلَة، لاَ شَيء مُكْتَسب، وَحِين بَلغتُ سِنّ المُرَاهقَة، وَالتَّمييز كُنتُ أَعْتقد أَنَّ الحَقّ وَالعَدْل

لاَ يُوجدَان إلاَّ فِي ٱلْقُرْآن، وَعِندَ النَّبيّ وَآله الكِرَام.

وَتَأكّدَ هَذَا الشّعُور أكْثَر فَأكْثَر بَعد أَنْ ذَهَبتُ إلىٰ النَّجف الأَشرَف لطَلب العِلْم... فَمَا وَقَع بَصَري، وَأَنَا فِيهَا إلاَّ عَلىٰ شعَائِر الدِّين، وَمظَاهر الوَلاَء... فِمِن الأَذَان إلىٰ الصَّلوَات وَالعِبَادَات، إلىٰ تِلاَوَة ٱلْقُرْآن، والأَدعيَة والأَورَاد، وَمِن الزّيَارَات إلىٰ مَجَالس التَّعزيَة، وَالوَعظ، وَالإِرشَاد، وَحَلقَات الدَّرس عِند الأَتْقيَاء الأَبرَار.

إلىٰ هُنا، وَلاَ سَبَب لإِيمَاني إلاَّ عَقِيدَة آبَائي الَّتي ولِدتُ عَلَيهَا، وإلاَّ البِيئَة الَّتي عِشتُ فِيهَا، وَبَعد أَنْ ٱتّسعَت مَدَاركي، وَٱسْتَطعتُ أَنْ أتفَهم وَأهضم أدلّة المُتَكلمِين وَالفَلاَسفَة الإِلهيِّين، وَبَعد أَنْ تَقَدّمت فِي الدِّرَاسَة، وَٱطّلعتُ عَلىٰ تِلكَ الأَدلّة أَصْبَح إِيمَاني عَن بَينَة وعِلْم بَعْد إنْ كَان عَاطفيّاً مَحضاً، أَو تَقلِيداً أَعْمىٰ.

إنَّ وَسَائل الإِيْمَان مُعَدة لكُلّ طَالب وَرَاغب... إنّ الله سُبْحَانه إذَا أَرْسَل إلىٰ عِبَاده رَسُولاً، وَأَمرهُم بإِطَاعَته، وَٱتّبَاعه وَجَب أَنْ يُعزّزه، وَيُؤيدهُ بالأَدلّة القَاطعَة عَلىٰ نُبوّته، فبالأَحرىٰ إذَا دَعَاهُم إلىٰ الإِعْتَرَاف بربُوبيته أَنْ يَفْتَح لهُم أَبوَاب العِلْم بهَا، وَيُمَهد السُّبل إلىٰ مَعْرفتهَا، وَقَد يَسّر الله سُبل الإِيْمَان بِهِ، حَتّىٰ كَادَت تُلحق بالبَدِيهيَات، للَّذِين لَمْ يَنْحرفُوا عَن جَادّة العَقْل السَّلِيم، وَالفِطرَة الصَّافيَة.

وَلاَ تَنْحصر هَذِه السُّبل بأَدلّة المُتكَلمِين وَالفَلاَسفَة، بَل يَجدهَا النَّاظر فِي العَالم بجُملَته، وَفِي نَفْسَه، وفِي الجمَاد وَالنَّبات، وَالحَيوَان، وفِي كُل ذَرّة فِي الأَرْض والسَّمَاء، وفِي كُلّ خَليّة وَجُزء مِن جِسمٍ حَي، وَغَير حَي... يَجْد هَذِه الأَدلّة كُلّ إنْسَان، سوَاء أَكَان عَالمَاً، أَمْ جَاهلاً، صَالحاً، أَمْ طَالحاً عَلىٰ شَرِيطَة أَنْ

يَكُون مِن طُلاَب الحَقِيقَة، لاَ مِن مُدّعِيها جَهْلاً وَغرُوراً.

وَمِن هُنا، وَلأَجل تَوفر هَذِه الأَدلّة وَالبَرَاهِين عَلىٰ وجُود الخَالِق لاَ عُذرَ عِندَ الله جَلّ وَعَزّ لمَن يَجْحدَه وَيُنْكرَه كَائناً مَن كَان، أَمَّا الأُصُول الأُخرىٰ فَيُعذر فِيهَا المُخَالف إنْ عَجز عَن النَّظر وَالإِسْتدلاَل، أمَّا إذَا قَدَر فَأَهمَل، أَو نَظَر نَظرَة نَاقصَة غَير كَاملَة فهُو غَيْر مَعذُور بحَال.

وَبكَلمَة أَنَّ القَادر المُقصر مَسؤول، وَالعَاجز القَاصر لاَ شَيء عَلَيه. إنَّ الله سُبْحَانه يُؤاخذ النَّاس بِقَدر مَا وَهَبهُم مِن العَقْل وَالإِسْتعدَاد، وَلاَ يُكَلفهُم فَوق مَا يُطِيقُون.

وَمَهمَا يَكُن، فَإنَّ موافقَة الآبَاء والأُمهَات فِطرَة فِي الإِنْسَان، أَو أَشبَه بالفِطْرَة يَنسَاق وَرَاءهَا مِن غَير شعُور، وَلاَ يَتحرر مِنْهَا إلاَّ مَن اتّسعَت مَدَاركه، وَتَقدّم فِي الوَعي وَالعِلْم، عَلىٰ أَنَّ تَحرر العُلمَاء عَلىٰ خَطر، حَيْث يَرىٰ أَكْثرهُم أَنَّ الحَق وَالعَدل فِيمَا كَان عَلَيه أَبوَاه دُون غيرهمَا... وَلَكن إذَا أَرَاد الله سُبْحَانه بعَبدِه خَيرَاً هَيَّأ لهُ الأَسبَاب عَالِمَاً كَان أَو جَاهلاً، شَابّاً أَو شَيخاً... ولَيْسَ مِن شَكّ أَنّه جَلّ وَعزّ لاَ يُخيب مَنْ أَخْلَص النِّيَّة، وَتَجرد لطَلَب الحَقِيقَة.

فِي ذَات يَوْم جاءَني شَاب فِي مُقتَبل العُمر، وقَالَ: إنِّي فِي طَرِيق الهِدَايَة، وَكُنتُ قَبلاً مِن الضَّالِين، وَقَد أَتيتُك لأَقْتنع نهَائياً، أَو أُحبّ أَنْ أَسمَع مِن فَمك.

فَقُلتُ لهُ: هَل أَنْتَ طَالب، أَو انْتَهيت مِن دِرَاستك؟.

قَالَ: فِي هَذِه السَّنَة حَصَلتُ عَلىٰ الثَّانويَة، وَعزَمي عَلىٰ المُتَابعَة وَالتَّخصص.

قُلتُ: تُخَصص بمَاذَا؟.

قَالَ: فِي الطِّب.

قُلتُ: أَنَّ مِن الإِنْسَان الأَسوَد، والأَبيض، والأَصْفر، وَالطَّويل وَالقَصِير، وَالذَّكي، وَالبَلِيد، وَالذَّكر، وَالأُنثىٰ، أَلَيْسَ كَذَلكَ؟.

قَالَ: أَجل، بالبَدِيهَة.

قُلتُ: لَو ٱجْتَمع العُلمَاء والأَطبَاء، وَفَحصُوا وَحَلّلوا بُويضَة المَني الَّتي يَتَولد مِنهَا الإِنْسَان هَل يَسْتَطيعُون التَّمييز بَيْنَ بُويضَة الأَسوَد وَالأَبيض، وبُويضَة الطَّويل وَالقَصِير، وَالذَّكر والأنثىٰ؟. بحَيْث يَتنبأون أَنَّ هَذِه البُويضَة يَتكوّن مِنْهَا الأَسوَد، وتِلكَ يَتكوّن الطَّويل، وَهَكذَا...

قَالَ: كَلّا.

قُلتُ: إِذَن، لاَ سَبَب إِلاَّ إِرَادَة الله وَمَشِيئَته.

قَالَ: إِنَّ كَثِيراً مِن العُلمَاء وَالفَلاَسفَة يَحصرُون سَبَب المَعرفَة بالتَّجربَة، وَلاَ يُؤمنُون بغَيرهَا، وَيَعدّون دَلِيلك هَذَا، وَمَا إِلَيهِ مُجَرّد نَظريَة، وَالنَّظريَة لاَ تَكُون عِلْميَة، حَتّىٰ تُثْبتهَا التَّجربَة.

قُلتُ: لاَ بُدّ للتَّجربَة مِن دَلِيل يَدل عَلىٰ صِحتها، وَأيضاً لاَ بُدّ أَنْ يَكُون هَذَا الدَّلِيل غَير التَّجربَة، لأَنَّ الشَّيء لاَ يَكُون دَلِيلاً وَمَدلُولاً مِن جِهَة وَاحدَة، وَفِي آنٍ وَاحد، وَلاَ دَلِيل عَلىٰ الأَخذ بالتَّجربَة إِلاَّ العَقل، وعَلَيه فَلاَ يَكُون سَبَب المَعْرفَة مُنْحصرَاً بالتَّجربَة، فَإِنَّ هُنَاك العَقْل، وَهُو أَقوىٰ مِنْهَا، لأَنّه الدَّلِيل عَلىٰ صِحتهَا، وَلَولاَه لَمْ تَكن شَيئَاً مَذْكُورَاً.

ثُمَّ أَنَّ الَّذِين لاَ يُؤمنُون بالتَّجربَة يُنَاقضُون أَنْفسهم بأَنْفسهِم، حَيْث يَنفُون وجُود مُدَبّر لهَذَا الكَوْن دُون أَنْ يَستندُوا فِي نَفيهِم هَذَا إِلىٰ التَّجربَة، أَو إِلىٰ شَيء

يَركن إِلَيهِ[١] هَذَا، إِلىٰ أَنَّ التَّجربَة وَالعِلم أَعْجَز مِن أَنْ يُحِيط بالكَون وَمَا يَزخَز بِهِ مِن عَجَائب وَأَسرَار، فَضلاً عَمّا وَرَاءه إِذَن لاَ بُدّ مِن العَقْل وَالوَحي لمَعْرفَة مَا لاَ يَنَاله الحِسّ وَالتَّجربَة.

ثُمَّ ذَكرتُ للشَّاب مَا حَضَرني مِن أَقوَال الفَلاَسفَة وَالعُلمَاء.

مِنْهَا أَنَّ رَجُلاً قَالَ لسُقرَاط: لمَاذَا لاَ نَرىٰ الله؟.

فَقَال لهُ سُقرَاط: وَأَنْتَ أَيضاً لاَ تَرىٰ رُوحَك الَّتي تَتَسلط عَلىٰ أَعضَائك فَهَل مَعْنىٰ هَذَا أَنْ تَقُول: أَنَّ أَفعَالك صَادرَة عَن ٱتِّفَاق، وَبدُون إِدْرَاك؟..

وَمِنْهَا: مَا قَالهُ أَحد العَارفِين: لَو أُفْترض أَنَّ الرَّجُل وجِد صِدفَة فَهَل وجِدَت المَرأَة الَّتي تُرَافق الرَّجُل صِدفَة أَيضاً، لتُعمّر الأَرْض بالسّكان، وَيَدُوم فِيهَا النَّسل؟.

وَمِنْهَا: قَوْل فُولتِير: «إِذَا كَان أَمَام الفِكرَة فِي وجُود الله عَقبَات، فَإِنَّ فِي الفِكرَة المُضَادة حمَاقَات».

وَقُلتُ لهُ فِيمَا قُلت: أَنَّ تَقَدّم العِلْم أَفَاد الدِّين كَثِيراً بخَاصّة فِيمَا يَعُود إِلىٰ إِثبَات الخَالِق، حَيْث أَصْبَح بوِسع الإِنْسَان أَنْ يَستَعِين عَلىٰ ذَلِكَ بالوَسَائِل العِلميّة، وَيَعرف هَذِه الحَقِيقَة مَن يَقرَأ كتَاب «الله يَتَجلىٰ فِي عَصْر العِلْم».

وَختَمتُ كَلاَمي بأَنَّ الإِسْلاَم لَمْ يَدعُو إِلىٰ الإِيْمَان تَقلِيداً، بَلىٰ نَعىٰ عَلىٰ الجُهّال وَالمُقلدِين، وَدَعا إِلىٰ التَّفكُر، وَإِنْعَام النَّظر أَوّلاً وَقبل كُلّ شَيء، ثُمَّ الإِيْمَان بوَحي

(١) وَقَد رَأينَا عُلمَاء الطَّبيعَة يُؤمنُون بشَي عَن طَرِيق التَّجربَة بزَعمِهم، وَبمرُور الأَيَّام ثَبَت بالتَّجربَة أَيضاً أَنّهم عَلىٰ خَطَأ. وَمِثَال ذَلِكَ أَنَّهم قَالُوا: الفَضَاء مَملوء بالأَثِير الَّذي لاَ يُرىٰ. وَالآن وَبَعد النَّظريَة النِّسبيَة آمنُوا بأَنَّ الفَضَاء فَارغ مِن الأَثِير وَغَير الأَثِير. اُنظر. «مَجلّة المَجلّة المَصريّة عَدَد أَيلُول سَنَة «١٩٦٣م». (مِنْهُ ﷺ).

العَقْل وَالضَّمِير، وَلاَ أَحد يُنْكر عَلىٰ الإِسْلاَم دَعـوَته هَـذِه، أَو يُـنْكر ضَـرُورَة الإِحْتِكَام إِلىٰ العَقْل وَالفِطرَة، إِنْ كَان مِن أُولي الأَلبَاب: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[1].

فَخَرج الشَّاب، وَهُو إِلىٰ الإِيْمَان أَقْرَب، وَلله الحَمْد. وَفَضلاً عَن الأَدلَّة العَامَّة عَلىٰ وجُود الله سُبْحَانه فَإِنَّ هُنَاك تَجَارب وَحوَادث شَخصيَة تَحصَل لكُلّ إِنْسَان لَو تَنبّه إِلَيها، وَبَحث عَن سَبَبها الحَقِيقي لَمْ يَجد سِوىٰ إِرَادَة الله وَمَشِيئَته.

وَقَد حَصَل لِي أَكْثَر مِن تَجربَة خَاصَّة فِي التَّدلِيل عَلىٰ أَنّه لاَ رَادّ لمَا أَرَاد جَلّ وَعزّ.

مِن ذَلِكَ أَنّي كُنتُ عَازمَاً عَلىٰ شَيء، وَلاَ عَائِق أَو حَاجز يَصدني عَنْهُ، وَمَا أَنْ هَمَمْتُ، حَتَّىٰ غَاب عَن ذِهْني مَا قَصَدتُ إِلَيهِ كَأَنَّه لَمْ يَكُن.

وَفِي ذَات يَوْم ذَهَبتُ إِلىٰ بَيْت رَجُل أَعْرفهُ، وَيَعْرفني، قَصَدته لأُكَلفه بأَمر يَهمني، وَلمَّا دَخَلتُ عَلَيه رَحبّ، وَٱسْتَقبلني بمَا أُحبّ، وَلكنّي نَسِيتُ الغَرَض الَّذي زُرتَه مِن أَجْله، وَالغَرِيب أَنَّه عَرَض عليَّ خَدمَاته، وقَال: إِنِّي عَلىٰ ٱسْتعدَاد لكُلّ مَا تَأمر، فَغَاب عَنّي كُلّ شَيء، وَقُلتُ: شُكراً، وَخَرجتُ... وَبَعد خُرُوجي ذَكَرتُ مَا كَان مِن أَمري فَعَجبتُ، وَلَم أَجد تَفْسِيراً إِلاَّ إِرَادَة الله وَمَشِيئَته.

وَكَم عَزَمتُ عَلىٰ أَمرٍ عَزمَاً لاَ يَصدني عَنْهُ إِلاَّ المَوت ـ فِيمَا كُنتُ أَحْسب ـ وَإِذَا بِالعَزم يَتَبخر بدُون سَبَب ظَاهر، وَالسَّلاَم عَلىٰ أَمِير المُـؤْمِنِين عليه السلام، حَـيْث قَـالَ: «عَرَفْتُ اللهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ الْعَزَائِمِ، وَحَلِّ الْعُقُودِ، وَنَقْضِ الْهِمَمِ»[2].

---

(١) ٱلْقَمر: ٤٠.

(٢) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٢٤٩).

وَمِن ذَلِكَ أَنّه لَو قَالَ لِي قَائِل ـ وَأَنا يَتِيم أَبْحَث عَن لُقمَة العَيْش بِبَيرُوت ـ: سَتَذهب إِلىٰ النَّجف، وتَكُون فِيهَا طَالباً نَاجحاً. لقُلتُ: إنّه يَسخَر مِنّي.

وَأَيضاً لَو قَالَ لِي ـ وَأَنَا فِي النَّجف أَعِيش فَقِيراً بَائسَاً ـ: سَتَذهَب إِلىٰ لُبنَان، وَتَبني لَكَ بَيْتَاً، وَتَعِيش بِلاَ ديُون وَعنَاء، لقُتُ: أَضْغَاث أَحْلاَم.

وَلَو قَالَ لِي بَعد أَنْ تَمَّ هَذَا: سَتَكُون مُؤلّفاً نَاجحَاً، يَقْبل القُرّاء عَلىٰ مَا تَكْتُب، وَتُعِيد طَبْع مَا تُؤلّف ثَانيَة، وَثَالثَاً وَرَابعَاً، فِي أَمَد قَصِير، وَتَتسَابق دُور النَّشر إِلىٰ مُؤلفَاتك، وَتُدفَع لَكَ أَتعَاب التَّألِيف سَلفاً، وَأَكثَر مِن المُعتَاد. لقُلتُ: خَيَال أَطْفَال.

وَقَد تَمَّ ذَلِكَ كُلّه وَلله المِنّة وَالحَمْد، حَمداً يَبلغ رِضَاه، وَشُكرَاً يَلِيق بِعَظَمته وَعُلاَوه... وَبالتَالي، فَلاَ تَفْسِير لشَيء مِن ذَلِكَ إِلاّ إِرَادَة الله وَمَشِيئَته جَلّ وَعَزّ.



اللهُ وَأَنْتَ

الإيمَانُ باللهِ قَدِيم:

إنَّ جَمِيع الآرَاء وَالمُعْتَقدَات، وَالمَبَادِيء وَالنَّظريَات وجِدَت بَعْد وجُود الإنْسَان بزَمنٍ قَصِير أَو طَوِيل إلاَّ مُعْتَقداً وَاحد فقَط لاَ غير، فَإنّه وجِد مَع الإِنْسَان مُنْذ اللَّحظَة الأُولىٰ لإِدْرَاكه وَمَعْرفَته، وَلَم يُفِارقهُ بحَال، وَسَيبقَىٰ مَعْه أَبَد الآبدِين، وَهذَا المُعْتَقد هُو الإيْمَان بالله، فَمَا نَقل مُؤْمِن وَلاَ جَاحد أَنّ فَترَة مِن الزَّمن مَرّت بالإِنْسَانيَة دُون أَنْ يُوجد فِيهَا وَاحد غَير مُؤْمِن... مَع العِلم بأَنَّ جَمِيع الآرَاء وَالمُعتقدَات، أَو أَكثَرها حَتَّىٰ البَدِيهيَات[1] قَدَ حَدَثت بَعْد وجُود الإِنْسَان بزَمَان، مَا عَدَا الإيْمَان بالله، فَإنّه كَان، وَمَا زَال الهَدَف الَّذي يَتّجه إلَيهِ الإنْسَان بفِطرَته فِي جَمِيع أَدوَار التَّأرِيخ. وَالإِخْتلاَف إنّما هُو فِي الأُسلُوب، وفِي تَصَور الذَّات وَالصّفات أَمَّا أَصل الفِكرَة فَقْدِيمَة بقِدَم الإِنْسَان نَفْسَه.

وَمِن هُنا كَان مَبدَأ الإِيْمَان بالله أَقدَم مِن العُلُوم وَالفَلسفَات، وَمِن الآدَاب

---

(١) أَنّ كَثِيراً مِن الحَقَائِق لَم تَبْلغ دَرجَة الوضُوح إلاَّ بَعْد التَّجربَة المُتكرّرة كقَولنَا: وجُود الدُّخَان يَدلّ عَلىٰ وجُود النَّار، وَوجُود النّهار يَدلّ عَلىٰ طُلوع الشَّمس، وَمَا إلىٰ ذَلِكَ فَإنّه لَولاَ التَّجربَة لمَا كَان بَدِيهيَاً، أَجل، هُنَاك حَقَائِق بَدِيهيّة بالذّات، لاَ بالوَاسطَة، كَقَولنَا: هَذَا إمّا مَوجُود، وَإمّا مَعْدُوم. (مِنْهُ ﷺ).

وَالفنُون، وفِي الوَقت نَفْسَه هُو مَبدَأ عَالمي تَعْتَنقه المَلاَيّين فِي كُلّ زَمَان وَمكَان، وفِي كُلّ عُنْصر وَلَون، وَقَد يُوجد إنْسَان لاَ يُؤمن بالله فِي قَارّة مِن القَارّات، أو فِي زَمن مِن الأَزمَان، أو فِي لَون مِن الأَلوَان، أَمّا أَنْ لاَ يُوجد مُؤمِن وَاحد إطلاَقاً فَلَم يَقل بِهِ قَائِل، أو يَهْزل بِهِ هَازل.

العَالِم مَع الدَّليل:

العَالِم وَاحد مِن ثَلاَثَة إمَّا أَنْ يَثْبت عِندَه الدَّلِيل عَلىٰ وجُـود الشَّـيء فَـيَعْتَقد بوجُودَه، وَإمّا أَنْ يَقُوم الدَّلِيل عَلىٰ عَدَمه فَيَعتَقد بالعَدَم، وَإمّا أَنْ لاَ يَكُون دَلِـيل عَلىٰ الإيجَاب وَالسَّلب فَيَشك، وَلاَ يَعْتَقد بشَيء، فَعَلِيه وَالحَال هَذِه، أَنْ يَبْحَث وَيَفحَص عَن الدَّلِيل... أَمّا مَن يَجْزم بالعَدَم لاَ لشَيء إلاَّ لعَدَم الدَّليل عَلىٰ الوجُود فهُو جَاهل... لأَنَّ عَدَم الدَّلِيل لَيْسَ بدَلِيل عَلىٰ العَدَم الوَاقع، إذْ قَد يُوجد، وَلَـم نَطّلع عَلَيه.

وإلَيكَ هَذَا المِثَال: إذَا دَخَلتَ دَاراً، وَرَأيتَ فِيهِ إنْسَاناً جَازَ لَكَ أَنْ تَقُول: فِـي الدَّار إنْسَان، وإذَا دَخَلتهُ، وَلَم تَر أَحداً، وَلَم تَسمَع صَوتاً صَحّ مِنْكَ القَول: لَـيْسَ فِي الدَّار إنْسَان، وإذَا لَمْ تَدْخل الدَّار قَطّ فَلَيْس لَكَ أَنْ تُثْبت أَو تَنْفي، وَإنّما عَلَيكَ أَنْ تَبْحَث وَتَسأَل العَارفِين، فَإذَا أَثبَتّ وجُود الإنْسَان، أَو نَفَيتَه مِن الدَّار، وَالحَال هَذِه، فَأَنْتَ جَاهل مُتَسرع.

وَمِن هُنا لَمْ يَدع أَحد وجُود بَيّنَة عِلميَة عَلىٰ عَدَم وجُود الله، لأَنَّ إقَامَة هَـذِه البَيّنَة أَكثَر مِن محَال - إنْ صَحّ التَّعبِير - إذْ لاَ شَيء خَطِير أَو حَقِير يَدل عَلىٰ أَنَّ الله غَير مَوجُود، إذَا لَمْ نَقل بأَنّه يَدل عَلَيه بالذَات - إذَن - لاَ أَحد أَحْمَق مِمّن يَـنْفي

وجُود الله، أَو يَدّعي وجُود البَيّنَة عَلىٰ النَّفي... حَتّىٰ المُشكك المُتوقف لَو أَلقىٰ نَظرَة وَاحدَة بتَأمل وَإمعَان عَلىٰ أي شَيء يَمر بـعَالمه لتَـحول شَكّـه إلىٰ يَـقِين، وَترَدّده إلىٰ إيمَان بالله القَدِير العَلِيم.

أيّها المُشكّك:

أَيّها المُشَكّك المُترَدّد فِي وجُود الله ألقِ نَظرَة وَاحدَة عَلىٰ مَا شِئْت مِـن هَـذَا العَالَم خَطِيراً كَان أَو حَقِيراً، وَتَأَمله جِيداً، فَسَيكشف لَكَ عَن وجُود الله بـجَلاَء، عَلىٰ شَرِيطَة أَنْ تَأخذ عَلىٰ عَاتقك مَسئوليَة البَحْث بجِد وَعنَايَة... وَلاَ أُجَشمك التّأمل فِي الخُطُوط العَرِيضَة، وَالأَدلّة العَامّة عَلىٰ وجُود الله مَن خَلق السّموَات وَالأَرْض، وَلاَ أَعمَال الفِكر فِي الأَقْيسَة المَنْطقيَة، وَالإلزَامَات العَقليَة، كَمَا فَعلت فِي كتَاب «الله وَالعَقْل» وَكتَاب «فَلْسفَة المَبدَأ وَالمَعَاد»، لاَ أُجَشمك شَيئاً مِـن ذلِكَ، وإنَّمَا أَرْغَب إلَيكَ أَنْ تَرجَع إلىٰ تَأرِيخ حَيَاتك، وَتُلقي نَظرَة عَلىٰ مَا مَرّ بِكَ مِن أَحدَاث خَاصّة، فَسَترىٰ أَشيَاء وَأَشيَاء لاَ تَـجد لهَـا تَـفْسِيراً إلاّ بـوجُود الله وَإرَادَته تَبَاركت أَسمَاؤه... فَإنّه جَلّ وَعزّ قَد أَعطىٰ كُلّ نَفْس أَدلّة خَاصّة عَـلىٰ وجُودَه لاَ يُشَاركهَا فِيهَا أَحد، تَمَاماً كَبَصمَة الإِبْهَام، وَمَلاَمح الوَجه الّتي تُميزّه عَن النّاس أَجْمَعِين، حَتّىٰ عِندَ وَالدَه وَولده، هَذَا، بالإِضَافَة إلىٰ الأَدلّة العَـامّة الّـتي يَشتَرك فِيهَا العُقلاَء عَلىٰ السّوَاء.

مِنَ الأَدلّة الخَاصّة:

وَبَقِيتُ أَمداً غَير قَصِير أَبْحَث عَن هَذِه الأَدلّة وَالأَمثلَة فِي حَيَاة النَّاس، وَأَتتّبع

الكُتب وَالصُّحف ، حَتَّىٰ اَطّلعتُ عَلىٰ الكَثِير :

مِنْهَا : أَنَّ شَابّاً مِن صَعِيد مَصْر تَزوّج فَتَاة ، وَبَعد الزَّوَاج بتِسعَة أَشهُر وَلَدت طِفْلَين ، وَبَعد فَترَة قَصِيرَة حَمَلت وَوَضعَت طِفلَين آخرَين ، فَأَصْبَح فِي الْبَيْت أَرْبعَة أَطفَال فِي أَقل مِن سَنتَين ، وَسُرعَان مَا حَمَلت للمَرّة الثَّالثَة ، وَكَان الزَّوج فَقِيراً رَقِيق الحَال ، فَاَستشَاط الأَب غَضَباً ، وَخَاف أَنْ تَلد طِفلَين ، وَيَحتَوي بَيْته عَلىٰ سِتَة أَطفَال ... فَأَقسَم بالطَّلاق إِذَا وَلدَت هَذِه المَرّة اَثْنَين ، وَبَكت المَرأة بُكَاء حَارّاً خَوفَاً مِن الفِرَاق ، وَلَكنّها مَا أَتمّت أَشهُر الحَمل ، حَتَّىٰ وَلَدت ثَلاَثَة أَطفَال[١] .

وَأَصْبَحت اليَمِين لَغواً ، لأَنّها وَقعت عَلىٰ اَثْنَين ، فَجَاءت المَرأَة بِثَلاَثَه ... وَمَاذَا صَنَع الرَّجُل بَعْد هَذِه التَّجربَة ؟ ... أَنّه عَاد إِلىٰ رُشدَه ، وَرَجع إِلىٰ رَبّه وقَالَ : أَنّك يَا إِلٰهي لاَ تُضَاد وَلاَ تُعَاند ، فَاَسْتَغفرك ، وَأَتُوب إِلَيكَ ، وكَان مِن نَتِيجَة إِنَابَته وَتَوبَته أَنْ أَغدَق الله عَلَيه أَلوَاناً مِن الرِّزق وَالخَير ، مِن حَيْث لاَ يَحْتَسب .

وَ « مِنْهَا » : أَنَّ فَتَاة غَربِيَة ، اَسمهَا « مَاي باولز »[٢] خُلقَت كَسِيحَة لاَ تَستَطِيع المَشيء ، وَقَد أَحبّها اَبن الجِيرَان ، وَتَقدّم لخُطبَتهَا ، وَأَسرعت الفَتَاة لأُمّها تَزف البُشرىٰ ، وَلَكن الأُمّ أَغرقت فِي البُكَاء ، لأَنَّ الأَطْبَاء قَالُوا لهَا : أَنَّ اَبْنَتها إِذَا تَزَوّجَت فَلَن تُرزق بأَولاَد ، وأَنَّهَا ستَعِيش طوَال عُمرهَا عَاقراً ... فَقَالت الأُمّ لاِبْنتهَا : يَجب أَي تُصَارحي الشَّاب بهَذِه الحَقِيقَة .

وَقَالَت الفَتَاة : وَلَكنّي سَأُصَلي كُلّ لَيلَة ، وَأَطلُب مِن الله يَمْنَحني أَولاَداً .

---

(١) أنظر ، كتَاب مُقَارنَة الأَديان لأَحمَد شَلبي : ج ٣ . (مِنْهُ ﷺ) .

(٢) أُنظر ، جَرِيدَة الأَخبَار المَصْرِيَة (عَدَد ٢٤ أَيَار سَنَة ١٩٦٤م) . (مِنْهُ ﷺ) .

قَالَت لهَا الأُمّ: لاَ تَتعلقي بآمَال كَاذبَة، لَقد أَكّد أكبَر الأَخْصَائيِّين أَنّك ستَعِيشِين عَاقِراً، وَمِن السَّذَاجَة أَنْ تَتَشبثي بالسَّمَاء، يَجْب أَنْ يَعْرِف خَطِيبك الحَقِيقَة كَاملَة.

وَصَارَحت الفَتَاة الشَّاب برَأي كِبَار الأَخْصَائيِّين، فَأَصرَ عَلىٰ الزَّوَاج.

وَبَعد أَنْ تمَّ كَانَت الكَسِيحَة تَدعُو رَبّها فِي كُلّ لَيلَة، وَتَقُول: إِلٰهي حَرمتَني نِعمَة المَشيء، فَهل يُرضِيك، أَنْ تَحرمني نِعمَة الأُمُومَة الَّتي تَتَمتع بهَا مَلاَيِّين الأُمّهَات اللَّائِي يَمشين عَلىٰ أَقدَامهِنَّ؟. أَتُعطي غَيري النِّعمَتَين، وَلاَ تُعطِيني وَاحدَة مِنْهُمَا.

وَآستَمرَت تَدعُو هَذَا الدُّعَاء مِن أَعمَاق قَلْبهَا مُدّة أَرْبَعَة عَشَر عَامَاً لاَ تَكل وَلاَ تَمل، وَلاَ تَفْتَر وَلاَ تَقنط وَتَيأَس، وَبَعد هَذِه السَّنوَات الطّوال وَضعَت ثَلاَثَة أَولاَد فِي حَملٍ وَاحد، وَعَاشوا جَمِيعَاً بكَامل الصّحَة وَالعَافيَة.

وَ «مِنْهَا»: أَنَّ رَجُلاً لبْنَانياً هَاجَر قَبْل الحَرب العَالميَة الأُولىٰ إِلىٰ أَمِيْركَا طَلبَاً للرِّزق كَغيره مِن اللُّبنَانيِّين، وَلَدىٰ وصُوله إِلَيها لَمْ يَجد وَسِيلَة للعَيْش إِلاّ أَنْ يَحمل بَعْض الأَدوَات الخَفِيفَة كَالمَحَارم وفَرشَاة الأَسنَان وَيَتجول فِي الأَسوَاق وَالشَّوارع. يَعْرضها عَلىٰ المَارّة، وَلَكنّه أَخفَق فِي مِهْنَته، حَتّىٰ ضَاقَت عَلَية الأَرْض بمَا رَحُبت، وفِي ذَات يَوْم مَرّ بِهِ خُوري، فَعَرض عَلَيه أَنْ يَشتَغل خَادمَاً فِي الكَنِيسَة لقَاء دُولاَرين فِي اليَوْم، فَطَار فَرحَاً، وَلبّىٰ شَاكرَاً.

وَبَعد يَوْمَين آكْتَشف الخُوري أَنَّ الرَّجُل أُمّي لاَ يَقرَأ وَلاَ يَكتُب، فَطَردَه، وَقَالَ: ظَنَنتُك مُتَعلمَاً... فَعَاد المِسكِين إِلىٰ مِهْنَته الأُولىٰ... وَلَكنّه بمرُور الأَيَّام آستَطَاع أَنْ يَفْتَح حَانُوتَاً صَغِيرَاً، ثُمّ آتّسعَت تجَارتَه، حَتّىٰ أَصبَح مِن أَصحَاب المَلاَيِّين، وَالمُسَاهمِين فِي أَعظَم البنُوك وَأَغْنىٰ الشَّركَات.

وَصَادف أَنْ دُعي إِلىٰ إجْتمَاع هَامّ عَقَده الرّأسمَاليُون الكبَار، وَمُدرَاء البنُوك، فَحَضر مَعْهُم، وَبَعد أَنْ اتّخذُوا قَرَارَات تَتّصل بمِهنَتهم عَرض عَـلَيه الرَّئِـيس أَنْ يُوقع، فَقَال لهُ: أَنَا أُمي، فَتَعجب الجَمِيع، وَقَالُوا لهُ: هَذَا لاَ يَكُون أَبداً...

فَقَال: لَو كُنتُ أَقرَأ وَأَكتُب لكُنت الآن كنّاساً فِي الأَديـرَة وَالكَـنَائِس، وَلمَـا تَسنىٰ لِي الحضُور مَعْكُم.

وَ «مِنْهَا»: أَنَّ شَابّاً مُتوَسط الثّقَافَة وَالثَّرَاء تَزوّج مِن فَتَاة أَحلاَمه، وَبَعد أَنْ رُزق مِنْهَا طِفلَة حَمَلت وَوَضعَت طِفلَة ثَانيَة، وَلَم يُحسن الأَب اسْتقبَال الثَّانيَة، وَحَملَت للمَرّة الثَّالثَة[1]، وَوَضعَت طِفلَة كَذَلكَ، وَأَظهَر الرَّجُل مِن سَخَطِهِ مَا كَان قَد كَتَمه فِيمَا سَبق، وَلَم يَرض بمَا قَسم الله وَرَزق، وَحَملت المَرأة للمَرّة الرَّابعَة، وَلَكنّها وَضَعت ذَكَراً، فَقَامت الزِّينَات وَدقّت الطّبول، وَاتّجهت العِـنَاية بـالطّفل دُون البنَات، وَلَكن لَمْ تَمض الأَيَّام، حَتَّىٰ تَبَيَّن أَنَّ فِي الطّفل دَاءٌ لاَ دَوَاء لهُ، وَكَان الإبْن مَصْدر شقَاء الأَب، وَمَبعَث أَلَمه، وَتَمنىٰ أَلف مَرّة وَمرّة لَو أَرَاحهُ الله مِنْهُ...

أَمّا الفَتيَات فَكُنّ لأَبيهن وَأُمّهن مَصْدَر اليُمن وَالسَّعَادَة.

(١) حِينَ كَان السَّيِّد الكَاشَاني الشّهير، بلُبنَان سَأَلتهُ: كَم لَكَ مِن الأَولاَد؟.
قَالَ: عِندي عَشر بَنَات، وَقَد أَسميت العَاشرَة «العَاشرَة». وَغَير بَعيد أَنْ يَكُون السَّبب فِي تَسمِيَة رَابعَة العَدويّة بهَذَا الإسم أَنّها كَانَت رَابعَة أَخوَاتها. (مِنْهُ ﴿رح﴾).

أَعْط الزَّمن فُرصَة[1]

أَدَارَت لهُ الدُّنْيَا ظَهرهَا فِي عِنَاد وَإِصرَار !.

كُلّ أَبوَاب الرِّزق أُغلقَت فِي وَجْهه . كَان النَّحس يُلاَزمهُ كَظلّهِ ! الذَّهب يَتَحول فِي يَدهِ إِلىٰ تُرَاب . كُلّ عَمَل ٱلتحق بهِ فَشَل فِيهِ . كُلّ مُحَاولَة للوُصول إِلىٰ النَّجَاح ٱنْتَهت بالخَيبَة ! كَان يَعْيش بِلاَ طَعَام وَلاَ حُبّ وَلاَ أَمَل ! وَتَحطّمَت أَعصَابه وَنُقل إِلىٰ مُسْتَشفىٰ المَجَاذِيب ، وَلَكن الأَطبَاء خَيبُوا أَمَله . قَالُوا لهُ إِنّه لَيْس مَـجنُوناً ، وَأَخرجُوه مِن المُسْتَشفىٰ ، وَأَضَاعوا مِنْهُ فُرصَة النَّوم عَلىٰ سَرِير وَتَنَاول وَجبَات الطَّعَام مَجّاناً فِي مَوعدهَا !.

وَٱقْتَنتع بأَنّه جرّب كُلّ شَيء وَفَشل فِي كُلّ شَيء ! شَعَر أَنّ الدُّنْيَا لَمْ تَعد تَتّسع لهُ . أَحَسّ أَنّه يَزحم الدُّنْيَا بلاَ مُبَرّر ، وَأَنَّ مِن وَاجبهِ أَنْ يُـقلل زحَـامهَا وَيَـختفي مِنهَا !.

وَأَمسَك مُسَدسَه ، وَخَل فَوهَته بَيْنَ شَفَتَيه ، وَضَغط عَلىٰ الزّنَاد ! وَلَـم تَـنْطَلق الرّصَاصَة !.

وَضَغط بقُوّة مَرّة أُخرىٰ عَلىٰ زنَاد المُسَدس ، فَلَم تَنْطَلق الرّصَاصَة !.

---

(١) مِن كتَاب دُعَاء لعَلي أَمِين صَاحب جَرِيدَة الأَخْبَار المَصريّة . (مِنْهُ ﷺ).

وَأَغرَق فِي الضَّحك ! لَقَد فَشَل فِي كُلّ شَيء حَتَّىٰ فِي الإِنْتحَار !.

وَخَطَر لهُ فِي تِلكَ اللَّحظَة أَنْ يُعطي الزَّمن فُرصَة أُخرىٰ ! لَقَد عَانَدَه الزَّمن عِدَّة سَنوَات ، حَارَبَه فِي رِزقه وَحَطَّم آمَاله وَدَاس عَلىٰ كِبريَائه . وَمَع ذَلِكَ فَليَنتَظر بضعَة أَسَابِيع ، فَقَد يَتَذكرَه الحَظّ ، فَيعُود إِلَيهِ وَيَدق بَابه !.

وَتَذكرَه الحَظّ وَهُو يَعُود حَول الدُّنيَا ! أَصْبَح بعد سَنوَات أَشْهَر رَجُل فِي العَالَم ، وَأَصبَح بَعد سَنوَات أُخرىٰ مِن أَصْحَاب المَلاَيِّين !.

هَل تَعْرف اَسم هَذَا الرَّجُل الَّذي كَان قَد يُقرّر الإِنْتحَار ؟ أَنَّ اَسمهُ مُوريس شيفَالييه المُغني الفَرنسي الَّذي يَعِيش فِي ذَاكرَتك وَهُو يَضْحَك دَائمَاً !.

إِنَّ هَذَا الرَّجُل الضَّاحك النَّاجح عَاش سَنوَات وَسَط الدّمُوع وَالفَشل !. وَيَئِس فِي لَحظَة مِن اللَّحظَات كَمَا يَيأس مَلاَيِّين الشُّبان ! وَلَكنّه أَعْطىٰ الزَّمَان فُرصَة ... فَعَاد لهُ الحَظّ وَدَق بَابَه !.

أَعْط أَيضَاً الزَّمن فُرْصَة أُخرىٰ !.

صَانِع المُصَادفَات[1]

وَقعَت سَيَّارة فِي حُفرَة ، وَرَاح سَائِقهَا العَجُوز يُحَاول دَفْعهَا دُون جَدْوىٰ !

وَمَرّ فِي تِلكَ اللَّحظَة أَحد رِجَال الدِّين وَرَأىٰ السَّائِق وَهُـو يَـتَصبَّب عَـرقَاً ، فَسَألهُ : هَلْ أَسْتَطِيع أَنْ أُسَاعدكَ ! .

وَأَجَاب السَّائِق : هَلْ عِنْدَك طَرِيقَة لإِخْرَاج السَّيَّارَة مِن الحُفرَة ؟ .

فَفكّر رَجُل الدِّين قَلِيلاً ثُمَّ قَالَ : ٱتّجه إِلىٰ السَّمَاء . . . وَقُل « يَا رَبّ » ! .

وَأَغْرَق السَّائِق فِي الضحك وَقَالَ : وَهَل سَيَرسل لِي الله مَلاَكاً مَن السَّمَاء وَمَعهُ « وَنْش » ؟ .

فَقَال رَجُل الدِّين : إِنَّ الله قَادِر عَلىٰ كُلّ شَيء ! .

وَٱنْصَرف رَجُل الدِّين ، وَعَاد السَّائِق يُحَاول دَفع السَّيَّارة مِـن الحُـفرَة الَّـتي وَقعَت فِيهَا . . .

وَرَفَضت السَّيَّارَة أَنْ تَتحرّك ! .

وَلمَّا تَعِبَ السَّائِق ٱلتَفتَ إِلىٰ السَّمَاء وقَالَ : يَا رَبّ سَاعِدني ! .

وَلَم تُفْتَح أَبوَاب السَّمَاء ! لَمْ يَهْبط مِن بَيْنَ السُّحب مَلاَك بالبَارَاشُوت يَـحْمل

---

(١) مِن كِتَاب دُعَاء لعَلي أَمِين صَاحب جَرِيدَة الأَخْبَار المَصرِيَة . (مِنْهُ ﷺ) .

وَنشَاً!.

وَعَاد السَّائِق يُحَاول دَفْع السَّيَّارَة... وَهِي تَرفُض الحَرَكَة! وَفُجَأة مَرّت عَربَة لَوري تَحْمل وَنشَاً لحَمْل السَّيَّارَات المُعْطّلة!.

وَتَوقَفت أَمَام السَّيَّارة المُعطّلة، وَنَزل سَائِقهَا، وَرَفع السَّيَّارَة مِن الحُفرَة!.

وَرَكع السَّائِق العَجُوز عَلىٰ رُكْبَتَيه وَقَالَ وَالدّمُوع فِي عَينَيه: شُكرَاً يَا رَبّ! لَم أَكُن أَتَصور أَنّ «الخِدمَة» فِي السَّمَاء بِهَذِهِ السُّرعَة!.

وَأَرسَل السَّائِق العَجُوز قِصّته إِلىٰ الصُّحف؟! وَاَهْتَمت إِحدىٰ الجَرَائِد الإِنْجلِيزيَة بِهَا وَأَرسَلت تُحقّقه. سَأَلت رَجُل الدِّين إِنْ كَان قَد أَرسَل عَربَة الإِنْقَاذ فَنَفىٰ ذَلِكَ. وَسَأَلت المُنْقذ إِنْ كَان أَحد اَتّصل بِهِ وَأَبلَغه عَن حَادث السَّيَّارَة، فَأَكّد أَنّه مَرّ أَمَامهَا بمَحض الصّدفَة!.

وَقَد يَكُون مرُور عَربَة الإِنْقَاذ مُجرّد صِدفَة؟.

وَلَكن مَن الَّذي يَصْنَع هَذِه المُصَادفَات؟.

مَن الَّذي يَتحكّم فِي «الصّدفَة» وَيُنْظمهَا وَيُرتبهَا؟.

إِنّه الله!.

وَبَعد، فَإِنَّ كُلّ إِنْسَان لَو تَنَبّه، وَرَاجع سِيرَته، وَتَأرِيخ حَيَاته لوَجَد حَوَادث وَحَوَادث قَد مَرّت بِهِ لاَ تُفسّر بنَظريَة دَارون، وَلاَ بِنَظريَة نيُوتن، وَلاَ بِنَظريَة أَنْشتين، وَلاَ بشَيء إِلاَّ بإِرَادَة الله وَمَشِيئَته.

وَتَقُول: إِذَا أَرْجعنَا الحَادثَة الطَّبيعيَّة إِلىٰ سَبَب غَير طَبِيعي فَإِنَّ مَعْنَىٰ ذَلِكَ أَنّها مُعْجزَة.

قُلتُ: فَلتَكُن مُعْجزَة خَاصّة لاَ عَامّة لجَمِيع النَّاس، بَل أَقَامهَا الله سُبْحَانه،

لتَكُون حُجّة عَلىٰ صَاحبهَا بالذَات إذَا جَحَد وَأَنْكَر . هَـذَا بـالإضَافَة إلىٰ الأَدلّـة العَامّة ، ومِنْهَا مَا أَشَار إلَيهِ آنشتين بقَوله : « هَذَا التّنَاسق العَجِيب بَـينَ قـوَانِـين الطَّبيعَة ، وَمَا يُخفي مِن عَقْلٍ جبّار لَو آجْتَمعت كُلّ أَفكَار البَشَـر إلىٰ جَـانبهِ لمَـا كوّنت غير شُعَاع ضَئِيل أَقْرَب القَول فِيهِ أَنّه لاَ شَيء » .

وَنَخْتم الفَصل بمَا ذكَره الدّكتُور مُحمّد غَالي ، قَالَ : أَنَّ آينشتاين العَالِم الشَّهِير ، وَصَاحب نَظرِيَة النِّسبيّة كَتَب بخَطّ يَده أَنَّه حَصَل لهُ حَادث هَام ، وَهُو فِي الرَّابعَة أَو الخَامسَة مِن عُمرهِ ، ذَلِكَ أَنَّ أَبَاه أَعطَاه بَوصلَة ليَلهو بهَا ، فَلاَحظ الطّفل الإتّجَاه الثَّابت لأُبرتهَا الَّتي تَعُود إلَيهِ مَهمَا أَدَارها ، فَآكْتَشف بفِطرَته الصَّافيَة أَنَّ شَيئاً وَرَاء ذَلِكَ[١] .

ومَعْنَىٰ هَذَا أَنَّ التّكرَار عَلىٰ وَتِيرَة وَاحدَة يُبْطل المُصَادفَة وَأَنَّ قَانُون السَّببيَّة غَريزَة ، حَتَّىٰ فِي نفُوس الأَطْفَال . . . وإذَا آسْتَنْتَج الطّفل أَنَّ وَرَاء نِـظَام البُـوصلَة الصَّغِيرَة مُنظّم فَأَحرىٰ أَنْ يَسْتَنْتج العَاقل مِن نظَام العَالَم وجُود المُنَظّم .

وإذَا صَرَفنا النَّظر عَن الأَدلّة العَامّة وَالخَاصّة عَلىٰ وجُود الله فَلاَ يَنْبَغي أَنْ نَذْهَل أَوْ نَتجَاهل أَنَّ الإيْمَان بالله مَعْنَاه الإيْمَان بـالحَقّ وَالخَـير وَالجَـمَال ، وَالعَـدَالَـة وَالرَّحمَة وَالحِكْمَة ، وَأَنَّ الكَوْن صَادر عَن قَصْد وَإرَادة ، وَأَنّ الإنْسَان مَسْئُول عَن أَعْمَاله أَمَام قَادر عَادل ، وَأَنّ عَدَم الإيْمَان بالله مَعْنَاه عَدَم الإيْـمَان بشَـيء مِـن ذَلِكَ . . . فَآخْتَر لنَفْسك أَيّهمَا شِئْت .

(١) أنظر . مَجلّة المَجلّة المَصريّة عَدَد أيلُول سَنَة (١٩٦٣م) : ٧٥ بقَلَم الدّكتُور مُحمّد غَالي . (مِنْهُ ١) .

الإِنْسَان رُوْح لاَ جَسَد

أَصْلاَن أَسَاسِيَّان:

تَرتَكز الأَديَان السَّماويَة عَلىٰ دَعَّامَتَين: وجُود الله، وَخـلُود الرّوح، ومَـعْنَىٰ خُلُود الرّوح بقَاؤهَا حيّة بَعد انْحلاَل الجَسَد وَفسَادَه، وهَذَان الأَصْلاَن هُمَا الحَجَر الأَوّل فِي أَسَاس الدِّين وَعَنهُما تَتفرّع سَائِر الأُصُول وَالمَبَادِيء، حَتَّىٰ الإِيـمَان بِالأَنْبيَاء وَالرُّسل، وَالكُتب المُقدّسَة، إِذْ الإِيْمَان بأَنَّ لله رَسُولاً وَكـتَاباً يُـفتَرض مُسبقَاً الإِيْمَان بوجُود الله جَلّ وَعز: «لأَنَّ ثبُوت شَيء لشَيء فَرْع ثبُوت المُثْبت لَهُ»[1].

وإِذَا يُؤمن الإِنْسَان بالله، أَو آمَن بِهِ، وَأَنْكَر خُلُود الرُّوح لَمْ يَكُن مُسْـلِمَاً وَلاَ نَصْرَانيّاً وَلاَ يَهُودِيّاً.

الدَّلِيل:

أَمَّا الدَّلِيل عَلىٰ هَذَين الأَصْلَين، أَي وجُود الله، وَخُلُود الرّوح فَقَد دَخَل فِـي مَرَاحل شَتّىٰ، وَتَطور مَع أَسبَاب المَعْرفَة... فَقَدْ كَان أَوّل مَا كَان الفِطرَة وَالوَحي،

---

(١) أنظر، كِتَاب القَضَاء للشّيخ الإِشْتيَاني: ٣٠، مُستَمسك العُروَة الوثْقَى للسَّيِّد مُحسن الحَكِيم: ١ / ١٣٦.

ثُمَّ الفَلْسَفَة وَالعَقْل، وَالأَقْيسَة المَنْطقيَة الَّتي نَقرَأها فِي رَسَائِل الفَارَابي، وَكُتب آبن سِينَا، وَآبن رُشد، وَالطُّوسي، الغَزَّالي، وَالشِّيرَازي، وَغَيرهم مِن الفَلاَسفَة وَعُلمَاء الكَلاَم، وَلاَ شيء مِنْهَا يَمت بسَبَب إلىٰ المَعْرفَة التَّجرِيبيَّة وَالعِلم المَعْملي، أي المَأخُوذ مِن المَعْمَل والأَرقَام المَاديّة المَحسُوسَة المَلمُوسَة.

التَّجربَة:

أَمَّا الآن، وَبَعد أَنْ أَصبَحت التَّجربَة هِي السَّبب المُعْتَمد للمَعْرفَة عِندَ عُلمَاء الطَّبِيعَة فَهل تَدل التَّجربَة عَلىٰ وجُود الله، وَخلُود الرّوح، أَو أَنَّهَا أَجْنبيَة عَنْهُما وَعَن الدَّلاَلَة عَلَيْهمَا؟.

وإلىٰ الأَمس القَرِيب كَان جوَاب عُلمَاء الطَّبِيعَة عَلىٰ هَذَا السُّؤال أَنَّ الدِّين بمَعناه التَّأريخي وَالتَّقلِيدي يُنَاقض جَمِيع الحَقَائِق العِلميَة، لأَنَّها تَقُوم عَلىٰ التَّجربَة وَمُشَاهدَة الطَّبِيعَة وَأَشيَائها، وَضِمن حدُود الزَّمَان وَالمَكَان عَلىٰ العَكْس مِن مَبَاديء الدِّين الَّتي تَرتَكز عَلىٰ الغَيبيَات، وَمَا فَوق الطَّبِيعَة، وَتَتجَاوز حدُود الزَّمَان وَالمَكَان... وَمَع هَذَا التَّبايُن يَستَحِيل أَنْ يَكُون أَحدهُما طَرِيقاً لمَعْرفَة الآخر.

وهَذَا القَول كَمَا تَرىٰ ـ لاَ يَعدُو الغَيب، لأَنَّه نَظريَة مُجرّدة عَن التَّجْربَة وَالمُشَاهدَة ـ إذَن ـ هُو إبْطَال للغَيب بمَنْطق الغَيب. وَللمَعْرفَة النَّظريَة بالمَعْرفَة النَّظريَة، وَبالتَالي إسْتَدلاَل عَلىٰ إنْكَار الشَّيء بنَفْس الإعْترَاف بهِ، تَمَاماً كَمَا لَو قُلتَ: هَذَا الشَّيء مَعْدُوم، لأَنَّه مَوجُود، وَبَاطل لأَنّه صَحِيح.

وَبَعد أَن أَعْرَض عُلْمَاء الطَّبِيعَة، وَأَنكَرُوا أَنْ يَكُون العِلْم وَالتَّجَارب سَبِيلاً

لمعْرفَة وجوْد الله، وَخلُود الرُّوح عادُوا، وَاعْترفوا مُؤْمِنين بأَنَّ التَّجْربَة العِلميَّة قَد أَثبَتتهُما وَدلّت عَلَيْهمَا بطَرِيقَة لاَ تَقبل الشّك، ذلِكَ أَنَّ عَـدداً كَـبيراً مِـن العُـلمَاء المُبرزَين قَد أَجْرُوا الكَثِير مِن البحُوث عَلىٰ مَنهَج عِلْمي سَلِيم، فَأَدّت بِـهِم إِلىٰ الإِيْمَان بهَذِه الحَقِيقَة إِيْمَاناً مُستَمداً مِن التّجَارب الّتي حقّقُوهَا بأَنفسهم.

وَمُنذ عَهْد قَرِيب ظَهَر كتَاب اسمهُ «الله يَتَجلىٰ فِي عَصْر العِلْم» فِيهِ مَـقَالاَت لأَكْثَر مِن ثَلاَثِين عَالِمَاً مِن عُلْمَاء الغَرْب الكِبَار يُثبتُون فِيهِ وجُود الله بـالمَعْرفَة العِلْميَة، وَقَد نَقل هَذَا الكِتَاب إِلىٰ اللُّغَة العَربيّة وَلَخصتُ الكَثِير مِنْهُ فِي فَصْل مِن فصُول كِتَاب «فَلْسَفة المَبدَأ وَالمَعَاد» بنَفس العُنوَان. أَمّا خُلُود الرُّوح وَبـقَاؤهَا بَعد المَوت فَقَد أَلّف فِيهِ العُلمَاء الجُدَد كُتُباً كَثِيرَة تُعد بالآلاَف لاَ بالمِئَات، وَبكُلّ لُغَة، يَقْتَنع بهَا مَن لاَ يُؤمن بالوَحي، وَلاَ بالفَلْسَفَة، وَلاَ بشَيء إِلاّ بالتَّجربَة وَحدهَا، وَبكَلمَة أَنَّ هَذِه الكُتب الحَدِيثَة تُنَاسب كُلّ إِنْسَان لأَنَّ برَاهينهَا عِلْميَة، وَمُؤلفِيها مِن أَفضَل روَاد العُلُوم المَاديَة الَّذِين أَثبتُوا إِصَالَة فِي مجَال التَّـجرِيب، وَمَـثلُوا مُستوىٰ خَاصّاً مِن القُدرَة عَلَيه. (إِقرَأ كتَاب الإِنْسَان رُوح لاَ جَسَد) الَّذي نُشِير إِلَيهِ فِيمَا يَلي:

العِلم الرُّوحي الحَديث:

لَيْسَ المُـرَاد مِـن العِـلْم الرُّوحـي الحَـدِيْث عِـلْم النَّـفس الَّـذي يُـعبّر عَـنْهُ بالسّيكُولوجيَا وإِنَّمَا المُرَاد مِنْهُ مَا يَشْمل ثبُوت الحَـيَاة بَـعْد المَـوت، وَاتّـصَال الأَحْيَاء والأَموَات وَسُمّي عِلْماً؛ لأَنَّ العُلمَاء قَـد اسْـتَعملُوا فِـيهِ نَـفس البَـحْث وَالأُسلُوب الَّذي اسْتَعملُوه فِي ظَوَاهر الطَّبِيعَة، وَأَدّىٰ إِلىٰ نَتَائج عِلمِيّة مَلمُوسَة

تمَامَاً كَنتَائِج العُلُوم الطَّبِيعيّة، وَوَصفُوه بالحَدِيث، لأَنَّ البَحْث العِلْمي فِي خلُود الرُّوح لَمْ يَكُن مَعرُوفاً مِن قَبْل، وَإنْ كَان الإِيْمَان بِهِ قَدِيمَاً بِقِدَم الإِنْسَان، وَبَعد أَنْ تَمَكَّن العُلَماء مِن اَسْتعمَال الوَسَائِل العِلْميّة، وَالأَدوَات الفَنيّة لمَعْرِفَة هَذِه الحَقِيقَة اَعْتَبرُوا العِلْم بهَا عِلْماً جَامعيّاً، وَأَشَادوا لهُ الكُلّيَات، وَأَقَامُوا المَعَاهد وَالمُؤسّسَات، وَخَصّصوا لهُ الجَمْعيَات وَالهَيئَات، وَالجَرَائِد وَالمَجلّات.

كِتَاب جَدِيد:

آمَنْتُ مِن التَّجَارب المُتكرّرة الَّتي مَرَرْتُ بِهَا فِي حَيَاتي أَنَّ العِلْم وَالرَّغبَة، وَالعَافِية، والرَّفَاهيَة، كُلّ هَذِه وَمَا إِلَيْهَا لَيْسَت بشَيْء إذَا لَمْ يُحَالفهَا التَّوفِيق مِن الله سُبْحَانه، وإِلَيكَ قصّة هَذِه التَّجْربَة الأَخِيرَة، أَو قصّة هَذِا الفَصْل مِن أَوّلهَا:

وَضَعتُ هَذَا الكِتَاب عَلىٰ تَصمِيم سَابق، وَهُو حَمل القَاريء تِلقَائيّاً، وَبدُون أَقْيسَة عَقْليَة، وَأَدلّة أَدبيّة... عَلىٰ الإِيْمَان بالله، وَخلُود الرُّوح، وَالعَمل فِي سَيرهِ وَسلُوكه بوَحيٍ مِن هَذَا الإِيْمَان، وَاَسْتَطعتُ أَنْ أَجْمَع الفَصل السَّابق طَائفَة مِن حوَادث فَرديَّةٍ مُبعْثرَة هُنا وَهُنَاك لاَ تَفْسِير لهَا إلاّ بوجُود الله وَحِين أَردتُ الشّرُوع بهَذَا الفَصْل، وَالإِسْتدلاَل عَلىٰ خلُود الرُّوح، وَبقَائهَا بَعْد مَوت الجَسَد فَكّرتُ مَاذَا أَصْنَع؟ هَل أَذْكر الأَدلّة العَقليّة وَالأَدبيّة الَّتي ذَكَرتها فِي مُؤلّفَاتي السَّابقَة وأُكَرّرهَا بتَعْبِير آخر؟. وَهَذَا خِلاَف التَّصمِيم الَّذي يَهْدف إِلىٰ إِشْعَال شَمْعَة جَدِيدَة فِي هَذَا السَّبِيل.

وَبَقيتُ فِي حَيْرَتي هَذِه إِلىٰ أَنْ فَتح الله الطَّرِيق مِن حَيْث لاَ أَحْتَسب.. ذَلِكَ أَنَّ مِن عَادَتي أَنْ أَقرَأ الصُّحف الصَّباحيَة، وَالمَسَائيَة بِاِنْتظَام، اللُّبنَانيَّة مِنهَا

وَالسُّوريّة والمَصْرِيّة، وَفِي مَسَاء (٦/٩/١٩٦٤م) اَضْطَررتُ إلىٰ زِيَارَة صَاحب كَرِيم مُصْطاف فِي حمَانا، وَكُنتُ قد خَصّصت هَذَا الوَقت بالذَات مِن كُلّ يَوْم لقرَاءَة صُحف المَسَاء، وَعُدت إلىٰ بَيْتي مِن الزّيَارَة، فِي وَقْتٍ مُتَأخر، وَقُلتُ فِي نَفْسي: «بَلاَش» صُحف فِي هَذِه الفَتْرَة... وَهَل هِي صَلاَة مَفْرُوضَه؟. وَلَكن سُرعَان مَا اَحْسَستُ بحَافز مِن دَاخِل يَلح عَليّ بالذّهَاب إلىٰ بحمْدُون[1] لشرَاء الصُّحف، وَلَم أَلبَث أَنْ اَسْتَسلمت لهُ، وكَان الخير فِي هَذَا الإسْتسلاَم، حَيْث قَرَأتُ فِيهَا عَن كتَاب ظَهَر حَدِيثاً فِي نَحو (٧٠٠ صَفْحَة)، اَسْمهُ «الإنْسَان رُوح لاَ جَسَد» فَخُيّل إليّ أَنّي سَأجد فِيهِ بُغْيَتي، وَإنّه يخرُجني مِن حَيْرَتي، وعَلىٰ الأَقل يَفْتح لِي الطّرِيق، أو يُسلّط الأَضوَاء عَلَيه، وَالمُؤلف هُو الدّكتُور رَؤوف عُبَيد أُستَاذ فِي كُلّيَة الحُقُوق. جَامعَة عَيْن شَمْس بالقَاهرَة، وَقَد عَكَف عَلىٰ وَضْعه وَتَأليفه خَمسَة عَشَر عَامَاً، وكَان المُؤلف مِن قَبْل يَرىٰ أَنَّ خلُود الرُّوح خَرافة وَهرَاء، كَمَا جَاء فِي مُقَدّمة الكِتَاب، وَلَكنّه بَعد الإطْلاَع الكَافِي، وَالعنَاء الطَّوِيل اَقْتَنع بأَنَّ بقَاء الرُّوح حَيّة بَعْد المَوت حَقّ لاَ رَيْبَ فِيهِ، فَألّف هَذَا الكِتَاب لإثْبَاته بالبُرهَان العِلْمي خِدمَة للحَقِيقَة.

وَتَكلمَت الصُّحف المَصْرِيّة عَن هَذَا الكِتَاب، وَاَشَادَت ببحُوثه العِلميّة الدَّقِيقَة، وَبمَا قَدّمه مِن البَيّنَات وَالوَقَائع، وَهنّأت المُؤلف عَلىٰ فَوزهِ وَنجَاحه، وَمِمّا قَالهُ الأُسْتَاذ المَعْرُوف أَحْمَد الصَّاوي فِي جَرِيدَة الأَخبَار (٦/٩/١٩٦٤م): «أُهَنيء الدّكتور رَؤوف عُبَيد فِي إصْدَار هَذَا الكِتَاب القَيّم

---

(١) اَصْطَاف فِي هَذِه السَّنَة (١٩٦٤م) فِي بَلدَة قَرِيبَة مِن بحمْدُون. اَسمهَا القَريَة. مُصغَر قَريَة. (مِنْهُ ﷺ).

بمَا بَذلهُ خِلاَل (١٥ سَنَة) مِن الصَّبر الجَمِيل، وَالعكُوف عَلىٰ دَرس كُلّ مَا كتَب وَنَشر فِي عِدّة لُغَات فِي شئُون الرُّوح مُتَتَبعاً حَتّىٰ آخر لَحظَة فِي يَوْمنَا هَـذَا مَـا صَدَر فِي شَرق أَو غَرب، وَلَم يَدع شَاردَة أَو وَاردَة إلاّ سَجّلها فِي كتَابهِ الضَّـخم الفَخْم».

قَرَأتُ هَذَا، فَعَشقتُ الكِتَاب، وَتَشوقتُ إِلىٰ قِراءَته بالوَصف وَالخَـبر، وَبَـعد عَنَاء البَحْث وَالفَحص حَصَلتُ عَلىٰ نُسخَة مِنْهُ، فَألفِينَه كَمَا قَالَ الأُسْتَاذ الصَّاوي، وإِلىٰ القُرّاء هَذِه المُقْتَطفَات:

عَلم الرّوح يَصْبح جَامعيّاً:

إِنَّ دِرَاسَة العِلْم الرُّوحي الحَدِيْث لاَ تَقُوم عَلىٰ الحَدَس وَالتَّـخيّل، وَلاَ عَـلىٰ الوَحي وَالنّقل، وَلاَ عَلىٰ العَقْل المُجَرّد فَقَط، بَل هِي جُزء لاَ يَتجَزأ مِـن دِرَاسَـة قَوَانِين الطَّبِيعَة، وَالمَادّة الصُّلبَة، وَتَحولهَا إِلىٰ طَاقَة، وَتَحول الطَّاقَة إِلَيْهَا، وَدرَاسَة النَّظرِيَة النِّسبيَّة، وَمُعدلاَتها الرِّيَاضيَة، وَدرَاسَة نَظريَة الإِهْتزَاز وَأَموَاج الأَثِير، بَل أَنَّ دِرَاسَة خلُود الرُّوح وَبقَائهَا بَعْد المَوت تَقُوم أَيضاً عَلىٰ عُلُوم جَدِيدَة نَـاشئَة، مِثْل الفِيزيَاء الرُّوحيَّة، وَالكِيميَاء الرُّوحيَّة، وَالفَلْسفَة الرُّوحيَّة، وعِلْم تَأثِير العَقْل عَلىٰ المَادّة، وَغير ذَلِكَ لذَا يَجْد البَاحث العِلْمي فِي الأَرْوَاح مَشقّة كُبرىٰ، إِنْ لَمْ يُزَوّد بمقدَارٍ كَافٍ فِي الثّقَافة فِي فرُوع شَتّىٰ مِن العُلُوم الحَدِيثَة.

بَعْض الأَسمَاء:

وَمِن أَبْرَز العُلمَاء الَّذِين اكْتَشفُوا خلُود الرُّوح، وآمنُوا بهِ كَحَقيقَة وَاقعَة « وليَام

كَروكس » رَئِيس المَجْمَع العِلْمي البِريطَاني ، و « وليَام باريت » الَّذي أَنْشَأ جَمْعيَة البَحْث الرُّوحي فِي بريطَانيا ، « وَلورد رَايلي » أُستَاذ الطَّبِيعَة التَّجربيَّة فِي جامَعَة كَمبريدج ، وَ « اوليفر لودج » وَهُو مِن أَقوىٰ عُلْمَاء الطَّبِيعَة فِي القَرن العِشـرين ، وَالدّكتُور « جون هتنجر » ، وَالدّكتُور « الكساندر كانون » و « بيير كوري » أَشهَر عُلْمَاء الرَّاديُوم إطْلاَقاً ، وَالعَالِم الإلزَاسي « شَارل هنري » الَّذي كَان يُدِير مَـعْمَل فسيُولوجيَا الإنْفعَالاَت بالسّوربُون ، وَ « دَادسو نيفال » عُضوا أكَـاديميَة الطّب ، والأُسْــتَاذ بـــالكوليج دي فـرَانس ، وَرَئِـيس المَـعْهد العَـام للسّـيكُولوجيَا ، وَالدّكتُور « جَان لهرميت » الأُستَاذ بكُلّية الطّب ببَاريس ، إلىٰ غَـير هَـؤلاَء مِـن مِئَات العُلمَاء وَالمُفكرِين وَالأُدبَاء الَّذين جَاء ذِكرهُم فِي كتَاب « الإِنْسَان رُوح لاَ جَسَد » وَقَد اْنتهُوا جَمِيعَاً مِن تجَاربِهِم فِي المَعْمل إلىٰ الإِثـبَات العِـلْمي لخـلُود الرُّوح ، والحَيَاة بَعْد المَوت .

بيّنات ووقائع :

وَنَقل الدّكتُور عُبَيد فِي كتَاب « الإِنْسَان رُوح لاَ جَسَد » اْتّصَالاَت شَـتّىٰ مَـع أَروَاح الأَموَات ، وَدّعمهُما بالأَرقَام الَّتي لاَ تَقبل الشَّك ، نَقلها عَن مُؤلفَات لأَشهَر عُلْمَاء الغَرْب ، وَأَبرَز رجَالاَته فِي مَيدَان العِلْم ، وَلاَ يَتّسع هَذَا الفَصْل لذِكـرهَا أَو ذِكر شَيء مِنْهَا ، وَمَن أَرَادها فَليرجَع إلىٰ الكِتَاب ، أَو إلىٰ مَا أَشَار إِلَيهِ مِن المرَاجع المُوثُوق بقِيمتهَا العِلميَة .

وَأَيضَاً أَشَار الدّكتُور عُبَيد إلىٰ زَمِيل لهُ فِي القَاهرَة يَخْدم الآن بكُلّ إِخْـلاَص قَضيَة عِلْم الرُّوح الحَدِيْث ، وهُو الدّكتُور عَليّ عَبد الجَلِيل رَاضي المُدرس بكُلّية

العُلُوم، وَلهُ عِدّة مُؤلفَات قَيمَة مِثْل «العَالَم غَير المَـنظُور» أو «أَروَاح مُـرسلَة» وَ«سَفِير الأَروَاح العُليا» وَ«أَضوَاء عَلىٰ الرُّوحيَّة» كَمَا نَـقَل إلىٰ اللُّـغَة العَـربيَّة كتَاب «ثَلاَثُون سَنَة بَيْن المَوتىٰ» للطَّبِيب الأَمرِيكي «كـلاَل ويكَـاند» وَقـصّة «أَوّل فِرعُون».

وَجَاء فِي كَلمَة الأُسْتَاذ الصّاوي الّتي أَشرنَا إلَيْهَا أَنّ الدّكتُور رَاضي أَرسَل إلَيهِ رِسَالة قَالَ فِيهَا:

أَنَّ لَدَيه الآن كتَاباً اسمه «تَعَالي مَملكَة الله» وهُو عبَارَة عَن رَسَائِل تَلقّاهَا مِن أَحد الأَموَات المُؤلف الإنجليزي «أثر جريفس»، وَقَد مَضىٰ عَلىٰ هَذَا الكتَاب حوَالي عِشرين سَنَة ـ نَحنُ الآن فِي سَنَة (١٩٦٤ م) ـ وَمِمّا جَاء فِي هَذَا الكِتَاب بلسَان رُوح المَيّت أَن الإنْجلِيز سَيَطردُون مِن مَصْر وَقَنَاة السّويس، وَأَنَّ اليَـهُود سَيحتَلون فَلسطِين، ثُمّ يُطردُون مِنْهَا.

وَقَد تَحقّق ذَلِكَ، وَمِن هَذَا يَتبيّن أَنّ الرُّوح تَبقىٰ حَيّة بَعد مُفَارقتهَا الجَسَد، وَأَنّ بإمْكَانها أَنْ تَشهَد بالعَدل عَمّا يَحْدث فِـي المُسـتَقبل. وَهَكـذَا تَـدعم المَـعَاهد وَالجَامعَات الحَدِيثَة فِي أُوروبَا، وَأَمرِيكا رسَالة الأَنبِيَاء الَّذِين وَجهّوا البَشـريَة إلىٰ الإيْمَان بالله وخلُود الرُّوح.

ولَيْسَ مِن العِلم فِي شَيء أَنْ يُنكر المُكَابر الحَقِيقَة لمُجرد أَنّ الدِّين يُثبتهَا، وَأَنَّه لاَ يُريد أَنْ يَقرَأ، يَسْمع أَي شَيء يَتّصل بالدِّين، حَتَّىٰ وَلو أَثْبته العُلمَاء بالبُرهَان، وَالحِسّ وَالعيَان، ومَهْمَا يكُن، فَإنّ تَضَافر الأَدلّة العِلميّة عَلىٰ خلُود الرُّوح كَفِيل بأَنْ يَجْعل أَقوَال المُنكرِين وَالمُعَاندِين هَشِيماً تَذْرُوه الرِّيَاح.

وَصْف الحَيَاة بَعْد المَوْت

تَنَاول وَصْف الحَيَاة بَعْد المَوْت كُتُب تُعَدّ بالمِئَات، وَضَعهَا أَعْلاَم العِلْم فِي أُوربَا وَأَمرِيكَا، ذَكَر أَسْمَاءهم ومُؤلفَاتهم الدّكتُور عُبَيد فِي كتَاب «الإِنْسَان رُوح لاَ جَسَد».

وَأَوّل مَا يُلْفت النَّظر هُو التَّوَافق وَالتّطابق المَلمُوس إلىٰ أَبْعَد مَدىٰ فِي الأَوْصَاف الَّتي جَاءَت فِي المُؤلفَات الحَدِيثَة عَن عَالَم الرُّوح، رَغْم كَثرتهَا، وَتَعَدُد المُؤلفِين، وَٱخْتلاف أَزْمنَتهم، وَتبَاين اللُّغَات الَّتي كُتُبَت بهَا، وَلَو كَان مَا قَالُوه بَاطلاً لوَجدُوا فِيهِ ٱخْتلاَفاً كَثِيراً، وَإِنْ دَلّ هَذَا التَّوافق عَلىٰ شَيء فَإِنّمَا يَدل عَلىٰ أَنّ ٱكْتشَاف تِلكَ الصّفَات كَان بالعِلْم لاَ بالوَهم، وَبالحِسّ لاَ بالحَدَس، وَأَنّ الَّذِين ٱكْتَشفوهَا قَد سَلكُوا طَرِيق الحَيطَة وَالحَذَر، كَمَا أَنَّ هَذَا التَّوَافق فِي الصِّفَات بَيْنَ العِلْم وَالدِّين دَلِيل وَاضح عَلىٰ أَنَّ الدِّين مِن خَالِق الكَوْن والإِنْسَان، لاَ مِن وَضع الإِنْسَانْ. نَذْكُر فِيمَا يَلي طَرفاً مِن تِلكَ الأَوْصَاف الَّتي ٱتّفق عَلَيهَا أَقْطَاب العِلْم الحَدِيْث:

١ ـ أَنَّ الأَرْوَاح فِي الآخرَة لاَ تَتخيّل وَلاَ تَتصوّر أَشيَاء وَهمِيَة أَبداً لاَ فِي اليَقظَة، وَلاَ فِي المَنَام، بَل تَحيَا حَيَاة الحَق وَالوَاقع فِي جَمِيع شُؤونهَا وَحَالاَتهَا، وَكُلّ مَا تَقُوله، وَتَفْعَله، وَتَتصورَه حَق لاَ رَيبَ فِيهِ.

٢ ـ أنَّ مُدن الجَنَّة مُتفاوته فِي جمَالهَا، ولَكنّها عَلىٰ كُلّ حَال أجمَل مِن مُدن الدُّنيا إلىٰ أنَّ سُكّان الدَّرجَة الثَّالثَة يَتحدثُون عَن المُدن الكُبرىٰ مِثْل لَنْدَن، وَبَارِيس وَنيُويورك وكَمَا لَو كَانَت حَقِيرَة تَافهَة وبُنايَاتها عِبَارَة عَن فِيلاَت تُحِيط بهَا حَدَائق مُترَاميَة الأَطرَاف... ولَيْسَ هُنَاك صَخْب وَلاَ ضَجِيج يَصمّ الأَذَان وَلاَ غُبَار وَدُخّان.

٣ - أنَّ السَّفر فِي الجَنَّة لاَ يَحْتَاج إلىٰ وَسَائل النَّقل كَالطَّائرَة وَالبَاخرَة وَالسَّيَّارَة فكُلّ مَن أَرَاد السَّفر إِلَىٰ مَكَان يُوجد فِيهِ حَالاً دُون أَنْ يَحسّ وَيَشْعر وَلذَا لاَ أثَر هُنَاك لمشْكلَة عَرقلَة السَّير.

٤ - أنَّ العَقْل فِي الجَنَّة يَكُون فِي أَوْج نشَاطِهِ وانْطلاَقه، وَلهُ تَأْثِير عَجِيب فِي كُلّ شَيء بحَيْث يُكَيّف المَادّة فِي الصُّورَة الَّتي يَشَاء بلاَ وَاسطَة المَعْمَل والأَدوَات الفَنيّة.

٥ - أَنَّ الأَزْهَار، وَالأَورَاد، والفَوَاكِه، وَالأَشْجَار تُوجد بدُون بَذْر، وَغَرس، وَحَرث، وَسَقي وَتَبرز إِلَىٰ الوجُود تِلقَائيّاً تَامّة كَاملَة بمُجرد أَنْ يُريدهَا الإِنْسَان لِذَلِكَ، وَهكذَا القصُور وَالفِيلاَت لاَ يَحتَاج وجُودهَا إِلَىٰ مُهندس، وَبُناة، وَعُمّال، بَل تُوجد بالإِرَادَة فَقَط وإِلىٰ هَذَا يُشِير الحَدِيْث القُدّسي: «عَبْدي أَطَعني تَكُنْ مَثْلي، تَقُولُ للشَّيء كُنْ فَيَكُونُ»[1]. أَي أَطَعْني فِي الدُّنْيا تَكون لَكَ هَذِه المَكَانَة فِي الآخرَة.

٦ ـ أنَّ أَهْل الجَنَّة لاَ يَجُوعُون أَبدَاً، وَهُم بـالتَالي لاَ يَـحتَاجُون إِلىٰ الطَّعَام،

(١) أنظر، مُسْتَند الشّيعَة للمُحَقق النّراقي: ١/ ٦، الفَوَائِد الرّجاليّة للسَّيّد بَحر العُلُوم: ١/ ٣٩، أبُو طَالب حَامي الرَّسُول لنَجْم الدِّين العَسْكَري: ١٨٥، الإِمَام عَليّ لأَحْمَد الرّحمَاني: ٣٦٢.

وَلَكن إِذَا أَحبَّ أَحدهُم أَنْ يَأكُل فَيُمكنهُ ذَلِكَ، وَيُوجد الطَّعَام المُختَار بِمُجَرد الإِرَادَة وَبدُون حَاجَة إِلىٰ طَبْخ وَنَفخ، وَبهذَا نَطَقت الآيَة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾[1].

٧ ـ للأَجْسَام هُنَاك نَفْس مَظهرهَا الخَارجي الَّذي كَان لهَا فِي الدُّنْيَا، وَالشَّاب يَبْقىٰ عَلىٰ شبَابِهِ، وَالشَّيخ يَرْجع إِلىٰ صِبَاه، وَيَتّفق هَذَا مَع الحَدِيْث الشَّرِيف: «لَيسَ فِي الجَنَّة شَيْخٌ وَلاَ عَجوزٌ»[2].

٨ ـ يَلْتَئم شَمْل الأُسرَة مِن جَدِيد، وإِذَا رَغَب اَثْنَان فِي العَيْش مَعاً فَلَهُما ذَلِكَ، وَالصِّلاَت الزَّوجيَة هُنَاك تُخْتَصر عَلىٰ عَاطفَة الحُبّ فَقَط.

٩ ـ لاَ يُوجَد فِي الجَنَّة زَلاَزل وَلاَ بَرَاكِين وَلاَ أَعَاصِير وَلاَ أَمْطَار وَعوَاصف، وَتُوجَد رِيَاح نَاعمَة هَادئَة، وَغيُوم خَفِيفَة تَحمل الطَّل، وَالمِيَاة كَثِيرَة وَعذبَة، وَمِن خوَاصّها البَلَل لاَ يَحدث بمُلاَمَستهَا.

١٠ ـ لاَ يَحْتَاج الإِنْسَان هُنَاك مِن اللُّغَات وَاللَّهجَات، إِذْ يَسْتَطِيع أَنْ يَعْرف أَفكَار الآخر، وَكُلّ مَا يَدُور بخُلدهِ بمُجَرد أَنْ يَرَاه وَيَنْظر إِلَيهِ.

١١ ـ كُلّ نفُوس أَهْل الجَنَّة طَاهرَة مُقدّسَة، يَجْمعهَا الحُبّ، وَيَربط بَيْنَها التَّقوىٰ وَالوَرَع.

١٢ ـ لاَ رِيَاء فِي الآخرَة، وَلاَ كَذب، وَلاَ نِفَاق، بَل الظَّاهر وَالبَاطن سوَاء، بَل لاَ بَاطن هُنَاك مِن الأَسَاس.

١٣ ـ لاَ تجَارَة، وَلاَ شَيء اَسْمه النّقُود وَلاَ عُمْلَة صَعْبَة أَو سَهْلَة، وَالشَّيء

(١) طه: ١١٨.

(٢) أُنظر، المُعْجَم الأَوسَط: ٥/ ٣٥٧ ح ٥٥٤٥، الزُهد لهَنَاد: ١/ ٥٨ ح ٢٤.

الوَحِيد الَّذي يُنَظِّم علاَقَات النَّاس بَعْضهُم مَع بَعْض هُو التَّعَاطف وَالصَّفَاء وَالتَّآلف .

١٤ ـ تُوجَد فِي الجَنَّة حَيوَانَات تَشْبه حَيْوَانَات الدُّنْيَا ، وَلَكن المُفْترسَة مِنْهَا تَفْقد رَغْبَتها فِي الإِفْتِرَاس وَالتَّوحش لأَنَّها لَيسَت بحَاجَة إِلىٰ الطَّعَام ، وَهي هُنَاك لمُجَرد الزِّينَة .

أَمَّا أَهْل النَّار فَإِنَّ كُلاً مِنْهُم يُعَاقب حَسْبمَا كَان قَد ٱرْتَكب مِن ذَنْبٍ ، وَيَتميّز عَذَاب الآخرَة عَن عَذَاب الدُّنْيَا بأُمُور :

« مِنْهَا » : أَنَّ المُجْرم لاَ يَسْتَطِيع مَعْرفَة الوَقت الَّذي يَنْتَهي فِيهِ عَذَابه ، كَمَا هِي الحَال فِي المَسجُون عِنْدَنَا ، وكُلّ الَّذي يَعْرفهُ أَنَّه يَتَأَلم مِن أَجل الذَّنب الَّذي أَقدَم عَلَيه مُختَارَاً ، وَجَهْله هَذَا بأَمد العَذَاب يُضَاعف مِن آلاَمهِ ، حَيْث تَبدُو لهُ أَبَديَة لاَ نهَايَة لهَا .

وَ « مِنْهَا » : أَنَّ الجَرِيمَة تَبقىٰ مَاثلَة فِي ذِهْن المُجرم أَمَام عَينَيه بدُون ٱنْقطَاع وَلَهُ فِي ذَلِكَ عَذَاب أَلِيم .

وَ « مِنْهَا » : أَنَّ كُلّ نَفْس هِي وَحدهَا المَسئُولَة عَن أَخْطَائهَا ، وَلاَ تَحْمل وِزرهَا نَفْس أُخرىٰ إلاَّ إِذَا كَانَت سَبباً فِي دَفعهَا إِلىٰ الخَطِيئَة .

وَ « مِنْهَا » : أَنَّ مِن عَذَاب المُتَكبّر أَنْ يَرىٰ نَفْسَه أَحقَر الجَمِيع ، وَأَنَّ مَن كَان يَحْتَقرهُ قَد أَصبَح أَعْلىٰ مِنْهُ مَكَانَة تُحِيط بهِ أَسبَاب المَجد وَالأُبّهَة . وهَذَا عَيْن مَا جَاء فِي الحَدِيْث الشَّرِيف : « يُحشر ٱلْمُتَكبِّرُون عَلىٰ هَيئَة الذَّر يَطَأهُم النَّاس بأَقدَامهِم جزَاءً ، وفَاقَاً عَلىٰ تَعالِيهم » [1] .

---

(١) أنظر . كَشف الْخفَاء : ٢ / ٥٣٣ ح ٣٢٣٦ ، تَأريخ بَغدَاد : ١٢ / ٢٩٤ رَقم (٦٧٤٠) ، حلية الأَوْلِياء :

وَ « مِنْهَا » : أَنْ يُضَاف إِلىٰ عَذَاب المُجرم نَفس الآلاَم وَالمَصَائب الَّتي تَـهْرب مِنْهَا فِي الدُّنْيَا بفِعْل الحَرَام ، وَآرْتكَاب المَعَاصي .

وَبَعد أَنْ ذَكَر العُلمَاء هَذِه الأَوصَاف وَغَيرهَا لأَهْل الجَنَّة والنَّار قَـالُوا : أَنَّ الله رَحِيم مَا فِي ذَلِكَ رَيْب ، وَلَكن رَحْمَته جَلّ وَعزّ تَشْـمل مَـن تَـاب وَأَنَـاب مِـن جَرِيمَته ، لاَ مِن آسْتَمر وَأَصر عَلَيهَا ، لأَنَّ رَحمَته بصَيرَة تَعْرف طَرِيقهَا إِلىٰ مَن هُو أَهْل لهَا وَلَيْسَت بعَمْيَاء تَخبط خَبْط عَشوَاء .

وَعَلىٰ تَعَدُد البحُوث العِلْميَة وَكَثرتهَا فَقْد أَجْمَعت بكَلمَة وَاحدَة عَلىٰ أَوصَاف أَهْـل الجَـنَّة وَالنَّـار الَّـتي جَـاءَت بـعَيْنهَا فِـي كـتَاب الله وَسُـنَّة الرَّسُـول وَآله الكِرَام ﷺ ... وَهَكَذَا نَرىٰ بوضُوح أَنَّ خلُود الرُّوح بجَمِيع مُلاَبسَاته يَسْـتَند إِلىٰ العِلْم وَالعَقِيدَة مَعاً ، وَأَنَّ البَحْث العِلْمي وَالتَّجَارب الوَاقعيَة الَّتي قَام بهَا أَسَـاطِين العُلمَاء فِي هَذَا العَصْر قَد أَدّت إِلىٰ النَّتيجَة الَّتي بَشّر بهَا أَنْبيَاء الله وَرُسله . وَتَظهَر هَذِه الحَقِيقَة أَكْثَر وضُوحاً إِذَا قَرَأت كتَاب « الإِنْسَان رُوح لاَ جَسَد » للـدّكـتُور عُبَيد ، فَإِنّ كُلّ مَا ذَكَرتهُ فِي هَذَا الفَصْل هُو تَلْخِيص مِـنْهُ بـتَصرف فِـي الشَّكـل وَالصُّورَة ، لاَ فِي المَضمُون وَالمُحتَوىٰ .

وَبالتَالي فَإِنَّ هَذَا الكِتَاب يُقَدّم البَيّنَات وَالأَرْقَام المَاديّة عَلىٰ أَنَّ كَـثِيراً مِـمّن أَنْكَر وَجَحد الدِّين تَعصباً للعِلْم بزَعمهِ قَد أَذْعَن فِي النّهَايَة وَآسْتَسلَم للحَقّ ، كَمَا أَذْعَنَت لهُ ، وَآسْتَسلمَت كَنِيسَة القُرُون الوسْطىٰ بَعد أَنْ أَنْكرت العِلْم تَعصباً للدِّين

↔ ٥ / ٣٧٠ ، تُحْفَة الأَحْـوَذي : ٧ / ١٦٢ ، التـرغيب والتـرهيب : ٣ / ٣٥٥ ح ٤٤١٨ ، الأَدَب المُـفرد : ١ / ١٩٦ ح ٥٥٧ ، شُعَب الإِيمَان : ٦ / ٢٨٨ ح ٨١٨٥ ، تَفْسِير القُرطُبي : ١٥ / ٢٧٤ ، سُنن التِّرمِذي : ٤ / ٦٥٥ ح ٢٤٩٢ ، مَجْمَع الزَّوَائِد : ١٠ / ٣٣٤ ، مُسْنَد أَحْمَد : ٢ / ١٧٩ ح ٦٦٧٧ ، مُسْنَد الحُمَيدي : ٢ / ٢٧٢ ح ٥٩٨ ، التّخويف مِن النَّار : ١ / ٩٠ .

بزعمها، وَالسِّر لهَذَا الإِذْعَان وَالإِسْتسلاَم مِن الفِئتَين أَنَّ مَبَادِيء الدِّين وَأُصُولَه هِي حقَائِق وَاقعيَة، تمَامًا كَالحَقَائِق العِلْميَة، وَأَنَّ نتَائِج العِلْم وَاقعيَة أَيضًا كَأُصُول الدِّين، وَأَنَّ العِلم وَالدِّين مُتآزرَان مُتعَاضدَان بخَاصّة فِي الأُصُول الأُولىٰ الَّتي تَقُوم عَلَيهَا العَقِيدَة، كالإِيْمَان بالله وَخلُود الرُّوح.

رُوّاد الفَضَاء وَرسَالَة الأَنْبِيَاء

إِذَا أَرَاد إِنْسَان، أَي إِنْسَان أَنْ يُنْكر مَبدَأ مِن المَبَادِيء أَو يَعْتَرف بِهِ، فَهَل يُسوغ لهُ أَنْ يُنْكر عِنَاداً، وَيُؤمن تَقْلِيداً دُون أَنْ يَسْتَند إِلىٰ مَنْطق يَسْتَدعي الإِيْمَان، أَو الجحُود ؟.

وَالجَوَاب :

عَن هَذَا السُّؤَال وَاضح كُلّ الوضُوح... أَنَّ النُّضج العَقْلي يُحَتّم عَلَيه أَنْ يَبْحَث، وَيُضَاعف الجهُود فِي البَحْث وَالتَّنقِيب عَن الأَسْبَاب المُوجبَة للإِعْتِرَاف، أَو الإِنْكَار، وَفِي ضَوئهَا يَصْدر حُكمهُ سَلباً، أَو إِيْجَاباً... وَمَتىٰ تَعَذرت عَلَيه مَعْرفَة الأَسبَاب وَعَجز عَن ٱكْتشَاف مَعَالم الطَّرِيق وَجَب عَلَيه أَنْ يَقْف مَوقف المُحَايد لاَ يُنْكر وَلاَ يَعْتَرف، وَإِلاَّ كَان جَاهلاً يُؤمِن أَو يُجدي مِن غَير عِلْم وَلاَ هُدىٰ وَلاَ كتَاب مُنِير، وَبَديهَة أَنَّ الجَاهل كَإِيمَانه لاَ وَزن لهُ مِن الوجهَة العِلميّة.

سُؤال ثَانٍ :

مِن المَعْقُول أَنْ نَبْحَث وَنُنَقب عَن الأَسبَاب المُوجبَة فِي الأَشْيَاء المَاديّة الَّتي تَقْع تَحْتَ الحِسّ والتَّجْربَة، كَمَا لَو أَرَدنا أَنْ نَعْرف حَقِيقَة المَاء : هَل هِي بَسِيطَة كَمَا قَالَ القُدَامىٰ أَو مُركّبَة مِن الأكسوجِين وَالهَدروجِين كَمَا يَقُول الجُدَد، أَمّا مَا لاَ يَقع تَحْت الحِسّ وَالتَّجْربَة، أَمّا الأُمُور الغَيبيّة، كوجُود الخَالِق، وَٱستمرَار

الحيَاة بَعْد المَوْت، وَأَنَّ الجَنَّة لاَ شَقَاء فِيهَا وَلاَ نَصَب، أَمّا هَذِه وَمَا إِلَيْهَا مِمَّا أَخبَر بِهِ الرَّسُول الأَعْظَم مُحمَّد بن عَبدالله ﷺ وَغيره مِن الأَنْبيَاء الكِرَام عَلَيه وَعَلَيهِم أَفضَل الصَّلاَة وَالسَّلاَم فَلاَ يُمكن البَحْث فِيهَا عَن طَرِيق الحِسّ والتَّجْربَة، وَبالتَالي، فَلاَ يَصحّ الأَمر بالرجُوع إِلَيْهَا لاِرْتفَاع المَوضُوع.

الجَوَاب:

أَوَّلاً: أَنَّ أَسبَاب المَعْرفَة لاَ تَنْحَصر بـالحِسّ وَالتَّـجْربَة، فَـإِنّ هُـنَاك الفِـطرَة وَالمقَايِّيس العَقليَة، فَالحِسّ سَبِيل إِلىٰ مَعْرفَة المَادّة، وَعنَاصرهَا وَمَا تَحوِيه مِن قِوىٰ، أَمّا العِلْم بمَا وَرَاءهَا فسَبِيله الفِطرَة وَالعَقْل.

وَقَد شَرَحنَا ذَلِكَ مُفصّلاً وَمُطوَلاً فِي أَكْثَر مِن كتَاب مِن مُؤلفَاتنَا.

ثَانِيَاً: أَنَّ مَا فِي المَادّة مِن إِبْدَاع وَنظَام لَيْسَ إِلاَّ سِلسلَة للتَّدلِيل عَلىٰ أَنَّ وَرَاءهَا قوّة مُبْدعَة وَمُنظّمَة، تَمَامَاً كدِلاَلَة الكتَابَة عَلىٰ الكَاتب، والكَلاَم عَلىٰ المُـتَكلّم فَالقَول بأَنَّ المَادّة لاَ تُجدي نَفْعَاً للـتَّدلِيل عَـلىٰ الحَـقَائِق الغَـيبيّة لاَ يَسـتَند إِلىٰ أَسَاس.

ثَالثَاً: عَلىٰ اَفْتِرَاض أَنَّ المَادّة لاَ تَكُون وَسِيلَة للإِيمَان بمَا وَرَاءهَـا، فَـيَجب أَيْضَاً أَنْ لاَ تَكُون وَسِيلَة لإِنْكَاره.

رَابِعَاً: أَنَّ تَقدّم العُلُوم فِي كُلّ مِضمَار قَد أَتَاح للإِنْسَان أَنْ يَسْتَعمل التَّـجْربَة، وَوَسَائل العِلْم الحِسّي، حَتّىٰ فِي حَقَّائِق الغَيب وإِلَيكَ الدَّلِيل:

وَصَف الله سُبْحَانه أَهْل الجَنّة فِي كتَابهِ الكَرِيم الَّذي أَنْزَلهُ عَلىٰ نَـبيّه العَـظِيم وَصَفهُم بقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَايَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾[1]؛ وَبقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَايَمَسُّهُمْ فِيهَا

(١) اَلأَنبِيَاء: ١٠٣.

نَصَبٌ ﴾[١].

وَقَالَ قَائِل: محَال أَنْ يَحيَا الإنْسَان مَع هَذَا الجِسم بدُون فَزَع وَلاَ نَصبٍ.

وَيَكفي للرَدّ عَلىٰ هَذَا أَنْ نَسْتَمع إلىٰ رُوّاد الفَضَاء، وَهُم يَصفُون أحِسَاسَاتهم حِين دَخلُوا مَنْطقَة ٱنعدَام الوَزن، قَالَ (جَاجَارين) رَائِد الفَضَاء الرُّوسي:

أَنّي شَعَرتُ بحَالة تَشبَه النَّشوَة الَّتي يَحسّها شَارب الخَمر، وَلَكن بـلاَ تَـعْب.

وَقَالَ (شبرد) رَائِد الفَضَاء الأَمريكي: أَنَّهَا حَالَة تَشْبَه حَالَة ٱنْعدَام التَّعب، تَمَاماً كَطِفل بلاَ ذَاكرَة، وَلَكنّه يَشْعر بالسّعَادَة.

وَقَالَ (كوبر) الأَمريكي: كُنْت فِي تَمَام الإنْتعَاش.

وَقَالَت (فالنتينا) الرُّوسيَة: كَانَت أَسْعَد لَحظَات حَـيَاتي... لَـقَد شَـعَرتُ بإرْتيَاح لاَ نَظِير لَهُ، وَتَمنيتُ أَنْ أَبْقىٰ هَكَذا إلىٰ الأَبَد.

إذَن التَّجْربَة الحِسّيَة سَاهمَت مُسَاهمَة فَعّالَة تَماماً كَمَا سَاهم العَقْل وَالفِطرَة فِي الشّهادَة بإمكَان الحَيَاة بلاَ خَوف وَلاَ تَعْب الَّتي بَشّر بهَا مُـحَمَّد بـن عَـبدالله ﷺ وَجَميع الأَديَان تَقُول هَذَا، مَع العِلْم بضَآلة مَا ٱكْتَشفَته التَّجْربَة مِن حَقَّائِق الغَيْب غَير أَنَّنا مُتفَائلُون بأَنَّ العِلْم الحِسّي سَيَكشف فِي المُستَقبل القَريب أَو البَعيد عَن كَثِير مِن حَقَّائق الغَيب، وَيُبرزهَا للعَيَان تَمَاماً كالأَشيَاء المَحسُوسَة المَلمُوسَة.

وَبهَذَا يَتَبيّن مَعنَا أَنَّ تَقَدّم العِلْم فِي أَي مِضمَار هُو ٱنْتصَار لدِين مُحَمَّد ﷺ لأَنَّه دِين العِلْم وَالحَقّ وَبَديهَة أَنَّ الحَقّ لاَ يُعَاند الحَقّ، بَل يُؤازره وَيُنَاصره إذَن يَتحتّم عَلىٰ كُلّ إنْسَان يُؤمِن بالعِلْم وَالحَقّ أَنْ يُؤمن بمُحَمّد ﷺ لأَنَّ الإيْمَان بـهِ إيـمَان بهمَا، وَتَكرِيمَه تَكرِيم لهُما، وَجـحُود رسَـالَته جـحُود لهُـما، وَللإنسَـانيَة مِـن

---

(١) ٱلْحِجر: ٤٨.

الأَسَاس.

وَقَد يَهْتَدي عَالِم مِن العُلمَاء، أَو فَيلسُوف مِن الفَلاَسفَة إلىٰ حَقِيقَة تَعْجَز عَن إدْرَاكها، وَتُصورهَا العُقُول الإعْتِيَادِيَة، فَتَردّها عَلَيه، وَتَسخَر مِنْهَا وَمِنْهُ، حَتَّىٰ إذَا مَرّت الأَيَّام، وَظَهرَت هَذِه الحَقيقَة للعَيَان آمَنت بهَا الأَجيَال وَأَصْبَح صَاحبهَا الَّذي كَان بالأَمس مَوضع السُّخريَة وَالإسْتهزَاء عُنوَاناً التَّقدِيس وَالتَّعظِيم.

لَقَد أَعْلَن الفَيْلسُوف اليُونَاني «أريستاركوس» القَول بدَورَان الأَرْض حَول الشَّمس عَام (٢٨٠) قَبل المِيلاَد، فَعَارضهُ «بطليمُوس» مُؤكّداً أَنَّ الشَّمس هِي الَّتي تَدُور، وَأَنَّ الأَرْض ثَابتَة وَسَط الكَوْن، وَظَل مَذْهَبه مُعتَمداً مِئَات السّنِين، حَتَّىٰ أَعلَن مِن جَدِيد العَالم البُولُوني «كوبرنيك» حَركَة الأَرْض حَول الشَّمس، فَهجر النَّاس القَول الأَوّل، وَاعْتَنقُوا الرَّأي الثَّاني، لاَ كُرهَاً ببطليموس، وَلاَ حُبّاً بكوبرنيك، بَل لأَنَّ العِلْم فَرَض نَفْسَه عَلىٰ جَمِيع أَهْل المَذَاهب وَالأَديَان فِي أَنْحَاء المَعْمُورَة، حَيْث يَعلُو سُلطَانه وَيَسمو عَلىٰ كُلّ سُلطَان، وَبهِ يُخلّد الإنْسَان مَدىٰ الأَجيَال وَالأَزمَان... وَسَيأتي اليَوْم الَّذي تُدِين فِيهِ برسَالَة مُحَمَّدﷺ جَمِيع الأُمَم فِي الشَّرق وَالغَرب، لاَ لشَيء إلاَّ لأَنَّ العَاقبَة للحَقّ وَالعِلم اللَّذَين تَيَسر مَعْهُما هَذِه الرّسَالَة المُقدّسَة جَنباً إلىٰ جَنْب.

سَتُدِين الأَجيَال، كُلّ الأَجْيَال، برسَالَة مُحَمَّدﷺ عَن طَرِيق المُشَاهدَة وَالتَّجرِبَة اللَّتِين هُما أَسَاس المَنْهَج العِلْمي الحَدِيْث، مَع العِلْم بأَنَّ مُحَمَّداًﷺ لَمْ يَسْتَعمل فِي حَيَاته التَّجْربَة وَالإخْتبَار ـ إذْ ـ تَعَيَّن بحُكم الوَاقع أَنَّ الصِّلَة الوَثيقَة بخَالق الكَوْن هِي السَّبِيل الوَحِيد إلىٰ مَعْرفَته بحقَائِق الكَوْن وَمَا قَبْلَه، وَمَا بَعْدَه... لَقَد سَبَق مُحَمَّدﷺ بعُلُومه وَمعَارفه التَّقدُم الإنْسَاني بأُلوف السّنِين، ليَكُون هَذَا

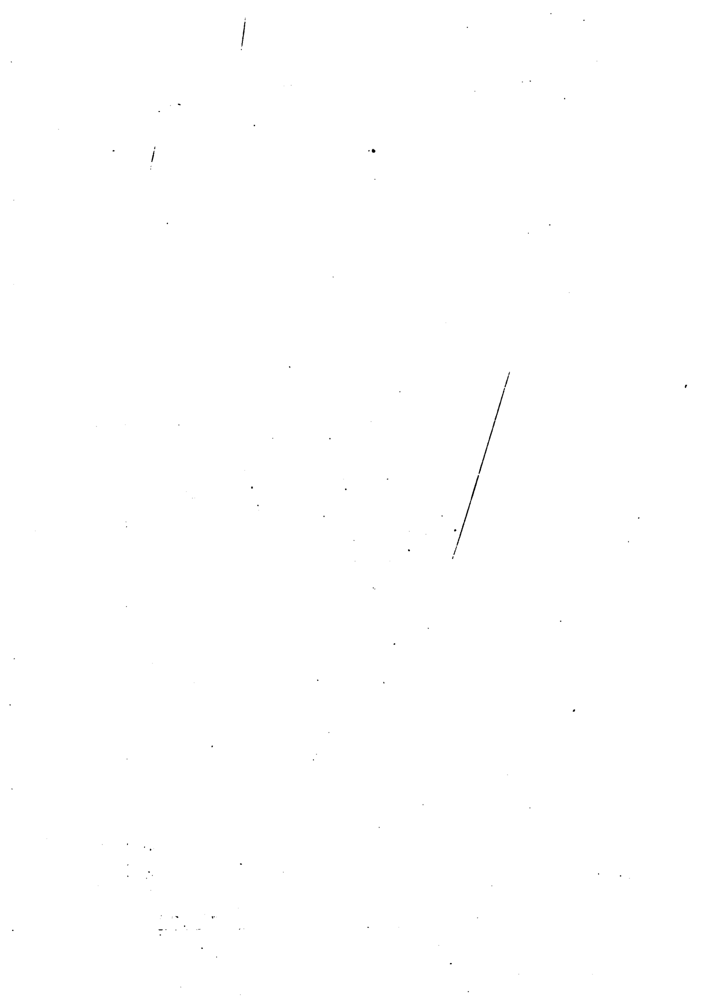
السَّبق دَليلاً عَلىٰ وجُود تِلكَ الصِّلَة بَيْنَه وبَيْنَ العَليّ الأَعْلىٰ ....

وَمِن هُنا اَفْتَرق عَن العُلمَاء، وَالفَلاَسفَة، وَالعَباقِرَة، وَالنَّابغِين وكَان فَوق النَّاس أَجْمَعِين.



القِسْم الثَّاني

مَبَادِيء عَامّة، وَمُقْتَطفَات مِن الصَّحِيفَة السَّجَّاديَّة



مَبَادِيء عامّة

طَرِيق المَعرفَة إلىٰ الآخرَة:

مَا هُو الطَّرِيق إلىٰ مَعْرِفَة الآخرَة، وَبأي شَيء نُثبتهَا وَنَستَدل عَلَيهَا ؟.

قَالَ قَائِل: نُثبتهَا بالمَنطق، وَالأَقسيَة العَقليَة. وَقَالَ آخر بَل بشعُور القَلْب، وَكَشفَه المُسمّىٰ بالحَدَس. وَقَالَ ثَالِث: بَل بالوَحي، وَهُو الكُتب السَّماويَة، وَالأَحَادِيث النَّبويَّة.

وَالوَحي ثَابت بالوجدَان، وَالعَقْل يَدل، وَلَكن بضَمِيمَة مَبدَأ وَاجب الوجُود، وَالحَدس مُمكن، وَلَكنّه صَعْب التَّحصِيل ومَهْمَا يَكُن، فَإِنَّ المُهم أَنْ تَكُون مُؤْمنَاً إِيْمَانَاً صَحِيحَاً مُطَابقَاً للوَاقع، سوَاء أَحَصلَ هَذَا الإِيْمَان مِن طَرِيق العَقْل، أو القَلْب، أَو التَّقلِيد الأَعمىٰ فَالمُعْتَقد يَكُون صَحِيحَاً وَحقّاً إِذَا كَان انْعكَاسَاً عَن الوَاقع، كَمَا هُو فِي وَاقعِهِ بصَرف النّظر عَن أَسبَابه لأَنَّ العِبرَة بالنَّتِيجَة، لاَ بالمُقدّمَات.

الخلاَص مِن النَّار:

بَعْد أَنْ اتّفقُوا علىٰ وجُود الجَنَّة وَالنَّار، وَأَنَّ لكُلّ مِنْهُمَا أَهلاً وَأَصحَاباً اخْتلفوا: أَهْل الخلاَص مِن النَّار يَكُون بمُجَرد الإِيْمَان بالله، وَاليَوْم الآخر بصَرف

النَّظر عَن الأَعمَال خيراً كَانَت أَو شَرّاً بحَيْث لاَ يَكُون المُؤْمِن مَسئُولاً عَن شَيء وَإِنْ لَمْ يَعْمَل خَيراً قَطّ، أَو لاَ بُدّ مِن الإِيْمَان وَالعَمل مَعاً فَمَن آمَن وَلَم يَعْمَل، أَو عَمِل دُون أَنْ يُؤمن فَهُو مِن أَهْل النَّار.

ولَيْسَ مِن شَكّ أَنَّ الإِيْمَان أَسَاس، وَالعَمَل بنَاء، وَالإِخْلاَص مِن سُوء المَصِير لاَ يَكُون إِلاَّ بالبِنَاء السَّلِيم عَلىٰ أَسَاس مَتِين إِذَن لاَ بُدّ مِن الإِيْمَان وَالعَمَل مَعاً.

صَلاَح الآخرَة:

رَبَط الإِسْلاَم صَلاَح الآخرَة بصَلاَح الدُّنْيَا، وَجَعل الثَّاني وَسِيلَة للأَوّل، فَمَن جَاهَد وَنَاضل، وَأَكل مِن تَعَبه وَعَرَقه فِي حَيَاته هَذِه كَان سَعِيداً فِي الآخرَة، وَمَن عَمِل لإِسْعَاد النَّاس، وَصَفَاء القُلُوب، وَبثّ المَحبّة وَالإِخَاء فَهُو أَسعَد، لأَنّه مَع الأَنْبيَاء وَالصّدِيقِين، وكَمَا عَمِل عَلىٰ إِسعَاد عَدَد أَكثَر كَان حَظّه عِنْدَ الله أَكبَر وَأَوفَر.

أَمّا مَن يَعِيش عَلىٰ حِسَاب غَيره، وَيَشقىٰ النَّاس بوجُوده، وَيخَافُون مِنْهُ وَمِن شَرّه فَإِنّ عَاقِبَته الحَسرَة وَالنّدَامَة، وَالحسَاب وَالعقَاب، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[1].

وَفِي الحَدِيْث: «أَهلُ المَعْرُوف فِي الدُّنْيَا أَهْلُ المَعْرُوف فِي الآخرَة»[2].

---

(١) ٱلْإِسْرَاء: ٧٢.

(٢) أُنظر، المُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحَين: ١/٢١٣ ح ٤٢٩، مَجْمَع الزَّوَائد: ٣/١١٥، سُنن البَيْهَقِيّ الكُبْرىٰ: ١٠/١٠٩، المُصَنّف لِابْن أَبي شَيبَة: ٥/٢٢١ ح ٢٥٤٢٨، المُعْجَم الكَبِير: ٦/٢٦٤ ح ٦١١٢، المُعْجَم الصَّغِير: ١/١٣٣ ح ١٩٩، المُعْجَم الأَوسَط: ١/٥٦ ح ١٥٦، الأَدَب المُفرد: ١/٨٦ ح ٢٢٠، الفِرْدَوْس بمَأثُور الخِطَاب: ١/٤٠٩ ح ١٦٥٣.

أتسكت أو تتكلم؟:

إذا رأيتَ إنساناً يأكل لحم الخنزير، أو يُصلّي بالنّجس، وما إلىٰ ذاك فهل يجب عليك أنْ تتكلّم معهُ وتُنبّه إلىٰ ذلِكَ، أو يجوز أنْ تتجاهل وتَسكُت ؟.

الجوَاب:

يخْتلف الحُكم بإخْتلاف الحالاَت:

١ ـ أنْ يَكُون الفَاعل عَالماً بالمَوضُوع، جَاهلاً بالحُكْم، كَمَا لو عَلِم أنَّ هـذا لَحْم خِنْزير، وَلاَ يَعْلَم أنَّ لَحْم ٱلْخِنزير حَرَام، فالمَوضُوع الَّذي يَعْلَمه هُـو لَـحْم خِنْزير، وَالحُكم الَّذي يَجْهَله هُو التَّحرِيم، وفِي مِثْل هَذِه الحَال يَجب عَـلَيك أنْ تُرشدَه إلىٰ الحُكم الشَّرعِي، وَتُبيّن لهُ الحقِّيقَة مِن بَاب الإرْشَاد، وَوجُوب التَّعلِيم.

٢ ـ أنْ يَعْلَم الحُكم وَالمَوضُوع مَعاً، مِثْل أنْ يَعْلَم أنَّ هَذا لَحْم خِـنْزير، وَأنّـه حَرَام، وَمَع ذلِكَ أقدَم، وَلَم يَكْترث، وَيَجب هُنا أنْ تُذكّره بأمر الله، وَتُخوفه مِن عقَابه مِن بَاب الأمر بالمَعرُوف وَالنّهي عَن المُنْكَر، مَع ٱحتمَال الفَائِدَة، وَعَـدم الضَّرر.

٣ ـ أنْ يَعْلَم الحُكم ـ وَيَجْهَل المَوضُوع، كَمَا لَو عَلِم أنَّ لَحْم ٱلْخِنزير حَرَام، وَأنَّ الصَّلاَة بالنَّجَاسَة لاَ تَصحّ وَلَكنّه لاَ يَعْلَم أنّ هَذَا لَحْم خِنْزِير، وَأنَّ عَلىٰ ثَوبِهِ نجَاسَة، وفِي مِثْله لاَ يَجب الكَلاَم وَالتّنبيه، لأنَّ الجَاهل لَمْ يَرتَكب حَرَاماً... فَإ رَأيتَ شَخصاً يُصلّي، وَعَلىٰ ثَوبِهِ نجَاسَة يَجْهلهَا فَلاَ يَجب عَلَيكَ أنْ تُنبههُ إلَيْهَا، وَيَجُوز لَكَ أنْ تَأتَم بِهِ جَمَاعَة، وَإنْ كَان مِن أهْل العَدَالَة، وَكَذَا لاَ يَجب التَّنبِيه لَو أكلَ لَحْم ٱلْخِنزير بِإعْتقَاده أنّه غنَم. وَعَن أهْل الْبَيْت عليهم السلام أنَّ رَجُلاً ٱغْتَسل مِـن الجَنَابَة، وَلَم يَسْتَوعب المَاء بَدَنه، فَنَبّهه آخر إلىٰ ذَلِكَ، فقَالَ الإمَام عَليّ عليه السلام: «مَا

كَان عَلَيكَ لَو سَكَت »[١].

أَجل، لاَ يَجُوز أَنْ تَكُون أَنْتَ المُسَبب لِـذَلِكَ، كَأَنْ تُـطْعمهُ لَـحْم ٱلْـخِنزِير، وَالنَّجس، وَهُو لاَ يَعْلم، أَمّا لَو رَأَيتهُ يَفْعَل ذَلِكَ فَلاَ شَيء عَلَيكَ لَوْ سَكَتَ.

هَلِ الجَهْل عُذر؟:

لَو جَهْلَ إِنْسَان أَنّه مُقْدِم عَلىٰ الحسَاب وَالعقَاب، أَو ٱرْتَكب الحرَام، وَهُو لاَ يَعْلَم بأَنّه حرَام، أَو تَرَك وَاجباً عَن جَهْل بالوجُوب، فَهْل يَكُون مَعذُوراً للجَهْل، أَو لاَ؟.

الجَوَاب:

أَنَّ الجَهْل بإِعْتبَار سَبَبه عَلىٰ نوعَين:

١ ـ أَنْ يَنشَأ مِن تَربِيَته وَبِيئَته، كَمَا لَو عَاش مُنذ طفُولَته بَيْنَ قَوْم لاَ يُـوجبُون الصَّلاَة، وَلَم يَلتَفت هُو أَو يَحْتمل أَنَّهَا وَاجبَة بحُكم ظرُوفه وَمُلاَبسَاته... وَلَيْس مِن شَكّ أَنّ هَذَا الجَاهل يَثْبت التَّكلِيف وَالوجُوب فِي حـقّه وَاقـعاً، لأَنّـه بَـالغ، عَاقِل، قَادِر بذَاته عَلىٰ الفِعْل، غَايَة الأَمر أَنّه مَعْذُور فِي التَّرك مَـا دَام فِـي هَـذِه الحَال، فَإِذَا ٱرْتَفعَت وَزَالَت، وَعَـرف الحَـقِيقَة وَجَب عَـلَيه الأَدَاء فِـي الوَقت، وَالقَضَاء فِي خَارجه، تَمَاماً كَمَا هُو الشَّأن فِي النَّائِم وَالنَّـاسي، فَـإِنَّ مَـن نَسـي الصَّلاَة يُعْذَر فِي تَركهَا حَال النِّسيَان، ولَكنّها لاَ تَسقُط عَنْهُ فِي الوَاقع، لِذَا إِذَا تَذَكّر وَجَب الفِعْل أَدَاءً فِي الوَقت، وَقَضَاءً فِي خَارجه وَكَذَا النَّائم وَمَن عَاش بَيْنَ قَوْم لاَ يَعرفُون الصَّلاَة إِطْلاَقاً.

---

(١) أنظر، الكَافِي: ٣ / ٤٥ ح ١٥، التَّهذِيب: ١ / ٣٦٥ ح ١١٠٠٨، وَسَائِل الشِّيعَة: ١ / ٥٢٤ ح ١.

٢ ـ أَنْ يَنْشَأ الجَهْل مِن عَدَم القَابليَة وَالإِسْتعدَاد للفَهْم وَالتّـفهم، وَهَـذَا غَـير مُكَلّف مِن الأَسَاس بمَا لاَ يُمكن أَنْ يَتفهمهُ، لأَنّه أَشبَه بالجَمَاد وَالحَيوَان... وَيُعَبّر عَنْهُ بالقَاصر.

وَمِن أَفرَاد القَاصر، المُجْتَهد الّذي يَبْذل كُلّ جُهدَه فِي البَحْث عَن الدَّلِـيل... فَلَو أُفتُرض أَنَّ أَحد المُجْتَهدِين لَمْ يَطّلع عَلىٰ دَلِيل يَدل عَلىٰ أَنَّ عَرق الجُنب مِن الحَرَام نَجس، وَحَكم بَعْد البَحْث وَالتَّنقِيب بطهَارتَه للأَصل، وكَـان هَـذَا العَـرق نَجساً فِي الوَاقع، لَو أُفتُرض هَذَا لكَان المُجْتهد مَعْذُوراً فِي حُكْمه بالطّهَارة،

وَبكَلمَة أَنَّ الجَهْل مِن حَيْث هُو لاَ يَتنَافىٰ مَع وجُود التَّكلِيف إلاَّ إذَا رَجَع إلىٰ العَجْز وَعَدم القُدرَة، كَمَا هِي الحَال فِيمَن لاَ قَابليَة لَهُ وَلاَ أَهليَة.

النِّيّة:

النِّيّة حَيْث هِي لَيْسَت سَبَباً للحسَاب وَالعِقَاب فِي نَظَر الإِسْلاَم، فَمَن نَوىٰ أَنْ يَزْني، أَو يَسْرق، أَو يَقْتُل، وَلَم يُبَاشر شَيْئاً مِـن ذَلِكَ فَـلاَ يُسأَل عَـن نِـيّته، لأَنَّ العِقَاب إنَّمَا يَكُون عَلىٰ عَمَل مَادّي مَحسُوس....

أَمَّا إذَا نَوىٰ الخَير، وَعَجز عَن فِـعْله فَـإنّ الله يَكْـتبهُ لهُ وَيُـثِيبه عَـلَيه تَكـرُمَاً وَتَفضُلاً، وفِي الحَدِيْث: «مَنْ هَمَّ بحَسَنة، فَلَم يَفعَلها كُتِبَت لهُ حَسَنة، وَمَن هَـمّ بسَيئَة، وَلَم يَفعلهَا لَمْ يُكتَب عَلَيه شَيءٌ»[1]...

(١) أنظر. إحْيَاء عُلُوم الدّين ـ للغزّالي: ٣ / ٣٩، الكَافِي: ٢ / ٢٧٢ ح ١٧، تَفْسِير القُـرطُبي: ١ / ٤٨٤، صَحِيْح مُسْلِم: ١ / ١١٧ ح ١٢٨، صَحِيح ابن حِبَّان: ١٤ / ٤٥، تَفْسِير ابن كَثِير: ١ / ١٥٣، المُصنّف لابن أَبي شَيبَة: ٧ / ٣٣٤، المُعْجَم الأوسَط: ٤ / ٣٤٥ ح ٤٣٩٠، مُسْنَد أَحْمَد: ٣ / ١٤٨ ح ١٢٥٢٧،

بَل لَو قَالَ، وَلَم يَفعَل لاَ يُؤَاخذ عَلىٰ مُجَرد القَوْل إذَا لَمْ يَكُن سَبباً فِي إيـذَاء الغَير.

مَنْ لاَ يَرْحَم:

جَاء فِي الحَدِيْث: «مَن لاَ يَرحَم لاَ يُرحَم»[1].

وَهَذي هِي الرَّحمَة بالذَات، فَإنّ التَّسامح مَع الشّرير الظَّالم المُفسد هِي عَيْن القَسوَة وَالظّلم... تَصور رَجُلاً يَقسُو، حَتَّىٰ عَلىٰ المَساكِين وَالفُقرَاء وَلاَ يَتسَامح، حَتَّىٰ مَع الأَرْحَام وَالأَصْدقَاء وَيتآمر، حَتَّىٰ عَلىٰ بلاَده، وَيَهتف للمُجرمِين وَالمُخَربين... أَو يُلقي القَنَابل المُهلكَة عَلىٰ النّسَاء، والأَطْفَال، وَالآمِنِين وَيُحوّل العمَار إلىٰ خرَاب وَبوَار، ثُمّ يَطْلب الرَّحمَة وَالمَغْفرَة... أَلَيْسَت الرَّحمَة مَع هَذَا المُجْرم مَعنَاها الرّضا عَنْهُ، وَتَشجِيعه عَلىٰ إجْرَامه؟... أَنّ الرَّحمَة بالنَّاس وَبالإنْسَانيَة جَمعَاء أَنْ تُحَطّم القَنَابل المُدَمرة... وَمِن هُنا قِيل: لَيْسَ مِن العُنف القَضَاء عَلىٰ العُنْف.

الثَّوَاب:

اتّفق العُلمَاء عَلىٰ أَنَّ العَاصي يُعَاقب بالإسْتحقَاق، وَاخْتلفُوا: هَل يُثَاب

مُسْنَد الشَامِيّين: ١ / ٨٧، مُسْنَد أبي يَعلى: ٦ / ٢١٨، المُعْجَم الكَبِير: ٤ / ٢٠٦ ح ٤١٥٢، فَتْح البَاري: ٧ / ٢١٦، شَرْح النّووي عَلى صَحِيح مُسْلِم: ٢ / ١٥١، الدّيبَاج: ١ / ١٤٥ ح ١٣٠.

(١) أُنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ٤ / ٦١ و: ٧ / ٧٥، مَناقب آل أبِي طَالب: ٣ / ١٨٩، ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ١٢٥، الإسْتِيعَاب المَطبُوع بهَامش الإصَابَة: ١ / ٩٦، صَحِيح مُسْلِم: ٣ / ١٠٩ و: ٧ / ٧٧، سُنن أبي دَاود: ٢ / ٥٢٢ ح ٥٢١٨، مَجْمَع الزَّوَائد: ٨ / ١٨٧، المُصَنَّف لِعَبدالرَّزاق الصَّنعاني: ٣ / ٥٥٣ ح ٦٦٧٢.

المُطِيع بالإِسْتحقَاق، أَو بالتَّفضِيل ؟.

وَفِي كَلاَم الإِمَام زَين العَابدِين عَلَيه أفضَل الصَّلوَات مَا يَدل عَلىٰ أَنّه بالتَّفضّل، وَأَنَّ الله سُبْحَانه إِذَا لَمْ يُثِيب المُطِيع فَلاَ يَكُون لهُ ظلاَمَاً، قَالَ مُنَاجياً رَبّه :

« لاَ يَجبُ لأَحَدٍ أَنْ تَغْفِرَ لَهُ بِإِسْتِحْقَاقِهِ، وَلاَ أَنْ تَرْضَىٰ عَنْهُ بِـإِسْتِيجَابِهِ ؛ فَـمَنْ غَفَرْتَ لَهُ فَبِطَولِكَ، وَمَنْ رَضِيْتَ عَنْهُ فَبِفَضْلِكَ. تَشْكُرُ يَسِيرَ مَا شُكِرْتَهُ، وَتُـثِيبُ عَلَىٰ قَلِيلِ مَاتُطَاعُ فِيهِ، حَتَّىٰ كَأَنَّ شُكْـرَ عِبَادِكَ الَّذِيْ أَوْجَـبْتَ عَـلَيْهِ ثَـوَابَـهُمْ، وَأَعْظَمْتَ عَنْهُ جَزَاءَهُمْ... أَمْرٌ مَلَكُوا ٱسْتِطَاعَةَ الإِمْتِنَاعِ مِنْهُ دُونَكَ، فَكَافَيْتَهُمْ، أَوْ لَمْ يَكُنْ سَبَبُهُ بِيَدِكَ فَجَازَيْتَهُمْ » [١].

---

(١) أُنظر. الصَّحِيفَة السَّجَّاديّة : الدُّعَاء السَّابع والثّلاثُون (دُعَاؤُهُ فِي الشُّكْرِ) بتحقِّيقنَا.



أَبْوَاب الرَّحْمَة

الآلة الكاشفة:

اَستطَاع عُلْمَاء اليَوْم أَنْ يَخْتَرعُوا آلَة تَكْشف وَتُصور مَا تَـحْدَث مِـن خَـلَل وَمَرض فِي أَمعَاء الإِنْسَان وَدمَاغه وَعظَامه، وكُلّ مَا فِي بَاطن الجِسم، وَلَكنّهم ـ حتَّىٰ الآن ـ لَمْ يَهتدُوا إِلىٰ آلَة تُعرّفهم بنَفْسه، وَمَا فِيهَا مِن خُبْث، وَحِقد، وَجَهل، وَغرُور.

وَأَيضاً اَستطَاعوا أَنْ يَجعلُوا صنَاعيّاً مكَان آخر طَبِيعي، يُؤدي وَظِيفَته كَاملَة، كَيَد مَكَان يَد، وَرِجل مَكَان رِجل، وَلَكنّهم ـ حَتَّىٰ الآن ـ عَجزُوا عَن اَخْترَاع آلَة تُطهّر النّفُوس مِن الرَّذَائل، وَتَغرس فِيهَا بذُور الفضَائِل.

عِنْدَ الإِمَام عليه السلام:

وعِنْدَ الإِمَام زَين العَابدِين عليه السلام آلَة وَاحدَة تَكْشف للمَرء عَن جَمِيع مَا فِي نَفْسَه مِن عيُوب، وفِي الوَقت ذَاته تُـطهرهَا مِـن جَـمِيع الشَّـوَائب، وَتَـغرس مكَـانهَا الأَخلاَق الفُضلىٰ، وَالمُثل العُليا... أَنّها آلَة، وَلَكن لَيْسَت مِن نَوع مَـا تَـخرجـه المَصَانع، وَلاَ تَحتَاج إِلىٰ وقُود كوقُودهَا... أَنّها كَلاَم، وَلَكن لاَ مِن نَوع مَا يُقَال، أَنَّها «الصَّحيفَة السَّجَّاديَّة»، أَو مزَامِير الإِمَام زَين العَابدِين عليه السلام الَّتي فَاقَت ببهَائهَا

وَجلاَلها مزَامِير دَاود عليه السلام.

هَل تُرِيد أَنْ تَعْرف مَنْ أَنْتَ وإلىٰ أَين مَصِيرك ؟. هَلْ تُـرِيد أَنْ تَـنْتَصر عَـلىٰ شَهوَاتك، وَتَتغلّب عَلىٰ أَهوَائك المُعربدَة ؟. هَل تُرِيد أَنْ تكُون إِنْسَاناً كَاملاً، بَل مَلاَكاً ؟. إِذَن إِقرَأ هَذِه الصّحِيفَة، إِقرَأها، ثُمّ قَارن بَـيْنَ حَـالَيك، قَـبل القِـرَاءَة، وَبَعدهَا. فَلقَد قرَأت كَثِيراً، وَسَمعت كَثِيراً، وَلكنّك لَمْ تَقرَأ وَلَم تَسمَع مَا يَرجع بكَ إلىٰ ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَايَعْلَمُونَ﴾[1]. كُلّ النَّاس يَدعُون الله وَيُنَاجُونه، وَيَـتضرعُون إِلَـيهِ، وَلَكن الإِمَام زَين العَابدِين عليه السلام دَعَا بَعْدمَا شَاهَد الله وَرَآه، وَبَعْد أَنْ عَرَف مَا كَان، وَمَا هُو عَلَيه الآن، وإلىٰ أَينَ المَصِير.

قَد تَمر بأَحدنَا فِي وَقْت لَحظَة مُبَاركَة مُشرقَة، أَمّا أَنْ تَكُون جَمِيع أَوقَاته نُورَاً وَإِشرَاقاً، أَمّا أَنْ تُفْتَح لهُ أَبوَاب السَّمَاء فِي كُلّ آنٍ وَحِين فَتِلكَ خَاصّة لأَهل بَيْت الطّهر وَالنّبوّة، وَهُم وَحدهُم ـ بَعْد الأَنْبيَاء ـ الّذِين عَرفُوا عَظمَة الخَالِق وَجلاَله، وَصفَاته وكَمَاله، وَأَوضحُوا سَبِيل الهدَايَة إلىٰ رَحمَته، وَهُم وَحدهُم الّذِين عَرفُوا الدُّنْيا بسَيئاتهَا وَحَسنَاتها، وَوَضعُوا الدّلاَلاَت وَالعَلاَمَات عَلىٰ كُلّ وَاحدَة وَاحدَة مِن هَذِه الحَسنَات وَالسّيئَات... وَهُم وَحدهُم الّذِين أَدرَكُوا حَقِيقَة الإِنْسَان، وَمَا فِيهِ مِن أَسقَام وَأَوهَام، وَوَصفوا لكُلّ دَاء دَوَاء، وَهُم وَحدهُم الّذِين يَحرصُون كُلّ الحِرص عَلىٰ أَنْ يَعِيش الإِنْسَان فِي هَذِه الحَيَاة شَرِيفَاً سَلِيمَاً، وَفِي آخرَته سَعِيدَاً كَرِيمَاً... كُلّ هَذَا، وَمَا إِلَيهِ تَجدهُ جَليّاً وَاضحَاً فِي أَدعـيَة الصَّـحِيفَة السَّـجَّاديَّة للإِمَام زَين العَابدِين عليه السلام.

---

(١) الرُّوم: ٣٠.

الدُّعَاء عِنْدَ الإمَام عليه السلام :

الدُّعَاء عِنْدَ الإمَام وَاجب لاَ نَدْب ، وَضَرورَة مُلحَة لاَ تَسليَة وَاسْتمتَاع ، وَلاَ أَدل عَلىٰ ذَلِكَ مِن قَوْله :

وَقُلتُ ـ الخِطَاب لله تَعَالىٰ ـ : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1] فَسَمَّيْتَ دُعَاءَكَ عِبَادَةً ، وَتَرْكَهُ اسْتِكْبَاراً ؛ وَتَوَعَّدْتَ عَلَىٰ تَرْكِهِ دُخُولَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ؛ فَذَكَرُوكَ بِمَنِّكَ ، وَشَكَرُوكَ بِفَضْلِكَ ، وَدَعَوْكَ بِأَمْرِكَ ، وَتَصَدَّقُوا لَكَ طَلَباً لِمَزِيدِكَ ، وَفِيهَا كَانَتْ نَجَاتُهُمْ مِنْ غَضَبِكَ ، وَفَوْزُهُمْ بِرِضَاكَ[2] .

فَكُلّ شَيء دُعَاء عِنْدَه . . . للمُهمَات وَالإِستعَاذَة ، وَالعَافيَة ، وَلمكَارم الأَخْلاَق ، وَالشُّكر ، وَالتَّوْبَة ، إلىٰ مَا لاَ نهَايَة ، ولَيْسَ مَعْنَىٰ هَذَا أَنّه يَطْلب الدُّنْيَا والآخرَة بالدُّعَاء وَحدَه ، وَبدُون عَمَل ، بَل يَعْمَل وَيبذل كُلّ مَا فِي طَاقَته وَجُهدَه ، وهُو يَلُوذ بالله ، وَيَتّجه إلَيهِ بكَلمَات هِي العَمَل بالذَات ، وَالنّضال المُثمر ، وَهُنا سِرّ الإِعجَاز ، كَلمَات ، ولَكنّها أَحلىٰ مَذاقاً مِن الشّهد ، وَأَذكىٰ أَريجاً مِن الورُود ، وَأَعظَم تَأْثيراً مِن السّحر ، كَلمَات ولَكنّها تُنير العُقُول ، وَتُحيي النّفُوس ، وَتَبعَث فِيهِ الأَمَل ، وَتُطهرهَا مِن الرّجس وَالدّنس وَتَغرس فِيهَا الفَضِيلَة والثّقة والإِيمَان ، الإِيمَان بشَجَاعتهَا عَلىٰ نَقْد ذَاتها بذَاتها ، وَإعلاَن عيُوبها ، ثُمّ بالتَّوْبَة وَالإِنَابَة ، وَآيَات تَشع بنُور الله وَبهَائه وَجَلاله وَابتهَالاَت تُعبّر تَعبيراً حَيّاً وَصَافيَاً عَن شَخصيَة الآل الكِرَام وَأَخلاَقهم وَعَظمتهِم الّتي لاَ شَيء فَوقهَا إلاّ عَظمَة الخَالِق القَهّار .

---

(١) غَافِر : ٦٠ .

(٢) أُنظر . الصَّحِيفَة السَّجَّاديَّة الدُّعَاء الخَامِس وَالأَرْبعُون) (دُعَاؤُهُ لِوَدَاعِ شَهْرِ رَمَضَان) . بتحقِّيقنَا .

الأمل:

وتَعال مَعيَ الآن لنقرأ هَذِه المُنَاجَات للإمَام زَين العَابدِين عليه السلام:

«أللهمَّ هَذَا مَقَامُ العَائِذِ بِكَ، وَمَحَلُّ المُعْتَرِفِ لَكَ، فَلا يَضِيقَنَّ عَنِّي فَضْلُكَ، وَلا يَقْصُرَنَّ دُونِي عَفْوُكَ، وَلا أَكُنْ أَخْيَبَ عِبَادِكَ التَّائِبِينَ، وَلا أَقْنَطَ وُفُودِكَ الآمِلِينَ، وَاغْفِرْ لِي، إِنَّكَ خَيْرُ الغَافِرِينَ. أَللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَنِي فَتَرَكْتُ، وَنَهَيْتَنِي فَرَكِبْتُ، وَسَوَّلَ لِيَ الخَطَاءَ خَاطِرُ السُّوءِ فَفَرَّطْتُ»[1].

وَمِن دُعَاء آخر:

«يَا حَلِيمُ أَنْتَ الَّذِي فَتَحْتَ لِعِبَادِكَ بَاباً إِلَى عَفْوِكَ، وَسَمَّيْتَهُ التَّوْبَةَ، وَجَعَلْتَ عَلَى ذَلِكَ الْبَابِ دَلِيلاً مِنْ وَحْيِكَ لِئَلَّا يَضِلُّوا عَنْهُ، فَقُلْتَ تَبَارَكَ اسْمُكَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]، فَمَا عُذْرُ مَنْ أَغْفَلَ دُخُولَ ذَلِكَ الْمَنْزِلِ بَعْدَ فَتْحِ الْبَابِ وَإِقَامَةِ الدَّلِيلِ»[3].

يَقُول الإِمَام:

إلهي، لَقَد أَمَرت وَنَهيت وَكَان عَلَيَّ أَنْ أَسْمَع وَأَطِيع، وَلَكن خَاطَر السُّوء أَمْسك بِي عَن السَّمع والطَّاعَة، وَأَوقَعني فِيمَا لاَ تُحبّ، وَلاَ تَرضىٰ، وَقَد أَمَرتَني

(١) أنظر، الصَّحِيفَة السَّجَّاديَّة الدُّعَاء الثَّانِي وَالثَّلاَثُون (دُعَاؤهُ فِي صَلاَةِ اللَّيلِ). بتحقِيقنَا.

(٢) التَّحرِيم: ٨.

(٣) أنظر، الصَّحِيفَة السَّجَّاديَّة الدُّعَاء الخَامِس وَالأَربعُون (دُعَاؤهُ لِوَدَاعِ شَهرِ رَمَضَان). (بتحقِيقنَا.

فِي حَالي هَذِه أَنْ أَطرُق بَاب ٱلتَّوْبَة آسفاً نَادماً، وَهَا قَد فَعَلتُ، وأَتيتكَ تَائباً، فَٱفْتَح لِي بَاب رَحْمَتك وَغُفرَانك.

وإذَا كَان هَذَا الخطَاب مِن الإمَام لله جَلّ وَعزّ، فَإِنّه فِي الوَقت نَفْسَه خطَاباً لِي وَلَك ـ أَيّها القَارِيء ـ وَلكُلّ مَن سَوّلَت لهُ نَفْسَه الخطَايَا والذّنُوب، أَنّه خطَاب للنَّاس أَجمَعِين أَنْ لاَ ييأسُوا وَلاَ يَقنطُوا وَلاَ يَصرُوا عَلىٰ مَعْصِيَته، فَإِنَّ الله يَرْحَم وَلاَ يَعْرف الحِقد، لأَنَّ الحِقد شَأن الضُّعفَاء وَالجُبنَاء، وَالله قَوِي عَزِيز، وَبهذَا الأَمَل تَنْتَعش الأَروَاح، وَتَرجع إِلىٰ بَارئهَا، وَتَتحرّر مِمَّا يُشِين.

وَكُلّنَا يَعْرف قصّة المَرأة السَّاقطَة الَّتي قَبضُوا عَلَيهَا مَع عَاشقهَا بالجُرم المَشهُود، وَأَتُوا بهَا إِلىٰ السَّيِّد المَسِيح عليه السلام، ليُقِيم عَلَيهَا الحَدّ، فَعَنّفهُم، وَأَطلَق سَبِيلها، فكَان رِفقه بهَا سَبباً لتَوبتهَا، وَسلُوكها سَبِيل الصَّون وَالعَفَاف، حَتَّىٰ أَصْبَح الحَرَام أَبْغَض الأَشْيَاء إِلىٰ نَفْسهَا.

أَنَّ رَحمَة الله وَمَغفرته لاَ تَفْتح أَبوَابها لمَن جَحَد وَعَانَد، وَأَصرّ عَلىٰ ضَلاَلَه وَغوَايَته، أَمّا مَن تَاب وَأَنَاب فَإِنّ نَصِيبَه مِن الله الرِّضوَان وَالثَّوَاب... إِنّ الله جَلّ وَعزّ لاَ يُعطي الحَجَر لمَن أَستجَار برَحمَته، وَلاَذ بجُودَه وَكَرَمَه.



أَيّهُما نَخْتَار؟

لَو اُفْتِرض أَنَّ إِنْسَاناً قَالَ لَكَ: إِذَا خُيّرت بَيْنَ الفقْر وَالغِنىٰ، فَمَاذَا تَخْتَار؟. أَو بَيْنَ الصّحَة وَالمَرض، فأَيّهُما تُفضّل، لَوْ سُئلتَ مِثْل هَـذَا لقُـلت للسَّـائِل ـ أَنْتَ مَجْنُون... لأَنَّ النَّاس تَسأَل عَن المُـتشَابهَات وَالمُشْكـلاَت، وَأَنْتَ تَسأَل عَـن الوَاضحَات وَالبَدِيهَات.

وَلو غَيّر صِيغَة السُّؤال، وَأَبرزَه، بهَذَا الأُسـلُوب، وقَـالَ: أَمَـامَك طَـرِيقَان: أَحدَهُما شَاق وَعَسِير، وَلَكنّه يُؤدي بِكَ إِلىٰ الغِنىٰ وَالثّروَة، وَالْآخر سَهْل يَسِير، وَلَكنّه يُؤدي بِكَ إِلىٰ العَوز وَالفقْر، فَأَيّهُما تَسلُك؟. لو قَالَ هَذَا لاَ تَـقُول لهُ: أَنْتَ مَجنُون، بَل تُقَارن وَتوَازن بَيْنَ مَشقّة الطَّرِيق وَأَضرَارَه، وبَيْنَ مَـا يَـتَرتب عَـلىٰ سلُوكَه مِن مَنَافع وَفوَائِد، فَإِنْ كَانَت تَستَأهل تَحمّل هَـذِي المَشَـاق وَالأَضـرَار أَقدَمت، وَإِلاَّ أَحْجَمت.

وَقَد رَأينَا العُقلاَء يَركبُون البِحَار، وَيَقطعُون القِفَار، وَيُجَازفُون مِن أَجل نَـفْع مُحْتَمل، وَرِبح مَظنُون، وَيَسخُون بأَموَال طَـائِلَة، لفَـائِدَة قَـد تَـحصَل، وَقَـد لاَ تَحْصَل، إِذَن، فالغَايَة هِي المُسوّغ وَالمُبرّر، وَإِيثَار الْآجل الأَعْلىٰ عَلىٰ العَـاجل الأَدنىٰ هُو البَاعث وَالمُحرّك.

وإِذَا اَشْتَهيتَ نَوعَاً خَاصّاً مِن الطّعَام وَمَالت إِلَيهِ نَفْسَك فَإِنّك تَحجم عَن تَنَاوله

بطِيب نَفْس إذَا نَهَاك عَنْهُ الطَّبِيب، وَعَلمتَ أنّه مُضر بصحتك، وَالسّر هُو المُوَازنَة بَيْنَ الآجل وَالعَاجل، وَتَرجِيح الأوّل عَلىٰ الثّاني، فَالإنْسَان بفطرَته يُوَازن وَيُقَارن بَيْنَ خَير حَاضر يُؤدي إلىٰ الشّر، وبَيْنَ شَرّ حَاضر يُؤدي إلىٰ الخَير، وَيَأخذ بالكفّة الرّاجحَة، وَقَد اعْتَمدَت هَذَا المَبدَأ جَمِيع الشّرَائع السّماويّة وَالوَضعيّة، وَبَنَت عَلَيه أحْكَاماً شَتّىٰ، وإلَيهِ أشَار القُرآن الكَرِيم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[1].

وَتَقُول: إذَا كَان هَذَا المَبدَأ فِطريّاً، وَمَدعُوماً بالقُرآن وَالشّرَائع، فَكَيف سَلَك الكَثِيرُون الطّرِيق المُؤدّيَة إلىٰ النّار، وَآثَروهَا عَلىٰ طَرِيق الجَنّة؟. أتقول: أنّهُم غَير عُقلاَء أو لاَ يَدينُون بدِين؟. وَالمَفرُوض أنّهُم عُقلاَء، وأنّهُم يُؤمنُون بالله وَثوَابه وَعقَابه.

الجَوَاب:

كَلّا نَحنُ نَثق بعَقْلِهِم، لأنّهُم مِن أهْل التّمَيّز وَالإدرَاك، وَأيضاً نَثق بعَقِيدتِهم، لأنّهُم يُؤمِنُون بالله وَاليَوْم الآخر، وَلَكن لاَ نَثق بإرَادتِهم... أنّهُم ضِعَاف الإرَادَة، أقويَاء العَاطفَة، لاَ يَملكُون أنْفسهم إذَا مَالَت، وَشَهوتهم إذَا طَغَت، تَمَاماً كَالمَرِيض تَغْلبَه نَفْسه إلىٰ الطّعَام المُضر، وَكالتلمِيذ الكَسُول يُؤثر الرّاحَة عَلىٰ الجِد، وَهُو يَعْلَم أنّ الكَسَل يُؤدي إلىٰ الفَشَل، وَأنّ النّجَاح خَير ألف مَرّة مِن الرّسُوب.

وَبالتّالي فَإنّ العَاقِل إذَا رَأىٰ طَرِيقاً جَمِيلاً وَمُريحاً لاَ يُبَادر إلىٰ سلُوكه قَبل أنْ يَعْرف إلىٰ أينَ يَنْتَهي.

---

(١) البَقَرَة: ٢١٩.

التَّرْغِيب فِي الخَيْر

الإِمَام زَين العَابدِينعليه السلام هُو سَيِّد الوَاقعيِّين، وَإِمَام العَارفِين، وَمَع ذَلِكَ يَطْلب مِن الله أَشيَاء وَأَشيَاء، وَيَلح عَلَيه بالسُّؤال، وَيَستَعجلهُ بالإِجَابَة، وَالأَشيَاء الَّتي يَطلبهَا الإِمَام مِن الله سُبْحَانه لَيْسَت مِن نَوع الصّحَة، وَطُول العُمر، وَمَا إِلَيهِ مِمَّا لاَ يَدخل فِي مَقدُور الإِنْسَان فَحَسب، بَل يَسأَلهُ أَيضاً أَنْ يُخلصّه مِن الحَسَد وَيَبْتَعد بِهِ عَن المَعَاصي والذّنُوب قَالَ: «أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِـهِ، وَخَـلِّصْنِي مِـنَ الْحَسَدِ، وَٱحْصُرْنِي عَن الذُّنُوبِ، وَوَرِّعْنِي عَـنِ الْـمحَارِمِ، وَلاَ تُـجَرِّئْنِي عَـلَىٰ الْمَعَاصِي، وَٱجْعَلْ هَوايَ عِنْدَكَ، وَرِضَايَ فِيمَا يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكَ، وَبَارِكْ لِـي فِـيْمَا رَزَقْتَنِي، وَفِيمَا خَوَّلْتَنِي، وَفِيمَا أَنْعَمْتَ بِـهِ عَـلَيَّ، وَٱجْـعَلْنِي فِـي كُـلِّ حَـالاَتِي مَحفُوظاً مَكْلُوءاً مَسْتُوراً مَمْنُوعاً مُعَاذاً مُجَاراً»[1].

وَتَقُول: أَنَّ هَذِه وَمَا إِلَيهِ تَعُود إِلَىٰ قُدرَة الإِنْسَان وَٱختيَارَه، لذَا طَلَبهَا الله مِـن عِبَادَه، وَكَلّفهُم بهَا، فَعَلينَا نَحنُ أَنْ نَبْتَعد عَن الذّنُوب، وَنَتورّع عَن المَحَارم، وَلاَ نَتَجرأ عَلَىٰ المَعَاصي بِإِخْتيَارنَا، لاَ أَنْ نَطْلب مِن الله جَلّ وَعَلا أَنْ يَـحملنَا عَـلىٰ ذَلِكَ.

---

(١) أُنظر، الصَّحِيفَة السَّجَّاديَّة: الدُّعَاء الثَّانِي وَالعُشرُون (دُعَاؤُهُ عِندَ الشِّدَّةِ). بتَحقِّيقنَا.

وَقَبل أَنْ نُجيب نُمَهّد بهَذَا المِثَال: وَالد طَلَب مِن وَلَده أَنْ يَنْصَرف إِلىٰ الدَّرس، وَيُوليه العِنَايَة وَالْإِهْتمَام، كَي يَتَجاوز الْإِمْتحَان بنَجَاح، فَطَلب الوَلَد بدَوره مِن أَبيه أَنْ يُهيء لهُ جَواً صَالحاً للدّراسَة، كَي لاَ يَعُوقه شَيء... ولَيْسَ مِن شَكّ أَنَّ الوَالد إِذَا عَرَف الْإِخْلاَص مِن وَلَده، وَصِدق النِّيَّة وَالعَزم يُخصِّص لهُ غُرفَة مُستَقلة هَادئَة، وَيُنفق عَلَيه بسعَة، وَيَعفِيه مِن جَمِيع الخِدمَات وَيَختَار لهُ أُستَاذاً خَاصّاً يُعِينَه عَلىٰ تَفَهم درُوسه إِذَا ٱقْتَضىٰ الْأَمر، أَمّا إِذَا كَان يَائساً مِنْهُ، وعَلىٰ يَقِين مِن عَدَم رَغْبَته، وَكَذبه فِي أَقوَاله فَإِنّه يَهمل طَلَبه لعِلْمه بعَدَم الفَائِدَة وَالجَدوىٰ.

وَبهَذَا يَتَبيَّن مَعنَا أَنّه حِينَ نَطْلب مِن الله سُبْحَانه أَنْ يَجْعلنَا طَائِعِين غَير عَاصِين فإِنّه نَطْلب مِنْهُ أَنْ يُمَهّد لنَا الْأَسبَاب، وَيُهيء الجَو الصَّالح للطّاعَة، وَعَدم المَعصيَة، وَبكُلّ تَأكِيد أَنَّ الله مَتىٰ عَرف مِنّا الصِّدق والنُّصح فَإِنّه يَتَكرّم وَيَتفضّل بالهدَايَة وَالتَّوفِيق، وَالْإِعرَاض وَأَهمَل، وَبهَذَا نَجْد تَفْسِير قَوْل الْإِمَام زَين العَابدِين عليه السلام: «أَللَّهُمَّ وَإِنَّهُ لاَ وَفَاءَ لِي بِالتَّوْبَةِ اِلاَّ بِعِصْمَتِكَ، وَلاَ ٱسْتِمْسَاكَ بِي عَنِ الْخَطَايَا اِلاَّ عَنْ قُوَّتِكَ، فَقَوِّنِي بِقُوَّةٍ كَافِيَةٍ، وَتَوَلَّنِي بِعِصْمَةٍ مَانِعَةٍ»[1]. بَل أَنَّ الْإِمَام طَلَب مِن الله سُبْحَانه أَنْ يَمْنَحهُ الرَّغبَة فِي العَمَل لهُ، وَلآخرَته، قَالَ: «أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَٱرْزُقْنِي الرَّغْبَةَ فِي الْعَمَلِ لَكَ لآخِرَتِي، حَتَّىٰ أَعْرِفَ صِدْقَ ذٰلِكَ مِنْ قَلْبِي، وَحَتَّىٰ يَكُونَ الْغَالِبُ عَلَيَّ الزُّهْدُ فِي دُنْيَايَ، وَحَتَّىٰ أَعْمَلَ الْحَسَنَاتِ شَوْقاً، وَآمَنَ مِنَ السَّيِّئَاتِ فَرَقاً، وَخَوْفاً، وَهَبْ لِي نُوراً أَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ، وَأَهْتَدِي بِهِ فِي الظُّلُماتِ، وَأَسْتَضِيءُ بِهِ مِنَ الشَّكِّ وَالشُّبُهَاتِ»[2].

---

(١) أُنظر، الصَّحِيفَة السَّجَّاديَّة: الدُّعَاء الحَادي وَالثّلاَثُون (دُعَاؤُهُ بِالتَّوْبَةِ). بتَحقِيقنَا.

(٢) أُنظر، الصَّحِيفَة السَّجَّاديَّة: الدُّعَاء الثَّانِي وَالعُشرُون (دُعَاؤُهُ عِنْدَ الشِّدَّةِ). بتَحقِيقنَا.

وَإذا كَان الوَلَد لاَ يَطْلب مِن أَبِيه أَنْ يَمْنَحهُ الرَّغبَة فِي الدَّرس فَإنَّ عَلىٰ الأَب أَنْ يُوجد لهُ أَسبَاب الرَّغبَة، وَيُبيّن لهُ ثَمرَات الجِد، وَالنّشَاط، وَعَاقبَة الإهمَال وَالكَسَل، وَيُقدّم لهُ الشّوَاهد، وَيَضرب لهُ الأَمثَال، تمَاماً كَمَا يَفْعل التّجار حِين يبثُون الدّعَايَات لعَملهِم، وكَمَا تَفْعَل المَدَارس وَالجَامعَات حِين تُقدّم الجَوَائِز وَالمِنح للمُتفوقِين، وَقَد رَغّبنَا الله جَلّ وَعزّ فِي الحَقّ وَالخير، وَكرّهنا فِي البَاطل وَالشَّر حِين صَوّر كُلاًّ عَلىٰ مِثَاله، وَأَرشَد إلىٰ طَرِيقه، وَحِين آثنىٰ عَلىٰ المُطِيع، وَقَرّبه مِنْهُ، وَوَعدهُ بأَجْزَل الثّوَاب، وَحِين ذَمّ العَاصي، وَأَبْعَده عَن رَحْمَته، وَتوعدَه بأَشدّ العِقَاب... فَإنْ لَمْ نَعْمل وَنَمْتثل كُنّا نَحنُ المَسئولِين دُون غَيرنَا، وَصَدقَت عَلَينَا الآيَة الكَرِيمَة: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾[1].

وَهُنا شَيء، وَهُو إنّا قَد رَأينَا الأُلُوف لاَ تُؤثّر فِيهِم الدّعَايَات، حَتّىٰ الصَّادقَة مِنْهَا، وَلاَ الوَعد وَالوَعِيد، فَكَم مِن تِلمِيذ كَرِه الدَّرس، وَآنْصَرف عَنْهُ بَعْد أَنْ أَعيَت الحِيل وَغير الحِيل أَوليَاؤه، وَأَسَاتذتَه، وَأَطبَاؤه... وَكَم مِن إنْسَان يَتلُو كتَاب الله، وَيَقرَأ الأَحَادِيث، وَيَسمع الوعّاظ وَالمُرشدِين، وَمَع ذَلِكَ يَعْرض وَيَنأىٰ بجَانِبه، وَلاَ يَزيدَه الوَعد وَالوَعِيد إلاّ إصرَاراً وَخسَاراً، ذَلِكَ أَنَّ المُرغبَات وَالمُشوقَات لَمْ تَخْلق فِيهِ المَيل وَالإرَادَة لفِعْل الخير وَتَرك الشَّر... وَبَدِيهَة أَنَّ الإرَادَة لَيسَت أَمرَاً آختِيَاراً، وإنَّمَا تَنْشَأ مِن ظُرُوف وَمُلاَبسَات لاَ يُسَيطر الإنْسَان عَلىٰ شَيء مِنْهَا، وإذَا لَمْ تَكُن الإرَادَة بالقُدرَة وَالإختِيَار يَكُون الصَّادر عَنْهَا كَذلِكَ... لاَ يَدخل تَحْت القُدرَة، وعَلَيه يَكُون الإنْسَان مُسيّراً غَيْر مُخيّر، لاَ حِيلَة وَلاَ وَسِيلَة، فَكَيف سَاغ سُؤاله وَعقَابه؟.

(١) فُصِّلَتْ: ٤٦.

هَذَا، مِن نَاحيَة، وَمِن نَاحيَة ثَانيَة أنّ الله سُبْحَانه قَادر عَلىٰ عِبَاده، وَأفعَالهم وَترُوكهم فَإذَا أرَاد الخَير وَكَره الشَّر مِنْهُم فَلمَاذَا لاَ يَحملهُم عَلىٰ فِعْل ذَاك، وَتَرك هَذَا؟.

وَجَوَابنَا عَن الجِهَة الأُولىٰ وَهي: أنّ مَعْنَىٰ الإنْسَان مُسَيّر غَير مُخَيّر؟ أنَّ الفِعل يَصْدر عَنْهُ بإرَادَته وَٱخْتيَاره، وهَذَا مَا حَصَل بالوجدَان. أَمّا أنَّ الإرَادَة قَد صَدَرت بدُون إرَادَة وَٱخْتيَار فكَلام آخر... عَلىٰ أنَّ الإرَادَة، وَإنْ كَانَت أمراً قَهريّاً لاَ أسبَاب لهَا بصِلَة إلىٰ الإخْتيَار، فَإنْ تَرتِيب الأَثَر عَلَيهَا، وَالإنْدفَاع وَرَاءهَا أَمر ٱخْتيَاري لاَ يَخرج مِن الطَّاقَة وَالمَقْدرَة، فَلَقد رَأينَا المَريض يَحجم عَن الطَّعَام المُضرّ، وَهُو مُريد لَهُ، وَيَشرَب الدَّواء المُرّ، وَهُو كَاره لشُربه، وَرَأينَا العُقلاَء يَذمُون الطَّالب الكَسُول عَلىٰ كَسَله، مَع عِلْمِهِم. بأنّه مُريد للكَسَل، وَأنّ الإرَادَة قَهريَة لاَ إرَاديّة، وَرَأينَاهُم يَذمُون المُجرم، وَيُعَاقبُونه، وَهُم يَعلمُون أنّ الجَرِيمَة صَدَرت عَن إرَادَته، بَل أنّ إرَادَته هَذِه أدعىٰ وَأوكَد عِنْدَهُم للعِقَاب، بَل هِي المُسوغ وَالمُبرر لهُ فالإرَادَة ـ إذَن ـ أشبَه بالحَسَد، وَالطِّيرَة، وَالوَسوسَة الّتي نَهىٰ الرَّسُول الأَعظَمﷺ عَن العَمَل بمُوجبهَا، لأنّه مَقدُور، وَلَم يَنْه عَن هَذِه الصِّفَات، لأنّها قَهريَة لاَ ٱخْتيَاريَة. قَالﷺ: «رُفِع عَن أُمَّتي تِسْعَة: «الخَطأ، وَالنِّسيَان، وَمَا أُكرِهُوا عَلَيْهِ، وَمَا لاَ يَعْلمُون، وَمَا لاَ يُطيقُون، وَمَا ٱضطرُوا إليهِ، وَالحَسَد، وَالطِّيرَة، وَالتَّفكِير فِي الوَسوَسَة فِي الخَلق مَا لَم يَنطق بِشِفَه»[1].

(١) أُنظر، الكَافِي: ٢ / ٦٣ ح ٢، تُحف العُقُول: ٥٠، مَن لاَ يَحضرَه الفَقِيه: ١ / ٣٦٥، وَسَائِل الشِّيعَة: ١٥ / ٣٦٩ ح ١، مَجمَع الفَائِدة: ٥ / ٦٠، الإخْتصَاص لِلشَّيخ المُفِيد: ٣١، الخِصَال لِلشَّيخ الصَّدوق: ٢ / ٤١٧ ح ٩، التَّوحِيد لِلصَّدوق: ٣٥٣ ح ٢٤.

فَلَم يَنْه عَن الحَسَد وَالطِّيرَة بالذَات، بَل نَهىٰ عَن أثرهُما بمُوجبهُما.

أَمَّا جوَابنَا عَن الجِهَة الثَّانيَة: فَهُو أنّ الله أَرَاد الفِعْل وَالتَّرك مِن الإِنْسَان برضَاه وَاَخْتيَاره، بحَيْث يَفْعَل الخَير، وَهو قَادر عَلىٰ تركَه، وَيَترك الشَّر، وهُو قَادر عَلىٰ فِعْلَه، وَإلاّ لَو أُلجيء إِلىٰ الفِعْل فَقَط، أَو التَّرك فَقط لاَنْتفَت عَنْهُ الإِنْسَانيّة، وَأَصبَح آلَة صَمّاء لاَ يَسْتَحق مَدحَاً وَثوَابَاً وَلاَ ذَمّاً وَعقَابَاً.

ثُمَّ إِنّ اَخْتيَار الإِنْسَان فِي فِعْل مَا أَمر الله بهِ. وَتَرك مَا نَهىٰ عَنْهُ لاَ يَتنَافىٰ أَبدَاً فِي أَنْ يَكُون فِي ظُرُوف خَاصّة تَخرج عَن إِرَادَته، وَأَنْ يَكُون لهَذه الظّرُوف نَوع مِن التَّأثير فِيمَا يَفْعَل، أَو يَتْرك وإِلَيكَ هَذَا المِثَال:

رَجُل جَائع دُعيَّ إِلىٰ شهَادَة الزُور لقَاء مَبْلَغ مِن المَال، فَهُو مِن جِهَته هَذِة يَبدُو أَنّه مُضْطَر إِلىٰ الكَذِب، وَلَكنّه مِن جِهَة ثَانيَة يَسْتَطِيع أَنْ يَضغَط عَلىٰ إِرَادَته، وَيَصبر يَوْمَاً أَو بَعْض يَوْم، وَيَجْتَهد فِي البَحْث عَن سَبِيل مَشرُوع، وَيَطرق مِن أَجْله كُلّ بَاب، فَإِا تَعَجّل وَلَم يَصْبر كَان آثمَاً وَإِنْ كَان جُرمه دُون جُرم المُتْخَمِين، أَمّا إِذَا صَبَر وَلَم يَشْهَد فَيُضَاعف لهُ الأَجر مَرّتَين، مَرّة عَلىٰ التَّرك، وَأُخرىٰ عَلىٰ الصَّبر.

وَفِي هَذِه الحَال تُعْرَف الرّجَال، وَتَميّز الدِّين الصَّحِيح مِن الزَّائِف، وَالإِيمَان القَوي مِن الضَّعِيف، فالمُؤمِن حَقّاً يُطِيع الله فِي العُسر وَاليُسر، والصّحَة وَالمَرض، وَالرِّضا وَالغضَب، لاَ فِي حَال دُون حَال، قَالَ الإِمَام زَين العَابدِين عليه السلام: «أَللَّـهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَارْزُقْنِي التَّحَفُّظَ مِنَ الْخَطَايَا، وَالإِحْتِرَاسَ مِنَ الزَّلَلِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فِي حَالِ الرِّضَا وَالْغَضَبِ، حَتَّىٰ أَكُونَ بِمَا يَرِدُ عَلَيَّ مِنْهُمَا بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، عَامِلاً بِطَاعَتِكَ، مُؤْثِراً لِرِضَاكَ عَلَىٰ مَا سِوَاهُمَا فِي الأَوْلِيَاءِ وَالأَعْدَاءِ، حَتَّىٰ

يأمَنَ عَدُوِّي مِنْ ظُلْمِي وَجَوْرِي »[١].

وَبَيْت القَصِيد فِي هَذِه المُنَاجَاة هُو قَوْله عليه السلام : « مُؤْثِراً لِرِضَاكَ عَلَىٰ مَا سِوَاهُمَا فِي الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَعْدَاءِ » ، فَلاَ يَجْحَد لعَدوّه مِن خُلق وَفَضل ، وَلاَ يُنْسَب إِلَيهِ مَا لَيْسَ فِيهِ مِن سُوء وَجَهل تَشفيّاً وَانْتِقَاماً ... وَلاَ أَعْرف مُختبراً لمَن يَدعي النّيَابَة عَن الْإِمَام أَصحّ وَأَدق مِن هَذَا المُخْتَبر ، وَلاَ مِيزَاناً لْإِيمَانه أَعدَل وَأَصدَق مِن هَذَا المِيزَان أَنَّ الَّذي يُنَفس عَن غَضَبه بتَجرِيح الْأَبريَاء وَإِيذَائهم لَيْسَ مِن الله فِي شَيء ، فَكَيف بمَن يُلّون هَذَا التَّجرِيح وَالْإِيذَاء بلَون الدِّين ، وَيَزعَم أَنّه بوَحي مِن الله وَرَسُوله ؟ ... تَعَالىٰ الله وَرَسُوله عَن ذَلِكَ عُلُوّاً كَبِيراً .

لاَ حُجّة وَلاَ عُذر :

وَأُعقّب عَلىٰ مَا قَدّمت مِن أَنَّ الْإِنْسَان مُخيّر مُسَيّر بهَذِه الحُجّة البَالغَة الَّتي أَودَعها الله عِنْدَ أَوليَائه وَأَحبَائه ، قَالَ الْإِمَام زَين العَابدِين عليه السلام : « وَضَعَ عَنَّا مَا لاٰ طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَلَمْ يُكَلِّفْنَا اِلاّ وُسْعاً ، وَلَمْ يُجَشِّمْنَا اِلاّ يُسراً ، وَلَمْ يَدَعْ لِأَحَدٍ مِنَّا حُجَّةً ، وَلاٰ عُذْراً »[٢].

(١) أنظر ، الصَّحِيفَة السَّجَّاديّة : الدُّعَاء الثَّانِي وَالعُشرُون (دُعَاؤُهُ عِنْدَ الشِّدَّةِ) . بتحقّيقنَا .

(٢) أنظر ، الصَّحِيفَة السَّجَّاديّة الدُّعاء الأَوّل (التّحْمِيدُ للّهِ عَزَّ وَجَلّ) . بتحقّيقنَا .

مَيْتَة السُّوْء

قَضَت الحِكْمَة الإِلٰهيَة أَنْ لاَ يَعْلَم الإِنْسَان، حَتَّىٰ سَيِّد الْأَنْبيَاء وَالرُّسُل مَتىٰ يَأتِيه أَجْلَه، فَإِذَا خَرَج مِن بَيْتَه لاَ يَضْمن أَنْ يَعُود إِلَيهِ، وإِذَا دَخَله لاَ يَدْري: أَيَخرُج مِنْهُ وَاقفاً عَلىٰ قَدَمَية، أَو مَحمُولاً عَلىٰ الْأَعوَاد، بَل فِي كُلّ ثَانيَة يَرتَقب أَنْ لاَ يَبْلغ الَّتي بَعدهَا، وَيَبقىٰ حَيّاً ليَأخذ النَّفْس الثَّاني، حَتَّىٰ وَلو كَان فِي مُقْتَبل العُمر سَلِيمَاً مِن الْأَعرَاض وَالْأَمرَاض... هَذِه حَقِيقَة وَاقعَة تَـنَبهنَا إِلَيْهَا، أَو لَمْ نَتْنبه، عَمَلنَا بمُوجبهَا، أَو لَمْ نَعْمَل... أَنّها تُلاَزم طَبيعَة الحَيَاة بمَا هِي، وَلاَ تَخْتَلف بِإِخْتلاَف الظُّرُوف وَالمُلاَبسَات.

وَقَد سَأل الإِمَام زَين العَابدِين رَبّه جَلّ وَعزّ أَنْ لاَ يَنأىٰ بِهِ عَن هَذِه الحَـقِيقَة، وَأَنْ يَجْعَلها نَصْب عَينَيه أَبدَاً وَدَائِمَاً فِي جَمِيع أَعمَاله وَتَصرفَاته، قَالَ: «أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحمَّدٍ وَآلِهِ، وَٱكْفِنَا طُولَ الْأَمَلِ، وَقَصِّرْهُ عَنَّا بِصِدْقِ الْعَمَلِ حَتَّىٰ لاٰ نُؤَمِّلَ ٱسْتِتْمَامَ سَاعَةٍ بَعْدَ سَاعَةٍ، وَلاٰ ٱسْتِيفَاءَ يَوْمٍ بَعْدَ يَوْمٍ، وَلاٰ ٱتِّصَالَ نَفَسٍ بِنَفَسٍ، وَلاٰ لُحُوقَ قَدَمٍ بِقَدَمٍ»[1].

وَمَرّة ثَانيَة وَثَالثَة أَعد مَعي - أَيّها القَارِيء - هَذِه المُنَاجَاة، فَإِنّها حَتمَاً

---

(١) أُنظر. الصَّحِيفَة السَّجَّاديَّة الدُّعَاء الأَرْبعُون (دُعَاؤُهُ عِنْدَ ذِكْرِ الْمَوْتِ). بتَحقِّيقنَا.

ستُخفف مِن غلوَاء نَفْسك، وَتَكبَح مِن جمَاحهَا وَكبريَائهَا، إنْ حَاوَلت أَنْ تَشطَح وَتَطفح، وأَنَّهَا سَتَصْبر وَتَنْتَظر ـ لاَ محَالة ـ إذاَ بُليت بالمَصَائِب وَالمتَاعب كرّر هَذِه المُنَاجَاة صَبَاح مَسَاء فَإنّها وَسِيلَة إِلىٰ التَّوَاضع وَالخشُوع، وإِلىٰ الإيْمَان وَالتُّقىٰ، والحُبّ وَالتَّسامُح.

أَنَّ العَاقِل إذاَ وَضَع المَوْت نُصْب عَينيَه عَمل بوَحي مِنْهُ، تَمَامَاً وَالسَّيف مُسلّط عَلىٰ رَأسه، وهَذَا أحد الفُرُوق بَيْنَ مَن عَمِل عَلىٰ أَسَاس الشّعُور بالمَسئوليّة وَالحسَاب بَعد المَوْت، وبَيْنَ مَن عَمِل بدُون هَذَا الشّعُور غير مُكترث بشَيء.

فَالأوّل لاَ يَخْشىٰ المَوْت، بَل يَطْلبهُ وَيَأنس بهِ، لأنّه وَاثِق بمَا أعدّه الله لهُ مِن الخيرَات، المَسرّات، تَمَامَاً كالبَرىء يُنْشد العَدَالة وَيَستَعجلهَا.... حِين رَأت فَاطمَة عليها السلام أَبَاهَا يجُود بنَفْسه، صَاحَت «وَأَبَاه»!!

فَقَالَ لهَا الرَّسُول الأَعْظَم صلى الله عليه وآله وسلم: «لاَ خَوف عَلىٰ أَبِيك بَعْد المَوْت»[1].

وقَالَ عَليّ أَمِير المُؤمِنين عليه السلام حِين ضَرَبهُ ٱبن مُلْجَم: «فُزتُ وَرَبِّ ٱلْكَعْبَة»[2].

---

(١) أُنظر، مِيزَان الإعْتِدَال: ٣ / ١٣٥، بشَارة المُصْطفىٰ: ٣٥٣، فَتح القَدِير: ٣ / ٢٢٤، جَوَاهر المطَالب فِي مناقب الإمَام عَليّ لِابْن الدّمَشقِي: ١ / ١٥٦، ينَابيع المَودَّة: ١ / ١٣٨، الإمَامة وَالسِّيَاسَة: ١ / ١٢، أَنسَاب الأشرَاف: ١ / ٥٨٦، الرِّيَاض النّضرَة: ١ / ١٦٧، السَّقِيفَة للجَوهري برِوَاية شَرح النّهج لِابْن أَبي ٱلحَدِيد: ٢ / ١٣٢، تَأرِيخ الخَمِيس: ١ / ١٧٨، الدُّر المَنثُور: ٤ / ١٧٧، لُبَاب النّقول للسّيوطي: ١٢٣، الكَامِل فِي التّأرِيخ: ٥ / ١٩١.

(٢) أنظر، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٥ / ١٤٣، مقَاتل الطّالبيِّين: ٢٩ و٤٧، طَبقَات ٱبن سَعد: ٣ / ٣٥، أَنسَاب الأشرَاف: ٢ / ٤٨٩ و٤٩٩ و٥٢٤، مُرُوج الذّهب: ٢ / ٤١١، الإمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١ / ١٥٩، الكَامِل فِي التّأرِيخ: ٣ / ٣٨٩، مناقب الخوَارزمي: ٣٨٠ ـ ٤١٠، مناقب ٱبن شهرآشُوب: ٣ / ٣١١، تَأرِيخ ٱبن عَسَاكر: ٣ / ٣٦٧ ح ١٤٢٤، أَنسَاب الأشرَاف: ١ / ٤٨٨ و٤٩٠، تَأرِيخ دِمَشق: ٣٨ / ٩٧، ↔

وَقَالَ ﷺ: « وَاللهِ لاَبْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ »[١].

وَالسّر هُو الثّقَة بالرَّاحَة وَالثَّوَاب بَعْد المَوْت. عَلىٰ عَكْس الثَّاني، فَإنّه يَكـرَه المَوْت وَذِكرَه، وَيَسْتَوحش مِنْهُ وَمِن تَصورَه، لأَنّه يَسعُو بِهِ إِلىٰ الحسَاب وَيفْتَح عَلَيه بَاب الخِزي وَالعَذَاب، قَالَ سَيِّد السَّاجِدِين وَإِمَام العَـابِدِين: « أَللَّـهُمَّ صَـلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاكْفِنَا طُولَ الأَمَلِ، وَقَصِّرْهُ عَنَّا بِصِدْقِ الْعَمَلِ حَـتَّىٰ لا نُـؤَمِّلَ اسْتِتْمَامَ سَاعَةٍ بَعْدَ سَاعَةٍ، وَلا اسْتِيفَاءَ يَوْمٍ بَعْدَ يَوْمٍ، وَلا اتِّصَالَ نَفَسٍ بِنَفَسٍ، وَلا لُحُوقَ قَدَمٍ بِقَدَمٍ وَسَلِّمْنَا مِنْ غُرُورِهِ، وَآمِنَّا مِنْ شُرُورِهِ، وَانْصِبِ الْمَوْتَ بَيْنَ أَيْدِينَا نَصْباً، وَلا تَجْعَلْ ذِكْرَنَا لَهُ غِبّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ صَالِحِ الأَعْمَالِ عَمَلًا نَسْتَبْطِئُ مَـعَهُ الْمَصِيرَ إِلَيْكَ، وَنَحْرِصُ لَهُ عَلَىٰ وَشْكِ اللَّحَاقِ بِكَ حَتَّىٰ يَكُونَ الْمَوْتُ مَأْنَسَنَا الَّذِي نَأْنَسُ بِهِ، وَمَأْلَفَنَا الَّذِي نَشْتَاقُ إِلَيْه وَاجْعَلْهُ بَاباً مِنْ أَبْوَابِ مَغْفِرَتِكَ، وَمِفْتَاحاً مِنْ مَفَاتِيحِ رَحْمَتِكَ أَمِتْنَا مُهْتَدِينَ غَيْرَ ضَالِّينَ، طَائِعِينَ غَيْرَ مُسْتَكْرِهِينَ، تَائِبِينَ غَيْرَ عَـاصِينَ وَلا مُـصِرِّينَ، يَـا ضَـامِنَ جَـزَاءِ الْـمُحْسِنِينَ، وَمُسْـتَصْلِحَ عَـمَلِ الْمُفْسِدِينَ »[٢].

لَيْسَت مِيتَة السُّوء أَنْ يَمُوت المَرء خَنْقاً بالغَازَات السَّامة، أَو دَفناً تَحْت الرّكَام وَالحطَام، أَو غَرقاً فِي البحَار والأَنْهَار أَو دَهساً بالشَّاحنَات وَالقطَارَات أَو سقُوطاً مِن عُلوّ... أَنَّ مِيتَة السُّوء أَنْ يَمُوت المَرء، وَالله عَنْهُ غَير رَاض وَإنْ يُلاَقِيه بسَوَاد

و: ٣/٣٠٣ ح ١٤٠٢ وَمَا بَعدهَا. كَنْز العُمَّال: ١٣/٦٩٧. الْفَتْح الرَّبَاني: ٢٣/١٦٣. والْحَاكِم فِي المُسْتَدرَك: ٣/١٤٤. ذَخَائِر العُقبَىٰ: ١١٠. الصَّوَاعِق المحرِقَة: ١٣٣. الْفُتُوح لِابْن أَعْثَم: ٢/٢٧٦. الاِسْتِيعَاب: ٣/٥٩. أُسد الغَابَة: ٤/٣٨. يَنَابِيع المَوَدَّة: ١٦٤. أرجَح المطَالب: ٦٥١.

(١) أنظر، شَرح الخُطْبَة: (٥).

(٢) أُنظر، الصَّحِيفَة السَّجَّاديَّة الدُّعَاء الأَرْبعُون (دُعَاؤُهُ عِنْدَ ذِكْرِ الْمَوْتِ). بتَحقِيقنَا.

الوَجه، وَبذنُوب كِبَار ثِقَال.

أَمّا مِيتَة العِزّ وَالخَير فَهي الَّتي طَلبهَا الإمَام زَين العَابدِين عليه السلام مِن رَبّه جَلّ وَعزّ قَالَ: «أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَٱقْبِضْ عَلَىٰ ٱلصِّدْقِ نَفْسِي، وَٱقْطَعْ مِنَ ٱلدُّنْيَا حَاجَتِي، وَٱجْعَلْ فِيمَا عِنْدَكَ رَغْبَتِي، شَوْقاً إِلَىٰ لِقَائِكَ، وَهَبْ لِي صِدْقَ ٱلتَّوَكُّلِ عَلَيْكَ»[1].

فَمَن مَات عَلىٰ الحَقّ وَالصِّدق رَاغباً بعَمَله فِيمَا عِنْدَ الله، مُنْقَطعاً عَمّا سِوَاه مَات عَزِيزاً مُكرّماً، وَإِنْ لَمْ يُشَيّعهُ المُشيعُون، وَيَمدَحهُ المُؤبنُون.

(١) أنظر. الصَّحِيفَة السَّجَّاديَّة الدُّعَاء الرَّابع وَالخَمْسُون (دُعَاؤُهُ فِي ٱسْتِكْشَافِ الْهُمُومِ). بتَحقِّيقنَا.

إرْحَم نَفْسَك

لنَفْتَرض وجُود رَجُلَين: أَحَدهُما مِن أَصْحَاب المَلاَيِّين، وَالجَاه الطَّوِيل العَرِيض، والأَخِير يُهِيم فِي الأَرْض، وَلاَ يَأتي بخَير، قَد أُغْلقَت فِي وَجْهِهِ جَمِيع الأَبوَاب، وَفَشَل فِي كُلّ شَيء، حَتَّىٰ تَحطّمت أَعْصَابه، وَحَاول الإِنْتحَار لأَنّه السَّبِيل الوَحِيد لخَلاَصَه فِيمَا يَرىٰ.

فَقَال لهُ صَاحب الجَاه وَالمَال: مَهلاً، فَإِنّ عِنْدَي جَمِيع مَا تَبْتَغِيه، وَأَنَا عَلىٰ أَتَم الإِسْتعدَاد لأَمْنحَك الثَّرَاء وَالكَرَامَة بلاَ ثَمَن وَلاَ آمْتنَان، عَلىٰ شَرِيطَة أَنْ تَكُون طَيباً حَسَن السِّيرَة مَع النَّاس، مَمدُوحاً وَغير مَذمُوم مِن مَعَارفك... وهَذَا الشَّرط ـ كَمَا تَرىٰ ـ فَضل عَلىٰ فَضل، وَنُور عَلىٰ نُور... فَإِا رَفَض هَذَا العَطَاء المَشرُوع لخَيرَه وَمَصلَحته فَهُو مَجنُون، وَإِنْ تَقَبلهُ وَلَم يَعْمَل بهِ فَهُو خَائِن مُحتَال، أَو ضَعِيف لاَ يَستَاهل الحَيَاة، وَلاَ شَيء مِنْهَا فِي مَنْطق العُقلاَء.

وَقَد وَهَب الله سُبْحَانه الوجُود والحَيَاة للإِنْسَان، وَلَم يَكُن شَيئاً مَذكُوراً وَمَنحهُ السَّمع، وَالبَصَر، وَالفُؤاد، وَأَعطَاه دُنيَا تَزْخَر بالخَير وَالهَنَاء، وَتُفِيض بالجَمَال وَالبَهَاء، أَعطَاه الكَوْن بأَرْضه وَسَمَائه، وَجَمِيع كَوَاكبه، وقَالَ لهُ، تَمَتّع بِهِ كَمَالِك أَصِيل، لاَ كَضَيف خَفِيف أَو ثَقِيل، وَلاَ أَبْتَغي مِنْك جَزَاء وَلاَ عُوضاً، وَإِنَّمَا الَّذي أُرِيدَه شَيء وَاحد، وهُو عَلَيكَ سَهل يَسِير، فَلَيْسَ مِن شَأني التَّكلِيف بمَا لاَ

يُطَاق... وَلاَ ضَرَر عَلَيكَ فِيهِ وَلاَ حَرَج، إذْ لاَ ضَرَر وَلاَ حَرَج فِي شَرعي وَشَرِيعَتي، وَلاَ يحطّ شيئاً مِن كَرَامتك، فَلقَد كَتَبتُ عَلىٰ نَفْسي الرَّحمَة وَالكَرَامَة للبَشرِيَة جَمعَاء، وَهَذَا الَّذي أدعُوك إلَيهِ هُو عَيْن مَا يَأمر بِهِ العَقْل وَالضَّمِير، لأَنّه يَعُود عَلَيكَ وَحدَك بالنَّفع الجَزِيل، وَلاَ يَنَالني مِنْهُ كَثِيراً وَلاَ قَلِيلاً، فَأنَا غَنيّ عَن كُلّ شَيء، وَلاَ غَنىٰ عَنيّ لشَيء.

أُرِيد أَنْ تَكُون صَادقَاً فِي أَقوَالك، مُخلصاً فِي أَفعَالك، تُنزّه نَفْسَك عَن الحِقد وَالضَّغِينَة، وَعَن كُلّ مَا يُشِين، إنْ لَمْ تَسم بهَا إلىٰ ذُرىٰ الفَضَائل وَالمُكرمَات لَقَد خَلَقتُك إنْسَاناً سَوِيّاً، فَلاَ تَنْتَحل صِفَات الأَفَاعي وَالثَّعالب، إنّي أُرِيدُك عَادِلاً لاَ ظَالمَاً، وَصَرِيحَاً لاَ مُرَاوغَاً، وَمُحبّاً للإنْسَان لاَ عَدوّاً للإنْسَانيَة، لأَنّك بهَذَا تُعَادي نَفْسَك بنَفْسك، بَل أُرِيدك مُحبّاً لكُلّ شَيء، لأَنَّ الإنْسَانيَّة تتّسع لكُل شَيء.

هَذَا هُو عَطَاء رَبّك الَّذي لاَ تَجدهُ عِنْدَ غَيره... حَيَاة وَكَون وَعَقل، تَشتَغله لهَنَائك وَسعَادتك، وهَذَا شَرْطه جَلّ وَعزّ، وهُو أَنْ تُحَافظ، وَتَحتَفظ بالخَير لنَفْسك، وَتُثْبت أَنّك جَدِير بهِ، وأَهْل لَهُ، تمَامَاً كالوَارث العَاقل الَّذي يَحفَظ الثَّرَاء المَورُوث، وَيَصُونه عَن التَّلف وَالضَّيَاع ليَتَمتع بهِ وَبمَنَافعَه، قَالَ الإمَام زَين العَابدِين عليه السلام: «وَالْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي رَكَّبَ فِينَا آلاتِ الْبَسْطِ، وَجَعَلَ لَنَا أَدَوَاتِ الْقَبْضِ، وَمَتَّعَنَا بِأَرْوَاحِ الْحَيَاةِ، وَأَثْبَتَ فِينَا جَوَارِحَ الأَعْمَالِ، وَغَذَّانَا بِطَيِّبَاتِ الرِّزْقِ، وَأَغْنَانَا بِفَضْلِهِ، وَأَقْنَانَا بِمَنِّهِ»[١].

وَلَيسَ مِن شَكّ أَنَّ مَن يُخَالف عَن أَمر الله ـ بَعْد هَذِه النِّعم ـ وَلَم يُؤدّه عَلىٰ وَجْهه فَإنّ فِيهِ خَللاً وَشذُوذاً... وَلَيت شِعري بَأي شَيء يَتَذرّع مَن لَمْ يَسمَع

---

(١) أنظر، الصَّحِيفَة السَّجَّاديَّة الدُّعَاء الأوَّل (التَّحمِيدُ للّٰه عَزَّ وَجَلّ). بتَحقِّيقنَا.

وَيَمتَثل ؟ . هَل يَجْحَد الخَالِق مِن الأَسَاس ؟ . إذَن ، فَقَد نَصّب نَفْسَه قَاضِيَاً يَحكُم عَلىٰ الله والكَوْن بغَير عِلْم وَلاَ هُدىٰ ، وهَـذَا هُـو النَّـقص وَالخَـلل . ولَـيْسَ مِـن الضَّرُورَة إذَا كَان شَاذاً مِن جِهَة أَنْ يَكُون كَذَلك مِن كُلّ الجِهَات . . . فَلَقد وَصَف الله سُبْحَانه الجَاحِدِين بالعَمىٰ ، وَالبُكم ، وَالصّـم ، وَعَـدم الإِدْرَاك مَـع العِـلْم بأَنّـهم يُبصرُون وَيَسمعُون وَيَتكلمُون وَيَعقلُون أَشيَاء وَأَشيَاء ، قَالَ عزّ مَن قَائِل : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَايَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَايَعْقِلُونَ﴾[1] .

وَتَقُول مَا دَام الله تَبَارك اسمه قَد أَمر الإِنْسَان بمَا فِيهِ خَيرَه وَصَلاَحه فَلمَاذَا لاَ يُعَاجلهُ بالعُقوبَة فِي هَذِه الحَيَاة إذَا خَالَف وَلَم يَطع ، ليَتّعظ هُو وَكُلّ مَـن خَـالَف وَتَمرد ، وَيَقف الجَمِيع عِنْدَ حدُود الله وَتَعَالِيمه ؟ .

الجَوَاب :

أَوّلاً : لَو عَجّل الله العقُوبَة للعَاصي لبَـطَل الثّـواب وَالعِـقَاب ، وَسَـقط الوَعـد وَالوَعِيد وَلمّا كَان لفَاعل الخَير مِن فَضل ، لأَنَّ مَن فَعَل قَهرَاً كَـمَن تَـرَك عَـجزَاً ، كلاَهُما لاَ يَستَحق مَدحَاً وَلاَ ثوَاباً . . . أَنّ الله سُبْحَانه أَرَاد مِن الإِنْسَان فِعْل مَا أَمرَ بِهِ ، وَتَرك مَا نَهىٰ عَنْهُ اختيَاراً لاَ إكرَاهاً ، وَتَخيراً لاَ إجبَاراً .

ثَانِيَاً : أَنّ قِيَام الحُجّة عَلىٰ العَاصي لاَ يَنْحَصر بتَعجِيل العُقُوبَة لهُ ، فَإِنّ الحُجَج الّتي أَقَامها الله جَلّ وَعزّ مِن إرسَال الرُّسل ، وَقيَام الآيَات البَالغَة لاَ يُحصِيهَا العَدّ .

ثَالثَاً : إنّ أَرجَاء العقُوبَة إنّمَا هُو رِفق بالعَاصي ، وَلمَصْلحَته بالخصُوص ، كَـي يَسْتَدرك ، وَيَرجع إلَىٰ رَبّه ، وَيَتُوب مِن ذنُوبه ، قَالَ الإِمَام زَين العَابدِين عليه السلام :

---

(١) البَقرَة : ١٧١ .

« فَأَمَّا الْعَاصِيْ أَمْرَكَ ، ـ الخِطَاب لله جَلّ وَعَلاَ ـ وَالْمُوَاقِـعُ نَهْيَكَ ... فَلَمْ تُعَاجِلْهُ بِنَقِمَتِكَ ، لِكَيْ يَسْتَبْدِلَ بِحَالِهِ فِي مَعْصِيَتِكَ ... حَالَ الإِنَابَـةِ إِلَىٰ طَـاعَتِـكَ ، وَلَقَـدْ كَـانَ يَسْتَحِقُّ فِي أَوَّلِ مَـا هَمَّ بِعِصْيَانِكَ كُلَّ مَا أَعْدَدْتَ لِجَمِيعِ خَلْقِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ، فَجَمِيعُ مَا أَخَّرْتَ عَنْهُ مِنْ وَقْتِ الْعَذَابِ ، وَأَبْطَأْتَ بِهِ عَـلَيْهِ مِـنْ سَـطَوَاتِ النَّـقِمَةِ وَالْعِقَابِ ... تَرْكٌ مِنْ حَقِّكَ ، وَرِضىً بِدُونِ وَاجِبِكَ . فَمَنْ أَكْرَمُ مِنْكَ يَا إِلٰهِي » [١] .

وَقَالَ : « وَإِنْ أَهْلَكْتَنِي فَمَنْ ذَا الَّذِي يَعْرِضُ لَكَ فِي عَبْدِكَ ، أَوْ يَسْأَلُكَ عَنْ أَمْرِهِ ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي حُكْمِكَ ظُلْمٌ ، وَلاَ فِي نِقْمَتِكَ عَجَلَةٌ ، وَإِنَّـمَا يَـعْجَلُ مَـنْ يَخَافُ الْفَوْتَ ، وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى الظُّلْمِ الضَّعِيفُ ، وَقَدْ تَعَالَيْتَ يَا إِلٰـهِي عَـنْ ذالِكَ عُلُوّاً كَبِيراً » [٢] .

وَبَعْد ، فَإِنّ أَفْضَل الشُّكر لله ، وعِنْدَ الله أَنْ تَرحَم نَفْسَك ، وَتُحليهَا بِـمَا يُـزِين ، وَتَبْتَعد بهَا عَمّا يُشِين ، وَبهٰذَا وَحدَه يَسْتَخلصك الله لنَفْسه ، وَيُقرّبك مِن رَحْمَته .

الحَجّاج :

نُقل عَن الحَجّاج أَنّه قَالَ : أَمَرنَا الله بطَلب الآخرَة وَضَمن لنَا مُؤونَة الدُّنْيَا فـيَا لَيتَه ضَمِن لنَا الآخرَة ، وَأَمرنَا بطَلَب الدُّنْيَا ، وَحِين نُـقل قَـوْله هَـذَا إِلىٰ الحَسَـن البَصْري قَالَ : « ضَالَة مُؤْمِن عِنْدَ فَاسِق » .

وَإِنْ دَلّ هَذَا عَلىٰ شَيء فَإِنّما يَدل عَلىٰ غبَاوَة البَصْري وَغفلَته ، وعَلىٰ حِرص الحَجّاج عَلىٰ الدُّنْيَا ، وَاهْتمَامه بهَا ، وَإِعرَاضه عَن الله والآخرَة ، وَلَو فَعَل الله ذَلِكَ

---

(١) أنظر ، الصَّحِيفَة السَّجَّاديّة الدُّعَاء السّابع وَالثّلاَثُون (دُعَاؤهُ فِي الشُّكرِ) . بتَحقيقنَا .

(٢) أنظر ، الصَّحِيفَة السَّجَّاديّة الدُّعَاء الثَّامِن وَالأَرْبعُون (دُعَاؤهُ فِي يَوْمِ الأَضحىٰ وَالْجُمُعَةِ) . بتَحقيقنَا .

لتكالب النّاس علىٰ الدُّنيا وتقاتلُوا عليها أضعاف أضعاف ما يفعلونه الآن، ولما عُرف الصّالح مِن الطّالح، والحقّ مِن الباطل. ولما لُعن الحجّاج وأسيادَه علىٰ كُلّ لسان إلىٰ يوم يُبعثون، وهذا ما يهدف إليهِ الحجّاج... وإذا كان الله سُبحانه لم يضمن الآخرة للحجّاج، ومع ذلك فعل ما فعل، وملأ الدُّنيا ظُلماً وجوراً، فكيف لو ضمنها لهُ ولأمثاله(١)؟!..

---

(١) كان الحجّاج سفاكاً بطبعه، يقتل النّاس حتّىٰ الشيوخ والصّبيان لا لشيء إلاّ حُبّاً بالقتل وإراقة الدّماء، يقول صاحب مُروج الذهب، وصاحب العقد الفريد في أقوال النّاس في الحجّاج: (أُحصي مَن قتلهُم الحجّاج صبراً سواء مَن قتل في حرُوبه فكانوا (١٢٠) ألفاً، وكان في حبسه (٥٠) ألف رجلاً، و(٣٠) ألف إمرَأة ستة عشر منهُن عاريات، وكان يُطعم المساجين كما يقول ابن الجوزي في تاريخه، الخبز ممزُوجاً بالرّماد). وجاء في العقد الفريد أيضاً علىٰ لِسان عُمر بن العزيز: (لو جاء النّاس يوم القيامة بفساقهم، وجئنا بالحجّاج لزدُنا عليهم). وكانت تُهمَة التّشيُّع المبرر الوحيد لضرب الأعناق، وفي عهده كان أحبّ إلىٰ الرّجل أنْ يُقال لهُ: زنديق، وكافر مِنْ أنْ يُقال لهُ: شيعي!...

أنظر، شرح النّهج لابن أبي الحديد: ٣/ ١٥.

«قالَ الإمام مُحمّد الباقر: قُتلت شيعتنا بكُلّ بلد، وقُطعت الأيدي والأرجُل علىٰ الظنّة، وكان مَنْ يُذكر بحبّنا والإنقطاع إلينا سُجن أو نُهب ماله، أو هُدّمت دارَه، ثُمّ لمْ يزل البلاء يشتد، ويزداد إلىٰ زمَن عُبيدالله بن زياد قاتل الحُسين، ثُمّ جاء الحجّاج، فقتلهُم كلّ قتله، وأخذهُم بكُلّ ظنّة وتُهمة حتّىٰ أنّ الرّجل ليُقال لهُ: زنديق أو كافر أحبّ إليه مِنْ أنْ يُقال شيعة عليّ».

أُنظر، شرح النّهج لابن أبي الحديد: ١١/ ٤٤.

أُتىٰ للحجّاج برجُلين مِنْ شيعة عليّ، فقال لأحدهُما: ابرأ مِنْ عليّ. فقال لهُ: وماذا فعل حتّىٰ أبرأ منهُ؟. قالَ: قتلني الله إنْ لمْ أقتلك، فاختر لنفسك قطع يديك أو رجليك. فقال لهُ الرّجُل: اختر أنت لنفسك أي قتلة تُريد أنْ أقتلك بها غداً، فإنّ الله سُبحانهُ سيجعل لي القصاص منك، فأفعل بك ما تفعلهُ بيّ الآن. فقال لهُ الحجّاج ساخراً: أين ربُك؟! قال: هُو بالمرصاد لكلّ ظالم. فأمر بقطع يديه ورجليه وصلبه، ثُمّ التفتَ إلىٰ الآخر، وقال لهُ: ما تقول أنتَ؟ فقال لهُ: أنا علىٰ دين صاحبي الّذي قتلته. فأمر أنْ تُضرب عُنقه ويُصلب. أنظر، أمالي الشّيخ الصّدوق: ٣٥٩.

السَّعَادَة

مَنْ هُو السَّعِيد؟:

مُنْذُ آلآف السّنِين، وأهْل المَعْرفَة يَتكلمُون فِي السَّعَادَة ومَعْنَاهَا، وَكلّ يُحدّدهَا بتَحدِيد، ويُعْرّفهَا بتَعْرِيف... فَمِنْهُم مَن يَرَاهَا فِي الجَاه وَالمَال، ومِنْهُم مَن يَرَاهَا فِي الإِنْتصَار عَلىٰ الخُصُوم، ومِنْهُم مَن قَالَ: أنَّهَا فِي عَمَل الخَير، وَإِسعَاد الغَير، وقَالَ آخرُون: أَنَّهَا مَعْرفَة الحَقِيقَة، وَذَهب كَثِيرُون إِلىٰ أَنَّهَا إِشبَاع الغَرائِز وَالرَّغبَات، وَالقَول الشَّائِع: أَنَّ مَن تَوَافرَت لهُ الصّحَة والأَمَان، وَسعَة الرّزق، وَالمَكَانَة الإِجْتمَاعيَّة وَالزَّوجَة الصَّالحَة، وَالصَّدِيق الوَفي فَهُو سَعِيد.

لاَ سَعَادَة فِي هَذِه الحَيَاة:

ولَيْسَ مِن شَكّ أَنَّ الدُّنْيَا لاَ تَصفُو لإِنْسَان مِن جَمِيع الجِهَات، فَإِنْ كَان فِي يُسرٍ مِن العَيْش شَكىٰ الأَمرَاض والأَسقَام، وَإِنْ جمَع الصّحَة وَالثَّرَاء شَكىٰ مِن بَيْتَه أَو أَرْحَامه أَو خُصُومه، وَمَا إِلىٰ ذَلِكَ... قَالَ الإِمَام أَمِير المُؤمِنِينعليه السلام: «وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْذَوْذَبَ، وَاحْلَوْلَىٰ، أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَىٰ! لاَ يَنَالُ امْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَغَباً، إِلَّا أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَباً! وَلاَ يُمْسِي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ، إِلَّا أَصْبَحَ عَلَىٰ قَوَادِمِ خَوْفٍ! غَرَّارَةٌ، غُرُورٌ مَا فِيهَا، فَانِيَةٌ فَانٍ مَنْ عَلَيْهَا، لاَ خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ

أَزْوَادِهَا إِلَّا التَّقْوَىٰ »[١].

إِذَن لاَ سَعَادَة مُطلقَة فِي هَذِه الحَيَاة، وَبالتَالي لاَ شَيء تُقَاس بِهِ لعَدَم المَوضُوع مِن أَسَاس، أَجل، أَنَّ مَن يَرىٰ نَفْسَه سَعِيداً فَهُو سَعِيد عِنْدَ نَفْسَه، لاَ فِي الوَاقع[٢]، وَلَكن أَخْشَىٰ أَنْ يَصدُق عَلَيه قَوْل القَائِل: مَا لذّة العَيْش إلاَّ للمَجَانِين وَبَديهَة أَنَّ كُلّ مَن لاَ يُفكّر بآلاَم النَّاس، وَلاَ يهتَم بمَا يَجْري حَولَه فَهُو مَجنُون، أَو فِي حُكْمِه.

وإِذَا اَفْترضنَا جَدَلاً أَنَّ الإِنْسَان قَد يَشعُر بالغِبطَة والسَّعَادَة فِي حَيَاته هَذِه بشَتّىٰ جهَاتهَا، وَيَجمع بَيْنَ الجَاه وَالمَال، والصّحَة والأَمَان، والزَّوجَة التَّقيَة النَّقيَة، والأَبْنَاء المُخلصِين الأَبرَار، والأَصْدقَاء الأَوفيَاء الأَخْيَار، وأَنَّه لاَ يَهتَم بمَن عَدَاه أَبداً، إِذَا اَفْترضنَا ذَلِكَ فَإِنّ فِكرَة المَوْت وَسَكرَته، وَالقَبر وَوَحشَته تَهْدم جَمِيع مَلذّاته، وَتُعكّر عَلَيه صَفو حَيَاته.

لمَّا حَضَرت الوَفَاة عَبد المَلك بن مَروَان قَالَ: « لَيْتَني كُنتُ غَسّالاً، أَعِيش بمَا أَكْسب يَوْمَاً بيَوْم... فقَال أَحد الزُّهَاد: الحَمْد لله الَّذي جَعَل المُلُوك عِنْدَ المَوْت يَتمنُّون مَا نَحنُ فِيهِ، وَلاَ نَتَمنىٰ عِنْدَ المَوْت مَا هُم فِيهِ »[٣].

---

(١) أُنظر، نَهج اَلبَلاَغَة: اَلخُطْبَة (١١١).

(٢) إِنَّ مُجرّد الشّعُور بالسَّعَادَة لاَ يَجْعَل الإِنْسَان سَعِيداً، فَربّما كَانَت عَاقِبَته أَشدّ مِن عَاقبَة البُؤسَاء فِي هَذِه الحَيَاة. قَالَ الإِمَام عَليّ عليه السلام: « اَلْمَغْرُورُ وَاللهِ مَنْ غَرَرْتُمُوهُ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ فَقَدْ فَازَ ـ وَاللهِ ـ بِالسَّهْمِ الأَخْيَبِ، وَمَنْ رَمَىٰ بِكُمْ فَقَدْ رَمَىٰ بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ؟ ». أُنظر، نَهج اَلبَلاَغَة: اَلخُطْبَة (٢٩).

المَغْرُور فِي الدُّنيَا مِسكِين، وَفي الآخرَة مَغبُون، بَاع الأَفْضَل بالأَدنىٰ.

وَقَالَ: « إِنْ كُنتَ رَاضياً بمَا أَنْتَ فِيهِ فَمَا أَحد أَشْقىٰ بعِلْمه مِنْكَ، وَأَضيَع عُمراً، فَأَورَثتَ حَسرَة يَوْم القِيَامَة ».

(٣) لَمْ أَعْثَر عَلىٰ هَذَا القَوْل. (بَل مِنْهُ ﷺ).

السّعَادَة الحقّة:

أَنَّ السَّعَادَة الحقّة المُطْلَقَة الخَالصَة مِن كُلّ عُسرٍ وَشقَاء لاَ تُوجد، وَلَن تُوجَد إلاَّ فِي الآخرَة عِنْدَ الله جَلّ وَعَلاَ... وَإِنْ كَان لهَا مِن أَثر صَحِيح فِي الدُّنْيَا فَهُو الشّعُور بمَرضَاة الله، وَرَاحَة الضَّمِير، وَالتَّحرر مِن المَعصيَة، وَالعَمَل بالطَّاعَة، وَالثّقَة بالله وَثوَابه، قَالَ الحُكمَاء: «كُل عَاص مُستَوحش، وَكُل مُطِيع مُستَأنس»[(١)].

بلاء الدّنيا وبلاء الآخرة:

وَقَد تَحمّل العَارفُون بالله الكَثِير مِن بَلاَء الدُّنْيَا بصَبْر وَشجَاعَة، وَخَافُوا وَاَضْطَربوا مِن أَقَل القَلِيل مِن بَلاَء الآخرَة وَعذَابها، وَآثرُوا العَافيَة وَالسَّلاَمَة فِي دَار البَقَاء عَلىٰ كُلّ نَعِيم فِي دَار الفنَاء، وَلَو خُيّروا بَيْنَ أَنْ يملكُوا الدُّنْيَا بكَاملهَا عَلىٰ أَنْ يُحَاسبُوا عَلَيهَا وَيُعَاتبُوا، وبَيْنَ أَنْ يَتحملُوا جَمِيع أَتعَابها وَأَوصَابها عَلىٰ أَنْ يَلقوا الله رَاضِين مَرضيِّين لفَضّلوا الثَّانيَة عَلىٰ الأُولىٰ.

قَالَ الإِمَام زَين العَابدِين عليه السلام مُنَاجياً رَبّه:

«أَللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَىٰ حُسْنِ قَضَائِكَ، وَبِمَا صَرَفْتَ عَنِّي مِنْ بَلائِكَ؛ فَلاَ تَجْعَلْ حَظِّي مِنْ رَحْمَتِكَ مَا عَجَّلْتَ لِي مِنْ عَافِيَتِكَ، فَأَكُونَ قَدْ شَقِيتُ بِمَا أَحْبَبْتُ، وَسَعِدَ غَيْرِي بِمَا كَرِهْتُ، وَإِنْ يَكُنْ مَا ظَلِلْتُ فِيهِ، أَوْ بِتُّ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الْعَافِيَةِ... بَيْنَ يَدَيْ بَلاءٍ لاَ يَنْقَطِعُ، وَوِزْرٍ لاَ يَرْتَفِعُ، فَقَدِّمْ لِي مَا أَخَّرْتَ، وَأَخِّرْ عَنِّي مَا قَدَّمْتَ؛ فَغَيْرُ كَثِيرٍ مَا عَاقِبَتُهُ الْفَنَاءُ، وَغَيْرُ قَلِيلٍ مَا عَاقِبَتُهُ الْبَقَاءُ، وَصَلِّ عَلَىٰ

(١) أنظر، شُعَب الإِيمَان: ١/٣٤٨ ح ٤٨٦.

مُحَمَّدٍ وَآلِهِ »[١].

وَقالَ عليه السلام: « سُبْحَانَكَ أخْشَى خَلْقِكَ لَكَ أعْلَمُهُمْ بِكَ، وَأخْضَعُهُمْ لَكَ أعْمَلُهُمْ بِطَاعَتِكَ؛ وَأهْوَنُهُمْ عَلَيكَ مَنْ أنْتَ تَرْزقُهُ، وَهُوَ يَعْبُدُ غَيْرَكَ »[٢].

لَقد رَفض الإمَام العَافيَة العَاجلَة مَع البَلاَء الآجل، وَاخْتَار البَلاَء العَاجل، وَإنْ كثُر عَلىٰ البَلاَء الآجل، وَإنْ قَلّ لأنَّ الأَوّل يَزول، وَالزَّائِل قَلِيل مَهْمَا كثُر، وَالثَّاني يَدُوم، وَالدَّائِم كَثِير مَهْمَا قَلّ... فَضّل الآجل صَلوَات الله وَسَلاَمه عَلَيه لأنّه أعْلَم النَّاس بالله، وَأخْضعهُم لَهُ، وَأعْلمهُم بطَاعَته.

(١) أنظر، الصَّحِيفَة السَّجَّاديَّة الدُّعَاء الثَّامِن عَشَر (دُعَاؤهُ فِي المحْذُورَاتِ). بتحقّيقنَا.

(٢) أنظر، الصَّحِيفَة السَّجَّاديَّة الدُّعَاء الثَّانِي وَالخَمْسُون (دُعَاؤهُ فِي الإلْحاحَ عَلىٰ الله). بتحقّيقنَا.

الصَّلاَة

الصِّلَة بَيْنَ الله وَالعَبْد:

الصَّلاَة صِلَة بَيْنَ الله وَالعَبْد، وَمَن تَركهَا فَقَد قَطَع كُلّ صِلَة بَيْنَه وبَيْنَ خَالقَه، وَمِن هُنا كَانَت «الصَّلاَة عَمُود الدِّين»[1]، وَرُكنه الرَّكِين، وَقُرّة عَيْن الأَنْبيَاء والمُرْسَلِين، يُقْبل مَا عَدَاها تَبعاً لهَا، وَلاَ يُقبل شَيء بدُونها، وَأَبرز مَا فِي هَذِه الصِّلَة هُو تطَابق أَو تَعَلق إِرَادَة الخَالِق والمَخْلُوق فِي الطَّاعَة الَّتِي تَرفَع الإِنْسَان إِلىٰ رَبّه وَتُقربَه مِن رَحْمَته، وَتُؤكّد فِيهِ صِفَة العبُوديَة، وَمِن كُلّ عَلىٰ شَيء مِن مَعْرفَة الشَّريعَة الإِسْلاَميَّة وَأَسرَارهَا لاَ يَشك أَبداً فِي أَنَّ التَّسلِيم لله حَقّاً، وَالإِنْقيَاد لهُ صِدقَاً لاَ يَتم وَلَن يَتم إِلاَّ بهَذِه الصَّلاَة الخَاصّة وهَذَا الشَّكل الَّذي أَشَار إِلَيهِ الإِمَام زَين العَابدِين عليه السلام فِي هَذِه المُنَاجَاة:

«أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَقِفْنَا فِيهِ عَلَىٰ مَوَاقِيتِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ بِحُدُودِهَا الَّتِي حَدَّدْتَ، وَفُرُوضِهَا الَّتِي فَرَضْتَ، وَوَظَائِفِهَا الَّتِي وَظَّفْتَ، وَأَوْقَاتِهَا الَّتِي وَقَّتَّ، وَأَنْزِلْنَا فِيهَا مَنْزِلَةَ الْمُصِيبِينَ لِمَنَازِلِهَا، الْحَافِظِينَ لِأَرْكَانِهَا، الْمُؤَدِّينَ لَهَا

---

(١) أنظر. الفِرْدَوْس بمَأثُور الخِطَاب: ٢ / ١٩٩ ح ٢٩٨٧. فَيض القَدير: ٤ / ٢٤٨. عِلَل أَبِي حَاتم: ٢ / ١٥٦ ح ١٩٦٢. كَشف الخَفَاء: ٢ / ٤٠ ح ١٦٢١. تَلخِيص الحَبير: ١ / ١٧٣ ح ٢٤٢. تَعظِيم قَدَر الصَّلاَة: ١ / ٢١٩ ح ١٩٤. جَامع العُلُوم والحِكَم: ١ / ٤٥.

فِي أَوْقَاتِهَا عَلَىٰ مَا سَنَّهُ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي رُكُوعِهَا، وَسُجُودِهَا، وَجَمِيعِ فَوَاضِلِهَا عَلَىٰ أَتَمِّ الطَّهُورِ وَأَسْبَغِهِ، وَأَبْيَنِ الْخُشُوعِ وَأَبْلَغِهِ »[١].

حَقِيقَة الصَّلاَة:

تَتَقوّم الصَّلاَة مِن الإِيْمَان بالله، وَمِن الإِخْلاَص لهُ، وَمِن الخُشُوع، بالرّكُوع وَالسّجُود، وَمِن أَلفَاظ التَّهلِيل، وَالتَّكبِير، وَالتَّسبِيح بشَرط الطّهَارَة مِن الحَدَث وَالخبَث، وإِذَا تَرَك شَيء مِن هَذِه إِخْتِيَاراً لَمْ تَتحقّق الصَّلاَة.

وَإِذَا تَسَرعتَ وَقُلتَ مَع أَخوَان الشَّياطِين: لمَاذَا تَجب الصَّلاَة بهَذَا الشَّكل المُعَيّن الخَاصّ بلاَ زِيَادَة وَلاَ نُقصَان، مَع العِلْم بأَنَّ العَقْل لاَ يَفْرضَه وَيُحَتمه.

قُلتُ فِي الجَوَاب:

لاَ أَعْلَم، وَكُلّ الَّذي أَعْرفه أَنّ المُسْلِم إِذَا أَصرّ عَلَىٰ تَرك الصَّلاَة عَمداً يَجب قَتْله شَرعَاً، مَع التَّأكِيد بأَنّه يُؤمِن بالله، والرَّسُول، واليَوْم الآخر، وَبهَذَا يَكُون فِي نَظَر الإِسْلاَم أَسوَأ حَالاً مِن المُرتَد عَن فِطْرَة، أَو فِي حُكْمه مِن حَيْث وجُوبه القَتْل.

وَإِذَا قُلتَ: أَنّ عِلْمَك هَذَا لَيْسَ بالجَوَاب الشَّافِي، لأَنَّ السُّؤال عَن السَّبب لهَيئَة الصَّلاَة وَشَكلهَا، لاَ عَن حُكْم تَارك الصَّلاَة.

قُلتُ: أَنَّ عِلْمي هَذَا لَيْسَ بجوَاب لأَنَّ سُؤالك لاَ مَعْنَىٰ لهُ، وَلاَ يَتّجه مِن الأَسَاس بَعْد أَنْ اَفْتَرضنَا أَنّ الله جَلّ وَعزّ أَمرَ بهَا كَذَلك، فَإِنّ العَين تَرىٰ شَيئَاً، وَلاَ

---

(١) أنظر. الصَّحِيفَة السَّجَّاديّة الدُّعَاء الرَّابع وَالأَربعُون) (دُعَاؤُهُ لِدُخُولِ شَهْرِ رَمَضَانَ). بتحقِّيقنا.

تَرىٰ أَشيَاء، والإذن تَسمَع أَشيَاء، وَلاَ تَسْمَع كُلّ شَيء، وَالحِسّ الصَّافِي النَّقي يَعْكس بَعْض الإِنْفعَالاَت لاَ كلّهَا، وَكَذَلك العَقْل يُدرك أَشيَاء وَأَشيَاء، وَلاَ يُحِيط بكُلّ شَيء بخَاصّة العِبَادَات.

الغَايَة مِن الصَّلاَة:

الغَايَة مِن الصَّلاَة حصُول المُصلّي عَلىٰ مَغْفرَة الله وَرَحْمَته، وَالبُعد عَن عَذَابه وَنقْمَته أَو الحصُول عَلىٰ ثَوَابه وَنَعِيمَه، أَو شُكرَه عَلىٰ مَا تَفضّل وَأَنْعَم، أَو طَاعَة لأَمره وَخرُوجاً عَن عُهدَته، أَو لتَذكرنَا الصَّلاَة بتَقوىٰ الله، وَتَحثنَا عَلَيهَا، أَو للتَلَذُذ بالعِبَادة وَالمُنَاجَاة، أَو للتَّأمل وَالتَّفكر، أَو لتَعزيز الإِسْلاَم وَكيَانه وَإِعلاَنه عَلىٰ المَلأ، أَو لهَذه مُجْتَمعَة، وكُلّ مِنْهَا صَحِيح وَمَقبُول، وَكَاف وَاف، وَيَجمعهَا كَاملَة القَصد بأَنَّ الله سُبْحَانه أَهْل للعبَادَة، وَهي للعبَادَة، وَهي عِبَادَة عَليّ أَمِير المُؤْمِنين عليه السلام، وَصَفوَة الصَّفوَة، كَالأَئمّة المَعْصُومِين، والأَولِيَاء العَارفِين.

صَلاَة الإِمَام زَين العَابِدِين عليه السلام:

وَالآن هَل تُرِيد أَنْ تُصلّي بصَلاَة الإِمَام زَين العَابِدِين عليه السلام؟. هَلْ تُرِيد أَنْ تَعْرف عَظمَة الله، أَو أَنَّه أَهْل للعِبَادَة، وَأَنّك لَنْ تَستَطِيع صَبراً عَلىٰ تَأديَة حَقّه، مَهْمَا بَالغتَ وَاجْتَهدتَ؟. هَل تُرِيد أَنْ تُصلّي أَنْقىٰ صَلاَة وَأَخْلصهَا وَأَغْزَرها؟. هَل تُرِيد صَلاَة أَسَاسها المَعْرفَة بالله، وَشَرطها الإِيْمَان بالله، وَجزَاؤهَا الشُّكر لله، وَهَدفهَا الوصُول إِلىٰ الله؟. هَل تُرِيد أَنْ تُصلّي برُوحك وَعَقلك، وَلسَانك وَلَحمك وَدَمك، وَجَمِيع جَوَارحَك؟.

إذْ أَردت شيئاً مِن هَذِه فَردّد مِن أَعماق قَلْبك مَع زَين العَابدِين، وَسَيِّد السَّاجدِين أَنْفَاسَه هَذِه الزَّكيَة السَّماويَة، وأنوَاره القُدسيّة الإِلهيَة، وقُل مَعَه:

«يا إِلَهِي لَوْ بَكَيْتُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ تَسْقُطَ أَشْفَارُ عَيْنَيَّ، وَانْتَحَبْتُ حَتَّىٰ يَنْقَطِعَ صَوْتِي، وَقُمْتُ لَكَ حَتَّىٰ تَتَنَشَّرَ قَدَمَايَ، وَرَكَعْتُ لَكَ حَتَّىٰ يَنْخَلِعَ صُلْبِي، وَسَجَدْتُ لَكَ حَتَّىٰ تَتَفَقَّأَ حَدَقَتَايَ، وَأَكَلْتُ تُرَابَ الأَرْضِ طُولَ عُمْرِي، وَشَرِبْتُ مَاءَ الرَّمَادِ آخِرَ دَهْرِي، وَذَكَرْتُكَ فِي خِلَالِ ذَلِكَ حَتَّىٰ يَكِلَّ لِسَانِي، ثُمَّ لَمْ أَرْفَعْ طَرْفِي إِلَىٰ آفَاقِ السَّمَاءِ اسْتِحْيَاءً مِنْكَ مَا اسْتَوْجَبْتُ بِذَلِكَ مَحْوَ سَيِّئَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ سَيِّئَاتِي. وَإِنْ كُنْتَ تَغْفِرُ لِي حِينَ أَسْتَوْجِبُ مَغْفِرَتَكَ، وَتَعْفُو عَنِّي حِينَ أَسْتَحِقُّ عَفْوَكَ فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ وَاجِبٍ لِي بِاسْتِحْقَاقٍ، وَلا أَنَا أَهْلٌ لَهُ بِاسْتِيجَابٍ»[1].

وَمَاذَا أَحْسَست ـ أيّها القَاريء ـ وأَنتَ تتلُو هَذِه المَزَامِير؟. هَل اعْتَرتك رَعشَة اهتزَّ لهَا كيَانك مِن الأَعمَاق؟. وَهَل فَاضَت عَينَاك مِدرَاراً بالدّمُوع؟. وَهَل خفَق قَلْبك بعُنف مِن خَشيَة الله وَرَهبَته؟. إِذاكَان شَيء مِن هَذَا فَطُوبىٰ لَك، حَيْث أَخذَت هَذِه الأَنفَاس الزَّكيَة طَرِيقها تَوّاً مِن قَلْب إِمَامك الأَعْظَم إِلىٰ قَلْبك وهَذَا هُو مقيَاس الصِّلة بَيْنَك وبَيْنَ الله، وَدَلِيل الأَرْض الطَّيبَة الصَّالحَة للبَذْر الصَّالح، وَنموّه وَحَصَاد الخير وَالفَلاَح.

وَقبل أَنْ تَترك هَذِه الصَّفحَة إِلىٰ غَيرهَا قِفْ طَويلاً، وَسَرّح النَّظر، وَاطْلق عنَان التَّدبر وَالتَّأمل فِي قَوْل الإِمَام: «ثُمَّ لَمْ أَرْفَعْ طَرْفِي إِلَىٰ آفَاقِ السَّمَاءِ اسْتِحْيَاءً مِنْكَ مَا اسْتَوْجَبْتُ بِذَلِكَ مَحْوَ سَيِّئَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ سَيِّئَاتِي.». تَدبّر وَتَأمّل مَعنَاه وَأَسرَاره وَمَرمَاه عَسَىٰ أَنْ يَنْقذك مِن الهَلكَة، وَيَأخذ بِيَدك إِلىٰ التَّوْبَة وَالإِنَابَة، وعَلىٰ الأَقَل

(١) أنظر، الصَّحِيفَة السَّجَّاديَّة الدُّعَاء السَّادِس عَشر (دُعَاؤُهُ في الإِسْتِقَالَةِ). بتحقِّيقنَا.

يُولّد فِيكَ الشّعُور بالخَوف من الله جَلّ وَعزّ فِي لَحظَة صَافيَة مُشوقَة ، تُعَادل عِبَادَة سَنوَات وَسنوَات . . . وَعَليّ أَمِير المُؤْمِنِين عَلَيه أَفْضَل التَّحيَات وَالصَّلوَات الَّذي قَالَ : « الْفِكْرُ مِرْآةٌ صَافِيَةٌ ، وَالِاعْتِبَارُ مُنْذِرٌ نَاصِحٌ ، وَكَفَىٰ أَدَباً لِنَفْسِكَ تَجَنُّبُكَ مَا كَرِهْتَهُ لِغَيْرِكَ »[1].

وَبَعْد فَإِنَّ الْإِمَام يَعْلَم حَقّ العِلْم أَنَّ عَظمَة الله لاَ حدُود لهَا وَلاَ نهَايَة ، وَأَنّ طَاقَة الْإِنْسَان تَقف عِنْدَ حَدّ ، وَمِن هُنا يَستَحِيل عَلىٰ أي إِنْسَان ـ وَإِنْ حَرِص وَٱجْتَهد ـ أَنْ يَعبد الله عِبَادَة تَتّفق مَع عَظَمَته جَلّ وَعزّ ، حَتَّىٰ وَلَو سَقَطت أَشفَار عَينَيه مِن البُكَاء ، وَٱنْقَطع صَوته مِن الدُّعَاء ، وَٱنْتَثر لَحْم قَدَمَيه مِن القِيَام ، وَٱنْخَلع صُلبه مِن الرّكُوع ، وَتَفقأَت حَدقَتَاه مِن السّجُود ، وحَتَّىٰ لَو أَكل التُّرَاب ، وَشَرب مَاء الرَّمَاد كُلّ ذَلِكَ وَفَوق ذَلِكَ يَصْغر عِنْدَ عَظَمَة الله ، لاَ ، كُلّ مَا سوَاه صَغِير وَحَقِير بالقِيَاس إِلَيهِ تَعَالىٰ ، أَو لاَ شَيء أَبداً .

الْإِنسجَام :

وَآل الرَّسُول الْأَعْظَم ﷺ يَفعلُون مَا يَقُولُون ، وَلاَ يَقُولُون مَا لاَ يَفعلُون ، فَقَد توَاتر عِنْدَ أَهْل السِّير وَالتَّأرِيخ أَنَّ الْإِمَام زَين العَابدِين عليه السلام كَان يُصلّي فِي اليَوم وَاللَّيلَة أَلف رُكعَة[2] ، تَمَاماً كَجَدّه أَمِير المُؤْمِنِين عليه السلام ، وَكَان يُصلّي صَلاَة مُودّع ،

(١) أنظر ، نَهج ٱلبَلاَغة : ٱلحِكْمَة (٣٦٤).

(٢) أُنظر ، سِير أَعْلاَم النُّبلاَء : ٤ / ٣٩٢ ، يَنَابِيع المَودّة : ٣ / ١٠٥ ، الصَّوَاعق المُحرقَة لِابن حَجَر : ٢٠٠ ، تَهذِيب التَّهذِيب للعَسْقلاَني : ٧ / ٣٠٦ ، نُور الأَبْصَار للشّبلنجي : ١٣٦ ، الإِتحَاف بحُبّ الأَشرَاف : ٤٩ ، تَذكرَة الحفّاظ : ١ / ٧١ ، شَذرَات الذّهب لِابْن العِمَاد : ١ / ١٠٤ ، أَخبَار الدّول للقرماني : ١١٠ ، تَأرِيخ

أي كَمَا لَو عَلِم أنَّه لاَ يَبْقىٰ بَعْدها ، وكَان إذَا حَضَرت الصَّلاَة اْقْشَعرّ جِلدَه ، وَاْصفرّ لَونه ، وَاْرْتَعد كَالسَّعفة خَشيَة مِن الله ، وَقَد اْنْخَرم أنْفه مِن كثْرَة السّجُود ، وَشُققت جَبْهَته وَرُكبتَاه ، وَمَع هَذَا كَان يُكرّر فِي مُنَاجَاته ، وَيَقول : « سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتكَ » [١] .

العُجْب :

وَأُهدي قَوْل الْإِمَام زَين العَابدِين عليه السلام : « سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتكَ » . وَقَوله : « ثُمَّ لَمْ أرْفَعْ طَرْفِي إلَىٰ آفَاقِ السَّمَاءِ اْسْتِحْيَاءً مِنْكَ مَا اْسْتَوْجَبْتُ بِذَلِكَ مَحْوَ سَيِّئَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ سَيِّئَاتِي . » . أُهدِيه إلىٰ مَن أعْرف مِن الشّيوخ وَالحُجّاج ، وَمِن لاَ أعْرف مِن هَؤلاَء وَغير هَؤْلاَء المُعجَبِين المُدلِين بطَهَارَة أثوَابهم وَأبدانهم ، وَبصلاَتهم وَصيَامهم . . . عَسَىٰ أنْ يَتّعظُوا وَينتفعُوا ، وَلاَ يَنسُوا ذنُوبهم ، وَيَسْتكثرُوا القَلِيل مِمَّا يَعْملُون .

أنَّ العُجب سَيئَة تُشوّه وَجْه الحَسنَات ، وَتَذهب بمَا فِيهَا مِن جَمَال وَبهَاء قَالَ أمِير المُؤْمِنين عليه السلام : « سَيِّئَةٌ تَسُوءُكَ خَيْرٌ عِنْدَ اللهِ مِنْ حَسَنَةٍ تُعْجِبُكَ » [٢] .

وَقَالَ الْإِمَام الصَّادق عليه السلام : « أنَّ الذَّنب خَيْر للمُؤمِن مِن العُجب » [٣] .

ذَلِكَ أنَّ المُذْنب قَد يَنْدَم وَيَتُوب ، أمّا المُعْجَب فَإنّه ، تَمَاماً كَالمَرِيض يَعْتَقد أنَّه

دِمَشق : ٣٦ / ١٥١ ، العِبَر فِي خَبَر مَن غَبَر : ١ / ١١١ ، تَأْرِيخ اليَعقُوبي : ٣ / ٤٥ ، المُنْتَظم : ٦ وَرقَة ١٤٣ ، الكَوَاكب الدّرِّية : ٢ / ١٣١ ، البدَايَة وَالنّهَايَة : ٩ / ١٠٥ .

(١) أنظر ، الصَّحِيفَة السَّجَّاديّة الدُّعَاء الثَّالِث (الصَّلاَةُ عَلَىٰ حَمَلَةِ الْعَرْشِ) . بتحقِّيقنَا .

(٢) أنظر ، نَهج اَلبَلاَغة : اَلحِكمَة (٤٥) .

(٣) أنظر ، وَسَائِل الشِّيعَة : ١ /العِبَادَات ح ٧ .

صَحِيح مُعَافِى . . . وَقَالَ : يَدخُل رَجُلان إِلىٰ المَسجِد : أَحدهُما عَـابد ، وَالآخـر فَاسق ، فَيَخرجَان ، وَالفَاسق صِدّيق ، وَالعَابد فَاسق ، لأَنَّ العَابد يَدْخل ، وهُو مدّل بعِبَادَته ، وَيَكُون فِكره فِي ذَلِكَ ، أَمَّا الفَاسق فَيكُون فِكرَه فِي النَّدم عَلىٰ فِسـقه ، فَسَيتَغفر الله مِن ذَنبه »[1] . وقَالَ : « العُجْب كُلّ العُجب حَبَّةُ الكُفر ، وَأَرضَهُ النّفاق ، وَمَاؤه البَغي ، وأَغصَانه الجَهل ، وَورقـهُ الضَّـلاَلَة ، وَثَـمرهُ اللَّـعنَة وَالخُـلُود فِـي النَّار »[2] .

وَبالتَالي ، فَإِنّ الضَّاحك مَع الخَوف مِن الله أَفضَل أَلف مَرّة مِن البَاكي المُـدل المُعْجب بعَمَله ، وَمِثْلهُ مَا يَعْرف لأَحد فَضلاً .

وَالله سُبْحَانه المَسؤول أَنْ يَجْعَلك وَإِيّاي ـ أَيّها القَارِيء ـ مِن المُصلِين السُّعدَاء عِنْدَ رَبّهم ، وَيُثِيبك عَلىٰ قِرَاءَة كَلمَتي هَذِه ، وَيُثِيبني مَعْك أَجر مَن صَلّىٰ لله ، وَقَرَأ لله ، وَكَتَب لله . . . بحَقّ الرَّسُول وَآل الرَّسُول صَلوَات الله عَلَيه وَعَلَيهم . . . أَنَّه خَير مَسئُول .

---

(١) أُنظر ، وَسَائِل الشِّيعَة : ١ / العِبَادَات ح ١٠ . رَسَائِل الشَّهِيد الثَّاني : ١٤٤ .

(٢) أُنظر ، مِصْبَاح الفَقِيه : ج ١ / ق ١ / لرضَا الهَمدَاني .

لاَ إيْمَان مَع كَذِب

قِيلَ لرَسُول الله ﷺ: أَيَكُون المُؤْمِن جَبَاناً ؟.

قَالَ: قَد يَكُون.

قِيلَ لَهُ: أَيَكُون بَخِيلاً ؟.

قَالَ: قَد يَكُون.

قِيلَ: أَيَكُون كَذّاباً ؟.

قَالَ: لاَ.

وفِي الآيَة: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾[1].

وقَالَ عَليّ أَمِيْر المُؤْمِنِين عليه السلام: «لاَ يَجْد عَبْد طَعْم الإِيمَان حَتَّىٰ يَتْرك الْكَذِب جِدّه، وَهَزْلَه»[2]، وَقَالَ: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْثِرَ الصِّدْقَ حَيْثُ يَضُرُّكَ عَلَىٰ الكَذِبِ حَيْثُ يَنْفَعُكَ، وأَلاَّ يَكُونَ فِي حَدِيثِكَ فَضْلٌ عَنْ عَمَلِكَ، وَأَنْ تَتَّقِيَ الله فِي حَدِيثِ

---

(١) اَلنَّحْل: ١٠٥. أُنظر، التَّمهِيد لِابن عَبد البَر: ١٦ / ٢٥٣ ح ٧. مُوطّأ الإِمَام مَالِك: ٢ / ٩٩٠ ح ١٧٩٥، الفُصُول المُهمَّة فِي مَعْرفَة الأَئِمَة: ٢ / ٢٧٩. بِتحقِّيقنَا.

(٢) أُنظر، الكَافِي: ٢ / ٣٤٠ ح ١١، تُحف الـعُقُول: ٢١٦، بحَار الأَنْـوَار: ٧٢ / ٢٤٩ ح ١٤، وَسَائِل الشِّيعَة: ٨ / ٥٧٧ ح ٢، مَجْمَع الفَائِدَة: ١٢ / ٣٦١.

غيرِكَ »[١].

وهذا يدلُ بصراحة على أنَّ الإيمان وحدة لا تتجزّأ، وحقيقة لا تتعدّد، تماماً كالشجاعة والكرم، أجل، أنَّ للإيمان مراتب، منها الدّنيا، ومنها العليا، ومنها وسط بينهما، ولكن ليس معنى هذا أنَّ المرتبة الضعيفة من الإيمان لا أثر لها إطلاقاً، أو لها أثر الضد، فإنّ الإيمان، مهما ضعف فلا بدّ أن يتلاءم مع إرادة الله وأمره ونهيه، ويحرس صاحبه من الكذب والرّياء، وما إليه من آثار الهرتقة واللامبالاة.

وتقول: إذا كان المؤمن لا يذنب أبداً، فأي فرق بينه وبين المعصوم؟.

الجواب:

لا فرق بين المعصوم والمؤمن من حيث ترك الذنوب وعدم ارتكابها، وإنّما الفرق بينهما من جهات أخرى وهي:

١ ـ أنَّ الإيمان يختلف شدّة وضعفاً، والعصمة لا يتصور فيها ذلك، فهي في سيّد الأنبياء، كما هي تماماً في أي نبيّ من أنبياء بني إسرائيل.

٢ ـ أنَّ الإيمان قد يزول بالمعصية، ثمّ يعود ثانية بالتّوبة، ولا يتأتى ذلك في العصمة، لأنّها متى ثبتت دامت، ولا تزول بحال.

٣ ـ أنَّ المعصوم لا يخطيء بعلمه ومعرفته أبداً. فأقواله وأفعاله كلّها انعكاس عن الواقع، أمّا المؤمن فيخطيء، ويصيب، وهو في الحالين مأجور، على شريطة أن يتحفظ ويحترس، وبكلمة أنَّ المعصوم منزّه عن الخطأ والخطيئة أمّا المؤمن فمنزّه عن الخطيئة دون الخطأ.

---

(١) أنظر. خطب نهج البلاغة: ٤/ ١٠٥. الحكمة (٤٥٨).

٤ ـ أَنَّ العُلمَاء ٱخْتلفُوا فِيمَا بَيْنهُم : هَل السّلُوك وَالعَمَل جُزء مِن الإِيْمَان أَو أَنَّ الإِيْمَان صِفَة نَفْسيَة تَسْتَقل عَن العَمَل . . . وَبَديهَة أَنّ هَـذَا النّـزَاع لاَ يَـتَأتىٰ فِـي العِصمَة ، لأَنَّ العَمَل يرتبط بهَا أَشدّ الإِرتبَاط ، وَلاَ يَنْفك عَنْهَا ، وَمَهْمَا يكُن ، فَنَحنُ مِن القَائِلِين بأَنَّ السّلُوك وَالعَمَل جُزء مِن الإِيْمَان ـ كَمَا قَدّمنَا وَدَليلنَا الآيَات الَّتي سَلبَت الإِيْمَان عَن غَيْر العَامِلين مِنْهَا قَوْله تَعَالىٰ : ﴿فَـلَا وَرَبِّكَ لَايُـؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَايَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَـلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[1] .

وَلَو كَان الإِيْمَان الشَّرعِي مُجرّد الإِعْتقَاد المُسْتَقل عَن العَمَل لكَان مثَاليَاً غَيبَاً لاَ يَمت إِلىٰ المَوضُوعَات الحِسيّة بسَبَب . . . وَلاَ أَسْتَطِيع بحَال أَنْ أَتصَور إِنْسَانَاً يَتّصف بالإِيْمَان وهُو يَتْرك شَيئَاً مِن دِين الله مَخَافَة أَحد مِن خَلْقه ، أَو طَمعَاً بمَا فِي يَده مِن الحُطَام . . . أَجل ، قَد يَعْصي المُؤْمِن وَيَذْنب ، وَلَكنّه يُبَادر إِلىٰ مَحو الذَّنب بالتَّوبه ، تَمَامَاً كَمَا يُبَادر إِلىٰ غَسْل ثَوبَه وَجِسمَه مِن القَذرَات وَالأَوسَاخ ، أَمّا إِذَا أَصرّ ، وَلَم يَنْدَم ، وَبَقي عَلىٰ غَفْلَته ، حَتَّىٰ النَّفس الأَخِير فـمَا هُـو مِـن الإِيْـمَان وَالمُؤْمِنِين فِي شَيء .

نَحنُ بَشَر ، وَلَسنَا مَلاَئِكَة وَلاَ أَنْبيَاء ، وَفِينَا عَاطِفَة وَشَهوَات ، وَمِيُول وَرَغبَات ، وَلنَا قُلُوب وَأَعصَاب مِن لَحمٍ وَدَم ، لاَ نَسْتَطع التَّحكِيم بهَا ، وَالسَّيطرَة عَلَيهَا فِـي كُلّ آنٍ وَحِين ـ إِذَن ـ وقُوعنَا بالخَطِيئَة لَيْسَ بالشَّيء الغَرِيب ، وإِنَّما الغَرِيب هُـو الإِصرَار عَلىٰ الخَطِيئَة .

وَبهَذَا يَتَبيَّن مَعْنَا أَنَّ المُؤْمِن إِذَا تَرَك وَاجبَاً ، أَو فَعَل حَرَامَاً ٱنْتزع مِـنْهُ وَصـف

(١) ٱلنِّسَاء : ٦٥.

الإِيْمَان الشَّرعِي حَقِيقَة وَوَاقعاً، قَالَ الرَّسُول الأَعْظَم ﷺ: «لاَ يَزْني الزَّاني حِينَ يَزْني وَهُو مُؤْمِن، فَإِذَا فَعَل ذَلِكَ خَلَعَ عَنْهُ الإِيْمَانَ كَخَلْعَ القَمِيصِ» [1].

وَقَالَ ﷺ: «لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ مَنْ لَمْ يَأْمَنْ جَارُهُ بوائِقَهُ!.

قُلْتُ: وَمَا بوائِقُهُ؟ قَالَ: غَشْمُهُ، وَظُلْمُهُ» [2].

وَلَن يَعُود إِلَيهِ الإِيْمَان الشَّرعِي أَبَداً إِلاَّ بالتَّوْبَة الصَّادقَة النَّصُوحَة الَّتي أَشَار إِلَيْهَا الإِمَام زَين العَابدِين عليه السلام بقَوْله:

«أَللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ فِي مَقَامِي هَذَا مِنْ كَبَائِرِ ذُنُوبِي وَصَغَائِرِهَا، وَبَوَاطِنِ سَيِّئَاتِي وَظَوَاهِرِهَا، وَسَوَالِفِ زَلاَّتِي وَحَوَادِثِهَا، تَوْبَةَ مَنْ لاَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِمَعْصِيَةٍ، وَلاَ يُضْمِرُ أَنْ يَعُودَ فِي خَطِيئَةٍ وَلَكَ يَا رَبِّ شَرْطِي أَلاَّ أَعُودَ فِي

---

(١) أُنظر، صَحِيْح البُخَاري: ٢/ ٨٧٥ح ٢٣٤٣، صَحِيح مُسْلِم: ١/ ٧٦ح ٥٧، مُسْنَد أَحْمَد: ٢/ ٢٤٣ ح ٧٣١٦، صَحِيح ابن حِبّان: ١/ ٤١٤ح ١٨٦، سُنن التِرمذي: ٥/ ١٥ح ٢٦٢٥، سُنَن الدَّارمي: ٢/ ١٥٦ح ٢١٠٦، مَجْمَع الزَّوَائِد: ١/ ١٠٠، السُّنن الكُبرىٰ: ٣/ ٢٢٧ح ٥١٦٩، سُنْن البَيهَقي الكُبرىٰ: ١٠/ ١٨٦، سُنن أَبي دَاود: ٤/ ٢٢١ح ٤٦٨٩، سُنن النَّسائي: ٨/ ٦٣ح ٤٨٦٧، سُنن ابن مَاجه: ٢/ ١٣٩٨ح ٣٩٣٦، المُعْجَم الأَوسَط: ١/ ١٧٠ح ٥٣٤، الكَافِي: ٢/ ١١٦، وَسَائِل الشِّيعَة: ١٥/ ٣٢٥، نَوَادر الأُصُول فِي أَحَادِيث الرَّسُول: ١/ ٣٦٨.

(٢) أُنظر، صَحِيح البُخَاري: ٥/ ٢٢٤٠ح ٥٦٧٠، صَحِيح مُسْلِم: ١/ ٦٨ح ٤٦، مُسْنَد أَحْمَد: ١/ ٣٨٧ ح ٣٦٧٢، الفِرْدَوْس بمَأثُور الخِطَاب: ٤/ ٣٥٦ح ٧٩٢٥، صَحِيح ابن حِبّان: ٢/ ٣٦٤ح ٥١٠، المُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحَين: ١/ ٥٣ح ٢١، مَوَارد الظَّمآن: ١/ ٣٧ح ٢٦، مُسْنَد الرَّبِيع: ١/ ٣٦٨ح ٩٥٩، المُصَنّف لِابْن أَبي شَيبَة: ٥/ ٢٢٠ح ٢٥٤٢٢ و: ٦/ ١٠٢ح ٧، مَجْمَع الزَّوَائِد: ١/ ٥٣.

سُبل السَّلاَم: ٣/ ١٣٩و: ٤/ ١٦٦ح ٦، التَّرغِيب وَالتَّرهِيب: ١/ ٥٨٤، دَلاَئِل الإِمَامة: ٦٦، مُسْنَد أَبي يَعلىٰ: ١١/ ٣٧٥ح ٦٤٩٠، المُعْجَم الأَوْسَط: ٨/ ٦٩، مُسْنَد أَبي دَاوُد الطَّيالِسِي: ١٩١، المُصَنَّف لعبدالرَّزاق الصَّنعاني: ١١/ ٧ح ١٩٧٤٧، الأَدَب المُفرد: ٣٧ح ١٢١، تأوِيل مُختلف الحَدِيث: ١٦١، مكَارم الأَخلاَق لِابن أَبي الدُّنيَا: ١٠٦ح ٣٤٢و ٣٤٣، مَجْمَع الزَّوائد: ١/ ٥٣.

مَكْرُوهِكَ، وَضَمَانِي أَنْ لاَ أَرْجِعَ فِي مَذْمُومِكَ، وَعَهْدِي أَنْ أَهْجُرَ جَمِيعَ مَعَاصِيكَ»[١].

هَذِي هِيَ التَّوْبَة بمَعنَاهَا الصَّحِيح، شَرط يَقْطَعهُ التَّائِب عَلَىٰ نَفْسه، وَضمَان الله وعِنْدَ الله، وَعَهد لَنْ يَخْلفه أَبَداً، وإذَا وَجَب الوَفَاء وَالضَّمَان لِمَن هُو مِثْلك أَو دُونك، فَكَيف إذَا أَعْطَيتهُ لله جَلّ وَعزّ؟..

وَقَبل أَنْ أَدع هَذَا الفَصْل أُشِير إلىٰ أَمرَين:

الأَوَّل: أَنَّ مَفْهُوم الكَذِب لاَ يَخْتَص بعَدَم مُطَابقَة القَول للوَاقع، وَإِنَّما يَشمل كُلّ دَعوىٰ بغَير حَقّ، فالمُرَائي، وَالمَغرُور، وَالمُتكبّر، وَالمُعجَب بنَفْسه، وَالجَاهل يَتّسم بسمَة العُلمَاء، وَيَلبَس أَثوَابهم، كُلّ هَؤُلاَء، وَمَن إِلَيهم مِن أَهْل الكَذِب والجَدَل وَالنّفَاق، يَصدُق عَلَيهم قَوْل النَّبيّ الكَرِيم: «المُؤمنُ لاَ يكُونُ كَذّاباً»[٢].

الثَّانِي: أَنَّ الكَذِب قَبِيح بذَاته، يَجب تَرْكه، وَإِنْ لَمْ تَنه عَنْهُ الأَديَان وَالشَّرَائع فَهُو يَحْمل مَعَه الدَّلِيل عَلَىٰ قُبحه، وَيُقبح ذَاته بذَاته... وَيَكفي أَنَّه لاَ أَسَاس لهُ مِن الوَاقع، وأَنَّه سِلاَح الضَّعِيف الجَبَان، وَأَنَّ الكَاذِب يَتبرأ مِنْهُ لَو نُسبَ إِلَيهِ، حَتَّىٰ الأَطْفَال يَسْتَقبحُون الكَذِب وَيَعلمُون أَنَّ صَاحبه مَمقُوت لاَ يَثق بهِ أَحد، وَلاَ يَركن إِلَيهِ فِي شَيء، وَلَو جَاء بالصِّدق لاَ يُصَدّق.

وَيَجُوز الكَذِب فِي ثَلاَث: المَكِيدَة فِي الحَرْب، والإِصْلاَح بَيْنَ النَّاس، وَوَعد الزَّوجَة، بخَاصّة لمَن جَمَع بَيْنَ اثْنَتَين. وَلَو كَانَت مُشكلَة تَعدّد الزَّوجَات تَنْحَل بالكَذِب لطَار الرّجَال فَرحاً وَسرُوراً...

(١) أُنظر، الصَّحِيفَة السَّجَّاديَّة: الدُّعَاء الحَادي وَالثّلاَثُون (دُعَاؤُهُ بِالتَّوْبَةِ). بتَحقِيقنَا.

(٢) تَقدَّمت تَخْريجَاته.

وَبَعْد، فَإِنَّ الكَذِب يَقف حَاجزاً بَيْنَ الإِنْسَان وَرَحمَة الله وَرضوَانه، وَيَسد جَمِيع الطُّرق وَالنَّوَافذ المُؤدّية إِلىٰ الله جَلّ وَعزّ، رَغم أَنَّهَا بعَدَد أَنفَاس الخَلاَئِق، أَو أَكْثَر... وكَمَا أَنَّ الكَذِب يَقْفل النَّوافذ إِلَيهِ سُبْحَانه فَإِنّ الصّدق مِفتَاح لعَفوَه وَكَرمَه، وَالرَّجُل كُلّ الرَّجُل مَن يَسْتَعمله، بَل أَنَّ الصّدق مِفتَاح النَّجَاح فِي هَذِه الحَيَاة، وَبهِ تُفْتَح الأَبوَاب الَّتي تُقْفل فِي وَجْه الكَاذِب المُحتَال.

الثّقة بالله

معنىٰ الثّقة بالله:

مَعْنَىٰ الثِّقَة بالله أَنْ تَعْتَقد بأَنَّ النَّفع كُلّه، وَالضّر كُلّه بِيَد الله وَحـدَه، وَأَنّ أَهْـل السَّمَاء والأَرْض لَو اجْتَمعُوا وَتكَاتفُوا عَلىٰ أَنْ يَقفلُوا فِي وَجْهك النَّوَافـذ كـلّهَا، وَيَسدُوا عَلَيكَ الطُّرق بأَجْمعهَا لجعَل الله لَكَ فَرجاً وَمَخرجاً، مِن حَيْث لاَ تَحْتَسب الفَرَج وَالمَخرَج إِلاّ مِنْهُ، وَأَنْ تَعْتَقد أَيضاً أَنَّ ذَنْبك مَهْمَا عَظُم فَعفو الله يَتّسع لَـهُ، وَأَنّك لَو وَقَعت فِي أَعْظَم الشَّدَائِد فَإِنّ الله قَادِر عَلىٰ خَلاَصك حَتَّىٰ فِي اللَّـحظَة الَّتي تَهوي فِيهَا بَيْنَ السَّمَاء والأَرْض، أَو كُنتَ فِي قَاع البَحْر تَلْفظ أَنفَاس المَوْت، فترجُو وَتأمَل أَنْ يُنْقذك الله، وَيَضَعك عَلىٰ اليَابسَة صَحِيحاً مُـعَافىٰ، وَأَنْتَ مَـع النَّفْس الَّذي يَتّصل بالأَخِير بلاَ فَاصِل[1].

---

(١) تَقَع بَلدَة جبُوش فِي جنُوب لُبنَان جَبَل عَامِل قُرب النَّبطيّة، وَيُوجَد فِيهَا الآن رَجُل، أسمهُ حَسَـن طَالِب نِعْمَة، تَشَاجر مَع آخر، فَطَعنهُ هَذَا بسَكِين غَاصَت بكَاملهَا فِي أَمْعَائه، وَمَزّقتهَا تَمزيقاً، وَخَرج مَا فِيهَا، وَأَشرَف حَسَن عَلىٰ الهَلاَك، فَعَرضهُ أَهْله عَلىٰ عَدَد مِن الأَطبَاء، مِنْهُم الجَرّاح المَـعرُوف نَـبِيه الشَّاب المَوجُود حَاليَاً فِي صَيدَا، فأَجمَع الأَطبَاء كَلمَة وَاحدَة عَلىٰ أَنّه مَيّت بَعد لَحظَات لاَ محَالة، وَأَنَّ التَّطبِيب لاَ يُجدي شَيئاً، وَقَبل أَنْ يَلفظ النَّفْس الأَخِير أَصَابَته غَفوَة رَأىٰ فِيهَا الحُسَين بن عَليّ سَـيِّد الشُّهدَاء (فَاَسْتغَاث بِهِ)، فَوَضع الحُسَين يَدَه الشَّريفَة عَلىٰ مكَان الجُرح، فَعَاد كُلّ شَيء صَحِيحاً كَـمَا ↔

وَإِنْ تخَاف الله وَتهَابه، وَلو أتيتهُ بحسنَات أهْل الأَرْض، وَأَنْ تَخْشىٰ العَـاقبَة وسُوء المَصير، وَأَنْتَ فِي تَمَام الصّحَة والأمَان، وفِي أوج العزّ وَالمَجد، تعْتَقد كُلّ ذَلِكَ، وَتلتزم بهِ، وَتعمل بمَا تَليه هَذِه العَقِيدَة فِي سِيرَتك وَمُـعَاملاَتك وَجَـمِيع حَركَاتك وَسَكنَاتك... وَبكلمَة أَنْ تَجْعل نَصْب عَينَيك، هَذَا الشّعَار الّذي خَاطَب بهِ الإمَام زَين العَابدينعليه‌السلام خَالِق السّموَات والأرَضِين:

«فَإِنِّي لَمْ أُصِبْ خَيْراً قَطُّ إلّا مِنْكَ، وَلَمْ يَصْرِفْ عَنِّي سُوءاً قَطُّ أَحَدٌ غَيْرُكَ، وَلاَ أَرْجُو لِأَمْرِ آخِرَتِي، وَدُنْيَايَ سِوَاكَ»[١].

وَيَنْبَغي أَنْ نَكُون عَلىٰ عِلْم بأَنّه لَيسَ مِن الثّقَة بالله فِي شَيء أَنْ نَتّكل عَلَيه بلاَ عَمَل، وَنَطلب الحَظّ مِنْهُ، وَنَحنُ مِن البطّالِين الكُسَالىٰ، وإلاّ فَلمَاذَا وَهَـبنَا هَـذِه الأَعْضَاء وَالحوَاس، وَنظّم أَجْسَامنَا بأَدق تَنْظِيم، وَقوّمها بأَحْسَن تَقوِيم، وَأودَع فِينَا مِن المَلكَات وَالغَرَائز مَا نُسَخّر بِهِ الكوْن بمَا فِيهِ، حَتّىٰ الزُّهرَة وَالمِرّيخ... أَنّ الثّقَة بالله أَنْ نَعْمَل وَنُجَاهد، ثُمّ نَترُك البَاقي لله، وَعَلىٰ الله.

وَأَيضاً لَيسَ مِن الثّقَة بالله أَنْ نَرضىٰ عَن أَنفسنَا بَل مِن الثّقَة بِهِ وَالتّوكل عَـلَيه سُبْحَانه أَنْ نَعْتَرف بعُيوبنَا، وَنُقرّ بهَا، وَنتُوب مِنْهَا، وَنَطْلب الغُفرَان لهَا، قَالَ الإمَام زَين العَابدِينعليه‌السلام:

«إلٰهي، لَمْ آتِكَ ثِقَةً مِنِّي بِعَمَلٍ صَالِحٍ قَدَّمْتُهُ، وَلاَ شَفَاعَةِ مَخْلُوقٍ رَجَـوْتُهُ إلاّ

كَان، وَقَام الرَّجُل مِن سَاعَته مُعَافىٰ كَأَنْ لَمْ يَكُن شَيء، وهُو الآن حَيّ يُرزَق، وَيَعرف ذَلِكَ جَمِيع أَهْل حبُوش البَالغ عَدَدهُم أَكثَر مِن ثَلاَثَة آلاَف نَسمَة، ومِنْهُم صَدِيقَاي العَلاَّمتَان الشَّيخ عَبدالله نِعمَة صَاحِب فَلاَسفَة الشّيعَة، وَأَخُوه الشّيخ عَبدالحُسَين، وَهُما اللّذَان أَخبرَاني بذَلِك، وَمَن شَاء أَنْ يَسمَع وَيَـرىٰ فَليَذهب إلىٰ حبُوش، وَيَسأَل عَن حَسَن نِعْمَة. (مِنْهُ ﷺ).

(١) أُنظر، الصّحِيفَة السّجّاديّة الدُّعَاء الثّامِن وَالأَربعُون (دُعَاؤهُ فِي يَوْمِ الأَضْحىٰ وَالْجُمُعَةِ). بتَحقِّيقنَا.

شَفَاعَةَ مُحَمَّدٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ سَلَامُكَ أَتَيْتُكَ مُقِرّاً بِالْجُرْمِ وَالْإِسَاءَةِ إِلَىٰ نَفْسِي، أَتَيْتُكَ أَرْجُو عَظِيمَ عَفْوِكَ الَّذِي عَفَوْتَ بِهِ عَنِ الْخَاطِئِينَ، ثُمَّ لَمْ يَمْنَعْكَ طُولُ عُكُوفِهِمْ عَلَىٰ عَظِيمِ الْجُرْمِ أَنْ عُدْتَ عَلَيْهِمْ بِالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ»[1].

عليّ عليه السلام والثّقة بالله:

وَلاَ أعْرِف أحداً أقوىٰ وَأشْجَع وَأجرأ مِمَّن يَثق بالله ثِقَة المُؤْمِن العَارف أكثَر مِن الإمَام عليّ عليه السلام فإنّه يَنْطُق بالصِّدق، وَلو علىٰ نَفْسه، وَيَفْعَل الحَقّ، وَإنْ أغْضَب النَّاس أجْمَعِين، وَيُحَارب البَاطل، وَلاَ يَخْشىٰ لومَة لائم.

وَلاَ أعْرِف تَفْسِير لشَجَاعة أمِير المُؤْمِنين عليه السلام، وَبطُولَته وَتَضحِيَته مُوَافقَة إلاَّ بهٰذِه الثّقَة الصَّادقَة المُطلقَة، بَل أنَّ كَرَمه وَزُهدَه، وَصَبرَه وَتَوَاضعَه، وَجَميع منَاقبَه تَنْبع مِنْهَا، وَتَصْدر عَنْهَا، وَهَل مِن تَفْسِير لقَوْلَه: «وَاللهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَىٰ قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا، وَلَوْ أَمْكَنَتِ الْفُرَصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا. وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أُطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ، حَتَّىٰ تَخْرُجَ الْمَدَرَةُ مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ»[2]. هَل مِن تَفْسِير إلاَّ عَمَله وَيَقينَه بأنَّ الله مَعَه فِي كُلّ حَال، وَأنَّ مَن تَسَلّح بسلاَح الله، وَقوّة الله لاَ يَخْشىٰ العَرَب وَالعَجَم، وَلاَ الإنْس وَالجنّ مُجْتَمعِين؟... أنَّ مَن أيقَن بالله حَقّاً لاَ يُبَالي أقْبَلت الدُّنْيَا أو أدبَرت، وَقَع عَلىٰ المَوْت، أو وَقَع المَوْت عَلَيه... وَقَد جَاء زُهد عَليّ وَشَجَاعَته، تَمَاماً عَلىٰ قَدَر ثِقَته وَيَقِينَه بخَالقه جَلّ وَعزّ.

---

(١) أُنظر. الصَّحِيفَة السَّجَّاديَّة الدُّعَاء الثّامِن وَالأَرْبعُون (دُعَاؤهُ فِي يَوْمِ الأَضْحىٰ وَالْجُمُعَةِ). بتَحقِيقنَا.

(٢) أُنظر. نَهج البَلاَغَة: الرِّسَالَة (٤٥).

وكُلّنا يَعْلَم أنّ مَن أيقَن بعَطْف أبِيه وَغِنَاه أنفق عَن سِعَة، وَأَنَّ مَن وَثق بقَومه وَعدّته وَعَدَده جَابَه العُظمَاء، وَنَازل الأَقويَاء.

أبنَاء عَليّ عليه السلام:

وَقَد وَرَث أبنَاء أبي الحَسَن وَأحفاده المَعصُومُون هَذَا الإيْمَان، وهَـذِه الثـقَة الّتي تَتَحدىٰ الدّهر، وَلاَ تَعبَأ بتَضَاهر العَرب وَالعَجَم، وَرثُوا هَذِه الثّقَة عَنْهُ ومِنْهُ، وَتجَاوبَت أروَاحهم الزّكيَة مَع رُوحه الطّاهر، وَالْتَقت جَمِيعاً فِـي ذُرىٰ خَـالقهَا وَبَاريهَا... وَتَعَال مَعي نَدخُل هَذَا الجَو النّدي العَاطر، وَنَسْتَقي مِن هَـذَا المَـنْهَل النّقي الطّاهر، مَنْهَل أبي مُحَمّد بَاقر:

«إلٰهِي إنْ رَفعْتَنِي فَمَنْ ذَا الّذِي يَضَعُنِي؟. وَإنْ وَضَعْتَنِي فَمَنْ ذَا الّذِي يَرْفَعُنِي؟. وَإنْ أكْرَمْتَنِي فَمَنْ ذَا الّذِي يُهِينُنِي؟. وَإنْ أهَنْتَنِي فَمَنْ ذَا الّـذِي يُكْـرِمُنِي؟. وَإنْ عَذّبْتَنِي فَمَنْ ذَا الّذِي يَرْحَمُنِي؟. وَإنْ أهْلَكْتَنِي فَـمَنْ ذَا الّـذِي يَـعْرِضُ لَكَ فِـي عَبْدِكَ، أوْ يَسْألُكَ عَنْ أمْرِهِ؟»[1].

كُلّنا يَقُول: ألّلهُمّ لاَ نملك لأَنفسنَا نَفعاً وَلاَ ضَرّاً إلاّ بِك، وَلَكن فِي الوَقت نَفْسَه نَرجو وَنخَاف غَير الله، وَنَتمَلّق لصَاحب الجَاه طَمَعاً فِي جَاهه، وَلرَبّ المَال رَغبَة فِي مَاله، وَنُرَائي وَنُظهر خِلاَف مَا نَضْمر طَلَباً لمَدِيح النّاس وَثنَائهم وَنَـحط مِـن كَرَامَة الغَير، وَنَنصب لهُ المَكَائد وَالمَصَائد، وَنَنشر عيُوبه، أو نُكَبّر الصّغِيرَة مِنْهَا، أو نَفْتَريهَا إفْترَاء، وَنتجَاهل عَمَل المُخلصِين، وَنَحسد النّـاجحين، وَنُـقَلل مِـن قِيمَتهم، وَنَستَخف بأعمَالهم تبريرَاً لمَا فِينَا مِن نَقْص، أو تَشَفياً مِن غَيْض، وَتَلبيَة

(١) أنظر، الصّحِيفَة السّجَاديّة الدُعَاء الثّامِن وَالأَرْبعُون (دُعَاؤهُ فِي يَوْمِ الأَضحىٰ وَالْجُمُعَةِ). بتَحقّيقنَا.

لهَوىٰ... إذَن، أَين الثّقَة بالله، وَالتَّوكل عَلَيه، وَالتَّسلِيم لهُ؟. أَين العِلم بأَنّه وَحدَه تَبَارَك وتَعَالىٰ الخَافض الرَّافع، وَالضّار النَّافع؟.

أَنَّ العِلْم بقُدرَة الخَالِق يَستَتبع حَتمَاً العِلْم بعَجز المَخْلُوق، وهَذَا العِلْم بـدَوره يُلاَزم الثّقَة بالله، والإِعرَاض عَمّن سوَاه، وَلاَ يَنْفَك عَنْهَا بحَال، وعَلىٰ ذَلِكَ فَـمَن أهتَّم برضَا المَخلُوق، وَتَهاون برضَا الخَالِق فَقْد أَسَاء الظَّن بالله، وَأعْتَبر قُـدرَته جَلّ وَعَلاَ دُون قُدرَة عَبِيدَه وَمَخلُوقَاته، تَبَارك الله تَعَالىٰ عَن ذَلِكَ عُلوّاًكَبِيرَاً.

الثّقة باللهِ لا تتجزّأ:

وَالثّقَة بالله سُبْحَانه لاَ تَتجزّأ، فَمَن وَثق بِهِ فِي شَيء وَثق بِهِ فِي كُلّ شَيء، وَمِن هُنا كَانَت هَذِه الثّقَة أُمّ الفَضَائِل بكَاملهَا، وإلَيْهَا تَرجَع كُلّ فَضِيلَة وَمَنقبَة فَمَن كَان وَاثقَاً بِهِ وَجلّ وَعزّ صَـبَر وَثَـابر، وَضَحىٰ وَآثَـر، وَصَـدق وَأَخْـلَص، وَصَـفح وَتَسَامح، وَأَحْسَن الظَّن بالقَرِيب وَالبَعِيد، وَزَهد فِي الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.

أَمَّا سُوء الظَّن بِهِ تَبَارك وتَعَالىٰ فَاصل الرَّذَائِل وَمَعدنهَا، فَمَن لَم يَثق بـخَالقه وَرَازقه شَحّ وَجبن، وَيَأس وَقَنط، وَضَـجر وَتَـململ، وَنَـافَق وَدجّـل، وَطَـمع وَتَذَلّل، وَخَان وَتَآمر، وَسَرق وَتَجَسس، وَرَأىٰ وَتَملق وَحَسد وَحَـقد، وَأَسَـاء الظَّن بالأَنْبيَاء وَالصُّلحَاء، إلىٰ غَير ذَلِكَ مِن القَبَائِح وَالرَّذَائِل.

وَبَعد، فَمَا إنْحَنىٰ مَخلُوق لمِثْله إلاَّ مَن أَعرَض عَن خَالقه، وَمَا تَمَلق أَحد لِذي جَاه أَو مَال إلاَّ أَسَاء الظَّن برَازقه... وإذَا إنْشَرح صَدْرَك لفَضل الله وَكَرمه فَرَدّد مَع إمَامك الأَعْظَم زَين العَابدِين عليه السلام هَذَا الدُّعَاء، وَأعْمَل بمَا يُوحي بِهِ إلَيكَ:

« أَللّهُمَّ يَا مُنْتَهَىٰ مَطْلَبِ الْحَاجَاتِ، وَيَا مَنْ عِنْدَهُ نَيْلُ الطَّلِبَاتِ، وَيَا مَنْ لاٰ يَبِيعُ

نِعَمَهُ بِالْأَثْمَانِ، وَيَا مَنْ لا يُكَدِّرُ عَطَايَاهُ بِالْإِمْتِنَانِ، وَيَا مَنْ يُسْتَغْنَىٰ بِهِ وَلا يُسْتَغْنَىٰ عَنْهُ، وَيَا مَنْ يُرْغَبُ إِلَيْهِ وَلا يُرْغَبُ عَنْهُ، وَيَا مَنْ لا تُفْنِي خَزَائِنَهُ الْمَسَائِلُ، وَيَا مَنْ لا تُبَدِّلُ حِكْمَتَهُ الْوَسَائِلُ، وَيَا مَنْ لا تَنْقَطِعُ عَنْهُ حَوائِجُ الْمُحْتَاجِينَ، وَيَا مَنْ لا يُعَنِّيهِ دُعَاءُ الدَّاعِينَ تَمَدَّحْتَ بِالْغَنَاءِ عَنْ خَلْقِكَ وَأَنْتَ أَهْلُ الْغِنَىٰ عَنْهُمْ، وَنَسَبْتَهُمْ إِلَىٰ الْفَقْرِ وَهُمْ أَهْلُ الْفَقْرِ إِلَيْكَ فَمَنْ حَاوَلَ سَدَّ خَلَّتِهِ مِنْ عِنْدِكَ، وَرَامَ صَرْفَ الْفَقْرِ عَنْ نَفْسِهِ بِكَ فَقَدْ طَلَبَ حَاجَتَهُ فِي مَظَانِّهَا، وَأَتَىٰ طَلِبَتَهُ مِنْ وَجْهِهَا، وَمَنْ تَوَجَّهَ بِحَاجَتِهِ إِلَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ أَوْ جَعَلَهُ سَبَبَ نُجْحِهَا دُونَكَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْحِرْمَانِ، وَٱسْتَحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَوْتَ الْإِحْسَانِ»[1].

أَجَل، أَنَّ الله لاَ يَبِيع فَضْلَه، وجُودَه، وَكَرمه بالأَثْمَان، والأَموال، لأَنَّه كَرِيم، وَالكَرِيم يُعطِي، وَلاَ يَأخذ، وَلأَنَّه لَيسَ بتَاجِر، فالتَاجِر يَطْلب الغِنىٰ وَالرِّبح، وَالله غَنِيّ عَن العَالمِين، وَمَع ذَلِكَ فَقَد دَعَاك الله سُبْحَانه للتّجَارَة مَعَه، وَضَمن لَكَ الفَوز وَالأَربَاح، وَزَاد هُو بنَفْسه عَلىٰ نَفْسَه أَضعَافَاً وَأَضْعَافاً دُون أَنْ يُزَاحِمهُ نِدّ، أَو يَزِيد عَلَيه ضِدّ... ومَعْنَىٰ التّجَارَة مَع الله أَنْ تَأخذ بيَد الضَّعِيف، وَتُنَاصر المُحق، وَتُجَابه المُبطل، وَتُحوّل بُكَاء البُؤسَاء إِلىٰ الفَرح وَالسّرُور، وَذُلّ الضُّعفَاء إِلىٰ العِزّة وَالكَرَامَة، وَجَهل الجُهلاَء إِلىٰ العِلْم وَالمَعْرفَة وَأَدوَاء المَرضىٰ إِلىٰ الصّحَة وَالعَافيَة، هَذِي هِي التّجَارة مَع الله، وَالعَمَل لله الَّذي يَتقبَله، وَيَحمدَه وَيَشكره، وَيُثِيب عَلَيه أَضعَافاً كَثِيرَة، وهَذَا مَعْنَىٰ قَوْل الإِمَام زَين العَابدِين ﷺ: «إِلَهي... وَأَنْتَ الَّذِي زِدْتَ فِي السَّوْمِ عَلَىٰ نَفْسِكَ لِعِبَادِكَ، تُرِيدُ رِبْحَهُمْ فِي مُتَاجَرَتِهِمْ لَكَ، وَفَوْزَهُمْ بِالْوِفَادَةِ عَلَيْكَ، وَالزِّيَادَةِ مِنْكَ؛ فَقُلْتَ تَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَيْتَ: ﴿مَن جَآءَ

(١) أنظر، الصّحِيفَة السّجّاديّة الدُّعَاء الثّالث عَشَر (دُعَاؤُهُ فِي طَلَبِ الْحَوَائِج).

بِـالْحَسَنَةِ فَـلَهُۥ عَشْـرُ أَمْـثَالِهَا وَمَـن جَآءَ بِـالسَّيِّئَةِ فَلَايُـجْزَىٰٓ إِلَّا مِـثْلَهَا وَهُـمْ لَايُظْلَمُونَ﴾[١]، وَقُلْتَ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّـهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّـهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّـهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٢]، وَقُلْتَ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٣]؛ وَمَـا أَنْـزَلْتَ مِـنْ نَظَائِرِهِنَّ فِي الْقُرْآنِ مِنْ تَضَاعِيفِ الْحَسَنَاتِ. وَقِف قَليلاً عِنْدَ قَوْلَه: «أَنْتَ الَّـذِي زِدْتَ فِي السَّوْمِ عَلَىٰ نَفْسِكَ لِعِبَادِكَ، تُرِيدُ رِبْحَهُمْ فِي مُـتَاجَرَتِهِمْ لَكَ، وَفَـوْزَهُمْ بِالْوِفَادَةِ عَلَيْكَ، وَالزِّيَادَةِ مِنْكَ»[٤].

أَنَّ المَعْرُوف عِنْدَ النَّاس ـ بَعْد أَنْ يَتم السَّوم بَيْنَ البَائِع وَالمُشْتَري ـ أَنْ يَأخـذ المُشْتَري بمقْدَار مَا يَدفَع مِن الثَّمن، وَأَنْ يَحْصد الزَّارع حَسبَما يَزْرَع... أَمَّا عِنْدَ الله سُبْحَانه فالأَمر عَلَىٰ العَكْس. فَإِنّ مَن يَعْمل لوَجْهه حَسنَة وَاحدَة أَعطَاه بَدَلاً عَنْهَا أَضعَافاً كَثِيرَة، وَمَن زَرَع فِي حَقْلهِ حَبّة وَاحدَة عَـادَت عَـلَيه بسَـبعمِئَة أَو أَكثَر... ذَلِكَ أَنَّ المُشتَري لَو دَفَع أَكثَر مِمَّا يَأخذ لكَان مَغبُوناً، وَالغُبن ضَرَر، وهُو محَال فِي حقّه تَعالىٰ. وإِذَا زَرَع الإِنْسَان فِي حَقْلهِ فغَايَة أَمـله أَنْ يَـعُود بـعَشرَة أَضعَاف، لأَنَّ خِصْب الأَرْض مَحدُود، أَمّا الخِصْب فِي حَقل الله فَلاَ يُحَد بـحَدّ، وَسَلاَم الله عَلَىٰ أَمِيْر المُؤْمِنِين ﷺ، وَإِمَام المُتَّقِين الَّذي قَالَ: «لَا مَالَ أَعْـوَدُ مِـنَ الْعَقْلِ، وَلَا وَحْدَةَ أَوْحَشُ مِنَ الْعُجْبِ، وَلَا عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ، وَلَا كَرَمَ كَالتَّقْوَىٰ، وَلَا

(١) ٱلْأَنْعَام: ١٦٠.
(٢) ٱلْبَقَرَة: ٢٦١.
(٣) ٱلْبَقَرَة: ٢٤٥.
(٤) أَنظر، الصَّحِيفَة السَّجَّاديَّة الدُّعَاء الخَامِس وَالأَرْبعُون) (دُعَاؤُهُ لِوَدَاعِ شَهْرِ رَمَضَان). بتَحقِّيقنَا.

قَرِينَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ، وَلَا مِيرَاثَ كَالْأَدَبِ، وَلَا قَائِدَ كَالتَّوْفِيقِ، وَلَا تِجَارَةَ كَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلَا رِبْحَ كَالثَّوَابِ، وَلَا وَرَعَ كَالْوُقُوفِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ، وَلَا زُهْدَ كَالزُّهْدِ فِي الْحَرَامِ، وَلَا عِلْمَ كَالتَّفَكُّرِ، وَلَا عِبَادَةَ كَأَدَاءِ الْفَرَائِضِ، وَلَا إِيمَانَ كَالْحَيَاءِ وَالصَّبْرِ، وَلَا حَسَبَ كَالتَّوَاضُعِ، وَلَا شَرَفَ كَالْعِلْمِ، وَلَا عِزَّ كَالْحِلْمِ، وَ لَا مُظَاهَرَةَ أَوْثَقُ مِنَ الْمُشَاوَرَةِ»[1].

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاغَة: ٱلحِكمَة (١١٢).

نَار جَهَنّم

مَا هِي حَقِيقَة العَذَاب الَّذي أَشَار إِلَيهِ بقَوْلَه جَلّ وَعَزّ: ﴿وَفِى ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[1].

وَإِلىٰ أي حَدّ بَلَغ مِن الشِّدة وَالقَسوَة ؟. وَهَل هُو أَشَد وَطْأً مِن آلآم هَذِه الحَيَاة، وَآلَم وَقعاً مِن غَمزَات المَوْت وَسَكرَاته ؟.

أَجل، أَنَّ أَقل القَلِيل مِنْهُ أَشَد وَأَقْسىٰ مِن آلآم الدُّنْيَا مُجْتَمعَة، وَمَعهَا أَضْعَاف أَمثالهَا، وَقَد خَاف، وَٱستعَاذ مِنْهَا المَعصُومُون عَن الخَطأ وَالخَطِئَة، فَكَيف بِنَا نَحنُ ؟. خَافُوا مِن عَذَاب الله لأَنَّهُم أَعْلَم النَّاس بهِ، وَأَعْلَنُوا هَذَا الخَوف وَوَصفُوا هَولَه، ثُمَّ بَينُوا سَبِيل النَّجَاة مِنْهُ، كَي لاَ نَحْتَج وَنَعْتَذر، قَالَ الإِمَام زَين العَابدِين عليه السلام :

« مَوْلاٰيَ وَٱرْحَمْنِي إِذَا ٱنْقَطَعَ مِنَ الدُّنْيَا أَثَرِي، وَٱمَّحَى مِنَ الْمَخْلُوقِينَ ذِكْرِي، وَكُنْتُ مِنَ الْمَنْسِيِّينَ كَمَنْ قَدْ نُسِيَ مَوْلاٰيَ وَٱرْحَمْنِي عِنْدَ تَغَيُّرِ صُورَتِي وَحَالِي إِذَا بَلِيَ جِسْمِي، وَتفَرَّقَتْ أَعْضَائِي، وَتَقَطَّعَتْ أَوْصَالِي، يَا غَفْلَتِي عَمَّا يُرَادُ بِي »[2].

---

(١) ٱلحَدِيد: ٢٠.

(٢) أنظر. الصَّحِيفَة السَّجَّاديَّة الدُّعَاء الثَّالِث وَالخَمْسُون (دُعَاؤُهُ فِي التَّذَلُّل للهِ عَزَّ وَجَلّ). بتحقِّيقنَا.

« أَللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَارٍ تَغَلَّظْتَ بِهَا عَلَىٰ مَنْ عَصَاكَ ، وَتَوَعَّدْتَ بِهَا مَنْ صَدَفَ عَنْ رِضَاكَ ، وَمِنْ نَارٍ نُورُهَا ظُلْمَةٌ ، وَهَيِّنُهَا أَلِيمٌ ، وَبَعِيدُهَا قَرِيبٌ ، وَمِنْ نَارٍ يَأْكُلُ بَعْضَهَا بَعْضٌ ، وَيَصُولُ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ وَمِنْ نَارٍ تَذَرُ الْعِظَامَ رَمِيماً ، وَتَسقِي أَهْلَهَا حَمِيماً ، وَمِنْ نَارٍ لاٰ تُبْقِي عَلَىٰ مَنْ تَضَرَّعَ إِلَيْهَا ، وَلاٰ تَرْحَمُ مَنِ ٱسْتَعْطَفَهَا ، وَلاٰ تَقْدِرُ عَلَىٰ التَّخْفِيفِ عَمَّنْ خَشَعَ لَهَا وَٱسْتَسْلَمَ إِلَيْهَا تَلْقَىٰ سُكَّانَهَا بِأَحَرِّ مَا لَدَيْهَا مِنْ أَلِيمِ النَّكَالِ وَشَدِيدِ الْوَبَالِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَقَارِبِهَا الْفَاغِرَةِ أَفْوَاهُهَا ، وَحَيَّاتِهَا الصَّالِقَةِ بِأَنْيَابِهَا ، وَشَرَابِهَا الَّذِي يُقَطِّعُ أَمْعَاءَ وَأَفْئِدَةَ سُكَّانِهَا ، وَيَنْزِعُ قُلُوبَهُمْ ، وَأَسْتَهْدِيكَ لِمَا بَاعَدَ مِنْهَا ، وَأَخَّرَ عَنْهَا »[1] .

نَار الدُّنْيَا تَرسل النُّور ، وَتُبَدد الظَّلاَم ، وَيَهتَدي بهَا التَّائِه وَالضَّال ، وَنَار جَهنّم تُحِيل النَّهار المُضيء إِلىٰ لَيلٍ بَهِيم ، نَار الدُّنْيَا تَخْمد بالمَاء وَالتُّرَاب ، وَنَار جَهنّم وَقُودهَا الأَحْجَار وَالجِبَال ، وَالشَّرَاب وَالرّمَال ، وَٱلنِّسَاء والرّجَال ، وإِذَا صبّت مِيَاه البحَار وَالأَنْهار عَلىٰ جمرَة مِنْهَا ٱستحَالَت إِلىٰ دُخَان وَلَهِيب ، « نَارٍ شَدِيدٍ كَلَبُهَا ، عَالٍ لَجَبُهَا ، سَاطِعٍ لَهَبُهَا ، مُتَغَيِّظٍ زَفِيرُهَا ، مُتَأَجِّج سَعِيرُهَا ، بَعِيدٍ خُمُودُهَا ، ذَاكٍ وُقُودُهَا ، مَخُوفٍ وَعِيدُهَا ، عَمٍ قَرَارُهَا ، مُظْلِمَةٍ أَقْطَارُهَا ، حَامِيَةٍ قُدُورُهَا ، فَظِيعَةٍ أُمُورُهَا »[2] كَمَا قَالَ أَمِير المُؤْمِنِين عليه السلام : .

وَأَيْسَر مَكَان فِي جَهنّم يَزْدَحم بالأَفَاعي وَالعَقَارب ، لَو نَفثَت قَطرَة سمّ مِن فِيهَا عَلىٰ الأَرْض لسَاخَت بأَهلهَا ، وَأَهوَن شرَابها يُقَطّع الأَمْعَاء والأَعْضَاء وَيَنْزَع القُلُوب والأَفئِدَة ، يَسقِيه إِلىٰ عُطَاشىٰ جهنّم زَبَانيَة غِلاَظ شدَاد ، مَع مَقَارع مِن

---

(١) أُنظر . الصَّحِيفَة السَّجَّاديَّة الدُّعَاء الثَّانِي وَالثَّلاَثُون (دُعَاؤُهُ فِي صَلاَةِ اللَّيلِ) . بتحقيقنَا .

(٢) أُنظر . نَهج ٱلبَلاَغَة : ٱلخُطْبَة (١٩٠) .

حَدِيد بأكوَاب مِن وَبَاء وَبَلاَء، لَو وَقَعت قَطرَة مِنهُ فِي مِياه الدُّنيَا اَستحَالَت إلىٰ حَنْظَل وَعَلقَم.

وَأَشَد مِن ذَلِكَ كُلّه أنْ لاَ يَجْد المُبتَلي مُنفذ للخرُوج، وَلاَ مَسلكاً للهرُوب، وَلاَ صَدِيقاً يَشكُو إليهِ، وَلاَ وَالداً يُصغي لهُ، وَلاَ وَالدَة تحنُو عَلَيه، وَلاَ جَاه يُجدِيه، وَلاَ مَال يَنْفعه، وَلاَ نَسَب يَشفَع بهِ، وَلاَ تَوبَة تُلَطّف وَتُخفف، وَلاَ شَيء أبداً إلاّ الحَسرَة وَالنّدَامَة عَلىٰ مَا فَرّط فِي جَنْب الله، وَمَا فَعَل مِن مَعْصِيَته، وَتَرك مِن طَاعَته، لاَ شَيء إلاّ النّار الّتي لاَ تُبقي عَلىٰ مُتضرّع، وَلاَ تَرحَم لمُسْتَعطف، وَلاَ تُخفف عَن خَاشع وَمُسْتَسلم.

أَجَل لاَ شَيء أَشَد وَأَعْظَم مِن نَار جَهنّم، وَلَكن الخلاَص مِنْهَا سَهل يَسِير وَقَد حَدّد الإمَام أَمِيْر المُؤْمِنِينعليه السلام طَرِيقَة بهَذهِ البَسَاطه، وهَذِه الحِكْمَة: «الْإِيمَانُ عَلَىٰ أَرْبَعِ دَعَائِمَ: عَلَىٰ الصَّبْرِ، وَالْيَقِينِ، وَالْعَدْلِ، وَالْجِهَادِ. وَالصَّبْرُ مِنْهَا عَلَىٰ أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَىٰ الشَّوْقِ، وَالشَّفَقِ، وَالزُّهْدِ، وَالتَّرَقُّبِ: فَمَنِ اَشْتَاقَ إِلَىٰ الْجَنَّةِ سَلَا عَنِ الشَّهَوَاتِ؛ وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ اَجْتَنَبَ الْمحرَّمَاتِ؛ وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا اَسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ؛ وَمَنِ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ إِلَىٰ الْخَيْرَاتِ»[1]. إذَن، فلتَكن نَار جَهنّم مِن الشِّدّة مَا تَكُون، وَأَضعَاف أَضعَاف مَا هِي عَلَيه، فَأَنتَ فَلتَكن نَار جَهنّم مِن الشِّدّة مَا تَكُون، وَأَضعَاف أَضعَاف مَا هِي عَلَيه، فَأَنْت عَنْهَا فِي مَنأىٰ، وَعَنْهَا فِي أَمن وَأَمَان، مَا دُمتَ فِي مَنأىٰ عَن الحَرَام، وَمَاذَا يَهمّك مِن قوَانِين اللّصُوصيَة، وَتَشدّدها فِي العُقُوبَة إذَا لَمْ تَكُن لُصّاً؟. وَهَل يَسُوءك حسَاب المُجرِمِين وَعقَابهم إذَا كُنْتَ بَرِيئَاً؟. بَل العَكْس هُو الصَّحِيح...

(١) اُنظر، نَهج اَلبَلاَغَة: اَلحِكمَة (٣١).

ثُمَّ هَل مِن شَيء أَيسَر مِن أَنْ لاَ تَظْلم وَلاَ تَكْذب، وَلاَ تحْقد وَتُراوغ؟. وَأي شَيء أَخَف مِن تَجنب الشَّر والأَذىٰ؟ وإِذَا لَم تعمَل الخَير للنَّاس وأسعَادهم فَلاَ تَضع الأَشوَاك وَتَحفر الحُفر فِي طَرِيقهِم، وَلاَ ترشقهُم بالطَوب وَالحِجَارَة... أَنّ الله رَؤوف رَحِيم بعِبَاده، وَلاَ يَظلم أَحداً، وَلَكن نَحنُ نَظْلم أَنْفسنَا، وَنُلقي بهَا فِي الهَلكَات.

تَذكرتُ الآن أَنِي قَرَأتُ فِيمَا قَرَأت أَنَّ وَاعظاً لمَّا أَطَال وَأَفَاض فِي وَصف جَهنّم وهَولهَا قَالَ لهُ أَحد المُسْتَمِعِين: لَقَد عَرَفنَا جَهنَّم وَآفَاتهَا، فَمَتعنَا بذِكر الجَنَّة وَنَعِيمها. وَعَلىٰ ذَلِكَ فَإِنّ الجَنَّة لاَ همُوم فِيهَا وَأَسقَام، وَلاَ أَندَاد وَأَخصَام وَلاَ تَفْكِير فِي مُسْتَقبل أَو مَصِير، لاَ شَيء سِوىٰ السّرُور والأَفرَاح، وَالصّحَة والأَمَان، اللَّذّة وَالنَّعِيم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[1] وقال تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[2]، وَمَا إِلىٰ ذَاك مِمَّا لاَ عَينٌ رَأَت، وَلاَ أُذن سَمعَت... وَالطَّرِيق إِلىٰ الجَنَّة هُو طَرِيق النَّجَاة مِن النَّار بالذَات، قَالَ أَمِير المُؤمِنينعليه‌السلام: «فَمَنِ ٱشْتَاقَ إِلَىٰ ٱلْجَنَّةِ سَلاَ عَنِ ٱلشَّهَوَاتِ»[3]. أَي تَرَك المُحرَمَات.

(١) ٱلحَجّ: ٢٣.

(٢) مُحمَّد: ١٥. جَاء فِي وَصف الحُور أَنَّ الوَاحدَة مِنهُنّ لَو أَطلَّت عَلىٰ الأَرض لأَضَاءتها جَمِيعاً، وَلقَهر نُورهَا نُور الشَّمس وَالقَمَر مَعاً. وفِي فَصْل سَابق ذَكرنَا وَصف الجَنَّة والنَّار مُلخصاً مِن كتَاب «الإِنْسَان رُوح لاَ جَسَد». (مِنهُ‌رحمه‌الله).

(٣) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٣١).

وَبعد . فَنحنُ نَخاف الله وَعذابه ، وَنستجير بهِ مِنْهُ وَلَكن نَرجُو عفوَه وَكـرمه ، وليْسَ مِن شَكّ أنَّ كفّة الرَّجَاء هِي الأرجح لأنّها عَـلىٰ كَـرَم المَـرجُـو أدل . وَأنَّ للرَّاجين شأناً عِنْدَ الله كشأن التَّائبين ، بـخَاصّة إذا رَددُوا مُـخلصِين مَـع إمَـامهم الأعْظم زَين العَابدِين عليه السلام :

« أللَّهُمَّ لا تُعْرِضْ عَنِّي إعْرَاضَ مَنْ لا تَرْضَىٰ عَنْهُ بَعْدَ غَضَبِكَ وَلا تُؤْيِسْنِي مِنَ الأمَلِ فِيكَ فَيَغْلِبَ عَلَيَّ الْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَتِكَ وَلا تَمْنَحْنِي بِمَا لا طَاقَةَ لِي بِهِ فَتَبْهَظَنِي مِمَّا تُحَمِّلُنِيهِ مِنْ فَضْلِ مَحَبَّتِكَ وَلا تُرْسِلْنِي مِنْ يَدِكَ إرْسَالَ مَنْ لا خَيْرَ فِـيهِ ، وَلا حَاجَةَ بِكَ إلَيْهِ ، وَلا إنَابَةَ لَهُ وَلا تَرْمِ بِي رَمْيَ مَنْ سَقَطَ مِنْ عَيْنِ رِعَـايَتِك ، وَمَـنِ اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْخِزْيُ مِنْ عِنْدِكَ ، بَلْ خُـذْ بِـيَدِي مِـنْ سَـقْطَةِ الْـمُتَرَدِّينَ ، وَوَهْـلَةِ الْمُتَعَسِّفِينَ ، وَزَلَّةِ الْمَغْرُورِينَ ، وَوَرْطَةِ الْهَالِكِينَ وَعَافِنِي مِمَّا ابْتَلَيْتَ بِـهِ طَـبَقَاتِ عَبِيدِكَ وَإمَائِكَ ، وَبَلِّغْنِي مَبَالِغَ مَنْ عُنِيتَ بِـهِ ، وَأنْـعَمْتَ عَـلَيْهِ ، وَرَضِـيتَ عَـنْهُ ، فَأعَشْتَهُ حَمِيداً ، وَتَوَفَّيْتَهُ سَعِيداً »[1] .

آمِين . آمِـين . رَبّ العَـالمِين . بـمُحَمّد وَآله الأكـرَمِين صَـلوَات الله عَـلَيهم أجْمَعِين .

وَلَستُ أجد شَيئاً أبلَغ فِي المَوعظَة أخْتم بِهِ هَذَا الفَصْل الرَّهِيب المَهِيب مِـن قَوْل أمِير المُؤْمِنِين عَليّ لوَلَده الحَسَن عليه السلام ، وَهُو يُوصِيه :

« وَإذَا وَجَدْتَ مِنْ أهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَيُوَافِيكَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إيَّاهُ ، وَأكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأنْتَ قَادِرٌ عَـلَيْهِ ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلا تَجِدُهُ . وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ

---

(١) أنظر ، الصَّحِيفَة السَّجَّاديَّة الدُّعَاء السَّابع وَالأربعُون (دُعَاؤهُ فِي يَوْمِ عَرَفَة) . بتحقِّيقنَا .

فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ »[١].

وَأَكْتَفِي بالتَّعلِيق عَلىٰ هَذِه الجُمْلَة البَالغَة بهَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴾[٢].

---

(١) أنظر، نَهج البَلاَغَة: الرِّسَالَة (٣١).

(٢) المُطَفِّفِين: ٢٦.

الحُبّ فِي الله

مَحبّة الله:

لَيْسَ مَعْنَىٰ حُبّك الله أَنْ تَجْتَر كَلِمَات الحُبّ، وَتُرَددهَا بَيْنَ شَفَتَيك، بَل أَنْ تُحبّ الله فِي عِبَاده، فِي تَخْفِيف آلاَمِهِم، وَتَضمِيد جِرَاحِهِم، وَأَنْ تَطْلب الهدَايَة وَالرَّشَاد للأَشرَار وَالمُذنِبين، وَأَنْ لاَ تُعصي الله فِي قَوْلٍ أَو فِعلٍ، وَأَنْ تفوّض الأَمر إِلَيهِ، فَلاَ تَرضىٰ إِنْ أَعط، وَتَحتَج إِنْ مَنع، بَل تَذْكرَه وَتَشكرهُ فِي الحَالَين عَلىٰ السَّوَاء، وَلاَ تَهتَم إِلاَّ بطَاعَته، وَتَأديَة مَا عَلَيكَ مِن وَاجب.

قَالَ الإِمَام زَين العَابدِين عليه السلام:

« أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَطَيِّبْ بِقَضَائِكَ نَفْسِي، وَوَسِّعْ بِمَوَاقِعِ حُكْمِكَ صَدْرِي، وَهَبْ لِيَ الثِّقَةَ لِأُقِرَّ مَعَهَا بِأَنَّ قَضَاءَكَ لَمْ يَجرِ إِلاَّ بِالْخِيَرَةِ، وَاجْعَلْ شُكْرِي لَكَ عَلَىٰ مَا زَوَيْتَ عَنِّي أَوْفَرَ مِنْ شُكْرِي إِيَّاكَ عَلَىٰ مَا خَوَّلْتَنِي »[1].

أَنَّ المُحبّ حَقّاً لاَ يُحبّ فِي حَال دُون حَال، بَل فِي جَمِيع الأَحوَال، وَيُنزّه نَفْسَه عَن الأَطمَاع وَالأَغرَاض، أَمّا مَن يَشْكر إِنْ أَعطىٰ، وَيَثُور إِنْ مُنع فَهُو مُحبّ لنَفْسَه وَأَنَانِيته، وَمِن أَجلهَا يَرضىٰ وَيَغْضب، وَمِن هُنَا قَالَت رَابعَة العَدوِيَة:

---

(١) أنظر، الصَّحِيفَة السَّجَّادِيَّة: الدُّعَاء الخَامِس وَالثَّلاَثُون (دُعَاؤُهُ فِي الرِّضَا بِالقَضَاء) بتَحقِّيقنَا.

«إلهي إذا كُنْت أعْبدك رَهْبَة مِن النَّار فَأحْرقني بنَار جَهَنّم، وإذا كُنت أعْبدك رَغبَة فِي الجَنَّة فَأحْرمني مِنْهَا»[١].

بَل قَالَ الحَلاَّج فِي بَعْض شَطحَاته مَا مَعنَاه: «إنّي أستَمتع بعَذَاب الله، لأنّه يُنْسَب إلَيهِ، تمَاماً كمَا يَسْتَمتع العَاشق بعَذَاب المَعشُوق»[٢].

الحُبّ فِي الله:

الحُبّ فِي الله علاَقَة نَشَأت بَيْنَ أثنَين أو أكثَر فِي كَنف الطَّاعَة وَالإخلاَص لله، وكُلّ صِلَة دُونها هِي صِلَة شَخصيَة، أمّا صِلَة الحُبّ فِيهِ تَعَالىٰ فَإنّها مَبدَأيَة لاَ شَائبَة فِيهَا للذَات وَالأنَانيَة. أنَّهَا انجذَاب إيمَان إلىٰ إيمَان، وَإخلاَص إلىٰ إخلاَص، لا انْجذَاب تَاجر إلىٰ تَاجر، وَبَائع إلىٰ مُسْتَهلك... ولأنّها تَستَمد وجُودها وَقوّتها مِن الله كَانَت أثبَت الصّلاَة وَأرسَاها إطلاَقاً. لاَ يُزَايلهَا شَيء وَلاَ يُزعزهَا شَيء إلاَّ إذَا زَال الإيمَان.

قَالَ أمِيْر المُؤْمِنِين عَليّ عليه السلام:

«لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ الْمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هَذَا عَلَىٰ أَنْ يُبْغِضَنِي مَا أَبْغَضَنِي؛ وَلَوْ صَبَبْتُ الدُّنْيَا بِجَمَّاتِهَا عَلَىٰ الْمُنَافِقِ عَلَىٰ أَنْ يُحِبَّنِي مَا أَحَبَّنِي»[٣].

قَالَ ابن أبِي الحَدِيد: «الخَيْشُوم أقصىٰ الأنْف، والجَمَّات جَمع جَمَّة مَكَان يَجتَمع فِيهِ المَاء، وَهِي استِعَارة[٤]، وَمُرَاد الإمَام فِي هَذَا الفَصْل إذْكَار النَّاس

(١) لَمْ أعْثَر عَلىٰ هَذَا القَوْل.
(٢) لَمْ أعْثَر عَلىٰ هَذَا القَوْل.
(٣) أنظر، نَهج البَلاَغَة: الرّسَالَة (٤٤).
(٤) أنظر، لِسَان العَرب: ١٢ / ١٧٨، المجمُوع: ١ / ٣٥٣، الدّيباج على صَحِيح مُسْلِم: ٢ / ٢٥.

بحَدِيث : « يَا عَلِيُّ ، لاَ يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ ... وَهِي كَلِمَة حَقّ ، وذَلِكَ لأَنَّ الإِيمَان وَبُغْضَه عليه السلام لاَ يَجْتَمعان ، لأَنَّ بُغْضَه كَبيرَة ، وصَاحِب الكَبيرة عِندنا لاَ يُسمّىٰ مُؤْمِناً ، وَأَمَّا الْمُنَافِق فهُو الَّذي يُظْهر الإِسْلام ويُبْطِن الكُفر ، والْكَافِر بعَقِيدَته لاَ يُحبّ عَلِيّاً عليه السلام لأَنَّ الْمُرَاد مِن الْخَبَر الْمحبَّة الدِّينيَّة »[1] .

وَقَالَ حَفِيدَه الإِمَام زَين العَابدِين عليه السلام :

« وَأَلْبِسْ قَلْبِي الْوَحْشَةَ مِنْ شِرارِ خَلْقِكَ . وَهَبْ لِي الأُنْس بِكَ وَبِأَوْلِيَائِكَ ، وَأَهْلِ طَاعَتِكَ ، وَلاَ تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ ، وَلاَ كَافِرٍ عَلَيَّ مِنَّةً ، وَلاَ لَهُ عِنْدِي يَداً ، وَلاَ بِي إِلَيْهِمْ حَاجَةً ، بَل اجْعَلْ سُكُونَ قَلْبِي ، وَأُنْسَ نَفْسِي ، وَاسْتِغْنَائِي ، وَكِفَايَتِي بِكَ ، وَبِخِيَارِ خَلْقِكَ »[2] .

وقَالَ الإِمَام مُحمَّد البَاقر ابن الإِمَام السَّجَّاد عليهما السلام :

« وَإِذَا أَرَدتَ أَنْ تَعْلَم أَنَّ فِيكَ خَيرَاً ، فَانظُر إِلىٰ قَلْبك ، فَإِنْ كَان يُحبّ أَهْل طَاعَة الله ، وَيَبْغض أَهْل مَعْصيَته فَفِيك خَيْر ، وَالله يُحبّك ، وإِذَا كَان يَبْغض أَهْل طَاعَة الله ، وَيُحبّ أَهْل مَعْصيَته فَلاَ خَير فِيكَ ، وَالله يُبْغضك ، وَالمَرْء مَع مَن أَحَبّ »[3] .

وَبِهذَا يَتَبيَّن أَنَّ مَنْ يُكْرِم أَهْل الدُّنْيَا ، وَيَتجَاهل أَهْل الإِيْمَان فَلَيس مِن الله فِي شَيء ، وَلاَ أَحَد أَجرَأ عَلَيه مِنْهُ .

وَقَالَ مَن شَايَع وَتَابع : نَحنُ نَأْتلف أَبْنَاء الدُّنْيَا لنَرفع عَن طَرِيقِهم مَظْلَمَة عَن مَظْلُوم ، وَنُحَقّق مَصْلحَة للعمُوم .

---

(١) أنظر ، شَرح نَهج البَلاَغَة : ١٨ / ١٧٣ .

(٢) أُنظر ، الصَّحِيفَة السَّجَّاديَّة : الدُّعَاء الحَادي وَالعُشرُون (دُعَاؤُهُ إِذَا حَزَنَهُ أَمْرٌ) . بتَحقِّيقنَا .

(٣) أُنظر ، صَحِيح البُخَاري : ٥ / ٢٢٨٣ ح ٥٨١٧ ، صَحِيح مُسْلِم : ٤ / ٢٠٣٤ ح ٢٦٤٠ ، صَحِيح ابن حِبَّان : ١ / ٣٠٨ ح ١٠٥ ، سُنن التِّرمذي : ٤ / ٥٩٥ ح ٢٣٨٥ ، سُنن الدَّارمي : ١ / ١٠٤ ح ٣١٢ .

وَجوَابنَا عَلىٰ ذَلِكَ:

أَوّلاً: إنّا نَعْرف أَكْثَر مِن وَاحد مِن المُتزَلمِين للظّالم بدُون قَيد أَو شَرط، وَمَع ذَلِكَ لَمْ يَجْلب خَير الإِنْسَان، أَو يَدفَع ضَرّاً عَن إِنْسَان، وَلَم يَصْلَح شَيئاً فَاسداً مِن مُفْسد، أَو يُقَوّم اَعوجَاجاً مِن مُنْحَرف، بَل ٱزْدَاد سَيّده الطّاغيَة فَسَاداً يَوْماً بَعْد يَوْم مِن صُحْبَته، بَل نَعْرف رَجُلاً بشَخصهِ وَٱسمه يَتّخذ مِن صُحبَة الزُّعمَاء وَسِيلَة للدَّس عَن الأَبريَاء، وَيُحرّض الأَشرَار عَلىٰ التّنكِيل بالأَخيَار، وَيُوغر عَلَيهم الصّدُور بالكَذِب وَالإِفْترَاء، لاَ لشَيء إلاّ لأَنّهم أَرَادُوه للدِّين لاَ للدُّنيَا، وَللخَير لاَ للشَّهوَات، أَرَادُوه عُنوَاناً صَالحاً للسَّلف الصَّالح، وَأَبىٰ إِلاَّ أَنْ يَكُون للطّمع وَالجَشَع.

ثَانِياً: أَنَّ صَاحب الدُّنْيَا لاَ يَحْتَفل بصَاحب دِين إِلاَّ إِذَا ٱتّخذ مِنْهُ وَمِن دِينه وَسِيلَة لدَعم كيَانه، وَمحَال أَنْ يَتَقبل النُّصح، حَتّىٰ مِن الأَنْبيَاء إِذَا صَادَم هوَاه... وَقَد دَلتنَا التَّجَارب أَنَّ المُخلصِين مِن أَهْل العِلْم والدِّين لاَ وَقع لهُم فِي هَذَا الزَّمَان عِنْدَ السِّياسيِّين وَالمُتزَعمِين، وأَنّهُم لاَ يُقربُون أَي مُعَمم إِلاَّ إِذَا ٱنْسَلخ عَن دِينه وَصَار مِن شَرطَتِهم وَجنُودهِم... وَقَدِيماً قِيلَ: «مَن دَاخَل أَهْل الدُّنْيَا دَخَل مَعْهُم». هَذَا إِذَا دَاخلهُم بقَصد الصَّلاح والإِصْلاَح، فَكَيف بمَن تَابعهُم طَمعَاً فِي الحُطَام، وَرَغبَة فِي المَدِيح وَالثَّنَاء مِن العَوَام.

أَنَّ مَن يُؤمن بالله، وَيَتوكل عَلَيه حَقّاً لاَ يَسأَل أَحداً غَيرَه، وَلاَ يَقْبَل عَلىٰ مَخلُوق مِثْلَه. قَالَ الإِمَام زَين العَابدِين عليه السلام:

«أَللَّهُمَّ وَلِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ قَدْ قَصَّرَ عَنْهَا جُهْدِي، وَتَقَطَّعَتْ دُونَهَا حِيَلِي، وَسَوَّلَتْ لِي نَفْسِي رَفْعَهَا إِلَىٰ مَنْ يَرْفَعُ حَوَائِجَهُ إِلَيْكَ، وَلاَ يَسْتَغْنِي فِي طَلِبَاتِهِ عَنْكَ، وَهِيَ

زَلَّةٌ مِنْ زَلَلِ الْخَاطِئِينَ، وَعَثْرَةٌ مِنْ عَثَرَاتِ الْمُذْنِبِينَ ثُمَّ انْتَبَهْتُ بِتَذْكِيرِكَ لِي مِنْ غَفْلَتِي، وَنَهَضْتُ بِتَوْفِيقِكَ مِنْ زَلَّتِي، وَرَجَعْتُ وَنَكَصْتُ بِتَسْدِيدِكَ عَنْ عَثْرَتِي. وَقُلْتُ سُبْحَانَ رَبِّي كَيْفَ يَسْأَلُ مُحْتَاجٌ مُحْتَاجاً وَأَنَّي يَرْغَبُ مُعْدِمٌ إِلَىٰ مُعْدِمٍ فَقَصَدْتُكَ، يَا إِلَهِي، بِالرَّغْبَةِ، وَأَوْفَدْتُ عَلَيْكَ رَجَائِي بِالثِّقَةِ بِكَ وَعَلِمْتُ أَنَّ كَثِيرَ مَا أَسْأَلُكَ يَسِيرٌ فِي وُجْدِكَ، وَأَنَّ خَطِيرَ مَا أَسْتَوْهِبُكَ حَقِيرٌ فِي وُسْعِكَ، وَأَنَّ كَرَمَكَ لاَ يَضِيقُ عَنْ سُؤَالِ أَحَدٍ، وَأَنَّ يَدَكَ بِالْعَطَايَا أَعْلَىٰ مِنْ كُلِّ يَدٍ»[1].

يَقُول الإِمَام: كَيْف تَخْضَع وَتُسْتَعطف مَن هُو مِثلك فِي العَدَم والإِحْتِيَاج إِلىٰ الله سُبْحَانه؟. كَيْف تَقف عَلىٰ بَاب مَن إِذَا نَزَلت بِهِ نَازِلَة ٱلتجأ إِلىٰ بَـاب الله؟... أَلاَ تُنَزّه وَجْهَك عَن عَـبد لاَ يَـملك لنَـفسه نَـفْعَاً وَلاَ ضَـرّاً، وَتَـلُوذ بِـخَالق الأَرْض وَالسَّموَات، وَقَاضي الحَاجَات، وَكَافِي المُهمَات؟.

أَمَّا قَوْل الإِمَام: «وَسَوَّلَتْ لِي نَفْسِي رَفْعَهَا إِلَىٰ مَنْ يَرْفَعُ حَوَائِجَهُ إِلَيْكَ».

فَقَد أَرَاد بِهِ أَنْ يَكْشف عَن أَخطَائنا، كَي لاَ تَكَرّر، وَلاَ نَرجُوا أَحداً إِلاَّ مَن يَقْدر عَلىٰ كُلّ شَيء، وَلاَ يَفُوته شَيء، وَلاَ يَعُوزه شَيء... وَكَي يُؤكّد هَذِه الحَقِيقَة سَلَك نَفْس الطَّرِيق الَّذي سَلَكهُ إِبرَاهِيم الخَـلِيلعليه السلام مَـع قَـوْمَه الَّـذين كَـانُوا يَـعبدُون الكَوَاكب، حَيْث أَلزَمهُم الحُجّة حِينَ أُفُل معبُودهُم وقَالَ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَـئِن لَّـمْ يَـهْدِنِى رَبِّـى لَأَكُـونَنَّ مِـنَ ٱلْـقَوْمِ ٱلضَّآلِّـينَ فَـلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَـالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّـى بَـرِىٓءٌ مِّـمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَـنِيفًا وَمَآ أَنَـا مِـنَ

(١) أُنظر. الصَّحِيفَة السَّجَّادِيَّة الدُّعَاء الثَّالِث عَشَر (دُعَاؤُهُ فِي طَلَبِ الْحَوَائِجِ).

ٱلْمُشْرِكِينَ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[1].

وبعد، فإنّ للنّاس هموماً وحاجات، تختلف مظهراً، وتتّحد جوهراً... لذا قال قائل: إنّي أُخلصك من جميع همومك، على شريطة أنْ تأخذ بدلاً عنها هموم شخص آخر... قال هذا ليقينه بأنّه لا يوجد إنسان بلا هموم.

واحفظ هذا الحديث الشّريف، لعلّ الله تعالى ينفعك به: «إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنْتَ فاستعن بالله، وإنْ استطعْتَ أنْ تعمل لله بالصّدْق في اليقين فافعل، وإنْ لم تستطع ذلك فإنّ في الصّبر على ما تكرَهُ خيْراً كثيراً، واعلمْ أنّ النّصرَ مع الصّبْر، وأنّ الفرجَ بعْدَ الكرْبِ، وأنّ مَعَ العُسْر يُسْراً»[2].

(١) الأنْعَام: ٧٦ ـ ٨٠.

(٢) أنظر. مُسْنَد أحْمَد: ١/ ٢٩٣ ح ٢٦٦٩. سُنن التّرمذي: ٤/ ٦٦٧ ح ٢٥١٦. المُسْتدرَك عَلىٰ الصَّحِيحَين: ٣/ ٦٢٣ ح ٦٣٠٣. سُبُل السّلاَم: ٤/ ١٧٦ ح ٥. الأحَادِيث المُختَارَة: ١٠/ ٢٥ ح ١٥. المُعْجَم الأوسَط: ٥/ ٣١٦ ح ٥٤١٧. مَجْمَع الزّوَائِد: ٧/ ١٨٩.

إِخْوَانـي فِي الله

مَا شَرَعتُ بالكِتَابَة فِي مَوضُوع مَا إلاَّ تَولّد فِي خَاطِري مَوضُوع آخر قَبل أَنْ أَنْتَهي مِن الأَوّل . . . وَقَد أُسَجلَه ، وَكَثِيراً مَا أهْملهُ وَقَبل أَنْ أَنْهي الفَصْل السَّابق ـ الحُبّ فِي الله ـ أُوحي إليّ بهَذَا الفَصْل ، فَسَجلتهُ بعُنوَان « إِخوَاني فِي الله » للصِّلَة العَمِيقَة بَيْنَ الفَصلَين ، إِذَن ، مِن الخَير أَنْ تَقرَأ ذَلِكَ أَوّلاً ، وَتُثَنِي بهَذَا .

لاَ شَيء يُعَمّر القُلُوب بالسَّعَادَة وَالهَنَاء ، وَيُضَاعف مِـن أَفـرَاحـها ، إِنْ كَـانَت مَسرُورَة مُبْتَهجَة ، وَيُبَدّد مِن أَحْزانهَا إِنْ كَانَت بَائِسَة يَـائسَة . . . مِـثْل الصَّـدَاقَـة والأَصدقَاء .

لاَ شَيء أَجْمَل وَأَثمَن مِن الصَّدَاقة ، لأَنّها أَعْظَم نِعَم الحَـيَاة عِـنْدَ مَـن يَـفْهَم الحَيَاة .

لاَ شَيء أَقوىٰ وَأَمتَن مِن الصَّدَاقة ، لأَنّها أَروَاح مُتآلفَة مُـتكَاتفَة بـالذَات ، لاَ بتَوسط المُشَاركَة فِي الدّمَاء والأَنْسَاب .

لاَ شَيء يُغْني عَن الأَصدقَاء أَبداً ، حَتَّىٰ الجَاه وَالمَال ، وحَتَّىٰ ٱلنِّسَاء وَالعِيَال ، بَل وحَتَّىٰ الصّحَة والأَمَان .

لاَ شَيء يُوَازي الصَّداقَة ، لأَنّـها حُبّ وَوَلاَء ، وَتَـضامن وَٱصْـطفَاء ، وَصِـدق وَصفَاء ، وَتَفاعل الرُّوح مَع الرُّوح ، وَٱنْجذاب القَلْب للـقَلب ، وَٱسـتجَابَة العَـقْل

للعَقْل.

وَمَن عَاش بدُون أَصْدقَاء فقْد عَاش فِي مفَازَة مُوحشَة مُظلِمَة، وَإنْ كَان فِي جنَّة تَجري مِن تَحْتهَا الأَنْهار، وَمَن عَاش بِهِم فَهُو فِي نَعِيم الله وَالإنْسَانيَّة، وَإنْ كَان فِي قَفْر مُخِيف، لاَ سَبِيل فِيهِ وَلاَ دَلِيل.

فَالإنْسَان بمَعنَاه الإِنْسَاني، وَإنْ كَثُر مَالَه، وَامتَد جَاهه يَظل يَحس وَيَشعر أَنَّ فِي حيَاته فرَاغاً وَنَقصاً إذَا فقْد الأَصْفيَاء والأَوفيَاء... لأَنَّهُم يَمنحُون الحيَاة البَهجَة وَالمَسرّة.

وَقَد مَنّ الله عَليَّ بالكَثِير مِمَّا أستَحق، وَمَا لاَ أستَحق، وَيَكفي أَنَّه جَلّ وعَلاَ حبَّب إليَّ الكِتَاب وَالقَلم، وَالبَحث وَالدَّرس، وَمَنَحني صَبْراً دَائماً، وَعقلاً فَاهمَاً لكَثِير مِمَّا أَقرَأ وَأسمَع، وَقَلّما يُنْتَزع الوَقت مِن القَاريء، وَيُؤثر فِيهِ مِن حَيْث يُريد، أو لاَ يُريد.

وإذَا فَتح الله عَقْلي بَعْد الصَّبر وَالعَنَاء فَلَقَد أَنْعَم عَليَّ بِخَير الأَصدقَاء -بَعْد الغَربلَة وَالتَّصفيَة- وَجَعَلني أَشْعر بالسّعَادَة مِن أَجْلهِم، وَلَولاَهم لمَا كَان لِي شَيء آسف عَلَيه فِي هَذِه الحَيَاة، أَنْعَم عليّ بِهِم عَفوَاً، وَبدُون جُهد وَثَمن، وَكُلّمَا طَالَت الأَيَّام كُلّما ازدَادت هَذِه الصَّدَاقة قوّة وَمتَانَة، وَسَمت إلىٰ أَعْلىٰ فالأَعْلىٰ، وَهَذَا هُو المقيَاس الوَحِيد لتَمييْز الصَّدَاقة المُستَقرَة مِن المُستَودعَة، وَالصَّحِيحَة مِن الزَّائفَة الَّتي يَظنّ، وَيَترَاءىٰ أَنَّها صَدَاقَة، وَمَا هِي فِي وَاقعِهَا إلاَّ سَرَاب.

صَادَقتُ فِيمَا مَضَىٰ -أَكثَر مِن وَاحد، وَلمَّا طَال الزّمن، وَتَكرّرت التَّجْربَة تَبَيَّن بوضُوح وَجَلاَء أَنَّهُم يَفْقدُون عَنَاصر الصَّدَاقة بطَبِيعَتهم وَفِطرَتهم، وَبَديهَة أَنَّ هَذِه العَنَاصر نِعْمَة مِن الله سُبْحَانه يَمنَحها لمَن يَشَاء، وَيَمْنعهَا عَمّن يَشَاء، تَمَامَاً كنِعْمَة

السَّمع وَالبَصر، والعَقْل وَالذَّكَاء، لذَا عَذَرتهُم، وَخطَّأت نَفْسي، عَـذَرتهُم عَـلىٰ الرَّغم أَنَّهُم لاَ يَعْذرُون أَحداً، وَلاَ يُؤمِنُون أَبداً بأَنَّ خَير النَّاس مَن يَعْذر النَّاس... وَأيضاً أَعْذرهُم فِي ذَلِكَ، لأَنَّهُم يَفْقدُون هَذَا الحِسّ.

وَأَصْدقَائي، وَلله الحَمْد، تَتَوافر فِيْهِم هَذَا العَناصر بكَاملهَا... أَنَّهُم نَـاجحُون فِي أخلاَقهم وَمقَاصدهم... فَأَحبّ مَا يُـحبّون الصِّـدق والإِخـلاَص وَالوَفَـاء، وَأَبْغَض مَا يُبْغضُون الكَذِب وَالنِّفَاق وَالرِّيَاء... يُحبّون الخَير لوَجه الله وَالخَير... لاَ يَلتَمسُون لفَاعلِهِ العَثرَات، وَلاَ يُقلّلون مِن قِيمَته بالتَّأويلاَت وَلاَ يُثبطُون مِـن عَزِيمَته بالإِفْترَاءَات... بَل يُشجعُون عَلىٰ المُضي فِي سَبِيله، وَيُغرُونه بالمَزِيد... لاَ مَكَان أَبدَاً فِي قُلوبهِم للغُرُور، وَلاَ للحِقد، وَلاَ للحَسَد وَأَسأَل الله سُـبْحَانه أَنْ يُكثّر مِن حُسّادِهم.

يَسْتَمْتع بَعْض بصُحبَة بَعْض، وَيَشْعر نَحوَه بالتَعطف، وَيَتَمنىٰ أَنْ يَكُون أَخوه خَير النَّاس، وَأَرفَع دَرجَة وَأَسعَد حَظّاً.

لَمْ يَخطُ أَحدهُم خُطوَة إلاَّ إِلتَقىٰ مَع أَخِيه، وَمَا نَطَق بكَلمَة إِلاَّ عَبَّر عَن رَأيه.. أَتّحدُوا فِكرَاً وَهدَفاً وَسَبِيلاً... وَمَا أجْتَمعوا إِلاَّ أَستفَاد كُلّ مِن كُلّ عِلمَاً وَخُلقَاً.

وَلَيْسَت الحَيَاة عِنْدَهُم قِيلاً وَقَالاً، وَلاَ كَسَلاً وَاَهمَالاً، وَلاَ جلُوسَاً إِلىٰ جَاهل مِن غَير طَائِل.. وإِنَّمَا هِي الجُهد وَالصَّبر، وَالقَلم وَالكتَاب، وَالتَّذاكر وَالتَّدارس، ثُمَّ الإِنْتَاج النَّافع الخَالد الَّذي تَعدُوا بِهِ حدُود زَمَانهم وَمَكانهم.

أَنَّ العَالِم فِي مَفهومهِم هُو الَّذي لاَ يَنْقَطع عَن الكِتاب، يُثقف نَفْسَه بـإِسْتمرَار وَيَعرف كَيف يَسْتَفِيد عِلمَاً، وَيُفِيد، وَيَسألُون الله سُبْحَانه أَنْ يَنْشر العِلم، وَيُكَـثّر مِن العُلمَاء، لأَنَّهُم لاَ يَسْتَطيعُون الحَيَاة مَع الجُهلاَء وَالسُّفهَاء... وَلأَنَّهُم مِن رِجَال

مَبَادِيء الَّذِين يُقدرُون العِلْم للعِلْم، لاَ مِن أَصحَاب الأَهوَاء والأَغـرَاض الَّـذِين يَتّخذُون مِن عِلْمهم أَدَاة لغَرض دَنيء، وَيَنبشُون الحُـفر فِـي طَـرِيق السَّـالكِين وَيُموهُون أَفوَاهها بالتُّرَاب وَالحجَاب.

أَنَّ أَصْدقَائي لاَ يَتَصورُون أبداً أَنْ يرتَفعُوا إِنْ سَـقَط غَـيرهم، أَو يَسـقطُوا إِنْ ٱرْتفع...

لَقَد تَصَادقنَا، لأَنّنا نُحبّ الصّدق، وَتَصَافَينا، لأَنّنَا نُحبّ الصَّـفَاء، وهَـذَا هُـو الحُبّ فِي الله وَلله، وَتَحدثتُ عَن أَصْدقَائي، لأنّي أُحبّهم، وَأُحبّ كُلّ مَـن يَـفي لصَدِيقه، وَيَتحدّث عَنْهُ، لأَنَّ الوَفَاء أُمّ الفَضَائِل.

وَبَعد، فَإِنّ لَدي الكَثِير مِن الكَلاَم عَن أَصدقَائِي، أَدْعـهُ إِلىٰ فُـرصَة أُخـرىٰ. وَلَكن شَيئاً وَاحداً يَهمني أَنْ أَقُوله، وَلاَ بُدّ لِي أَنْ أَقُوله، كَي لاَ يُـخدَع القَـاريء بقَوْلي:

وَيَظنّ أَنّنا نَنظُر جَمِيعاً إِلىٰ النَّاس بمنظَار وَاحـد. بَـل أَنَّ لكُـلّ مِـنّا مـنْظَارَه وَحُجّته.

فَصَدِيقي الأَوّل يَرىٰ أَنَّ سُوء الظَّن بكُـلّ إِنْسَـان هُـو الأَصـل، حَـتَّىٰ يـثْبت العَكْس، وَحُجّته أَنَّ الزّمَان فَاسد، وَهُو لاَ يُرِيد أَنْ يَنْزَلق وَيَتورّط، عَلىٰ أَنَّـه لاَ يُرَتب أَي أَثر فِي الخَارج عَلىٰ سُوء ظَنّه سَلباً وَإِيجَاباً إِلاَّ مَع الدَّلِيل القَاطع.

وَالأَصل عِنْدَي أَنَا هُو حُسن الظَّن، حَتَّىٰ يَستَبِين لِي غَير هَـذَا، أَو تَـقُوم بِـهِ البَينَة، وَدَلِيلي أَنَّ ظَاهر الأَفعَال حُجّة كظَاهر الأَقوَال، وَأَنَّ ٱفْترَاض حُسن النِّيّة بالنَّاس حَسَن عِنْدَ الله وَالنَّاس.

أَمَّا صَدِيقي الثَّاني فَيَتوقَف لاَ يُسيء الظَّن وَلاَ يُحْسنَه، وَمُستَندَه أَنَّ «الوقُوف

عِنْدَ ٱلْشُّبْهَة خَيرٌ مِنْ الإِقْتحَام فِي الهَلَكَة »[١].

وَيَقُول صَدِيقي الثَّالث: أَنَّ التَّوقف فِي الشُّبهَات المَوضُوعيَة لاَ مَصْدَر لهُ، حَتَّىٰ عِنْدَ الإِخبَاريِّين، وَسُوء الظَّن إطلاَقاً، تَمَاماً كحُسْنه إطْلاَقاً، مِنْهُمَا يُنَافي الإِحتيَاط، إِذْ قَد نُسيء الظَّن بالمُحسن، أَو نُحسن الظَّن بالمُسيء، والأَجْدَر الأَفْضَل هُو الأَعْتدَال[٢].

وَسرّ هَذَا الإِخْتلاَف أَنَّ الأَول قَد مَرّ بأَكْثَر مِن تَجربَة، وأَحْسَن الظَّن بأَكْثَر مِن وَاحد، ثُمَّ خَاب فَأَلَه، وَالثَّاني عَلَىٰ طَبْعِهِ لاَ يَسْتَأنس، وَلاَ يَسْتَوحش للوَهلَة الأُولى، بَل يَصْبر وَيَنْتَظر، أَمّا الثَّالث فَقَدْ دَأَب مُنذ الصِّغر عَلَىٰ البَحْث وَالجدَال، وَتَقوِيم الآرَاء وَالأَفكَار بمَنطق العَقْل وَالعِلْم[٣].

وَمَهْمَا كَان السِّر وَيَكُون فَإِنّي أُفضّل أَلف مَرّة أَنْ أُحسِن الظَّن بمَن لاَ يَستَحق عَلىٰ أَنْ أسيء الظَّن بمَن يَستَحق، أُفَضّل خَطَأي فِي ذَلِكَ عَلَىٰ صَوَابي مَع العِلْم

---

(١) أُنظر، الكَافِي: ١ / ٥٠ ح ٩. تُحف ٱلعُقول: ٢١٤. الأَحْكَام ليَحيىٰ الهَادي: ٢ / ٢٢٢. كتَاب الزُّهد لحُسين ٱبن سَعِيد الكوفي: ١٩ ح ٤١. عُيُون الحِكم وَالموَاعظ: ٦٨. المحَاسِن: ١ / ٢١٥.

(٢) قِيل لِعَالِم: مَنْ أَسوأُ النَّاس حَالاً؟ قَالَ: مَنْ لاَ يَثق بأحدٍ لِسُوء ظَنّه، وَلاَ يَثق بِهِ أَحد لِسُو فِعْله.

أُنظر، مَعْدن الجوَاهر: ٢٢. عُيُون الحِكَم والموَاعظ: ٢٩٥. فَيض القَدِير شَرح الجَامِع الصَّغِير: ٣ / ٥١٠. شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابن أَبِي ٱلحَدِيد: ١٨ / ٢٧٩.

وَقِيل لِصُوفيّ: مَا صنَاعتُك؟ قَالَ. حُسنُ الظَّنّ باللهِ، وَسُوءُ الظَّنّ بِالنَّاس.

وَكَانَ يُقَال: مَا أَحْسَنَ حُسن الظَّنّ إلاَّ أَنَّ فِيهِ العَجز، وَمَا أَقْبَح سُوء الظَّنّ إلاَّ أَنَّ فيهِ الحَزْم.

أُنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابن أَبِي ٱلحَدِيد: ١٨ / ٢٧٩ و: ٢٠ / ٢٩٤. البدَايَة والنّهاية: ١٣ / ٢٠٥.

(٣) أَعْطَيتُ الأَرقَام للأَخلاَء عَلَىٰ أَسَاس السَّبق فِي الزَّمَان. وَذَكرتُ الثَّلاَثَة عَلَىٰ سَبِيل المثَال دُون الحَصْر، لأَنَّ لِي بَاقَة أُخرىٰ مِن الأَصْدقَاء، وَلكُلّ نَظرَته إِلَىٰ النَّاس. وفِي الحَيَاة تَختَلف حَسَب بِيئَته وَثقَافَته. (مِنْهُ ﷺ).

بأنّي وقعتُ أكثَر مِن مرّة فِي هذَا الخطأ، وانتقدني مَن انتقد، واتهمني مَن اتهم سامحهُ الله... وأقسم بمَا أدِين وأعتقد أنّي لستُ نادماً ما دُمت صادقاً فِي نِيّتي، مُخلصاً فِي مَقْصَدي.

والله سُبْحَانه المَسئُول أنْ يُعطي الأَصْدقَاء مِنّي أكثَر مِمَّا أعطَاني مِنهُم، وأنْ يَسعدهُم بي كَمَا أسْعَدني بِهم، أنَّه خَير مَسئُول.

حُقُوق الجِيْرَان

تُقَسم أَحْكَام الشَّرِيعَة الإِسْلاَمِيَّة إِلىٰ نَوعَين:

عِلاَجِيَة، وَوقَائِيَة، وَمِن العلاَجِيَة وجُوب ٱلتَّوْبَة عَلىٰ المُذنِبين، وَكُفَّارَة العَهْد وَالنَّذر اليَمِين، وَكُفَّارَة القَتل، والإِفطَار فِي شَهْر الصِّيَام، ومِنْهَا أَيضاً الحدُود، وَالقَصَاص، وَالدِّيَات.

وَمِن الأَحْكَام الوقَائيَة تَرك المُحرمَات، والإِبْتعَاد عَن الشُّبهَات، بَل وَفِعل الوَاجبَات، يَتّقي بهَا المُطِيع عَذَاب الآخرَة.

وهُنَاك أَحْكَام فِيهَا شَيء مِن النَّوعَين، كحُقُوق الجَار أَو التَّأكِيد عَلىٰ هَذِه الحُقُوق عَلىٰ الأَصَح... فَإِنّها وقَائيَة مِن حَيْث أَنَّهَا تَقي الجَار، وَتَبْتَعد بِهِ عَن المُشَاحنَات وَالمُنَازعَات الَّتي تَحْدث - فِي الغَالب - بَيْنَ المُتجَاورَين لأَسبَاب تَافهَة، أَو غَير تَافهَة يَسْتَدعيهَا قُرب الدَّار وَنوَافذه، وأَطْفَاله، وَهي عِلاَجيَة مِن حَيْث أَنَّهَا تُوجب الصَّبر وَضَبط العَاطفَة والأَعْصَاب لَو حَصَل شَيء مِن ذَلِكَ وَمَن ٱطّلع عَلىٰ هَذِه الحقُوق رَأىٰ أَنَّهَا لاَ تَخْتَلف عَن الحُقُوق العَامّة للإِنْسَان عَلىٰ أَخِيه الإِنْسَان إِلّا بالتَشدّد والتَّأكِيد، وَيَدل عَلىٰ ذَلِكَ قَوْل الرَّسُول الأَعْظَم ﷺ: «مَنْ

آذىٰ جارَهُ حرّمَ اللهُ عَلَيهِ رِيْحَ الجَنَّةِ، وَمأواهُ جَهَنّمَ وَبِئْس المَصِيرِ»[١].

وَبَديهة أنَّ الأذىٰ مُحرّم مِن حَيْث هُو، وَيَستَدعي العَذاب، سوَاء أحَصلَ علىٰ الجَار أم غَير الجَار، وَلَكن الحِكْمَة فِي هَذَا التَّخصِيص وهَذِه المُبَالغَة هُو التَّحفظ مِن حدُوث مَا يُعكّر الصّفو، ويُؤدي بالجِيرَان إلىٰ الأَحقَاد والأَضغَان.

وَقَد جَمَع الإمَام زَين العَابدِين عليه السلام هَذِه الحُقُوق بدُعَائه لجِيرَانه فِي الصَّحِيفَة السَّجَّاديَّة وهَذَا مُلَخصهَا:

١ ـ الرِّفْق.

٢ ـ قَضَاء الحَاجَة...

٣ ـ عِيَادَة المَرِيض.

٤ ـ هدَايَة طَالِب الرُّشد.

٥ ـ مُنَاصحَة طَالِب المَشُورَة.

٦ ـ زِيَارَة الغَائب إذَا حَضَر.

٧ ـ كِتْمَان السِّر، وَعدَم إشَاعَة مَا يَرَاه مِنْ عيُوب.

٨ ـ نُصرَة المَظلُوم.

٩ ـ إعَارَة مَا يَحتَاج إلَيه الجَار مِن الأَدوَات.

١٠ ـ غَضّ الطَّرف عَن العَورَات.

١١ ـ التَّوَاضع.

١٢ ـ تَرْك الحَسَد.

١٣ ـ الحُبّ للجَار مَا تُحبّ لنَفسَك.

---

(١) أنظر، قَرِيب مِن هَذَا فِي البَحْر الرَّائِق: ٧/ ٥٥، سُبل السَّلاَم: ٣/ ١٣٩.

وهَذِه الصَّفْحَات ـ كَمَا تَرىٰ ـ لاَ يَخْتَص حُسنهَا وَرُجحَانهَا مَع الجِيرَان فَقَط، بَل تَعم الجَمِيع، ولَكنّها تَتأكّد مَع الجَار دفعاً لمَا يَسْتَدعِيه الجِوَار مِن النّزَاع، وَالشّجار. وَلاَ شَيء أَدل عَلىٰ ذَلِكَ مِمَّا خَتَم بِهِ الإِمَام دُعَاوه، حَيْث قَالَ:

«أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَٱرْزُقْنِي مِثْلَ ذَٰلِكَ مِنْهُمْ، وَٱجْعَلْ لِي أَوْفَىٰ الْحُظُوظِ فِيمَا عِنْدَهُمْ، وَزِدْهُمْ بَصِيرَةً فِي حَقِّي، وَمَعْرِفَةً بِفَضْلِي، حَتَّىٰ يَسْعَدُوا بِي، وَأَسْعَدَ بِهِمْ آمِينَ رَبَّ الْعَالَمِينَ.» [1].

وَبَعِيد أَنْ يَعْتَرف الجَار بفَضل جَاره كَائِناً مَن كَان إلاَّ إِذَا رَاعىٰ هَذِه الحُقُوق، أَو الصِّفَات الّتي أَشرنَا إِلَيْهَا.

وَبَعْد، فَإِنّ هَذِه الصَّفْحَات، وَمَا إِلَيْهَا لَيْسَت إلاَّ مَظهَراً للوحدَة بَيْنَ أَبْنَاء البَشرية جَمعَاء، وإلاَّ ٱعْترَافاً بقِيمَة الإِنْسَان بمَا هُو إِنْسَان قَرِيباً كَان أَو بَعِيداً عَالماً كَان أَو جَاهلاً، وإِنَّمَا تَتأكّد فِي الجَار لأَسبَاب طَارئَة، تمَاماً كالأَمر بدَفع السَّيئَة بالحَسَنَة... فَإِنَّ الحَسَنة رَاجحَة بذَاتهَا، سوَاء أَكَان هُنَاك سَيئَة تَدفَع بهَا، أَم لَمْ يَكُن، وَلَكنّها تَكُون أَفضَل وَأَرجَح إِذَا تَرتَب عَلَيهَا دَفع السَّيئَات قَبل أَنْ تَحْدث، أَو رَفعهَا وَٱسْتئصَالها بَعْد الوقُوع والحدُوث.

---

(١) أُنظر، الصَّحِيفَة السَّجَّادِيَّة: الدُّعَاء السَّادِس وَالعُشرُون (دُعَاؤُهُ لِجِيرَانِهِ، وَأَوْلِيائِهِ). بتَحقِّيقنَا.

المُحْسِن وَالمُسِيء

المُسِيء:

قَد يَكُون الإِنْسَان مُسِيئاً مِن جِهَة، وَمُحْسناً مِن جِهَة أُخرىٰ، وَقَد تَتضَاعَف الإِسَاءَة بِإعْتبَار ثَالِث: يَكُون مُسِيئاً حَيْث يَترتَب عَلىٰ فِعْله نَتَائج سَيئَة، ويَكُون مُحْسناً إِذَا رَأىٰ نَفْسَه أَنَّه مُسيء فَلَقد جَاء فِي الحَدِيْث الشَّرِيف: «مَنْ رَأَىٰ أَنَّه مُسِيء فَهُوَ مُحْسِنٌ»[1]. وَفِيهِ أَيضاً: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ»[2].

وَتَتضَاعف الإِسَاءَة إِذَا اَستهَان بهَا صَاحبهَا، وَلَم يَكْترِث، قَالَ أَمِير المُؤْمِنين عليه السلام: «أَشَدُّ الذُّنُوبِ مَا اَسْتَهَانَ بِهِ صَاحِبُهُ»[3].

وَفِي الحَدِيْث: «لاَ صَغِيرَة مَعَ إِصْرَار، وَلاَكَبِيرَة مَع اَسْتِغْفَار»[4].

وَلَيْسَ مَعْنَىٰ تَقسِيم المُسِيء إِلىٰ هَذِه الجِهَات أَنَّ الإِسَاءَة تُحَدّد عَلىٰ أَسَاس

---

(١) أُنظر، شَرْح نَهج اَلبَلاَغَة لإِبن أَبي اَلحَدِيد: ٢٠ / ٣١٧، اَلحِكْمَة (٦٤١). وَقَد نَسبهَا إِلىٰ الإِمَام عَليّ عليه السلام.

(٢) أُنظر، صَحِيح اَبن حِبّان: ٢ / ٣٧٧ ح ٦١، المُسْتَدرَك عَلىٰ الصَّحِيحَين: ٤ / ٢٧١ ح ٧٦١٢، الأَحَادِيث المُختَارَة: ٦ / ١٠٢ ح ٢٠٨٨، مَوَارد الظَّمآن: ١ / ٦٠٨ ح ٢٤٥٢، سُنَن البَيهَقي الكُبرىٰ: ١٠ / ١٥٤، سُنن اَبن مَاجَه: ٢ / ١٤٢٠ ح ٤٢٥٢.

(٣) أُنظر، خطب نَهج اَلبَلاَغَة: ٤ / ٨١، اَلحِكْمَة (٣٤٨).

(٤) أُنظر، مَسَالك الأَفْهَام: ١٤ / ١٦٨، الكَافِي: ٢ / ٢٨٨ ح ١، الوَسَائِل: ١١ / ٢٦٨ ح ٣، الجَامِع الصَّغِير للسُّيوطي شَرْح المَنَّاوي: ٢ / ٣٦٥.

الشّعُور، وأَنَّه مقيَاس الحُسن وَالقُبح، كَلّا فَإنّ الحُسن حُسن بذَاتـه، أَو بـنَتَائجَه وَالقُبح كذَلك، وإنَّمَا الشّعُور يُوجب التّخفِيف مِن عقُوبَة المُسِيء إذَا رَاجَع نَـفْسَه وَانْتفدهَا، كَمَا يُوجب التّشدّد إذَا أَصرّ، وَرَأَىٰ أَنَّه قَد أَحْسَن صُنعَاً.

وَشرّ النّاس، وَأَكثرهُم إسَاءَة مَن يَهْتَم بعيُوب النّاس، فَيَتتبعهَا، وَيُضِيف إلَيْهَا، وَيُلَفق مَعهَا، ثُمّ يُشِيع وَيُذِيع، وَيتفَنن فِي الشّرح وَالتّفصِيل، وَالتّفسِير وَالتّأوِيل، وَلاَ يَحفل إطلاَقاً بمَا يَترَتب عَلىٰ ذٰلِكَ مِن شَرّ وَفَسَاد... وهُـو فِـي ذَات الوَقت يَذهل عَن عيُوبَه، وَلَو كَانَت مِثْل زَبَد البَحر، وَلاَ دَوَاء لهٰذَا الفَاجر الشّرّير، بَعْد أَنْ مَات قَلْبَه، وَتَمكن الشّيطَان مِنْهُ، وَيَئس أَهْل السّمَاء وَالأَرْض مِن تَوْبَته وَهدَايَته، وَلاَ دَوَاء لهُ إلاّ أَنْ تَرفَع شَكوَاك عَلَيه إلىٰ مَحْكَمة الحَقّ وَالعَدل الّتي لاَ تُخفىٰ عَلَيهَا خَافيَة فِي الأَرْض وَلاَ فِي السَّمَاء، وَلاَ تَسأَلك عَن حُجَج الإقْـتِنَاع، وَلاَ تَـطْلب مِنْك البَيِنَة، أَو اليَمِين، وَلاَ تَقْبَل الشّفَاعَات وَالوَسَاطَات، وَلاَ تمِيل مَـع كَـبِير أَو صَغِير، وَلاَ غَنِيّ أَو فَقِير، ارْفَع دَعوَاك إلىٰ مَحْكَمة الله العَلِيّ الأَعْلىٰ، وَسَترىٰ رَأي العَين مَاذَا يَحل غَدَاً بهٰذَا المُسْتهتر المُتَردِ وَغَدٍ آتٍ لاَ محَالة، تَـمَاماً كَـمَا يَأتـي مَوْعد المُحَاكمَة الّذي يُعَينه القَاضِي فِي الوَقت المُنَاسب، ارْفَع دَعوَاك إلَيْهَا بهٰذَا الإسْتدعَاء وَقُل كَمَا قَالَ الإمَام زَين العَابدِين عليه السلام:

«أَللّهُمّ صَلِّ عَلىٰ مُحَمّدٍ وَآلِهِ، وَمَنْ أَرَادَنِي بِسُوءٍ فَاصْرِفْهُ عَنّي، وَادْحَرْ عَنّي مَكْرَهُ، وَادْرَأْ عَنّي شَرّهُ، وَرُدّ كَيْدَهُ فِي نَحْرِهِ وَاجْعَلْ بَيْنَ يَدَيْهِ سُدّاً حَتّىٰ تُعْمِيَ عَنّي بَصَرَهُ، وَتُصِمّ عَنْ ذِكْرِي سَمْعَهُ، وَتُقْفِلَ دُونَ إخْطَارِي قَلْبَهُ، وَتُخرِسَ عَنّي لِسَانَهُ، وَتَقْمَعَ رَأْسَهُ، وَتُذِلّ عِزّهُ، وَتَكْسُرَ جَبَرُوتَهُ، وَتُذِلّ رَقَبَتَهُ، وَتَفْسَخَ كِبْرَهُ، وَتُؤْمِنَنِي مِنْ جَمِيعِ ضَرّهِ، وَشَرّهِ، وَغَمْزِهِ، وَهَمْزِهِ، وَلَمْزِهِ، وَحَسَدِهِ، وَعَدَاوَتِهِ، وَحَبَائِلِهِ،

وَمَصَايِدِهِ، وَرَجِلِهِ، وَخَيْلِهِ، إِنَّكَ عَزِيزٌ قَدِيرٌ»[١].

اَرْفع هَذَا الدُّعَاء، أَو الْإِسْتدعَاء إِلىٰ الله جَلّ وَعزّ، وَانْتَظر مَصِير الحَقُود وَالحَسُود عَلىٰ شَرِيطَة أَنْ تُكَافِئه بالصَّبر وَالتَّوكل عَلىٰ الله وَطَاعَة الله فِيهِ وفِي سوَاه... وَحَسبُك أَنْ يَكُون عَدوّك عَدوّاً لله لعُدوَانه وَمَعصِيَته، وَأَنْ تَكُون حَبِيب الله لطَاعَتك وَتقوَاك، وَعَلىٰ أَبي ٠الحَسَنين الَّذي قَالَ: «فَمَا هَمُّكَ، وَشُغُلُكَ بِأَعْدَاءِ اللهِ؟»[٢]. فَضل التَّحيَات وَالصَّلوَات.

المُحْسِن:

وَقَد يَكُون المُحْسِن مُسِيئَاً مِن جِهَة، كَمَا لَو أُعْجبَ وَتَبَاهىٰ بعَمَله وَإِحْسَانه، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذىً﴾[٣].

وَقَد يَزدَاد الْإِحْسَان إِحْسَاناً، كَمَا لَو تَوَاضع فَاعله، وَلَو يَر أَنَّه المُحْسِن «الكَبِير» أَو الصَّغِير، قَالَ أَمِير المُؤْمِنِين عليه السلام: «لاَ يَسْتَقِيمُ قَضَاءُ الْحَوَائِجِ إِلَّا بِثَلاَثٍ: بِاَسْتِصْغَارِهَا لِتَعْظُمَ، وَبِاَسْتِكْتَامِهَا لِتَظْهَرَ، وَبِتَعْجِيلِهَا لِتَهْنُؤَ»[٤].

وَخَير النَّاس وَأَحْسَنَهُم عِنْدَ الله سُبْحَانه مَن عَمِل بوَصيَة أَمِير المُؤْمِنِين لوَلَده الْإِمَام الحَسَن عليه السلام: «يَابُنَيَّ اَجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاَكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلاَ تَظْلِمْ كَمَا لاَ تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاَسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ،

---

(١) أُنظر، الصَّحِيفَة السَّجَّاديَّة: الدُّعَاء الثَّالِث وَالعِشْرُون (دُعَاؤُهُ بِالْعَافِيَة). بتَحقِّيقنَا.

(٢) أُنظر، نَهج اَلبَلاَغَة: اَلحِكْمَة (٣٥٢).

(٣) اَلبَقَرَة: ٢٦٣.

(٤) أُنظر، نَهج اَلبَلاَغَة: اَلحِكْمَة (١٠٠).

وَأَرْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلاَ تَقُلْ مَا لاَ تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلاَ تَقُلْ مَا لاَ تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ »[١].

وَالكَلْمَة الجَامعَة لِذَلِكَ وَغير ذَلِكَ هِي قَوْله: « فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ». فإنّهَا وَصيّة الأَنْبِيَاء المُرْسَلِين، وَالأَئِمَّة المَعْصُومِين، وَقَد أَطَال فَلاَسِفَة الشَّرق وَالغَرب الكَلاَم حَوْل هَذِه الوَصِيَّة الذَّهبيَّة، مَع عِلْم الجَمِيع بأَنّه لَيْسَ فِي مَقدُور أي إِنْسَان أَنْ يَهب حُبّ نَفْسَه لغَيرِه، أَو يَجْعَل حُبّه للغَير مُعَادِلاً لحُبّه لنَفْسَه، بخَاصّة إِذَا كَان المَطلُوب حُبّه أَجْنَبِياً عَن المُحبّ...

وَقَالَ الفَيْلسُوف الأَلمَاني هِيجل: « القَصْد مِن هَذِه الوَصِيَّة أَنْ يَنْسب المَرء إِلىٰ أَخِيه قَدراً مُسَاوِياً مِن الإِحْسَاس بالحَيَاة، لأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يَسْتَمد الحَيَاة مِن مَصْدَر وَاحد »[٢].

وَهَذَا المَعْنَىٰ وَإِنْ كَان أَقْرَب مِن المَعْنَىٰ الَّذي ذَكَرهُ شُوبنهُور، وهَارتمَان وَغيرهُما إِلاَّ أَنّه بَعِيد عَن دلاَلَة اللَّفظ، لأَنَّ الحُبّ شَيء، والإِحْسَاس شَيء آخر.

والصَّحِيح: « فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ».

تَعبِير ثَانٍ عَن قَوْلَك: « يُحبّ عَلَيكَ أَنْ تَرىٰ لغَيرك مِن الحُقُوق مِثْل الَّتي تَرَاهَا لنَفْسك، وَتَرىٰ عَلَيكَ مِن الوَاجبَات مِثْل الَّتي تَرَاهَا عَلىٰ غَيرك.

وَأَبْلَغ مِن هَذَا وَأَعمَق قَوْل الإِمَام: « اَجْعَل نَفْسَك مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَك وبَيْنَ غَيْرِكَ ».

وَلَيْسَ مِن شَكّ أَنَّ هَذَا سَهْل يَسِير، لاَ ضَرَر فِيهِ وَلاَ حَرَج، وَأي بَأْس فِي أَنْ

---

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الرّسَالة (٣١).

(٢) أنظر، مَوسُوعة الفَلسَفَة لِعبد الرّحمَان بَدَوِيّ: ٢ / ١٧٤.

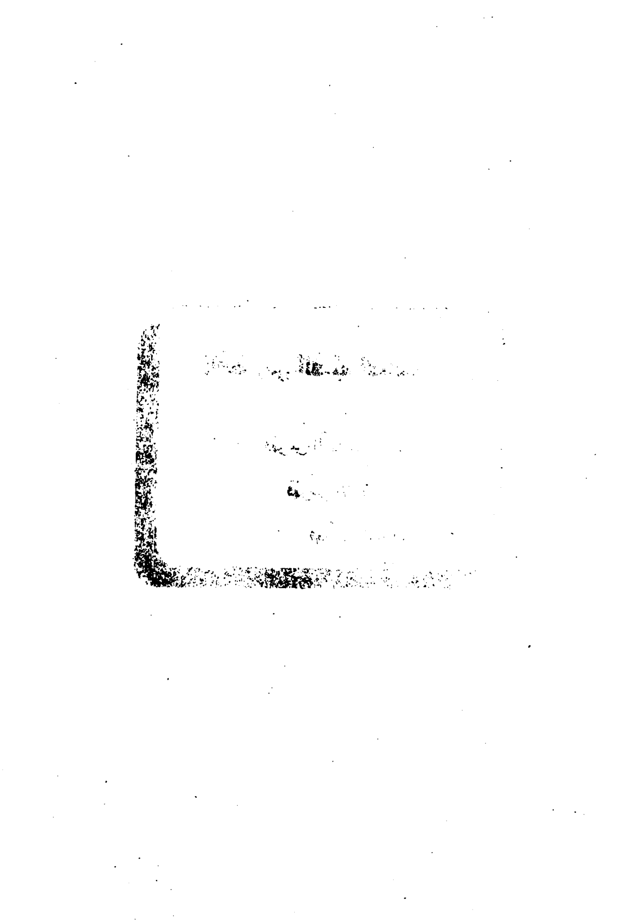
يُقَال لَكَ : لاَ تُسِيء إِلىٰ أحد ، كَمَا لاَ تُرِيد أَنْ يسيء أَحد إِلَيك ، وَعَامل النَّاس كَمَا تُحبّ أَنْ يُعَاملُوك ، وَٱلتمس الأَعْذَار لعيُوبهِم كَمَا تَلْتَمس لعيُوبك وَلاَ تقسُ فِي حُكمك عَلىٰ أَحدٍ كَمَا تُرِيد أَنْ لاَ يَقسُوا أَحد فِي حُكمهِ عَلَيك .

أَمَّا سرّ هَذِه الوَصِيَّة فَيكمن فِي عَظَمَة الإِنْسَانيَّة الَّتي تَتَمثّل وَتَتجسّم فِي كُلّ فَرد مِن أَفرَادهَا ، قَالَ بَعْض العَارفِين : « أَنَّ الكَوْن كُلّه لاَ يُسَاوي شَيئاً بِجَانِب حَيَاة إِنْسَان وَاحد » أي أَنّ الإِنْسَان أَشرَف مِن الكَوْن بأَرْضهِ وَسَمَائه ، بشَمْسهِ وَقَمره ، وَجَمِيع كَوَاكبه ، وَمَا فِيهَا ، وَكَأَنَّ هَذَا القَول مَأخُوذ مِن الحَدِيْث الشَّرِيف : « المُؤمنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً مِنَ الكَعْبَة وَمِنْ مَلَكٍ مُقَرّبٍ »[1] .

إِذَن ، مَن ٱعْتَدىٰ عَلىٰ إِنْسَان يُؤمن بِاللهِ ، وَأَضْمَر لهُ السُّوء فَقَد ٱعْتَدىٰ عَلىٰ الكَعْبَة ، بَل عَلىٰ الكَوْن بكَاملهِ .. هَـذَا إِلىٰ أَنَّ مَبدَأ « أَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ » لَو طُبّق لضَمِن للنَّاس ، كُلّ النَّاس الأَمْن ، وَالعَدْل ، وَالرَّفَاهيَة .

(١) نَظَر رَسُول الله ﷺ إِلىٰ الكَعْبَة فَقَالَ : « مَرْحَباً بِكِ مِن بَيْتٍ ! مَا أَعْظَمَكِ ، وَأَعْظَم حُرمَتكِ ! وَالله إِنَّ المُؤمِن أَعظَم حُرْمَة مِنْكِ عِند الله عَزَّ وَجلَّ ؛ لأَنَّ الله حَرَّم مِنْكِ وَاحِدَة ، وَمِن المُؤمِن ثَلاَثَة : دَمَهُ ، وَمَالهُ ، وَأَنْ يَظن بِهِ ظَنّ السُّوء » . أُنظر ، المُعْجَم الكَبِير : ١١ / ٣١ ، مُسْنَد الشَّامِيين : ٢ / ٣٩٦ ح ١٥٦٨ ، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابن أَبِي ٱلحَدِيد : ١٨ / ٢٧٨ ، موَارد الظَّمآن : ٣٥٩ ، كَشف الخَفَاء : ٢ / ٢٩٢ ، تَفْسِير ٱبن كَثِير : ٤ / ٢٢٨ ، الدُّر المَنثُور : ١ / ١٣٢ ، الشِّفا بِتَعريف حقُوق المُصْطَفىٰ : ٢ / ٩٣ ، سُنن ٱبن مَاجه : ٢ / ١٢٩٧ ح ٣٩٣٢ ، سُنن التِّرمذي : ٣ / ٢٥٥ ح ٢١٠١ ، مَجْمَع الزَّوائِد : ٣ / ٢٩٢ ، تُحفَة الأَحْوَذي : ٦ / ١٥٣ .

الفَهَارِس الفَنِّيَّة العَامَّة



فهرس الآيات

الآيــة	رقمها	الصَّفْحَــة
العلق		
﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾	١ ـ ٥	١٧٢
﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾	١	١٨٤
البينة		
﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾	٥	٢٥
الكافرون		
﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾	٦	٣٢١
الإخلاص		
﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾	ـ ٤	٢٧٧

فَهْرَس الْأَحَادِيث

طرف الحديث	الصفحة
إنّ أهْل الْمَعْرُوف فِي الدُّنْيَا هُم أَهْل	٣٥٤
الله فِي عَون العَبد مَا كَان العَبد فِي عَون	٣٥٤
خَيْر النَّاس مَن ٱنْتَفَع النَّاس بِهِ	٣٥٤
مَن سَلَك طَرِيقاً يَلْتَمس فِيهِ عِلمَاً	٣٥٥
مَن كَتَم عِلمَاً جَاء يَوْم القِيَامَة	٣٥٥
مَن لَقي النَّاس بوَجهَين وَلسَانَين جَاء يَوْم	٣٥٥
يُحْشَر ٱلْمُتَكَبِّرون عَلىٰ هَيئَة الذَّر يَطَأهُم	٣٥٦
مَن خَاف النَّاس مِن لسَانَه فَهُو مِن أَهْل	٣٥٦
إنَّ فِي الجَنّة غُرفاً يَرىٰ ظَاهرهَا مِن بَاطنهَا	٣٥٦
إنَّ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ عُدْوَان مُتَفَاوِتَانِ	٣٥٧
لَيْسَ خَيركُم مَن تَرَك ٱلْحَيَاة، وطَبِيعتهَا	١٥١ و ٣٥٨
لَيْسَ خَيْركم مَن تَرَك الدُّنْيَا لِلآخِرَة	١٥١ و ٣٥٨
المُؤْمِن القَوي خَير وَأَحبّ إلَىٰ الله	٣٥٨
طَلَب الدُّنْيَا مُكَاثِرَاً مُفَاخِراً لَقي الله	٣٥٩
حُبّ الدُّنْيا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَة	٣٦٠
مِثْل الحَرِيص عَلَىٰ الدُّنْيَا كَمَثَل دُودَة القَزّ	٣٦٠
الرَّب مَسَحني لأُبَشر المَسَاكِين وَأَرسَلني	٣٦٠
وَلَوْ شِئْتُ لاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ، إلَىٰ مُصَفَّى	٣٦٢
الدُّنْيَا مَنْزل صِدق لمَن صَدّقهَا، وَمَسكَن	٣٦٢
وَمَتجَر أَولِيَائه، ٱكتَسبُوا فِيْهَا الرَّحمَة	٣٦٣

طرف الحديث	الصفحة
أنَّ عَبداً أذنب فَاَسْتَغفر الله، فَغفر لهُ ثُمَّ	٣٦٥
مَن مَات عَلَىٰ التَّوحِيد لَم يُشرك بالله غَيْرَه	٣٦٦
عَرَفْتُ اللهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ الْعَزَائِمِ	٣٨٤
عَبْدي أَطَعني تَكُنْ مَثْلي، تَقُولُ للشَّيء	٤٠٨
لَيْسَ فِي الجَنَّة شَيْخٌ وَلاَ عَجوزٌ	٤٠٩
أَهلُ المَعْرُوف فِي الدُّنْيَا أَهْلُ المَعْرُوف	٤٢٢
مَا كَان عَلَيكَ لَو سَكَت	٤٢٣
مَنْ هَمَّ بحَسَنة، فَلَم يَفْعَلها كُتْبَت لهُ حَسَنة	٤٢٥
مَن لاَيَرحَم لاَ يُرحَم	٤٢٦
لاَ يَجبُ لأَحَدٍ أَنْ تَغْفِرَ لَهُ بِإسْتِحْقَاقِهِ	٤٢٧
فَسَمَّيْتَ دُعَاءَكَ عِبَادَةً، وَتَرْكَهُ اَسْتِكْبَاراً	٤٣١
أَللّهمَّ هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ، وَمَحَلُّ الْمُعْتَرِفِ	٤٣٢
يَا حَلِيمُ أَنْتَ الَّذِي فَتَحْتَ لِعِبَادِكَ بَاباً	٤٣٢
وَخَلِّصْنِي مِنَ الْحَسَدِ	٤٣٧
أَللَّهُمَّ وَإِنَّهُ لاَ وَفَاءَ لِي بِالتَّوْبَةِ	٤٣٨
وَارْزُقْنِي الرَّغْبَةَ فِي الْعَمَلِ لَكَ لآخِرَتِي،	٤٣٨
رُفِع عَن أُمّتي تِسْعَة: الخَطأ، وَالنِّسيَان،	٤٤٠
وَارْزُقْنِي التَّحَفُّظَ مِنَ الْخَطَايَا، وَالإِحْتِرَاس	٤٤١
مُؤْثِراً لِرِضَاكَ عَلَىٰ مَا سِوَاهُمَا فِي الأَوْلِيَاءِ	٤٤١
وَضَعَ عَنَّا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَلَمْ يُكَلِّفْنَا	٤٤٢

فَهْرَسُ المصَادِر المَطْبُوعَة وَالمَخْطُوطَة

١. الْقُرْآن الْكَرِيم، كِتَاب الله تَبَارَك وتَعَالىٰ الحَيّ القَيُّوم.

حَرْف الألف

٢. الإِتحَاف بِحُبّ الأَشرَاف، للشَّبرَاويّ الشّافِعيّ (ت ١١٧٢ هـ ق)، تَحقِيق: مُحَمّد جَابر، المَطبعَة الهِندِية العَربية ١٢٥٩ هـ وَطَبعَة ـ مَصْر ١٣١٣ هـ وأُعِيد طَبعَه فِي ـ إيرَان ١٤٠٤ هـ

٣. الأَخْبَار الطِّوَال، لأَحمَد بن دَاود الدّينوريّ (أَبُو حَنِيفَة ت ٢٨٢ هـ) تَحقِّيق: عَبدالمُنعم عَامر. طَبْعَة دَار المَسِيرة ـ بَيْرُوت، طَبْعَة دَار إِحيَاء الكُتُب العَربية سَنَة (١٩٦٠ م).

٤. الإِختصَاص، المَنْسُوب لِمحَمَّد بن مُحَمَّد بن النُّعمان العَكْبريّ المَعرُوف بِالشَّيخ المُفِيد، نَشر جَمَاعة المُدرسِين. قُم: إيرَان.

٥. الإِستبصَار فِي نَسَب الصَّحَابة مِن الأَنْصَار، عَبدالله بن أَحْمَد مُوفق الدِّين أبن قُدَامة (ت ٦٢٠ هـ). تَحْقِّيق: عَليّ نويهض. طَبْعَة بَيْرُوت.

٦. الإِستِيعَاب فِي مَعْرِفَة الأَصْحَاب، يُوسُف بن عَبدالله بن مُحَمَّد القُرطبي أَبُو عُمْر المَشهُور بِأبن عَبد البر النمري، (ت ٤٦٣هـ). تَحقِّيق: عَليّ مُحَمَّد مُعوض دَار الكُتُب العِلْمِيَة. بَيْرُوت ـ لُبْنَان. وتَحقِّيق عَليّ البَجَاوي. طَبْعَة القَاهِرَة

وَبِهَامش الْإِصَابَة .
٧ . أُسد الغَابَة فِي مَعْرِفَة الصَّحَابَة ، لأَبِي الحَسَن عِزّ الدّين عَليّ بن أَبِي الكَرَم مُحَمَّد ابن مُحَمَّد بن عَبد الكَريم الشَّيبَانيّ المَعْرُوف بِابن الأَثِير الجَزْرِيّ (ت ٦٣٠ هـ ق)، تَحْقِيق : مُحَمَّد إِبرَاهِيم ، طَبْعَة ـ القَاهرَة ١٣٩٠ هـ، وَطُبع بِالأُفست فِي المَكْتَبَة الإِسْلاَمِيَّة للحَاج رِيَاض ، وَطَبع المَطْبَعَة الوَهبِية بِمَصْر .
٨ . الْإِصْبَاح عَلىٰ المصبَاح فِي مَعرفَة المَلك الفَتَّاح ، الْإِمَام النَّاصر لِدِين الله إِبرَاهِيم بن مُحَمَّد بن أَحمَد المُؤيدي ، تَحقِّيق : السَّيِّد العَلاَّمة عَبدالرَّحمن بن حُسِين شَايم ، طَبْع مُؤسَّسة الْإِمَام زَيد الثَّقَافِية .
٩ . الْإِمَام زَيد حيَاته وَعَصره وآرَاؤه وَفِقهه . مُحَمَّد أَبُو زُهرة . المَكْتَبَة الْإِسْلاَمِيَّة . بَيْرُوت ـ لُبْنَان .
١٠ . الْإِشرَاف عَلىٰ فَضل الأَشرَاف ، لإِبرَاهيم الحَسنيّ الشّافعيّ السّمهوديّ المَدنيّ تَحقِيق : سَامي الغُريري ، طَبع دَار الكتَاب الْإِسلاَمي .
١١ . الْإِصَابَة فِي تَمييز الصَّحَابة ، مُحَمَّد بن حَبِيب البَغْدَادِي . طَبْعَة مَولاىٰ عَبدالحَفِيظ . القَاهرَة (١٣٢٨ هـ).
١٢ . الْإِصَابَة فِي تَمييز الصَّحَابة ، (بهَامش الْإِستِيعَاب لِابْن عَبدالبَر) . أَحْمَد ابن حَجر العَسْقلاَني (٧٧٣ ـ ٨٥٢ هـ) . دَار العُلوم الحَدِيثة . وَطَبعات أُخرىٰ لاَحقَة .
١٣ . الأَعلاَم ، قَاموس تَرَاجم لأَشهر الرِّجَال ... خَير الدِّين بن مَحمُود بن مُحَمَّد ابن عَليّ بن فَارس ، أَيلول سبتَمبر ١٩٩٢ م دَار العِلم بَيْرُوت ـ لُبْنَان .
١٤ . أَعْلاَم النِّسَاء ، عُمر رِضا كحَالة سَنَة (ت ١٤١٣ هـ) مُؤسَّسَة الرِّسَالة بَيْرُوت ـ لُبْنَان .
١٥ . الأَغَاني ، لأَبِي الفَرج الإِصبهَانِي (ت ٣٥٦ هـ)، تَحقِّيق : خَلِيل مُحيِيّ

الدّين دَار الكُتُب المَصْرِيّة، الطَبْعَة الأُولىٰ ١٣٥٨ هـ، وَكَذا طَبْعَة دَار الفِكر بَيْرُوت عَام (١٤١٢ هـ).

١٦. أَمَالِي المُرتضىٰ. عَليّ بن الحُسَيْن العَلوي. طَبْعَة مَصْر عَام ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧ م بتَحْقِيق / مُحَمَّد أَبُوالفَضْل إبرَاهِيم. دَار الكِتَاب العَربي ـ بَيْرُوت. لُبْنَان.

١٧. أَمَالِي الشّيخ الطّوسي، لأَبي جَعْفر مُحَمّد بن الحَسن الطّوسي مَنشُورَات المَكتَبة الأَهليّة، اوفسَيت مَكتَبة الدّاوري، قُم ـ إيـرَان، وَالمَـطبعَة الإسـلاَميّة، طَهرَان ١٤٠٤ هـ وَطَبعَة مُؤسّسة البِعثَة دَار الثّقافَة قُم ١٤١٤ هـ.

١٨. الإمَامَة وَالسِّيَاسَة، لأَبِي مُحَمَّد عَبد الله ابن مُسْلِم المَعْرُوف بابن قُـتيبة الدّينوريّ (ت ٢٧٦ هـ ق)، مَكْتَبَة ومَطْبَعَة مُصْطَفىٰ بَابي الحَلبي، مَصْر ١٣٨٨هـ.

١٩. السِّيرة الحَلبِية (إنْسَان العُيُون فِي سِيرة الأَمِين المَأمُون)، عَليّ بن بُرهَان الشَّافعي الحَلبي، دَار الفِكر العَربِي بَيْرُوت ١٤٠٠ هـ.

٢٠. الأَنْسَاب، عَبدالكـريم مُـحَمَّد السَّـمعاني (ت ٥٦٢ هـ). طَـبْعَة لَـيدن. وبـتَحْقِيق: عَـبدالرَّحـمَن المَـعْلَمي الـيمَاني. طَـبْعَة ـ بَـيْرُوت. الطَـبْعَة الأُولىٰ ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م دَار الجنَان بَيْرُوت ـ لُبْنَان.

٢١. أَنْسَـاب الأَشْـرَاف، لأَحـمد بـن يَـحْيَىٰ بـن جَـابر البَلاَذريّ، (ت ٢٧٩ هـ ق)، تَحْقِيق: كمَال الحَارثيّ، طَبْعَة مَكْتَبَة الخَانجيّ ـ مَصْر ١١٢٥ هـ، طَبْعَة مَكْتَبَة المُثَنّىٰ بَغْدَاد ١٣٩٦ هـ، وتَـحْقِيق الـمحمُودي، مُـؤسّسة الأَعلمي بَيْرُوت.

٢٢. أَوَائل المقَالاَت. للشَّيخ المُفِيد. مَنْشُورات مَكْتَبَة الدَّاوري. إيرَان. قُم.

حَرْف البَاء

٢٣. البدَاية والنّهاية، لأَبِي الفدَاء إسْمَاعِيل بن كَثِير الدّمشقي، تَحْقِيق: عَليّ

شِيري، دَار الكُتُب العِلْمِيَة، الطَبْعَة الخَامسَة، (١٤٠٩) هـ، مَطْبَعَة السّعادة مَصْر عَام ١٣٥١ هـ.

٢٤. البدَاية والنّهَايَة، مُحَمَّد بن عَبدالحرّ الكنَاني (ت ١٣١٢ هـ). طَبْعَة القَاهرَة (١٣٥١ ـ ١٣٥٨ هـ).

٢٥. البِحَار، للعَلاَّمة المَجلسي. طَبْعَة سَنَة (١٤١٢ هـ). مُؤسَّسَة الوَفَاء بَيْرُوت: لُبْنَان، وأيضاً طَبْعَة إيرَان، طَبْعَة سَنَة (١٣٩٤ هـ) إيرَان.

٢٦. بِشَارة المُصطفَىٰ لشِيعَة المُرتَضىٰ، عمَاد الدّين أَبُو جَعْفَر مُحمّد بن القَاسم الطّبري، المَطْبعَة الحَيدرِية، النَّجف الأَشرَف، الطَّبعَة الثّانِية ١٣٨٣ هـ وَنَشر مَطْبعَة الخَانجي مَصْر ١٤٠٠ هـ.

٢٧. البُلدَان، لأَبِي بَكر أَحْمَد بن مُحَمَّد الهَمدَاني المَعْرُوف بِابن الفَقِيه، طَبْعَة النَّجَف الأَشْرَف، طَبْعَة لَيدن.

٢٨. البيَان وَالتّبيين، لعَمرُو بن بَحر الجَاحظ، (ت ٢٥٥ هـ ق)، شَرح حَسَن السّندوبيّ، نَشر دَار الجَاحظ ١٤٠٩ هـ، وَمَطبعَة الإِستقَامة، الطَّبعَة الثّالثَة القَاهرَة ١٣٦٦ هـ وَطَبعَة دَار الوَعي سُوريا ١٤٠٢ هـ.

٢٩. بُلُوغ الأَرب وَكنُوز الذَّهب فِي مَعرِفة المَذْهَب، لعَلي بن عَبدالله بن القَاسم ابن مُحَمَّد بن الإِمَام القَاسم بن مُحَمَّد الحَسَني الشّهاري الصَّنعَاني، تَحقِيق عَبدالله بن عَبدالله بن أَحْمَد الحُوثي، طَبع مُؤسَّسة الإِمَام زَيد بن عَليّ الثّقَافِية.

حَرْف التّاء

٣٠. تَاج العَرُوس فِي جوَاهر القَامُوس، مُحَمَّد مُرتضىٰ الزَّبِيدي. طَبْعَة مَصْر.

٣١. تَاج اللُّغة وَصحَاح العَربِية. للجَوهري. طَبع عَام ١٢٨٢ هـ. مَصْر (مُجلدَان).

٣٢. التَّأريخ . خَليفة بن خيَّاط (ت ٢٤٠ هـ) . تَحْقِّيق أكرم ضِيَاء العُمري . طَبْعَة دِمشق (١٩٧٧م) .

٣٣. تَأرِيخ بَغْدَاد لأَحمد بن عَليّ الخَطِيب البَغداديّ ، طَبْعَة دَار السَّعادة مَصْر .

٣٤. تَأرِيخ الأَدَب العَربي ، (بِالألمَانية) . لكَارل برُوكلمَان ، تَرجَمة الدّكتور عَبد الحَلِيم النّجار ، الأَجزَاء الثّلاثة الأوّل ، الطَبْعَة الرّابعة دَار المَعَارف القَاهرَة ، وَأمّا الأَجزَاء الثَّلاثة الأُخر ، تَرجمهَا ، الدّكتور يَعقُوب بَكر ، والدّكتور رَمضَان توَاب .

٣٥. تَأرِيخ اليَعقُوبيّ ، أَحْمَد بن أَبِي يَعْقُوب بن جَعْفَر العَبَّاسي المَعْرُوف بِاليَعقُوبيّ ، طَبْعَة النَّجَف الأَشْرَف ١٣٥٤ هـ .

٣٦. تَثْبِيت إمَامَة أَمِير المُؤْمِنِين عَليّ بن أَبِي طَالب ، للإمَام يَحيَىٰ الهَادي (مَخطُوط) بِالجَامع الكَبِير ، مَجمُوع (٢٤) تَحت رَقم « ٤١٤ » .

٣٧. التَّأرِيخ يَحْيَىٰ بن مَعِين (ت ٢٣٣هـ) ، روَاية عَبَّاس الدُّوري . تَحْقِّيق : أَحْمَد مُحمَّد نُور سَيف . طَبْعَة مَكَّة المُكَّرمة ١٩٧٩م .

٣٨. التَّأرِيخ الكَبِير لِمحَمَّد بن إسْمَاعِيل البُخاريّ ، طَبْعَة حَيدر آبَاد الدّكن .

٣٩. تَأرِيخ التُّرَاث العَربي . سَركِين فؤَاد . تَرجمَة : فَهمي أَبُوالفَضْل وَمَحمُود حجَازي . طَبْعَة القَاهرَة (١٩٧٧ م) .

٤٠. تَأرِيخ ابْن خَلدُون ، المُسمىٰ التَّأرِيخ أَو العِبر ودِيوَان المُبتَدأ أَو الخَبر . عَبد الرَّحْمَن بن مُحمَّد المَشهُور بِابن خَلدُون (ت ٨٠٨ هـ) ، طَبْعَة دَار الكِتَاب العَربيّ بَيرُوت ١٩٧١ هـ .

٤١. تَأرِيخ الخُلفَاء لعبدالرَّحْمَن بن أَبِي بَكر السّيوطيّ (ت ٩١١ هـ) ، تَحقِّيق مُحيي الدِّين عبدالحَمِيد ، طَبْعَةالقَاهرَة ، ١٩٥٩ م؛ طَبْعَة دَار السّعادة مَصْر عَام (١٤١٦ هـ) .

٤٢. تَأريخ الخَمِيس فِي أحوَال أَنفس نَفِيس، لحُسين بن مُحَمَّد بن الحَسَن الدّيار بكري (ت ٩٦٦ هـ)، طَبْعَة القَاهرَة ١٢٨٣ هـ.

٤٣. تَأرِيخ دِمشق، حَمزَة بن أَسد القَلانسي (ت ٥٥٥ هـ). طَبْعَة بَيْرُوت عَام (١٩٠٨ م).

٤٤. تَأرِيخ دِمَشق، عَليّ بن الحَرّ بن عَساكر (ت: ٥٧١ هـ). طَبْعَة دِمشق ١٩٥١ ـ ١٩٥٤ م. طَبْعَة (١٩٨٢ م).

٤٥. تَأريخ الإِسْلاَم، مُحَمَّد بن أَحْمَد بن عُثْمان الذّهبيّ، (ت ٧٤٨ هـ) مَكْتَبَة القَدسي القَاهرَة (١٣٦٨ هـ تَحقِّيق بَشَار عوَاد مَعْرُوف طَبْعَة القَاهرَة (١٩٧٧ م).

٤٦. تَأرِيخ الإِسْلاَم السّيَاسي وَالدّيني والثّقافِي وَالإِجتَماعي، الدُّكتُور حَسَن إبرَاهِيم، طَبْعَة دَار الكِتَاب بَيْرُوت ١٤٠١ هـ.

٤٧. تِأرِيخ الإِسلاِم وَوَفيَّات المَشَاهِير وَالأَعلام، لشَمس الدّين مُحَمّد بن أَحمَد الذَّهبيّ (ت ٧٤٨ هق)، تَحقِيق: عُمر عَبد السّلام تَدمريّ، طَبعَة دَار الرّائد العَربي ـ القَاهرة ١٤٠٥ هـ، وَنَشر دَار الكتَاب العَربي ـ بَيرُوت ١٤١١ هـ وَطَبعَة حَيدر آبَاد الدّكن ١٣٥٤ هـ.

٤٨. تَأرِيخ الطَّبريّ تَأرِيخ الرُّسل والأُمم وَالمُلوك، لأَبِي جَعْفَر مُحَمَّد بن جَرير الطَّبريّ (... ـ ٣١٠ هـ)، تَحقِّيق مُحَمَّد أَبُو الفَضل إِبرَاهِيم دَار المَعَارِف القَاهرَة (١٩٦٠ م) طَبْعَة أُوربا، طَبْعَة الإِستقَامة مَصْر.

٤٩. تَأرِيخ اَبْن عَسَاكر (تَأرِيخ دِمشق)، الأَجزَاء الَّتي حَقَقَّها المحمُودي، تَرجمَة الإِمَام عَليّ والإِمَام الحَسَن والإِمَام الحُسَيْن.

٥٠. تَأرِيخ مُخْتَصر الدّول. اَبْن نَمر يغوريُوس المَلطي (ت ٦٨٥ هـ). طَبْعَة بَيْرُوت (١٩٥٨ م).

٥١ . تَأريخ اليَعْقوبي ، لِابْن وَاضح . طَبْعَة دَار صَادِر بَيْرُوت . وأيضاً النَّجَف .

٥٢ . تَثبِيت الْإِمَامَة ، للإِمَام يَحيَىٰ الهَادي ، مَوجُود تَحت رَقـم (٢٠٦) مِـن المُتحف البرِيطَاني .

٥٣ . التُّحف شَرْح الزُّلف ، لَمجد الدِّين المُؤيدِي ، تَحقِّيق : مُحَمَّد يَحيَىٰ سَالم عزَان ، وَعَليّ أَحمَد الرَّازحي . صَنعَاء مُؤسَّسة أَهْل البَيْت للـرِّعَاية الإِجـتَماعِية ١٩٩٤ م .

٥٤ . تَثْبِيت دَلائِل النُّبوَّة ، للقَاضي عَبد الجَبار ، طَبعَة دَار المَلاَيِين للعِلم بَيرُوت ١٤٠٢ ه .

٥٥ . التُّحفَة اللَّـطِيفة فِـي تَأرِيـخ المَـدِينَة الشَّـرِيفة . مُـحَمَّد عَـبدالرَّحـمَن السَّخاوي (ت ٩٠٢ ه) . طَبْعَة القَاهرَة (١٩٥٧ ـ ١٩٥٨ م) .

٥٦ . تَذكرَة الحفَّاظ ، مُـحَمَّد أَحْـمَد بـن عُـثمان الذَّهـبيّ ، (ت ٧٤٨ ه ق) ، تَحقِّيق : أَحْمَد السّقا ، طَبْعَة ـ القَاهرَة ١٤٠٠ ه ، طَبْعَة حَيدر آباد الدّكن ١٣٨٧ ه طَبْعَة دَار إحيَاء التُّراث العَربيّ مَكْتَبَة الحَرم المَكيّ بِمَكّة المُكرَمَة .

٥٧ . تَذكرَة الخوَاص (تذكرَة خوَاص الأُمَّة) ، ليُوسُف بن فَرغلي بن عَبد الله المَعْرُوف بِسبط آبْن الجَوزيّ ، الحَنبَليّ ثُمَّ الحَنفيّ ، نَزِيل دِمشـق (ت ٦٥٤ ه) ، طَبْعَة ـ بَيْرُوت الثَّانِيَة ١٤٠١ ه ، طَبْعَة النَّجَف الأَشْرَف ، طَبْعَة مَصْر .

٥٨ . التَّرغِيب وَالتَّرهِيب . عَبدالعَظِيم بن عَبدالقوّي المُـنذري (ت ٦٥٦ ه) . تَحقِّيق : مُصْطَفىٰ عمَارة . بَيْرُوت (١٩٦٨ م) .

٥٩ . تَفْسِير الكَشّاف ، لأَبي القَاسم جَار الله مَحمُود بن عُمر بن مُحَمّد بن

٦٠ . التَّـنبِيه وَالأشـرَاف . للـمَسعُودي . طَـبْعَة مُـصَوَّرَة عَـن الطَّـبْعَة الأُوروبِية . مَكْتَبَة خَيَّاط عَام ١٩٦٥ م . بَيْرُوت ـ لُبْنان ، وَكَذا طَبْعَة دَار الصَّاوي ـ

... سنة (١٣٦٦ هـ).

٦١. تحف العقول، لأبي محمّد الحسن بن عليّ الحرّاني المعروف بابن شعبة، ... النشر الإسلامي ـ قم، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ، وانتشارات جامعة ... وطبعة دار إحياء التراث العربيّ ١٤٠٦ هـ.

٦٢. التذكرة، لعبد الرحمان بن عليّ بن محمّد بن عليّ البكري الحنبلي ... (ابن الجوزي الحنفي)، طبعة حيدر آباد الدكن.

٦٣. ترجمة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، من تاريخ دمشق الكبير، لعليّ بن ... المعروف بابن عساكر، طبعة دمشق.

٦٤. ترجمة الإمام الحسين عليه السلام من كتاب الطبقات الكبير القسم الغير المطبوع، ... الأزهري (٢٣٠ هـ). تحقيق: السيّد عبدالعزيز الطباطبائي. نشر ... آل البيت لإحياء التراث. ١٤١٥ هـ.

٦٥. ترجمة الإمام الحسن عليه السلام من تاريخ دمشق الكبير (٥٧١ هـ)، تحقيق: ... باقر المحمودي. مؤسّسة المحمودي. (١٤٠٠ هـ).

٦٦. تفسير روح المعاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيّد محمّد الآلوسي، ... مكتبة المثنى بغداد ١٣٩٦ هـ.

٦٧. تفسير القرآن العظيم، (تفسير ابن كثير)، لإسماعيل بن عمر بن كثير ... البصري الدمشقي، (ت ٧٧٤ هـ). طبعة بيروت دار المعرفة ١٤٠٧ هـ، طبعة دار ... إحياء التراث العربيّ، طبعة دار صادر.

٦٨. تفسير البيضاوي، (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، لأبي سعيد عبدالله بن عمر الشيرازيّ البيضاويّ، طبعة دار النفائس ١٤٠٢ هـ، وطبعة مصطفى محمّد ـ مصر.

٦٩. تَفْسِير الكَشّاف، لأَبي القَاسم جَار الله مَحمُود بن عُمر بن مُحَمّد بن أَحمَد الزّمَخشري (ت ٥٣٨ هـ)، طَبعَة دَار المَعرفَة بَيرُوت، قُم، دَار البَلاَغَة.

٧٠. تَفْسِير الثّعلبي (الكَشف وَالبيَان فِي التّفسِير)، لأَحمَد بن مُحمّد بن إبرَاهِيم النّيسابُوري، (ت ٤٣٧ هـ)، مَطبُوع الجُزء الأَوّل عَلىٰ الحَجر، وَ (مَخطُوط) فِي مَكتبَة المَرعَشي النّجفي العَامَّة.

٧١. تَفْسِير الجَلاَلَين، لجَلاَل الدّين عَبد الرّحمَن بن أَبي بَكْر السّيوطي، طَبعَة القَاهرَة ١٣٦٤ هـ.

٧٢. تَقْرِيب التَّهْذِيب، مُحَمَّد بن حَبِيب البَغْدَادِي (ت ٢٤٥ هـ). تَحقِّيق: عَبدالوهَاب عَبداللطِّيف. طَبْعَة القَاهرَة (١٣٨٠ هـ).

٧٣. تِهذِيب التَّهذِيب، لأَبي الفَضل أَحمَد بن عَليّ بن حَجر العَسقلانيّ (ت ٨٥٢ هـ ق)، تَحقِيق: مُصطَفىٰ عَبد القَادر عَطا، طَبعَة دَار الكُتب العِلمِية الطَّبعَة الأُولىٰ ـ بَيرُوت ١٤١٥ هـ، وَمَطبعَة مَجْلس دَائرة المعَارف النّظامِية الهُند ١٣١٥ هـ، النّاشر، دَار صَادر بَيرُوت ـ مصَور مِن طَبعَة دَائرة المعَارف العُثمَانية، حَيدر آباد ـ الهِند ١٣٢٥ هـ.

٧٤. تَهْذِيب تَأرِيخ دِمشق الكَبِير لِابْن عسَاكر، الشَّيخ عَبدالقَادر رَيدرَان. دَار المَسيرة بَيْرُوت: لُبْنَان.

٧٥. تَهذِيب الأَحكَام، لأَبي جَعْفَر مُحَمَّد بن الحَسَن الطُّوسي (المُتوفّىٰ ٤٦٠ هـ)، تَحقِّيق الحُجَّة السَّيِّد حَسَن الخرسَان، الطَّبعَة الثَّالِثة، بَيْرُوت دَار الأَضوَاء عَام (١٤٠٦ هـ).

٧٦. تَهْذِيب الأَسمَاء وَاللُّغَات، يَحْيَىٰ بن شَرف مُحي الدِّين (ت ٦٧٦ هـ). طَبْعَة القَاهرَة (١٣٤٩ هـ).

٧٧. تَهْذِيب الكَمَال، يُوسُف بن عَبدالرَّحمَن المَزي (ت ٧٤٢ هـ). طَبْعَة دَار المَأمُون دِمشق، ومَطْبَعَة مُؤسَّسَة الرِّسَالة.

٧٨. تَهذِيب التَّهْذِيب: مُحمَّد بن حَبِيب البَغْدَادِي (ت ٢٤٥هـ) طَبْعَة حَيدر آبَاد (١٣٢٥ هـ).

٧٩. تَأرِيخ الأَنبِيَاءِ. السَّيِّد حُسين اللُّواساني. مَنْشُورات لوسَان. بَيْرُوت ـ لُبْنَان.

٨٠. تَيْسِير المَنَّان فِي تَفْسِير القُرآن أَحْمَد بن عَبدالقَادر بن أَحْمَد بن عَبدالقَادر. نُسْخَة خُطت سَنَة (١٣٥٠ هـ).

٨١. تَيْسِير المَطَالِب فِي أَمَالِي الإِمَام أَبِي طَالب. للنَّاطق بِالحَقّ أَبِي طَالب يَحْيَىٰ بن الحُسِين (٤٢٤ هـ/ ١٠٣٢ م). روَاية جَعْفَر بن أَحْمَد بن عَبدالسَّلام (٥٧٧ هـ/ ١١٧٧ م).

حَرْف الثَّاء

٨٢. الثُّقَات، لأَبِي حَاتِم مُحمَّد بن حبَّان بن أَحْمَد التَّمِيمِي البَستي، (٣٥٤هـ) الطَبْعَة الأُولىٰ، مَطْبَعَة مَجلس دَائِرَة المَعَارف العُثْمَانِيَّة بحَيدر آبَاد الدّكن، الهِند، عَام ١٣٦٩ هـ.

حَرْف الجِيم

٨٣. جَامع الأُصُول فِي أَحَادِيث الرّسول، لأَبي السّعادَات مَجد الدّين المُبَارك بن مُحمّد ابن مُحمّد المَعرُوف بِابن الأَثِير الشِّيبَاني الشّافعي، (ت ٦٠٦ هـ) طَبعَة الفَجَّالة مَصر ١٤٠٦هـ.

٨٤. جَامع البَيَانِ عَن تَأوِيل القُرَآن، أَبِي جَعْفَر مُحَمَّد بن جَرير الطَّبري (المُتوفَّى ٣١٠ هـ).

٨٥. الجَامع الصَّحِيح (سُنن التّرمذي)، لأَبِي عِيسَىٰ مُحَمَّد بن عِيسَىٰ بن سَورَة التّرمذي (ت ٢٩٧ هـ) تَحْقِيق: أَحْمَد مُحَمَّد شَاكر، دَار إحيَاء التُّرَاث، بَيْرُوت.

٨٦. الجَامِع الصَّحِيح (صَحِيح مُسْلِم) بشَرْح النَّووي، لمُسلم بن الحَجَّاج بن مُسْلِم القُشِيري النّيشابوري (ت ٢٦١ هق)، تَحْقِيق: مُحَمَّد فُؤَاد عَبد البَاقي، دَار الحَدِيث، القَاهِرَة، الطَّبْعَة الأُولىٰ ١٤١٢ هـ.

٨٧. الجَامِع الصَّغِير، فِي أَحَادِيث البَشِير النَّذير جَلاَل الدِّين عَبد الرَّحْمَن بن أَبِي بكر جَلاَل الدّين السّيوطي (ت ٩١١ هق)، الطَّبْعَة الأُولىٰ ـ القَاهِرَة ١٣٦٥ هـ.

٨٨. الجَامِع لأَحكَام القُرْآن، لأَبِي عَبد الله مُحَمَّد بن أَحْمَد القُرطبيّ (ت ٦٧١ هـ)، طَبْعَة الفَجَّالة القَدِيمة مَصْر.، والطَبْعَة الأُولىٰ، دَار إحيَاء التُّرَاث العَربي، تَصحِيح أَحْمَد عَبد العَلِيم البَرْدُوني.

٨٩. الجَامِع المختصر فِي عنوَان التَّوارِيخ وَعُيون السّير. عَليّ بن أَنْجَب ابْن السَّاعي (ت: ٦٧٤ هـ). تَحْقِيق: مُصْطَفىٰ جوَاد. طَبْعَة بَغْدَاد (١٩٣٤ م).

٩٠. الجَرح والتَّعدِيل، عَبدالرَّحمَن بن أَبِي حَاتم مُحَمَّد بن إدرِيس المُنذر (ت ٣٢٧ هـ). تَحْقِيق: عَبدالرَّحمَن المَعلَمي اليَمَاني. حَيدر آباد.

٩١. جوَاهر العِقدِين فِي فَضْل الشَّرفَين شَرف العِلْم الجَلي وَالنَّسب العَلي، لعَلي بن عَبد الله الحَسني السَّمهُودي (٨٤٤ ـ ٩١١ هـ)، تَحقِيق: الدّكتور مُوسىٰ بِنَاي العَلِيلي، مَطْبعَة العَاني بَغدَاد ١٤٠٥ هـ، نَشْر وزَارَة الأَوقَاف العرَاقِية.

٩٢. الْجَمَل، للشَّيخ المُفِيد. طَبْعَة الحَيْدَرِيَّة. النَّجف الأَشرَف. العِرَاق. سَنَة (١٣٨١ هـ.ق).

٩٣. جَمْهَرة أَنْسَاب العَرْب، عَليّ بن أَحْمَد بن جَزم (ت: ٦٥٥هـ). تـحْقِّيق: عبدالسَّلام هَارُون. طَبْعَة القَاهرَة (١٩٦٢ م).

٩٤. الجوَاهر المُضِيئة فِي طَبْقَات الحَنَفِية. عَبدالقَادر بن مُحَمَّد (ت ٧٧٥ هـ). طَبْعَة: حَيدر آباد (١٣٣٢ هـ). وتَحْقِّيق: عَبدالفتَّاح الحلو، طَبْعَة القَاهرَة.

حَرْف الحَاء

٩٥. الأَحْكَام السُّلطانِية، لأَبِي الحَسن عَليّ بن مُحَمَّد البَصري البَغْدَادِي المَاوَردي، الطَّبعَة الأُولىٰ مَصْر، ١٣١٩ هـ.

٩٦. الإِحكَام لِابْن حَزم، لعَليّ بن أَحْمد بن حَزم الأُندلسي، أَبُو مُحمّد، دَار الحَدِيث، القَاهرَة، ١٤٠٤ هـ، طَبْعَة ١.

٩٧. الإِحكَام للآمُدي، لعَليّ بن مُحمّد الآمدي، أبُـو الحَسـن، دَار الكـتَاب العَربي، بَيْرُوت ١٤٠٤ هـ، تَحقِّيق: الدّكتُور سيّد الجُمِيلي.

٩٨. الأَحكَام فِي الحَلاَل وَالحَرَام كتَاب السِّيرة (مَخْطُوط) للإِمَام يَحْيَىٰ بن الحُسِين ورَقه.

٩٩. الحَاكم فِي مَعْرِفَة علُوم الحَدِيث، لأَبِي عَبد الله مُحَمَّد بـن عَـبدالله بـن الحَاكم النّيشابوري (ت ٤٠٥ هـ)، طَبْعَة دَار الكِتَاب العَربِي.

١٠٠. حليَة الأَوليَّاء وطَبْقَات الأَصفيَاء، أَحْمَد بن عَبدالله. أَبُو نَعِيم الإِصبهَانِي (المُتوفّىٰ ٤٣٠ هـ).

١٠١. حَيَاة الصّحَابة، لمُحمّد بن يُوسف إليَاس الحَنفي الهِندي، طَبع لاَهُور.

١٠٢. حَيَاة الحَيوَان الكُبرىٰ، مُحَمَّد بن مُوسىٰ الدّميري (ت ٨٠٨ هـ). طَبْعَة المَكْتَبَة الإِسْلاَمِيَّة ـ بَيْرُوت.

١٠٣. الحيوان، للجاحظ. طبعة القاهرة ١٣٦٥ هـ، وكذا طبعة الحلبي من سنة (١٣٥٧ هـ).

١٠٤. الحماسة. هبة الله عليّ الشّجري (ت ٥٤٢ هـ). تحقّيق: عبدالمعين ملوحي وأسماء الحمصي. طبعة دمشق (١٩٧٠م).

١٠٥. حياة الصّحابة. محمّد يوسف الكاندهلوي. تحقّيق: عليّ شيري دار إحياء التّراث العربي. بيروت: لبنان.

حرف الخاء

١٠٦. الخرائج والجرائح، لأبي الحسين سعيد بن عبدالله الرّاوندي المعروف بقطب الدّين الرّاوندي (ت ٥٧٣ هـ)، تحقّيق ونشر: مؤسّسة الإمام المهدي عليه السلام - قم، ١٤٠٩ هـ.

١٠٧. خصائص أمير المؤمنين - ضمن السّنن، الحافظ النّسائي (٣٠٣ هـ) دار الكتب العلميّة - بيروت.

١٠٨. خصائص أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، للحافظ أبي عبدالرّحمن أحمد بن شعيب النّسائي. دار الكتاب العربي، بيروت: لبنان.

١٠٩. الخصائص الكبرى (كفاية الطّالب اللّبيب في خصائص الحبيب)، جلال الدّين السّيوطي. طبعة دار الكتاب العربي.

١١٠. خلاصة تذهيب تهذيب الكمال. أحمد بن عبدالله الخزرجي الأنصاري (ت ٩٢٣ هـ). طبعة بولاق (١٣٠١ هـ)، وكذا طبعة سنة (١٣٩١ هـ).

حرف الدّال

١١١. دَائِرَة مَعَارف القَرن العشرِين، مُحَمَّد فَريد وَجدي. دَار المَعْرفَة، بَيْرُوت.

١١٢. دَائِرَة المَعَارِف الإِسْلاَمِيَّة، نَقَلها إِلىٰ العَربِية مُحَمَّد ثَابت الفَندي وآخرُون. دَار المَعْرِفَة. بَيْرُوت ـ لُبْنَان.

١١٣. الدُّر المَنْثُور فِي طَبْقَات رَبَّات الخدُور، العَاملي ـ زَينَب (ت ١٣٣٢ هـ). طَبْعَة القَاهرَة (١٣١٢ هـ).

١١٤. الدُّر المَنْثُور فِي التَّفسِير بِالمَأثُور، جَلاَل الدِّين السّيوطي (ت ٩١١ هـ). دَار الفِكر بَيْرُوت: لُبْنَان.

١١٥. دَلاَئل النُّبوَّة، أَبُو نَعِيم أَحْمَد بن عَبدالله الأَصبهَاني (ت ٤٣٠ هـ). نَشر دَار الوَعي ـ حَلب (١٣٩٧ هـ).

١١٦. دَلاَئِل النُّبوَّة، أَبُو بَكر أَحْمَد بن الحُسَيْن البَيهقي (٤٥٨ هـ) نَشر دَار الوَعي حَلب ١٣٩٧ هـ.

١١٧. دُول الإِسلاَم، مُحَمَّد بن أَحْمَد بن عُثْمان الذَّهَبي: (ت ٧٤٨ هـ). تَحْقِّيق: فَهِيم مُحَمَّد شَلتُوت ومُحَمَّد مُصْطَفىٰ إِبرَاهِيم. طَبْعَة القَاهرَة (١٩٧٤ م).

١١٨. ديوَان أَمِير المُؤْمِنِين وَسيِّد البُلغَاء وَالمُتكلِمِين عَليّ بن أَبِي طَالب. النَّاشر: دَار النَّجْم. بَيْرُوت ـ لُبْنَان.

حرف الهاء

١١٩. الهِدَايَة الكُبْرَىٰ، لحُسِين بن حَمدَان للخُصيبي «٣٥٨ هـ»، طُبع سَنَة ١٤٠٦ هـ، مُؤسَّسَة البَلاَغ.

حرف الذال

١٢٠. الذُّرِيَّة الطَّاهِرَة، لمُحمَّد بن أحمَد الدّولابي (مَخطُوط)، وَتحقِيق: مُحمَّد جوَاد الجَلالي، مُؤسَّسة النَّشر الإسلامي ١٤٠٧ هـ.

١٢١. ذخَائر العُقبىٰ فِي مناقب ذَوي القُرْبَىٰ، لمحبّ الدّين أحْمَد بن عَبدالله الشّهير بالمحبّ الطّبري، (ت ٦٩٤ هق)، نَشره حُسام الدّين القُدسي بالقَاهرَة ١٣٥٦ هـ.

١٢٢. ذِكر أخْبَار إصبهَان، لأبِي نَعِيم أحْمَد بن عَبد الله الإصبهَانِي (ت ٤٣٠ هـ) تَحقِّيق سَيِّد كسرَوي حَسَن، دَار الكُتُب العِلْمِيَة، بَيْرُوت.

١٢٣. ذَيل المُذِيل فِي تأرِيخ الصَّحَابة وَالتَّابعِين لِابْن جَرِير الطَّبري مُلحق بأحد أجزَاءه مِن تأرِيخ الأُمم والمُلوك مُؤسَّسَة الأَعلَمي بَيْرُوت.

حرف الرّاء

١٢٤. رِبِيع الأَبرَار، لأَبي القَاسم جَار الله مَحمُود بن عُمر بن مُحمّد بن أحمَد الزّمخشري (ت ٥٣٨هـ).

١٢٥. رِجَال النَّجاشي، لأَبي العَبّاس أحْمَد بن عَليّ النَّجاشي تَحقِّيق مُحمَّد جوَاد النَّائِيني طَبْعَة دَار الأَضوَاء بَيْرُوت.

١٢٦. رَشفَة الصّادي مِن بحُور فَضَائل بَني الهَادي، لأَبي بَكْر بن شَهاب الدّين العَلوي، الحُسَيْنيّ الشّافعي، طَبع مَصر ١٣٠٣ هـ.

١٢٧. الرّوض الأُنف، لعَبدالرَّحمن بن عَبدالله السُّهيلي (٥٨١ هـ) تَحقِّيق طَه عَبدالرَّؤوف سَعد طَبْعَة القَاهرَة.

١٢٨. الرِّيَاض النَّضرة فِي فَضَائل العَشرَة، لمحِّب الدِّين الطَّبريّ الشّافِعِيّ (ت ٦٩٤ هق)، طَبْعَة بَيْرُوت ١٤٠٣ هـ، وَطَبْعَة ثَانِية فِي مَصْر، ودَار الغَرب

الإِسْلاَميّ بَيْرُوت ١٩٩٦ م ، تَحقِّيق : عِيسىٰ عَبدالله مُحمّد مَانع الحمْيَري .

١٢٩ . رَوضَات الجَنات فِي أحوَال العُلمَاء وَالسَّادات . مُحَمَّد بَاقر المُوسوي . الخوَانسَاري الأَصبهَاني .

١٣٠ . الرَّوْض النَّضِير شَرْح مَجْمُوع الفِقْه الكَبير ، لشَرف الدِّين الحُسِين بن أَحمَد بن صَالح السِّياغي : ١ / ٧٧ ، طَبع مَكْتَبة المُؤيد الطَّائف سَنَة ١٩٨٦ .

حَرْف الزَّاي

١٣١ . زَاد المَسِير فِي عِلم التَّفسِير لعَبدالرَّحمن بن الجَوزِي البَغْدَادي (٥٠٨ هـ) المَكتب الإِسْلاَميّ بَيْرُوت .

١٣٢ . زَاد المعَاد فِي هَدي خَير العِبَاد . مُحَمَّد بن أَبِي بَكر ابْن القِيم (ت ٧٥١ هـ) . تَحْقِّيق : شُعيب الأَرنَاؤط وعَبدالقَادر الأَرنَاؤط . طَبْعَة بَيْرُوت .

١٣٣ . الزُّهد ، الإِمَام أَحْمَد بن مُحَمَّد بن حَنبل (ت ٢٤١ هـ) . طَبْعَة دَار الكُتُب العِلْمِيَة ـ بَيْرُوت .

١٣٤ . الزَّيدِيَّة ، الدُّكتور أَحْمَد مَحمُود صُبحي . النَّاشر : الزَّهرَاء للإِعلاَم العَربي . القَاهرَة ـ مَصْر .

١٣٥ . الزَّيدِيَّة قِرَاءَة فِي المَشْرُوع ، وَبَحث فِي المُكونَات لعَبدالله بن مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل حَمِيد الدِّين ، مَركَز الرَّائد للدِّرَاسَات وَالبحُوث الطَّبعَة الأُولىٰ عَام (١٤٢٤ هـ) .

١٣٦ . الزَّيدِيَّة ، عَبدالله بن مُحَمَّد بن إِسمَاعِيل حَمِيد الدِّين ، طَبع مُؤسَّسة الإِمَام زَيد بن عَليّ الثَّقَافِية . العِلْمِيَة ـ بَيْرُوت .

حرف السين

١٣٧ . سُبل السّلام شَرْح بلُوغ المَرَام مِن جَمْع أدلة الأَحكَـام ، لمُـحَمَّد بـن إسمَاعِيل الكَحلاني ثُمَّ الصّنعاني اليَمني ، مَطْبعَة مُصطفىٰ البَابي الحَلبي وَأَوْلاَده بِمَصر ، الطّبعَة الرّابعَة ١٣٧٩ هـ.

١٣٨ . سُبل الهُدىٰ وَالرَّشاد ، لصَّالح الشَّامي . طَبْعَة مَصْر .

١٣٩ . سِرّ السِّلسِّلة العَلوية (مَخْطُوط) ، حيَاة الإمَام زَيد .

١٤٠ . سَفِينة البحَار ، المُسمَّىٰ سَفِينة بحَار الأَنوَار وَمَدِينة الحُكم وَالآثَار . عَبَّاس ابن مُحَمَّد رِضا القُمي . طَبْعَة النَّجف سَنَة ١٣٥٥ هـ.

١٤١ . السَّقِيفة (أو) أئِمَّة الشِّيْعَة ، سَلِيم بن قَيس الكـوفِي الهـلاَلي العَـامري (المُتوفّىٰ ٩٠ هـ). طَبْعَة مُؤسَّسَة الأَعلمي . بَيْرُوت ـ لُبْنَان .

١٤٢ . السُّنن الكُبرىٰ ، لأَبِـي بَكـر أَحْـمَد بـن الحُسَـيْن بـن عَـليّ البَـيهقي (ت ٤٥٨ هق) ، تَحقِّيق : مُحَمَّد مُحيي الدّين عَـبد الحَـميد ، دَار إحـيَاء التُّـرَاث العَربي ـ بَيْرُوت ١٤٠٥ هـ. وتَحْقِّيق : مُحَمَّد عَبد القَادر عَطا ، طَـبْعَة دَار الكُـتُب العِلْمِيّة ، الطَبْعَة الأُولىٰ ـ بَيْرُوت ١٤١٤هـ مُصَوَّرَة مِن دَائِرَة المَعَارِف العُـثمانِية ، حَيدر آبَاد الدّكن ١٣٥٣ هـ.

١٤٣ . سُنن ٱبْن مَاجه ، لأَبِي عَبد الله مُحَمَّد بـن يَـزيد بـن مَـاجه القَـزوِينيّ (ت ٢٧٥ هـ ق) ، تَحْقِّيق : فُؤاد عَبد البَاقي ، دَار إِحيَاء التُّراث ، بَـيْرُوت ، الطَـبْعَة الأُولىٰ ١٣٩٥ هـ. ونَشْر دَار الفِكر ، طَبْعَة ـ بَيْرُوت ١٣٧١ هـ.

١٤٤ . سُنن التّرمذي ، لأَبِي عِيْسَىٰ مُحَمَّد بـن عِـيْسَىٰ بـن سَـورة التّـرمذي (ت ٢٩٧ هـ) تَحقِّيق : أَحْمَد مُحَمَّد شَاكر ، دَار إِحيَاء التُّرَاث ، بَيْرُوت .

١٤٥ . سُنن الدَار قُطني ، لأَبِي الحَسَن عَليّ بن عُمر البَغْدَادِي المَعْرُوف بالدَار

قطني، (ت ٢٨٥ هـ) تحقيق: أبو الطّيب مُحمَّد آبادي، عالم الكُتب، بيروت، الطَبْعَة الرّابعة ١٤٠٦هـ، طَبْعَة بولاق بالقَاهرَة.

١٤٦. سُنن النّسائي، الحَافظ المُتوفَىٰ سَنَة (٣٠٣هـ). طَبْعَة دَار الكُتب العِلْمِيَة. بَيْرُوت ـ لُبْنَان.

١٤٧. سُنن أَبي دَاود، لأشعث السّجستانيّ الأَزديّ (ت ٢٧٥ هـ ق)، إعـدَاد وَتَعلِيق: عِزّت عَبد الدّعاس، طَبْعَة دَار الحَدِيث الطّبْعَة الأُوْلىٰ ـ حِمص ١٣٨٨ هـ وطَبْعَة مُصطفَىٰ البَابيّ ـ مَصْر ١٣٩١ هـ.

١٤٨. سِير أَعْلاَم النُّبلاء، مُحَمَّد بن أَحْمَد بن عُثْمان الذَّهَبي (ت ١٣٧٤ م). تَحقِّيق: مَجْمُوعة مِن البَاحثِين تَحت إشرَاف: شُعِيب الأَرنَاؤط. مُؤسَّسَة الرِّسَالة بَيْرُوت ـ لُبْنَان.

١٤٩. السِّيرة النَّبوِّية، لأَبِي مُحَمَّد عَبد المَلك بن هِشام بن أَيُوب الحمْيَري، (ت ٢١٣ أو ٢١٨ هـ ق)، تَحقِّيق: مُصْطفَىٰ السّقا، وإبرَاهِيم الأَنْبَاري، وعَبد الحَفِيظ شَلبي، مَكْتَبَة المُصْطفَىٰ، قُم، الطَبْعَة الأُولىٰ ١٣٥٥ هـ.

١٥٠. السِّيرة النَّبوِّية بهَامش السِّيرة الحَلبِية، لأَحمد بن زَيني بن أَحْمَد دَحلاَن (ت ١٣٠٤ هـ) طَبْعَة دَار الكِتَاب العَربِي بَيْرُوت ١٤٠٨ هـ.

١٥١. سِيرَة الهَادي إلىٰ الحَقّ يَحيَىٰ بن الحُسِين روَاية عَليّ بن مُحَمَّد بن عَبدالله العَبَّاسي العَلوي: تَحقِّيق سُهِيل زَكار، دَار الفِكر بَيْرُوت.

حَرْف الشِّين

١٥٢. شَذرَات الذَّهب فِي أَخبَار مَن ذَهَب، لأَبِي الفَلاَح عَبد الحَي المَعْرُوف بأبن العِمَاد (ت ١٠٨٩ هـ ق)، تَحقِّيق: الأَرنَاؤط، طَبْعَة ـ بَيْرُوت، ودِمشق

١٤٠٩ هـ، ونَشْر مَكْتَبَة القُدسي، القَاهرَة ١٣٥٠ هـ.

١٥٣ . شَرْح البَحر الرَّائق، لزَين الدّين بن إبرَاهِيم بن مُحَمّد المَعرُوف بأبن نُجيم المَصْري الحَنفي.

١٥٤ . شرَحْ الهَاشميَات، لمُحَمّد مَحمُود الرَافعي، الطّبعة الثّانية شَركة التّمدّن بمَصر، وَطَبعَة بَيرُوت ١٤٠٢ هـ.

١٥٥ . شَرْح نَهْج البَلاَغة، للشَّيخ مُحَمَّد عَبده، طَبْعَة دَار الكِتَاب العَربيّ ١٤٠٦ هـ، طَبْعَة الفَجَّالة الجَدِيدَة ـ مَصْر ١٤٠٣ هـ.

١٥٦ . شَرْح نَهْج البَلاَغَة؛ للخُوئيّ، طَبْعَة دَار الفِكر بَيْرُوت ١٤٠٦ هـ.

١٥٧ . شَرْح نَهْج البَلاَغة، لِابْن أَبِي الْحَدِيد المُعتَزليّ (ت ٦٥٦ هق)، تَحْقِّيق: مُحَمَّد أَبُو الفَضل، طَبْعَة ـ بَيْرُوت ١٤٠٩ هـ.

١٥٨ . شَرْح نَهْج البَلاَغَة، ابْن أَبِي الْحَدِيد، عَبدالحَمِيد بن هِبة الله (ت: ٦٥٥ هـ). طَبْعَة بَيْرُوت (١٣٧٤ هـ). وبتَحْقِّيق: مُحَمَّد أَبُو الفَضل إبرَاهِيم. طَبْعَة دَار إحيَاء الكُتُب العَربية ـ مَصْر.

١٥٩ . شَرْح شَافِيَة أَبِي فِرَاس فِي منَاقب آل الرَّسُول وَمَثَالب بَني العَبَّاس، طَبْعَة الهِند.

١٦٠. الشِّفَاء بِتَعرِيف حقُوق المُصْطَفَىٰ، لقَاضي أَحْمَد بن عَيَّاض بن مُحَمَّد بن عَبد الله ٱبن مُوسَىٰ بن عَيَّاض اليَحصبُي، أندلسِي الأَصْل، (٤٩٦ هـ ـ ٥٤٤ هـ) طَبْعَة بَيْرُوت.

١٦١. شَوَاهد التّنزيل لقوَاعد التّفضِيل، لأَبِي القَاسم عُبيد الله بن عَبد الله النّيسابوري المَعْرُوف بالحَاكم الحَسكَاني (مِن أَعْلاَم القَرن الخَامس، والمُتوفّىٰ بَعد سَنَة ٤٧٠ هـ)، تَحقِّيق: مُحَمَّد بَاقر المحمُوديّ، مُؤسَّسَة الطّبع والنّشر،

طهران، الطبْعَة الأُولى ـ ١٤١١ هـ.

١٦٢. شَرْح شَوَاهد المُغني. جَلاَل الدِّين السِّيوطي (ت ٩١١ هـ) طَبْعَة مَصْر سَنَة (١٣٢٢ هـ).

١٦٣. شَرْح المُوَاهب اللَّدنية لمحَمَّد عَبدالبَاقي الزَّرقاني (١١٢٢ هـ) دَار المَعْرِفَة بَيْرُوت.

١٦٤. شِفَاء العَلِيل. أَحْمَد بن مُحمَّد شهَاب الدِّين الخَفَاجي (ت ١٠٦٩). تَحْقِّيق: مُحمَّد بن عَبدالمُنعم خفَاجي. طَبْعَة القَاهرَة.

حَرف الصَّاد

١٦٥. صَحِيح البُخَاري، لأَبِي عَبدالله مُحمَّد بن إسْمَاعِيل بن إبرَاهِيم بن المُغِيرة الجَعفي البُخَاري، (ت ٢٥٦ هـ)، تَحْقِّيق: مُصْطَفىٰ دِيب البَغا، دَار ابْن كَثِير، بَيْرُوت، الطَبْعَة الرَّابعَة ١٤١٠ هـ، ومطْبَعَة المُصطفَائِي ١٣٠٧ هـ.

١٦٦. شَرْح صَحِيح البُخَاريّ، عَبد الله مُحمَّد بن إسْمَاعِيل، لَمحمُود بن أَحْمَد العَينيّ (ت ٨٥٥ هـ ق)، مطْبَعَة الفَجَّالة الجَدِيدَة ـ مَصْر ١٣٧٦ هـ.

١٦٧. صَحِيح التِّرمذيّ، لعِيسىٰ بن سَورة التِّرمذيّ، (ت ٢٩٧ هـ ق)، طَبْعَة بَيْرُوت ١٤٠٥ هـ. مطْبَعَة المَكْتَبَة السّلفية بالمَدِينة المُنورَة.

١٦٨. الصَّحِيح مِن سِيرَة النَّبيّ الأَعظمﷺ، السَّيِّد جَعْفَر مُرتَضىٰ العَامِلي. دَار الهَادي دَار السِّيرة. بَيْرُوت ـ لُبْنَان.

١٦٩. صَحِيح مُسْلِم، لأَبِي الحُسَيْن مُسْلِم بن الحَجَّاج القُشَيري النّيسابُوري، (ت ٢٦١ هـ ق)، تَحْقِّيق: مُحمَّد فُؤاد عَبد البَاقي، طَبْعَة ـ بَيْرُوت ١٣٧٤ هـ. دَار الحَدِيث ـ القَاهرَة، الطَبْعَة الأُولىٰ ١٤١٢ هـ، ودَار إحيَاء التُّرَاث العَربِي، بَيْرُوت.

١٧٠. صَفوَة الصَّفوة، لأَبِي الفَرج عَبدالرَّحمَن بن عَليّ الجَوزِي (٥٩٧ هـ). مُؤسَّسَة الكُتُب الثَّقَافِية. بَيرُوت: لُبْنَان. وبتَحْقِّيق: مَاخُوري قَلعَجي.

١٧١. الصَّوَاعِق المحرقة، لِابْن حَجر الهَيثمي (٩٧٤ هـ). تَحقِّيق: عَبدالوَهَّاب اللَّطِيف. مَكتَبَة القَاهرَة.

حَرف الطَّاء

١٧٢. طَبَقَات أَعْلَام الشِّيْعَة، للشَّيخ آقا بُزرك الطّهراني، مُؤسّسة إسمَاعِيليَان، قُم، الطَبْعَة الثَّانِيَة.

١٧٣. الطّبقات الكُبرىٰ، لُمحَمَّد بن سَعد الوَاقدي الزُّهري (ت ٢٣٠ هـ)، دَار صَادِر، بَيرُوت ١٤٠٥هـ، طَبْعَة أُوربا، طَبْعَة لَيدن.

١٧٤. طَبَقَات الشَّافِعِية، لعَبد الوَهَّاب بن عَليّ تَاج الدِّين السَّبكي (٧٧١ هـ)، تَحقِّيق: الحلو، والطّناحي، دَار إحيَاء الكُتُب العَربِية بالقَاهرَة ١٣٩٦ هـ.

١٧٥. طَبَقَات الحفّاظ، لعَبد الرَّحْمَن بن أَبِي بَكر جَلَال الدِّين السّيوطي (ت ٩١١هـ)، طَبْعَة بُولَاق.

١٧٦. طَبَقَات الحَنَابلة، لأَبِي يَعلىٰ، تَحقِّيق: مُحَمَّد حَامد الفَقي، مطَبْعَة السُّنَّة المُحَمَّدية.

١٧٧. طَبَقَات الفُقهَاء، لأَبِي إسحَاق الشّيرَازي الشَّافِعي (٣٩٣ هـ)، طَبْع دَار الرَّائد العَربِي، الطَبْعَة الثَّانِيَة ١٤٠١ هـ.

١٧٨. طَبَقَات المُفسّرين لعَلَاء الدّين مُحَمَّد بن هدَاية الله الحَسَني الخَيروي (ت ٩٦٧ هـ) (مَخْطُوط).

١٧٩. طَبَقَات المُفسِّرين، لعَبد الرَّحْمَن بن أَبِي بَكر جَلَال الدّين السّيوطي

(ت ٩١١ هـ)، أُخذ بالوَاسطَة.

١٨٠. طَبْقَات النُّحَاة، لعَبد الرَّحْمَن بن أَبِي بَكْر جَلاَل الدّين السّيوطي (ت ٩١١ هـ)، أُخذ بالوَاسطَة.

١٨١. طَبْقَات الفُقهَاء. إبرَاهِيم بن عَليّ الشّيرَازي، أَبُو إِسحَاق (ت ٤٧٦ هـ). تَحْقِيق: إِحسَان عَبَّاس. الطَبْعَة الثَّانِيَة ـ بَيْرُوت ١٩٨١م، وَكَذَلك طَبْعَة ـ بَغْدَاد.

١٨٢. طَبْقَات فُقهَاء اليَمَن وَرُؤساء الزَّمَن. عُمر بن عَليّ الجَعدي (ت بَعد ٥٨٦ هـ) ٱبْن أَبِي سَمرَة. تَحْقِيق: فُؤاد السَّيِّد. طَبْعَة القَاهرَة (١٩٥٧ م).

١٨٣. طَبْقَات المُعْتَزلة. أَحْمَد بن يَحْيَىٰ المُرتضىٰ. تَحْقِيق: سَوسنة دِيفلد فَلزر. النَّاشر فرَانز شنَاينز. المطْبَعَة الكَاثُوليكية. بَيْرُوت (١٣٨٠ هـ).

١٨٤. طَبْقَات النَّحويين وَاللّغويين. مُحَمَّد بن الحَسَن الزُّبيدي (ت ٣٧٩ هـ). طَبْعَة القَاهرَة (١٩٥٤ هـ).

حَرْف العَين

١٨٥. العِبر فِي خَبر مَن غَبر. الذَّهَبي مُحَمَّد بن أَحْمَد بن عُثْمان (ت ٧٤٨ هـ). بتَحْقِيق: الدُّكتُور. صَلاَح الدِّين المُنجد. بتَحْقِيق: فُؤاد السَّيِّد. طَبْعَة الكُويت (١٩٦٠ ـ ١٩٦٩م).

١٨٦. العَقِيدة وَالشَّرِيعَة فِي الإِسْلاَم، إجنَاس جولد تَسِيهر.

١٨٧. العِقد الفَرِيد، أَحْمَد بن مُحَمَّد بن عَبد رَبّه الأُندلسِي (ت ٣٢٨ هـ). دَار الكُتُب العِلْمِيَة. بَيْرُوت: لُبْنَان. وبتَحْقِيق أَحْمَد أَمِين وَجمَاعة، طَبْعَة القَاهرَة. وتَحْقِيق: مُحَمَّد سَعِيد العريَان.

١٨٨. عُمدَة الطَّالب فِي أَنْسَاب آل أَبِي طَالب، لِابْن عنبه أَحمَد بن عَليّ جمَال

الدِّين الحُسَيْنيّ (ت ٨٢٨ هـ) ، المَطْبَعة الحَيدرية النَّجف الأَشرَف عَام ١٣٨٠ هـ .

١٨٩ . عُيُون الأَثر ، لأَحمد بن عَبدالله بن يَحْيَىٰ المَشهُور بِٱبـن سَـيِّد ٱلنَّـاس (ت ٧٣٤ هـ ق) ، طَبْعَة دَار المَعْرِفَة ـ بَيْرُوت ١٤٠١ هـ ، طَبْعَة القُدسي ١٣٥٦ هـ .

١٩٠ . عُيُون أَخبَار الرِّضا ، لأَبي جَعْفر مُحَمّد بن عَليّ بن الحُسَيْن بن بَابوَيه القُمي المَعرُوف بِالشَّيخ الصَّدوق (ت ٣٨١ هـ) ، ، مَنشُورَات المَكتَبة الحَـيدرِية ، النَّجف الأَشرَف .

١٩١ . العِقد الثَّمِين فِي تَبيِين أَحْكَام الأَئِمَّة الهَادِين ، الإِمَام المَنْصُور بِالله عَبدالله ٱبن حَمْزَة اليَمَني (٥٦٦ ـ ٦١٤ هـ) ، تَحقِّيق : عبَّاس الوَجِيه ، صَدَر عَن مُؤسَّسة الإِمَام زَيد بن عَليّ الثَّقَافِيَة ..

١٩٢ . العِقد الثَّمِين فِي تأريخ البَلد الأَمِين . مُـحَمَّد بـن أَحْـمَد الفَـاسي (ت ٨٣٢ هـ) . تَحْقِّيق : السَّيِّد وَالطَّناحي . طَبْعَة القَاهِرَة .

١٩٣ . العِقْدُ الثَّمينُ في إِثبَاتِ وِصَايَةِ أَمِيرِ المُؤمِنِين للقَاضي الحَافظ الضَّابط المحَدث شَيخ الإِسْلاَم مُحَمَّد ٱبن عَليّ بن مُحَمَّد الشَّوكَانيّ اليمَانيّ الصَّـنعانيّ المُتوفّىٰ بِمَدِينة صَنعَاء فِي جُمَادَىٰ ٱلأَخِرَة سَنَة ١٢٥٠ هـ . بِتَحقِيقنا .

١٩٤ . العِلل ومَعْرِفَة الرِّجَال . أَحْمَدبن مُحَمَّد بن حَنبل (ت ٢٤١ هـ) . تَحقِّيق : الدُّكتُور طَلعت قُورج بَيكت ودَاود إِسْمَاعِيل جَرَاح أوغلي . طَبْعَة أَنقَره (١٩٦٣م) .

١٩٥ . عِلل الحَدِيث . عَبدالرَّحمَن بن مُحَمَّدبن إِدريس الرَّازي ، ٱبْن أَبِي حَاتم (ت ٣٢٧ هـ) . تَحْقِّيق : مُحب الدِّين الخَطِيب . طَبْعَة القَاهِرَة (١٣٤٣ هـ) .

١٩٦ . عُلُوم الحَدِيث (الفَلك الدَّوَار) . إِبرَاهِيم بن مُحَمَّد الوَزِير . تَحْقِّيق : مُحَمَّد يَحْيَىٰ سَالم عزَان . ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م . مَكْتَبَة التُّرَاث الإِسْلاَميّ . صَـعدَة ، دَار التُّرَاث . صَنْعَاء . ج . ي .

١٩٧. عُمدَة القَارىء (شَرْح صَحِيح البُخَاري). بَدر الدِّين مَحمُود بن أَحْمَد العَيني (٨٥٥ هـ). دَار إحيَاء التُّرَاث العَرَبي ـ بَيْرُوت.

١٩٨. العُمدَة. الحَسَن بن رَشِيق (ت ٤٥٦ هـ). تَحْقِّيق: مُحَمَّد مُحيي الدِّين عَبدالحمِيد طَبْعَة القَاهرَة.

حَرْف الغَين

١٩٩. الغَارَات، لأَبي إسحَاق إبرَاهِيم بن مُحَمّد بن سَعِيد المَعرُوف بآبن هِلال الثّقفي، مَنْشُورات أَنجمن آثَار ملّي ـ طَهرَان.

٢٠٠. الغَدِير فِي الكِتَاب والسُّنَّة والأَدَب، عَبدالحُسَيْن أَحْمَد الأَمِيني النَّجفي. ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م. دَار الكِتَاب العَربِي. بَيْرُوت ـ لُبْنَان.

٢٠١. غَـايَة النّـهَايَة. مُـحَمَّد بـن مُـحَمَّد الجَـزري (ت ٨٣٣ هـ). تَـحْقِّيق: برجستراسر. طَبْعَة القَاهرَة (١٩٣٢ م).

حَرْف الفَاء

٢٠٢. الْفِتْنَة الْكُبْرَىٰ عليّ وبَنُوه، للدّكتور، طَه حُسِين، طَبْع دَار الهِلاَل.

٢٠٣. فَتح البَاري شَـرْح صَـحِيح البُـخَاري، مُـحَمَّد بـن حَـبِيب البَـغْدَادِي (ت ٢٤٥ هـ). طَبْعَة بُولاق (١٣٠١ هـ). طَبْعَة السَّلفِية (١٣٩٠ هـ).

٢٠٤. فَتح البَاري شَرْح صَحِيح البُخَاري، لأَحمَد بن عَليّ بن مُحَمَّد بن حَجر العَسقلاَني، (ت ٨٥٢ هق)، النّاشر: دَار إحيَاء التُّرَاث العَربِي، بَيْرُوت، والمطْبَعَة السّلفية مَصْر ١٣٨٠ هـ، وتَحْقِّيق: عَبد العَزِيز بن عَبدالله بن بَاز ـ القَاهرَة ١٣٩٨ هـ

٢٠٥. اَلْفَتْح القَدِير (تَفْسِير)، لُمحَمَّد بن عَليّ الشّوكَاني، (ت ١٢٥٠ هـ)، دَار

إحياء التُّراث العَربِي، طَبْعَة دَار الكُتب العِلْمِيَة بيْرُوت ١٤٠٣ هـ.

٢٠٦. الفُتُوح، أَحْمَد بن أَعْثَمْ الكُوفِي. أجزاء. دائِـرَة المَـعَارِف الحَـيْدَرِيَّة. النَّجف ١٩٦٢ م / ١٣٨٢ هـ.

٢٠٧. فُتُوح البُلدان، أَحْمَد بن يَحْيَىٰ البَلاَذري (ت ٢٧٩ هـ). تَحْقِّيق: رَضوَان مُحمَّد رَضوَان. السَّعَادَة، القَاهرَة (١٩٩ م)، وَكَذا طَبْعَة (١٣١٩ هـ).

٢٠٨. الفَخري فِي أَنْسَاب الطَّالبِيين، للسِّيد عزّ الدِّين بن أَبِي طَالب إِسْمَاعِيل ابن الحُسَيْن. تَحقِّيق: السَّيِّد مَهدي الرَّجَائي. مَكْتَبَة آية الله العُظمىٰ المَـرعَشي. قُم (١٩٨٩ م / ١٤٠٩ هـ).

٢٠٩. الفِرْدُوس بِمَأْثُور الخِطَاب، لأَبِي شجَاع شِيرَويه بن شَهردَار بن شِيرَويه ابن فَنا خُسرو الدّيلمي الهَمدَاني (إلْكِيا) (ت ٥٠٩ هـ ق)، تَحقِيق: السَّـعيد بـن بَسيوني زَغلول طَبعَة دَار الكُـتب العِـلميَة بَـيرُوت، الطَّـبعة الأَولىٰ ١٤٠٦هـ، و ١٤١٩ هـ.

٢١٠. فرَائِد السِّمْطَين فِي فضَائِل المُرتَضىٰ وَالبَتُول والسّبطِين وَالأَئِـمة مِـن ذُرِّيتهم، لإِبرَاهِيم ابْن مُحمَّد بن المُؤيد بن عَبد الله الجُويني الحمُويني، (ت ٧٢٢ أو ٧٣٠ هـ ق)، تَحْقِّيق: مُحمَّد بَاقر المَحمُودي، طَبْعَة مُؤسّسة المَحمُودي بَيْرُوت ١٣٩٨ هـ.

٢١١. الفِقْه المَنسُوب للإِمَام الرّضاﷺ، مُؤسَّسة آل البَيْت ﷺ لإِحيَاء التُّرَاث، قُم، نَشْر المُؤتَمر العَالمي للإِمَام الرّضاﷺ ـ مَشهد المُقدس طَبْعَة (١٤٠٦).

٢١٢. فَيض القَدِير، لُمحَمَّد بـن عَـليّ الشّـوكاني، (ت ١٢٥٠ هـ)، طَـبْع دَار الصَّحَابَة.

٢١٣. فَيض القَدِير شَرْح الجَامِع الصَّغِير، لأَبِي زَكرِيا يَحْيَىٰ بن مُـحَمَّد عَـبد

الرّؤوف المَناويّ (ت ١٠٣١ هـ ق)، الطَبْعَة الأُولىٰ ـ القَاهرَة ١٣٥٦ هـ.

٢١٤. الفُصُول المُهمّة فِي مَعْرِفة الأَئِمَّة. عَليّ بـن مُـحَمَّد الصَّـبّاغ المَـالكِي (٨٥٥ هـ). مُؤسَّسَة الأَعلمي للمَطبُوعات ـ بَـيْرُوت. (١٤٠٨ هـ)، وَكَـذا طَـبْعَة الحَيْدَرِيَّة ـ النَّجف. الْعِرَاق عَام (١٣٨١ هـ)، وَكَذا طَبْعَة دَار الحَدِيث قُم.

٢١٥. الفَضَائل، لأَبي الفَضل سَدِيد الدّين شَاذان بن جِبريل بن إِسمَاعِيل بن أَبي طَالب القُمي (ت ٦٦٠ هـ)، طَبعَة دَار الكتاب العربيّ بَيرُوت ١٤٠٦ هـ، وَالمَطبعَة الحَيدرِية النَّجف الأَشرَف، الطَّبعة الأُولىٰ ١٣٣٨ هـ.

٢١٦. الفَقِيه (مَن لاَ يَحضَره الفَقِيه)، لأَبي جَعْفر مُحَمّد بن عَليّ بن الحُسَيْن بن بَابوَيه القُمي المَعرُوف بِالشَّيخ الصَّـدوق (ت ٣٨١ هـ)، طَـبعَة مُـؤسَّسة النَّشـر الإِسلاَمي قُم. مُؤسَّسة الأَعلمي ـ بَيرُوت، الطَّبعَة الخَامسَة ١٤٠٠هـ.

٢١٧. فَضَائل الصّحَابة، لأَبِي عَبدالله أَحْمَد بن مُحَمّد حَنْبل الشَّيبَانيّ (٢٤١ هـ)، تحقّيق: وَصي الله بن مُحمّد عبَّاس، دَار العِلم، الطَّبعَة الأُولىٰ ١٤٠٣ هـ، وَطَـبْعَة جَامعَة أُمّ القُرىٰ السّعودِية.

٢١٨. فَضَائل الخَمْسَة مِن الصّحَاح السِّتة، لمُرتَضىٰ الحُسَيْنيّ الفَيروز آبَادي، مُؤسَّسَة الأَعلمي للمَطبُوعات، بَيْرُوت، الطَبْعَة الثّالثَة ١٩٧٣ م.

٢١٩. فَتح القَدِير الجَامِع بَيْن فَني الرِّوَاية وَالدِّرَاية مِن عِلم التَّفسِير. مُحَمَّد بن عَليّ الشَّوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) بدُون ذِكر لرَّقم وتأرِيخ الطَّبع. طَبْعَة دَار المَعْرِفَة. بَيْرُوت ـ لُبْنَان.

٢٢٠. الفَهْرَست، لأَبِي جَعْفر مُحَمَّد بن الحَسَن المَـعرُوف بِـالشَّيخ الطّـوسيّ (ت ٤٦٠ هـ ق)، طَبْعَة ـ بَيْرُوت ١٤١٢ هـ.

٢٢١. فَيض القَدِير، لُمحَمَّد بن عَـليّ الشّـوكاني، (ت ١٢٥٠ هـ)، طَـبْع دَار

الصَّحَابَة .

٢٢٢. فوَات الوَفيَّات . مُحَمَّد بن شَاكر الكُتُبي (ت ٧٦٤ هـ) . تَحقِّيق : إحسَان عَبَّاس . طَبْعَة بَيْرُوت (١٩٧٣ م) .

٢٢٣. فِي رِحَاب أئِمة أَهْل البَيْت . مُحْسِن الأَمِين . طَبْعَة دَار التّعَارف . بدُون ذِكر لرَقم وتأرِيخ الطَّبع . بَيْرُوت ـ لُبْنَان .

حَرْف القَاف

٢٢٤. الفَلْسَفَة الإِسلاَميَّة في أَعمَال الفَيلسُوف الإِسْلاَميّ العَظِيم صَدر الدِّين الشِّيرَازي ، مُحَمد بن إِبرَاهِيم القوَامي الشِّيرَازي (٩٧٩ هـ ـ ١٠٥٠ هـ) .

٢٢٥ . فَلْسفَة التَّوحِيد وَالْوِلاَيَة ، الشَّيخ مُحَمَّد جوَاد مُغنيَّة .

٢٢٦. قَاموس الرِّجَال فِي تَحقِّيق روَاة الشِّيْعَة وَمُحدثِيهم ، لُمحَمَّد تَقي بن كَاظم التُّستري (ت ١٣٢٠ هـ) ، مُؤسَّسَة النّشر الإِسْلاَميّ ، قُم الطَبْعَة الثَّانِيَة ١٤١٠ هـ.

٢٢٧. القَامُوس المُحِيط ، لُمحَمَّد بن يَعقُوب الفَيروز آبَادي ، مطبَعَة مُـصْطَفىٰ البَابي الحَلبي القَاهرَة ، الطَبْعَة الثَّانِيَة ١٩٥٢ م .

٢٢٨. القَامُوس ، لُمحَمَّد مُرْتَضىٰ الزّبيديّ (ت ١٢٠٥ هـ ق) ، طَبْعَة دَار إِحيَاء التُّرَاث العَرَبي ـ بَيْرُوت ١٤٠٥ هـ.

٢٢٩. قصَّص الأَنبِيَاءِ . عَبدالوهَّاب النَّجار . طَبْعَة دَار إِحيَاء التُّرَاث العَـربِي . بَيْرُوت ـ لُبْنَان .

٢٣٠. القَول المُبِين فِي فَضَائِل أَهْل البَيْت المُطَهرِين : ، مُحَمَّد بن عَبدالله سُليَمان العزيّ ، طَبع مُؤسَّسة الإِمَام زَيد بن عَليّ الثَّقَافِية .

حرف الكاف

٢٣١. الكَافِي (الأُصُول) ، المطبَعَة الإسْلاَمِيّة . عَام (١٣٨٨ هـ. ق) . طَهرَان ، ثُمَّ طَبعَ سَنَة (١٣٧٧ هـ. ق) الحَيدرِي . طَهرَان ـ إيرَان .

٢٣٢. الكَامل فِي التَّأرِيخ ، لأَبِي الحَسَن عَليّ بن أَبِي الكرَام مُحمَّد مُحمَّد بن عَبدالكَرِيم الشَّيبَاني المَعْرُوف بِأبن الأَثِير (ت ٦٣٠ هـ). عُني بمرَاجَعة أُصـوله : نُخبَة مِن العُلمَاء . دَار الكِتَاب العَربِي . بَيْرُوت ـ لُبْنَان .

٢٣٣. كَنز العُمّال فِي سُنن الأَقوَال وَالأَفعَال ، لعَلاَء الدّين عَليّ المُتّقي أبن حُسَام الدّين الهِندي (ت ٩٧٥ هـ) ، تَصحِيح صَفوَة السّقا ، مَكْتَبة التُّرَاث الإِسـلاَمي ـ بَيْرُوت ، الطّبعة الأُولىٰ ١٣٩٧ هـ، وَطَبْع دَار الوَعي حَلب ١٣٩٦ هـ.

٢٣٤. كَشف الغُمَّة فِي مَعْرِفَة الأَئِمَّة ، لعَليّ بن عِيسَىٰ الإِربليّ (ت ٦٨٧ هـ) ، تَصحِيح هَاشم الرّسولي المَحلاتي ، دَار الكِتَاب الإِسْلاَميّ ، بَيْرُوت ، الطَبْعَة الأُولىٰ ١٤٠١ هـ، طَبْعَة تَبريز بدُون تأرِيخ .

٢٣٥ . كَشف المُرَاد ، لجمَال الدّين أَبِي مَنْصُور الحَسَن بن يُوسُف بن عَليّ بن المُطهر الحِلي (ت ٧٢٦ هـ) طَبْعَة دَار الفِكر ، ودَار إِحيَاء التُّرَاث بَيْرُوت .

٢٣٦. الكَشَّاف عَن حقَائق التّنزِيل وَعُيُون الأَقاوِيل فِي وجُوه التَّأوِيل . أَبِي القَاسم جَار الله مَحمُود بن عُمر الخوَارزمـي (٤٦٧ ـ ٥٣٨ هـ) وَمَـعه : حَـاشِية الجُرْجَانِي وكتَاب الإِنصَاف . ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م . دَار الفِكر . بَيْرُوت ـ لُبْنَان .

٢٣٧. كَشف الظّنُون . عَبدالرَّحمَن بن مُحمَّد بن إِدرِيس الرَّازي ، أبْن أَبِي حَاتم (ت ٣٢٧هـ) . طَبْعَة أستَانبُول (١٩٤١ م) .

٢٣٨. الكَافِي (الأُصُول) . المطبَعَة الإِسْلاَمِيّة . عَام (١٣٨٨ هـ. ق) . طَهرَان ، ثُمَّ طَبعَ سَنَة (١٣٧٧ هـ. ق) الحَيدرِي . طَهرَان ـ إيرَان .

٢٣٩. الكَامل فِي الضُّعفَاء. عَبدالله بن عَدي (ت ٣٦٥ هـ). تَحقِّيق: عَبدالمُعطي قَلعجي. طَبْعَة بيْرُوت ١٩٨٤ م.

٢٤٠. كتَاب الأُصُول، الإِمَام المُرتَضىٰ لدِين الله مُحَمَّد بن الإِمَام الهَادي يَحيَىٰ بن الحُسين بن الإمَام القَاسم بن إبرَاهِيم بن إسمَاعِيل بن إبرَاهِيم بن الإمَام الحَسَن ابن الإمَام الحَسَن بن الإمَام عَليّ بن أبي طَالب: (ت ٣١٠ هـ)، تحقِّيق: عَبدالله بن حمُود العزيّ، طَبْع مُؤسَّسة الإمَام زَيد الثَّقَافِيَّة.

٢٤١. الكُنىٰ وَالأَسمَاء. مُحَمَّد بن أَحْمَد الدّولاي (ت ٣١٠ هـ). طَبْعَة حَيدر آبَاد (١٣٢٢ هـ).

٢٤٢. الكُنىٰ وَالأَسمَاء. مُسْلِم بن الحَجَّاج (ت ٢٦١ هـ). تَقدِيم: مُطاع الطَّرابيشي. طَبْعَة دِمشق ١٩٨٤.

٢٤٣. اللُّباب فِي تَهذِيب الأَنسَاب. لِابْن الأَثِير صَاحب التَّأرِيخ. طَبْعَة مَصْر ١٣٥٦ ـ ١٣٦٩ هـ.

٢٤٤. الكَاشف المُختَصر المحتَاج إليهِ مِن تأرِيخ ابْن الدّبستي. مُحَمَّد بن أَحْمَد ابن عُثْمان الذَّهَبي (ت ٧٤٨ هـ). تَحقِّيق: مُصْطَفىٰ جوَاد. طَبْعَة بَغْدَاد (١٩٥١ ـ ١٩٧٧ م).

٢٤٥. كَشف الظّنون عن أَسَامي الكُتْب وَالفنُون، لمُصطَفىٰ بن عَبدالله القَسْطَنطِيني (ت ١٠٦٧ هـ ق)، طَبْعَة ـ القَاهرَة ١٣٨٩ هـ.

٢٤٦. كَشف الظّنون عن أَسْمَاء الكُتُب والفنُون، حَاجي خَلِيفة، مَنْشورَات مَكْتَبَة المُثنىٰ، بَغْدَاد.

٢٤٧. اللُّباب فِي تَهذِيب الأَنسَاب. لِابْن الأَثِير صَاحب التَّأرِيخ. طَبْعَة مَصْر ١٣٥٦ ـ ١٣٦٩ هـ.

٢٤٨ . كَيْفَ يَحيَا ٱلإِنْسَان» تَعْلِيق الفَيْلَفُوس الصِّينِي «لِين يُوتَانج».

حَرْف اللّام

٢٤٩ . اللُّبَاب، لأَبي السَّعَادَات مَجد الدّين المُبَارك بن مُحَمّد بن مُحَمّد المَعرُوف بِاَبن الأَثِير الشَّيبَاني الشّافعِي، (ت ٦٠٦ هـ)، طَبعَة بُولاَق.

٢٥٠ . لبُاب النّقول فِي أَسبَاب النّزول، لعَبد الرّحمن بن أَبي بَكْر جَلاَل الدّين السّيُوطي (ت ٩١١ هـ)، طَبعَة مُصْطَفىٰ البَابي الحَلبي.

٢٥١ . لسَان العَرَب، لأَبي الفَضل جمَال الدّين مُحَمَّد بن مُكرم بن مَنظُور الأَفرِيقي المَصْري، (ت ٧١١ هـق)، الطَبْعَة الأُولىٰ دَار صَادِر ـ بَيْرُوت ١٤١٠ هـ.

٢٥٢ . لسَان المِيزَان، لأَبِي الفَضل أَحْمَد بن عَليّ بن حَجر العَسقلاَنيّ (ت ٨٥٢ هـق)، تَحْقِّيق: عَادل أَحْمَد عَبد المَوجُود، وعَليّ مُحَمَّد مُعوض، طَبْعَة دَار الكُتُب العِلْمِيّة بَيْرُوت، الطَبْعَة الأُولىٰ ١٤١٦ هـ.

حَرْف المِيم

٢٥٣ . مَجْمَع الرِّجَال، لُمحَمَّد قَاسم بن الأَمِير مُحَمَّد الطّبَاطبَائي الحَسني الحُسيني القَهپائي (ت ١١٢٦ هـ)، تَحْقِّيق: ضيَاء الدّين الإِصبهَانِي، مُؤسَّسَة إسمَاعِيليَان، قُم.

٢٥٤ . مَآثر الإِنَافة فِي مَعَالم الخِلاَفة، لأَحمد بن عَبدالله القَلْقَشندي (ت ٨٢١ هـ) تَحقِّيق: عَبد السّتار فرَّاج، طَبْعَة عَالم الكُتب بَيْرُوت.

٢٥٥ . المِئة المُختَارة، لعَمرُو بن بَحر الجَاحظ بن مَحبُوب الكنَاني اللّيثي (ت ٢٥٥ هـ).

٢٥٦ . مَا أُنزِل مِن القُرآن فِي عَليّ ، لمُحَمّد بن العبّاس بن عَليّ بن مَروَان (الحجّام).

٢٥٧ . مَجمَع الزّوَائد وَمَنبع الفوَائد ، لعَليّ بن أَبِي بَكْر الهَيثميّ (ت ٨٠٧ هـق)، تَحقّيق : عَبدالله مُحمّد دَرويش ، طَبْعَة دَار الفِكر ، الطَبْعَة الأُولىٰ ـ بَيْرُوت ١٤١٢هـق)،مُصَوَّرَة عن طَبْعَة القُدسيّ ١٣٨٩ هـق ، طَبْعَة ـ القَاهرَة الثَّانِيَة بدُون تأرِيخ .

٢٥٨ . المَحَاسن ، لأَبي جَعْفر أَحمَد بن مُحمّد بن خَالد البَرقي (ت ٢٨٠ هـ)، تَحقِيق : السَّيِّد مَهدي الرَّجَائي ، المَجْمَع العَالمي لأَهل البَيْت ـ قُم ، الطّبعَة الأُولىٰ ١٤١٣ هـ.

٢٥٩ . المُخْتَصَر ، الحَسن بن سُليمَان الحِلي ، طَبعَة النَّجف الأَشرف .

٢٦٠ . المُحَلىٰ ، لأَبي مُحمّد عَليّ بن أَحمَد بن سَعِيد ابن حَزم الظَّاهري ، دَار الفِكر .

٢٦١ . مُروج الذَّهَب وَمَعَادن الجَوهر ، لأَبِي الحَسَن عَليّ بن الحُسَيْن المَسعُوديّ (ت ٣٤٦ هـق)، تَحقّيق : مُحَمَّد مُحييّ الدّين عَبد الحَميد ، مَطْبَعَة السّعادة ، الطَبْعَة الرّابعة ـ القَاهرَة ١٣٨٤ هـ.

٢٦٢ . مُسْتَدرك الوَسَائل وَمُسْتَنبط المَسَائل ، للشَّيخ المِيرزا حُسين النّوريّ ، طَبعَة طَهرَان نَاصر خسرُو .

٢٦٣ . المُستَدرك عَلىٰ الصَّحِيحَين ، لأَبِي عَبدالله مُحَمَّد بن عَبدالله الحَاكم النّيسابُوري ، دَار الكُتب العِلْمِيَة ـ بَيْرُوت ، الطَبْعَة الأُولىٰ ١٤١١ هـ، طَبْعَة حَيدر آبَاد .

٢٦٤ . مُسْنَد الإِمَام الرّضا عليه السلام ، المَنسُوب إِلىٰ الإِمَام الرِّضا ، مُؤسَّسة الإِمَام

المَهدي (عَجل الله تَعالىٰ فَرَجه) ـ قُم، الطَّبعَة الأُولىٰ ١٤٠٨ هـ.

٢٦٥. مُسْنَد الإمَام زَيد بن عَليّ زَين العَابدِين، جَمع عَليّ بن سَالم الصّنعانيّ، طَبعَة دَار الصَّحَابة ١٤١٢ هـ. طَهرَان دَار الكُتب الإسلاَميّة، الطّبعَة الثّانِية.

٢٦٦. مُسْنَد أَحْمَد، لُمحمَّد بن حَنبل الشّيبانيّ (ت ٢٤١ هق)، تَحقِّيق : عَبد الله مُحمَّد الدّرويش، طَبْعَة دَار الفِكر، الطَبْعَة الثَّانِيَة ـ بَيْرُوت ١٤١٤ هـ، طَبْعَة جَامعة أم القُرىٰ السّعودية، طَبْعَة دَار العِلم ١٤٠٣ هـ.

٢٦٧. مُسْنَد ابْن مَاجه، لُمحَمَّد بن يَزيد القَزوينيّ (ت ٢٧٥ هق)، تَحقِّيق : فُؤاد عَبد البَاقي، نَشر دَار الفِكر، طَبْعَة ـ بَيْرُوت ١٣٧١ هـ، دَار إحيَاء التُّرَاث، بَيْرُوت، الطَبعَة الأُولىٰ ١٣٩٥ هـ.

٢٦٨. مُسْنَد الطّيالسيّ، لسُليمان بن دَاود الطّيالسيّ (ت ٢٠٤ هـق)، طَبْعَة دَار صَادر ـ بَيْرُوت ١٤٠٢ هـ.

٢٦٩. المُوطّ الإمِام مَالك الأَصبحي الحِمْيَري. تَحقِّيق : مُحمَّد فُؤاد عَبدالبَاقي. المَكْتَبَة الثَّقافِية. بَيْرُوت ـ لُبْنَان بِالإضَافة إلىٰ طَبعَات أُخرىٰ، وَكَذا طَبْعَة القَاهرَة.

٢٧٠. مَصَابِيح السُّنَّة، البَغوي الشّافِعي، طَبع مُحمّد عَليّ صَبِيح.

٢٧١. مَطَالب السّؤول فِي مناقب آل الرّسول، لكمَال الدّين مُحمّد بن طَلحَة الشّافعي (ت ٦٥٤ هـ)، النَّجف الأَشرف، وَنُسخَة خَطيَّة فِي مَكتبَة المَرعَشي قُم.

٢٧٢. المُصنَّف، عَبدالرّزاق بن هَمَّام الصَّنعاني (٢١١ هـ). تَحقِّيق : حَبِيب الرّحمن الأَعظمي. مَنْشُورات المَجلس العِلمي، طَبْعَة بَيْرُوت سَنَة (١٣٩٠ هـ) وَمَا بَعدها.

٢٧٣. المَعَارف، لأَبي مُحمّد عَبد الله بن مُسْلم المَعْرُوف بِابن قُتَيبَة الدّينوريّ (ت ٢٧٦ هق)، حَقَّقه وَقَدمَّ لهُ ثَروت عُكَاشه : مَنشورَات الشَّرِيف الرّضيّ الطّبعَة

الأُولىٰ ١٤١٥ هـ.

٢٧٤ . مَعَالم التّنزيل ، لمُحَمّد الحُسَيْن بن مَسعُود الفرّاء البَغويّ (ت ٥١٦ هق) ، تَحقِيق : خَالد مُحَمّد العَك ، وَمروَان سوَار ، نَشر دَار المَعرفَة ، الطّبعَة الثّانِية ـ بَيرُوت ١٤٠٧ هـ.

٢٧٥ . مَعَالم العِترَة النّبوّية وَمَعارف الأَئِمَّة أَهْل البَيْت الفَاطمِية ، لأَبي مُحَمّد تَقيّ الدّين عَبدالعَزيز بن مَحمُود بن المُبارك بن الأَخضر الجنَابذي الحَنْبلي (٥٢٤ ـ ٦١١ هـ) ، (مَخطُوط) ، وَمَطبُوع فِي بَيرُوت ١٤٠٧ هـ.

٢٧٦ . مُعْجَم البُلدَان ، لأَبي عَبدالله شَهاب الدّين يَاقُوت بن عَبدالله الحَمويّ الرّوميّ (ت ٦٢٦ هـ) ، طَبعَة دَار إِحيَاء التّراث العَربيّ بَيرُوت الطّبعة الأُولىٰ ١٣٩٩ هق.

٢٧٧ . المُعجَم الصَّغِير ، لأَبِي القَاسم سُليَمان ابن أَحْمَد بن أَيُوب بن مُطير اللّخمي الشّامي الطّبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، تَحقِّيق : مُحَمَّد عُثْمان ، دَار الفِكر ، بَيرُوت ، الطَبْعَة الثَّانِيَة ١٤٠١ هـ.

٢٧٨ . المُعْجَم الأَوسَط ، أَبُو القَاسم سُليمان بن أَحْمَد الطَّبري (٣٦٠ هـ) . مَكْتَبَة المَعَارِف – الرّيَاض . الطَبْعَة الأُولىٰ (١٤٠٧ هـ) . قَام بإِخرَاجه : إِبرَاهِيم مُظفر وآخرُون . تَحت إِشرَاف : مَجْمَع اللُّغة العَربية ـ مَصْر .

٢٧٩ . المُعْجَم الكَبِير ، لأَبِي القَاسم سُليَمان بن أَحْمَد اللَّخمي الطّبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، تَحقِّيق : حَمدي عَبد المَجِيد السّلفي ، دَار إِحيَاء التُّرَاث العَربِي ، بَيرُوت الطَبْعَة الثَّانِيَة ١٤٠٤ هـ

٢٨٠ . المَغَازي ، لمُحَمّد بن سَعد الوَاقدي الزُّهري ، (ت ٢٣٠ هـ) ، تَحقِيق : الدّكتور مَارسُون جُونس ، مُؤسَّسة الأَعلمي للمَطبُوعات ، بَيرُوت ، وَطَبعَة مَصر ،

الدّار العَامرة .

٢٨١. المُغني ، لأَبِي مُحَمَّد مُوفق الدّين مُحَمَّد بن عَبد الله بن أَحْمَد بن قُدَامة المَقدسي (ت ٦٢٠ هـ) ، دَار الكِتَاب العَرَبِي بَيْرُوت ١٣٥٩ هـ ، طَبْعَة مُحَمَّد عَليّ صَبيح وَأَولاَده .

٢٨٢. المُغني ، لأَبِي مُحَمَّد عَبدالله بن أَحْمَد بن مُحَمَّد بن قُدَامة المَقدسيّ ، عَلىٰ مُخْتَصر لأَبِي القَاسم عُمر بن الحُسَيْن بن عَبد الله بن أَحْمَد الخَرقي مطَبْعَة المنَار ـ مَصْر ١٣٤٢ هـ .

٢٨٣. مُغني الُمحتَاج إلىٰ مَعْرِفَة معَاني أَلفَاظ المِنهَاج ، الشَرْح للشَّيخ مُحَمَّد الشّربيني الهجري ، دَار إحيَاء التُّرَاث العَربِي ، بَيْرُوت .

٢٨٤. مناَقب آل أَبِي طَالب ، لأَبِي جَعْفر رَشِيد الدّين مُحَمَّد بن عَليّ بن شهر آشُوب المَازندراني (ت ٥٨٨ هـ) ، المطَبْعَة العِلْمِيّة قُم ، طَبْعَة النَّجف الأَشْرَف .

٢٨٥. منَاقب أَمِير المُؤْمِنِين عَليّ بن أَبِي طَالب ، لُمحَمَّد بن سُليَمان الكُوفِي القَاضي (ت ٣٠٠ هـ) ، تَحْقِّيق : مُحَمَّد بَاقر الـمحمُودي ، مَـجْمَع إحـيَاء الثّـقافة الإِسْلاَميّ ، قُم ، الطَبْعَة الأُولىٰ ١٤١٢ هـ .

٢٨٦. مَنَاقب المغَازلي ، لأَبي الحَسن عَليّ بن مُحَمّد بـن مُـحَمّد الوَاسـطي الشّافعِي المَعرُوف بِأبن المغَازلي (ت ٤٨٣ هـ) ، إعدَاد : مُحَمّد بَاقر المَحمُودي ، دَار الكُتب الإِسلاَمية ، طَهرَان ، الطّبعَة الثّانِية ١٤٠٢ هـ .

٢٨٧. مقَاتل الطَّالبيِّين ، أَبُو الفَرج عَليّ بن الحُسَيْن بن مُحَمَّد القَرشي الإِصبهَاني الأُمـوري (٢٨٤ ـ ٣٥٦ هـ) . شَـرْح وتَـحْقِّيق : السَّـيِّد أَحْـمَد صَـقر . مُـؤسَّسَة الأَعلمي . بَيْرُوت ـ لُبْنَان .

٢٨٨. مَقتل الحُسَيْن عليه السلام ومَصْرع أَهْل بَيْتَه وَأَصحَابه بِكربلاَء (المُشتَهر : مَقتل

أبي مِخْنَف)، أَبُو مِخْنَف لوط بن يَحْيَىٰ. مَكْتَبَة العُلوم العَامة. البَحرين. مَكْـتَبَة الخَير. صَنْعَاء ـ ج. ي. (مُصور عن أَصل مَخْطُوط) يَقع فِي (١٤٤) صَفحَة.

٢٨٩. مَقْتل الحُسَيْن، لمُوفق بن أَحمَد المَكي الخوَارزمي الحَنفي (ت ٥٦٨ هـ)، تَحقِيق: مُحمّد السّماوي، مَكتبَة المُفِيد، قُم، وَطَبع مَطبعَة الزّهراء عليها السلام.

٢٩٠. مُنْتَخَب كَنز العُمَّال، عَليّ بن حسَام الدِّين بن عَبدالمَلك (٨٨٥ ـ ٩٧٥ هـ). دَار إحيَاء التُّرَاث العَربي. بَيْرُوت ـ لُبْنَان.

٢٩١. مَودّة القُربىٰ، للسَّيِّد عَليّ بن شَهاب الدّين الحُسَيْنيّ العَلوي الشّـافِعي الهَمدَاني، طُبع ١٩٩٠ م.

٢٩٢. مِيزَان الإعتدَال فِي نَقد الرِّجَال، لأَبِي عَبد الله مُحَمَّد بن أَحْمَد الذّهبي، (ت ٧٤٨ هـ ق)، تَحْقِّيق مُحَمَّد البَجَاوي، طَـبْعَة دَار المَـعْرِفَة للـطّبَاعَة والنّشـر بَيْرُوت ١٩٦٣ م، وطَبْع القَاهرَة ١٣٢٥ هـ، دَار الفِكر بَيْرُوت.

٢٩٣. المُعمّرون وَالوَصايا، لأبي حَاتم السّجستَاني (ت ٢٥٠ هـ)، تَحقِيق: عَبد المُنعم عَامر، الطَّبعَة المَيمَنية بمَصر ١٣٥٦ هـ.

٢٩٤. المِعيَار وَالموَازنة، لأَبي جَعْفر مُحمّد بن عَبدالله الإسكَافي (ت ٢٤٠ هـ)، تَحقِيق: مُحمّد بَاقر المَحمُودي.

حَرف النُّون

٢٩٥. النّهاية فِي غَرِيب الحَدِيث والأَثر، لأَبِي السّعادات مُبَارك بـن مُـبَارك الجَزري المَعْرُوف بأبن الأَثِير الشَّيبَاني الشَّافِعي (ت ٦٠٦ هـ)، تَـحْقِّيق: ظَـاهر أَحْمَد الزّاوي، مُؤسَّسَة إسمَاعِيليان، قُم، الطَّبْعَة الرّابعة ١٣٦٧ هـ.

٢٩٦. نُور الأَبْصَار فِي مَنَاقب آل بَيْت النّبي المُختَار، لمُؤمِن بن حَسَن مُؤمِن

الشّبلنجيّ (ت ١٢٩٨ هـ)، طَبْعَة دَار الكُتب العِلْمِيَة، بَيْرُوت، الطَّبْعَة الأُولىٰ ١٣٩٨ هـ.

٢٩٧. نُظم دُرر السِّمْطَين فِي فضَائل المُصطَفىٰ وَالمُرتَضىٰ وَالبَتُول والسِّبطين، جمَال الدّين مُحَمّد ابن يُوسف الزّرَندي، (٦٩٣ ـ ٧٥٠ هـ)، طَبع بَيرُوت، دَار الثّقافة للكتَاب العَربي ١٤٠٩ هـ.

٢٩٨. نهَايَة الإِرَب فِي فنُون الأَدَب، لشهَاب الدّين النّويريّ (ت ٧٣٢ هـ ق)، تَحْقِّيق: كمَال مَروَان طَبْعَة ـ القَاهرَة ١٢٤٩ هـ.

٢٩٩. نهَايَة الإِرَب فِي مَعْرِفَة أَنْسَاب العَرْب، لأَحمَد بن عَبدالله القَلقَشنديّ (ت ٨٢١ هـ ق)، نَشْر إدَارة البحُوث العِلْمِيَة، طَبْعَة ـ بَيْرُوت ١٤٠٢ هـ.

٣٠٠. نَشأَة الفِكر الفَلْسَفي فِي الإِسْلاَم الدّكتُور عَليّ سَامي النَّشار، القَاهرة دَار التّعارف سَنَة ١٩٨٥.

حَرْف الوَاو

٣٠١. الوَافِي، لُمحمَّد مُحْسِن بن مُرْتَضىٰ الفَيض الكَاشَانيّ، نَشْر مَكْتَبَة الإِمَام أَمِير المُؤْمِنِين عَليّ عليه السلام إصفهَان ١٤٠٦ هـ.

٣٠٢. الوَافِي بالوَفِيّات، لصَفيّ الدّين خَلِيل بن أَيبك الصّفدي، دَار النّشر فرانز شتانيز ـ قيسبادان.

٣٠٣. وَفِيّات الأَعْيَان وَأَنباء أَبْنَاء الزّمان، لشَمْس الدّين أَبِي العَبَّاس أَحْمَد بن مُحَمَّد البَرمكيّ المَعْرُوف بِابن خِلِّكان (ت ٦٨١ هـ ق)، تَحْقِّيق: الدّكتور إحسَان عَبَّاس، طَبْعَة دَار صَادِر ـ بَيْرُوت ١٣٩٨ هـ.

٣٠٤. وَسَائِل الشِّيْعَة إِلىٰ تَحصِيل مسَائل الشَّرِيعَة، مُحَمَّد بن الحَسَن الحرّ

العَاملي ، طَبْع مُؤسَّسَة آل الْبَيْت ١٤١٤هـ.

٣٠٥ . وَقعَة صِفِّين ، لنَصر بن مزَاحم المَنقريّ ، تَحْقِّيق وشَرْح عَبدالسَّلاَم هَارُون ، القَاهرَة ، الطَبْعَة الثَّانِيَة ونَشْر مَكْتَبَة السَّيِّد المَرعشيّ النّجفيّ قُم ١٣٨٢ هـ.

حَرف اليَاء

٣٠٦ . يَنَابِيع المَوَدَّة لذَوي الْقُرْبَىٰ ، لسُليمان ابن إبرَاهِيم القَندُوزيّ الحَنفيّ (ت ١٢٩٤ هـ) ، تَحْقِّيق : عَليّ جَمَال أشْرَف الحُسَيْنيّ ، طَبْعَة أُسوة الطَبْعَة الأُولىٰ ـ قُم ١٤١٦ هـ ، وَالطَّبْعَة الحَيْدَرِيَّة فِي النَّجَف الأَشْرَف .

٣٠٧ . اليَمَن عَبر التَّأرِيخ ، لأَحمَد حُسِين شَرف الدِّين ، الرِّيَاض مَطَابع الأُوفست ١٩٨٠م .

٣٠٨ . يَتِيمَة الدَّهر فِي محَاسن أَهْل العَصْر ، أَحمَد بن مُحَمّد بن إبرَاهِيم الثَّعلِبي النِّيسَابُوري ، تَحقِيق : مُحَمّد مُحيي الدِّين عَبدالحَمِيد ، دَار الكُتب العِلمِيّة .